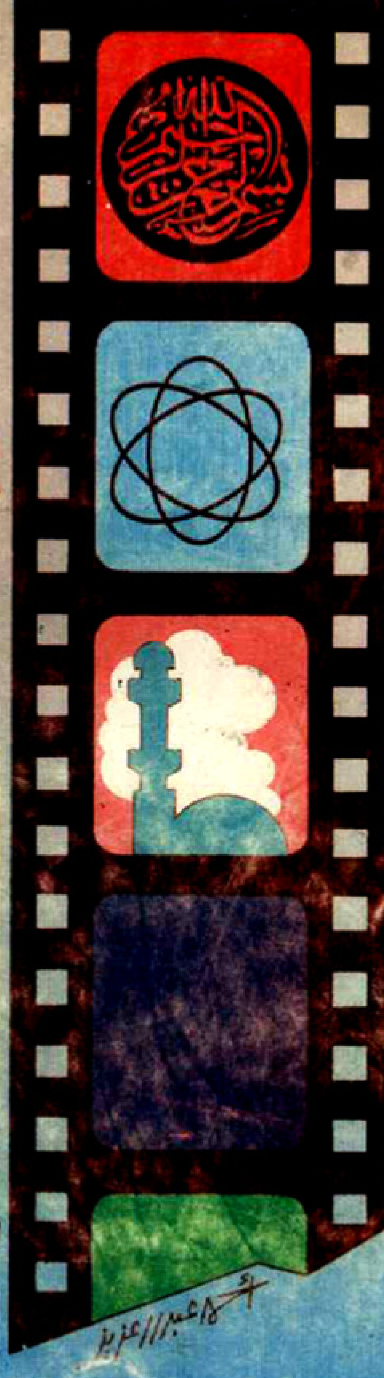
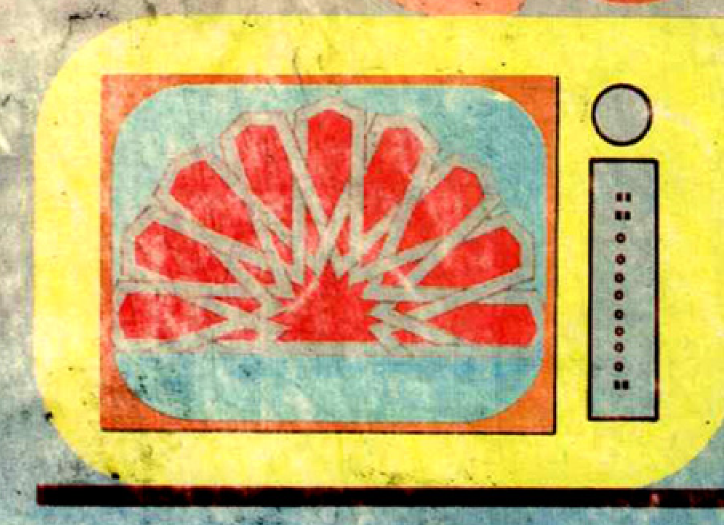
موسوعة العلوم الإسلامية





تاريخ الغزو الفكري والتغريب

خلال مرحلة ما بين الحربين العالميتين

١٩٢٠/١٩٤٠

أنور الجندي

دار الاعتصام

موسوعة العلوم الإسلامية

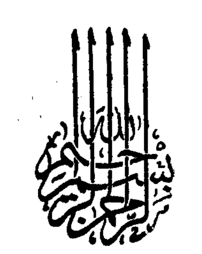


خلال مرحلة ما بين الحربين العالميتين

١٩٢٠/١٩٤٠

أنور الجندي

دار الاعتصام





خلال مرحلة ما بين الحربين العالميتين

١٩٢٠/١٩٤٠

ضوء على البحث ومراجعة لخطته
بعد مرور ربع قرن على كتابته الأولى

هــذا البحث يعد حجرا اساسيا من احجار (بناء منهج دراســة التغريب والغزو الثقــافى) لأنه يمثل دراسة دقيقة مستفيضة لحركة الفــكر العربى الاسلامى وهو العمل الذى شغلت به نفسى منذ اربعين عاما تقريبا (١٩٤٨ ــ ١٩٨٨) حيث كتبت أولى مقالاتى عــن قضية التغريب لانه يمثل دراسة دقيقة مستفيضة لحركة الفكر العربى الاسلامى (عربى اللغة اسلامى المضمون) خلال فترة مابين الحربين العــالميتين الأولى التى انتهت عام ١٩١٨ والثــانية التى بدأت عام ١٩٣٩ وقد توفرت على دراسة هــذه المرحلة بالتفصيل يوما بعــد يوم من خلال جريدة الاهرام فى الأساس وأنا متنبه للونها المــارونى الفرنسى فى هــذه الفترة بالاضافة الى المجلات الأسبوعية والشهرية خلال هــذه الفترة والتى تناولت بالبحث مختلف القضايا السياســية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية وكشفت عن الدور الذى قامت به حركة اليقظة الاســلامية فى مواجهة الأحــداث من خلال صحف متواضــعة جاهدة ولكنها لم تتوقف عن الرد على كل الشبهات ودحض السموم والكشف عــن الزيف الذى كانت توجهه أقلام لامعــة من خلال صحف واســعة الانتشار . كتبت هذا عام ١٩٦١ (بعد أن انتهيت من دراسة معالم الأدب العربى المعاصر الذى كان يكتب لأول مرة عن منطلق وحدته من المغرب الى العراق ، وقد وجدت اننى لابد أن أوســع دائرة دراستى فلا أتوقف عند العملين اللذين شــغلت بهما فى هــذه الفترة وهما : الأدب العربى وتراجم الأعلام ، فقد انتقلت من الفرع الى الأصل بمفهوم أن الأدب والتراجم هى قطاع من الفــكر الاسلامى وكان على أن استوعب العمل كله وكنت من قبل أعمل فى دائرة الدعوة الاسلامية ، وعندما فرضت ظاهرة القوميات انتفعت بها انتفاعا واسع النطاق فى دراسة الاسلام بوصفه ثقــافة وتاريخ وركزت تركيزا شديدا على محاولات الاستشراق والتبشير فى تزييف مفهوم الاسلام ، وكان مفهومى للعروبة سليما وصحيحا بوصفها حلقة من حلقــات العقد الجامع ومنطلقا للوصول بها الى الوحدة الاسلامية الجامعة ، كتبت هذا فى أشد أوقات استعلاء لمبدا القوميات بالكشف عن أصالة الاســلام فى التعليم والشريعة والثقافة والصحافة . ولذلك فانا حين أعود اليها اليوم ١٩٨٨ وبعد ربع قرن تقريبا أجد أن هناك بعض القضايا وقد تكشفت فيها جوانب جديدة فكان على أن اصحح موقفى منهــا دون أن يؤثر ذلك على منطلق فهمى الصحيح ومنهجى فى الأساس القائم على الايمان بالأصولية الاســلامية والعمل على مواجهة التحديات التى ساقها التبشير والتغريب والغزو الفكرى ومن هنــا فقد اثرت أن أجرد البحث من تلك الأخطــاء التى لم تكن قــد تكشفت لى فى أول الشوط وخاصــة وأن مذكرات هرتزل التى كشفت الغطاء عن مؤامرة الصهيونية ضــد السلطان عبد الحميد والدولة العثمانية قــد ظهرت بعد ظهور كتابى هذا تحت اسم (الفــكر

العربى المعاصر فى معركة التغريب والتبعية الثقافية) ومن هنا فقد انجاب كثير من الاتهام الظالم الذى كنا نخوض فيه دون وعى والذى عرفته جميع كتب التاريخ المقررة فى مدارسنا ومعاهدنا عن مظالم الدولة العثمانية واستبداد السلطان عبد الحميد وقد كان لنا أن نعرف أن المرحلة المضطربة التى يوجه فيها الى الاتهام الى الدولة العثمانية هى مرحلة تولى الاتحاديين للحكم بعد عزل السلطان عبد الحميد منذ ١٩٠٩ الى عام ١٩١٨ ، فالاتهامات التى توجه فى هذه المرحلة هى موجهة فى الحقيقة الى الاتحاديين الذين احتوتهم المحافل الماسونية ودفعوا الدولة العثمانية الى الدخول فى الحرب العالمية الأولى ، والذين سلموا طرابلس الغرب للايطاليين والذين فتحوا الطريق لليهود الى القدس بعد وقفة السلطان عبد الحميد الكريمة فى مقاومة مؤامرة هرتزل بكلمته الحاسمة له والتى كانت مصدر الحملة التى شنتها الصهيونية عليه بقصد هدم شخصيته فى نظر العرب توطئة لاسقاطه حتى وصف بالمستبد الأحمر وما روى عنه من اكاذيب .

وقد صححت موقفى من السلطان عبدالحميد بعد أن كشف خطورة مدحت والاتحاديين وقد ثبت ان الدولة العثمانية لم تكن مصدر التاخر او التخلف الذى كان يسود البلاد العربية وانما كان لذلك مصادر اخرى ، فضلا عن عظمة الدور الذى قامت به الدولة العثمانية فى حماية الوجود العربى من زحف الحملات الصليبية مرة أخرى بذلك الترابط الاسلامى الذى جمع الاتراك والعرب تحت لواء الخلافة الاسلامية . وقد صححت موقفى بان الأمة هى امة واحدة : هى الأمة الاسلامية وان المنطقة العربية هى وطن او كيان وانه ليس من المقبول القول بامة عربية وامة اسلامية او بامتين او اعطاء الوطن العربى اكثر من مكانه الصحيح فى دائرة الوحدة الاسلامية .

وكان خير ما قدم فى هذا المعنى ما رسمه الاستاذ الامام حسن البنا من تحديد الدوائر الثلاث : الوطنية والقومية والاسلامية وتكاملها كذلك فقد كان واضحا أن الوحدة العربية هى صيحة تجمع واخاء اتسع نطاقها فى الحقيقة بعد سقوط الخلافة الاسلامية كمحاولة الالتقاء حول هدف اصغر مع التنادى والتعاهد على اعادة الخلافة وقد كان ذلك مادة فى برامج جميع الحركات الاسلامية ، ولقد كان هناك تفريق واضح عميق بين مفهوم الوحدة العربية كما تحدث به رجال اليقظة الاسلامية وبين مفهوم القومية الوافد الذى دعت اليه بعض الأحزاب العلمانية مفرغا من العقيدة والتعارف الاسلامى جامعا بين العرب والترك والفرس والهند ... الخ .

وقد تغير رايى فى عدد من الشخصيات فى مقدمتها رفاعة الطهطاوى الذى لم يستوعب الخلاف العميق بين الفكر الاسلامى والفكر الغربى (والفرنسى) حين ظن أن ما يقدمه الفكر الغربى يمكن ان يقبل فى افق الاسلام كذلك صححت رايى فى دعوة عبد الرحمن الكواكبى بعد أن تبين أنه كان من دعاة خلافة عربية هى من أفكار الماسونية .

وكذلك صححنا موقفنا من قضية ما يسمى تحرير المراة والمؤامرة التى كانت وراء قاسم امين وصالون نازلى فاضل .

وقد كان موقفى من الصهيونية وانها واليهودية وجهان لعملة واحدة واضحا وقد اتهم هذا الموقف

اذ ذاك من بعض الموالين النفـوذ الحـاكم بأنه مضطرب حيث كانت تلك القوى المسـيطرة تفرق بين الصـهيونية واليهودية ، وقد تبين من بعـد صدق الوجهة التى ذهبنا اليها وفيما عدا ذلك فقد سار البحث فى طريقه الصحيح كاشفا عن وجهه (الفكر العربى الاسلامى) ويمكن القول أن البحث استطاع ان يجلى مجموعة من الحقائق :

أولا : الدفاع عن مفهوم الاسلام الصحيح : دين ودولة ونظام مجتمع ومنهج حيـاة فى وجه كل محاولات تصوير المجتمع الاسلامى على انه مجتمع انشطارى .

ثانيا : تجلية حقـائق الشريعة الاسلامية وعظمتها وما شهد لها به خصوم الاسلام من علماء الغرب فى وقت تعـالى فيه الدفاع عن القـانون الوضعى .

ثالثـا : الدفاع عن الوحدة الاسـلامية فى وقت علت فيه صـيحة القوميات والأقليـات والاستعلاء بالعنصر والعرق .

رابعا : دافعت دفاعا شـديدا صادقا عن مجموعة حقائق أبرزها دور الأزهر الشريف فى حماية مفهوم الاسلام الصحيح وموقفه الحاسم فى ثورات الحمـلة الفرنسـية وثورة ١٩١٩ ومواقفـه ازاء التغريب فى وجه على عبد الرازق وطه حسين .

خامسا : كشـفت واكدت ان اليقظـــة الاسلامية هى حقيقة اصيلة نابعة من قلب المجتمع الاسلامى وأن مصـدرها حركة الامام محمـد بن عبـد الوهاب وليس الحملة الفرنسـية ثم نماها المصـلحون من بعد حتى ارسـت وجهتهـا الى تصحيح المفـاهيم وكشف زيف مخططات التغريب والغـزو الفـكرى كمقدمة لتشـكيل ارادة الأمة الاسلامية فى بناء المجتمع الاسلامى على منهج الله تبارك وتعالى ..

* * *

توطئـــــة

تعرض الفكر العربى الاسلامى المعاصر فى تطوره الى معركة ضخمة : هى معركة التغريب والتبعيـــة الثقافية التى فرضها الاســتعمار مستهدفا تحطيم قيم الفكر العربى الاسلامى والقضاء على الملامح الأصـــيلة لشخصيته .

وقد وقف الفكر العربى الاسلامى من هذه المعركة موقف « التحدى ورد الفعل » ، ذلك أن الفكر العربى الاسلامى فى مطالع يقظته بالدعوة الوهابية انما كان يهدف الى التحرر من التقليد والجمود فى الفكر والاستبداد فى السياسة عن طريق تحرير الفكر العربى الاسلامى من الزيوف التى دخلت اليه خلال فترة الضعف التى مر بها العالم الاســلامى ، غير أن العالم العـــربى الاسلامى سرعان ما واجه أول حملة عسكرية غربية بعد الحروب الصليبية هى الحملة الفرنسية ، ومن ثم بدأت معـــركة الاستعمار الفرنسى البريطانى التى أدت الى احتـــلال أغلب أجزاء العالم العربى والســـيطرة عليه وفرض الثقافة الغربية عليه ، ومن هنا بدأت (معركة التحدى ورد الفعل) التى واجهها الفكر العربى الاسلامى فى قوة وحيوية واستطاع بعد ١٤٠ عاما (١٧٩٨ ـــ ١٩٣٩) تحقيق انتصار واضح اعترف به خصوم العرب والمسلمين وعبر عنه مستر جب المستشرق الانجليزى حيث قال :

« ان المسلمين الغيورين يسلكون سبيلا وسطا ، فيأخذون خير ما فى الشرق وخير ما فى الغـــرب ، وبدأ ينفضون عنهم غبار العصور الوسطى ، ويحمون الاسلام من قوى المدنية الغربية المدمرة ، ولن يستطيع العرب ان يقطعوا صلتهم بالماضى كما قطعها الأتراك ، ولما كان الاسلام جزءا لا يتجزأ من الماضى فليس فى وســع المثل العربى الا على أن يتجرد منه تجردا تاما » .

نعم ، لقد دخل الغرب هذه المعركة بكل اسلحته، فحاول التأثير فى التعليم والسياسة والمجتمع واللغـــة العربية والصحافة والدين ، وعمد الى السخرية بتاريخ وأمجاد الأمة العربية الاسلامية وخلق نظريات القضاء على القيم والمثل العليا وخلق عملاء للثقافة الغربية ، وحاول عن طريق المستشرقين ومن تابعهم من المفكرين العرب نشر عديد من الأخطاء والشكوك والشـــبهات واستغلال روايات موضوعة لتصـــوير تاريخ العرب والاسلام واللغة العربية بصورة مزرية .

وحاول الغرب انكار فضل الاسلام على الثقافـــة والحضارة الحديثتين وكذلك انكار فضــــل مصر على حضارة اليونان ، كما عمد الى تغليب اللغات والثقافات الغربية على اللغة العربية ، عن طريق حملات التبشير بالارساليات والمدارس وتحوير أنظمة التعليم والسيطرة على الصحافة واستعان فى ذلك بقسوة النفوذ الأجنبى والامتيازات الأجنبية ، وعمل فى سبيل تحطيم القـــوى المعنوية للأمـــة العربية فرفض البغاء والخمر والمخدرات وجرى عزل جامعات الأزهـــر والقرويين والزيتونة عن العمل حتى يتحقق للاستعمار عن طريق التعليم المدنى تنفيذ نظريات ابعاد الدين عن التعليم وخلق منـــاهج لا هدف لها الا تخـــريج موظفين يعملون تحت اشراف رؤساء أجانب على حد قول كرومر (رأس انجليزية وأيد مصرية) .

وحرص الغرب على أن يقدم لنا من الحضـــــارة الجوانب المتصلة بالغرائز والترف وارضاء الأهواء بغية تحطيم المجتمع العربى وبث روح الفســـاد فيه وتمزيق كيانه .

وجرى الزعم بأن المدنية الغربية كل لا يتجـــزأ ، فاما أن تؤخذ كلها أو تترك كلها ، وكانت هذه مغالطة واضحة فى التفريق بين الثقافة والحضارة والأولى تمثل القيم والمشاعر وهى لا تنقل ، والثانية تمثـــل الماديات والمخترعات والمكتشفات وهى ما يمكن نقله دون قيد .

وقد عمد دعاة التغريب الى اثارة الشكوك حول

الدين وحول الاسلام بالذات بحسبانه القوة الموجهة التى كانت دائما عاملا فعالا فى مقاومة العبودية والاستسلام .

وقد واجه الفكر العربى الاسلامى هذه المعركة الخطيرة فى قوة ، وكانت نظرية (المقاومة ورد الفعل) التى حمل لواءها الفكر العربى الاسلامى قائمة على أساس المقاومة والتجديد والاجتهاد والمحافظة على الأسس وعدم الاستسلام . وكشف الفكر العربى الاسلامى طوال هذه الفترة عن حقيقة واضحة هى : أن الحضارة الانسانية القائمة الآن ليست من عمل الأوربيين وحدهم بل هى من عمل جميع الشعوب التى شاركت فى المدنية منذ قرون ، فالورق من الصين ، والأرقام من الهند والكتابة من مصر وفينيقية .

وقد كان لهذه المقاومة اثرها عن تحول عدد كبير من عملاء الثقافة الغربية فى العالم العربى من الايمان بالحضارة المعاصرة الى الكفر بها ومن ثم عادوا يبحثون عن وسائل النهضة على اساس من تراثنا الاسلامى والعربى .

كما كشفت الأحداث عن فشل الدعوات والنظريات الغربية فى بلادها واعلن كتاب وفلاسفة غربيون منصفون ان الفلسفة المادية الغربية وما استندت اليه من علومها الكونية قد عجزت عن تحقيق مجتمع سليم فى الغرب ومفهوم انسانى واضح ، ودعا الكثيرون الى ضرورة تطعيم الحضارة المادية بروحانية الشرق .

وكان الراى السائد هو أن المنطقة العربية الاسلامية ليست مادية خالصة او روحية خالصة ، وانما تؤمن بالامتزاج بين الروحية والمادية ، وكان من اكبر اخطاء دعوة التغريب : نقل النظريات التى طبقت على المسيحية لتطبيقها على الاسلام مع الاختلاف الواضح فى موقف كل منهما من الحضارة والعلم ، وقد كشف البحث عن ان اليقظة الفكرية العربية بدأت قبل الثورة الفرنسية والحملة الفرنسية ، وان العرب قد استيقظوا قبل ان يوقظهم الغرب واحسوا بحاجتهم الى تجديد تفكيرهم وحياتهم قبل ان تغزو حملات الغرب شواطىء بلاد العرب .

وقد انتهت هذه المعركة بفشل نظرية (التغريب الكامل) واثبتت المعركة حيوية الشخصية الاسلامية وقدرتها على المقاومة ومواجهة الأحداث والتطور ، والاقتباس دون القضاء على الملامح الأصلية للشخصية الاسلامية ، على ضوء تجربة سابقة للغرب ، فهم قد اخذوا فى الماضى عن اليونان والفرس ولم يفقدوا شخصيتهم ، وتأكد الغرب بأن العرب لن يتخلوا عن ماضيهم ولن يقيموا فكرهم الحديث الا على اساس من قيمهم العربية الاسلامية الأصيلة .

وقد احس الاستعمار بأن المعركة أوشكت ان تنتهى بانتصار الفكر الغربى فحاول بعد الحرب العالمية الثانية تجديد اسلحته وتقدم ليدخل معركة اخرى بعد عام ١٩٤٦ أشد هولا ، وقد بدأت أسلحته تزداد حدة وعنفا وهذا هو موضوع دراستنا فى المرحلة القادمة .

***

وبعد فهذه دراسة سريعة شاملة لتطور الفكر العربى الاسلامى المعاصر تصور مواجهته لمعارك التغريب والتجزئة والتبعية الثقافية فى خلال المرحلة فيما بين الحربين ١٩١٩ — ١٩٣٩ فى مجال المسائل الكبرى : التعليم والسياسة والمجتمع والمرأة والقومية العربية واللغة العربية والصحافة والدين .

وهى تكشف فى صراحة وصدق عن جميع المعالم والتيارات والحركات التى اشتملتها فى هذه المعركة فى خلال هذه الفترة الدقيقة الحرجة ، فترة ما بين الحربين العالميتين .

واعتقد ان هذه هى الدراسة التمهيدية للكشف عن هذه الفترة التى يمكن أن توصف بأنها كانت المحاولة لوضع اسس بناء الفكر الاسلامى والثقافة العربية والمجتمع العربى ، وكل ما يمكن أن توصف به هذه المعركة فى كلمات : ان الفكر العربى الاسلامى لم ينهزم بالرغم من القوى والأسلحة والمؤامرات التى تجمعت للقضاء عليه . وانه استطاع أن يقاوم بقوة وعنف وأن يكشف عن اصالة وحيوية وقدرة على التطور والتلقى والاقتباس مع الاحتفاظ بمعالمه الأصيلة .

انور الجندى

***

مواقف حاسمة

فى تاريخ الفكر العربى المعاصر

(١٠٩٦ — ١٢٩١) الحروب الصليبية :

١٧٤٣ .... الوهابية (١٨٠٣ الاستيلاء على الحجاز)

١٧٥٠ .... تركيا دولة الرجل المريض .

١٧٨٩ .... الثورة الفرنسية .

١٧٩٥ .... ثورة المصريين على ظلم الأمراء وتوقيع وثيقة حقوق الانسان العربية .

١٧٩٧ .... الحملة الفرنسية .

١٨٣٠ .... احتلال فرنسا للجزائر .

١٨٣٩ .... احتلال بريطانيا لعدن .

١٨٤٢ .... ثورة الدروز والمارون (اعادة تنظيم لبنان ١٨٦٠) .

١٨٤٣ .... ثورة « السنوسية » فى طرابلس .

١٨٥٠ .... نظرية داروين .

١٨٥٤ .... انشاء قناة السويس — افتتاحها ١٨٦٩

(١٨٦٣ — ١٨٨٠) حكم اسماعيل والديون .

١٨٧٠ .... « المهدية » فى السودان (القضاء على المهدية ١٨٩٦) .

١٨٧١...... ...... جمال الدين الأفغانى فى مصر .

١٨٧٥ .... المحاكم المختلطة فى مصر .

١٨٧٥ .... شراء بريطانيا لأسهم مصر فى القناة .

١٨٧٦ .... الدستور العثمانى الأول .

١٨٧٩ .... خلع اسماعيل .

(١٨٧٦ — ١٩٠٩) السلطان عبد الحميد (فترة حكمه)

١٨٨١ .... احتلال تونس .

١٨٨٢ .... الثورة العرابية فى مصر والاحتلال البريطانى .

١٨٨٣ .... (نظرية ماركس) .

١٨٩٥ .... وزارة مصطفى فهمى « تصفية مصر » .

١٨٩٨ .... قاسم امين يعلن دعوة تحرير المراة .

١٩٠٠...... ...... « نظرية فرويد » .

١٩٠٤ .... الاتفاق الودى بين بريطانيا وفرنسا .

١٩٠٦ .... دنشواى — وخروج كرومر (١٨٨١ — ١٩٠٧) .

١٩٠٨ .... سيطرة الاتحاديين .

١٩٠٨ .... انشاء « الجامعة المصرية » .

١٩٠٩ .... خلع عبد الحميد .

١٩١١ .... احتلال ليبيا .

١٩١٢ .... احتلال مراكش .

١٩١٣ .... مؤتمر باريس « أول مؤتمر عربى » .

١٩١٤ .... الحرب العالمية الأولى واعلان الحماية على مصر (١٩١٤ — ١٩١٨) .

١٩١٦ .... الثورة العربية الأولى (الشريف حسين)

١٩١٧ .... الثورة الشيوعية فى روسيا وخلع القيصر .

١٩١٧ .... احتلال العراق .

١٩١٧ .... وعد بلفور .

١٩١٩ .... ثورة مصر .

١٩٢٠ .... ثورة العراق .

١٩٢٠ .... انشاء « بنك مصر » .

١٩٢١ .... تركيا تهزم اليونانيين .

١٩٢٢ .... الكتشاف قبر « توت غنخ آمون » .

١٩٢٣...... ...... اعلان الجمهورية التركية والغاء السلطنة

١٩٢٣ .... بدء الفاشية والنازية فى أوربا (ايطاليا والمانيا) .

١٩٢٣ .... انشاء الاتحاد النسائى .

١٩٢٤ .... الغاء الخلافة (٣ مارس ١٩٢٤) .

١٩٢٥ .... ثورة سوريا .

١٩٢٦ .... تولى السعوديين حكم الحجاز .

١٩٢٨ .... الحروف اللاتينية بدلا من العربية فى تركيا .

١٩٣٦ .... معاهدة (١٩٣٦) فى مصر .

١٩٣٩ .... اندلاع الحرب العالمية الثانية (انتهت ١٩٤٥) .

مدخــــل

تأثر الفكر العربى الاسلامى المعاصر بعوامل متعددة كانت بعيدة المدى فى يقظته وتطوره ويمكن اجمال هذه العوامل فى عبارة واحدة هى « التحدى والاستجابة » او التحدى ورد الفعل .

فقد كان الفكر العربى الاسلامى الى ما قبـــل اصطدامه بالغرب الزاحف يعيش حياة منبتة يغلب عليها الركود والضعف والانطواء .

وكان هذا طبيعيا بالنسبة للجمود الذى خيم على العالم الاسلامى كله نتيجة للمرحلة التى كانت تمر بها الدولة العثمانية فى خلال القرون الثلاثة الأخيرة بعد ان دخلت هذه الدولة مرحلة الضعف الذى وصفت فيــه « بالرجـل المريض » وهى نفس القرون الثلاثة التى استيقظت فيها أوربا ودخلت خلالها معركة النهضةالتى سيطرت فيها على العام وانفصلت عن الكنيسة وتحررت من المسيحية ودعت الى العلم التجريبى ونظرياتالمادية والجنس ، ثم كانت الثورة الفرنسية (١٧٨٩) التى اعتبرتها أوربا قمة انتصاراتها فى مجال الحرية وفىخلال ذلك ظهرت عوامل الاحتكاك بين الشرق والغرب التى بدأت بالاستكشافثم تطورت الى التجارةالى الاستعمار .

وكان هذا الاحتكاك هو المعركة الثانية بين الشرق والغرب بعد مضى اربعـــة قرون على نهاية الحــروب الصليبية (١٢٩١) وقد كانت الحملة الفرنسية علىمصر هى اول حركة استعمارية للعالم العربى (١٧٩٨) .

كان لهــذا الاصطدام بين العالم العربى واوربا « بداية الاستجابة للتحدى » ، بل يمكن القول بأن اليقظة الفكرية العربية بدأت قبل الحملة الفرنسية بأكثر من اربعين عاما ، عندما بدأت أول حــركة فكرية عربية اسلامية هى « الوهابية » عام ١٧٥٧ كرد فعل على انهيار تركيا العثمانية وجمودها ومقاومة للجمود الذى ران على التفكير العربى الاسلامى .

هنا بدأت هذه المعركة التى نطلق عليها « التحدى والاستجابة » ، كانت الحملة الفرنسية فى أوائل القرن التاسع عشر هى بدء هذه المعركة الضخمة التى ما تزال ممتدة حتى اليوم : معركة التحدى ورد الفعل .

كانت الحضارة التى حملها الاستعمار معه باهرة مثيرة فتح الوطن العربى عينه عليها ، فاضطرب فترة حيث التقت بالضــوء بعــد الظلام الطويل ثم لم يلبث أن واجهها ولم يتقبلها الا بتحفظات .

وقد حل الاستعمار معه حضارته وثقافته الىالعالم الاسلامى كسلاح من اسلحة الغزو والاحتلال ، بل لعلها قمة الأسلحة الضخمة البعيدة المدى بعد اسلحة الغزو العسكرى ، اذ كانت الأداة التى حرص الاستعمار على استعمالها لتأكيد الغزو والاقرار بقائه فى المناطق التى احتلها ، فقد رسم الاستعمار خطته على اساس أنيقضى على الحياة الفكرية العربية الاسلامية بالغزو الفكرى والثقافى الغربى ومحو اللغة والدين واحلال لغة اخرى ودين آخر وثقافة اخرى مكانها ، مما يمكن له — اى الاستعمار — بالبقاء الطويل ، ومما يحول الغزو الى عملية ادماج كاملة وتجنيس لأهل المنطقة العربية ، فقد كان حريصا على أن يمحو وجود العرب محوا نهائيا . وقد كان الاستعمار الفرنسى والانجليزى ، — وقــد تقاسما المنطقة — (بالاضافة الى الاستعمار الأسبانى والايطالى) حريصا على ان يحطم الشخصية العربية ويقضى على وجــــــودها او يمحــــوها وكانت لمحاولة الاستعمار الفرنسى فى الجزائر ثم محـــاولة الاستعمار الايطالى فى ليبيا دلالة واضحة على ذلك الاتجاه الذى تحطم من بعد ، على اثر المقاومة الضخمة التى واجهت بها الأمة هذا الاستعمار .

ونحن فى هذا البحث انما يعنينا الغزو الفــكرى والثقافى واثره فى تطور الفكر العربى الاسلامى المعاصر .

كان هذا الفكر العربى فكرا اسلاميا خالصا ، ثم تطور مع انتفاضة اليقظة الى فكر قومى ووطنى وسياسى يقــوم على اساس التحــرر من الاستبداد الداخلى والاستعمار الغربى .

وقد بدات حركة المقاومة السياسية للاستعمار ، منذ اليوم الأول للاحتلال وفى نفس الوقت بدات حركة رد الفعل والاستجابة فى ميدان الفكر أيضا : وامتدت المقاومة ورد الفعل الى عدة ميادين فى وقت واحد .

وكان ابلغ ما تدل عليه هو : قوة الشخصية العربية الاسلامية وقدرتها على المقاومة وصلابتها واعتدادها ، ووقوفها موقف الرد على التحدى .

لقد حاول الاستعمار أن يستغل ضعف العالم الاسلامى والوطن العربى فكريا واجتماعيا وسياسيا للسيطرة عليها ، ولكن المنطقة استطاعت ان تواجه هذه المعركة فى يقظة وقوة ، فمضى الفكر العربى الاسلامى يرفع عن نفسه اصر الجمود ويستكشف معدنه الاصيل المخبوء تحت ضباب الجمود الذى ران على الشرق .

كانت مهمة الفكر العربى فى هذه الفترة : تجديد الفكر الدينى ، وكشف حقيقة المعالم الأساسية للثقافة العربية والتراث الاسلامى، وفتح باب الاجتهاد . ومواجهة افكار الغرب وذلك بالنظر فيها وتقبل بعضها ومعارضة بعضها الآخر والرد على ما وجهه الغرب الى العرب والمسلمين من اتهامات ، ونقض النظريات الفكرية الاستعمارية .

كما واجه الفكر العربى الاسلامى حملات التبشير والاستشراق والتغريب ، فلم يقف ازاء الحضارة الغربية الغازية موقف الجمود ، بل سرعان ما فصل بين الحضارة والثقافة . فوقف من الحضارة موقف القبول لوسائلها وأدواتها وان عارض الجانب الاباحى منها .

اما من ناحية الثقافة فقد وقف منها موقف الحذر ، فرفض مذاهبها التى تتعارض مع روحه ومقوماته ، وقبل اساليبها فى البحث ، فجدد بها ثقافته وتاريخه وتراثه .

ولقد كانت المعركة بين الفكر العربى الاسلامى، والفكر الغربى طويلة المدى عميقة الجذور وهى ما تزال مستمرة لما تتوقف ، خلال مائة عام من اندلاعها ، ولكن على مستوى آخر غير مستواها الأول ، فقد كان الاستعمار يطمع بقوته واساحته وسلطانه وجيوش احتلاله أن يفرض ثقافته وحضارته فرضا كاملا ، وأن يمسخ الثقافة العربية والفكر العربى الاسلامى مسخا نهائيا ، ليقضى على أصوله وجذوره وتراثه ومعالمه الأولى ، غير أن المقاومة القادرة على رد التحدى حالت دون سقوط الفكر العربى الاسلامى ، بل ردت عليه قوته وحيساته بما استفادت من تبادل القذائف فى المعركة ، فان الفكر العربى الاسلامى لم يلبث ان استيقظ ونفض عنه غبار الجمود وحاول أن ينطلق بقوة تعوض ما فاته خلال الاغفاءة الطويلة التى قضاها مقيدا بسلاسل الجمود الذى سقطت فى هوته الامبراطورية العثمانية ، فعمل فى ميادين البعث والتجديد والاقتباس والنقل والترجمة للدفاع عن كيانه وهذا العمل فى جملته يهدف الى :

- × المحافظة على الأسس الأصلية للشخصية .
- × التقريب بين وجهات النظر .
- × الاستفادة من الجديد والانتفاع به .
- × صقل التراث القديم وابرازه فى صورة عصرية.
- × تصحيح الاخطاء المتعمدة وغير المتعمدة .
- × الانتفاع بأسلحة الغزو لرد الغزو نفسه .

لقد كانت تيارات الغزو مدعمة بأسلحة مختلفة منها جيش الاحتلال وسلطان الاستعمار ، والأمراء ، والحكام ، والعملاء من المفكرين والسياسيين ولم يكن يقف فى وجهها أو يردها الا صلابة القوى الشعبية العميقة الايمان بشخصيتها وتراثها وقيمها ، لذلك قام معسكر قوى للدفاع عن الكيان الفكرى العربى الاسلامى ، مهما اتهم هذا الكيان « بالمحافظة » فانه كان الحاجز الضخم الذى رد « موجة الادماج » وحال دون بلوغ الاستعمار غايته فى القضاء على مقومات الفكر العربى الاسلامى ، مما اضطر معه أن يعدل من خططه بعد أن تأكد من ان محاولة القضاء النهائى على كيان الفكر العربى الاسلامى ومقوماته ، هو أمر جد مستحيل .

ولما فشلت معركة « الادماج » بدات معركة « التغريب » وهى معركة اشد قوة لأنها معركة غير مكشوفة ، ولكنها خفية تسرى فى برامج التعليم ومناهج البحث ويسيطر عليها الاستعمار من عدة نواحى ، من ناحية الصحيفة والمدرسة ، والكتاب ، والسينما ، والاذاعة .

وهذه هى المعركة الضخمة التى خاضها الفكر العربى الاسلامى وواجهها فى صلابة ، وهى موضع دراستنا هنا فى مجال مرحلتها الأولى حتى نهاية الحرب العالمية الثانية (١٩٤٤) حيث بدات معركة أخرى بعد الحرب العالمية الثانية أشد عنفا واخطر قتالا وسيكون مجالها دراسة أخرى .

العرب بين الامبراطورية العثمانية

وتركيـــا الكماليـــة

كي نستطيع ان نصور معالم الفكر العربي الاسلامي المعاصر وتياراته في هذه الفترة علينا ان نستعرض الحياة السياسية للعالم العربي في اتصالها بالدولة العثمانية : دولة الخلافة الاسلامية التي سيطرت على الكيان العربي والاسلامي اكثر من أربعــة قرون ، والتي كان الوطن العربي جزءا منها حتى اوائل الحرب العــالمية الأولى ١٩١٧ .

ولقد ارتبط تاريخ الوطن العربي بتركيا امدا طويلا حتى بعد أن انفصل عنها ، عندما انتهت الدولة العثمانية وسقطت الخلافة وقامت الجمهورية التركية ، فقد ظل الوطن العربي يتطلع الى هذا الجزء من العالم الاسلامي، الذي ارتبط به برباط الخـــلافة الاسلامية والتبعيـــة للامبراطورية العثمانية ، ثم ظل مشدود النظر اليها وهي تنهزم في الحرب العالمية الأولى ثم تحارب اليونان وتتحرر وتنتقل الى دولة عصرية علمانية تنفصـــــل عن الشرق والاسلام وتتجه الى الغرب ، وتلغي النظم القديمة وتلغي اللغة وتكتب اللاتينية من الشمال وتحرر المرأة وتفرض القبعة .

ولقد كان لتركيا في المرحلتين اثرها في الوطن العربي في المرحلة الأولى وهي قائمة باسم الخلافة الاسلامية عندما بدأت حركة الوحدة الاسلامية التي قادها السلطان عبد الحميد باسم العالم الاسلامي كله في مواجهة المؤامرة الاستعمارية الصهيونية والتي حاولت السـيطرة على فلسطين ثم كيف عملت الحركة الطـورانية التي قادها جماعة الاتحاد والترقي لاسقاطه والقضـــاء على حركة الوحدة الاسلامية واحلال دعوى القـوميات والعنصرية وفتح الطريق أمام الصهيونية السيطرة على فلســطين وتسليم طرابلس الغرب لايطاليا واقامـــة ذلك الصراع العنيف مع العرب في محاولة لتتريكهم حيث وقعت المعركة بين العرب والاتحاديين ، وانتهت بانفصال العرب عنهم.

وفي المرحلة الثانية : عندما انهزمت تركيا العثمانية في الحرب العالمية الأولى . وسقطت في يد الحلفاء ، وتبع ذلك قيام مصطفى كمال بحركة التغريب والارتماء في احضان الغرب كلية والقضاء على الخـلافة والسلطنة حيث قبلت تركيا الاندماج الكامل في النظـــم الغربية وانفصلت انفصالا كاملا عن الشرق والاسلام والعرب في اللغة والفكر والسياسة والاجتماع .

في هذه المرحلة ايضا ، كان العرب مشدودو النظر نحو تركيا . وقد كان لهذا التطور الحضاري والثقافي اثره في الوطن العربي ، بل وفي العالم الاسلامي أيضا ، حيث تأثرت به ايران وافغانستان .

بل لعلنا لا نعدو الحق اذا قلنا ، « ان حـــركة التغريب » في الوطن العربي انما تطورت وتعمقت على اثر حركة التغريب التي قامت بها تركيا الحديثة التي رات أن الوسيلة المثلى للنهضة والحرية هي قبول الحضارة الغربية قبولا كاملا .

وقد تم هذا التحول بقوة السلطة الحاكمة وسلطان القانون المفروض ، ولم يتم بالاقتناع والتطور ، لذلك لم يكن عميق الجذور وسرعان ما اعتوره الاضطراب ولم يعدو طوال عشرين عاما ما بين (١٩٢٤ ــ ١٩٤٤) ان يكون الا قشرة ظاهرية ، مما حمل الباحثين على القول بان تركيا في خلال هذه الفترة كانت تعاني آلام المخاض .

وقد ظهرت دلائل تؤكد ذلك فيما بعد ، حين اضطرت الحكومة التركية الى اعادة الكثير من معالم الحياةالفكرية والروحية القديمة بعد أن ثبت أن القضاء عليها كان غير يسير .

وقبل ان يبزغ القرن التاسع عشر كان نابليون قد زحف الى الشرق بأسطوله واحتل مصر ، وسار الى عكا محاولا فتحها واثارت حركته مطـــامع بريطانيا حيث تم

بدأ صراع طويل المدى منذ ذلك التاريخ بين بريطانيا وفرنسا ، كان له أثره السياسى البعيد المدى وأثره الفكرى الذى ما زال قائما الى الآن .

ولقد كانت الحملة الفرنسية (١٧٩٨) نقطة الالتقاء بين الشرق والغرب فى العصر الحديث وهى المرحلة الثانية للحروب الصليبية .

وقد امتد هذا الدور حتى عام ١٩٦٧ عندما وضعت فرنسا وبريطانيا يدها على الوطن العربى كله واعلن اللورد اللنبى فى القدس أثناء الحروب الصليبية .

وقد كشفت هذه الحملة عن اتجاه أوربا نحو الشرق الاسلامى ، والبلاد العربية ، وكانت نقطة البدء ، فقد توالت بعد ذلك حملات الاستعمار وامتدت ، حتى بعد أن جلت الحملة الفرنسية عن مصر عام ١٨٠١ ، واجهت المنطقة العربية حملة بريطانية عام ١٨٠٧ ولم يمض على ذلك أكثر من ثلاثة وعشرين عاما حتى احتلت فرنسا الجزائر عام ١٨٣٠ وتبعتها بريطانيا عام ١٨٨٢ باحتلال مصر ، ثم توالت مراحل الاحتلال .

كان هذا الجمود والضعف الذى اصاب الشرق الاسلامى ، والوطن العربى مدعاة لأن تنطلق دعوة المقاومة والاصلاح واندلع فى نفوس المصلحين شرارة الغيرة : هنالك بدأت طلائع دعوتين :

(١) دعوة الى مقاومة جمود الدين وقشوره .

(٢) ودعوة الى مقاومة استبداد السلاطين والأمراء

أما الدعوة الأولى ، فحمل لواءها محمد بن عبدالوهاب وقد تحولت الى حركة فدولة كانت بعيدة المدى فى العالم الاسلامى ، مؤثرة أكبر الأثر فى مختلف طوائف المسلمين (اهل السنة والشيعة والمتصوفة جميعا) .

ولم تكن « الدعوة الوهابية » دعوة دينية خالصة وانما كانت « حركة سياسية » ذات مذهب فكرى ، لذلك اهتزت لها دولة الخلافة العثمانية ، واهتز لها الغرب الواقف وراء سرير الرجل المريض ، ينتظر اليوم الذى يقتسم فيه امبراطوريته الواسعة ، لذلك كان لابد من محاولة تأتى عن طريق تركيا العثمانية الخائفة من هذا الخطر الذى يزحف اليها من أطراف العراق ، ويهاجم المواقع المقدسة فيها ، وخاصة بعد أن تحقق لها — أى الوهابية — امتلاك الحجاز وسيطرتها على (الجزيرة العربية) : ان لم يكن عسكريا فسياسيا وفكريا .

وكانت مصر اذ ذاك قد تحررت من الحملة الفرنسية بقوتها المعنوية الشعبية التى حطمت هذه الحملة ، والتى وجدت لها قيادة فعالة استطاعت ان ترد من قبل ظلم المماليك وتفرض عليهم توقيع وثيقة حقوق الانسان (١٧٩٥) ثم استطاعت أن تنزع الحاكم التركى (خورشيد) من منصبه فى القلعة باسم الشعب على نحو يدل على مدى اليقظة والفهم والايمان بالحق الشرعى فى خلع الحاكم الفاسد .. وقد جاء هذا نتيجة للايمان بالتراث العربى الاسلامى ، وليس نقلا عن الحضارة الأوربية التى لم تكن بعد ، قد وضحت موضع الاقتباس فى العالم الاسلامى . وقد اتسع هذا الاتجاه فيما بعد حينما بدأت دعوة جمال الدين الى اقامة استبداد الملوك . واتجهت فعلا الى مقاومة شاه ايران ، وخديو مصر .

* * *

القوة الجديدة فى مصر

وفى مصر بدأت قوة جديدة بقيادة محمد على وابراهيم بلغت ذروتها من القوة ، واخذت بها تركيا ، كما أخذت بها أوربا التى كانت تخشى أى قوة جديدة شابة يمكن أن تفرض سلطانها على المنطقة .

لذلك ضربت القوتان بعضهما ببعض فسلطت محمد على على الوهابية فانهزمت (١٨١٦) ثم انهزم محمد على بعد ذلك بأقل من عشر سنوات حينما حطم الغرب مجتمعا أسطوله فى موقعة نفارين (مايو ١٨٢٥) مما انتهى بامبراطوريته التى اجتاحت الامبراطورية العثمانية وكادت تستولى عليها ، والتى امتدت الى الجزيرة العربية عام ١٨٤٠ الى ان تتقلص فى حدود مصر وحدها ، وبذلك قضى على الحركتين : الحركة الوهابية ذات الطابع العربى السياسى المذهبى ، والحركة المصرية .

* * *

المؤامرة على الدولة العثمانية

كان الغرب يهدف الى تمزيق الدولة العثمانية لالتهام الأقطار العربية التابعة لها والسيطرة عليها ، والقضاء على الخلافة الاسلامية التى هى علامة الوحدة الاسلامية الجامعة للعالم الاسلامى كله .

كان هذا الهدف يعيش فى اعماق الفكر السياسى الغربى منذ استطاعت الدولة العثمانية الزحف الى أوربا والسيطرة عليها والوصول الى اسوار فيينا ، مما خلق فى الغرب بعد أن وصل الى مرحلة القوة والتفوق روح الانتقام والعدوان وهو ما حاوله من مؤامرات واسعة خلال أكثر من مائة عام لتمزيق الدولة العثمانية .

وكانت الدولة العثمانية قد التقت بالاقطار العربية فى وحدة اسلامية جامعة عام ١٥٠٠ ميلادية ، ولم تكن هذه الوحدة استعمارا كما حاول البعض أن يصفه ، ولكن كان لقاء تحت مظلة الاسلام فى سبيل حماية الامة من عوامل الغزو الغربى الذى تجدد بعد انتهاء الحروب الصليبية .

وكانت المؤامرة الغربية تهدف الى القضاء على روح الجامعة الاسلامية باثارة روح القوميات والتعصب والعروق والدماء وهى الدعوة التى حمل لوائها جماعة الاتحاد والترقى وسيطر عليها مدحت وبعض المثقفين الذين تعلموا فى الغرب وكانت دعوتهم ترمى الى تمزيق الروح الاسلامية والقضاء عليها واعلاء ما اسموه « الطورانية » وهى العنصرية التركية القديمة وذلك فى سبيل القضاء على الوحدة الجامعة بين العرب والترك وهى الدعوة التى حمل لوائها الاتحاديون الذين حكموا تركيا بعد اسقاط السلطان عبد الحميد ، وقد اندفعوا فيها الى الحد الذى حملهم على العمل على تتريك العناصر وتتريك العرب بالذات بحرمانهم من لغتهم وتسفيه تاريخهم وماضيهم وهو العامل الخطير الذى أثار روح الخلاف بين عنصرى الدولة العثمانية ومهد للقضاء على الامبراطورية وكذلك مضى الى هدم الدولة وتسليم فلسطين لليهود وطرابلس الغرب للايطاليين وجاء بعد ذلك دور مصطفى كمال اتاتورك فى تغريب تركيا كلية والقضاء على الخلافة واللغة العربية والاسلام وقد كشفت الايام عن سلامة موقف السلطان عبد الحميد وصموده أمام مغريات ومؤامرة الصهيونية فى مخططها الرامى الى الاقامة فى القدس وكان موقفه الحاسم معهم هو العامل الأساسى فى اسقاطه .

* * *

العرب والاستعمار

(ما ذا كان اثر الاستعمار فى الكيان العربى وما مدى هذا الأثر من الناحية الفكرية) .

لقد بدأ الاستعمار فى الكيان العربى بالحملة الفرنسية على مصر التى حفزت أسطول بريطانيا الى التحرك للبحث عن الأسطول الفرنسى . وكان هذا علامة الصراع الفرنسى البريطانى ، الذى اتصل فى الوطن العربى منذ ١٨٩٨ حتى ١٩١٧ حينما اقتسمت بريطانيا وفرنسا بمعاهدة (سايكس باكو) الوطن العربى : اى انه فى خلال قرن وربع قرن ظلت المعركة محتدمة الأوار ثم انها استمرت بعد ذلك فى الميادين الثقافية والاقتصادية والاجتماعية بالرغم من الاتفاق الودى الذى تم توقيعه بينهما عام ١٩٠٤ وبه أطلقت كل منهما يد الأخرى فى مصر ، ومراكش .

كانت بريطانيا تسيطر على مصر والعراق وفلسطين والأردن ، بينما تسيطر فرنسا على سوريا ولبنان ومراكش وتونس والجزائر . وكان الاستعمار البريطانى والفرنسى متباين الوسائل والأساليب فى كل من الاقطار المحتلة ، غير انه كان هناك شبه اتفاق غير مكتوب بينهما يلتقى فى مفهوم واحد هو (أن الشرق كله هو منطقة نفوذ وتوسع للغرب ، وأن سكان افريقيا وآسيا ، فى درجة اقل من درجة اهل أوربا ، وانه لا بد أن تظل بلادهم منطقة نفوذ للغرب ، ومورد خامات وأسواق انتاج وان يظلوا وقود الجيوش التى يجندها الغرب ، وعمال مصانعه ، وعبيد أرضه واداة استغلاله) وكان اختلاف فرنسا وبريطانيا فى النظم والأساليب ، يمثل جانبا من الخطة المرسومة لتجزئة المنطقة وعزلها ، والفصل بين كل منطقة منها وبين الأخرى بوسائل مختلفة اقل مافيها الأسلاك الشائكة ، فقد كان هناك اختلاف فى الأسماء ثم فى نوع نظام الحكم والعملة والأعلام ومناهج التعليم ومفاهيم الثقافة والفكر فضلا عما آثاره الاستعمار من خلافات بين حضارات قديمة ومذاهب ودعوات تفرقة بين المسلمين ، والمسيحيين والبربر والعرب والموارنة والدروز والسنة والشيعة . كان الاستعمار بعد أن احتل هذه الأقطار بالغزو العسكرى قد أخذ يدعم بقاءه فى المنطقة . وكانت وسيلته الى ذلك هى الغزو الثقافى والفكرى ، وهذا لا يتم الا بعزل هذه الأجزاء ونشر دعوات التجزئة والانفصالية فى كل منها ، ثم تجزئتها داخليا مرة أخرى بالأحزاب السياسية أو بالخلافات المذهبية .

ولقد قاوم الكيان العربى الاستعمار منذ اليوم الأول ، بالثورات والمعارك وبمختلف أسلحة المقاومة ، واستمر فى معركة متصلة معه ، لم تتوقف ، قدم خلالها الشهداء والضحايا ، ثم وقفت بالمرصاد لكل مؤامراته . ووجد الاستعمار أعوانا وعملاء كانوا اداته فى تنفيذ دعوات التغريب والتجزئة وفرض سلطانه السياسى والفكرى . كانت الحضارة الغربية هى وسيلته فى تحطيم جبهة المقاومة والقضاء على كيان الأمة ذلك لانه لم يقدم لنا من هذه الحضارة جانب الزخرف والجنس والملذات والاثام ، فكان ذلك عاملا ضخما فى تحطيم اقتصادنا العربى ، فلقد تهاوت ثروات الأسر كلها تحت سلطان الملذات والمخدرات والبغاء ، وكلها اسلحة هيأ لها وحماها ، عن طريق الامتيازات ، وشجع على استمرارها ، وجند لها من الكبراء من وقفوا دون القضاء عليها . اما الجانب الايجابى الفعال من الحضارة جانب القوة العسكرية والكشف والاختراع والمدافع والطائرات ومصانع الانتاج فقد حال بيننا وبينها ، وبذلك انهارت ثروتنا الاقتصادية ، فى نفس الوقت الذى تحطمت فيه قوانا الاجتماعية والروحية ، هذا بالاضافة الى حملاته التغريبية فى فرض « ثقافة » الغرب التى تحمل بذور المادية وانكار الأديان والتشكيك فى التاريخ ومحاولة تحطيم معنوياتنا عن طريق « التعليم » الذى فرض سلطانه عليه وعن طريق « التبشير » الذى سانده وحماه ودفعه الى الأمام ، وعن طريق الحملات المستمرة على اللغة العربية ومحاولة احلال اللهجات العامية بدلا منها وحملات الشعوبية واذاعة نظريات السامية والآرية .

واجهت العرب الاستعمار فى معارك المقاومة المختلفة : السياسية والفكرية والاجتماعية ، واعانها على المعركة صلابة شخصيتها وقوة روحيتها وايمانها بالله

واستهانتها فى التضحية من اجل الحرية والدفاع عن الحمى وكرامة الوطن .

وكانت معركة « التحدى والاستجابة » معركة ضخمة، ظلت تدور رحاها خلال الفترة التى نؤرخها ، بين الاستعمار باسلحته وقواته ووسائله وعملائه واغرائه وحملاته التغريبية ، وساطانه على الحكم والتعليم والصحافة والاذاعة والسينما فى الوطن العربى كله ، وبين قوى الأمة ممثلة فى قادتها ومفكريها حيث استيقظت لتدافع عن وجودها وتدعم من كيانها ، وقد اندفعت اقلامها تكتب داعية الى الجهاد والفداء والمقاومة بينما كانت حركات الأصلاح تجرى فى محيط الدين والمجتمع والفكر والتعليم والاقتصاد ، فقامت جمعيات الشبان المسلمين والاخوان والرابطة الشرقية ، وبنك مصر وانشئت مدارس الجمعية الخيرية الاسلامية وجرت اصلاحات فى الأزهر وتجديد فى اساليب دراسة العقيدة واللغة والمجتمع والمرأة . وتوحيد فى الجهات الداخلية ازاء المستعمر ممة يمكن القول معه بأن الاستعمار هزم فى معركته الاولى ، وتحطت اسلحته . وكسبت الأمة العربية الجولة الاولى .

فقد بقيت اللغة العربية وبقى الاسلام وتحرر الاقتصاد ونقض التعليم عنه آثار الاستعمار . وفشل التبشير ، وتحطمتدعاوى المستشرقين وانكشفت اتهاماتهم المتعصبة .

ولكن هل توقف الاستعمار على اثر الهزيمة التى منى بها ، ذلك لم يحدث مطلقا ، فقد جدد الاستعمار خططه وبدأ معركة جديدة بعد الحرب العالمية الثانية ليس هذا موضع بحثها .

وجملة القول فى هذا المدخل ، ان امتنا قاومت الاستعمار والغزو العسكرى والثقافى وواجهت الحملات المختلفة بايمانها . وفرضت رايها فى الحضارة فرات ان هذه الحضارة ليست غربية خالصة وانما هى تراث الانسانية كلها وقد شارك فيها الشرق من قبل وقدم لها خلاصة جهده وتجاربه ما أوصلها الى مرحلة القوة والفعالية ، كما فرضت البلاد رأيها فى الثقافة الغربية فانكرت قول القائلين : بقبولها جميعا خيرها وشرها ، ما يحمد فيها وما يعاب ، وتحررت من التبعية ، واعلنت حقها فى ان تقبل مناهجها فى البحث ، حيث جددت بها تراثها ، ورفضت مالا يتفق مع معالم شخصيتها وقيمها وكيانها وأمجادها .

* * *

(١)

الفكر العربى الإسلامى فى مرحلة اليقظة

(الى الحرب العالميـــة الآولى)

يقظة الفكر العربى الإسلامى

كانت الفترة التى سيطر فيها الأتراك العثمانيون على العالم الاسلامى فترة خمود للفكر العربى الاسلامى بصفة عامة ، اذ لم يكن للفكر العربى ملامح خاصة يتميز بها . فقد دخلت العرب فى نطاق الامبراطورية العثمانية ١٥١٧ واستمروا حتى عام ١٩١٧ أى انها امضت اربعمائة سنة فى نطاق الامبراطورية التركية التى بدات تهوى الى الضعف منذ عام ١٨٦٣ عندما اغار الاتراك على أسوار « فيينا » وارتدوا عنها مهزومين ، وكانت هذه اول هزيمة لهم فتحت اعين الغرب على ضعف الامبراطورية مما حمله على مواصلة الحملات عليها وفتح عينه على بدء معركة الانقضاض والغزو .

واذا كان الغزو الأدبى للشرق قد بدأ بوصول فاسكودى جاما الى الهند (مايو ١٤٩٨) ومن ثم بدات هزيمة الوحدات البحرية العربية وتحطمت أساطيل العرب التجارية فى المحيط الهندى ، فان انتصار العثمانيين فى حكم المنطقة وحمل لواء الزعامة السياسية والثقافية والدينية قد اخر الاصطدام الى ما بعد ذلك ، غير أن الغرب لم يتوقف عن الغزو وذلك بمحاولة حصول دوله على امتيازات فى مختلف اقطار الامبراطورية العثمانية تكفل للتجار سلامة اشخاصهم وأملاكهم ثم اتسعت هذه الامتيازات حتى أصبحت سلطانا ضخما لا سبيل الى مراجعته ، لها محاكمها وسلطاتها وقد تغلغل الفرنسيون قبل غيرهم فى العالم العربى .

واذا قيل أن حركة الثقافة الأوربية قد بدات بحملة نابليون على مصر (١٨٩٨) أو من قبلها بوصول الجمعيات التبشيرية الفرنسية ١٨٤٧ والأمريكية ١٨٦٨ الى بيروت واليها تنسب يقظة الفكر العربى فاننا نرى أن اليقظة الفكرية قد سبقت هذا الغزو الفكرى الغربى بأمد طويل حيث بدات بدعوة محمد بن عبد الوهاب الى تجديد الدين والعودة الى بساطته الأولى . واذا كان عبد الوهاب قد ولد سنة ١٧٠٣ وقام بدعوته فى حدود الأربعين فان يقظة الفكر العربى تكون قد بدات قبل وصول الجمعيات التبشيرية الأوربية بمائة عام على الاقل . وقد كانت هذه الدعوة الفكرية السياسية بعيدة المدى فى تحرير الفكر العربى ويقظته ، ولا سيما بعد أن أتيح لها أن تتحول الى دولة فتية كان لهـا اغارات على حدود الشام والعراق .

* * *

كانت يقظة الفكر العربى الاسلامى منصبة على تأكيد الحقائق الأساسية للفكر الذى قامت عليها الحضارة الاسلامية . وهى فى موجزها تتمثل فى مبادىء محددة صريحة :

× كرامة الانسان وحريته .
× امتزاج الروحية بالمادية . والعمل لليوم والغد معا .
× قل هاتوا برهانكم فى كل قضية « مبدأ سياسة العقل والعلم » .
× حفظ التراث وتجديده .
× تجديد الفكر بالغربلة واقصاء القشور والاجتهاد والموائمة مع التطور والزمن والبيئة .
× تكريم الطوائف المختلفة ورعايتها .
× اقامة عملية الصهر والوحدة واقامة الكيان الموحد .
× حماية الوطن والحضارة والتسلح واليقظة للعدو .
× المقاومة واعتبار الدفاع عن الوطن دفاع عن العرض
× تغليب السلام والأخوة والمحبة وعدم العدوان .
× الدعوة الى العدل الاجتماعى ومساواة الأجناس والمفاضلة بالعمل والتضامن الاجتماعى .
× الشورى وقبول الآراء المختلفة ودراستها .

ولقد كانت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الى التجديد الفكرى الاسلامى وقيام هذه الدعوة من قلب الجزيرة العربية بالذات عاملا ضخما فى هذه الفترة الدقيقة بالذات ، لاسيما اذا ربطنا هذا بأن العالم الاسلامى قد

وجد دائما مثل هذه الدعوات التجديدية للفكر على فترات ممتدة من تاريخه ، وحمل لواءها أمثال الغزالى وابن تيية .

وقد روى الجبرتى أن واعظا من تركيا جلس فى جامع المؤيد (١١٣٢ — هـ) وكثر عليه الناس وازدحم المسجد بهم ، وذكر ما يفعله أهل مصر بضرائح الأولياء وايقاد الشموع والقناديل على قبورهم وتقبيل أعتابهم ، ووصف ذلك كله بأنه كفر يجب على الناس تركه ، ورد على ما قاله الشعرانى من أن بعض الأولياء اطلع على اللوح المحفوظ وأن ذلك لا يجوز وأنه لا يجدر بناء القباب على ضرائح الأولياء أو بناء التكايا . ولم يتوقف هـذا الواعظ الذى لم يذكر الجبرتى اسمه — عند الوعظ بل عمد الى جمع طائفة من الاعوان والاتباع حوله واتجه الى العمل لتقويم الناس بالعصى ، فخرج ورجاله بعد صلاة التراويح ووقفوا بالبنادق والأسلحة على باب زويلة فهرب الذين يقفون معه » ودعا هذا الواعظ الى هدم التكايا ، وقد نفاه الوالى الى الشام وكان لحركته أثرها فى مصر ، وقد تأثر بها حسن العطار ، الذى أصبح فيما بعد شيخا للازهر .

وقد كانت الدعوة الوهابية فاتحة الدعوة الى تحرير الفكر ، وقد تلتها بعد ، حركة تحرير الفرد التى دعا اليها المشايخ والعلماء فى مصر ، حين فرضوا على المماليك توقيع وثيقة بحقوق الشعب .

واذا كانت دعوة محمد بن عبد الوهاب قد واجهت خصومة من معسكر التقليديين فانها هيأت الاذهان لمقاومة سيطرة الخرافات والأوهام وتنقية العقيدة .

٢ — مقاومة جمود النظم .

٣ — مقاومة استبداد الحكام .

٤ — تحرير الدين من التقليد وفتح باب الاجتهاد .

٥ — تحرير الشعب من سيطرة العلماء التابعين للحكام .

٦ — مواجهة الفساد والتحلل الاجتماعى .

وقد حمل الفكر العربى الاسلامى المعاصر فى أول مواجهة لليقظة .

ولذلك كان أبرز ملامح هذا الفكر :

« المقاومة » أو الرد على التحدى وقد أثبتت الأمة تدرتها على المواجهة السريعة ، فان اليقظة لم تلبث ان وصلت الى مرحلة القوة حين بدأ الغزو يدخل معارك متصلة شملت الوطن العربى كله (مصر والجزائر وتونس والخليج العربى وليبيا) .

واتصل بهذا ما واجهته مصر فى اقصاء الحاكم الظالم حين اقتضت المقاومة الشعبية بقيادة عمر مكرم ابعاد الوالى التركى (خورشيد) وكانت « مهمة الحاكم وحق الشعب فى عزله اذا ظلم » واضحة فى ذهن عمر مكرم حين نادى بهذا المعنى فى هذه الفترة الباكرة .

ولا شك أن كان « للأزهر » دوره الضخم ، فقد كان معقل كل حركات المقاومة السياسية والعسكرية والثقافية والحديث عن دوره فى حماية الثقافة الاسلامية فى خلال فترة الظلام يعتبر من الكلام المعاد . وكان للأزهر دوره أيضا فى حماية الشعب من ظلم الأمراء . ودوره فى مقاومة الحملة الفرنسية . وتأكيد حق الشعب فى تولية الحاكم .

* * *

وظهر من رجاله من دعوا الى التجديد : كحسن الطويل شيخ الأزهر المجدد ثم الجبرتى الذى سجل مظالم محمد على وطغيانه ورفاعة الطهطاوى رائد الترجمة والنقل .

ولقد كان للغة التركية والفكر التركى اثرهما على اللغة العربية ، هذا الأثر الذى قاومه الفكر العربى مؤكدا شخصيته ، ولم يلبث أن قاوم اللغتين الفرنسية والانجليزية والفكر الغربى من السيطرة عليه فيما بعد .

ولا شك كان « للقرآن » اثره الواضح الكبير فى نقاء اللغة العربية وبقائها وصمودها أمام الحملات التركية والغربية التى وجهت اليها .

فى هـذه الفترة ظهرت تيارات مختلفة فى الفكر العربى الاسلامى .

(١) تيار تجديد الدين بتنقية ، الذى حمل لواءه خلفاء محمد عبد الوهاب امثال السنوسى والمهدى والشوكانى ومحمد عبده .

(٢) التيـار الثقافى : الذى حمل لواءه رفاعة الطهطاوى فى مصر وخير الدين فى تونس .

(٣) التيار الثقافى : الذى حمل لواءه اليسوعيون والمرسلون الأمريكيون فى لبنان .

(٤) التيار السياسى : الذى حمل لواءه جمـــال الدين الأفغانى .

(٥) التاريخ القومى التركى الذى حمـــل لواءه الاتحاديون فى الدستور والطورانية .

(٦) تيار القومية العربية الذى حمل لواءه عـــرب الشام .

وقد سار كل تيار من هـــذه التيارات فى طريقه وتكونت من هذه الروافد صورة الفكر العربى الاسلامى المعاصر الذى يمثل فى مجموعه :

الواقعية والايجابية والربط بين الماضى والحاضر « وبناء » الجديد على « أساس » القديم والغربلة الدائمة لكل ما يتجمد من الافكار .

وقد كان فى الامكان أن يؤدى هـــذا الى تحقيق النهضة الأكيدة للعالم الاسلامى والبلاد العربية لولا ان الاستعمار كان يحمل معه تيارا ضخما قويا فى خطة كاملة لسحق هذا الفكر ـــ قد بلغ فى نفس الفترات مدى اعمق بكثير من هذه التيارات مجتمعة ذلك هو تيار « التغريب »

* * *

تيارات الفكر العربى الاسلامى حتى نهاية الحرب العالمية الأولى

١ ــ تيار التجديد الدينى :

محمد بن عبد الوهاب ، الشوكانى السنوسية ، المهدية ، محمد عبده .

٢ ــ التيار الثقافى (المزج بين الشرق والغرب) :
رفاعة الطهطاوى ، وخير الدين التونسى .

٣ ــ التيار الثقافى الغربى :
اليسوعيون والمرسلون الأمريكيون فى لبنان .

٤ ــ تيار « الجامعة الاسلامية » :
جمال الدين الأفغانى . الكواكبى .

٥ ــ تيار « الجامعة العربية » .



(١)
تيــــار التجـديد الدينى

يعد تيار « التجديد الدينى » من اقوى التيـــارات الفكرية التى بدأت بها يقظة الفكر العربى والاســـلامى عامة : هذه الدعوة التى بداها محمد بن عبد الوهاب فى قلب الجزيرة العربية ولم تلبث ان انطلقت الى مختلف الأقطار ، فظهر الامام الشوكانى فى اليمن ، والآلوسى فى العراق ، والسنوسى فى ليبيا ، والمهدى فى السودان ، ومحمد عبده ومدرسة المنار فى مصر ، وذلك غير ما ظهر فى مختلف أطراف العالم الاسلامى من دعوات مماثلة :

محمد بن عبد الوهاب	١٧٠٣ — ١٧٩١
الشـــوكانى	١٧٥٦ — ١٨٣٤
شهاب الدين الآلوسى	١٨٠٢ — ١٨٥٤
السنوسى	١٧٨٥ — ١٨٥٩
المهـــدى	١٨٤٣ — ١٨٨٥
محمد عبده	١٨٤٩ — ١٩٠٥

ومعنى هذا أنه فى خلال فترة قرن ونصف قرن لم تنقطع هذه الدعوة الى التجديد الدينى بل واصلت عملها بقوة وحمل لواءها عـــدد كبير من الأعلام وقد اتصلت هذه الدعوة بالمعركة الكبرى ، معركة الغزو الغربى : العسكرى والسياسى والاجتماعى والفـــكرى ، ولذلك تعمقت جذورها واتسع نطاقها حتى اصبحت علما على اتجاه فكرى واضح فى اكبر جانب من جوانب التفـــكير العربى ، وهو التفكير الاجتماعى المتصل بالعقيدة والقيم والحـــرية والمعـــاملات بل لا نعدو الحق اذا قلنـــا « ان التجديد » كان بعيد الأثر فى جميع مفاهيم «المقاومة» التى قامت بها البلاد العربية ازاء الاســـتبداد الداخلى والاستعمار الغربى وانها اثرت فى مفاهيم الفكر العربى : السياسى ، والثقافى ، والاقتصادى .

يمكن القول بأن تيار التجديد الدينى انما قام على اساسين واضحين هما :

(١) العودة الى التوحيد والمنابع الأولى للاسلام ، فالتوحيد هو أساس الاسلام . وقد دخله كثير من الفساد فى خـــلال فترة الركود التى اصابت العالم الاسلامى تحت حـــكم العثمانيين وقـــد اثر فى نقـــاء التوحيد ما توسع فيه المسلمون من البدع : التى يتصل بالتقرب الى الأولياء ، والنذر لهم ، وبناء الأضرحة وزيارتها ، وقد حملت هذه الدعوة لواء عبادة الله وحده ، ورد البدع وابطال التوسل والشفاعة .

(٢) فتح باب الاجتهاد وقد كان اقفال باب الأجتهاد بعيد الأثر فى الجمود الذى أصاب الفكر العربى الاسلامى مما غلب التقليد فكانت الدعوة الى تحرير العقل الاسلامى ممن اصار التخلف .

وقد حمل محمد بن عبد الوهاب لواء الدعوة على هذا النحو وقال : ان مسالة « التوحيد » ، هى عماد الاسلام ، وان الانحراف فى العقيـــدة هو سبب ضعف المسلمين وسقوط همتهم . ولم يلبث ابن عبدالوهاب ان حول دعوته الى برنامج سياسى ودعا لمقاومة استبداد الحاكم والتحرر من سلطان الدولة « العثمانية » وهاجم حدود سورية والعراق ، وهاجم كل انحراف عن المبـــادىء الاســـاسية للاســـلام ، ودعا الى التحـــرر من سلطانها ، كما هاجم علماء الدين الرسميين الجامدين ، واستطاع ان يحول الدعوة الى حركة لها كيانها الذى هز الامبراطورية العثمانية حين اقنع « محمد بن سعود » حاكم نجد ، الذى حمل لواء الدعوة فى جزيرة العرب

جمعاء . ومن ثم آمن اتباع محمد بن عبد الوهاب بأنهم آدم الجديد فى الوطن العربى . وبذلك تحولت الدعوة الى حركة تحميها دولة .

واعلن الوهابيون ان سبيل الاصلاح ، هو العودة الى منابع الاسلام الأولى ، وتنقية الدين من البـــدع الدخيلة عليه والايمان بعقيدة التوحيد الخالص ، وكان محمد بن عبد الوهاب تلميذا لمذهب احمد بن حنبل وقد تأثر افكار ابن تيمية وابن القيم الجوزية . واتيح له ان يطوف فى انحاء العالم الاسلامى ويزور بالذات بغـداد وكردستان وهمزان واصفهان وقم وهى معاقل الشيعة التى كانت تحمل لواء الأفكار التى هاجمها ووجدت رسائل لابن تيمية مكتوبة بخط محمد بن عبد الوهاب .

وقد انتهت المرحلة الأولى للحركة الوهابية بهجوم (محمد على) على الحجاز ، حيث بدأت الحملة المصرية الأولى ١٨١٣ وانتهت . وقد أخذ على الوهابيين انهم لم يكونوا على استعداد حربى حديث مما مكن لمحمد على هزيمتهم وقد أخذ عليهم المؤرخون عدم اتصالهمبالحضارة أو التفاتهم الى الثقافات الغربية وأن برنامجهم فىالاصلاح السياسى والاجتماعى لم يكن محققا لمواجهـــة الغزو الغربى ، وقيل ان الدعـــوة لم تكن سلمية محضة ، وانما كانت تواجـــه خصـــومها بالعنف وتستحل دماءهم وأموالهم وكان ذلك من الوهابية خروجا على سماحـــة الاســـلام .

٤ — وفى اليمن : ظهر « محمد عبد الله الشوكانى » الذى تأثر بابن تيمية وابن حـــزم وقـــد نشأ على مذهب الزيدية فى الفروع . وفتح باب الاجتهاد وحارب التقليد وذهب الى تحريمه ، ودعا الى الاجتهـــاد وترك زيارة القبور والف كتابه المعروف « نيل الأوطار » الذى شرح فيه مؤلف ابن تيمية « منتقى الأخبار » .

وقد اثارت آراؤه فى عدم زيارة القبور معركة حيث قال :

« كم سرى عن تشييد بنية القبور وتحسينها من مفاسد يبكى لها الاسلام . منها اعتقاد الجهلة لها كاعتقاد الكفار للاصنام ، وعظم ذلك فظنوا انها قادرة على جاب النفع ، ودفع الضرر ، فجعلوها مقصـــدا لطلب قضاء الحوائج وملجأ لنجح المطلب وسألوا منها ما يسأل العباد من ربهم ، وشدوا اليها الرحال وتمسحوا بها واستغاثوا »

وقد وقف من خصومســه موقفا صلبا ، وأعلن أن المذاهب جميعها سواء ، ولا يخص مذهب الزيدية منها. وان مذهبه فى العقائد هو مذهب السلف .

٣ — وظهر : أبوالثناء محمود شهاب الدين «الألوسى» (١٨٠٢ — ١٨٥٤) فى العراق على نفس النهج التجديدى فى الفكر العربى الاســلامى المعاصر . وهـــو مفتى بغداد وامام العراق فى اللغة والدين والتفسير وله «روح المعانى » فى تفسير القرآن الدينى يمثل مذهبه وقد اثارت آراءه غضب العلماء التقليديينفسعوا سعيهم ضده فعزل عن منصب الافتاء . جمع فى كتابه « روح المعانى » من ثلاث طرق : طريقة السلف ، وطريقة المتكلمين ، وطريقة المتصوفة ، ورد على آراء فخر الدين الرازى .

ولم يلبث ان ظهر من آل الالوسى ، عالم آخر سار فى نهج التجديد الدينى هو « محمود شكرى الألوسى » ١٨٥٦ — ١٩٢٤ الذى يمم نفس الطريق الذى سلكهعلماء نجـــد فى الدعوة الى تطهير عقائد الناس من البـــدع والخرافات وفتح باب الاجتهاد ، معرضا نفسه للخصومة العنيفة مع رجال التصوف فى وقت كان فيه أبو الهدى الصيادى شيخ الصوفية ، مستشارا للسلطان عبدالحميد وقد لقى من العنت ما لقى كل من دعاة التجديد الدينى فى الفكر العربى الاسلامى ، من محاربة واضطهاد حيث كان الاستبداد والنفوذ الأجنبى يلتقيان فى جبهة واحدة لتحطيم التجديد الدينى وتحريره من جمود التقليد ، فاصـــدر عبد الحميد أمره بنفى شكرى الى الأناضول ، غير ان انصاره فىالموصل استطاعوا أن يحولوا بينه وبين المنفى.

٤ — محمد بن على السنوسى الكبير ، سمع الدعوة الوهابية فى مكة فاعتنقها ، وعاد الى الجزائر يبشر بها ، ويؤسس طريقته فى المغرب . وقد صرف صدر عمره فى مكة، ثم عاد بعد الخمسين الى برقة، حيث مضى يؤسس الزوايا ليبث تعاليمه بين أهل البادية .

وكان ابرز معالم دعوته : العودة بالاسلام الى منابعه الأولى ، كما حملت السنوسية لواء الجهاد ، ومقاومة الاستعمار الايطالى ، حينما هاجم طرابلس وكان لتعاليم الدعوة أثرها الضخم فى الفداء .

فقد نهى السنوسي عن حياة الترف ، وحيازة الذهب والجواهر .

وفى السودان : حمل المهدى لواء الدعوة الى التجديد الدينى على نحو أقرب الى التجرد السياسى ، وقد قاوم الاستبداد ممثلا فى سلطاته المفروضة على اهل السودان.

(٢)

التيـــار الثقـــافى

المزج بين الشـرق والغـرب

برز التيار الثقافى المصرى فى الوطن العربى واضحا* فى أوائل القرن التاسع عشر يحمل لواء :

(١) الاقتباس من الغرب بالترجمة والتعريب .
« الترجمة »

(٢) خلق الراى العام وتنبيهه بالصحافة .
« الصحافة »

(٣) رفع مستوى الشعب بالتربية والتعليم .
« التعليم »

(٤) تبسيط اللغة العربية وتحريرها من السجع والزخرف
« اللغة العربية »

(٥) الدعوة الى تعليم المرأة وتصحيح منـــاهج المجتمع « المجتمع والمرة » .

وكانت معالم هذا التيار الثقافى العصرى تتمثل فى :

(١) المطبعة العربية التى دخلت العـــالم العربى (١٨٢١ ، مطبعة بولاق : القاهرة) و (١٨٣٤ مطبعة المرسلين الأمريكية : بيروت) هذا مع ملاحظة ان اول مطبعة عربية انشئت فى حلب فى أوائل القرن الثامن عشر وطبع بها الانجيل ١٧٠٦ .

(٢) المدارس الغربية الحديثة فى لبنان : وأول هذه المدارس ما أنشأه الآباء المازاريون ١٨٣٤ (عنيطورا — لبنان) : مدرسة بيروت (٢) القس وليم طمسن الأمريكى الدكتور فانديك : مدرسة عبية لبنان ١٨٤٧ (٣) المدرسة الانجليزية ١٨٦٠ الكلية الانجليزية للبنـــات ١٨٦١ (٤) المدرسة الوطنية (بطرس البســـتانى) ١٨٦٣

(٥) الكلية الأمريكية ١٨٦٦ .

(٦) الكلية اليسوعية ١٨٧٤ .

(٣) ظهور الصحف العربية : (١) الوقائع المصرية: رفاعة الطهطاوى وفارس الشدياق ١٨٢٧ القـــاهرة (٢) مرآة الأحوال : رزق الله حسون ١٨٦٥ . (٣) الرائد التونسى — تونس ١٨٦١ .

(٤) البعثات التى اتجهت الى اوربا والتى كان نواتها امثال : رفاعة الطهطاوى (١٨٢٦) وعلى مبارك (١٨٣٤) .

(٥) الهجرة اللبنانية الى أمريكا والدور الفكرى الذى قامت به فى المهجر .

ومن هـــذه المعالم جميعا بدأ هذا التيار الثقـــافى المصرى الذى اعتمد على النقل والاقتباس من الحضارة الغربية فى (مجال الترجمة والصحافة والتعليم) والذى أثر فى ميادين التربية والمجتمع واللغة العربية . وهو مكون من عنصرين : عنصر الرواد الذين ســـافروا الى أوربا وعادوا ، وعنصر الأعلام الذين تأثروا بالمرسلين الغربيين الذين وفدوا الى العالم العـــربى والذى ركزوا جهودهم بصفة خاصة فى لبنان وحرصوا على ان يبدأ بالعمل من القرية بدلا من المدينة فأنشاوا مدارسهم فى قرى لبنان وكان بين الانجيليين الأمريكين والسيوعيين والفرنسين منافسة على العمـــل فى هـــذا الميـــدان وقد اشتركت القاهـــرة وبيروت وتونس فى هـــذه الحركة الضخمة التى كانت تيـــارا طبيعيا لابد منه بعد اتصالنا بالغرب ، هذا الاتصال بدأ بالحملة الفرنسية ١٧٩٨ عندما استقدم نابليون الى مصر أول مطبعة عربية وكانت حملته عبارة عن نقطة البدء فى الغزو الثقافى الغـــربى حيث بدأت البعثات المختلفة من امريكا وفرنسا وبريطانيا ودول أخرى عديدة تزحف الى العالم العربى وتقيم فيه المـــدارس والمطابع والصحف وترصـــد فى ميزانياتهـــا اعتمادات ضخمة للتبشير .

وفى هـذا المجال ظهرت مدارس أربع :

* المدرسة المصرية (رفاعة وعلى مبارك) .

* المدرسـة اللبنانية (وقد امتزجت بالمدرسـة المصرية حينا) .

* المدرسة المهجرية .

* * *

المدرسـة المصرية

ظهرت المدرسة المصرية فى تيـار الثقافة الحديثة المتصلة بالغرب مبكرة فى الثلاثينيات من القرن التاسع عشر حينما بدأت البعثـات المصرية الى أوربا . وكان رائد هـذه المدرسـة هـو « رفاعـة الطهطـاوى » (١٨٠١ — ١٨٧٣) الذى سافر الى فرنسا ١٨٢٦ وعاد ١٨٣١ وعمل فى ميادين الترجمـة والتربية والصحافة والتأليف والتعليم والشعـر . ونظم الأناشيد الوطنيـة وتراجم القوانين .

وكان رمزا على الرابطـة بين الأزهـر والثقافة الغربية ، ولا بد أنه كان هو بطبيعته النفسية متأهبا لحمل لواء هـذه الرسالة ، وتقبل التطور الفكرى بين دراسات الأزهر ودراسات الجامعات الغربية ، وقد كان رفاعة علما على المدرسة التى دعت الى النقل والاقتباس من الثقافة والحضارة الغربية فى حدود ما هو صالح منها وما هو نافع لنا . وقد حاول نقل خير ما وجد فى أوربا ، ونقد ما شاهده من عيوب فى مجال الحضارة الغربية ، ومرجع هذا الى أصالة الثقافة العربية الاسلامية والمفاهيم الأساسية وايمانه بالكيـان الفكرى الاسلامى الأصيل ، وحرصه على تنقيته وصقله والزيادة فيـه بالاقتباس ، ولذلك فقد حال ذلك كله دون اضطراب شخصيته أمام مفاتن الحضارة ومع ذلك فان هناك تحفظات على وجهة رفاعة الطهطاوى كشفت عنها الابحاث فيما بعد وخاصة فى موقفه من الاقتبس من الغرب ومن مفهوم الوطنية المصرية .

وكان لأستاذه (حسن العطار) الفضل فى تكوين هـذا الاتجاه عنده ، فقد عرف العطار بالتجديد والايمان بضرورة النقل من الغرب بما يزيد شخصيتنا قوة .

ولعل حرص (رفاعة) على أن يحقق لوطنه ريادة كاملة فى الفكر الغربى هو ما حمله على أن يساهم بهذا المحصول الضخم فى ميدان الفكر العربى ، فقد كان أول من كتب عن « الوطنية القومية » ان صح اطلاق هـذا التعبير عليها ، على أساس غلبة اللون المصرى ومقاومة الاتجاه التركى . وتعليم المرأة وتحريرها ، وحب الوطن والمفاخرة به ، ووحدة وادى النيل واحياء التـاريخ القـديم .

بل انه قد تكلم عن قناة السويس وحق مصر فيها وصور مظالم الاقطاع فتحدث عما يلاقيه العمال الزراعيون من الظلم على أيدى الملاك الاقطاعيين وهاجم الاقطاع مهاجمة عنيفة وندد بالامتيازات الأجنبية .

ثم هاجم فرنسا لاحتلالها الجزائر . كما هاجم المجتمع الفرنسى وانتقد كثيرا من أخلاقه وعوائده وانتقد نظرة المجتمع الفرنسى العلاقة بين الرجل والمرأة وبذلك يكون (رفاعة) قد عمل فى الميادين الخمسة التى حمل لوائها التيار الثقافى . وهى الاقتباس من الغرب بالترجمـة والتعريب ، وخلق الرأى العام وتهيئته بالصحافة ورفع مستوى الشعب بالتربية والتعليم ، وتبسيط اللغـة العربية وتحريرها من الزخرف وتحرير المرأة والدعوة الى تعليمها ، وتصحيح مفاهيم المجتمع .

وقد واجه (رفاعة) اضطهادا فى عهد عباس نظرا لآرائه الجريئة فى الحـرية والحـكم والدعوة الى تجديد مصر وتحسين أوضاعها ، واعتباره التربية : الأساس الأول لخدمة الوطن .

وهو يرى أن الوطن هو « عشيرة الانسان الذى فيه درج ومنه خرج ومجمع أسرته وهو البلد الذى نشأته تربته وغذاه هواؤه . وان حب الوطن من الايمان ومن طبع الأحرار احراز الحنين الى الأوطان . ومولد الانسان على الدوام محبوب منشؤه ، مألوف له ومرغـوب . ولأرض الوطن حرمـة كما للوالدة حق لبنيها والكريم لا يجفو أرضا بها قوابله ولا ينسى دارا بها قبائله » .

وقد شهد « رفاعة » الثـورة الفرنسية ودرس عواملها وترجم مواد الدستور الفرنسى (دستور ١٨٢٤) وترجم القانون المدنى وقانون التجارة الفرنسى كما اشترك مع عبد الله أبو السعود وأحمد حلمى فى نقـل قانون المحاكمات وقانون الحدود والجنايات .

ولم يقبل رفاعة أن يشترك فى مشروع الخـديو اسماعيل أنقل قوانين نابليون واحلالها بدل التشريع الاسلامى . كما اقتبس من الدستور الفرنسى عدة عبارات

ونظم بعض الاشعار التى عبر فيها عن الشورى وحاجة وطنه الى العدل .

وقد أعلن (رفاعة) دعوته الى تعليم المراة ويرى ان تربية اولاد الملة وصبيان الأمة واطفال المملكة ذكورها واناثها من أوجب الواجبات ، كما يرى أن من حق المراة أن تعرف كل أمور دينها ، بل ان حقها على الزوج ان يعلمها ذلك اذا لم تكن تعلمته .

كما كان لآرائه الجريئة عن الشورى والحرية ما دفع عباس الى نقله منفيا الى السودان ١٨٤٩ حيث بقى نحو اربعة اعوام بعيدا عن مجاله فى العمل ترجم فيها كتاب (مواقع الأملاك فى وقائع تليماك) .

كما ترجم الى العربية تاريخ اليونان ، والميثولوجيا اليونانية واخبار الأمم القديمة كالمصريين والبابليين .

وبه بدات نهضة الترجمة التى اتسعت وامتدت بعد انشائه لمدرسة الالسن ١٨٣٥ حيث تكون جيل من تلاميذه فى مقدمتهم : صالح مجدى ، وعبد الله ابو السعود

وجملة رأيه ان للتمدن والعمران واسطتين :
(١) تهذيب الأخلاق والآداب الدينية والفضائل الانسانية
(٢) المنافع العمومية التى تعود بالثروة والغنى فيحسن الحال وينعم البال .

٢ — أما على مبارك (١٨١٦ — ١٨٨٦) فهو لم يتعلم فى الأزهر ، وانما تعلم فى مدرسة الهندسة وسافر فى احدى بعثات محمد على واقام فى فرنسا خمس سنوات ووصل الى منصب ناظر المعارف فى عهد اسماعيل ، وقد عمل على اصلاح التعليم ، وانشأ مدرسة دار العلوم فأخذ لها من خيرة طلبة الازهر حيث تلقوا العلوم الدينية واللغوية والتاريخ والجغرافيا والرياضة والطبيعة والكيميا وانشأ مجلة « روضة المدارس » ورأس تحريرها « رفاعة الطهطاوى » وألف الخطط التوفيقية فى عشرين مجلدا (١٠٨٧ — ١٨٨٩) وقد دعا الى ما أسماه « الوجوه الحسنة من مدنية الغرب ، ونبذ السىء منها » وآمن باصلاح التعليم ، ويرى أن الاصلاح السياسى خير من الثورة ، ولذلك فهو لم يشترك فى الثورة العرابية كما أنشأ دار الكتب .

جمع آرائه فى الحضارة والشرق والغرب فى قصة ألفها باسم « علم الدين » وهى قصة شيخ تربى فى الأزهر تتلمذ عليه مستشرق انجليزى تعلم منه اللغة العربية ودعاه الانجليزى ليزور معه انجلترا فلبى الدعوة وقد ضمت مجموعة ضخمة من المعلومات والأفكار . قصر رفاعه ميدانه الفكرى على اصلاح التعليم فاقتبس من أنظمة المدارس الفرنسية وحول الكتاتيب الى مدارس نظامية واصدر لائحة التعليم ١٨٦٨ .

٣ — امتدت هذه المدرسة الثقافية المصرية فى مجموعة من الأعلام فى مختلف الميادين من بينهم : صالح مجدى ، وعبد الله أبو السعود وخليفة محمود ومحمد قدرى ، ومحمد عثمان جلال ، ومحمود الفلكى ، وعبد الله فكرى.

* * *

المدرسة اللبنانية

كان للمدرسة اللبنانية دورها الضخم الواضح فى هذا التيار ، فقد عملت فى مختلف الميادين ومن اعلامها حسب الترتيب التاريخى :

الدور الأول : ناسيف اليازجى . بطرس البستانى فارس الشدياق .

الدور الثانى : سليم البستانى . سليمان البستانى ابراهيم اليازجى . يعقوب صروف .

وقد جمع هؤلاء بين العمل فى ميدان الترجمة والصحافة وتجديد اللغة العربية وعمل ناسيف اليازجى وبطرس البستانى وسليم البستانى فى التعليم وحمل لواء تحرير المراة (خطاب بطرس البستانى — ١٤ كانون الأول ١٨٩٤) وفارس الشدياق .

* * *

١ — البستانيون :

وقد كان للبستانيين دور كبير فى التيار الثقافى فى هذه المرحلة . فبطرس البستانى مؤسس أول مدرسة وطنية عالية فى لبنان (١٨٦٣) . ومنشىء أول معجم عربى عصرى ومخرج أول موسوعة عربية وفق الأساليب المتبعة فى الغرب . وقد ترجم للانجليز ثم اتصل بالمراسلين الأمريكيين وعمل مع المستشرق فانديك وانشأ مجلة (نفير سوريا) ثم مجلة الحنان كما ترجم التوراة بالاشتراك مع الدكتور غالى سمث .

ومن مؤلفاته : قاموس محيط المحيط ، قطر المحيط، دائرة المعارف .

وقد طبع الثقافة العربية بالطابع الحديث ، وجارى علماء الأفرنج ، وقد اتم مشروع دائرة المعارف فى سبعة أجزاء .

وعمل سليم البستانى (١٨٤٨ — ١٨٨٤) فى نفس الميدان ، حرر مجلة الجنان وشارك فى اعداد دائرة المعارف وواصل العمل فى المدرسة الوطنية التى انشأها والده فى بيروت .

وعالج الرواية الاجتماعية . وقد سبق جورجى زيدان بعشرين عاما فى وضع الروايات الافرنجية كما قام سليمان البستانى (١٨٥٦ — ١٩٢٥) باكبر عمل فى ميدان الثقافة والفكر العربى المعاصر وهو ترجمة الياذة هوميروس شعرا الى العربية وساهم فى دائرة المعارف واحترف التعليم وحرر مجلة الجنان .

وعنى عبد الله البستانى (١٨٥٤ — ١٩٣٠) باللغة والمعاجم والتعليم . وعلم فى المدرسة البطريركية فى بيروت وله معجم البستانى فى مجلدين . ومن تلاميذه: شكيب أرسلان ، وبشارة الخورى، واسعاف النشاشيبى وداود بركات .

* * *

٢ — اليازجيون :

عمل اليازجيون (ناصيف : ١٨٠٠ — ١٨٧١) فى ميدان خدمة اللغة العربية وتجديدها، كما علم فى المدرسة الوطنية للبستانى والكلية للامريكان . وهذب اللغة العربية والمنطق والشعر ، كما ساهم فى احياء تراث اللغة المشترك ونشره : واتصل بالمراسلين الأمريكيين وصحح مطبوعاتهم ولا سيما الكتاب المقدس وابرز مؤلفاته : مجمع البحرين ، الذى عارض فيه مقامات الحريرى فى ستين مقامة ، ومؤلفاته فى (اللغة العربية) فصل الخطاب فى اصول لغة الاعراب . الجوهر الفرد فى موجز الصرف وفى (البيان والبديع) : مجموع الأدب فى فنون العرب .

وعمل ابراهيم اليازجى (١٨٤٧ — ١٩٠٦) فى نفس الميدان : فاشتغل باللغة العربية والصحافة والترجمة وكان ناقدا لاذع النقد . له مساجلة هامة مع فارس الشدياق . وقد فاق والده فى العلم باللغة والفقه لأسرارها . وانتدبه اليسوعيون للاشراف على تعريب التوراة ، فعمل بها تسع سنوات ، ثم هاجر الى مصر وأصدر البيان ١٨٩٥ والضياء (١٨٩٨ — ١٩٠٦) .

٣ — وعمل فارس الشدياق (١٨٠٤ ، ١٨٨٧) فى ميادين اللغة والصحافة والترجمة . وكان أبرز معالم فكره ، حرية الراى وسخرية النقد والرأة فى نقد الكنيسة ورجالها ، واصلاح المجتمع . وتجديد اللغة العربية والأسلوب العربى .

عمل فى الوقائع مع رفاعة الطهطاوى واصدر الجوائب (١٨٦١ — ١٨٨٣) ودعا الى تحرير المرأة .
وعمل مع المراسلين الأمريكيين فى ادارة مطبعتهم بمالطة وتصحيح الكتب العربية . كما عمل فى لندن بدعوة من جمعية ترجمة التوراة وحرر الرائد التونسى واشترك فى ترجمة الكتاب المقدس ١٨٥٩ .

وله فى اللغة ، سر الليال فى القلب والابدال . والجاسوس على القاموس وله رحلته التى ترتبط مع رحلة رفاعة الطهطاوى وعبد الله فكرى . (الساق على الساق فيما هو الفارياق) .

* * *

وقد ارتبطت هذه المدرسة اللبنانية بالثقافة الفرنسية ، وعمل رجالها مع المرسلين الأمريكيين وجمع اغلبهم بين الصحافة والتعليم واصلاح اللغة العربية والترجمة والدعوة الى تجديد الفكر اعربى بالاقتباس من الفكر الغربى .

وقد امتدت هذه المدرسة فى يعقوب صروف ١٨٥٢ — ١٩٢٧ صاحب المقتطف ، ولويس شيخو صاحب (المشرق) وشبلى شميل (١٨٦٠ — ١٩١٧) داعية مذهب النشوء والأرتقاء فى الفكر العربى .

ثم لم تلبث مدرسة مصر ، ومدرسة لبنان أن ارتبطتا وانصهرتا فأخرجنا أعلام التجد د الفكرى بمفهوم (التبعية) والصحافة والترجمة ، امثال : اديب اسحق ، وفرج انطون ، ورزق الله حسون ، ويعقوب صنوع ، وفرنسيس مراش .

وبالجملة فقد كانت المدرسة اللبنانية تابعة لمخطط للتبشر الغربى ومنفذة له .

٤ — اثر الهجرة اللبنانية

بدأت الهجرة اللبنانية الى امريكا الشمالية ١٨٥٤ التى فتح طريقها أنطون البشعلانى وتوالت طــوائف المهاجرين وازدادت بعد حوادث ١٨٦٠. ثم اتسع نطاقها بعد الثورة العرابية ويمكن اطلاق اسم الهجرة الشامية عليها نظرا لاشتراك الفلسطينيين والسوريين فيها .

وكانت ظاهرتا المجاعة والفقر من أبرز عوامل هذه الهجرة ، بدأت الهجرة الى البرازيل (أمريكا الجنوبية) عام ١٨٧٤ وتكاثر المهاجرون بها فى نهاية القرن بعد هرب يوسف كرم من لبنان مع فريق من جنــوده الى أمريكا الجنوبية ووصلت طلائع المهاجرين الى الأرجنتين ١٨٨٤ التى فتحت أبوابها للمهاجرين العرب حتى زاد عددهم عن ٣٠٠ الف .

وقد بدأت النهضة الفكرية ١٨٨٨ فى الشمال حيث صدرت أول جريدة لهم فى نيويورك (كوكب أمريكا) ثم صدرت (الهدى — نعــــوم مكرزم ١٨٩٨) ثم توالت الصحف كما انشأت الجمعيات . وفى مقدمتها الرابطة القلمية بنيويورك ١٩١٢ والعصبية الأندلسية (سان باولو ١٩٣٢) وفى المهجر ظهر تيار من الأدب العربى عرف بالأدب المهجرى تأثر اصــحابه الأدب الغربى فى طلاقته وفى التحرر من قيود الاسلوب والمعانى . وكان ولا شك لظهور هذا الأدب فى بيئة غير البيئة العربية التى كانت محتملة فى ذلك الوقت بقيود الاستبداد والتقاليد ما مكن له من أن يحمل لواء التحرر .

وأبرز من ظهر فى المهجر : جبران وامين الريحانى ونسيب عريضة وفرحات وميخائيل نعيمة وايليا ابو ماضى والشاعر القروى وشفيق معلوف .

ولا شك كان للعوامل النفسية والاجتماعية التى أحاطت بهؤلاء المهاجرين اثرها فى أدبهم ، فهم قد هاجروا من أوطانهم فى ظل من الحاجة والمسغبة والاضطهاد ، فاذا بهم يقطعون الطريق الى عالم مجهول ، عاشوا فيه بين الاغتراب والفاقة والعمل المضنى فى سبيل كسب العيش ، وذلك بحمل « الكشة » على اكتافهم يدورون بها فى القرى ويعرضون ما يحملون فيها من لعب ودبابيس وامشاط وصابون على البيوت التى يدقون ابوابها وقــد استمروا طويلا فى هذا الجلاد المضنى حتى تحقق لهم الحصول على الغنى ، وفى ظل هــذا الكفاح المضنى انتجوا آثارهم الأدبية التى حملت فى تضاعيفها معنى الحرمان والاغتراب والشوق الى الوطن وتصــوير ما احتملوه من متاعب وآلام . وقد ذاع هذا الأدب فى العالم العربى كمذهب جديد تأثر به الأدب فى اسلوبه ومضمونه ، وكان الشعر اشد تأثرا به ، وحمل الأدب العربى فى لبنان لواء اللون المهجرى حتى عرف به .

ولا شك ان كان الأدب المهجرى بمعالمه وآرائه وحريته اثر واضح فى الفكر العربى الحديث فقد حمل لواء الدعوة الى الحرية والقوميــــة العربية ومقاومة الاستبداد والاستعمار ، واتاح للآثار التى صدرت منــه باللغة الانجليزية أن تعرف الغرب بالفكر العربى وقــد أصابت آثار كثيرة منه وفى مقدمتها كتاب النبى لجبران خليل جبران شهرة بعيدة فطبعت منه عشرات الآلاف من النسخ .

ويمثل الأدب المهجرى صورة واضحة لامتزاج الفكر العربى بالفكر الغربى والتأثر به فى الأسلوب والطريقة. قد وصف الأدب المهجرى : بالواقعية والانسانية ، وقد تأثر الروح الغربى واتجه نحو الانسان من حيث هو انسان حى ، فكان فى مجموعــه يحمل لواء الدفاع والكرامــة والحرية الانسانية .

وتمثل الهجرة اللبنانية فى الفكر العربى طابع الأمة العربية فى الهجرة والاقتحام والمغامرة والتطلع الى الآفاق البعيدة والخروج من البيئة اذا تضاعفت فيها عوامل الاضطهاد والفقر فى محاولة للبحث عن الرزق والحرية والكرامة مهما احتمل فى سبيل ذلك من العنت . وقد حققت الهجرة اللبنانية هذا المعنى ، ففتحت آفاقا جديدة وظل العدد الكبير من المهاجرين مرتبطا بالوطن ، مؤمنا بالعروبة واللغة العربية . يمتزج فى تفكيره الشوق الى أرض الوطن بأفكار الحرية والكفاح فى سبيل الرزق . وكانت لصيحات الحرية التى اعلنها اثرها الواضح فى الوطن العربى .

وقــد كان للباحثين على الأدب المهجرى تحفظات كثيرة تتعلق بعدم التزامه بالقيم الاسلامية .

(٢)
دور الأزهــــر

لاشك ان للأزهر (٩٧٢ م) دوره الكبير فى ثقافتنا العربية ، هذا الدور الذى امتد خلال الف سنة دون أن يتوقف ، حتى فى الفترة التى ركد فيهـا الفكر العربى الاسلامى وأصابه الجمود والتوقف ، ظل الازهر حمى للتراث الاسلامى وملاذا للغة العربية والدين ، فلما بدات اليقظة الفكرية المعاصرة دبت الحياة فى الأزهر من جديد ومضى يواجه الطريق الى التطور والنهضـــة ومقاومة الغزو الثقافى والاستبداد والنفوذ الأجنبى والاستعمار ، فكان مصـــدرا لكل حركات المقـــاومة الوطنية فى خـلال العصر الحـديث كما كان فى الفترة السـابقة معقلا لحمـاية اللغة العربية والدين والتراث الاسلامى حي ثحفظ اللغة العربية من طغيـــان اللغات الأجنبية وقد قام الأزهر بدوره ازاء النفوذ الأجنبى والاستعمار .

أولا ــ قاوم استبداد الولاة المماليك وقام بتحرير وثيقة تحرير الانسان .

ثانيا ــ قاوم الحملة الفرنسية وقاد المقاومـــة الشعبية .

ثالثا ــ عزل الحاكم التركى خورشيد .

رابعا ــ اشترك فى الثورة العرابية .

خامسا ــ كان الأزهر معقلا لثورة ١٩١٩ .

وقد اتصل الأزهر بالثقافة الغربية الحديثة منذ أوائل القرن التاسع عشر حيث سافر رفاعة الطهطاوى الى باريس ، وعياد الطنطاوى الى بطرسبرج وشهدت جامعة السربون عام ١٨٢٨ حفلا عاما من علماء فرنسا وعظمائها يسـتمعون الى الأزهريين فى امتحانهم وكان « حسن العطار » الذى تولى ــ فيما بعد ــ منصب شيخ الازهر هو استاذ رفاعة الطهطاوى ، وعيـــاد الطنطاوى وغيرهم ، حيث كان يدرس لهم مقـــامات الحريرى وديوان الحماسة ، ولم تكن هذه الكتب تدرس فى الأزهر وقد اتصل بعلماء الفرنسيين الذين قدموا مع الحملة الفرنسية وأفاد منهم ثقافيا .

كان الشيخ حسن العطار (١١٨٠ ــ ١٢٥٠) اول من نبه الى اصلاح الازهر بتجديد برامج التعلم فيه، ونقد اهمال الأزهر كتب المتقدمين والعلوم الحـــديثة والرياضة ووجه رفاعة الطهطاوى الى دراسة العـلوم التى نبغ فيها الغرب ليقوم بنقلها الى اللغة العربية .

وحقق رفاعة أمل شيخه وكان لترجماته وابحاثه أثرها فى كسر ذلك القيد الذى وقف طويلا بين الأزهر وبين الثقافة الحديثة وخفف من حدة نظرة العداء الى المدنية الأوربية .

ودعا رفاعة الطهطاوى الى اصلاح الأزهر وادخال العلوم العصرية فيه غـــير أن الازهر لم يكن مستعدا للتطور السريع ، ولذلك فقد عجز أن يواجه الاتجـــاه التغريبى الذى قام بهاسماعيل فى نقل القوانين الفرنسية.

وقد ورد فى بعض المراجـع (كتاب مســتر دن المستشرق الانجليزى : الحياة الفكرية فى التاسع عشر) أن الحملة الفرنسية حينما قدمت الى مصر وجـدت فى صحن الازهر بضع نساء يتعلمن الى جانب الشبان لكى يتفقهن فى الدين . وانه كانت هناك عالمة ضريرة يلتف حولها الشبان ويتلقون الدروس عنها . واذا كان البعض قد اثار الشك حول هذه الرواية فان التاريخ قد حفظ اسماء : فاطمة الازهرية وسنية الطبلاوية ، وهما اللتان تعلمت على أيديهما عائشة التيمورية فن القصـــائد والموشحات .

٢ ــ وقد كانت طريقة التعليم فى الازهر اذ ذاك كما وصفها : محمد خالد حسنين هى الطريقة الاملائية . فكان الاستاذ يجلس وسط حلقة من طلبته ويملى عليهم درس الاملاء . وقد لبث الازهر على ذلك فترة من الزمن الى أن كثر التدوين والتاليف فشرعوا فى دراسة الكتب.

ولم يكن للأزهر قانون ينظم الدراسة التى كانت تجرى على أساس رغبة كلطالب فهو الذى يختار درسه ويختار استاذه ، فاذا بلغ قدرا من الكفاءة تقدم باذن من شيخهالى حلقة يحضرها بعض الطلاب ويشهدها العلماء فيقرأ لهم فان فهموا واستفادوا اقبلوا عليه ، وكان ذلك شهادة بأنه من العلماء .

وأول قانون وضع للازهر (فبراير ١٨٧٢) ينص على نيل شهادة العالمية بامتحان على يد لجنة من العلماء يختارهم شيخ الازهر ، ويقسم العلماء الى ثلاث درجات: أولى ، وثانية ، وثالثة ، وتصدر بذلك براءة عالمية ــ والمواد هى : الفقه والأصول ، والتوحيد ، والحديث ، والتفسير ، والنحو والصرف ، والمعــانى ، والبيان ، والبديع ، والمنطق ، ثم زيدت علوم الحساب والجبر والهندسة والفلك . وفى عام ١٩١١ انشىء مجلس الازهر الأعلى وهيئة كبار العلماء واقسام التخصص .

٣ ــ كان لجمال الدين الأفغانى دوره فى اصــلاح الأزهر فقد دعا الى اصــلاح مناهج التعليم ، واتصــل ببعض أساتذة الازهر وخريجيه ، ودرس لهم امهـــات الكتب فى عــلم الكلام والحكمة والهيئة والتصـــوف واصول الفقه وكما دعا الازهريين الى دراسة التــاريخ وقال :

اذا بقيتم على جهلكم بالتاريخ على هذا الحــد فلا يمكنكم أن تعرفوا دينكم ولا نجاح لكم فى دنياكم . ان قراءة التــاريخ واجب من الواجبــات الدينية وركن من أركان اليقين فلابد من تحصيله .

٤ ــ وكان لمحمد عبده دوره الايجابى فى تجديد الازهر واصلاحه اذ استطاع انشاء مجلس ادارة الازهر وكان هو من أعضائه فترة غير طويلة . وقــد اجرى المجلس محاولات لاصلاح نظام التدريس والامتحان ، غير انه لقى عقبات كبيرة فى سبيل اجراء اصلاح شامل يقضى علىكل أثر للجمود فى الازهر ، وكان رأى الجهات المسئولة الواقعة تحت سلطان النفوذ الأجنبى توقيف التطور باسم التدرج فى الاصلاح وقد انتهى الأمر الى وضع قانون يقوم باصلاح نظام الدروس والامتحان صار به الازهر ادارة نظامية .

وقد لقى محمد عبده مقاومة ضخمة من الخديو الذى كان نصيرا للاستعمار وحريصا ــ على أن لا يدخل اى تقــدم فكرى من شأنه أن يحـــرر الأذهان ، كما وجـــد المقاومة من اساتذة الازهر وعلمائه ، الذين كانوا يؤمنون بنظام التعليم القديم حتى لقد يذهب البعض الى القول بأنه حين وجه الى الشيخ عبده القول فى مجال الدفاع عن النظام القديم انه واحد من ثمراته وانه قد وصل الى ارقى الدرجات . ان اجاب بأنه اذا كان لى خط من العلم الصحيح فانى لم احصله الا بعــد ان مكثت عشر سنين اكنس من دماغى ما علق فيه من علوم الأزهر . وقــد حملت دعوة محمد عبده الاصلاحية عمـــلا من شقين : (١) اصلاح الازهر (٢) الاصـــــلاح الدينى بفتح باب الاجتهاد .

٥ ــ غير أن هذا النظام الجديد للازهر لم يلبث أن توقف بعد أن وقع الخلاف بين الخديو والشيخ محمد عبده فاستيقظت النزعة القديمة التى وضعها الشــيخ الظواهرى وعبر عنها بقوله . « الدين كما تركه انا الائمة . ما سوى من أمور الدنيا وعلوم الاعصر فلا علاقة للأزهر به » وانكر العلماء التجديد « الذى من شأنه أن يهدم معالم التعليم الدينى ويحول المسجد الى مدرســة فلسفة وآداب تحارب الدين وتطفىء نوره » ووافق الخديو على ادخال العلوم الحديثة . ورفض الاصــلاح الدينى .

ووقف عــدد من مشايخ الازهر منهم (الشربينى والبشرى) ضــد الاصلاح مما انتهى الى الغـــاء النظام الجديد واعيد النظام القديم عام (١٩٠٩) وكان من أهم أسباب الاعتراض على النظام الجــديد : الزام الطلبة (الامتحان فى العلوم الحديثة) .

٦ ــ ربط الأزهر العــالم الاسلامى فكان مجــال الالتقاء بينشباه مصر والشام والمغربوالترك والسودان والحجاز وجاوة والحبشة والأفغانوالهند والعراق وقد بلغ طلابه عام ١٩٠٦ (١٠ آلاف طالب) .

وخرج الأزهر اعلاما قاموا بقيادة الفكر العربى الاسلامى فى هذه الفترة ومابعدها وفى مصر امثال : حسن العطار الستاذ الطهطاوى والطنطاوى ، وحسن الطويل أستاذ محمد عبده ، ومحمد عنده ، وحسين المرصفى ، وســـعد زغلول ، واحـــــد ابو خطـــوة ، وعلى يوسـف وابراهيم الهلباوى ، وعبد السلام المويلحى ، وابراهيم اللقانى . والمراغى .

وقد عرف للشيخ حسن العطار موقفه من نابليون حيث انتزع القلادة التى قلده اياها والقى بها الى الأرض فى حضرته ورفض ان يقبل تحية محتل لبلاده وقد اشترك

الأزهر عام ١٩٠٢ فى مؤتمر اللغات الشرقية (بهامبورج) بألمانيا ولا شك أن الاستعمار الغربى والغـــزو الثقافى بمختلف مراحله قد وجه كثيرا من خططه التغريبية نحو الازهرفحرص على أن يفصل بينهوبين التطور والحضارة وذلك بالتوسع فى التعليم المدنى مما خلق مشكلة (ثنائية التعليم) التى كان لها أثرها الواضح .

٧ ـ ويتصل بأثر الأزهر فى التفكير العربىالحديث أثر معاهد أخرى تقوم بنفس رسالته منها : معاهــد النجف بالعراق والزيتونة فى تونس والقروى فى المغرب والخلايا فى السودان ، وحلقات مساجد دمشق والجزائر والزوايا السنوسية فى طرابلس .

***

فقد كان لهذه المعاهد العلمية القائمة على الدراسات الدينية واللغوية أثرها الواضح فى الروابط التى قامت بين اللغة والفقه والذى كان لهــا بعيد المدى فى مقاومة تيارات التغريب والغزو الثقافى التى استهدفت ، القضاء على اللغة العربية والاسلام وتزييف اريخ لأمة العربية والامة الاسلامية والتشكيك فى القيم والتراث والبطولات ومدى الدور الذى قامت به الأمة العربية فى نقل الحضارة والمحافظة عليها والتفاعل معها وتطويرها ، مما كان له ابعد الأثر فى ظهور الحضارة والحديثة .

***

مراجع البحث

/ك/ الأزهر بين الماضى والحاضر : منصور رجب ملحق المقتطف (ابريل ١٩٤٦) .

الرسالة ص ١١٠ مجلد السنة التاسعة .

محمود أبو العيون ـــمجلد ٤٠ الهلال ص ٦٠ .

التعليم فى الأزهر = ص ١٣٨ الهلال مجلد ١٥ .

الأزهر فى جامعة غرناطة : الاهرام ٣٢/١٢/١٩ (محمد خالد حسنين) .

/ك/ تاريخ الاصلاح فى الأزهر : عبد المتعـــال الصعيدى .

* * *

(٣)

دور الصحـــــافة

كان الصحافة العربية دورها فى يقظة الفكر العربى الاسلامى المعاصر ، فقد عاصرت هذه اليقظة وارتبطت بها وكانت عاملا فاعلا منفعلا بها. فالصحافة هى ابرز عوامل الثقافة واعمقها اثرا ، وهى اقوى من المدرسة والكتـاب فضلاعن انها بعيدة الأثر فى التيارات المختلفة: الاجتماعية والسياسية ، وقد حملت لواء تجديد الفكر الدينى والدعوة الى الحرية والاصلاح ، مقاومة طغيان السلاطين والملوك والأمراء ومهاجمة التدخل الأجنبى والاستعمار . وقـد استغلها الحاكم المستبد والأمير والسلطان والاستعمار.

حملت الصحافة لواء الدعوات المختلفة : التجزئة والوحـــدة ، والجامعة الاســلامية والقومية العربية والفرعونية والفينيقية ودعوات التغريب والغزو الثقافى، ودعوات المقاومة وتحرير الفكر العربى من اطار التبعية الانجليزية أو الفرنسية .

وكانت الصحافة فى دورها الضخم تمثـل معركة الفكر العربى كله مجسمة فى صورة صحف تصدر هنـا وهناك فى أنحاء الوطن العربى ، وفى خارج الوطن العربى فى لندن وباريس والاستانة .

ولقى الصحفيون الاستشهاد والغنائم على حـد سواء ، عاش المجاهدون والأبرار منهم حياة الضـمير والكرامة مع الفقر والاضطهاد من الاســتعمار وعاش المحترفون العملاء حياة الثراء وكانت اقلامهم تقطر السم وتحرف القول .

و فى هذه الفترة (حتى نهاية الحرب العالمية الأولى) تبدو الصحف فى ثوب بسيط تغلب عليه ركاكة الأسلوب الذى تطور الى أسلوب وسـط . مع بساطة الاخراج وغلبة الرأى على الخبر ، وغلبة الكتابة على الصورة . وغلبة روح الوطنية الخالصة على روح العمالة للاحزاب والهيئات . وغلبة صحف الافراد على صحف الشركات والمؤسسات .

× صدرت الصحف فى أول أمرها بواسطة الحكام أو الاستعمار. فأصدر محمد على الوقائع المصرية (١٠٢٨) واصدر والى سورية (حديقة الأخبار) والباى فى تونس أصدر (الرائد) وداود باشا حاكم لبنان اصدر جريدة لبنــان ١٨٦٧ وصــدرت الجوائب فى الاســتانة موالية للسلطان عبد الحميد والخديو فى مصر والباى التونسى ، كما اصدر الاستعمار صحفا تدافع عن وجوده مثل المبشر فى الجزائر (١٨٤٧) والمقطم فى مصر (١٨٨٩) .

ثم صدرت من بعد صحفا حرة ، قام باصدارها الأفراد ، ولكنها كانت ذات ولاء من نوع أو آخر ، ولم تتحرر الصحف الا حين دعا جمال الدين دعوته فى مصر الى الحرية ومقاومة الاستبداد ، حينئذ ظهرت مدرسـة الأبرار فى عالم الصحف ، أولئك الذين صارعهم الحاكم أو الاستعمار أو النفوذ الأجنبى ، فاغلق صحفهم واحدة بعد أخرى ، ولقوا بعد ذلك السجن والنفى والتشريد ، ومن هؤلاء أديب اسحق وسليم نقاش .

× وكان رزق الله حسون أول عربى انشأ صحيفة عربية هى مرآة الأحوال ١٨٥٥ ثم فارس الشدياق اصدر (الجوائب) الاستانة وأصدر عبد الله ابو الســـعود (وادى النيل) ١٨٦٦ .

× واستطاعت طوائف من أحرار سوريا وصحفها أن نقلت من الحصار وصدرت فى القاهرة صحف تهاجم فيها ما يسمى الاستبداد الحديدى والخلافة العثمـانية ولم يكن هذا فى حد ذاته يعنى الا أن بريطانيا التى كانت تحكم مصر اذ ذاك تشجع مهاجمة دولة الخلافة لتحطيمها والاستيلاء على ميراثها . وكان الهجوم على دولة الخلافة يحمل أكثر من معنى فقد كان بالنسبة لبعض كتاب لبنان رد فعل لأحداث سنة ١٨٦٠ والجرى فى تيار الاستعمار الفرنسى والبريطـانى الذى كان يعمـــل على تحطيم الامبراطورية العثمانية .

× كانت الصحافة العربية فى هذه الفترة تهدف الى : (١) اصلاح اللغة العربية بعد أن تحولت من الركاكة فى التعبير الى أسلوب ميسر معقول (٢) تحرير الوطن العربى من الحكام المستبدين فى مختلف الاقطار ، والاستعمار (٣) تحرير الوطن العربى من التقاليد والعادات البالية .

كما قامت الصحافة تدور فعال فى قضية المرأة وانشاء الجامعة ، ودعم الاقتصاد الوطنى والاشتراكية والقومية العربية .

× واستعملت الصحافة فى هذه الفترة اسلوب العاطفة ، واثارة النفوس والحماس والرأى الجرىء ، وقامت على أكتاف دعاة مؤمنين بأفكارهم أو تجار محترفين يجيدون صناعة بيع القلم ، وحتى نهاية فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى تحطمت صحافة الرأى الحر وسيطرت صحافة (١) المدارس المتأثرة بالغرب (٢) الصحف ذات اللون المالىء للمحتل (٣) الصحف المالئة للاقطاع ومن أسماهم الاستعمار أصحاب المصالح الحقيقية .

وقد استطاع الاستعمار فى مصر القضاء على الصحف الوطنية حتى اذا جاءت الحرب العالمية لم يبق فى الميدان الا الصحف الشبيهة بالرسمية والموالية للاستعمار والمحايدة .

× بدأت الصحف اخبارية : تحمل الأوامر الحكومية وشئون التجارة والدواوين وأحوال السياسة والتجارة ثم حملت رسالة النقد الاجتماعى والسياسى . وقد اهتم رفاعة الطهطاوى بالاصلاح الاجتماعى ، وجدد التعبير الصحفى . واهتم ابراهيم اليازجى بلغة الجرائد وصحح تعبيراتها ، وأحل فارس الشدياق التعبيرات الجديدة فى مكان الكلمات الأجنبية ، ومنها كلمات : المؤتمر ، والأسطول والباخرة والبريد والمنطاد والحافلة والازمة المالية والسند والسلك البرقى .

× كان كتاب الصحف فى اول الأمر كتاب بلغاء أمثال : ناصيف اليازجى وبطرس البستانى ، ورفاعة الطهطاوى ، وفارس الشدياق وليسوا صحفيين على النحو الذى عرف بعد الحرب العالمية الأولى .

وكانوا يجمعون الى الصحافة : التعليم ، وتأليف الكتب ، والبحث العلمى ، واللغوى ، ولم تكن الصحافة مهنتهم الوحيدة .

× وسجلت الصحف فى هذه الفترة معارك ومناظرات ادبية غلب عليها الطابع الشخصى من اهمها معركة : فارس شدياق وابراهيم اليازجى . كما أجرى مناظرات مع ابراهيم الأحدب ، ولويس صابونجى ، وسعيد الشرتوبى ، وبطرس البستانى ، وقامت معركة الشدياق مع اليازجى على اثر موت ناصيف اليازجى ١٨٧١ حين رثاه الشدياق على صفحات الجرائد وانتقده وكان موضوع الانتقاد لفظة (فطحل) وقد انتصر اليازجى لأبيه على صفحات الجنان لبطرس البستانى .

ومن اجل معركة رزق الله حسون وفارس الشدياق أصدر حسون مجلة سماها (رجوم وغساق) وهو مؤسس جريدة مرآة الأحوال .

وقد أخذ المؤرخون على فارس الشدياق أسلوبه المقذع ، والعدول عن البرهان الى الطعن والشتم .

× حاولت الصحافة العربية خلق رأى عام يهدف الى (١) مقاومة النفوذ الأجنبى (٢) مقاومة استبداد السلطان والولاة والحكام والامراء (٣) الاصلاح الاجتماعى ورفع المستوى .

وانقسمت الصحف بين التيارات الأربعة)١(التيار الوطنى القومى الحر (٢) التيار العثمانى (٣) التيار الفرنسى (٤) التيار الانجليزى .

وصدرت الصحف فى العالم العربى باللغة التركية والعربية فى مصر وسوريا ، وبالعربية والفرنسية فى الجزائر ، وهاجر كثير من الكتاب اللبنانيين الى أوربا وأمريكا وصدرت لهم صحف فى لندن وباريس وروما .

فاصدر رزق الله حسون فى لندن « مرآة الأحوال » وندد بمبادىء السلطة العثمانية وكان من الهجاء وعمل معه ، لويس صابونجى ، وجبرائيل دلال ، وأمين الشميل وعبد الله مراش ، وكانت دعوتهم الى اقامة خلافة عربية بدلا من الخلافة العثمانية .

واصدر خليل غنام صحفا فى فرنسا قاوم بها السلطة العثمانية .

وقامت الصحافة العربية فى المهجر ، بدور ضخم ، فقد ربطت بين الجاليات العربية وبين الوطن العربى ، وقد صدرت صحف عربية متعددة فى كندا ، والمكسيك ،

والارجنتين والبرازيل التى صدر بها وحدها ١٤٠ صحيفة وقد حملت صحافة المهجر لواء الحرية وحب الوطن وايقاظ روح القومية العربية ، وكانت اشد جراة فى النقد من صحف الوطن .

وتمخضت هذه الحركة الصحفية عن ظهور تيارين صحفيين واضحين فى العالم العربى :

١ — تيار الدعوة الى الوطنية والحرية ، لمقاومة الاستعمار الغربى .

٢ — تيار قبول الالتقاء بالاستعمار فى منتصف الطريق ، وقبول الحضارة الغربية والدعوة الى التجزئة والاقليمية .

***

(التيار الأول)

أثر جمال الدين الأفغانى فى الصحافة من ناحيتين: التقاؤه فى مصر بالكتاب الذين اقاموا صحافة جديدة لاول مرة فى العالم العربى كله قوامها (١) مقاومة الاستبداد فى الحكم ، والدعوة الى الدستور والحياة النيابية للحد من سلطان الفرد (٢) مقاومة الاستعمار البريطانى ، والنفوذ الاجنبى (٣) الدعوة الى الاصلاح الاجتماعى ، وتحرير اللغة من قيود السجع ، والكتابة من المدح والهجاء وتحرير الدين من قيد التقليد وابرز من قام بهذا الدور اديب اسحق ، وابراهيم اللقانى ، وسليم عنحورى ، وقد شارك جمال الدين فى هذه الصحف وكتب بتوقيع «مظهر ابن وضاح » وكانت حملاته على الانجليز من اهم ما كتب وقيل انه أوحى الى يعقوب ابن صنوع باصدار صحيفة شعبية ساخرة (٣) كان عمله الآخر بعيد المدى حيث انشأ صحيفة (العروة الوثقى) فى باريس صدرت فى ١٣ مارس ١٨٨٤ وتوقفت بعد صدور ١٨ عددا منها .

كان لها أثرها البعيد المدى على الصحافة العربية كلها حيث خلقت تيارا قويا حملت لواءه المنار والمؤيد فيما بعد .

ومن أقواله البعيدة المدى فى تكوين الراى العام قوله : أنت ايها الفلاح المسكين تشق قلب الارض لتنبت منها ما يسد الرمق ، وتقوم بأود العيال . فلماذا لا تشق قلب ظالمك ، لماذا لا تشق قلوب الذين يأكلون ثمرة اتعابك .

× حملت هذه الصحف لواء الرد على افتراءات الغرب واكاذيبه . وقد كان لمحمد عبده دور كبير فى الرد على أخطاء هانوتو وفرح انطون (١٩٠٠) .

وكان محمد عبده قد رأس تحرير الوقائع (١٨٨٠) وعمل مع تلميذه عبد الكريم سليمان على خلق صحافة النقد والاصلاح الاجتماعى ، ورفع مستوى الكتابة والتحرير فى التقارير الرسمية . وبلغ من تشدده فى النهوض بالتحرير فى الصحف العربية ، انه انذر مدير جريدة شهيرة بتعطيل جريدته اذا لم يجد لها محررا ، صحيح العبارة . وقد وجه نقده الصحفى الى مختلف قضايا المجتمع وكان اهم ماركز عليه تركيزا متصلا « التعليم » وعرض لحكومة الشورى ، ودعا الى اقامة نهضة وطنية حقيقية على أسس ثابتة .

***

وصور اديب اسحق منهج هذا التيار فى العدد الأول من صحيفة (جريدة مصر القاهرة) ٢٤ كانون أول ١٨٧٩ .

« مسلكى ان اكتشف حقائق الأمور ملتزما جانب التصريح متجافيا عن التعريض والتلميح . وأن اجلو مبادىء الحرية وآراء ذوى النقد . وان ابين ما يظهره البحث من عواقب الحوادث ومقاصد اهل الحل والعقد . وأن أوضح معايب اللصوص الذين نسميهم اصطلاحا (أولى الأمر) ومثالب الخونة الذين ندعوهم وهما (امناء الامة) ومفاسد الظلمة الذين نلقبهم جهلا «ولاة النظام» .

ومقصدى ان اثير بقية الحمية الشرقية . واهيج فضالة الدم العربى وارفع الغشاوة عن أعين الساذجين وأحيى الغيرة فى قلوب العارفين ليعلم قومى أن لهم حقا مسلوبا فيلتمسوه . ومالا منهوبا فيطلبوه . ولتخرجوا من خطة الخسف وينبذوا عنهم كل مدلس يشترى بحقوقهم ثمنا قليلا . ويذيقوا الخائنين عذابا وبيلا ليستميتوا فى مجاهدة الذين يبيعون أبدانهم وأموالهم وأوطانهم وآلهم من الأجانب بما يطمعون فيه من رفعة المقام . فمن قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون عرضه فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد » .

× وقامت اللواء فى مصر بدور ضخم فى مقاومة الاستعمار البريطانى والحملة على كرومر . وحمل مصطفى كامل على العميد البريطانى عقب حادث دنشواى

(يونية ١٩٠٦) شهرين كاملين فى صحف مصر واوربا واهمها الفيجارو الفرنسية ، وظل هجومه على الاستعمار البريطانى وممثله كرومر فى مصر مستمرا لم يتوقف .

وحملت (اللواء) الدعوة الى الجلاء والحرية والدستور وكانت دعوتها حماسية صادقة الايمان بدورها فى التعبئة الوطنية ، حتى انها انفصلت عن الخديو عندما غير اتجاهه ، وهاجمت فرنسا بعد عقدها الاتفاق الودى (وكانت تعتمد عليهما من قبل) .

وقد أعلن مصطفى كامل فى اللواء (٣ يناير ١٩٠٠) أن هدفه هو « خدمة الوطن والاسلام بأشرف السبل وانفعها والسعى وراء الاتحاد والاتفاق بين المصريين وبعضهم من جهة اخرى . والعمل لتربية ابناء مصر أحسن تربية وطنية وترقية التجارة والصناعة » .

كما دعت الصحف الوطنية الشعبية الى تعليم الشعب وانشاء الجمعيات التعاونية .

× وكان للصحافة العربية دورها فى مجال الحرية والدستور ففى مصر بعد صدور الدستور العثمانى (يولية ١٩٠٨) انطلقت الصيحة بالدعوة الى انشاء حكومة نيابية فى مصر واضطر مجلس شورى القوانين (ديسمبر ١٩٠٨) أن يطلب من الحكومة وضع مشروع قانون يمنح الأمة حق الاشتراك الفعلى مع الحكومة فى ادارة امورها الداخلية .

وحمل عبد العزيز شاويش على سياسة دنلوب فى وزارة المعارف والحكم الانجليزى فى السودان . وهاجم رئيس محكمة دنشواى وهو رئيس الوزراء .

وكان موقف الصحافة من مشروع امتياز قناة السويس من ابرز مواقف المقاومة ، فقد هاجم محمد فريد المشروع فى جريدة اللواء فى (اكتوبر ١٩٠٩) هجوما مدعما بالأسانيد والحجج ، وظل يواصل حملته حتى ابريل ١٩١٠ . ونقل الفكرة من عمل اقتصادى الى عمل سياسى ، يتصل بكرامة الوطن ، وحريته ، وكان لهذه الحملة اثرها اذ عجز مجلس شورى القوانين عن الحصول على موافقة تكفل تنفيذ المشروع بالرغم من مرافعة (سعد زغلول) لصالح المشروع .

× وفى تونس نهض التونسيون يطلبون الشورى بدلا من الحكم الفردى الاستبدادى ، وكان للصحافة دورها فى مؤازرة هذه النهضة . وقام محمد بيرم الخامس بحمل لواء الدعوة الى الدستور والشورى بمؤازرة خير الدين باشا الوزير التونسى .

× وكانت مجلة ثمرات الفنون فى بيروت (١٨٧٥ ــ ١٩٠٨) من ابرز الصحف التى حملت لواء الدعوة الى الحرية وقد واجهت مساجلات جريدة من الجوائب التى كانت تؤيد السلطان ومجلة البشير اليسوعى .

× وعبد الرحمن الكواكبى بصحيفتى : الشهباء ١٨٧٧ ، والاعتدال ١٨٧٩ يمثل هذا الاتجاه الوطنى الحر ، وقد لقى المعارضة والسجن والنفى والمحاكمة مما اضطره الى الهجرة الى مصر واعلان آرائه فى الاستبداد ، والدعوة الى الجامعة الاسلامية بها .

× وكان عبد الله نديم من رجال هذا الاتجاه ، بصحيفة الطائف التى هاجمت الاستعمار البريطانى قبل الثورة العرابية وخلالها ، ومجلة الاستاذ فى خلال حكم اللورد كرومر .

* * *

(التيار الثانى)

وكان التيار الثانى الموالى للحكام او للاستعمار ، اقوى ماديا فقد حصل على اعتمادات مالية ضخمة آزرته كما سمحت له الحكومات بموالاة الظهور حين ضيقت على الجانب الآخر وقصفت اقلامه ، وعطلت صحفه . وكان المقطم فى مصر أهم هذه الصحف . فقد رأى الاستعمار مقاومة الصحافة بالصحافة فاصدر المقطم (١٨٨٩) صحيفة يومية سياسية تجارية وذكر « بلنت » فى مذكراته أن وزارتى الحربية والداخلية دفعتا لصحيفة المقطم مبلغا عظيما من المال لتدافع عن تصرفات الانجليز فيها وقد عجز الخديو ازاء حملات المقطم أن يقدمها للمحاكمة .

واتيح للمقطم ان تحصل على اهم الأخبار وتنفرد بها، بينما حرمت منها الصحف الأخرى حتى أنها استطاعت أن تنشر بعض الاحكام القضائية قبل النطق بها بعدة أيام . وقد صاغت عقود المديح للاحتلال وتصرفاته . وقاومت خصومه وحملت على الخلافة والسلطة العثمانية .

ولما صدرت المؤيد ، اندلعت بينهما خصومات ومساجلات فاتهمت المقطم جريدة المؤيد بالتعصب . واتهمت صاحب المؤيد بالجهل وانضمت الصحف الأجنبية الى المقطم ضد المؤيد . ووصف المقطم كتابات على يوسف بانها تعرض حياة الأوربيين للخطر .

وقد سافر فارس نمر الى لندن واجتمع بكبار السياسيين فيها وحرص على ترجمة تقارير اللورد كرومر السنوية ومن بعده تقارير مندوبى بريطانيا ونشرها فى المقطم والمقتطف .

× وفى بريطانيا اصدر لويس صابونجى صحيفة النحلة ١٨٧٧ باللغة العربية والانجليزية ، كما انشا جريدة الاتحاد العربى وجريدة الخلافة : ومثل اويس صابونجى بين يدى فيكتوريا ملكة بريطانيا وقام على خدمة مصالح الدولة البريطانية فى مصر اثناء الثورة العرابية . ثم تحول من خدمة الاستعمار الى خدمة النفوذ العثمانى فسافر الى تركيا ١٨٩٠ وعمل فى معية السلطان عبد الحميد .

وكان الدكتور صابونجى يؤيد الاستبداد ويناصر الخديو اسماعيل ، والنظام حيدر أباد وقد تبرع له بعض المولين فى انكاترا بعشرة آلاف جنيه لاصدار جريدة الخلافة فى لندن التى كانت حريصة على مهاجمة الاسلام ونشر الأخبار الجارحة عن السلطان ، محملة بروح الخصومة والحقد ، وكانت جريدة الخلافة تطبع بالعربية والتركية والفارسية والهندية .

* * *

واصدر ابراهيم المويلحى صحفا فى ايطاليا ، اهمها جريدة الخلافة ١٨٧٩ بالعربية التركية لمهاجمة السلطان عبد الحميد وبايعاز من الخديو اسماعيل المخلوع ثم اغراء السلطان عبد الحميد فأوقف الصحيفة وسافر الى الاستانة وقربه السلطان وانشا مصباح الشرق فى مصر لكى يمدح السلطان .

وقد وصفه احمد فؤاد صاحب الصاعقة قال عن الوان صحفه (٣٤ جريدة بينها من اختلاف الرأى ما بين الروافض . ومن البعد فى الفكر ما بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى . وقيل لم يسلم من توارض قلمه الا من يعرفه) .

× وفارس الشدياق كان يرضى بجريدته (الجوائب) التى نشرها فى الاستانة الخليفة العثمانى ، والخديو اسماعيل ، والباى التونسى ، وقد عمل (لخدمة افكارهم وترويج مصالح بلادهم) وكان يحصل سنويا على ٥٠٠ ليرة عثمانية من كل من : الخليفة ، والخديوى ، والباى .

ومن اعماله المشينة طبعه المنشور الذى اصدره الباب العالى ، باعلان عصيان عرابى وقد عزى الى هذا المنشور ما اصاب عرابى من هزيمة وسقوط فى نظر المسلمين وحصل من سفارة بريطانيا فى الاستانة فى مقابل هذا العمل على الف ليرة انجليزية .

× وقد هاجت الأهرام والمقطم الثورة العرابية ووصفتا عرابى بما اسمته الصحيفتان : (العاصى عرابى ورفاقة) البغاه ومدحت سلطان باشا الخائن والجنرال ولسلى .

× وقد ظهر تيار حيادى المظهر ، داخل هذا التيار لا يحمل لواء مدح الاستعمار صراحة : هذا هو اتجاه لطفى السيد فى (الجريدة) وهو اقل فى الدرجة واقرب الى الالتقاء مع الاستعمار فى منتصف الطريق ، وقد اتجه هذا التيار الى محاسنة الاحتلال ، ومهاجمة الخلافة والسلطة العثمانية ، ونقد اسلوب مصطفى كامل فى تعبئة المشاعر الوطنية واتهامه بالحماسة والعنف . والدعوة الى التعقيل ، وقبول الأوضاع والاصلاح تدريجيا . وقد حددت دعوتها فى تحقيق الأمانى الوطنية بانها انما تتم باتفاق يحدث بين الاحتلال وبين أعيان المصريين وحدهم بحسبانهم أصحاب المصالح الحقيقية . وكانت تعتبر (الخديو) صاحب السلطة الشرعية . و (ممثل بريطانيا) صاحب السلطة الفعلية . وقد اتجه هذا التيار ايضا الى تقييد التعليم وقصره على أبناء الأثرياء . كما دعا لطفى السيد الى الكتابة باللغة العامية .

وقد اطلق كرومر على هذا التيار : تيار المفكرين البعيدى النظر ، ولهذا التيار شبيه فى البلاد العربية الأخرى .

* * *

مراجع

تاريخ الصحافة العربية : الفيكونت فليب دى طرازى ج ١ و ٢ .

الصحافة العربية : اديب مروة .

تطور الصحافة المصرية ١٧٩٨ — ١١٥١ — ابراهيم عبده .

* * *

(٤)

تطــور التعــليم

للتعليم أثره الواضح فى تكوين الفكر العربى الاسلامى المعاصر وكانت نهضته علامة على اليقظة الفكرية التى شملت الوطن العرتى كله. غير ان هناك عوامل متعددة حالت دون دفعه فى طريقه الطبيعى اهمها : الاستبداد والاقطاع والنفوذ الأجنبى . فقد كانت هذه الفئات الثلاث تكره التعليم وتراه خطرا على وجودها . ولذلك وقفت فى وجهه فلما عجزت عن صد تياره أثرت فى مفاهيمـــــه وغاياته وانحرفت بها عن الهدف الأصيل .

وقد كان التعليم فى أوائل القرن التاسع عشر فى العالم العربى قاصرا على المدارس الدينية والكتاتيب ومعاهد اللغة والدين ، كالأزهر ، والقرويين ، والزيتونة وغيرها من الخلايا والزوايا الملحقة بالمساجد الجامعة لحلقات الدرس والصلاة .

وكانت أولى حركات اصلاح التعليم تهدف الى ادخال مناهج العلوم العقلية والنظم الحديثة الى هذه المعاهد .

غير انه لم تلبث ان ظهرت تحت تاثير الاتصـــال بالحضـــارة الحديثة انظمة جديدة للتعليم خاصـــــة فى الاستانة، ومصر، ولبنان اذ انشئت المدارس ، والمعاهد والكليات على الأنظمة الحديثة . وكان شـــباب العالم العربى كله يتجه الى الاستانة للتعليم العالى ، وفى مصر كان لنهضة محمد على العسكرية اثرها فى انشاء المدارس الحديثة .

وكان للمراسلين الأجانب : من الفرنسيين والأمريكيين اثرهم الواضح فى انشاء المدارس الحديثة ، والمعاهد ، والكليات ، فى بيروت واسيوط .

(المرسلين الأجانب هم المبشرين)

وكانت المدارس العربية فى الشام (لبنان وسوريا وفلسطين) والعراق تعلم باللغة التركية بوجه عام ، حتى لقد كانت تدرس قواعد اللغة العربية باللغة التركية

ثم اتجهت المدارس العليا التركية الى التعليم باللغة الفرنسية الى جوار اللغة التركية ، وفى مصر كان لرفاعة الطهطاوى وعلى مبارك (فى منتصف القرن التاســـع عشر) اثرهما فى تطوير التعليم فقـــد كان الأول أزهرى التعلم وكان الآخر مدنى التعلم ، وقد اتيح لهما ان يدرسا فى فرنسا ، ثم كان لهما العمل فى اعداد المناهج بعد عودتهما . وقد وصل على مبارك الى مرتبة عليا حيث نال ارقى منصب فى وزارة المعارف (١٨٧٩) .

وقد عمل رفاعة فى ميدان التاليف والترجمة واعداد المناهج وبلغ فى ذلك أسمى غاية حيث دعا الى الاقتباس الصالح من الغرب وادخل النشيد الوطنى ، واعلى شأن الدعوة الأقليمية الى الدستور والحرية ، ويعد أول من تحدث عن الوطنية ودعا الى الاعتزاز بالتاريخ المصرى ، والتراث الفرعونى وحاول ان يغطى الثغرات المختلفة فى الكتب والمؤلفات المقررة على المدارس .

اما « على مبارك » فقد كان اداريا نابغا حقق التعليم نتائج هامة ، حيث نقل المدارس من العباسية الى سراى درب الجماميز ، ونظم المدارس الاهلية وانشأ مدارس مركزية فى بعض مدن القطر . وانفق على المدارس من تبرعات الأهالى وأموال الأوقاف الخيرية وكان له فضله فى انشاء مجلة ثقافية حررها عدد كبير من رجال الفكر المسماة (روضة المدارس) أنشأ دار الكتب ، حيث جمع الكتب المتناثرة فى المكتبات المختلفة فى مكتبة كبرى جامعة كما انشأ دار العلوم ليكمل بها النقص الذى وجده فى مناهج الأزهر وهو نفس العمل الذى قام به طاهـــر الجزائرى فى دمشق ، حيث انشأ المكتبة الظاهرية من مختلف المكتبات المتناثرة .

وكان لعلى مبارك « مندرة » لها اثر تاريخى ، واضـــح الدلالة فهى اشبه بالرواق العباسى الذى كان

يلقى فيه محمد عبده دروسه الشهيرة ، التى حولت الفكر الدينى ورسمت له مناهج التجديد والاجتهاد .

وكان على مبارك يفتح مندرته لكل من يرد اليه وخاصة الطلاب والشباب الذين افسح لهم السبيل الى مناقشته فاذا ما كمل حديثه معهم قال لهم : انا ناظر ، انا اكبر من مديركم فاذا ذهبتم الى بلدكم ووجدتم الناس يشكون من عيوب الادارة فلا تتهيبوا أن تذهبوا الى المدير وتعرضوا عليه الشكوى .

وكان يهدف من ذلك الى علاج ناحية الذل والاستكانة التى كانت احدى ثمرات عهود الضعف ، وقد أرجع المؤرخون تحرر على مبارك وواقعيته الى دراسته العلمية الصحيحة حيث بدأ حياته مهندسا ، والى انه لم يتعلم فى الأزهر .

وقد حاول أن يرسم فى قصته « علم الدين » كيف يمكن للأزهرى ان يتصل بالمدينة الحديثة وان يتقبل محاسنها دون أن يتجهد او ينحرف وقد نقل على مبارك طرق التعليم الغربية والفرنسية خاصة ، الى دور العلم المصرية .

ويتصل برفاعة ، وعلى مبارك رائد ثالث هو : عبد الله فكرى ، الذى كان له دور فى ميدان التاليف التعليمى .

٣ — تطور التعليم فى العالم العربى من نظم المعاهد الدينية الى الأنظمة الحديثة وقد كانت الطريقة القديمة هى الطريقة الاملائية على نظام الحلقات التى يتوسطها الأستاذ ليملى دروسه ، ثم نشأت طرق التدوين والتأليف ووضع شروح للمتون والحواشى والتقريرات ، حتى فاق ذلك الاهتمام بالمتون الأصلية . وكان يعتمد على المدارس لا على المنهج .

ولم تكن هناك انظمة او قوانين تقيد الدراسة ، وكان للطالب وفق رغباته أن يختار أستاذه وان يقضى المدة التى يراها . وهذا النظام كان موجودا فى الأزهر والمعاهد الدينية واللغوية المختلفة ، ثم كان للنهضة اثرها فى :

× وضع قوانين وانظمة التعليم تحدد نوع الدراسات ومددها وما يتعلق بالامتحانات والشهادات .

× وضع برامج للدراسات .

× تأليف كتب للمناهج والدراسات .

فى لبنان وسوريا

— كان لابنان دورها الواضح فى التعليم الحديث عن طريق المدارس الطائفية ، والمدارس الأجنبية ، هذه المدارس التى استطاعت ان تقوم على منهج وفق نظام الطوائف الذى منحته الدولة العثمانية لغير المسلمين فى انشاء الكنائس والأديرة والمدارس الخاصة .

ولذلك فقد أسست الطوائف المختلفة معاهد تعليمية خاصة بها كان طابعها الأول دينيا لاهوتيا ، ثم تطورت الى معاهد عصرية .

وقد استقت مناهجها من مناهج المدارس الأجنبية واتخذت كل مدرسة اللغة التى تراها .

وفى المدارس الأجنبية كان الاهتمام باللغة التى تتبعها الارسالية ، وكان أبرز هذه المعاهد : الفرنسية والأمريكية .

ثم قامت معاهد متعددة تبشيرية : ايرلندية وانجليزية ودنمركية وروسية غير أن هذه المعاهد لم تلبث أن ادخلت اللغة العربية بين مناهجها عملا على كسب المسلمين الى صفوف التعليم بها . وذلك بعد أن انتشر التعليم الحديث بين المسيحيين قبل المسلمين ، وكان هدف هذه المدارس تبشيرى ، وكان لها دورها الخطير فى مهاجمة الاسلام ، ومحاربته ، ومحاولة التشكيك فى كثير من مقومات الشخصية العربية الاسلامية ، والحضارة ، والتاريخ ، واللغة العربية .

وكان لحماية الدول الأجنبية لهذه المعاهد اثره فى جراة هذه المدارس وحرية عملها فى هذا الميدان دون أن تخشى اى مقاومة من جانب الحكومات العربية التى كانت هى الأخرى خاضعة للنفوذ الأجنبى ، وفى سوريا كانت جميع المناهج تدرس باللغة التركية غير انه على اثر صدور دستور ١٩٠٨ طالب العرب بجعل لغة التعليم : اللغة العربية ، وقد تحقق ذلك فى خلال الفترة السابقة للحرب العالمية الأولى .

ولا شك انه كان للمدارس المتعددة فى مصر والعراق والشام والشمال الافريقى من فرنسية وانجليزية وروسية وايرلندية والمانية ودانمركية وايطالية اثره فى الثقافة العربية ، واضطراب الفكر العربى بين تغليب احدى الثقافتين : السكسونية ، واللاتينية . وما كان لهذا من أثره على الثقافة العربية واللغة العربية .

أثر الاحتلال فى التعليم

بعد ان وقع الاحتلال البريطانى على مصر ١٨٨٢ والفرنسى على الجزائر ١٨٣٠ وتونس ١٨٨١ سيطرت الدول المحتلة على مناهج التعليم وشئونه ، فتحـول التعليم من اللغة العربية الى اللغة الانجليزية فى مصر ، والفرنسية فى الجزائر وتونس ، وفى مصر بدأت ثنائية التعليم التى شجعها الاستعمار : بتفريقه بين التعليم الدينى والتعليم المدنى وعدم المزج بينهما ، نشأت عنها ثنائية فى الثقافة : هى التيار الفرنسى الذى كان يحميه القصر والحكام الأتراك ، والتيار البريطانى الذى كان يحميه ويشجعه الاحتلال .

وقد كان لدنلوب أثره فى تحطيم اللغـة العربية ومناهج الأزهر ، ومناهج التعليم المدنى ، ومقاومـة الثقافة الفرنسية وقـد احتفظ الانجليز لأنفسهم بحق اختيار الأساتذة فى المدارس وتوقفت البعثات الخارجية التى كانت قبل الاحتلال تقصد فى الأغلب الى فرنسا . فلما أعيدت وجهت الى بريطانيا .

واستطاعت بريطانيا أن تحول التعليم من هدفه الثقافى الشامل ، الى مهمة تخريج موظفين فحسب ؟ وقد الغيت المواد الثقافية من المناهج فضلا عما كان يقوم به دنلوب من ضغط مرتبات المعلمين ، وذلك حتى لايصل الى هذا العمل الا اقل الناس كفاية .

× وقد صور اللورد دوفرين فى تقريره الذى كتبه بعد الاحتلال البريطانى : هدف التعليم فى ظل الاحتلال الرامى الى تمزيق اللغة العربية الى لهجـات وتغليب اللغة الانجليزية ، فقال : ان أمل التقدم ضعيف طالما أن العامة تتعام اللغة الفصيحة العربية .

وقد نفذ ما أوصى به تماما فقد تحول التعليم فى جميع المدارس العالية والثانوية الى اللغـة الانجليزية وبذلك تدهور التعليم وعجز الطلاب عن اجتياز حلقات الدراسة لرسوبهم مرتين أو ثلاثة .

كما الغى الانجليز المجانية فى جميـــع المدارس (بأنواعها الثلاث) وحرموا الفقراء من دخولها .

وصور اللورد كرومر فى تقريره ١٩٠٠ النتائج التى وصل اليها بعد ثمان سنوات من الاحتلال فقال : فى ١٨٧٩ كانت نسـبة المجانية فى مدارس الحكومة ٩٥٪ اما فى السنة الماضية فان نسبة الذين يدفعون مصروفات مدرسية ٥ر٩٨ فى المائة ، وانا واثق من أن هذه السياسة ستظل متبعة بثبات حتى تلغى طريقة التعليم المجانى كلية أو تكون فى حكم ذلك .

وقد ذكر الشيخ محمود ابو العيون فى يوميـاته (الصحيفة السوداء : ١٦ يناير ١٩٢٣ — الاهرام) انه فى ١٩٠٤ لم يعد هناك غير تلميذ واحد يتلقى التعليم مجانا فى المدارس الابتدائية .

والذى حدث بعد الاستعمار البريطانى فى مصر ، حدث على نحو أشد فى الجزائر وتونس . فقد اصبحت اللغة الفرنسية هى اللغة الوحيدة الالزامية ، وقد الغيت اللغة العربية كلية واصبحت البعثات جميعها الى فرنسا وحدها، وحيل بين اللغةالعربيةومناهج الثقافة الاسلامية وبين المدارس الجديدة التى انشأها الاستعمار الفرنسى والتى جعل نسبة ٧٠ فى المائة منها للمستوطنين الذين لا يبلغ عددهم أكثر من ١٠ ٪ من اهالى الوطن . وكان معنى هذا أن « التعليم » وهو سلاح بتار فى يدالاستعمار قد أخذ طريقا شاقا سيظهر بوضوح فى المرحلة التالية بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى .

* * *

مراجـع

حولية الثقافة العربية : ساطع الحصرى ج ١

مذكرات الخديو عباس الثانى .

تاريخ التعليم الحـــديث فى مصر : أحمـد عزت عبد الكريم .

الصحيفة السوداء : محمود ابو العيون (الاهرام — ١٩٢٢) .

* * *

(٣)

التيـــار السـيـاسى

التيار السياسى فى الفكر العربى الاسلامى المعاصر : هو تيار الوطنية والقومية الذى حمل لواء مقاومة الاستعمار والتدخل الأجنبى والاستبداد فى الحكم واتوقراطية الملوك والأمراء ، وخلق الراى العام فى البلاد العربية ، وقد نشا عن تطور العاطفة الدينية التى كانت تحمل نفس الاتجاه كانت العاطفة الدينية هى أبرز دوافع الجهاد الذى قامت به مصر ازاء الحملة الفرنسية التى هى اول صدام بين الشرق والغرب ، وكانت المقاومة الشعبية قد تكونت قبل ذلك بتوقيع وثيقة « حرية الشعب » التى وقعها حكام مصر عن طريق مشايخ الازهر والعلماء (١٧٩٥) ثم تضخمت هذه المقاومة عندما حمل عمر مكرم البيرق النبوى ونزل به من القلعة واندفعت وراءه الجموع الى بولاق لحفر الخنادق لمقاومة الفرنسيين ، وقد كانت هذه المقاومة التى تعد صفحة فخار فى النضال من اجل الحفاظ على كيان الوطن ، مثلا العاطفة الدينية التى تعتبر الدفاع عن الوطن دفاعا عن العرض والدين وقد بلغت هذه العاطفة قمتها فى معركة خلع خورشيد عندما اعلن عمر مكرم « أن أولياء الأمر هم أصحاب الشريعة وان الشعوب كان لها الحق فى عزل الحاكم اذا ظلم او خان واجبه لأمته » .

وقد تطورت هذه العاطفة الدينية الى عاطفة سياسية قومية قوامها « الوطنية » . وقد بدا هذا عند ما تحدث رفاعة الطهطاوى عن ذلك بعد عودته من أوربا ١٨٣١ .

وظل الكفاح الوطنى يحمل مفهوم العاطفة الدينية الى وقت طويل ، حين تمثل فى جهاد السنوسيين فى ليبيا والمهدويين فى السودان .

والمعتقد ان رفاعة الطهطاوى هو اول من كتب عن مباحث الدستور والحكم النيابى والراى العام فى الثلاثينات من القرن التاسع عشر ، ولعل المجلس الذى أنشأه نابليون ١٧٩٨ فى مصر هو اول صورة للمجالس النيابية فى العالم العربى . وكان مجلس الشورى التونسى فى عهد الباى محمد على باشا اول مجلس شورى فى العالم العربى (١٨٦٠) وقد تبعه مجلس شورى النواب فى مصر (١٨٦٦) فى عهد اسماعيل . ثم انشىء مجلس المبعوثان فى تركيا ١٧٨٦ بعد صدور الدستور العثمانى الأول ١٨٧٦ ثم اعد الدستور المصرى عام ١٨٧٩ وصدر عام ١٨٨٢ .

وهكذا بدا التيار السياسى فى الفكر العربى الاسلامى ياخذ صورته الاستهلالية وكانت تونس وتركيا ومصر تمثل المرحلة الاولى فى تكوين الراى العام وبدء الحياة النيابية والدستور ومقاومة التدخل الأجنبى . وكان معنى هذا الاتجاه مقاومة استبداد الملوك والأمراء ، وخلق الراى العام وايقاظ الوعى السياسى فى العالم العربى .

ومما يذكر ان هذه الدساتير والمجالس النيابية لم تستمر ولم تحقق الهدف منها فقد كانت اما خدعة ، او رغبة من الملك والأمير لتغطية موقفه فى نظر التدخل الأجنبى كما فعل اسماعيل ، أو ارضاء الشعب فى الوقت الذى كان فيه الباى والخديو والسلطان ، يكرهون الحكم النيابى ويؤمنون بالاستبداد والاتوقراطية فى الحكم ولم يكن للشعب فى هذه الفترة القدرة على المطالبة بهذا الحق ، او ممارسته ، اذا اعطى له .

* * *

١ ــ تونس : خير الدين التونسى ١٨٦٠

١ ــ كانت تونس فى ظل حكم البايات اشبه بمصر فى ظل حكم الخديويين من أسرة محمد على وقد اتجه الى تونس فى هذه الفترة ١٨٦٠ بعد احتلال الجزائر الضغط الفرنسى لتقوم الدولة على أساس اقتباس نظم

أوربا وقوانينها . وهو نفس الضغط الذى وجهه الخديو اسماعيل واتجاه الباى احمد باشا الى فرنسا لمعاونته تنظيم جيشه كما فعل محمد على . وقد ظهر فى تونس « خير الدين » (١٨١٠ — ١٨٧٩) المصلح الذى قام فيها بمثل اصلاحات مدحت فى العراق وسورية وتركيا وقد تعلم خير الدين فى فرنسا وفى ١٨٦٠ شكل أول مجلس شورى منتخب . وقد اصطدم هذا المجلس برجال الدين الذين عارضوا الأنظمة السياسية الحديثة على أساس أنها غير شرعية . وقد عين خير الدين رئيسا للمجلس النيابى ولكنه لم يلبث أن اصطدم مع الباى محمد باشا الذى أعلن عند عرضه لبعض المسائل انه حصل على وعد من قنصل فرنسا فجابهه خير الدين بأنه لم تكن هناك مدعاة لعرض هذا الموضوع على المجلس .

وقد تعددت الضغوط الأجنبية ، فاستقال وسجل موقفه فى صراحة حيث قال : « حاولت ان اسعى بالامور فى طريق العدالة والنزاهة فذهب مسعاى سدى ولم أشأ أن أخدع وطنى الذى تبنانى بتمسكى بالمناصب » .

ثم فرغ نفسه لدراسة أسس الحضارة الغربية وعوامل قوتها وحمل لواء الدعوة الى « الاقتباس » من الغرب فى ميدان الفكر كما حدث فى ميدان الحضارة ، وألف فى ذلك كتابه « أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك » وهو ما أطلق عليه فى الترجمة الفرنسية « الاصلاحات الضرورية للدول الاسلامية » (صدر ١٨٦٧) .

وقد عرض فلسفته فى الاقتباس من الحضارة ، وكان اكثر جراة من رفاعة الطهطاوى (١٨٤٠) اذ جاء بعده بربع قرن . وقد نعى على المسلمين كراهية الأخذ بأساليب المدنية الحديثة فى الاصلاح ، والاعتقاد بان كل ما يصدر عن أوربا حرام . أو مخالف للشريعة الاسلامية وقال : ان التمسك بالدين لا يمنع من النظر فيما عند الأمم الأخرى والأخذ بأحسنه فيما يتعلق بالمصالح الدنيوية . وعنده ان الحكمة ضالة المؤمن انا وجدها فهو احق الناس بها . وان على المسلمين الاستعداد لمقاتلة العدو بمثل سلاحه وأن الأخذ بالعلم من أسباب العمران . وقد دعا الى الأخذ بالفكر الغربى فى أساليب الحكم والتنظيم والادارة والأسلحة « كما أخذنا الحضارة فى الملابس والأثاث والمخترعات » . وقال ان الامة التى لا تجارى جاراتها فى معداتها الحربية ونظمها العسكرية توشك أن تقع غنيمة فى أيديهم ونعى على المسلمين سبق النصارى لهم اذا اجتمعوا فى قطر واحد كان النصارى أسبق الى تشرب المدنية الغربية والاستفادة منها ، فى الوقت الذى لا يمنع الاسلام من نقل حضارة الغرب

ولا يمانع من الأخذ بنظم ادارتهم مع مراعاة الظروف ، وان لهم أن ينقلوا ما يستطيعون هضمه ثم يوسع هذا شيئا فشيئا بنمو أسباب التمدن . كما دعا الى الأخذ بنظام الشورى الذى يقيد الحاكم واشار الى عوائق التقدم : فحصرها فى فئتين ، هما : رجال الدين ، ورجال السياسة . أما رجال الدين ، فانهم يعرفون الشريعة ولا علم لهم بأمور الدنيا . وأن رجال السياسة يعرفون الدنيا ولا يعلمون الدين ، وهم يريدون أن يطبقوا النظم الأوربية بحذافيرها من غير رجوع الى الدين . فنقول للأولين اعرفوا الدنيا . ونقول للآخرين اعرفوا الدين ، ودعا الى امتزاج الطائفتين وتعاونهما . وانشأ مدرسة عصرية تعلم فيها الثقافة الغربية بجوار الثقافة العربية.

ونعى على العالم العربى أن الحكم النيابى لا يتحقق الا بأحد أمرين : رغبة الملك أو الأمير او قوة الراى العام ورغبته رغم اتجاه الملك والأمير الى الاستبداد . وقال : ان الأمة العربية لا يزال حكامها يكرهون الحكم النيابى وأن الراى العام جاهل خاضع .

* * *

٢ — مصر : عبد السلام المويلحى (١٨٧٩)

اتجه الخديو اسماعيل الى الغرب بحكم الضغط الذى لقيه من الدول الأوربية نتيجة للديون واضطراب الحالة الاقتصادية فى مصر . ودعا الى ان مصر قطعة من أوربا . وقال نوبار رئيس وزرائه (اغسطس ١٨٦٧) أن التقدم لا يأتى الا من ناحية اوربا وأن حكومة اسماعيل تتطلع الى اشتراك العنصر المتمدين — اى الأوربيين — فيها وتريد أن تكل اليهم كبار أعمالها . وقد اتجهت الى تعديل الأنظمة والقوانين دون مشاركة للأزهر فيها والاتجاه الى القوانين المدنية الفرنسية . وانشاء المحاكم المختلطة لاقرار الامتيازات الأجنبية ولايجاد حصانة للاجانب من محاكمتهم أمام القضاء المصرى .

وقد عمل اسماعيل لتغريب مصر ومحاولة ادماجها ضمن نطاق الشعوب الأوربية على أساس فرض القوانين لاعلى أساس تنمية وعى الراى العام او توجيهه مما كان عاملا حاسما فى التعجيل بنهاية اسماعيل ، ذلك أن اسماعيل باعتباره حاكما مستبدا تجاهل مقومات الشعب وجهه الى البذخ والاتجاه التغريبى الفقر والجوع ، ولم يكن فى الأمة من يحاسبه على هذا الاسراف وقد وفدت فى ظل حكمه وبتشجيعه بعثات الأجانب للتبشير والتعليم والتجارة .

وكانت جماعتا : الفرير ، والجزويت ، اولى هذه البعثات التغريبية . وقد أعان حكم اسماعيل الطويل مدة ستة عشر عاما (١٨٦٣ — ١٨٧٩) على تعميق الاتجاه التغريبي ولكنه خلق الوعى السياسى فى مصر ، هذا الوعى الذى يتمثل فى الدور الذى قام به مجلس شورى النواب بعد عشر سنوات من تكوينه .

وقد بدا مجلس شورى النـواب ١٨٦٦ ولم يكن للمجلس اى سـلطة قطعية ، غير انه لم يلبث فى عام ١٨٧٦ ان ظهرت المعارضة فى دورات المجلس بقيـادة عبد السلام المويلحى الذى نعى على الحكومة (نوبار باشا) فى جلسة ٦ يناير ١٨٧٩ : اغفال مجلس النواب فى مرسوم القوانين المتعلقة بالشئون المالية وقال : « لم نر لمجلس النواب فى هذا (الدكريتو) اسما ولا خبرا مع ان سائر ما يختص بالادارة العمومية من تحصيل اموال، وفرض ضرائب ووضع لوائح او قوانين انما يقصد به الأهالى ، وكل ما يقصد به الأهالى لابد من عرضه عليهم ورضاهم به ، عن طيب خاطر قبل وضعه وتكليفهم به ، وحيث أنهم انابوا عن انفسهم نوابا فهم منوطون بالمدافعة عنهم ، والمحاماه عن حقوقهم فمن الواجب أن يعرض جميع ما يتعلق بالأهالى على نوابهم اينظروا فيهويتدبروه وقال : ان مثل رئيس مجلس النظار لايجهل حقوق مجلس النواب ومقـدار احترامها كما لا ينكر ان موضـوع (الدكريتو) المحكى عنه هو من حقـوق ذلك المجلس المقدسة التى لا يصح انتهاكها » .

وقد كان لهذا الاتجاه اثره وخطره فقد اهتز له الوزيران الأوربيان اللذان كانا صاحبى الكلمة فى سياسة الحكومة .

* * *

ولكن الاتجاه الثورى الشورى ، مضى فى طريقه فتقدم ٤٩ نائبا على راسهم (عبد السلام المويلحى) فى ١٩مارس ١٨٧٩ مطالبين « بتخفيض الضرائب والاتاوات الفادحة التى ينوء بها الشعب » ورأى الوزيران الأوربيان أن المجلس اصبح يخلق العقبات ففضت جلساته فى ٢٧ مارس ١٨٧٩ ولم يدع (عبد السلام المويلحى) المجلس ينفض دون أن يهاجم ناظر النظار (رياض باشا) فاكد فى خطاب الختام قائلا : ان المجلس طالب عدم قطع امر فى اى شان كان الا باشتراكه ، وجرت بينه وبين (رياض) مناقشة حادة رد فيها المويلحى على اتهامات رياض فقال: من ضمن ما قلتموه ، ان أهالى مصر همج ، وانه لا يوجد فيهم عشرة يفقهون ما يقال فى الجرانيل ، مع انه لا يصح نسبة جميع اهالى الوطن لهذه الحالة التى لا تليق .

وقد كان لهذا الاتجاه الجرىء نتيجته المحتومـة ففض المجلس ، غير أن النواب الأحرار اجتمعوا فى بيت الشـيخ البكرى نقيب الأشراف ، ثم فى منزل اسماعيل راغب رئيس مجلس النواب وعقدوا « جمعية وطنية » تضم صفوة كبراء البلد وأصحاب الراى ، وتم اتفاقهم على المطالبة باسقاط الوزارة الأوربيـة وتأليف وزارة وطنية برئاسة شريف كما طالبوا فى « اللائحة الوطنية » التى وضعوها ، بتعديل نظام مجلس شـــورى النواب وتخويله السلطة المعترف بها المجالس النيابية فى اوربا وتقرير مبدأ المسئولية الوزارية امامه .

وقد اذعن الخديو اسماعيل لقوة الراى العام ، ووافق على المطالب مرغما وكان ذلك انتصارا للمجلس، وتم وضع الدستور الأول (دستور ١٨٧٩) على احدث المبادىء العصرية ، مخولا مجلس النواب سلطة البرلمان الحديثة ، وقوامها حق اقرار القوانين واقرار الميزانية وجعل الوزارة مسئولة امامه . كما خول سكان السودان حق انتخاب ممثلين لهم فى مجلس النواب ، باعتبـار السودان جزءا من الدولة المصرية .

غير ان هذا الدستور لم يصدر اذ سرعان ما سقط اسماعيل وفض المجلس ، ثم اجتمع المجلس مرة اخرى فى ظل حكم توفيق (ديسمبر ١٨٨٦) ووضع دستـور (١٨٨٢) الذى صدر به المرسوم الخديو ، ويعد«محمد شريف » مؤسس النظام الدستورى فى مصر . وقد كان احد أعضاء البعثات الى فرنسـا ١٨٤٤ وتخصص فى الفنون الحربية . وكان شريف يكره التدخـل الأجنبى والحـكم الاستبدادى ويطالب بوجوب اقامـة الحكم الدسـتورى ، ووضع حد للتدخل الأجنبى ، وكان رأى شريف أن الطريقة الوحيدة للخلاص من الورطات التى كانت محيطة بالبلاد هى توسيع نطاق الشـورى ، واشراك رأى نواب الأهالى مع الحكومة .

المراجع

عصر اسماعيل : عبد الرحمن الرافعى .
زعماء الاصلاح : احمد امين .
المجددون فى الاسلام : عبد المتعال الصعيدى .
عصر محمد على : عبد الرحمن الرافعى .
تاريخ الأدب العربى : جورجى زيدان (الجزءالاخير)
تقويم الفكر الدينى : محمود الشرقاوى .
اقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك : خير الدين التونسى .

(٤)

مدرسة الأفغانى الفكرية وآثارها

(مصر من ١٨٧١ - ١٨٧٩)

كان لجمال الدين دوره فى تطور التيار السياسى فى الفكر العربى المعاصر، وقد اختار مصر من بين بلاد العالم العربى كله لاذاعة دعوته لتحرير العقول من قيود الجمود واتجاهه الى اصلاح الفكر الدينى ، وخلق الفكر السياسى عن طريق توجيه الخطابة والكتابة والصحافة. الى الحرية ومقاومة الاستبداد وتطهير العقيدة وقد عرف بخصومته للاستعمار البريطانى . وكان له مواقفه الواضحة مع اسماعيل وشاه ايران كجزء من خطته لمقاومة تسلط الملوك والأمراء وقد بعث «روح الكرامة » فى العالم الاسلامى وآمن بأن يقظة الروح العربية ، هى العامل الأول فى استعادة مجد الاسلام . وكان لدعوته اثرها فى الثورات : العرابية المصرية والفارسية والتركية .

وكانت وسيلة جمال الدين اخلق الوعى السياسى فى العالم العربى وتحرير الفكر من قيود الاستبداد وخلق روح الكرامة والعزة ومقاومة المستعمر « هو الثورة السياسية » ، فقد راى تغلغل النفوذ الأجنبى وتسلط الملوك مما حمله على الطعن فى الحكم الاستبدادى والدعوة الى الحد من سلطانهم بالدستور .

وكان ايمانه بالثورة السياسية نابعا من اعتقاده بأنها اسرع الطرق وآكدها فى تحرير الشعوب . ولذلك راى جواز خلع وقتل أمراء المسلمين الذين يشجعون النفوذ الأوربى . وفى حديث له مع الاستاذ (براون) قوله : لا أمل فى الاصلاح قبل قطع ستة أو سبعة رءوس وسمى بالاسم : شاه العجم ، وزرائه (كتاب : الاسلام والتجديد) وقد كثرت المناقشة بين أتصار جمال الدين فى الوسائل التى يمكن بها خلع الخديو اسماعيل أو اغتياله ، اذا استعصى خلعه (بلنت : التاريخ السرى) .

وقد جاءت دعوة جمال الدين السياسية (ولهدعوة اخرى الى الجامعة الاسلامية لها مكانها) فى نفس الوقت الذى كان اسماعيل يعمل على ادخال الافكار الأوربية على نحو سريع وقد كان فى أوائل اقامته فى مصر ، يرى أن أى مجلس نيابى يشكله أمير أو ملك ، هو مجلس موهوم ، موقوف على ارادة من أحدثه . وانه لابد للقوة النيابية أن تنبعث من ضمير الأمة ووعيها . ولكنه عاد فى أيامه الاخيرة ، فحرص على طلب الحكم النيابى والاصرار عليه — ولعل هذا الأمر حدث بعد اعلان الدستور العثمانى الأول وفشله (١٨٧٦ — ١٨٧٧) ويذكر مؤرخوه أنه لم يدخل فى السياسة الا فى خلال ١٨٧٨ ، أى بعد توقف الدستور العثمانى ، وقد استدعاه الخديو توفيق ليناقشه فى مدى أحقية « المصريين » للحكم الدستورى الشورى وقال لجمال الدين : ان أكثر الشعب خامل جاهل لا يصلح ان يلقى عليه ما تلقونه من الدروس والأقوال المهيجة فيأتون أنفسهم والبلاد فى تهلكة. فانبرى جمال الدين يفند للخديو رأيه فى جراة وايمان برايه قال : ان الشعب المصرى كسائر الشعوب لا يخلوفيه من وجود الخامل والجاهل بين أفراده ، ولكنه غير محروم منوجود العالم العاقل . فبالنظر الذى تنظرون به الى الشعب المصرى ينظر اليكم ، وان قبلتم نصح هذا المخلص ، وأسرعتم فى اشراك الأمة فى حكم البلاد عن طريق الشورى فتأمرون باجراء انتخابات نواب عن الأمة تسن القوانين وتنفذها باسمكم وارادتكم يكون ذلك اثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم .

***

وقد عدل « جمال الدين » الكثير من النظريات الفكرية فحول الأدب والصحافة من مدح الملوك والأمراء الى دعوة الاصلاح ، وسخر الادب لخدمة الشعب والمطالبة بحقوقه ، وقاوم نظرية الزهد الصوفية السائدة فى العزلة عن المجتمع .

وقال : فناء الصوفى فى الله ، وفنائى فى خلق الله .

وقد هز المشاعر بدعوته الحماسية الى الحرية مما كان له أبعد الأثر فى اتقاد هذه الجذوة التى كانت بعيدة المدى فى الفكر العربى الاسلامى المعاصر .

« انكم معاشر المصريين قد نشأتم فى الاستعباد . وربيتم فى حجر الاستبداد وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة حتى اليوم . وأنتم تحملون عبء نير الفاتحين وتعنون لوطأة الغزاة الظالمين . تسومكم حكوماتكم الظلم والجور وتنزل بكم الخسف والذل . وأنتم صابرون بل راضون . تستنزف قوام — حياتكم — التى تجمعت بما يتحلب من عرق جباهكم — بالعصا والمقرعة والسوط وانتم صامتون . انظروا أهرام مصر ، ومشاهد سيوه ، وحصون دمياط . . فهى شاهدة بمنعة آبائكم وعزة أجدادكم . هبوا من غفلتكم ، اصحوا من سكرتكم . عيشوا كباقى الأمم أحرارا سعداء » .

وحق لمحمد عبده أن يصف شعب مصر عند قدوم جمال الدين اليها بانهم كانوا يرون شئونهم العامة بل الخاصة ملكا لحاكمهم الأعلى ، يتصرف فيها حسب ارادته ويعتقدون أن سعادتهم وشقاءهم ، موكولان الى أمانته وعدله ، أو خيانته وظلمه . ولا يرى أحد منهم لنفسه رأيا يحق له أن يبديه » ، ثم ظهر بوضوح اثر جمال الدين فى يقظة الرأى العربى كله وتطلعه الى حقه فى التفكير السياسى عن طريق الدستور والنظام النيابى . وذلك فى مناقشات عبد السلام المويلحى فى مجلس شورى النواب وتطور ذلك حتى قال القاضى الهولندى (فان بملن) احد قضاة المحاكم المختلطة : أن المثقفين المصريين يخطىء من يظن أنهم لا يهتمون الا بمصالحهم الشخصية ، ومصالح عائلاتهم ، وهم على العكس ، يكرهون الحكم التركى والحكم الأوربى على السواء ويريدون حكومـــة وطنية (بكل معنى تحمله هذه الكلمة) .

وكان هذا مقدمة اتجاه العالم العربى نحو القومية والتحرر من انظمة الحكم الاستبدادى .

— ٥ —

عرابى والحزب الوطنى الأول ١٨٧٩ — ١٨٨٢

تعد حركة احمد عرابى عاملا من ابرز عوامل التيار السياسى فى يقظة الفكر العربى الاسلامى . فقد تأثر عرابى بجمال الدين والاتجاه الدستورى العثمانى . وكان بمثابة رد فعل واضح للتركية المتغلغلة المسيطرة . ورد اعتبار لما كان وجه الى المصريين من اتهام بأنهم « فلاحون » وقد تمثلت دعوته فى مقاومة (١) الأسرة التركية (٢) التدخل الأجنبى (٣) حكم الفرد الاستبدادى ، ويعد عرابى اول سياسى فى العالم العربى وقف فى وجه الحاكم المستبد مناديا باسم الحرية وتمثل عبارة الخديو فى يوم (٩ سبتمبر ١٨٨١) مفهوم الحاكم المستغل كما تمثل عبارة عرابى مفهوم اليقظة الفكرية السياسية .

وقد كانت مظاهرة عابدين ترمى الى مطالبة عرابى بمطالب ثلاثة هى :

(١) عزل رياض (٢) تشكيل مجلس النـــــواب (٣) وصول الجيش الى العــــدد المعين فى الفرمانات السلطانية .

قال الخديو : كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها . وانا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائى وأجدادى وما انتم الا عبيد احساننا — فرد عليه عرابى قائلا : لقد خلقنا الله احرارا ، ولم يخلقنا تراثا ولا عقارا ، فوالله الذى لا اله هو اننا سوف لا نورث بعد اليوم .

وهذا الحديث ولا شك علامة هامة من علامات تطور التيار السياسى فى الفكر العربى الاسلامى المعاصر ، وهو اول علامات ظهور « القومية المصرية » .

فقد كان الطابع التركى هو الغالب على الفكر والحكومة والجيش ، فكانت الأسر المتصدرة لشئون البلاد من عائلات تركية ولم يعرف رئيس وزراء الا وهو تركى الأصل . كما كانت استانبول هى قبلة المصطافين .

ولم يجد عرابى مصريا صميما يملك شيئا يؤبه له وقد تزعم عرابى الحزب الوطنى الذى أعلن عن وجوده فى نوفمبر ١٨٧٩ حين وزع اعلانه الذى بلغت كميته عشرين الف نسخة مطبوعة من منشور احتوى على بيان محدد لانقاذ مصر من ويلاتها ، وقد عزا البيان ما تقاسيه البلاد الى الحكم المطلق . وخلو البلاد من برلمان منتخب متمتع بسلطات كاملة . وعدم سيادة القانون وعـــدم تساوى الناس امامه ، وافتقار البلاد الى التعليم العام .

وقد ظل عرابى مؤمنا باهدافه حتى بعد فشل الثورة العرابية التى لم تهزم الا بالخيانة ، فقد صور اهدافه فى مذكرته التى رفعها الى اللورد « دوفرين » ،

الذى استقدمته بريطانيا بعد الاحتلال لتنظيم الادارة المصرية وفق أهداف الاستعمار ، وتلك هى ملامح هذا التفكير السياسى :

- x اعظم مصاب مصر من المرابين والسماسرة الذين امتصوا دماء الفلاحين .
- x من اشد ويلات مصر الأجانب الذين يشغلون اعلى المناصب ويتقاضون أضخم المرتبات .
- x واولئك الذين يحيطون بالحكومة ساعين لابعاد المصريين وهضم حقوقهم .
- x ان يكون نظام الحكم فى مصر نظاما دستوريا : مجلس وزراء مسئول عن وزارته .
- x أن يكون حاكم مصر ملما بأحوال البلاد ومحبوبا .
- x يكون للأمة مجلس نواب ومجلس أعيان يعرض عليها اللوائح والقوانين .
- x المساواة بين سكان مصر ، ولا يجوز التمييز بين الوطنى والأجنبى فى الضرائب وسواها وتوحيد القوانين فى جميع المحاكم المصرية .
- x الاستغناء عن خدمة الموظفين الأجانب الذين لاحاجة للبلاد بهم .
- x منع المرابين من ابتزازات الأموال .
- x منع المرابين من ابتزازات الأموال ، والاهتمام باعمال الرى .
- x نشر التعليم فى مختلف البلاد .

***

وقد اعلن احمد لطفى السيد أن الدستور من عمل احمد عرابى . ومن وضع يده ومن آثار جرأته .

واكد داود بركات ، ان الثورة العرابية غيرت بلا شك ولا ريب وجه سياسة العالم فى الشرق . وانها لم تنته ، (الأهرام ١٩٣١/١٠/٧) ولن تنتهى قريبا ، وان الأمة قد سارت وراء عرابى لانه رمى عن قوس عقيدتها ومناها بحريتها .

***

— ٦ —

عبد الرحمن الكواكبى : مقاومة الاستبداد

وعبد الرحمن الكواكبى (١٨٤٨ — ١٩٠٢) الذى دعا الى مقاومة الاستبداد (وهو صاحب دور آخر فى الجامعة الاسلامية) فى أواخر القرن التاسع عشر وعمله يمثل مدى تطور التيار السياسى فى الفكر العربى الاسلامى المعاصر فقد كان الاستبداد الذى طبع الحكم فى العالم العربى هو العائق الأكبر عن الحرية .

***

وقد هاجم عبد الرحمن الكواكبى الاستبداد هجوما عنيفا . وفصل بين الاسلام وبين الحكم المطلق ، الذى يفرضه المستبدون . ويبين كيف أن الاسلام مؤسس على « شورى » أهل الحل والعقد . وهو لا يعترف بسلطة دينية ولا منزلة خاصة لرجال الدين .

وعبد الرحمن الكواكبى يسير فى تيار جمال الدين فى مقاومة الاستبداد وتمجيد الحرية . وقد دعا الى اسلوب الحكم الديمقراطى واقامته على دعائم من الشورى والعدل والمساواة . كما طالب بالعدالة الاجتماعية وعمق مفهوم الوطنية . وحارب البدع فى مجال الدين ، ودعا الى تنقية الدين والعودة به الى سماحته ويسره وبساطته ، كما هاجم الماديين .

***

ودعا ايضا الى التعليم وتحرير المرأة واقامة نظام الشورى والغاء الاقطاع .

***

— ٧ —

محمد فريد والدستور

ويتصل بالتيار السياسي عمل محمد فريد في طلب « الدستور » عقب توليه رئاسة الحزب الوطني ١٩٠٨ فقد وجه الوطنيين الى مطالبة الخديو بالدستور وذلك بعد اعلان رد الحكومة على ما طلبته الجمعية العمومية (مارس ١٩٠٧) من انشاء المجلس النيابي ، واشار الرد « بأن الحكومة ترى أن الوقت لم يحن بعد لتشكيل مجلس نواب » .

وقد رأى محمد فريد أن هذا الرد ما هو الا اهانة للأمة واتهام لهـا بعدم كفايتها النظام الدستوري ورأى أن خير وسيلة للرد على ذلك ، القيام بحركة جماعية المطالبة بالدستور وأعدت عرائض وقعت فيمختلف انحاء مصر بلغت عشرات الألوف وقد انهالت هذه العرائض على الخديو واشترك في توقيعها أعيان البلاد والمثقفات من السيدات والآنسات وكان لها دوى هائل كان اكبر دعاية للدستور . وقد اكتمل من هذه العرائض ٦١ الف توقيع في حوالى الف عريضة .

وقد كان لاعلان الدستور العثماني (يولية ١٩٠٨) اثره في ازدهار هذه الحركة واضطراب الخديووالانجليز لها . ثم لم يلبث الانجليز (اللورد جراى) ان اعلنوا معارضتهم لحركة الدستور بحجة ان المصريين لا يزالون غير أهل لتحقيق هذا العمل ، وقد رد عليهم محمد فريد بقوله : ان مصر اكثر استعدادا واهلية لحـكم نفسها بنفسها من كثير من الأمم الأوربية ، وقال : انها محاولة لادخال اليأس على قلوب المصريين للتأثير على حـركة المطالبة بالدستور . واعلن ان ذلك لن يؤدى الا الى زيادة الشعور الوطني قوة .

وقد كان لهذه الحركة اثرها في تطور الفكر السياسي العربي .

* * *

— ٨ —

محمد عبده : الاجتهاد

وكان للشيخ محمـد عبده (المتوفى في ١١ يوليو ١٩٠٥) دوره في الاصلاح الديني وفتح باب الاجتهاد . وهو دور يختلف عن دور جمال الدين الأفغاني ، الذي كان يغلب عليه العمل السـياسي وقد لخص الشيخ عبـده مذهبه في خمس نقاط :

— فتح باب الاجتهاد وعدم الاكتفاء بالتقليد .

— تجديد شباب اللغة العربية والعناية بأمرها .

— محاربة الخرافات والأباطيل التي نسبت زورا الى الدين .

— تحريك رجال الدين من رقادهم لأنهم مصابيح الظلام .

— الاعتماد في نهضة المسلمين على النهـــوض بالأزهر لأنه حصن الدين ومعقل اللغة .

وكان لمحمد عبده دوره في تطوير الفكر العربي فقد حول الأدب والصحافة من مدح الملوك والأمراء ، الى دعوة الاصلاح الاجتماعي وسخر الأدب لخدمة الشعب والمطالبة بحقوقه . وفسر القرآن تفسيرا ينطوى على الاجتهاد والسير مع الزمن .

وكان له عمله في اصلاح الأزهر وانشاء مدرسة القضاء الشرعي ، واصلاح المحاكم المختلطة ، ومحاربة البدع .

* * *

وقد بدأ حياته الفكرية بكتابة رسائل اصلاحية في جريدة الاهرام ١٨٧٦ ، ثم تولى رئاسة تحرير الوقائع المصرية — ونفي بعد الثورة العرابية ست سنوات زار خلالها أوربا وبيروت وتونس وعاد الى مصر ١٨٨٨ حيث وجه اهتمامه الى هدفين هامين (١) تحرير الفكر من قيد التقليد وفهم الدين على طريقة سلف هذه الأمة قبل ظهور الخلاف والرجوع في كسب معارفه الى ينابيعها الأولى (٢) اصلاح أساليب اللغة العربية في التحرير سواء في المخاطبات الرسمية او المراسلات بين الناس .

وقد قاوم محمد عبده بقلمه كل ما وجه الى الاسلام من الاتهامات وكان أبرز موقفين له رده على هانوتو عن روح الاسلام وموقفه من الاستعمار ، ورده على فرح أنطون عن : سماحة الاسلام وموقفه من العلم والعلماء وحرية الرأى .

واتسمت مساجلاته بالعمق وقوة الحجة والترفع عن المجادلات الرخيصة .

ولم يأخذ المؤرخون على محمد عبده الا موقفه من الاستعمار البريطانى بعد عودته من منفاه وارتباطه بالمعتمد البريطانى (كرومر) الذى وصفه فى كتابه (مصر الحديثة) بأنه زعيم حزب سياسى اجتماعى معتدل يختلف عن موقف الحزب الوطنى المتطرف وقال انه (انشأ مدرسة فكرية فى مصر على نحو ما فعل السيد احمد خان منشىء كلية عليكرة فى الهند) .

***

وانه « يعرف بلزوم معاونة الغربى لاصلاح مصر على انه يختلف عن الفئة من المصريين المقلدين للأوربيين » وان هذا الفريق (أى فريق عبده) « عمله صعب جدا لانهم حلفاء الأوربى المصالح ومساعدوه وسوف يجد محبو الوطنية المصرية احسن أمل فى ترقى اتباع الشيخ محمد عبده للحصول على مصر مستقلة بالتدريج » .

ومعنى كلام كرومر هذا فى الشيخ محمد عبده انه يؤمن بالتعاون مع بريطانيا فى سبيل الاستقلال التدريجى وهو المذهب الذى صنعه كرومر واطلق عليه اسم « الالتقاء مع بريطانيا فى منتصف الطريق » وعلى نسقه قام حزب الأمة الذى انشأه الارستقراطيون والاقطاعيون و « أصحاب المصالح الحقيقية » فى مصر ، واصدروا « الجريدة » لسانا لهذا الحزب وهو ما وصفه لطفى السيد بالدعوة الى التعقيل ومعاداة « النزعة العاطفية » هذه النزعة التى حمل لواءها مصطفى كامل .

ولا شك أن محمد عبده كان له دوره الخطير فى اصلاح الأزهر وفى تعزيز الفكر العربى الاسلامى وترقيته وتحريره منقيود التقليد فىالمضمون والزخرف فىالأسلوب

***

تيـار الجامعـة الإسـلامية

يمكن القول بأن الدعوة الى الجامعة الاسلامية ، أو الوحدة الاسلامية ، انما جاءت على اثر تغلغل النفوذ الاستعماري في العالم الاسلامي ، ومهاجمته لمقـومات التفكير والعقائد وتغلغله في مجالات السياسة والاجتماع والاقتصاد ، فكانت هذه الدعوة من عوامل الاسـتجابة للتحدى .

وقد جرت في عدة ميادين تختلف في غاياتها ، ولكنها في مجموعها تهدف الى توحيد العالم الاسلامي واعادة ربطه مرة أخرى بميثـاق ، او هيئة أو خطة تحمل معنى المقاومة والمواجهة والتجمع لدرء الخطر .

ولمـا كان الاستعمار الغربي قد ركز على هذه المنطقة التي تضم العالم العربي والهند واندونيسيا ، وهاجم القيم والمعتقدات فقد رأى المفكرون أن هـذا الغزو انما هو حملة صليبية مستأنفة في اسلوب جديد ، مجاله العالم الاسلامي كله ، وقوامه البقـاء الطـويل وتركيز القواعد الاستعمارية .

ولقد بدا الغزو ، بمهاجمة المعتقد الاغلب في المنطقة وهو « الاسلام » ظنا منه أن القضاء على العقيـدة الدينية سيحقق للاستعمار تمزيق المنطقة وضمان البقاء الطويل ، ولذلك أطلق مختلف أدوات الغزو الفكرى : من مستشرقين ومبشرين ودعاة ومفكرين وكتاب وصحف ، وهذا هو السر في اطلاق عبارة « الجامعة الاسلامية » على هذا التنادى الى التجمع ، وقد اجتمع رأى المؤرخين على أن احدا من مفكرى الاسلام لم يسبق الى الجامعة الاسلامية قبل جمال الدين الأفغانى (١٨٣٩ — ١٨٩٧) وخاصة في فترة السنوات السبع التي قضاها في مصر .

وقد اخذ الغزو الفكرى في هذه الفترة لون الصراع بين الاسلام والمسيحية وركز الاستعمار هجومـه على مقومات العقيدة ، وحاول الصاق الاتهام بالتخلف وبأن ما وصل اليه المسلمون من جمود وضعف انما مرجعـه الاسلام نفسه .

وقد دعا السلطان عبدالحميد في أواخر القرن التاسع عشر الى «الجامعة الاسلامية» في ظل الخلافة العثمانية وظن البعض حينئذ ارتباط دعوة جمال الدين بدعـوة عبد الحميد . والواقع أن هناك فرق بعيد المدى بين دعوة « المصلح السياسى » للفكرة وبين دعوة « الحاكم » لنفس الفكرة تحت قيادته وسلطانه .

ذلك ان عبد الحميد كان يدعو الى الجامعـة الاسلامية مرتبطة بالخلافة وفرق بين الجامعة والخلافة فقد كان هدفها الاحتماء بالدول الاسلامية من وجه الغزو الغربى ومواجهته جبهه واحدة ومن أجل هذا ارسـل عبد الحميد صيحته :

« يا مسلمى العالم اتحدوا » .

* * *

فدعوة عبد الحميد قد انبعثت نتيجة احساس الدولة الثانية بخطر مهاجمة الدول الأوربية للامبراطورية وكانت امكانيات الدولة قد اعطت الفكرة قـوة عظمى للدولة العثمانية .

٢ — اما جمال الدين فقد كان مذهبه في الدعوة الى الجامعة الاسلامية مختلفا اشد الاختلاف ، كان جمال الدين يؤمن بالجامعة الاسلامية ، كعمل فكرى سياسى واسع المدى يهدف الى جمع كلمة العالم الاسلامى وتحريره من الحكام والأمراء المستبدين الذين يحولون دون الالتقاء في هذه الوحدة ، كما يرمى الى تحرير الوطن الاسلامى وتطوير المجتمع ورفع مستواه ودفعه في طريق النهضة . وكان جمال الدين يراها جامعة تقوم على الشورى وحق المسلمين في حكم انفسهم . وقد تكلم عن الحاكم القوى العادل — وليس المستبد العادل كما تردد خطأ — وعند جمال : أن المسلمين من المحيط الأطلسى الى المحيط الهادى أمة واحدة يمكن أن تجمعهم رابطـة سياسية وفكرية واحدة .

وهـو يرى ان ذلك ممكن التحقيق على أساس الارتباط بالهدف والوسائل ولا يلتمس « أن يكون مالك

الأمر فى الجميع شخصا واحدا فان هـذا ربما كان امرا عسيرا » ويرجو « ان يكون سلطان جميعهم القرآن ووجهة وحدتهم الدين . وكل ذى ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع فان حياته بحياته ، وبقاءه ببقاءه ».

ومن هنا كانت « الجامعة الاسلامية » تيارا هاما فى الفكر العربى المعاصر يهدف الى القضاء على استبداد الحكام والأمراء وجمع الشعوب الاسلامية فى جبهة لمقاومة الاستعمار والغزو الغربى ، فلما لم يتحقق هذا الهدف اتجه التفكير الى مسائل اخرى كالدعوة الى القومية العربية واتخاذ الأنظمة الغربية فى الحكم للحـد من استبداد الملوك والحكام ومواجهة الغزو الاستعمارى .

وقد عمل عبد الحميد على استغلال دعوة جمال الدين ، وذلك يجعل السلطنة والخلافة شيئا واحـدا والتمسك بأنه الخليفة للعالم الاسلامى كله وليس سلطانا للماكة العثمانية وحدها ، واستقدم جمـال الدين الى الاستعانة فى محاولة توحيد الوجهة ووعد بتنفيذ آرائه لاصلاح العالم الاسلامى ، وكان جمال الدين يرى أول الأمر فى عبد الحميد انه ربما حقق خيرا غير انه لم يلبث ان وصفه بأنه (سل فى رئة الدولة) وكان يأمل فى ان يستطيع الأتراك تحقيق الدعوة الى الجامعة الاسلامية بشرط وهـذه عبارته « لو انصرف الأتراك انفسهم لاستعربوا وترأسوا ذلك الملك وعدلوا فى أهله » .

٣ ــ وقد كان جمال الدين يقاوم الاستعمار الغربى والانجليز بصفة خاصة بالدعوة الى الجامعة الاسلامية معتقدا « أن الروح الصليبية لم تبرح كامنة فى صـدور « الغربيين » كمون النار فى الرماد ، وأن «روح التعصب لم تنفك حية معتاجة فى قلوبهم حتى اليوم كما كانت فى قاب بطرس الناسك من قبل . وان « النصرانية لم يزل التعصب مستقرا فى عناصرها متغلغلا فى احشائها متمشيا فى كل عرق من عروقها . وهى أبدا ناظرة الى الاسلام نظرة العداء والحقد والتعصب الدينى الممقوت » ــ وهو يرى « أن العالم الغربى على اختلاف امه وشعوبه عربا وجنسية هو عدو مقاوم مناهض للشرق على العمـوم والاسلام على الخصوص فجميع الدول الغربية متحدة معا على ذل الممالك الاسلامية ما استطاعت الى ذلك سبيلا» وان دعاة الغرب « يأخذون شواعر كل مسـلم وآماله ورغباته التى تجول فى صدره ، ثم يمثلونها بصور الهزء والسخرية والعبث والازدراء .. » وأنه من أجل ذلك يجب على العالم الاسلامى « أن يتحد اتحادا دفاعيا عاما مستمسك الأطراف وثيق العرى ، ليستطيع بذلك الزياد عن كيانه ووقاية نفسه من الفناء المقبل ، وللوصول الى الغاية الكبرى ، انما يجب عليه اكتناه اسباب تقدم الغرب والوقوف على تنوته وقدرته » .

ومن هنا يكمل جمال الدين ماقام به محمد بن عبد الوهاب ، فقد كان عبد الوهاب ينظر الى المنابع واصلاح العقيدة بينما ينظر جمال الدين الى الحاضر واصلاح الحكومـة وقد عيب على جمال الدين انه لم يركز قوته الذهنية فى خدمة الاسلام كنظام للتوجيه الانسانى .

ولكن الهدف الذى قصد اليه جمال الدين فى دعوته الى الوحدة ، انما كان عملا بعيد المدى يصور مقتلا من مقاتل العالم الاسلامى وقد بلغ امره فى نظر جمال الدين انه هو العمـل الأكبر ، وانه الغاية يقول : (الشرق) وقد خصصت دماغى لتشخيص دائه وتحـرى دوائه فوجدت اقتل ادوائه ما يعترض فى سبيل توحيد الكلمة فيه ، داء انقسام أهله ، وتشتت آرائهم واختلافهم على الاتحاد واتحادهم على الأختلاف، فقـد اتفقوا على الا يتفقوا » .

وقد تأثر جمال الدين فى دعوته الأمارات الجرمانية التى اتحدت بعد تشتتها واوضح محمد عبده هدف جمال الدين حين قال بأنه ، كان يرمى الى تنكيس دولة بريطانيا فى الاقطار الشرقية وتقليص ظلها عن رءوس الطوائف الاسلامية .

خلفاء جمال الدين فى الدعـوة

سار محمد عبده فى نفس الطريق الى « الجامعـة الاسلامية » ثم تحول عنه بعد عودته من منفاه حيث عدل الى الدعوة للقومية المصرية حتى وصفه (كرومر) بأنه على راس مدرسة تعارض اتجـاه مصطفى كامل فى الارتباط مع الخلافة العثمانية . ومع هـذا فان محمد عبده كان يرى أن المحافظة على الدولة العثمانية ، ثالثة العقائد بعد الايمان بالله ورسوله فانها وحدها المحافظة لسلطان الدين ، الكافلة لبقاء حوزته .

وكان يفرق بين شخص السلطان عبد الحميد ، وبين الدولة العثمانية .

(الكواكبى)

ويعـد « عبد الرحمن الكواكبى » مقنن الجـامعة الاسلامية فى كتابه « أم القرى » فقد عزا تخلف المسلمين

الى عوامل متعددة (١) الجهل (٢) العقائد التى اقحمت على الاسلام ، ومنها عقيدة الجبرية (٣) الحكومات الملكية المطلقة (٤) الامراء (٥) العلماء المدلسين الذين صانعوا الأمراء (٦) فهم الدين على غير أساس العبودية لله وحده (٧) الطرق الصوفية (٨) اهمال العلوم الرياضية والطبيعة (٩) الفقر (١٠) عدم وجود « قيادة » يلتف حولها المسلمون .»

وقال : « ان ضعف الدين من أهم أسباب البدع ، ومن أهم اسباب البدع تقديس الأولياء وهو ان الناس يقيسون جبروت الله وسلطانه على جبروت الملوك وسلطانهم » .

وقد رسم صورة (الطوبيا) للاصلاح فى الأمة العربية بتكوين « هيئة اسلامية عامة » يطلق عليهاجمعية لاتنتسب الى مذهب أو شيعة اسلامية معينة . تسير فى مذهبها الدينى على سنة السلف المعتدل . وتكون نواة لجامعة اسلامية ثقافية تتطور مع الزمن الى جامعة اسلامية سياسية .

وتعمل هذه الهيئة على تنفيذ برنامج يرمى الى :

× نشر التعليم ، لنشر الوعى السياسى فى البلاد الاسلامية .
× وضع مؤلفات ترمى الى تقويم الأخلاق والدين بلغة ميسرة .
× الدعوة الى التسامح وتجنب التعصب الدينى او الجنسى ، ومعاشرة غير المسلمين بالحسنى ، والمساواة فى الحقوق .
× بعثات الى مختلف البلاد الاسلامية لتعرف احوالها وارشاد اهلها .

(شكيب ارسلان)

تاثر « شكيب ارسلان » دعوة جمال الدين الأفغانى بعد أن التقى به فى استانبول ١٨٩٢ ولازمه . وقد عاش حياته يدعو للجامعة الاسلامية ، وقد صور دعوته فى كتابه « لماذا تأخر المسلمون » وفى تعليقاته على كتاب حاضر العالم الاسلامى .

ويرى شكيب ارسلان ان من أعظم أسباب انحطاط المسلمين هو فقدهم كل ثقة بانفسهم . وقد ساعد على المرض سعى الفرنجة ودعاتهم فى ترويج النظريات التاعسة بين المسلمين من انهم لا يصلحون لعلم أو صناعة أو حرب أو سلم » .

ويرى ان الجامعة الاسلامية : انما هى الشعور بالوحدة العامة ، والعروة الوثقى التى لا انفصام لها ، بين جميع المسلمين فى المعمور الاسلامى ، قائمة على ركنين هما اساساها ، ولا ثالث لهما : الحج الى بيت الله الحرام فى مكة ، والخلافة ، ويرى أن الحج أهم من الخلافة . « والحج هو المؤتمر الاسلامى السنوى حيث تتباحث الوفود الاسلامية من اقطار المعمورة فى كافة مصالح المسلمين ووضع الخطط ورسم الطرائق للدفاع عن بيضة الاسلام .

وقال : ان الاسلام بذاته صالح كل الصلاحية لكى يستمد منه جميع ما هو لازم لذلك ، من أجل هذا يكتفى فى الأخذ من الغرب بمناهجه العلمية ووسائله المادية .

عبد الله نديم

وكان عبد الله نديم يؤمن بانه لا مانع من قيام الجامعتان الاسلامية والقومية ، الأولى بين المسلمين ، والثانية بين ابناء الوطن الواحد .

مصطفى كامل

ويرى مصطفى كامل ان بقاء الدولة العلية ضرورى للنوع البشرى وان بقاء سلطانها فيه سلامة لأمم الغرب، وأمم الشرق . وان واجب المسلمين هو ان يلتفوا حول راية الخلافة الاسلامية وهاجم مصطفى كامل مشروع الخلافة العربية ، وقال انه احدى دسائس الانجليز .

وقد اعترف كرومر فى كتابه « مصر الحديثة » بسعة انتشار فكرة الرابطة الاسلامية بين المصريين وما تتمتع به الخلافة التركية من نفوذ واسع فى مصر وتمسك المصريين بالايمان والوحدة الكاملة بين المسلمين فى سائر اقطار الأرض .

المراجع

عصر اسماعيل : عبد الرحمن الرافعى .
الرحالة ك (الكواكبى) : عباس محمود العقاد .
زعماء الاصلاح : احمد أمين .
بناء النهضة العربية : جورجى زيدان .
حياة الشرق : محمد لطفى جمعه .
شكيب ارسلان : د.م سامى الدهان .
الفكرة العربية فى مصر : د.م انيس صانع .
التيارات الوطنية : د.م محمد حسن ج ١ ، ٢ .
سيرة الامام : رشيد رضا (ج ٣) .
الاسلام والتجديد : تشارلس ادمس : ترجمة عباس محمود العقاد .
حاضر العالم الاسلامى : ترجمة اوتروب ستودارد ترجمة عجاج نويهض .

— ٥ —

تيـــار القوميـــة العربيـــة

تعد الوحدة العربية من اهم معارك « التحـــدى والاستجابة » التى عرفتها الأمة العربية فى مواجهـــــة حملات الغزو السياسى والفكرى التى فرضها الاستعمار على الامة العربية وهى من ناحية اخرى محاولة للتجمع فى كيان واحد لمواجهة الاستعمار الغربى . غير أن عوامل مختلفة حالت دون بلوغ هذا التيار غايته ، اهمها :

● تعذر صهر المنطقة فى وحدة سياسية كاملة فى وقت قريب .

● تحول كبرى الدول الاسلامية وهى تركيـــا عن التيار الاسلامى الى التيار القومى حيث حمل « الاتحاديون » الذين خلفوا السلطان عبد الحميد لواء الدعـــوة الى الجامعة « الطورانية » وقد بلغت هذه الدعوة مرحلة العنف والتطرف حين اتجهت الى فـــكرة تتريك عناصر الدولة العثمانية ومن بينها العرب .

هنالك برزت دعوة الوحدة العربية فى حركة دافعة لمقاومة هذه المحاولة التى أريد بها القضاء على الكيان العربى ، أن تيار الفكرة العربية كان قائما منذ امد بعيد وان كان قد انطوى ثمة بعد انتفاضة صـــلاح الدين الأيوبى .

والحركة الوهابية على ما تحمل من طابع دينى كانت دعـــــوة استقلالية ، تهدف الى تحـــرير المنطقة من نير الامبراطورية العثمانية وذلك تحت ضغط احـــداث النفوذ العثمانى وانحراف الســـلطة فى اتجـــاهاتها الفكرية والسياسية عن المعالم الواضحة التى عرفهـــا العرب فى خلال تاريخهم الطويل ، ثم كانت حركة محمد على التى قضت بفصل مؤامرات السياسة على الحركة الوهابية وكانت — أى حركة محمـــد على — فى ذاتها انفصالية بالعالم العربى عن تركيا العثمانية ، هذا مع ملاحظة أن الحركة الوهابية لم تأخذ طابعا قوميا عصريا واضحا ، وأن حركة محمد على كانت قائمة أيضا على الطمع الشخصى دون هدف عربى واضح ، ولقد كان للتيار القومى الذى غمر أوربا فى هـــذه الفترة اثره فى الاتجاهين التركى والعربى ، كما كان له أثره فى اتجاهات القومية الضيقة (الأقليمية) التى ظهرت بعد الحرب العالمية الأولى — مما يدخل فى المرحلة التالية من كتابنا — غير أن الدعوة الى القومية العربية ارتبطت بعد ذلك باليقظة الفكرية التى سادت العالم العربى ، وتركزت فى الشام (سوريا ولبنان) واحتضنها اول الأمر العرب المسيحيون الذين تأثروا بالثقافة الغربية عن طريق الجامعـــــات الأمريكية والفرنسية التى قامت فى لبنان والتى حملت لواء الدعوة الى الوحدة العربية ارتبطت بعـــد ذلك باليقظة الاسلامية وتمزيق كيان الامبراطورية العثمانية .

ومن اجل هذا كانت الوحدة العربية تيـــارا فكريا اكثر منه تيارا سياسيا، ذلك أنها اعتمدت أول ما اعتمدت على مقاومة تيار القضاء على اللغة العربية ، والتاريخ العربى ، ومعالم التراث العربى والبطـــولات والاعـــلام العربية حين اتجهت تركيا الى تغليب اللغة التركية فى المدارس والمحاكم والثقافة واستعادة امجاد جنكيزخان وتيمورلنك ومحو أسماء أبطال العـــــرب التى تحملها الشوارع والميادين وتغييرها بأسماء أبطـــــال التتار والمغول .

ولذلك كان تيار الوحدة العربية فى مطالعة يعمل على احياء تراث الأجداد والكشف عن الصفحات التى علاها التراب من البطولات واستغل الأسلوب الغربى فى البحث العلمى لابراز هذه الجوانب مما أوقد جـــذوة الايمان بالشخصية العربية ، وكشف للعرب عن معالم تاريخهم الناصع المليء بالبطولات العديدة ومواقف الكفاح فضلا عن عمليات الصقل التى جرت للاسلوب العربى بتخليصه من الزخرف والاتجاه بالمضمون الى المعـــــانى الموضوعية ، هذا مع ضرورة الاشارة الى ظاهرة تحويل هذا التيار فيما بعد نحو التغريب كمحاولة التشكيك فى مقدرات العرب والمسلمين .

وقد كان العرب يهدفون في هذه الفترة الى الاحتفاظ بكيانهم واضح الاستقلال في ظل السلطة وهـو ما اطلق عليه « اللامركزية » .

بلغ هذا التيار قوته حينما اعتبر الحضارة الاسلامية والفكر الاسلامي القديم كله تراث عربي يمكن أن يفاخر به المسلم العربي والمسيحي العربي وكان هذا مدعاة لأن تنقل الكنائس الكاثوليكية العربية صلواتها الى اللغة العربية كما نقل الانجيل الى اللغة العربية وتحـررت الكنيسة العربية من سلطة الكنيسة اليونانية وكان اول بطريرك عربي هو المطران دوماني ١٨٩٩ .

وقد كان هذا الاتجاه واضحا حيث حمل هذا التيار في هذه المرحلة لواء القومية فربط بين المسلم والمسيحي في العالم العربي واطلق الدعوة الى القومية من الدين باسمه مع اعتبار التراث الروحي اساسا للوحدة والعمل على مزج عنصري الأمة وقد بدا هذا المعنى واضحا في مؤتمر باريس ١٩١٤ الذي عقده العرب (السـوريون واللبنانيون) واشترك فيه العراق .

٢ ــ تأثر الفكر العربي الاسلامي بتيار الوحدة العربية في مجال الجمعيات والتأليف والصحف فكانت حلقة طاهر الجـزائري في دمشق (١٨٨٠) وحلقـة محب الدين الخطيب (١٩٠٣) وقـد جمعت هـذه الحلقات صفوة المتعلمين والنبغاء والمفكرين العرب . كمـا انتقل هذا التيار الى استانبول نفسها وحمل لواءه : محب الدين الخطيب وعارف الشهابي ودعيا اليه شباب العرب فيها .

وقـد استهدفت هذه الجماعات تعريف العرب بأنفسهم وتاريخهم وقوميتهم ويعزو محب الدين الخطيب الى هذه الحلقات الفضل على جميع الحركات الفكرية والسياسية والتحريرية في الشرق . فهي التي أرست القواعد الأولى للفكرة العربية في ظل الحكم التركي المطلق وهي التي اشعرت العرب بشخصيتهم وأنارت طـريق الثورة على الظلم والاستعمار .

٣ ــ تأثر الفكر العربي بتيار القومية العربية ، فكان اول كتاب في الدعوة الى القومية هو « يقظة الأمة العربية في آسيا » صدر عام ١٦٠٤ بقلم نجيب عازوري الذي دعا الى توحيـد الكنائس الكاثوليكية تحت اسم الكنيسة الكاثوليكية العربية وانفصال الولايات العربية عن الدولة العثمانية على ان يكون الحجاز مقرا لخلافة اسلامية عربية . وأن تتكون من العراق وسوريا ولبنان وفلسطين دولة عربية موحدة عصرية . كما اصدر مـع جماعة الفرنسيين مجلة (استقلال العرب) ١٩٠٨ .

ويلاحظ هذا ضرورة التفرقة بين حـكم السلطان عبد المجيد وبين حكم الاتحاديين منذ ١٩٠٨ .

٤ ــ وكان المؤتمر العربي في باريس (١٧ حزيران ١٩١٣) مقننا لفلسفة القومية العربية فقد ابرز ضمان تمتع العرب بحقوقهم السياسية وذلك بالاشـتراك في الادارة المركزية للمملكة اشتراكا فعليا . وفيما يتعلق بالفكر العربي فقد نص على ان تكون اللغـة العربية معتبرة في مجلس النواب ، وأن يقرر المجلس كون اللغة العربية لغة رسمية في الولايات العربية . واشار الأعضاء الى بعد الحركة العربية عن الغايات الدينية واعتبـار المسلمين والمسيحيين افراد امة واحدة هي (الأمـــة العربية) وقال عبد الحميـــد الزهراوي ان الرابطة الدينية لم تتمكن من تحقيق « الوحدة السياسية » كما اكد احمد طبارة انه يعني بالعرب كل ناطق بالضاد لافرق في ذلك بين المسلم وغير المسلم . وكان هذا الفهم خاطئا تماما .

وصور عبد الغني العريسي فلسفة القومية العربية بقوله :

هل للعرب حق جماعة . ان الجماعات في نظـر علماء السياسة لا تستحق هذا الحق الا اذا جمعت على راى علماء الالمان وحدة اللغة ووحدة العنصر وعلى راى علماء الطليان : وحدة التاريخ ووحدة العادات وعلى مذهب سياسة الفرنسيين : وحدة المطمح السياسي ، فاذا نظرنا الى العرب من هذه الوجوه الثلاثة علمنا أن العرب تجمعهم وحدة لغة ، ووحدة تاريخ ، ووحدة عادات ووحدة مطمح سياسي ، فحق العرب بعد هذا البيان ان يكون لهم على راى كل علماء السياسة دون استثناء : حق جماعة . حق شعب . حق أمة .

نحن عرب قبل كل صبغة سياسية . حافظنا على خصائصنا وميزاتنا وذاتنا منذ قرون عديدة ــ رغما عما كان ينتابنا من حكومة الاستانة من انواع الادارات ، كالامتصاص السياسي ، أو التسخير الاستعماري ، أو الذوبان العنصري ، فكل ما تذرعت به الاسـتانة من الوسائل لم يؤد الى غير نتيجة واحدة : وهو الحرص على مكانة حق الجماعة واحياء هـذا الحس الشريف النبيل ، حس الجنسية ، فاقتفاء الماضي نقرر مناهضة كل ما يؤول الى اضعاف هذه القومية والتذرع بكل ما في حياة خصائص العرب وميزات العرب فنحن كتلة حية قائمة بذاتها وخاصتها لا تدع قوة تمس هذا الركن الركين

فتصرح في هذا مليوم بملء الأفواه اننا خلقنا لانفسنا والبلاد العربية لا تكون بعد اليوم مسدا للمطامع الاجنبية عن بلاد أخرى .

وهكذا اختلف مفهوم الوحـــدة العربية عن دعوة القومية العربية التى حمل لوائها المارون والتى اصبحت تشكل تيارا صحفيا وثقافيا واضحا منذ الثمانيـــات من القرن التاســـع عشر فى شعر ونثر ابراهيم اليـــازجى بقصيدته :

تنبهـــوا واستفيقوا ايهـــا العرب
فقد طمى الســـيل حتى غاصت الركب
لا دولـــة لـــكم يشـــتد ازركـــم
بهـــا ولا ناصـــر للخطب ينتـــدب
اقـــداركم فى عيـــون الترك نازلة
وحقـــــكم بين الأتراك مغتصـــب

وقد تنوع هذا الانتاج واتصل حتى قبيل الحرب العالمية الأولى ، وحمل لواءه السوريون واللبنانيـــون الذين هاجروا الى مصر وامريكا ، وكان فى مقدمة دعاته الشاعر القروى والزهاوى والرصافى .

وقد ركزوا على الاشارة بمجد اللغة العربية وعظم الأمـــة العربية وتراثها وأمجـــادها والتنديد بالحـــكم الاستبدادى .

والملاحظ جملة ان الوحدة العربية هى تيار اصـــيل نشأ واتسع بعد سقوط الخلافة وان هنـــاك فارقا بينه وبين مفهوم القومية العربية التى حملته احزاب علمانية

مراجـــع

نشوء الفكرة القومية : ساطع الحصرى .
الاتجاهات الوطنية : دكتور م . محمد حسين .
القومية العربية : الأمير مصطفى الشهابى .
الوحدة العربية : محمد عزه دروزة .
رواد القومية العربية : انور الجندى .
القومية العربية والوحدة الكبرى : انور الجندى .
حياة الشرق : لطفى جمعة .
ترجمة حياة محب الدين الخطيب : المجلس الأعلى للفنون والآداب .
الدكتور صـــــلاح الدين القاسمى : محب الدين الخطيب .

* * *

— ٦ —

تيــار الإصــلاح الاجتـماعى

كان من ابرز عوامل يقظة الفكر العربى المعاصر : ظهور تيار (الاصلاح الاجتماعى) هذا التيار الذى ارتبط بالصحافة والتعليم ونشأة الجماعات والهيئات وكان فى أول امره جزءا من تيار تجديد الفكر الدينى ، ثم انفصل عنه واصبح تيارا مستقلا .

ولقـد كان المجتمع العربى يمر فى أوائل القرن التاسع عشر بمرحلة من أقسى مراحل التأخر والاضطراب نتيجة لتحكم الأمراء والولاة واستبداد الاقطاعيين وتحكمهم فى الفلاحين ، وزاد من ذلك الاضطراب تغلغل الاجانب فى الوطن العربى وسيطرتهم على مرافق التجارة ودوائر المـال والاقتصاد .

وكان الحكم القـائم لا يهتم بالشعوب الخاضعة لسلطانه ولا يحرص على تطهير البلاد من الفساد ممـا استدعى انتشار الرشوة وسوء السيرة وسـفك الدماء وتسلط الأمراء على الفقراء . وقد كان هؤلاء الامراء على جانب كبير من السفاهة مما ادى الى انتشار المفاسـد والمنكرات ، فقد كانت تساق الى قصور الخلفاء والامراء الجوارى اللائى كان لهن عملاء ومستوردون وأسواق .

كما كان الخلاف بين أمراء المماليك فى مصر وحروبهم كانت من أسباب عزلة الشعب وانفصاله عن الأحداث وهروبه الى الصوفية والزهادة .

وقـد بدأت فى عهد سليمان القانونى (١٥٢٠) سيطرة الأجانب على بلاد المملكة العثمانية وحصولهم على الامتيازات ، التى كانت سلاحا موجها ضـد الشعب حيث مكـنت هؤلاء الأجانب من السـيطرة عـلى أعمـال الربا والمضاربة وغزو المسارح والحـانات والمسكرات واستقدام المغنيين والقيان الجوارى مما دفع الاغنياء الى انفاق أموالهم فى هذا السـبيل وسيطر الأجانب على الاقتصاد كله عن طريق انشاء الخمارات على كل قرية يبيعون لاهلها الخمور ويتاجرون بالربا بذلك انتقلت الثروات اليهم وتحول عدد كبير من الاثرياء الى فقراء .

وامتد هـذا النفوذ حتى سيطر الاجانب على الاقتصـاد والمجتمع سـيطرة كاملة ، وقد صـور الجبرتى انتشار الرشوة وانعزال المجتمع بقـوله : الأمراء فى قصورهم وحـواشيهم فى جانب ، والشعب الفقير الجائع فى الجانب الآخر يستنزف خيراته مما خلق الحقد والكراهية والمقت والاستسلام .

وزاد فى عمق هذا التمزق جمـود رجال الدين وانضواؤهم الى صف الأمراء يقدمون الفتاوى التى تؤكد سلطانهم وطغيانهم .

وكان اغلب اهل الطبقـة العليا هم من الاتراك والاجانب ، وهم الحكام واتباعهم ، ولهم عصبة انفصالية عن الامة وقد شغفوا بتقليد الافرنج فى أمور الطعـام والشراب والقصور وانتقـل ذلك الى الطبقات التالية بعدها بالتدريج .

وكان لتغلغل الاجانب خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر اثره فى الأخلاق الاجتماعية فقـد تحول الأثرياء من الطبيعة الجماعية المعروفة فى البلاد العربية الى الطبيعة الفردية والأنانية ، القادمة من الغرب .

وانتقل الأغنياء من البذل الى البخل وتوقف عمـل الخير واغلقت البيوت التى كانت دائما مفتوحة لاستقبال ذوى الحاجات ، واتجهت هذه الاموال الطائلة الى الملاهى والملذات وانواع الترف . وقد احصى عدد البيوت التى اخربها الاسراف فى خـلال السنوات ١٨٩٤ — ١٨٩٩ فوجدت ٣٦٣ بيتا بمعدل بيت كل خمسة ايام .

وقد كانت هذه الطبقة تتكلم التركية والفرنسية ،

وتكره العرب والوطنيين وتعتبرهم خوله وفلاحين وخدما لهم ويعتقد هؤلاء أن هذه البلاد ليست الا مزارع لهم ، ولذلك كانوا يترفعون عن الاندماج او الامتزاج بالطبقات المختلفة .

وقد حرص الاستعمار البريطانى بعد ان سيطر على مصر عام ١٨٨٢ ان ينشىء طبقة جديدة من اعوانه فأعطى الفرصة لظهور ١٦٢٠ أسرة كبرى استطاعت ان تحصل على نصف مليون فدان (فقد زاد عدد الملاك من ١١٣٢٠ مالكا عام ١٨٩٤ الى ١٢٨٤٠ مالكا عام ١٩١٤ وزادت املاكهم من ١٫٩٩٧٫٠٠٠ فدانا الى ٢٫٣٧٨٫٠٠٠ فدانا) ومن هؤلاء جنـــد الاستعمار الوزراء والذوات والكبراء ولم يفت الزعيم اوطنى « محمد فريد » أن يعلق على هذه الظاهرة البعيدة المدى فى المجتمع المصرىفقال: لو كان ذواتنا وكبراؤنا من ذوى الشرف وأصحاب النخوة لامتنعوا عن قبول الوظائف العالية بهذه الحالة ، ولكن الكل يغار على ماهيته وابهته اكثر مما يغار على اسمه واســـتقلال وطنه ، وكيف يكونون كذلك وهم الذين ساعدوا الانجليز على احتلال بلادهم ويساعدونهم الآن على اكمال ضمها لأملاكهم » .

من المفارقات أن « محمد فريد » انفق على الجهاد فى سبيل تحرير مصر ما يزيد عن الف وخمسمائة فدان من ميراثه عن اسرته التى كانت تملكه قبل الاحتلال .

اما الشعب فقد كان الضحية لتسلط الحكاموالامراء على الأراضى الزراعية باستيلائهم على خيراتها ، وحرمان أصحابها الفلاحين . واستولى محمد على فى مصر على أراضى الملاك بتنفيذ نظام الاحتكار وحولهم الى عمـــال زراعيين .

وقـــد اضطروا الظروفهم القاسية ومظالم الولاة والحكام الى التعامل بالربا الذى كان يقوم به الاروام واليونانيون واليهود وقد احصى فى مصر (١٨٩٨) ٥٠ بيتا لتسليف النقود بالربا وظهر فى سجلات المحـــاكم المختلطة ان قيمة الدين المسجل على الفلاحين هـــو ٧٫٣٢٣٫٣٠٠ جنيها مصريا ، وبلغ تقدير الديون غـــير المسجلة ضعف هذا المبلغ ، وانه قد لحقت بالاهالى عام ١٩٠٠ خسارة قدرها ١٠ آلاف جنيه بسبب مضاربات البورصة والشراقى .

ومن اخطائهم ان احدهم قد يستدين مبلغا ليشترى أرضا يبلغ ثلث دخلها الطبيعى نصف ربا الدين .

وقد اغراهم الأجانب بشراء الأسهم والسندات . وبلغ عدد سماسرة هذه الشركات فى مصر وحدها ثلاثة آلاف فكانوا يسرحون فى القرى والبنادر ، ومما يتصل بذلك ما ذكره (المؤيد) من أن اجنبيا انشأ بيتا ماليا رأس ماله الفى جنيه ، أصبح بعد ثلاث سنوات يملك خمسين الف جنيه .

وقد تم احصاء فى القاهرة (١٨٩١) عن المحلات التى كانت تستعمل قهاوى وخمارات فبلغت ٩٤٧٥ محلا يبيع فى السنة بمبلغ ١٫٧٣٠٫٠٠٠ جنيه ووصل هـــذا المبلغ الى ٣٫٤٠٠٫٠٠٠ جنيه فى القطر كله ، واغلبها بيد الأجانب والذى سجلناه عن مصر قد حدث مثله فى مختلف انحاء العالم العربى .

(الاحصائيات من كتاب حاضر المصريين أو سر تأخرهم ـــ ١٩٠٢) .

اما التجارة فقـــد توسع فيها الأجانب وتضاءل الوطنيون فى مختلف العالم العربى ، واصبحت التجارات الناجحة كالسجاير وتجارة البيض فى مصر حكرا على الأرمن واليونان .

وقال كرومر فى تصريح له : لقد تحولت واجهـــات المحلات التجارية فى مصر فى خلال سنوات قليلة بعـــد الاحتلال البريطانى الى محلات اجنبية واختفت اســـماء المصريين من واجهاتها .

وقد قال « محمد عمر » فى كتابه [حاضر المصريين] السر فى تأخر المصريين الى انهم يأتمنون على متاجرهم اجانب او عجائز متقدمين فى السن يستنزفون ثرواتهم وانهم لا يفتحون محلاتهم الا ضحى ويتركونها لهؤلاء العمال لحيهم النوم ظهرا ، وهذا لا يفعله الأجانب » .

وقد تأثرت الأسرة المصرية نظـــرا لفساد أنظمة المحاكم المختلطة . كما كان لانتشار المتصـــوفة الذين يدعون معرفة الأسرار وسقوط التكليف السماوى أثره فى فساد معنى الدين ، وقد حرص الأجانب على حضور حلقاتهم ونقلوا هذه الصور على انها صورة الاسلام ، وكان يعمل فى القاهرة وحدها ٨٠ مولدا فى السنة يظهر فيها عديد من الأخطاء الاجتماعية .

وأدى احتلال مصر الى التوسع فى اخطار(١) الدعارة الرسمية (٢) المخدرات (٣) الاقطاع والرق الاجتماعى

(٤) السخرة والكرباج وقد بلغ ما ضبط من الحشيش (تقرير كرومر — ١٩٠٠) ١٥٦٢٥ كيلو جرام بزيادة ٦٤٧٧ كيلو عن عام ١٨٩٩ والمعروف ان عمليات تهريب المخدرات بمختلف انواعها كانت تتم بمعرفة الاستعمار وبواسطة رجاله واجهزته .

وقد ادى منع الفلاح من حق التملك ، أو ظلمه فى محصوله الى ان ساءت حالة الفلاحين لدرجة اضطرت لها اكثر اهلها الى الهجرة من قراهم وزاد فى ذلك أعمال السخرة التى كانت تستخدم لاصلاح أراضى الولاة والحكام وقد حشد لها عدد كبير من شباب الفلاحين ، عملية حفر قناة السويس اسوأ مثل لفقدان ١٠ آلاف عامل من شباب الوطن .

وقد كان الضرب بالكرباج عادة مألوفة فى جباية الضرائب ، ولم يكن هناك قانون يحمي الفقير او المظلوم ولم تكن هناك رقابة على الحكام .

ومما ادى الى الفساد الاجتماعى تعدد الزوجات، وكثرة وجود الرقيق وذكر انه كان يوجد فى بيوت الأغنياء بالقاهرة (عام ١٩٠٠) ٣ آلاف من الجوارى الابيض الشركسيات .

وقد تأثر أبناء الطبقة الوسطى بالأغنياء فى فنون الترف والسهرات ، وكان هذا طبيعيا بحكم تطلع الطبقة الوسطى الى الطبقة العليا ، ولذلك اثره فى فساد هذه الطبقة واستنزاف ثروتها ، وانحراف سلوكها .

أما التعليم فقد كان هدفه اخراج موظفين يعملون فى خدمة الولاة حيث لا يحسنون الا ما يمكنهم من اداء عملهم آليا .

هذه ملامح صورة المجتمع العربى الى ما قبل الحرب العالمية الأولى ، وقد ظهرت فى هذه الفترة دعوة الاصلاح وبدأت عوامل اليقظة . وكان أبرز مظاهرها الدعوة الى الدستور والحكم النيابى بحسبانه الأداة الوحدة الحد من نفوذ الفرد ، وتوقيف طغيان الولاة وحكام الأقاليم ازاء وجود حكم شعبى يقوم على اساس انتخاب مجلس نيابى يقوم بوضع التشريعات التى ترفع هذه المظالم ، وتحرر الشعب من طغيان الاقطاعيين وجور الولاة .

غير أن الاستعمار الذى سيطر على المنطقة بعد الحرب العالمية الأولى قد حرص على انشاء طبقة من العملاء الخاضعين له كما فعل فى مصر بعد احتلالها ، ولهذه الطبقة اسلم زمام الحكم والسلطان .

وكان الاستعمار حريصا على أن يبقى الشعب فى جهل ، فحارب التعليم وألب القوى كلها عليه : قوى النفوذ الأجنبى واستبداد الولاة حتى حيل بينه وبين معرفة حقوقه ، بيد أن العلماء — وعمر مكرم فى مقدمتهم ، والأمراء استطاعوا أن يحققوا للشعب نصرا مبينا وذلك (١) بارغام المماليك على توقيع وثيقة حقوق الانسان (٢) عزل الحاكم المستبد وذلك بخلع خورشيد والى تركيا على مصر (١٨٠٥) .

وقد كشف المصلحون الاجتماعيون الذين ظهروا — فى هذه الفترة — عن حقيقة موقف الاسلام من الامراء والظلم وحق الشعب فى التعليم والحرية وقد كان الاسلام تقدميا اكثر من المجتمع نفسه ، غير أن المسلمين هم الذين تركوا أصول الاسلام ومبادئه .

وقد ترتب على ذلك ظهور دعوات الى (١) محاربة الاقطاعية بالاشتراكية وكانت كلمات جمال الدين الافغانى فى هذا المعنى واضحة الدلالة : « أيها الفلاح : يا من تشق قلب الأرض بفأسك ، لماذا لا تشق قلب ظالمك . » الخ .

الى (٢) تحرير المرأة : بتعليمها وتثقيفها وهى دعوة بدأت فى التعليم العربى مبكرة حين بدأها البستانى وفارس الشدياق ورفاعة الطهطاوي ثم تناولها قاسم أمين فى عمل فكرى واضح الملامح فى كتابه تحرير المرأة .

(٣) الدعوة الى حق الشعب فى التعليم ، وقد حرص استبداد الأمراء وسلطان النفوذ الأجنبى على حرمان الشعب من التعليم وقصره على الأغنياء ثم انتقل الى مرحلة اخرى أن أصبح تعليما قائما على أساس تخريج موظفين وقد طعم بالسموم المختلفة على النحو الذى رسمه له امثال (دنلوب) .

مراجع

حاضر المصريين أو سر تأخرهم : محمد عمر .
تطور الحركة الوطنية المصرية : شهدى الشافعى
عصر اسماعيل : عبد الرحمن الرافعى
عصر محمد على : عبد الرحمن الرافعى
المجتمع الاسلامى : دكتور احمد شلبى .
الاتجاهات الوطنية : دكتور م . محمد حسين .

تحــرير المرأة

كانت الدعوة الى « تحرير المراة » من ابرز ملامح الاصلاح الاجتماعى فى العالم العربى ، وهىدعوة بعيدة المدىفى تطور الفكر العربىالاسلامى المعاصروقد حمللواء هذه الدعوة ثلاثة من أعلام الفكر العربى الحديث هم : بطرس البستانى ، فارس الشدياق ، رفاعة الطهطاوى وكان ذلك فى منتصف القرن التاسع عشر ، فقد القى (بطرس البستانى) خطابه فى تعليم النساء فى ١٤كانون الأول ١٨٤٩ وتناول ذلك فارس الشــــدياق فى مجلته الجوانب (صدرت ١٨٦١) كما عرض له رفاعـــة الطهطاوى فى كتابه المرشد (١٨٧٢) وهذه نماذج من كتاباتهم فى الدعوة الى تعليم المراة .

* * *

راى بطرس البستانى

« انه (١) فى النظر الى هــذا الموضوع ، لا بد من ملاحظة ما كتبه اصحاب الدراية والتحقيق وما شهد به اختبار جميع الأعصار والأمكنة من أمر النساء تحت اختلافأحوالهن من حيث المعرفة والجهلوالتمدن والتوعر والذين اختبروا هذا الجنس وجربوه على كل حال قد استخرجوا نتائج جليلة تؤيد ما نريد اثباته فى هــذا الخطاب من وجوب تعليمهن وفوائده والاضرار اللاحقة بالكون من جراء جهلهن وحكموا عن روية وصواب ، بأن سبكهن فى قوالب التعليم والتمدن وانصياعهن الىشرائع تقتضيها الهيئة الاجماعية يكللان عالمنا هذا بتيجان الفوز والنجاح ويحليان جيده بقلائد الراحة والسلامة .

اما وجوب تعليم النساء فننصح بما ياتى : لا يخفى أن الانسان ذكرا كان او انثى عند دخوله عالمنا هــذا بالولادة يكون موكولا بجملته الى عناية غيره وتدبيره فهو لا يدرك ما حوله من الموضوعات ولا يقــدر على تمييز النافع من الضار أو الخير من الشر .

ولكن بواسطة ما يعرض على حواسه ظاهرا وباطنا من المواد الطبيعية والقضايا العقلية العادية عن المادة يأخذ فى التقدم شيئا فشيئا فى ادراك ما حوله وتقليده والحكم عليه وتتوسع قواه العقلية والأدبية بحيث ان يكون له حق التصرف بها (القوى العقلية والأدبية) وتهذيبها وتوسيعها بحسب الاقتضاء .

لا يجب أن توجد شريعة أو عادة أو عائق آخريمنع المراة من التمتع بحقها فى هذا القبيل .

او سلمنا أن للرجل حقــه فى التعليم والتمدن انما يلزمنا التسليم بوجوب تعليم النســـاء لكى نيسر له الحصول بسهولة على هذه الحقوق .

فمن فوائد التعليم للمراة منها انه يوســع قواها العقلية ويهــذبها ويوقظ ضميرها وينبهه ويحييه ويقوم ارادتها وعواطفها الأدبية ويرتب سلوكها وتصرفها .

* * *

أما الاضرار الناتجة من جهل المراة فمنجملتها فساد ذوقها لانها تستحسن ما يستهجنه الذوق السليم من أمر الملبوس والزينة والحركات ومنها فساد عقيدتها لانها تصدق خرافات ومنها فساد آدابها كما يظهر من كلامها وتصرفها بين الجماعات ومنها فقدان المحبة الطبيعيةحتى نحو أولادها .

تعلم النساء بناء على أن التى تهز السرير بيمينها هى التى تحرك المسكونة بذراعها .

* * *

(١) العدد الثامن من مجلة الجنان .

(١) من كتاب (كنز الرغائب منتجات الجوانب) .

راى فارس الشدياق

ان الأمهات (١) فى الشرق يربين أولادهن فى الوساوس والأوهام والأضاليل فيقلن لهم مثلا أن العفريت أو الجن يترصدهم ويصاحبهم وانهما يأتيانهم فى الليل ويبطشان بهم ، وان القاء الماء على الأرض من غير دستور يحماهما على الغيظ وما اشبه ذلك فيربى الولد على هذه الأوهام هيوبا هلوعا مخلوع القلب . أما اذا كان الولد انثى فانها لا تسمع من أمها الا اسم الزواج والطلاق وقصة فلان مع فلانة فتعتقد البنت بأن النساء لم يخلقن الا للزواج والطلاق ، فما ظنك بصبى يربى بلا قلب ، وبنت تنبت بلا عقل ، فان قلت ان الأولاد تذهب الآن الى المكاتب وتتعلم فيها القراءة والكتابة قلت : ان ما يتعلمون فى الكتاب لا ينفى عنهم تلك الأوهام التى تحكيها عليهم امهاتهم فى البيوت واذا هم حفظوا كلام الله عن ظهر الغيب فما يفهمون معناه .

فعندى ان اهمال الولد من غير تربية أصلا خير من تربيته على هذه الأضاليل ويمكن أن يقال ان هؤلاء النساء معذورات على تربية أولادهن على الوجه الذى تقدم فانهن لا يعرفن غيره ، وهو الذى ألفنه وتعودن عليه ، فلا غرو أن يعودن عليه أطفالهن ، انما الذنب على الرجال حيث يتركون نساءهم على جهالة الجهل والغباوة . بل هؤلاء ايضا يظنون أن المراة لم تخلق الا للفراش .

فان (١) قلت انه ليس عندنا كتب فى العربية تصلح للنساء قلت هب ما قلته حقا ولكن اليس عند الافرنج كتب مختصة بالنساء والأولاد فلم نشترى منهم الخز والمتاع ولا نشترى منهم الحكمة والآداب ؟ .

أما تعلم نساء بلادنا القراءة والكتابة فعندى انه محمود بشرط استعماله على شروطه وهو مطالعة الكتب التى تهذب الاخلاق وتحسن الاملاء فان المراة اذا اشتغلت بالعلم كان لها به شاغل عن استنباط المكايد واختراع الحيل .

ان البنات فى مصر والشام لا يعاشرن أحدا سوى الخوادم واهل البيت اما امهاتهن فلا يطالعهن بشىء من امور الدنيا مخافة ان تنجلى الغشاوة عن ابصارهن فيعرفن ما يراد منها .

ولا يخفى أن البنات اذا كن جاهلات بالقراءة والكتابة وحسن المحاضرات وبآداب المجلس والمائدة وغيرها فلا بد أن تتعوض عن هذا الجهل بمعرفة الحيل والمكائد التى تتخذها وسيلة لما يردن ويطلبن . فان البنت اذا اشتغلت بقراءة فن من الفنون أو بمطالعة الكتب المفيدة صرفها ذلك عن استنباط الحيل .

فالأولى عندى أن تشتغل البنت بأحد الفنون والعلوم النافعة سواء أكان ذلك عقليا أو يدويا . وجهل البنات بالدنيا غير مانع لهن من معرفة الرجال واستطلاع أحوالهم — أما اذا كن تأدبن بالمحامد والعلم اللائق بهن فانهن يعرفن الرجال عن تبصر وتدبر .

* * *

راى رفاعة الطهطاوى

ينبغى صرف الهمة فى تعليم البنات والصبيان معا فتتعلم البنات القراءة والكتابة والحساب ونحو ذلك فان هذا مما يزيدهن ادبا وعقلا ويجعلهن بالمعارف اهلا ويصلحن به لمشاركة الرجال فى الكلام والراى ، وليمكن للمراة عند اقتضاء الحال أن تتعاطى من الأشغال والاعمال ما يتعاطاه الرجال على قدر قوتها وطاقتهافكل ما يطيقه النساء من العمل يباشرنه بأنفسهن . وهذا من شأنه ان يشغل النساء عن البطالة فان فراغ أيديهن من العمل يشغل ألسنتهن بالأباطيل وقلوبهن بالأهواء وافتعال الافاعيل ، فالعمل يصون المراة عما لا يليق ، ويقربها من الفضيلة ، واذا كانت البطالة مذمومة فى حق الرجال فهى مذمة عظيمة فى حق النساء ، فان المراة التى لا عمل لها تقضى الزمن خائضة فى حديث جيرانها ، وما يأكلون ويشربون ويلبسون ويفرشون وفيما عندهم وعندها ، وهكذا ...

أما القول بأنه لا ينبغى تعليم النساء الكتابة وانها مكروهة فى حقهن ارتكانا على النهى عن بعض ذلك فى بعض الآثار فينبغى ان يكون ذلك على عمومه ، ولا نظر الى قول من علل ذلك بأن من طبعهن المكر والدهاء والمداهنة ولا يعتمد على رأيهن لعدم كمال عقولهن فتعليم القراءة والكتابة ربما حملهن على الوسائل الغير المرضية وان الله تعالى لو شاء أن يخلقهن كالرجال فى جودة العقل وصواب الراى وحب الفضائل لفعل ، فكأن الله تعالى خلقهن لحفظ متاع البيت ووعاء لصون مادة النسل فيما هو الفارياق) .

---

(١) من كتاب (كنز الرغائب فى منتجات الجوائب)

(٢) للشدياق ايضا من كتاب (الساق على الساق

فمثل هذه الأقوال لا تفيد ان جميع النساء على هـــذه الصفات الذميمة ولا تنطبق على جميـــع النساء وليس مرجع التشديد فى حرمان البنت من الكتابة الا اتفانى فى الغيرة عليهن من ابراز محمود صفاتهن ايا ما كانت فى ميدان الرجال تبعا للعوائد المحلية المشوبة بحميةجاهلية ولو جرب خلاف هذه العادة لصحت التجربة .

ولا شك ان حصول النساء على ملكة القـــراءة والكتابة وعلى التخلق بالأخلاق الحميدة هو اجمل صفات الكمال وهو أشوق الرجال المستنيرين من الجمال فالأدب للمراة يغنى عن الجمال ، لكن الجمـــال لا يغنى عن الأدب !! » ا . هـ

***

٢ — دعوة قاسم امين

ثم كانت صيحة قاسم امين بعد ذلك ، باكثر من سبعة عشر عاما ، فى نهاية القرن ١٨٩٩ ، وتمتاز على ما سبقها بأنها دعوة مدروسة واضحة المعـــالم اقام صاحبها بحثه فيها على اساس من التشريع ، وعـــلم الاجتماع ، ومناقشة الآراء القديمة الجامدة . وقـــد زادت الى مطلب تعليم المراة — وهو لب دعوة الثلاثة : البستانى والشدياق والطهطاوى — السفور والغـــاء الحجاب والطلاق امام القاضى ، ومنع تعدد الزوجات .

وقد ظهر كتاب تحرير المراة عام ١٨٩٩ وذلك بعد ان نشره مؤلفه فصولا فى جريدة المؤيد مما اثار ضـــجة كبرى اضطر ازاءها الشـــيخ على يوسف ان يفسح للكاتبين الرأى فى تأييد او معارضة ، ما دعا اليه قاسم امين .

وقد كتب قاسم مؤلفه (تحرير المراة) على نحو عامى دقيق . قدم صورة عن حالة المراة القديمـــة واضطهادها واذلالها ثم عالج موضـــوع ١ — « تربية المراة » وأثر هذه التربية فى تثقيف عقلها ٢ — وشرح حجاب النساء باعتباره اصلا من اصول الآداب ، ودعا الى التدرج فى السفور ٣ — بين علاقـــة المراة بالأمة باعتبارها نواة الاسرة ٤ — وبحث نظام الأسرة ومايمس حياة العائلة . وجملة المسائل التى عالجها هى : الحجاب والسفور ، تعليم المراة ، الطلاق امام القاضى ، منـــع تعدد الزوجات .

***

آراء قاسم امين

واشار فى مقدمة كتابه ، بانه ليس « ممن يطمع فى تحقيق اماله فى وقت قريب لأن تحويل النفوس الى وجهة الكمال فى شئونها مما لا يسهل تحقيقه وانما يظهر اثر العاملين فيه ببطء شديد فى اثناء حركته الخفية » .

ودعا الى تعليم المراة ورآه واجبا « أن تتعلم المراة ما يلزمها لتربية اولادها على مبادىء الفضيلة والأدب ، وفهم ما يحيط بها من الأشياء . بل ينبغى أن تستـــعد للاجابة على تلك الأسئلة التى لا نهاية لها مما اعتاده الأولاد الصغار (ك : المصريون) وقال : ان المـــراة والرجل على حد سواء فى الاحتياج الى الانتفاع بالعلم والتمتع بلذته ، ولا تحل المراة على المطلوب من هـــذه التربية العقلية بتعلمها القراءة والكتابة واللغات الأجنبية بل تحتاج ايضا الى تعلم اصول العـــلوم الطبيعية والاجتماعية والتاريخية (ك : المراة الجديدة) .

وفى امر (الحجاب) ندد به ، وقال : انه « يحبس المراة فى دائرة ضيقة فلا ترى ولاتسمع ولاتعرف الا ماتقع فيها من سفاسف الحوادث ، ويحول بينها وبين العالم الحى ، وهو عالم الفكر والحركة والعمل فلا يصل اليها منه شيء وان وصل اليها بعضه فلا يصل الا محرفا مقلوبا (ك : تحرير المراة) فالحجاب هـــو عنوان ذلك الملك القديم واثر من آثار الأخلاق المتوحشة التى عاشت بها الانسانية اجيـــالا قبل ان تهتدى الى ادراك أن الذات البشرية لا يجوز أن تكون محلا للملك لمجرد كونها انثى . كما اهتدت لأن تفهم ان سواد البشرة ليس سببا لأن يكون الرجل الأسود عبدا للأبيض (ك : المراة الجديدة) وقال : ان كل ما يستميل النفس الى المطامع والدرس لا يتوفر للمراة مع حجابها « ذلك لان الحجاب يحبس المراةفى دائرة ضيقة فلا ترى ولا تسمع ولاتعرف الا مايقع ويحول بينها وبين العالم الحى ، وهو عالم الفكروالحركة والعمل .

ودعا الى منح المراة حق حرية الفكر والعمل ، وقال : اننا لا نهاب ان نقول بذلك « بعد تقوية عقولهن بالتربية ، حتى ولو كان من المحقق ان يمررن فى جميع الادوار التى قطعتها وتقطعها النساء الغربيات .

وفى الطـــلاق : طالب بأن كل من يريد ان يطلق زوجته ان يحضر امام القاضى الشرعى ، او المأذون الذى يقيم فى دائرة اختصاصه . ويخبره بالشقاق الذى بينه

وبين زوجته ، فاذا أصر الزوج بعد مضى أسبوع على نية الطلاق أن يبعث حكما من أهل الزوجة وحكما من أهل الزوج أو عدلين ليصلحا بينهما ، فاذا لم ينجح الحكمان فعليهما أن يقدما تقريرا للقاضى الذى يأذن بالطلاق .

وجملة آراء قاسم هى :

(١) رفع الحجاب الذى كان سائدا بصورة شاملة (٢) تعليم المرأة حتى ترتفع الى المستوى اللائق بوظيفتها فى الحيـاة (٣) لا تتزوج المرأة بلا ارادة ولا اختيـار (٤) تحريم تعدد الزوجات ، وتقييد حق الرجل فى الطلاق .

* * *

تطور الحركة

وقد عرفت المرأة العربية ضياء العلم فى مصر ، قريبا من ذلك العهد حيث ذكرت أسماء الست جايلة تمرهان الحكيمة التى اقدمت على الاشتغال بمهنة الطب وكان لها مكانة مرموقة وكتبت فصولا فى مجلة يعسوب الطب و (زبيدة المغربية) الشاعرة الزجالة المشهورة وهى أول امرأة ظهرت سافرة بين الناس حيث كانت تحضر مجالس الأدباء وتساجلهم .

كما سـجل المؤرخون أسـماء ستيتة الطنلاوية وفاطمة الأزهرية التى قيل انهما تربتا فى الازهر وحضرتا على كبار علمائه وكانتا من معلمات عائشة تيمور .

وعندما قدم جمال الدين الأفغانى الى مصر ١٨٧١ اثار الدعوة الى تحرير المرأة فى مجالسه على نحو يتفق مع اسلوبه ، فقد كان يوجه انظار تلاميذه نحو هذا الرأى أو ذاك بطريق غير مباشر . وقد روى ابراهيم الهلباوى انه كان جالسا مع جمـال الدين وكان معهما ابراهيم اللقانى وجماعة آخرين فى الجزيرة بين المزارع فمرت من بعد سيدة انجليزية راكبة جوادا فلما لمحها السيد خاطب اللقانى وجمـاعة آخرون فى الجزيرة بين المزارع قال : ما تتمنى يالقانى . فأجابه : أن تكون لى زوجة كهـذه السيدة ، فأبدى السيد علامة الاستحسان . وقد تردد أن جمال الدين كان يعتقد بأن المرأة تتمتع بنفس التكوين العقلى الذى للرجل ولا يعتقها الا نشأتها وان لم « تتأكد مصادر هذا الرأى .

وقد ظهرت أول مجلة تحررها فتاة عام ١٨٩٠ وهى مجلة الفتاة لهند نوفل ثم فتـاة الشرق للبيبة هاشم

وتوالت الصحف التى صـدرت فى القاهرة وكان بعض أصحابها من الشام .

وكانت مدرسة البنات الأمريكية قـد تأسست فى بيروت ١٨٦٢ فكان لها أثرها فى تعليم المرأة ودفعها نحو السفور ، وظهرت اذ ذاك كاتبات منهن زينب فـواز وسليمة أبو راشد ومارى عجمى وجوليا دمشقية .

وكان للمدارس الأجنبية أثرها فى مصر ولبنان . وقد تبادلت مصر والشام المدرسات لمـدارس الأمريكان والفرير والجزويت . وفتحت أبواب التعليم الفتـاة المصرية ، ومن تقارير المراسلين الأمريكان يظهر أن عدد البنات اللائى يتلقين التعليم فى المدارس فى مصر بلغ عام ١٨٩٨ : ٣٧٢٠ بنتا أغلبهن من الاقباط : وقـد حال الاستعمار البريطانى فى مصر دون فتح أبواب التعليم الثانوى والعالى أمام الفتاة وكان المستشار الانجليزى يمنع ذلك بحجة انه مخالف لتقاليد البلاد .

ومما يذكر انه ابان الثورة العرابية (١٨٨٢) بينما كان « عبد الله نديم » يخطب الناس فى الاسـكندرية تقدمت « زينب ضيف » وطالبت بحقوق المرأة وقالت :

هـل يرضيكم أن يعيش نصفكم ويموت النصف الآخر . ان العلم هو الحياة والجهل موت زؤام . ان المرأة المصرية لها فى اعناقكم حقوق ولها عندكم واجب وهو أن تعلموها . ومن العار أن تخلو بلاد كمصر من مدارس البنات » ثم كان صالون نازلى هانم فاضل الذى جمع محمد عبده وقاسم أمين وسعد زغلول وغيرهم من أصدقاء اللورد كرومر وفيه تمت عملية « مخاض » كتاب تحرير المرأة لقاسم أمين .

ونازلى فاضل هى حفيدة ابراهيم وابنة فاضل باشا وتحسن اللغات الفرنسية والانجليزية والتركية (توفيت ديسمبر ١٩١٣) .

وقد كشف (داود بركات ـ الاهرام ٤ مايو ١٩٢٨) وفارس نمر (الحديث يناير ١٩٣٩) حقيقـة الدوافع لصدور كتاب تحرير المرأة ، وجملة القول فى هذا أن قاسم أمين حين قرأ كتاب الدوق « داركور : المصريون » ورد عليه بكتاب باللغة الفرنسية فند فيه اتهاماته . وصف هذا الكتاب بانه لم يكن فى صف النهضة النسائية فقد رفع من شأن الحجاب وعده دليلا على كمال المرأة كما ندد بالداعيات الى السفور وقد رأت فيه الأمـيرة

نازلى تعريضا بها . وقد أشير على جريدة المقطم بأن تكتب ستة مقالات عنه تفند اخطاء قاسم أمين فى هـذا الاتجاه . ودفاعه عن الحجاب واستنكاره اختلاط الجنسين وأوقفت الحملة بعد اتفاق الشيخ محمد عبده وسـعد زغلول مع قاسم أمين على تصحيح رايه . وقد حمـل الشيخ محمد عبده الدعوة الى تحرير المراة فى دروسه فى الرواق العباسى حيث أعلن مرارا أن الرجـل والمراة متساويان عند الله .

وقد ترددت آراء كثيرة بأن الشيخ محمد عبده كتب بعض فصول هذا الكتاب او كان له دور فى مراجعتها ، ومما اورده لطفى السيد انه اجتمع فى جنيف عام ١٨٩٧ بالشيخ محمد عبده وقاسم امين وسعد زغلول ، وان قاسم اخذ يتلو على الشيخ فقرات من الكتاب تحرير المراة وصفت بأنها تنم عن اسلوب الشيخ محمد عبده نفسه . وقد صدر الكتاب عام ١٨٩٩ ومعنى هذا انه أمضى ثلاث سنوات فى اعداده .

وقد قوبل كتاب (تحرير المراة) بضجة قوية . والف العلماء لجنة للرد عليه برئاسة محمـد حسنين البولاقى . وانبرى للرد عليه طلعت حرب وفريد وجدى حيث أصدر كل منهما كتابا فى معارضة آراء قاسم .

وقد تراجع فريد وجدى شيئا ما عن آرائه غير انه ظل محتفظا برأيه فى حجاب المراة حتى ردده مرة اخرى عام ١٩٣٣ فى مقالات له بالاهرام وقد انشأت زوجته مجلة واشتغلت بالسياسة ، ومما قاله محمد فريد وجـدى (المراة المسلمة ـــ ١٩٠١) أن الحجاب ضرورى للنساء لصالح النوع الانسانى كله على العموم ، وصلاحها على الخصوص ، لا ينقص المراة المسلمة لكى تبلغ اكمل نقطة يمكن ان ينالها جنسها الا تعلم مبادىء العلوم الضرورية وان اشتغال المراة فى اشغال الرجال قتل لمواهبها واطفاء لمكانتها .

وقال فريد وجدى : ان وظيفة المراة هى حمـل ووضع وارضاع وتربية .

وان تعليم الأم لابد أن يشمل تربية الطفل وتربية ملكاته ، وقال ان علينا « أن نعمل كل ما يمكننا لتتقرب المراة من كمالها وتدخل الى حدود وظيفتها وان تعتبر ان كل ما يبعدها عن هذه الوظيفة داء اجتماعى يجب التغلب على ملابساته او بذل الجهد فى حصره فى محله وان كل امراة مهما قيل انها مكتشفة لمنجم او باحثة فى الميكروبات او علم التشريح او غير ذلك ناقصة وعاصـية للطبيعة وخارجة عن حدود وظيفتها » وان للمراة كمالا خاصا بها لا يتأتى لها الحصول عليه البتة الا اذا صارت زوجـة وأما تلد وتربى وتدير البيت . وان كان شىء يبعدها عن وظيفتها ينقص من كمالها ويؤثر عليها تأثيرا سـيئا . ولا تكون الأمة كاملة الا اذا توزعت فيها الأعمال على العاملين كل على حسب استعداده ووظيفته الكونية .

وقال فريد وجدى عن الحجاب : انا لا انكر ان فى الحجاب شرا ولكنى اعتقد انه مانع من شر اكبر فهـو بهذا الاعتبار يعتبر خيرا ، وانه لا يمنع من التهذيب . وشبيها من هذا كان راى طلعت حرب ، وهو للتاريخ : ضد سفور المراة وحده ، ولم يكن ضد تعليم المراة كما ورد خطأ فى مقال للصحفى العجوز بالاهرام (هامش سبتمبر/١٩٣٢) ومجمله ان الحجاب لا يحول دون تعليم المراة .

وكأنما كان كتاب قاسم امين قنبلة عنيفة الانفجار احتاجت الى اكثر من عام ونصف تشغل الصحف اليومية والأسبوعية وقـد وجد قاسم فى الشباب مؤازرا وفى مقدمتهم ابراهيم رمزى الذى انشأ مجلة خاصة لمقاومة آراء خصوم قاسم أمين وعبد الحميد حمدى الذى انشأ مجلة السفور من بعد ، وفى خلال ذلك ، كان راى قاسم مؤيدا فى دوائر اللورد كرومر وصالون نازلى فاضل . ولكنه كان مكروها فى دوائر الأواء والحـزب الوطنى والقصر .

وظل قاسم خلال هذه الفترة صامتا يجمع النقود الموجهة الى آرائه ويعد الرد عليها وكان ثمرة ذلك كتابه الثانى : «المراة الجديدة» الذى اهداه الى سعد زغلول . وقد تناول فيه أسانيد الخصوم وفحصها ورد عليها . وقد كان فى كتابه الثانى مثـل ما كان فى كتابه الأول حصيفا ، تسلح بضبط النفس وبعد قلمه عن الهـوى والعاطفة ومضى يقنن بأسلوب العلم وفق منطق العقل كل راى . ولم يتناول رايا جـديدا ولكنه وضح بعض الجوانب خاصة فى الموضوعات الرئيسية : الحجـاب وتعليم المراة والطلاق وتعدد الزوجات .

ولقد كان مجمل راى خصوم قاسم : ان تحرير المراة يناقض أصول الدين بينما اعتمد هو فى كتابه الأول على نصوص الدين : القرآن والحديث ، وقد كان الفرق بينه وبين خصومه فى هـذه المعركة انهم حملوا عليه بعنف وتركوا لعواطفهم العنان فى تجريحه واتهامه ولم

يتخذوا الأسلوب العلمى ، بينما وقف هو يرد الحجة فى أسلوب قائم على المنطق والدليل وخال من الشطط أو الحماسة او الهوى .

وكان الكتاب الجديد مثار جدل ومناقشات جديدة وقد استمرت الزوبعةبعض سنين ثم هدأت ، وظل قاسم يواصل جهاده فى سبيل رأيه حتى توفى (فى ابريل عام ١٩٠٨) .

* * *

تردد قاسم فى رأيه

× غير أن قاسم أمين فيما تروى صحيفة الظاهر (اكتوبر ١٩٠٦) قد بدأ له أن يغير رأيه فيما دعا اليه تحت تأثير نتيجة التجربة التى عاناها المجتمع فى مصر خلال هذه الفترة منذ أصدر كتابه ١٨٩٨ حتى أعلن رأيه ذاك (١٩٠٦) وصاحب جريدة الظاهر هـــو محمد ابو شادى الصحفى المعروف فلا غرو أن جمع هذا الرأى أحمد تيمور باشا فى كناشته المحفوظة فى دار الكتب (تحت رقم ٣٢ جرائد تيمور) ولو كان قد وجه قاسم اعتراضا أو مراجعة لهذا الرأى لاحتفظ به احمد تيمور فى كناشته او لتردد أمره وهذا هو رأى قاسم الذى يعتبر رجوعا منه عن رأيه الأول فى تحرير المرأة وخلاصته ان الدعــوة الى تحرير المرأة سابقة لأوانها .

« لقد كنت أدعو المصريين قبل الآن الى اقتفاء اثر الترك بل الافرنج فى تحرير نسائهم وغاليت فىهذا المعنى حتى دعوتهم الى تمزيق ذلك الحجاب والى اشراك النساء فى كل اعمالهم ومآدبهم وولائمهم ، ولكنى أدركت الآن خطر هذه الدعوة بما اختبرته من أخلاق الناس فلقد تتبعت خطوات النساء فى كثير من احياء العاصمة والاسكندرية لاعرف درجة احترام الناس لهن وماذا يكون شأنهم معهن اذا خرجن حاسرات فرأيت من فساد أخلاق الرجال بكل أسف ما حمدت الله على ما خذل من دعــوتى واستنفر الناس الى معارضتى . رأيتهم ما مرت بهم امرأة أو فتاة الا تطاولوا اليها بألسنة البذاء ثم ما وجدت زحاما فى طريق فمرت به امرأة الا تناولتها الأيدى والألسن جميعا .

انه قد تصح الدعوة فى الاستانة لتحــرير المرأة التركية تمام التحرير مثل نساء الافرنج لأن الآداب العامة راقية جدا فى دار الخلافة ولكن لاتجوز الدعوة من هــذا القبيل فى مصر . ولهذا كله لا أجد الوقت مناسبا للدعوة الى تحرير المرأة بالمعنى الذى قصدته قبل » .

تطور الحركة النسوية

تطورت الحركة النسائية وبدأت تأخـــذ سمتا واضحا فى (الشام ومصر) ففى مصر . بدأ سنة ١٩٠٦ تجدد هبوب العاصفة على اثر مقالات نشرها عبدالحميد حمدى فى جريدة المنبر التى كان يحررها محمد مسعود وحافظ عوض تحت عنوان (كلمات عن المرأة) وكانت ملك حفنى ناصف (باحثة البادية) قـــد تقدمت الى الامتحان الذى كان يتقدم اليه الفتيان وحدهم وفازت بالشهادة الابتدائية . وكانت اول فتاة لأول مرة (١٩٠٠) ثم لم تلبث ان مضت فى طريقها فنشرت فى المؤيد قصيدة تفاخر فيها بأن الفتيات أخذن يسابقن الرجال واتيح لها بعد ان تشتغل بالتعليم فكانت اول فتاة اقدمت على اتخاذ هذه المهنة وكتبت فى الجريدة مقــالات (النسائيات) المعروفة ، حيث تناولت مشاكل المرأة فى عصرها : علاقة الرجل بالمرأة وسن الزواج وتعدد الزوجات ، والحجاب والسفور . ولم تكن ملك تجرى وراء بريق الآراء الجديدة بل كانت معتدلة محافظة عارضت فكرة السفور الابشرط التدرج .

وقد أعلنت باحثة البادية (ديسمبر ١٩١٠) ان نساء مصر قد اعتدن الحجاب فلو أمرتهن مرة واحــدة بخلعه وترك البرقع لرأيت ما يجابن على أنفسهن من الخزى وما تقع فيه بحكم الطبيعة والتغيير الفجائى من أسباب البلاء . وقالت « أن خروجنا تغير حجاب لا يضر فىنفسه اذا كانت اخلاقنا واخلاقرجالنا على غاية الكمال ورأت ان الوقت لم يدن بعد لرفع الحجاب . ودعت الى ايجاد مدنية خاصة بالشرق تلائم غرائزه وطبائع بلاده واعلنت أن تعدد الزوجات مفسدة للصحة والمال والأخلاق والأولاد وقلوب النساء .

× فى هـــذه الفترة تقدمت نبوية موسى لامتحان الثانوية (١٩٠٧) فرفض (دنلوب) قبولها وتقدمت فى السنة الثانية فقبلت ونجحت بعد أن أحدثت ضجة فى الصحف وان لم تفز فتاة مصرية بالشهادة الثــانوية من ١٩٠٨ ــ ١٩٢٩ وارسل الشيخ محمد المهدى ابنته لتلقى العلوم فى احدى الجامعات الانجليزية . وتقدمت (أسماء منصور) الى محكمة الاستئناف العليا بقضية بعد أن منعت من امتحان شهادة (الكفاءة) فحكمت المحكمة بأنه يجوز للبنت المصرية أن تتعلم كالولد تماما .

وقد حملت (باحثة البادية) لواء الدعوة الى تعليم البنت وتهذيبها وادخال بعض الاصلاحات فى الحيـــاة

الزوجية . فلما عقد مؤتمر مصر الجديدة (مايو ١٩١١) قدمت له رسالة ضافية عن ترقية المراة المصرية جعلت اساس مذهبها فى تحرير المراة تقرير المساواة لا على وجه الاطلاق بل فى حدود الاعتدال والدين وقال عنها لطفى السيد انها (اكتب امراة قرانا لها فى عصرنا الحديث) .

ولم يحل الموت دون مهاجمة آراء قاسم فقد قام معارضوه بعد وفاته فى نفس اليوم (يونية ١٩٠٨) الذى اقيمت حفلة لتأبينه تحت قبة الغورى بعقد اجتماع برئاسة الشيخ شاويش وتوالت هذه الحملات فى صحف الحزب الوطنى بينما دافعت (الجريدة) لسان حال حزب الأمة عنه .

وكان الرجال هم حملة لواء تحرير المراة والدفاع عنها ، هذا الدفاع الذى امتد بعد اغلاق الجريدة ١٩١٥ الى مجلة السفور التى اصدرها عبد الحميد حمدى وجعل رسالتها مشتقة من اسمها واستمرت تعمل سبع سنوات حتى كانت الثورة الوطنية ١٩١٩ .

وقد حدث هذا فى نفس الوقت الذى كان الكتاب الرجال فى أوربا يدعون الى تحرير المراة ومساواتها فى الحقوق مع الرجال وخطاب اميل فاجيه فى الأكاديمية الفرنسية (١٩١٠) مشهور حيث أبدى أسفه لحرمان المراة حق الالتحاق بالأكاديمية .

وكان لاعلان الدستور العثمانى ١٩٠٨ اثره فى تركيا والعراق والشام فقد ظهرت امينه سامى الكاتبة المشهورة وحررت خالده أديب فى جريدة طنين لسان حال جمعية الاتحاد والترقى ودعت الى تحرير المراة ووجوب تعليمها ومساواتها بالرجال ، وكان لها اثرها فى فتح باب التعلم امام المراة بمساعدة نجية هانم . وقد اختار نادى الوجاق خالدة عضوا وحيدا من الجنس اللطيف بها والفت عام ١٩١٢ أول كتاب (طوران الجديدة) ١٩١٢ فى تأييد الجامعة الطورانية وقد وصلت خالدة بعد الى قريب من منصب الوزارة فى عهد مصطفى كمال (اتاتورك) .

وفى هذه الفترة بدأ الزهاوى فى العراق حملة لتحرر المراة فلقى مصادمة وخصومة واعراضا .

أما عائشة التيمورية (١٩١٢) ووردة اليازجى (ت ١٩٢٤) فانهما لم يحفلا بالدعوة الى تحرر المراة — ولم يعرضا لمشاكلها الاجتماعية .

ثم أسست أول رابطة نسائية باسم جمعية الرقى الأولى للسيدات وبدات المراة تدخل الجامعة المصرية القديمة التى افتتحت عام ١٩٠٨ وتلقى بها محاضرات أمثال ملك ناصف ونبوية موسى ولبيبة هاشم ورحمة صروف ومى زيادة .

* * *

(٣ — ثورة ١٩١٩)

وكان لثورة ١٩١٩ أثرها الواضح فى دخول حركة تحرر المراة دورها الايجابى فقد اشتركت المراة المصرية فى مظاهرات مارس ١٩١٩ وهزت الفكر العربى الحديث حيث وصفها الشيخ محمود أبو العيون (١٩٢٢/٢/١ — الأهرام) فقال : أنه ليس اكبر اثرا مما راى الناس وشهد التاريخ يوم مظاهرة النساء امام بيت الأمة اذ أحاط الجند المسلح بالمدافع والحراب جاثين على ركبهم مستعدين للنزال فانبرت فتاة منهن فاتحة صدرها قائلة لقائد الجند هذا صدرى اقتلنى ان اردت فسأموت شهيدة الايمان والعقيدة الوطنية المقدسة وقالت (عزيزة على فوزى — الأهرام ١٩٣٢/٣/٢) ان النساء خرجن بالرغم مما ارسلت به اليهن الحكمدارية الانجليزية مهددة اياهن أن لا يبرحن ، خرجن سائرات على الأقدام ومشينا الهوينا « ثم التقينا (وقد شهدت المظاهرة واشتركت فيها) فاذا بالجنود محيطة بنا والعربات المصفحة تصوب مدافعها علينا ، والطيارات تحلق فى الجو وتبدى أسلحتها فى اشعة الشمس فتبرق والشمس تصلينا نارا وتسعر باظاها رءوسنا وقد حاصرنا جنودهم البواسل اكثر من ثلاث ساعات » .

وقد استشهدت المراة المصرية فى ثورة ١٩١٩ : وحفظ التاريخ أسماء الشهيدات : شفيقة محمد وفهيمة رياض وعيشة عمر وحميدة خليل وقد سبق بعضهن الى السجون واتخذن من سجنهن اوكارا للحركة الوطنية وكان لهن فضل اخفاء المنشورات السرية وتوزيعها .

وعندما أعلن الحاكم البريطانى فصل كل موظف لا يعود عمله فى اليوم التالى توجه عدد كبير من النساء المصريات الى أبواب الوزارات والمصالح ورابطن بها ومعهن سلال الخبز والطعام والنقود فكن اذا رأين موظفا متسللا بادرن بملاقاته قائلات له « هذا هو الخبز اذا كنت جائعا وهذا المال اذا كنت محتاجا فيعود خجلا وعندما أعانت مقاطعة البضائع الانجليزية بادرت

السيدات بمحاصرة المحلات الانجليزية دون سواها ومعهن جيش مرابط من طالبات المدارس يمنعن كل احد من دخولها .

وقد اشتركت المراة فى ثورة ١٩١٩ (فى المظاهرات والخطابة وقيادة الشعب واذكاء جذوة الوطنية دون أن تصادف معارضة الرجال) وكان هذا تطورا طبيعيا للحركة فى مصر تبعه تطور فى مختلف أنحاء العالم العربى فقد اشتركت السورية فى ثورات ١٩٢٥ وكان لها دور واضح .

وفى هذه الدور ظهرت هدى شعراوى وشريفة رياض وتشكل الاتحاد النسائى المصرى ١٩٢٤ .

واتسعت بعد الحرب العالمية الدعوة الى تخريج المعلمات والمراة التى تعمل فى التطبيب وفتح باب الجامعة أمامها عام ١٩٢٣ حيث سجل التاريخ اسم (عفيفة اسكندر) التى حضرت درس الآثار مدى ست سنوات ويمكن القول بأن هذه المرحلة التى استغرقت خمسين عاما قد حققت هدفين من اهدافها : التعليم والسفور وبدات قضية المراة تدخل معركتها الكبرى فى سبيل حل مشاكل (١) تصحيح الأوضاع القانونية (٢) الاختلاط (٣) المساواة (٤) الحقوق النيابية السياسية .

* * *

مراجع

عبد الحميد حمدى — السياسة الأسبوعية ١٩٢٩/١٢/٤ .
الهلال — يونية ١٩١٠ — المراة فى القرن العشرين
الاهرام — نهضة المراة فى الشرق ١٩٢٦/٧/٢٥ .
باحثة البادية — النسائيات (الجريدة) ١٩١٠ .
جريدة الظاهر : ٨ اكتوبر ١٩٠٦ .
/ك/ تطور النهضة النسائية فى مصر : درية شفيق وابراهيم عبده .
/ك/ المراة المسلمة . محمد فريد وجدى ١٩١٠ .
خطاب هدى شعراوى — الاهرام ١٩٣٨/٤/٢٤ .
آراء قاسم امين — الهلال ١٩٤٥ مجاد ٣٦ .
كلمات لهدى شعراوى . مجاد الشئون الاجتماعية (اغسطس ١٩٤٢) .
الاهرام ١٩٢٣/٣٢/٣ — ذكرى قاسم .

* * *

(٢)

الفكر العربى الإسلامى إزاء الغزو الثقافى

(بعد الحرب العالمية الأولى)

(١)

الاستعمار وأثره الفكرى

كان من الطبيعى بعد أن نهضت أوربا وحققت انتصارات ضخمة فى مجال الصناعة والتجارة والكهرباء أن تتجه الى الشرق والعالم العربى بالذات ، وقد كانت حملة نابليون ١٧٩٨ على مصر ارهاص هذا الاتجاه الذى ظل يوالى انقضاضه خلال القرن التاسع عشر كله حتى اكتمل له استعمار العالم العربى كله عام ١٩١٨ وقد بدأ الاستعمار باحتلال فرنسا للجزائر ١٨٣٠ وبريطانيا لعدن ١٨٣٨ ثم احتلال فرنسا لتونس ١٨٨١ وبريطانيا لمصر ١٨٨٢ واحتلال ايطاليا لليبيا ١٩١١ .

وكانت الدول الأوربية منذ حملة نابليون حتى الحرب العالمية الأولى قد رتبت خططها لهذا الغزو : عسكريا واقتصاديا وثقافيا على نحو يحقق لها البقاء الطويل فى المنطقة والقضاء نهائيا على شخصيتها ومقدراتها وقيمها وثقافتها ودينها وتاريخها . وقد ظهرت ملامح هذه الخطط فى الفترة التى سبقت الحرب العالمية والتى تمثلت فى :

(١) أساليب الاحتلال فى مصر وعدن والجزائر وتونس .

(٢) النفوذ الأجنبى والامتيازات وعمليات الغزو الاقتصادى والثقافى الموجهة الى السلطة العثمانية .

(٣) امتداد النفوذ الأجنبى والامتيازات والغزو الاقتصادى والثقافى الى مختلف البلاد العربية وجميعها واقعة تحت سلطان الدولة العثمانية وقد أعان على تمكن الغرب من فرض سلطانه ضعف الدولة العثمانية التى كان يطلق عليها اسم « الرجل المريض » واستبداد الحكام والولاة والأمراء المسيطرين على مختلف الأقطار العربية وضعف القوى الشعبية وانهزامها نتيجة لتسلط الامراء وحروبهم وفساد نظام الحكم .

غير أن عوامل اليقظة كانت قد دبت منذ أواخر القرن الثامن عشر بدعوة « محمد بن عبد الوهاب » وكانت لحركة « محمد على » أثرها فى اليقظة غير أن العوامل كلها كانت تدل على أن الغرب انما يعد خطة واسعة المدى للسيطرة على المنطقة واحتلالها . وقد كانت الحرب العالمية الأولى فرصة للقضاء على دولة الخلافة وتمزيق جبهة الدول العربية وتجزئتها .

وقد كانت فكرة « الوحدة العربية » قد بلغت مداها قبيل الحرب العالمية الأولى وفرضت وجودها بعد الاختلاف مع سلطان تركيا العثمانية التى انضمت الى المانيا ووجدت من بريطانيا ما شجعها على دخول الحرب العالمية فى صفها وصف حلفائها بناء على وعد بقيام الدولة العربية بعد الحرب . وكان أن خدعت بريطانيا العرب ونفذت مشروع تقسيم المنطقة بينها وبين حليفتها فرنسا واعلنت قيام الوطن القومى اليهودى فى فلسطين .

وبذلك تمزقت هذه المنطقة الواحدة الى دول لها حدود وجيوش وملوك ونظم ونقود وثقافات ومناهج تعليمية .

وسيطرت فرنسا على لبنان وسوريا وتونس والجزائر ومراكش .

وسيطرت انجلترا على العراق والأردن والخليج العربى والسودان ومصر .

وسيطرت ايطاليا على ليبيا .

وقام فى فلسطين نظام استعمارى مزدوج : بريطانى يهودى .

وبذلك انفصلت الدول العربية لأول مرة بعد اربعة قرون وعام واحد (١٥١٧ ــ ١٩١٨) عن تركيا ولكنها لم تنفصل عنها فى الحقيقة الا سياسيا أما فكريا فقد ظلت مرتبطة بها متطلعة اليها . وقد استغل الاستعمار هذه الرابطة استغلالا بعيد المدى بعد تغريب « تركيا الكمالية » .

***

ومنذ اليوم الأول لهذا التقسيم الذى فرضه الاحتلال العسكرى بدأت حملة الغزو الثقافى التى قصد بها الاستعمار الى تركيز سلطانه على نحو عقلى وعاطفى يتصل بالنفس العربية ويحول مفاهيمها ومعالمها وتيارات فكرها على النحو الذى يحقق له البقاء وقد ركز الاستعمار فى غزوه الثقافى على :

(١) خلق جوا من عدم الثقة بشخصية المواطن وتشكيكه فى جميع عقائده وقيمه وتراثه وتاريخه على النحو الذى يجعله يعتقد بأن وطنه دائما كان نهبا مقسما لكل الأقوياء وتحويل هذه الأفكار الى عقائد بتعليمها فى المدارس ونشرها فى الصحف والكتب .

(٢) اقامة فواصل طبيعة بين كل قطر واقامة معالم قومية خاصة به تنبع من تاريخه البعيد وتسبق الروابط الاسلامية العربية التى بدأت فيما بعد ظهور الاسلام وخلق جامعات متعددة ودعوات متباينة لخلق البلبلة الفكرية التى لا تمكن من قيام فكرة واحدة .

(٣) رسم صورة باهرة للغرب ، جبارة لاوربا ، رهيبة للاستعمار ، مخيفة للاحتلال وسطوته وجبروته ، ومضى الى تلقين معنى الثقة بهذا الحلف القوى ، والايمان بحضارته والتيقين من أن الاندماج فيها هو وحده السبيل لتحقيق الحرية والاستقلال والوصول الى النضوج والقدرة على حمل مسئولية الحكم .

(٤) سيطر الاستعمار على الحكام والأمراء والاعيان واسماهم « أصحاب المصالح الحقيقية » واعانهم على التوسع فى التملك ليتخذ منهم ركائز يسيطر بها على العامة واخضاع الوزراء والحكام لنصائح مندوب الدولة المغتصبة . وفرض المستشارين على الوزارات وجعل اوامرهم نافذة .

(٥) سيطر على الحياة الاقتصادية بواسطة أعوانه من الأجانب ، وخفض أسعار المحاصيل الرئيسية للبلاد وبيعها بأبخس الاثمان والحيلولة دون تصنيع البلاد أو انتفاعها بالمخترعات الحديثة وبقائها بدائية .
والحيلولة دون استخدام الوطنيين فى هذه الاعمال وقد بلغت أرباح هذه الشركات اكثر من ميزانيات الدول نفسها .

(٦) ادخلوا الى البلاد المحتلة الوفا من المستوطنين الذين استطاعوا بسلطان الاستعمار الاستيلاء على آلاف الافدنة الجيدة والقضاء على الصناعات الوطنية والسيطرة على مالية الدولة ووضعها تحت وصايته ــ أى الاستعمار ــ بفضل سلطان الامتيازات الاجنبية ونفوذ المحاكم المختلطة .

(٧) القضاء على روح المقاومة بشراء الذمم بالمال والمنصب والمرأة وخلق روح « النفعية » وقتل روح « المثالية » . وخلق نزعة الانانية بدلا من نزعة الجماعية وتحويل الوطنية الى سياسة . واثارة الطوائف بعضها على البعض الآخر وخلق حياة نيابية وأحزاب تتصارع .

(٨) الغاء الجيش الوطنى للأمة المحتلة وفرض جيش الاحتلال فى ميادينه وايقاف الأمراء وأولياء النعم تحت أعلامه .

(٩) فتح ابواب السجون والمنافى لكل مجاهد او مفكر صاحب رأى حر يحاول أن يرفع رأسه أو يقاوم واصطناع اساليب القتل فى الظلام .

(١٠) تحويل الصحافة الى موالاة الاحتلال . ومصادرة الصحف ذات الطابع الوطنى المعارض للاحتلال وذلك لتكوين رأى عام يؤمن بعظمة المستعمر ويجرى وراءه .

(١١) الغاء مجانية التعليم وتدريس العلوم بلغة المحتل ، وقصر التعلم على طبقة خاصة واحلال المدرسين الأجانب محل الوطنيين ووضع برامج تهدف الى تحطيم معنويات الأمة وتصويرها بصورة الامة المستعبدة وتدريس تاريخ الامة المحتلة على نحو تعظيم واكبار واستبعاد التاريخ القومى وحجب كل معانى عظمة الامة من لغة وتاريخ وبطولات وامجاد . واثارة جو من الشكوك والريب حول القيم الروحية والوطنية ومحاولة اقناع الامة المحتلة بأن الاحتلال عمل مدنى وان الأوربيين هم سادة

البشر وانهم المكلفون بنشر الحضارة وتمدين الامم غـــير البيضاء .

(١٢) فى خلال الحرب العالمية الأولى والثانية جندت بريطانيا وفرنسا عشرات الالوف من ابناء الامة العربية فى جيوشها . وقد قدمت مصر فى الحرب العالمية وحدها مليون عامل مصرى لم يعد منهم أحد فضلا عن الغلات والدواب والخيرات .

* * *

وكان لهذا الاتصال بين الغرب والشرق أثره البعيد فى استيراد عديد من النظريات والمذاهب الفكرية الغربية

* * *

(٢)

مذاهب الفكر الغـربى

اتصل النفوذ الأجنبى والاستعمار الغربى بالغزو الثقافى وكان من نتائجه استيراد عـديد من النظريات والمذاهب والآراء : وقد تأثر الفكر العربى الاسـلامى بالثقافة الغربية ومذاهب الفكر الغربى تأثرا بعيد المدى وقد كانت هذه المذاهب تهدف فى الحقيقة الى رسم فلسفة حيـاة للمجتمع التى تخلص من نزعته الدينية المسيحية بعد أن تحرر من سلطان الكنيسة وسلطان الكهنة وفصل بين الدين والدولة وتوالت شكوكه فى الخالق والانبياء والاديان والكتب المقدسة .

كان هذا كله بين العوامل التى دفعته فى الطريق العلمانى لمحاولة رسم فلسفة حياة له تمثلت فى نظريات متعددة : كان اقدمها المذهب المـادى ونظرية النشـوء والارتقاء ومذهب نيتشه وروسو ثم النظرية الماركسية والتحليل النفسى والسريالية والنـازية والفاشـية والبراجماتزم وكان للاستعمار نظرياته التى كان ابرزها نظرية الاجناس (الآرية والسامية) ونظرية تفوق الرجل الأبيض وحقه فى حماية الحضارة وتمدين الجنس البشرى

* * *

المذهب المادى والنشـوء والارتقاء

أما « المذهب المادى » فقد غمر الفكر الأوربى وارتبط بالحضارة الحديثة ومكتشفات البخار والكهرباء فى القرن الثامن عشر ومؤداه أن الوجود قديم وأن المادة هى مصدر كل كائن . وانها تدرجت فى حلقات متتابعة وفق نواميس ثابتة تبتدأ بالجماد وتنتهى بالانسـان فى أرقى درجاته الفكرية ، وانكرت نظرية المادة ما جاءت به الاديان من وجود عقل مدبر وروح مفكر خلف هذا العالم ، وقالت ان هذا القول وهم جهال . واتصل المذهب بنظرية «النشوء والارتقاء » التى جاء بها « تشارلس داروين — ١٨٤٣ » فى كتابه « اصل الانواع » وخلاصته : القول بوحـدة المخلوقات الحية جميعا ، أى أن الانسان والحيوان والطير والاسماك والحشرات مشتقة من أصل واحد أو بضعة أصول واحتقر « داروين » الانسان وهاجم القول بانه سيد الخليقة وأن الروح هى ميراث الانسان دون سواه من سائر الخلائق .

وقد نقلت هذه الآراء الى الفكر العربى فأثارت مساجلات ودراسات ومعارك فكرية بعيدة المـدى ، وكانت مجلة المقتطف والدكتور شلبى شميل أول من حمل لواء هذه الأفكار حيث نشر مقالات متعددة فى المقتطف ١٨٨٤و١٨٨٥ ثم جمعها فى كتاب فلسفة النشوء والارتقاء وقـد حرص الدكتور شلبى شميل أن يبـدأ معركة مع القارىء العربى بهذه العبارة « طالع هذا الكتاب بكل تمعن ولا تطالعه الا بعـد ان تطلق نفسك من أسر الاغراض لئلا تغم عليك وانت واقف تطل على العالم من شرفة عقلك تتلمس الحقيقة من وراء ستارها » .

وقد رد على هذا المذهب كثيرون فى مقدمتهم : جمال الدين الأفغانى فى كتابه (الرد على الدهريين) ومحمد عبده ، وفريد وجدى فى كتابه (على أطلال المذهب المادى) الذى نشره فى المقتطف ١٩١٨ ثم حمل لواء الدعوة للمذهب المادى : سلامة موسى واسماعيل مظهر فى الوقت الذى كانت أوربا قد انتقضت هذا المذهب . وشرحته وأشارت الى الأخطاء التى تتصل به فقد سقطت نظـرية ناموس الانتخاب الطبيعى التى نادى بها داروين وتشكك العلماء فى ناموس الوراثة وأشارت دائرة المعارف الفرنسية الى أن العلماء قد اعترضوا على هذه النظرية واتهموها بانهـا مختلة من أساسها لانها تفرض أن جميع الصفات النافعة اعنى كل صفات الانواع الحية قد حدثت فى بداءتها اتفاقا (أى بالصدفة) .

وجاء العلماء من بعد ذلك يقولون بتصور العلم ، وبدأ فى أوربا — كرد فعل على النظرية المادية — مباحث الروحية العصرية ، وقد تشدد علماء المـادية فى رفض الروحية وابنائها ورموا القائلين بها بكل مثلبة ، غير أن العلم التجريبى سلم فى نهاية الأمر بانه قد اكتشف العالم الروحانى بأسلوبه العلمى المحسوس » .

وقد دارت هذه المعركة فى أوربا خلال القرن التاسع عشر ، ولكننا نحن هنا فى الوطن العربى كنـا ما نزال نقذف بسيل من الابحاث حول المادية والنشوء والارتقاء كوسيلة من وسائل البلبلة الفكرية والغزو الثقـافى والتشكيك فى ثقـافتنا الاسلامية الجامعة بين العلم وعقائدنا الدينية .

* * *

المادية التاريخية

وظهرت نظرية المادية التاريخية التى دعا اليها ماركس (١٨١٨ — ١٨٨٣) وملخصها : أن الظـواهر الاقتصادية يمكن ملاحظتها وتسجيلها بنفس الدقة التى تسجل بها العلوم الطبيعية ، وهى مقتبسة من نظرية الفيلسوف الالمانى « هجل » التى تتلخص فى « أن كل شىء كائن فى العالم فى حالة تغير دائم متواصـل وأن التقدم والارتقاء نتيجة الاثر والتأثر بين قوى يدافع بعضها البعض . وقد لخص ماركس نظريته فى أن تاريخ المجتمع الحاضر كله ما هو الا تاريخ نزاع بين الطبقات . فالعبد والاحرار والدهماء ورجال الطبقة العليا والسيد والتابع والمعلم والصانع . وفى الجملة كل هؤلاء وقف الواحد منهم ضد الآخر فى حرب لا هوادة فيها .

وتفسر « المادية التاريخية » التاريخ تفسيرا ماديا وتعللبها الثورات والحروب والأحداث . وقد وجد ماركس « أن التاريخ يمثل صراعا عنيفا بين الطبقات الاقتصادية وأن جميع انواع الصراع فى التاريخ سواء فى ميـدان السياسة او فى ميادين الدين والفلسفة والاجتماع ما هى الا تعبير صادق عن الصراع الطبيعى فى المجتمع » .

ويتصل بهـذا نظرية « كارل ماركس » فى رأس المال وتوزيع الثروة وحق الطبقات العاملة وهى النظرية التى قامت على أساسها الثورة الشـيوعية السوفيتية التى اطاحت عام ١٩١٧ بحكومة القياصرة .

* * *

وقد اثارت هذه النظريات جدلا كبيرا فى الفكر العربى الاسلام ، ووقف الوطن العربى الذى كان واقعـا تحت سلطان الدول الغربية الرأسمالية يعمل على مقاومة النظرية الماركسية وجرت مقارنات بينها وبين ما يماثلها فى النظم الاسلامية مما أطلق عليه اسم الاشتراكية الاسلامية . ووجهت حملات عنيفة على الاشتراكية بصفة عامة تحت تأثير الاستعمار الذى كان يحرص على تدعيم انظمـة الاقطاع والراسمالية والاستغلال الاقتصادى الذى تقوم به الراسمالية الاستعمارية فى العالم العربى .

* * *

(نظرية ماركس)

« أن الضرورة الأولى والأساسية والشغل الشاغل لبنى الانسان هو الطعام والشراب والملبس والمأوى التى لايستطيع بدونها أن يشغل باله بالسياسة والعلم والفن والدين وغير ذلك . وهذه الحقيقة تعنى أن انتاج المواد الضرورية الحيوية لبنى الانسان وما يتبعه من تطور مظاهر الاقتصاد القومى القائم فى عصر ما ، او امة ما ، هو الأساس الذى بنيت عليه جميع انظمـة الدولة من قانونية وفنية وحتى المعتقدات الدينية نفسها ، وجملة القول أن التنازع على الطعـام والمأوى هما العاملان اللذان يهيمنان على شئون الجنس البشرى جميعـا ، ويرى ماركس أن « المسيحية تعـلم الناس القناعة بنصيبهم فى الحيـاة الدنيا وتشـيد بالاستسلام والخنوع والتواضع فكأنها تخدر أعصاب الشعب وتعمل فيه عمل الأفيون » روبرت . ب . دوانز : كتب غيرت وجـه العالم » .

وقد وجه النظرية الماركسية الكثير من النقد . وقد نقضها الماركسيون انفسهم أمثال (سدنى هوك) .

وقد تحولت نظرية ماركس الى دولة بقيام الثورة الشيوعية فى روسيا ولكنها كانت بعيدة الأثر فى التفكير الاقتصادى فى العالم كله ، فانها عدلت كثيرا من انظمة الدول الراسمالية ودفعت الدول المختلفة الى تقبل نظم (الاشتراكية) وتأميم المرافق لصـالح الشعب وبذلك قامت أنظمة وسطى بين الراسمالية الديمقراطية وبين الشيوعية الماركسية .

* * *

النظرية الديمقراطية

واتجه التفكير الغربى الى نقل نظريات الديمقراطية الغربية الى الفكر العربى على أنها أصلح النظريات فى الحكم والفكر للوطن العربى الاسلامى وأجرى الاستدلال على قرابتها للفكر العربى واتصالها به أشد اتصالا من التفكير الاسلامى ونظريات الحكم الاسلامى .

وكان لهذا أثره فى نقل الأنظمة الديمقراطية الى الحكم فى جميع البلاد التى استطاعت بعـــد جهاد مع الاستعمار أن تحصل على الاستقلال الذاتى ، عن طريق معاهدات أقرت وجود قوات الاحتلال وارتبطت مع الدول المحتلة بواسطة محالفات عسكرية وثقافية واقتصادية .

ثم قامت دساتير فى الاقطـــار العربية وتأسست أحزاب وفق النظام الديمقراطى وقامت برلمانات ومجالس نيابية وقد اثبتت هذه الأنظمة فشلها خلال الفترة التى طبقت فيها ، فقد كان النظام الحزبى الذى هو أساس النظام النيابى فى النظرية الديمقراطية وسيلة من وسائل الصراع فى كل قطر ، واداة من أدوات التفكيك والتجزئة والحيلولة دون قيام الوحدة الاقليمية مما جعل الاحزاب تتهم بعضها الآخر بالخيانة وموالاة المستعمر ، وكان المستعمر ينتصر لهذا الحزب تارة ولذلك الحزب تارة أخرى بما يحقق بقاءه وسلطانه وبما يحقق اسراع كل حزب لارضائه بأكثر مما يستطيع الحزب الآخر لضمان البقاء فى الحكم وعلى حساب الوطن نفسه .

وفى الحق أن الوطن العربى لم يكن فى حاجة الى تقبل نظام بعينه أو رفض نظام بعينه ، وانما كان فى حاجة الى الحرية التى تمكنه من أن يبحث ويغربل ويقتبس الصالح من جميع النظريات والمذاهب بما يتفق مع كيانه ومقدراته ومقومات شخصيته وتراثه وارتباطه بماضيه وموقعه وحاجاته دون أن يفرض عليه هـــذا الاقتباس التبعية لنظام معين أو مذهب معين ، تبعية تجعله يسير فى ركاب الديمقراطية الراسمالية أو الشيوعية الماركسية ولم يكن ذلك ممكنا فى ظل الاحتلال القائم الذى كان يفرض مذاهبه وآرائه وافكاره بالقوة المسلحة .

* * *

نظرية الشك : ديكارت

وتأثر الفكر العربى بنظرية « ديكارت » التى سجلها فى كتابه « مقال عن المنهج » وكان ديكارت وقد اهتدى الى نظريته فى ١٠ نوفمبر ١٦١٩ .

وهو فى جملة ، لا ينظر الى الماضى ولا يأخذ النظريات المقررة المتداولة حقيقة مسلما بها ، غير أن الشك الذى يفرضه منهجه لا يجعل من الذهن صحيفة بيضاء ، فهـــو يؤمن بعملية الغربلة والانتخاب بين الأفكار والمعانى التى تداولها الذهن البشرى ولا يمنع هذا عنده من الاحتفاظ بالقديم الصالح ، غير أنه يرى هدم ما لا يستحق البقاء من الآراء المتوارثة وقد نعى على فلسفة أرسطو الحيرة والعمق .

ورفض ديكارت كل سلطة تحاول أن تفرض على الفكر فرضا ورأى أن العقل هو أساس قبول أى نظرية أو رأى وهو لا يسلم بشىء ما لم يتبين له صحته بداهة ومن غير التباس .

ووجد خصومة من البروتستانت الذين اتهمـــوه بالتشكك والالحاد والعمل على هدم الجامعات والكنيسة والدولة . كما وجد خصومة من الكاثولك الذين اتهموه بالمروق فى الدين .

وقد رأى ديكارت أن يتحرر من قيود الدين المسيحى الذى رآه بصورته لا يمكن من البحث العلمى الحـــر . فدعا الى تغليب العقل على الموروثات وقال انه قصـــد بمذهبه مجال العلم وحده وانه استبقى اعتقاده فى الحقائق الدينية . وقد تأثرت بمذهبه ميادين السياسة والدين (توفى ١٦٥٠) .

وقد حاول كثير من المفكرين اصطناع مذهب ديكارت فى البحث العلمى فى مجال الفكر العربى الاسلامى ونادوا به كشىء جديد فى حين أن الفـــكر العربى القـــديم عرف نظرية الشـــك التى أخـــذها ديكارت من المســـلمين وحمل آراءها الغزالى وابن حزم وابن رشد ولهم عبارات واضحة الدلالة (عثمان أمين — الثقافة مايو ١٩٤١) فى مذهب الشك الذى يؤدى الى اليقين ولكن هذه النظرية حين حملت الى الفكر العربى حرفت فى أساسها بغية الوصول بها الى الهدف التغريبى الذى يرمى الى التشكيك فى تراثنا وتحطيم مقوماته .

الفاشية والنازية

وقـــد قامت بعد الحرب العالمية الأولى دعوبان أخريان على أثر قيام « الثورة الماركسية فى روسيا ١٩١٧ هما الفاشية فى ايطاليا والنازية فى المانيا كرد فعل لها ، وقد ظهرت الفاشية أولا كحركة مقاومة للشيوعية وجعل الفاشيست شعارهم القوة والاتحاد وقد زحف الفاشيست

على روما فى اكتوبر ١٩٢٢ وتسلم الحزب مقاليد الحكم وبدأت هذه المبادىء تتسرب الى مختلف بلدان العالم ، وكان أبرز معالمها ادخال الحماسة فى كل فروع الحياة وتمجيد حب الوطن وحب الأسرة وقد استهدفت الفاشية احياء المجد الرومانى باعتبار أن روما مهبط العلم والعرفان والاتجاه الى جعل الكنيسة الكاثوليكية هى كنيسة العالم كله . كما ادخلت التعالم الدينية على المنهج الدراسى .

وفى المانيا ظهرت الفكرة النازية عقب خروج المانيا من الحرب مهزومة ، تحمل لواء الدعوة الى انقاذ الوطن الجرمانى وبعثه من جديد ومقاومة البلشفية واطلقت على نفسها « الوطنية الاشتراكية » وقد اتخذت النازية من نظريات الجنس (العرق) والدم والسلالة قاعدة لها ، وغلا الهتلريون فى نظرية الدم الألمانى ونقاءه وتفوق السلالة. ونادى هتلر بتفوق الجرمان على جميع اجناس البشر ووصموا الأجناس السامية بعدم الأهلية لانشاء الحضارة (١) .

وقد جرت مراجعات لنظريات النازية وتردد ان ما اورد هتلر فى كتابه (كفاحى) انما نقله من آراء جوبنيو وريتان ، وكان هتلر يهدف بمهاجمة السامية الى مهاجمة اليهود .

وقد قسم هتلر فى كتابه « كفاحى » الجنس البشرى الى ثلاثة اقسام : الأول يضم الأمم التى خلقت الحضارة وهى الشمالية أو الآرية وخاصة الشعب الالمانى . والثانى يضم الأمم الناقلة للحضارة مثل اليابانيين . والثالث يضم الأمم الهدامة للحضارة مثل اليهود والزنوج ويرى هتلر أن من حق العنصر المتفوق أن يغزو ويستغل ويطرد أو يبيد جميع الأجناس الأخرى تحقيقا لمصلحته. ولما كان الالمان هم اقوى اجناس الدنيا فلهم الحق كل الحق فى التحكم فى الأجناس الاقل رقيا من سكان الارض .

وبذلك كانت « نظرية الأجناس » كما طبقتها « النازية » نظرية استعمارية وقد استولى الحزب النازى على السلطة فى المانيا سنة ١٩٣٣ .

ولعل من اهم اسباب سقوط الفاشية والنازية انهما مذهبان يقومان على التفرقة العنصرية وسيادة جنس من الاجناس وتفوقه على سائر اجناس البشر .

وقد تأثر الوطن العربى بالفاشية والنازية فجرت محاولات مشابهة للقمصان السوداء فى ايطاليا والبنية فى المانيا فظهرت القمصان الخضراء والزرقاء فى مصر كمحاولة تقليدية .

وحاولت حركات القمصان الملونة ان تجعل من هذا الاتجاه تنظيما عسكريا للشباب أو توحيدا للزى غير ان هذه الحركات لم تلبث أن تحولت الى ادوات حزبية ولم يتحقق من ورائها قيام جيل جديد من الشباب . وقاوم الاستعمار هذه الحركة وربطها بالدكتاتورية .

* * *

فرويد والجنس

وكان لنظرية فرويد عن التحليل النفسى أبعد الاثر فى الفكر العربى الاسلامى المعاصر فقد حملها الفكر الغربى الينا وحاول تأكيدها مع انها لم تكن اكثر من نظرية تعرضت للمعارضة والنقض والتحول من يونج وادلر وهم زملاء فرويد .

لقد رأى فرويد أن الغرائز الجنسية تلعب اهم الأدوار فى تكوين شخصية الفرد وقال ان الطفل يتجه اتجاها جنسيا الى والديه . كما انكر فرويد الحب والقلب ووصف النفس البشرية بأنها مجموعة من الرذائل تتحكم فى قواها .

وجاء ادلر فخالف فرويد فى أساس النظرية فقال أن الغريزة الجنسية ليست أساس الدافع البشرى ولكن الدافع هو حب السيطرة والتملك .

ولما كان فرويد يهوديا فقد انتشرت نظريته انتشارا كبيرا فى كل الاقطار التى حمل لواء الثقافة فيها المفكرون اليهود ، وكان لها اثرها فى الأدب الاوربى المعاصر حيث ظهرت نزعة التحليل النفسى فى القصة ودراسات الاعلام وتراجم العظماء والقادة .

ولقد تأثر الفكر العربى الاسلامى بنظرية فرويد والتحليل النفسى وخاصة فيما يتعلق بالغريزة الجنسية حيث ظهرت معركة الجنس والأدب المكشوف .

وكان فرويد (١٨٥٦ — ١٩٣٩) قد نادى بنظريته

---

(١) وهذه المعركة ضد « السامية » عامة جزء من معركة اخرى ضد اليهود وقد اطلق اسم «ضد السامية» على الحملة التى قامت فى اوربا ضد اليهود .

قبل نهاية القرن التاسع عشر واتسع نطاق الدعوة لها فى أوائل القرن العشرين وواجهت الكثير من النقــد والتعديل كما ذكرنا . والف الدكتور « هافلوك اليس » فى بريطانيا كتابه عن الحب والعلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة (١٩٠١) وقدم لمحكمة الجنايات التى اتهمته بأنه كتب أشياء « وقحة » لا يصح نشرها بين الجمهور ثم جرت ابحاث حول الصراحة فى المسائل الجنسية .

ويرجع المؤرخون هذا الاتجاه الى الأدب الماجن والاباحى فى الادب الاوروبى الى أن عصر النهضة فى أوربا قام على اساس التحلل من قواعد الدين والاتصال بالتراث الافريقى الذى كان فى اغلبه من الأدب المكشوف مما دعا الى ظهور اوسكار وايلد ولورنس بعد هافلوك اليس وفرويد . وقد جرت فى الأدب العربى المعاصر مساجلات حول الأدب المكشوف والأدب المستور .

* * *

السريالية

وتأثر الفكر العربى الاسلامى المعاصر بمذهب السريالية فى الفن ويهدف الى التحرر من ضغط كابوس المقاييس الفنية ويرمى الى أن يتم تسجيل ما يرد على مخيلة الفنان من صور ابداعية كما هى بصرف النظر عن جمال هذه الصور أو قيمتها الخلقية أو مطابقتها للمقاييس الاجتماعية .

* * *

وقد اتسع نطاق هذه المذاهب المنطلقة ، بعد الحرب العالمية الأولى وخروج ملايين الجنود من الخنادق بعد قضاء فترة أربع سنوات كاملة فى خطوط النيران وهــو اتجاه طبيعى يقع فى المجتمعات المختلفة بعد الحروب وكان المفهوم ان هذه النظريات جميعها ، وهى لم تثبت فى ميدان الفكر الأوربى ولم تأخذ صورة الحقائق او العقائد انه لاضرورة الى نقلها الى الفكر العربى الاسلامى ولكن الاستعمار أراد من نقلها واذاعتها دعم معركة الغــزو الثقافى الذى يهدف الى بلبلة الفكر العربى وتشكيكه فى قواعده وأصوله ومحاولة تحطيم مقومات هذا الفكر القائمة على دعائم من الروحية والقيم الانسانية العليا .

* * *

البراجماتزم

وتأثر «الفكر العربى الاسلامى» بمذهب «التراجماتزم» الذى دعا اليه وليم جمس وحملت لواءه الثقافة الامريكية وهــو مذهب الذرائع أو الوسيلة ، والذى يرى أن الحقائق انما هى وسائل لفهم الدنيا وهو ما يطلق عليه بمذهب « الغاية تبرر الواسطة » .

وقد امتزجت هذه التيارات الفلسفية فى شبه تيار فكرى مؤثر أخذ جانب الغلبة على القيم والمثل العليــا الانسانية والروحية التى اتسم بها الفكر العربى الاسلامى فى تاريخه الطويل وحاول التيار الجديد الطغيان عليها ، لولا أن تعمق التيار العربى الأصيل وازداد قوة نتيجة لنظرية «التحدى والمواجهة» التى عرفها الفكر العربى الاسلامى فى هذه المرحلة . ولم يكن هذا التيار العربى جامدا ولا متزمتا ولكنه كان متطورا مرنا عمل على الاستفادة من التيارات الفكرية الغربية على النحو الذى يزيده قوة ، مع محاولة الحيلولة دون سيطرتها أو تمكينها من تشويه الملامح الرئيسة للشخصية العربية الاسلامية والمعالم الاساسية للفكر العربى .

وقد ساعد على هذه المقاومة اضطراب الفكر الغربى نفسه ، وتميعه وتأثره بالحروب والأزمات العالمية مما دعا الكثيرين الى الشك فى هذه التيارات ومهاجمتها وارتفاع الصيحة بالاتجاه الى ثقافة الشرق الروحية ومحــاولة تطعيم الفكر الغربى بها ـ فالفكر الأوربى الذى اتجه فى أول النهضة لمقاومة الدين نتيجة لخروج أوربا من أسر الدين المسيحى واتجاههــا الى الثقافات اليونانيــة واللاتينية القائمــة على الأسطورة والجنس ، وظهر الاصلاح الدينى الذى اقام البروتستانتية بجوار الكاثوليكية ولم يلبث أن مر بما اسماه «أزمة الضمير» وهو مهاجمة كل قديم من دين ونظم وسياسة ومن أصول الاخــلاق والاجتماع (أواخر القرن السابع عشر وأوائل القــرن الثامن عشر) وقد احدث تقدم العلم والكشوف اضطرابا فى الحياة الدينية ، دفع المفكرين الى تمحيص المسيحية فى ضوء القوانين العلمية والشك فى الكتب المقدسة . وظهور مذهب ديكارت . وتأثر المؤرخين به مما دعاهم الى الشك فى مصادر « التوراه » وما اعلن (أوجست كنت) من أن الدين نظام اجتماعى قابل للتطور ، كل هذا أصاب الفكر الأوربى بالاضطراب والقلق ، حتى اذا انتهت الموجة التى أثارتها الحرب العالمية الأولى من ارتفاع موجات الالحاد والاباحة علت الصيحة التى تقول

بأن أوربا مصابة فى صميم كيانها وان دعائمها الثقافية تتداعى وتنهار .

وأشفق ذوو الرأى من الحد الذى وصلت اليه زعزعة العقائد الدينية حيث أصبح المذهب الكاثوليكى فى نظر الغالبية الأوربية مجرد أوضاع تقليدية جوفاء وطقوس مادية قد تبدو براقة ولكنها لا تقنع العقل العلمى . هنالك قام جماعة من الفلاسفة والمفكرين أمثال الكونت هرمان دى كايسرلنج ورينيه جينون وجان كاف وموريس مارلنك وبرتراند رسل يدعون بالرجعة الى الشرق وجرت محاولات لتلقيح الحضارة الأوروبية بالبوذية والبرهمية ، والاتصال بالثيوصوفية ومحاولة تغليب قيم القناعة والتأمل والتطهر .

ونعى « برتراند رسل » على الحضارة ماديتها وقال ان الانسان فى الحضارة الصناعية تتضاءل حياته الى حد أنه يعتقد أنه مخلوق لكى يكون جزءا من آلة كبيرة لا غاية لها الا الانتاج .

وجرت ابحاث تقول بأن اشتغال المرأة قد زاد انحلال الأسرة ، فان المرأة التى تعمل تتمرد على تقاليد الأخلاق ويؤدى الكسب عندها الى فسخ الرابطة الاقتصادية بينها وبين الرجل غير أن هذه الدعوة لم تلق عند الأوربيين صدى .

وقد جرت محاولات لنقل ميدان هذه المعركة الى الفكر العربى الاسلامى ولم يكن ذلك طبيعيا ولا مؤديا الى نتائج غير بلبلة الفكر ، ذلك أن الاسلام يختلف عن المسيحية كثيرا فى حرية الفكر ومناهج البحث ، وقد اعطى المفكرين فى الأزمنة المختلفة الحرية التى اتاحت لهم انتاج أعمال فكرية بعيدة المدى ، واذا كان الشرق الأقصى (الهند والصين) قد عرف بالمذاهب الروحية المطلقة واذا كان الغرب (أوربا وأمريكا) قد عرف بالمذاهب المادية البحتة فقد كانت الأمة الاسلامية العربية (الشرق الأوسط) تؤمن بمزيج الروح والمادة فى الفكر والحضارة والحياة .

وجملة القول أن الفكر العربى الاسلامى قد وقف من هذه المذاهب والآراء والدعوات موقف الحذر غير أن تجربة ذات خطر حدثت وطبقت فيها نظريات الفكر الغربى واتجهت نحو الغرب اتجاها كليا : تلك هى تجربة تركيا .

* * *

المراجع

ديكارت : عثمان أمين : الثقافة مجلد (١٩٤١) .
اربون وسامبيون : المازنى : البلاغ : ٢١ يونية ١٩٣٦ .
الفاشية : الاهـرام : نوفمبر وديسمبر ١٩٢٣ ويوليو ونوفمبر ١٩٣٦ .
دارون : الهلال : مجلد ١٣ ومجلد ١٨ .
محمد فريد وجدى : /ك/ على أطلال المذهب المادى : ١٩٢١ .
برتراند رسل : المقتطف يناير ١٩٣٠ .
ابراهيم المصرى : /ك/ الفكر والعالم .
يعقوب فام : /ك/ البراجماتزم : مذهب الذرائع ١٩٣٦ .

* * *

(٣)

تغريب تركيا وأثره على الفكر العربى الإسلامى

كان لتغريب تركيا بعد الحرب العالمية الأولى أثره البعيد المدى فى حركة التغريب والغزو الثقافى فى العالم الاسلامى والوطن العربى . ذلك أن تركيا كانت دولة الخلافة التى ارتبطت بها الأمة العربية اربعة قرون كاملة، ولذلك فقد كانت تتطلع اليها بعد أن انفصلت عنها (بعد الحرب) لتتابع خطواتها على الطريق .

ولقد اهتز الوطن العربى لمصطفى كمال حين قام بمحاولته الجريئة فى اجلاء اليونانيين وتحرير تركيا واعادة هزيمتها فى الحرب نصرا .

غير أن تحول مصطفى كمال بعد ذلك الى الغرب كان موضع الدهشة والغرابة ، هذه الدهشة التى بلغت قمتها عندما الغى مصطفى كمال « الخلافة الاسلامية » وفرض الكتابة من الشمال الى اليمين وفرض القبعة والحضارة الغربية بقوة الحاكم الديكتاتور وليس بالتربية والاقناع .

* * *

وقد كان هذا بالنسبة للامة العربية امتحانا خطيرا عاشت فى بوتقته خلال هذه الفترة حتى الحرب العالمية الثانية .

× اقفل عبد الحميد أبواب تركيا فى وجه الحضارة وفتح مصطفى كمال الأبواب على مصاريعها لتركيا أمام الحضارة الغربية .

× قاوم عبد الحميد التغلغل الأوربى الفكرى وذهب مصطفى كمال الى الغاية فى قبول افكار أوربا الى الحد الذى نزع به الى اعتبار تركيا من الغرب وليست من الشرق ورفض كل الأفكار الاسلامية التى تتصل بالحكم واللغة والدين والمجمع والتقاليد والأخلاق .

واذا كان « الاتحاديون » قد دعوا الى تتريك عناصر الامبراطورية العثمانية وعارضوا بمذهب (الجامعة الطورانية) مذهب (الجامعة الاسلامية) الذى دعا اليه عبد الحميد فان مصطفى كمال رفض غير « ما تركيا » نفسها وأدار وجهه للعالم الأوربى .

ولقد كان اتجاه تركيا الى الغرب اتجاها ماكرا كونته عوامل مختلفة أهمها ما قاسته تركيا العثمانية قبل الحرب العالمية وخلالها من تسلط الدول الأوربية عليها وتغلغلهم واتساع النفوذ الأجنبى فيها نتيجة لضعف مركز الخلافة .

وكان للثورات المختلفة التى قامت فى أطراف المملكة والانتفاضات التى احرز بها الغرب الاستيلاء على عدد من الأقطار ، ثم ما كان من اشتراك تركيا العثمانية (بقيادة الاتحاديين) فى الحرب العالمية فى صف ألمانيا ثم هزيمتها واحتلال الحلفاء ومنهم اليونان لها . هنالك سيطرت فكرة تغريب تركيا واخراجها من تاريخها وماضيها كله ، وكان بانتصار مصطفى كمال فى معركة « سقاريا » وقيام الجمهورية التركية على انقاض الدولة العثمانية أثره الواضح فى احداث هذا الانقلاب التغريبى .

وكان لسلطان الحاكم الذى اطلق عليه « الحكم الأبوى» قوته وسيطرته على تحويل النواميس الاجتماعية بقوة القانون وفرض الأنظمة الجديدة لسلطان الحاكم وحده ، دون تقدير للعوامل النفسية للشعوب وحملات التعبئة للمشاعر ازاء عمليات التطوير وشحذ الاذهان

لتقبل الأفكار الجديدة ، كان لهذا كله أثره البعيد المدى فيما بعد وصف بأن تركيا ما تزال الى الحرب العالمية الثانية تعانى « آلام المخاض » .

ولست ادرى الى اى مدى يمكن قبول ما اذيع ورددته الصحف من أن شروط الصلح التى عقدت بين تركيا والحلفاء فى لوزان عام ١٩٢٣ والمعروفة بشروط كرزون الأربع قد تضمنت (١) قطع كل صلة بالاسلام (٣) الغاء الخلافة (٣) اخراج اصار الخلافة والاسلام من البلاد (٤) اتخاذ دستور مدنى بدلا من دستور تركيا القديم .

وقد اتجهت تركيا الى الغرب اتجاها عاصفا عنيفا شاملا ، وقبلت نظرية الغرب قبولا كاملا . لم تتردد فى النظر اليها او الاقتباس منها كما فعلت البلاد العربية ، بل قطعت كل صلتها بالماضى القديم واتجهت نحو الغرب اتجاها كاملا فى ميادين اللغة والزى والدين والمراة وحققت :

— الغاء الخلافة والغاء الأوقاف وحذف مادة دين الدولة الرسمى الاسلام .

— الغاء الزى الشرقى وفرض الزى الأوربى والقبعة .

— الغاء الحروف العربية .

— تحرير المراة ودفعها الى المجتمع والحرية .

(١) اللغة : قرر مؤتمر باكو (٢٧ مارس ١٩٢٦) استعمال الحروف اللاتينية فى كتابة اللغات التركية والتتارية وجاء فى قراره « لقد دفن المؤتمر الحروف العربية نهائيا « ولم يقم مندوب واحد للدفاع عنها » واستعمال الحروف اللاتينية بعد ان راى هذه الحروف أوفى بالعمل من الحروف العربية من الوجهتين الادبية والاجتماعية . وقد حمل مصطفى كمال بنفسه لواء العمل موقف أمام السبورة وعلم الشعب الكتابة بالحروف اللاتينية . وكلف حوذيا اميا يدعى بكير اغا ولا يعرف القراءة والكتابة بأن يقف عند السبورة وعلمه عليها الحروف اللاتينية وقال مصطفى كمال للاهالى : امحوا من اذهانكم الحروف القديمة محوا تاما . وقال ان الكتابة الجديدة ستمكن الكفايات العالية والعبقريات الباهرة من التقدم وصدر الأمر بتعليم اللغة الجديدة فى المدارس التركية كلها . وارغمت الصحف والمجلات على أن تطبع بالحروف اللاتينية وصدرت الأوامر الا تطبع أو تنشر شيئا بالحروف العربية ورفعت اللافتات العربية وامرت مكاتب البريد الا تقبل أو تخرج رسالة معنونة بالحروف العربية . واستقدمت ماكينات لينوتيب مجهزة بالحروف اللاتينية .

ثم تقرر قطع كل صلة باللغات العربية والفارسية وتنقية اللغة التركية من جميع الألفاظ العربية والفارسية والاستعاضة عنها بكلمات تركية أو اوربية .

* * *

فصل الدين عن الدولة

واعلن مصطفى كامل بأن الدين يجب الا يتعدى المعابد وأن حرية الفكر هى اساس لحرية الدولة ، ولكل أنواع الحرية وقال : أن المادة التى تنص على ان الاسلام هو دين الدولة الرسمى لم تعد صالحة لهذا العصر وانه يجب حذفها من الدستور فى أول فرصة .

ثم ندد تنديدا شديدا بالذين استخدموا الدين سلاحا لهم ووسيلة لتحقيق اغراضهم الدنيوية . وقال فى الدفاع عن اتجاهه هذا بأنه لا يتوخى من فصل الدين عن الدولة الا المحافظة على كرامة الدين وانتزاعه من أيدى محتكريه واعادته الى ضمير الأمة مخافة ان يصير مع الزمن كما كان فى عهد الخلافة آلة بيد المستبدين الظالمين .

وفى خلال السنوات التى سبقت معركة سقاريا (١٢ أغسطس ١٩٢١) وهزيمة اليونان (٦ اغسطس ١٩٢٢) بدأت المعركة التغريبية التى استمرت خمسة عشرة عاما فقد خلع السلطان (نوفمبر ١٩٢٢) واعلنت الجمهورية (اكتوبر ١٩٢٣) ثم الغيت الخلافة ووزارة الأوقاف والقوانين الشرعية والمحاكم الدينية ، واغلقت المدارس الدينية (مارس ١٩٢٤) ثم الغى الطربوش واستبدل بالقبعة (يوليو ١٩٢٥) ولم يمر على ذلك عامان حتى الغى الدستور وحذفت مادة « الاسلام دين الدولة » وابدلت الحروف العربية بالحروف اللاتينية (١٩٢٨) وفى العام التالى الغى تعليم الدين فى المدارس (١٩٢٩) وفى عام ١٩٣٣ الغى قسم الدين من الجامعة وفى العام التالى (١٩٣٤) منع اللباس الشرقى نهائيا وفى عام ١٩٣٧ نص الدستور على ان تركيا دولة علمانية . وبذلك تم اتجاه تركيا نحو الغرب .

* * *

وقد كشف الغرب عن صلته بالتحول القهرى الذى تم فى تركيا حين أعلن لورد كرزون فى مجلس العمـــوم البريطانى (مارس ١٩٢٣) تصريحه : لقد قلت للترك بأن توجيههم وجوههم الى جهة ايران والافغان مضر بهم وانه ينبغى لهم أن يوجهوا وجوههم نحـــو الغرب ويقيموا انظمتهم على أساس الحضارة الأوربية ، غير أن صحف تركيا لم تؤيد حركة التغريب وقالت جريدة « توحيــد افكار » ان على الغربيين أن يقيموا الدليل على ان انظمة الحضارة الأوربية خير من انظمة الحضارة الشرقية .

وقد كان لحركة التغريب فى تركيا اثران واضحان :

١ — فى تركيا نفسها والعالم الغربى .

٢ — فى العالم العربى .

وقد كان لحركة التغريب فىتركيا اثران واضحان : لقد قالوا انها اكسب للشرق كله وان نجاح دولةاسلامية فى ميدان التقدم والنهضة والحرية لا شك له اثره الكبير فى مواجهة الغرب .

وان الحركة قضت على جميع الخرافات المذهبية التى كانت متسلطة على عقول السذج ، ومحت الأميــة من البلاد وبثت روحالعسكرية والنظام فى الشعب التركى وحررت المراة التركية وعلمتها واجبها فى الحياة .

وقال انصار الحركة : ان التفكير الذى تتجه اليه تركيا هو ثمرة من ثمار المدرسة الفرنسية التى تقود الروح التركية ، وان الروح الفرنسية هى التى ستظل تملى على الحياة التركية الفكرية اتجاهاتها وان الثورة التركية وليدة الثورة الفرنسية : وارجع الكثيرون اثر الحركة الى حركة الماسونية الفرنسية التى انتشرت فى سالونيك وانقرة والتى كان من اثرها الاتجاه بالروح التركية الى ما اطلق عليه (الراديكالية الفرنسية) وقد اكد هذا المعنى قول مصطفى كمال (١٩٢٤/٢/٢) ان وجهتنا هى السير من الشرق الى الغرب . اعلموا اننا لاننا اضطررنا الى اختيار موطن لنا فى الشرق قـــد وقع اختيارنا على موطن غربى بقدر الامكان لما للغرب من عـــلاقة بمنشأنا الاول فاذا كانت اجسامنا فى الشرق فانظارنا ما برحت متوجهة الى الغرب » .

وقال خصوم الحركة : ان العمل الذى تم فى تركيا انما فرض عسكريا ولم يقم على أساس الاقتناع . وان الحركة جاءت من رجال الجيش وليس من جانب الامة

« وان الذهنية التى غلبت على جماعة انقرة فى ان يقنعوا أوربا بأنهم صاروا مثلها أن تتحقق الا يوم يستطيعون ان يصنعوا بندقيتهم وابرتهم ، اما البرنيطة والرقصة فتأتيان بعد المدرسة » .

وقال الدكتور هيكل (كتاب وادى ص ٢١٦) ان هذه النهضة تبدو كأنها ليست اثرا محتوما لتطور طبيعى وانها مصنوعة على يد مصطفى كمال وأصحابه الذين فرضوها على تركيا عن طريق التشريع ، ولزموها الأخذ بها بقوة القانون ، وبما وراء القانون من الجندى وسيفه ومدفعه ، وهاجم الكتاب العرب موقف تركيا من الألفاظ العربية واتجاههم الى حذفها من لغتهم ، وقالوا انهم بعد أن حذفوا هذه الألفاظ التى استعانوا بها طوال مدةالدولة العثمانية قد حدثوا ازاء ذلك عقبات لا يمكن اقتحامها ، ولذلك لم تستطع اللغة التركية ان تبلغ مرتبة اللغـــة العلمية وقالوا : انه بينما كان علماء العرب فى الأندلس العراق ومصر والشـــام يسهرون الليالى على ضـــوء السراج الضئيل لخدمة الفلسفة ووضع اصطلاحات لهـــا كان أجداد الترك لا عمل لهم غير ركوب الخيل وطلب الرزق من وراء الدخول فى مختلف الجيوش » .

* * *

نظرة الغرب الى تركيا

وقد نظر العالم العربى الى حركة الجديد فى تركيا تتجه بسرعة الى التغريب بعيون مفتوحة فيها دهشة وتطلع ، وفى عقولهم أسئلة : ترى هل يسيرون وراءهذه الحركة وينقلونها ، وجـــدت قضايا بحثت فى الصحف والكتب : حول الخلافة وهل هى من الاسلام ام ليست منه . والحجاب والسفور وما مدى حرية المراة وهل يمكن ان تنطلق المراة من حياة البيت المحجبة مرة واحدة الى حياة المراقص كما يحدث فى تركيا حينما اصبحت الصحف تقول أن مهنة استاذ الرقص من اعظم المهن قيمة واكثرها ربحا .

وبدأت معارك حول الطربوش والقبعة . ومدى اثر الزى فى نهضـــــة الأمة وشخصيتها وتقاليدها ، وكان للمجددين من الكتاب والباحثين دورهم فى رسم صـــور الاعجاب بالحركة التركية . التى لم تلبث ان تبعتهاحركات فى ايران وافغانستان ومصر نحو الحرية الاجتماعية .

وفى مصر جرت محاولات لخلع العمامة فى الأزهر

ودار العلوم ، واصطناع الطربوش ، وجرت محاولات في محيط المتمدينين نحو تغيير الطربوش بالقبعة .

وجرت حملات ترمى الى مهاجمة اللغة العربية على أثر تغيير الحروف التركية واستبدالها بالحروف اللاتينية.

* * *

× أما أثر الحركة في تركيا فقد انتهى بعد ربع قرن الى تأكيد معنى الروحية الأصيلة . فقد عاد الآذان للصلاة باللغة العربية . وتحول الاتجاه الى الناحية المضادة ، فقد ادخل تعليم الدين بعد الحرب العالمية الثانية وفرض تعليم الدين اجباريا عام ١٩٣٥ وتأسس قسم لتدريس الدين فى جامعة انقرة . وبلغ الاتجاه الفكرى في تركيا تمته بالعودة الى الدين لاصلاح المجتمع وقال (جون بيرج) فى كتاب الاسلام فى نظر الغرب : ان اصول الاسلام فى تركيا من حيث هو دين ما زالت راسخة فى الأعماق وقد تصور التركى انه يعيش فى دولة غير دينية وقد يذهب الى ابعد من ذلك انه لا يزال عنده احساس قوى متصل بالاسلام وبأنه هو الذى يقرر اعماله » .

وعادت تركيا فطالبت بأنه من الضرورى على التركى أن يعرف الحروف العربية وذلك ليتعمق فى تاريخ الترك وآداب الترك . ويقرأ مؤلفات « نعيم » والبجوى وجودت باشا وهم كبار مؤرخى الاتراك ، فاذا لم يعرف الحروف العربية فانه لن يستطيع أن يقرأ المخطوطات ولا النقوش على الأحجار ولا كتابا واحدا من خمسة واربعين الف كتاب مطبوع . كذلك لم يجد الاتراك بدا من تعلم اللغة العربية حتى يمكنهم دراسة تاريخ بلادهم .

* * *

مراجع

(٥) الاسلام فى نظر الغرب : جون بيرج .
نهضة الاتراك : هل تدوم : الهلال ص ٤٦ مجلد ٣٥ .

* * *

(٤)

إلغــاء الخـلافة العثـمانية

اذا كان حدث الحركة التركية التجديدية بمختلف تطوراته بعيد المدى فى الفكر العربى المعاصر ، فقد كان الغاءالخلافة «الاسلامية» العثمانية منابعد هذه التطورات ثرا . وقد آثار وقع هذا الحادث البعيد المدى فى العالم العربى والعالم الاسلامى عديدا من المساجلات والمعارك الفكرية — وقد تم الغاء الخلافة على مرحلتين :

الاولى : فصل الخـــلافة عن السلطنة (نوفمبر ١٩٢٢) .

الثانى : الغاء الخلافة (٣ مارس ١٩٢٤) .

وذلك ان مصطفى كمال بدأ بفصل الخلافة عن السلطة وعزل السلطان وحيد الدين « محمد السادس» واتخذ خليفة بغير سلطة زمنية كخطوة اولى فى سبيل الغاء الخلافة نهائيا بعد ذلك باقل من اربعة شهور .

وكان من راى مصـــطفى كمال أن الســلطة شىء والخلافة شىء وان السلطنة العثمانية قد اغتصبت السلطة من الشعب ومن حق الشعب ان يستردها ويفصل بين السلطة والخلافة ثم الغى السلطنة وأقام الجمهــورية التركية .

وقال بعد ان عين عبد المجيد خليفة بغير سلطنة زمنية : أن منصب الخلافة لا يزيد الآن عن ان يكون اثرا تاريخيا ليس له حق شرعى يسوغ له البقاء ، وهكذا مهد لالغاء الخلافة .

وقال السلطان محمد السادس أن الفصـــل بين السلطة المدنية والسلطة الدينية لا يطابق ماهو معروف فى التشريع الاسلامى وانه لا يمكن ان يكـــون الخليفة رئيسا دينيا فقط .

ومشروع فصل الخلافـــة عن السلطنة مشروع قديم كان قد أعده « مدحت » ابو الدستور مع الدســتور ذاته ولأجله نفى السلطان عبد الحميد مدحت وقضى عليه اخيرا ، ذلك ان مدحت كان يرى فصل الخلافة عن الحكم على اساس أن السلطة للامة وقد كان اعتراض العلماء على فصل الخلافة على السلطة مبنيا على انه اذا جرد الخليفة من هذه السلطنة فقد جرد من كل شىء واصبح عضوا اشل لا معنى لوجوده » .

وفى ٢٣ مارس ١٩٣٤ قدم مصطفى كمال اقتراحا للمجلس بالغاء الخلافة بعد ان قدم اتهامات مؤداها تعاون الخلافة مع النفوذ الاجنبى .

وقد اشار الكماليون فى تقريرهم عن الخلافة أن وجودها لم ينقذ تركيا من أن تكــون ذات راسين فى سياستها الداخلية والخارجية وأن آل عثمان كانوا سبب مصائب تركيا .

ومن الطبيعى أن يتخاص مصطفى كمـــال من الخلافة لعدة أسباب منها : انه لم يكن يرغب فى أن تكون هناك قوة اكبر منه أو لها صفة من الصفات التى تجعل فى تركيـــا أكثر من نفوذها ، فضلا عن ايمـــان أتاتورك الاكيد بالطريق الذى سار فيه نحو الغرب : ثقافـــة وحضارة .

* * *

وقد واجهت تركيا خصومة عنيفة من العـــالم الاسلامى كله لهذا العمل الذى قضى على القيادة العليا للدول الاسلامية .

ورسمت (المقطم) لالغاء الخلافة (٤ مارس ١٩٢٤) هذه الصورة :

« اليوم تهتز اعصاب العالم كله لنبأ يطير من انقرة

الى الشرق والغرب عن الغـاء الخلافة فى تركيا وانزال آل عثمان عن عروشهم التى سمت دهرا طويلا على عروش المماليك والامارات والامبراطوريات . حكموا ٨٣٢ سنة فملأوا التاريخ بأعمالهم وبطولة رجالهم وحسناتهم بالرحمة وسيئاتهم بالبطش . منذ ١٥١٧ انقرضت خلافة العباسيين فى أرض مصر بعد انقراض خلافة الامويين بها من قبل وانتقلت هذه الخلافة الى آل عثمان فى الاستانة فتولوها ٤١٧ سنة من حكمهم الذى ابتدأ ١٠٩٢ وانتهى اليوم ١٩٢٤ جلس على عرشهم ٧٢ سلطانا » .

ولم تلبث ان قامت فى « العالم العربى » حركة فكرية بعيدة المدى : فى مصر وفى الحجاز وفى الاردن وفى الهند . ففى مصر أعلن علماء الأزهر ان خلع الخليفة غير شرعى « لأنه صادر من طائفة قليلة » من المسلمين وقال وكيل الأزهر (محمد حسنين) لقد أخطأ الترك اذ ظنوا أن الخلافة عقبة فى سبيل ما يريدون من انظمة الحكم . فان سلطة الخلافة كما تتمثل فى فرد يقوم باعبائها تتمثل فى ملك او خليفة او سلطان . ثم طالب المسلمين بالنظر فى اسناد الخلافة لمن هو اهلها واحق بها « فان الاجماع منعقد على وجوب نصب الخليفة واولى الناس بالقيام بذلك هى الأمة المصرية فان بها علمـاء الدين والأزهر الشريف » .

وقالت الاهرام (٨ مارس) أن الاتراك ارادوا الطفرة والتشبه بغيرهم . وجعلوا معيار عملهم الثورة الفرنسية يقلدونها ناسين ان التقليد الذى لا يتفق مع اخلاق الأمة ومداركها لا يفضى الى غير الخراب والدمار .

وقالت آراء اخرى : أن العرب ما انفكوا ينظرون الى الخلفاء الترك شذرا ويعدونهم المغتصبين للخلافة اغتصابا . وقد جهد عبد الحميد لاحياء عظمة الخلافة الدينية واسترداد ما كان لهـا من الجلال والهيبة . وقد ظن الغربيون أن مقام عبد الحميد فى الاسلام كالبـابا فى النصرانية .

ولم يلبث شيخ الأزهر (ابو الفضل الجيزاوى) ان دعا فى ١٢ مايو ١٩٢٦ الى عقد المؤتمر الاسـلامى للخلافة فى القاهرة وذلك « لما كان لزوال الخلافة من الوقع الشديد فى انفس الشعوب الاسلامية . ولذلك أصبح على المسلمين ان يفكروا فى نظام الخلافة على قواعد توافق احكام الدين الاسـلامى ولا تجافى النظم الاسلامية التى رضيها المسلمون نظما لحكم» وقد أرسلت دعوات الى مختلف بلاد العالم الاسلامى .

وقال « حسن محمود علم الدين » فى نداء الى الأمة المصرية « ان علينا الا ندع الخلافة تسقط من ايدينا بل علينا أن نتكاتف على رجاء مولانا جلالة ملك مصر فى قبولها » وكان الشريف حسين قد أسرع فأعلن نفسـه خليفة للمسلمين بعد سقوط خليفة الاستانة ولذلك حرص علماء مصر فى نداءاتهم أن يحذروا من بيعـة الشريف حسين « اياكم أن تخدعوا بنداءات بيعة الملك حسين بن على صنيعة الانجليز ومانع حجاج بيت الله الحرام من القيام بالفريضة فى العام الفائت (الاهرام ١٩٢٤/٣/١٠) وقد أبرق العلماء الى الشريف حسين بعمان فى التريث فى قبول البيعة حتى يتكون رأى عام اسلامى لجمع كلمة المسلمين على خليفة واحد .

وقد أبلغت حكومة شرق الأردن فى ٧ مارس شركة روتر رسميا « ان الملك حسين قبل الخلافة التى عرضها عليه مسلمو العراق وشرق الاردن والحجاز الذين اعلنوه خليفة » .

ولكن الجهات الغربية أخذت تبدى رغباتها فى احقية ملوك العالم الاسلامى للخـلافة فأعلنت صـحف روما (ايطاليا) تأييدها للملك فؤاد وأعلنت انه اذا قبل منصب الخلافة فان المسلمين يقابلون قبوله اعظم مظاهر السرور وتواترت الابحاث والدراسات واشترك فيها عـدد من الكتاب : رشيد رضا ومحمد لبيب البتانونى . وقال بعض الكتاب أن الاسلام «مارمى بسهم اوهى لجلده واوهن لعضده وادمى لكبده من هذا السهم الذى رماه الكماليون على الغاء الخلافة اكبر جريمة فى عهد الدولة واشنع خيـــانة فى تاريخ الاســلام على الاسلام (الاهـرام ١٩٢٤/٣/١٤) .

* * *

وأشارت جريدة الطان ان الملك فؤاد سيزور فرنسا من شأن الترشيح للخلافة وركزت الدعوة فى مصر حول مطامح الملك فؤاد فى الخلافة وايدها علماء الأزهر وبعض الصحف — ونشرت الاهرام فى ٢١ مارس ١٩٢٤ مقالا تحت عنوان « يكون ملك مصر خليفة » جاء فيه أن مصر اليوم اكبر دولة اسلامية وأرقى دول الاسلام طرا واغناها واغزرها علما واعلاها نهضة ولربما يكون رأى كبـــار علمائها ان يجعلوا الخلافة فى وطنهم وفى عرشهم ناظرين الى ذلك من الوجهة الدينية والاجتماعية .

وعيب مصر الوحيد — وقـد لا تخلو منه مملكة اسلامية — هو وجود جيش اجنبى محتل لأرضها ولكن

هذا الجيش الأجنبى قوة زائلة بحكم السياسة وباعتراف الانجليز .

وكذبت الأهـــرام ما يدعيه الانجلـــيز من « انهم لا يتعرضون الخلافة لأنها عمل دينى » وقالت « ان اوربا كلها تهتم بالخلافة اهتماما عظيما لأن نفوذ الخلافـــة الاسلامية فى العالم الاسلامى هو فوق نفوذ البابوية فى العالم المسيحى وعملها اكبر اذا عادت هذه الخلافة الى اصولها ونظمت على الطريقة العصرية . اذ ليس قول الأتراك بأنها لم تنفعهم بالقول الصحيح على اطلاقه » .

ودارت ابحاث حول « مفهوم » الخلافة : وتسمى « الامامة » وهى رئاسة عامة فى الدين والدنيا قوامها النظر فى مصالح الملة وتدبير الأمة والامام نائب عن صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم فى حياطة الدين وتنفيذ احكامه . ويصير الامام اماما بالبيعة من اهل الحـل والعقد أو استخلاف امام قبله ولا بد مع ذلك من نفاذ حكمه فى رعيته (الاهرام ـــ ٢٥ مارس ١٩٢٤) .

* * *

٣ ـــ وتحدث الانجليز عن رأيهم فى الخلافة على لسان لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا السابق الذى قال « قضى الأمر والغيت الخلافة الاسلامية . ثم جاء عرب الحجاز وشرق الأردن فبايعوا الملك حسين بالخلافة وبذا عادت أو على الأقل شطر منها الى الشعب الذى اسسها واحتفظ بمجدها » . وشبه الغاء الخلافة بقضاء نابليون على الامبراطورية الرومانية المقدسة والغـــاء سلــــطة البابا الزمنية . ورأيه انه لا يبعد ان تنقلب الخلافة وتتحول الى نظام يشبه نظـــام البابوية وان « محمد على » من كبار مسلمى الهند ـــ يرى أن خير بديل للخلافة هو أن تختار جمعيـــة مؤلفة من رجال الدين المستقيمى السيرة فى البلدان الاسلامية رجل لا ثروة له ولا مال ويسند اليه منصب الخلافة . وانه ليس بين ملوك العرب من هو جدير بملء الفراغ الذى حدث بعد خلع الخليفة التركى ، وأن السلطة الزمنية قد اخذت تنهار فى كل مكان وقد جاء الآن دور العقيدة لكى يظهر تأثيرها مرة اخرى » . (الاهرام ٢٨ مارس ١٩٢٤) .

ولم يكن الملك فؤاد وحده طموحا لمنصب الخلافة ، بل ان قلينى فهمى يذكر فى مذكراته (جـ ١) أن عباس حلمى كان شغوفا بأن يكون يوما ما خليفة للمسلمين وانه استخدم لتحقيق هذا الغرض وسائل جمة منهـــا استخدام نفوذ مسلمى الشام والأناضول . وانفق مبالغ طائلة فى هذا السبيل وقال قلينى فهمى أن أول من دفعه الى هذه الفكرة هو الشيخ محمد عبده . « ولذلك تخلص الباب العالى منه » .

ودعا محمد لبيب البتانونى الى الاسراع للعمل من اجل الخلافة حتى « لايدعو الملك حسين لنفسه فى الحجاز والعراق وشرق الأردن والسلطان يوسف فى مراكش والامام يحيى فى اليمن. والادريسى فى عسير وابن السعود فى نجد وابن سعيد فى عمان واغا خان فى الهند والبهاء فى العجم والسنوسى فى مجاهـــل لوبيا والميرغنى فى السودان ولا نبعد ان نسمع بالدعـــوة للورد هلدن فى انجلترا » .

* * *

٤ ـــ وكان للحجاز دورها فى الخلافة فان الملك عبد العزيز آل سعود كان فى هذه الفترة قد استولى على الحجاز وانهى فيه حكم الشريف حسين واولاده . واذلك دعا الى عقد مؤتمر اسلامى بمكة وارســل الى ملوك الأفغان والعراق والى شاه ايران ورئيس الجمهورية التركية والامام يحيى ورئيس المجلس الاسلامى المقدس وجمعية الخلافة فى بومباى وجمعية الحديث فى امر تستر بالهند وجمعية الخلافة فى دلهى وباى تونس ورئيس حكومة طرابلس وبدر الدين الحسينى وبهجت البيطار فى دمشق وجاوه برقية (٢٢ ابريل ١٩٢٦) لعقد مؤتمر الشعوب الاسلامية فى مكة .

وقد تم انعقاد مؤتمر مكة والقى الملك عبد العزيز خطاب افتتاحيا جاء فيه قوله :

« تفاقم البغى والعدوان بعد زوال سيادة الدولة العثمانية من هذه البــلاد وخلوص أمرها الى الشريف حسين بن على آخر اولئك الأمراء فاضطرب العـــالم الاسلامى كله من استبداده وظلمه ، ومن عجزه عن توطيد الأمن فى البلاد من جعلها تحت السيطرة الأجنبية غير الاسلامية . جعل نفسه عاملا موظفا لبعض الدول الأجنبية . وكنا معشر النجديين جيران الحجاز عرضة لبغيه وايذائه لنا . منع اداء فريضة الحج واغرى بعض رعايانا بالخروج علينا . وقد ثبت بالتشاور مع أهل الحل والعقد انه يجب علينا انقاذ مهد الاسلام من بغيه وظلمه وعزمنا على ذلك » .

وقال ان المسلمين قد اهلكهم التفرق فى المذاهب

والمشارب فائتمروا فى التأليف بينهم والتعـاون على مصالحهم وعدم جعل اختلاف المذاهب والأجناس سببا للعداوة والبغضاء » .

وكما أن مؤتمر مكه لم يؤد الى نتيجة ما فان مؤتمر القاهرة الذى عقد فى ١٣ مايو ١٩٢٦ لم يؤدى ايضا الى أى نتيجة اذ انتهى الى تقرير ان الخـلافة الشرعية المستجمعة لشروطها المقررة فى كتب الشريعة الغراء ومن اهمها الدفاع عن حوزة الدين فى جميع بلاد المسلمين وتنفيذ احكام الشريعة الغراء فيهـا لا يمكن تحقيقها بالنسبة للحالة التى عليها المسلمون الآن .

وقال احمد شفيق فى حولياته (ج ١ ص ١١١) : ان جمعية الخلافة اعلنت عدم صلاحية مصر لا نعقاد المؤتمر العام للخلافة بها ووجوب انعقاد المؤتمر بمكة المكرمة لانها خالية من النفوذ الأجنبى . وارسل مؤتمر الخلافة الاسلامية برقية الى مؤتمر مكة المكرمة راجيا ان يوفق فى وضع نظام للحكم فى البلاد المقدسة وقال انعمل هذا المؤتمر فى نظر البعض هو تأكد سقوط الخلافة وعدم قدرة المسلمين على جمع كلمتهم وتوحد اعمالهم لدرء الأخطار التى تتهددهم وتعبث بكيانهم الدينى والسياسى وقال انه استقر الرأى على وجوب الخلافة وتعذر ايجادها بين المسلمين وانه كانت هناك مآرب خاصـة لفئة من ذوى النفـوذ فى مصر وقال رجال السياسة ان رجال الدين ليسوا ذوى اختصاص وان الفشل حالفهم .

٥ — وقد واجه الفكر العربى هذه المعركة مواجهة لها وجهين واضحى الخلاف ، فوجه كان يهدف الى تأييد قيام الخلافة ووجـه يعارض فى إعادتها . اما الذين يؤيدونها فقد كانوا مختلفين فى شخص الخليفة ، بعضهم يرى ان الملك عبد العزيز آل سعود احق بها لوجوده فى بلاد الحجاز مهد الاسلام والبعض يؤيد قيامها فى مصر والبعض الآخر يرى أن تقوم خلافة عربية .

والأزهر الرسمى الذى أيد الخلافة لحساب الملك فؤاد وله معارضة لرايه من اربعين ازهريا وقعوا مذكرة اعربوا فيها عن أن مصر لا تصلح دارا للخلافة لتسلط الانجليز عليهـا ودعا بعضهم الى أن يعقـد مؤتمر الخلافة فى مكة المكرمة .

وكان لراى الشيخ على عبـد الرازق دوى حين اصدر كتابه (الاسلام واصول الحكم) معارضا اعتبار الخلافة أصل من أصول الاسلام . وكان مصدر الدوى ان الكاتب منسوب الى حزب الأحرار الدستوريين الذى كان يعارض عودة الخلافة اصـلا لاتجاه دعاته الى التغريب ، ولأن الحزب بالذات كان يحارب رغبة الملك فؤاد فى الخلافة .

ولقد أعلنت صحيفة السياسة قبل صدور كتـاب على عبد الرازق رأيها فى الخلافة (٢ فبراير ١٩٢٩ وما بعدها) اذ أعلنت ان مسألة الخلافة تمس سياسة الدولة وان الدستور ينص على انه لا يجوز للملك أن يتولى مع ملك مصر امور دولة اخرى بغير رضاء البرلمان ولذلك فان أمر بحث الخلافة هو من عمل السياسيين وليس رجال الدين .

وقال على عبد الرازق أن البلاد التى تهتم بالخلافة هى البلاد التى يحركها الأجنبى وان الذين يتولون أمر البحث فى الخلافة رجال لا يملكون لأنفسهم أمرا ولكن يحركهم غيرهم فيتحركون (السياسة ١٣ مارس ١٩٢٦)

وقد شغلت الصحف العربية وصحف مصر بالذات بالخلافة بين مؤيدة ومعارضة ، وظهر اكثر من كتاب فى هذا الموضوع من اهمها كتاب رشيد رضا (الخلافة أو الامامة العظمى) وهو فى تأييد الخلافة وكتاب على عبد الرازق (الاسلام وأصول الحكم) فى معارضتها ثم ظهر مؤلف بعد فترة الدكتور عبد الرزاق السنهورى يدعو الى ان تحل محل الخلافة عصبة امم اسلامية .

١ — وقد كشف رشيد رضا فى كتابه عن انه هناك ثلاث جبهات تقف ازاء الخلافة الأول وهم (١) المجددون او (المتفرنجون) : يرون أن الدين لا يتفق فى هـذا العصر مع السياسة والعلم والحضارة . وهم يرون أن تكون الحكومة غير دينية وهم موجودون فى تركيا ومصر وسوريا والعراق والهند .

٢ — الفقهاء الجامدون : وهم الذين يرفضـون القول بالاجتهاد المطلق فى كل المعاملات الدنيوية ولوفوض اليهم امر الحكومة لعجزوا عن أن ينهضوا به .

٣ — المؤمنون بالاجتهاد والاصـلاح وهم الذين يجمعون بين الاستقلال فى فهم فقه الدين وحكم الشرع الاسلامى وهم القادرون على ازالة الشقاق من الأمة وذلك باحياء منصب الامامة وان موقفهم الوسط من شأنه ان يجذب المستعدين لتجديد الأمة من الطرفين .

وقد بين رشيد رضا أن الخليفة فى الاسلام ليس

الا رئيس الحكومة المقيدة ، لا سيطرة ولا رقابة له على أرواح الناس وقلوبهم ، وانما هو منفذ للشرع وطاعته محصورة فى ذلك فهى طاعة للشرع لا له نفسه ، فالخليفة عند المسلمين ليس بالمعصوم ولا هو مهبط الوحى ولا من حقه الاستئثار بتفسير الكتاب والسنة . وبين الفارق بين الخليفة عند المسلمين وبين البابا عند المسيحيين الذى ينفرد بتلقى الشريعة ويستأثر بالتشريع .

٤ــ أما « على عبد الرازق » فى كتابه الاسلام وأصول الحكم وقد حاول اثبات أن الخلافة نظام ابتكره المسلمون ولم يكن له أصل فى الشريعة . وأن الخلافة ليست من الدين فى شىء وانما هى خطة دنيوية صرفة لا شأن للدين بها فهو لم يعرفها ولم ينكرها ولا أمر بها ولا نهى عنا ، وانما تركها لنا لنرجع فيها الى أحكام العقل وتجارب الأمم وقواعد السياسة . وان رئاسة النبى كانت رئاسة دينية جاءت عن طريق الرسالة فلما انتهت الرسالة بموته انتهت الزعامة وما كان لأحد أن يخلفه فى هذه الزعامة . وأن بيعة أبو بكر كانت بيعة سياسية ملكية عليها كل طابع الدولة المحدثة .

ويقول الدكتور م . محمد حسين (الاتجاهات الوطنية ــ جـ ٢) بأن على عبد الرازق تأثر فى مراجعه وآرائه بالمستشرقين وبالكتاب الذى أصدرته الحكومة التركية لتبرر به الغاء الخلافة وهو (الخلافة وسلطة الأمة) الذى ترجمه عبد الغنى سنى عن التركية وقد وضعته لجنة من كتاب الترك باشارة من الكماليين .

٥ ــ ويتجه كتاب الدكتور عبد الرزاق السنهورى (الخلافة وتطورها لتصبح عصبة أمم شرقية) الذى ألفه بالفرنسية الى محاولة ايجاد نظام بدلا من الخلافة يجمع شمل المسلمين ، وطالب الدكتور السنهورى بتطوير نظام الخلافة فيصبح عصبة أمم شرقية .

***

وقد أشار الى أن الاسلام الذى يعنيه هو تلك الثقافة الاسلامية التى أنارت جوانب العالم فى ظلمات القرون الوسطى « فالثقافة الاسلامية لا الدين الاسلامى هو الذى يعنينى . ذلك أن الذين يؤمنون بتعاليم الدين هم المسلمون أما الذين ينتمون الى الثقافة الاسلامية فاولئك هم أولاد ذلك الوطن الاسلامى الكبير . وقد وسع المسلمين والنصارى واليهود ، وقد عاشوا جميعا تحت علم الاسلام طوال هذه القرون » .

وتطلع الدكتور السنهورى الى أن تتخطى الشريعة الاسلامية أعناق القرون فتصبح شريعة العصر تتسع لمقتضيات الحضارة وتصبح شريعة الشرق دون تمييز بين دين ودين » .

***

ولقد تجدد الحديث مرة أخرى فى شأن الخلافة بعد توقيع معاهدة ١٩٣٦ وتولى فاروق الملك ، واتسع نطاق هذا الحديث عام ١٩٣٨ بعد أن صلى فاروق الجمعة فى الأزهر الشريف برؤساء وملوك الدول العربية .

وقد تناولت الصحف الموضوع تناولا يكشف عن وجهات النظر المختلفة . أما الصحف الفرنسية فقد أعلنت (١٩٣٨/٤/٢٤ الاهرام) بأنها تخشى ان تؤدى اعادة الخلافة الى تأليف كتلة من الدول الاسلامية تقف فى وجه الدول الأوربية . وان فرنسا تهتم اهتماما كبيرا بالمسألة وبما أن الخلافة ستعاد يوما ما فلا بد ان ذلك مع فرنسا وضدها ، ولما كانت المصلحة تقضى بأن تكون مقرها القاهرة . وأن فرنسا هى أشد الدول الأوربية تفاهما مع المسلمين ولا سيما مع المصريين .

وقالت صحف ايطاليا (١٩٣٨/٦/٢ ــ الاهرام) أن القاعدة الأساسية لاسياسة البريطانية فى القسم الشرقى من البحر المتوسط وفى الشرق الأدنى عامة هى الدفاع عن طريق الهند وحماية منابع البترول فى العراق وغيرها . وقد كانت انجلترا حتى الأمس تخشى أن تصبح مصر دولة قوية على رأس البلاد العربية ، ولكنها غيرت سياستها ازاء الخطر الايطالى وأصبحت تؤيد اسناد الخلافة الى مصر على أمل تأليف كتلة فى البلدان العربية خاضعة لنفوذها وقصدها من وراء التوصل الى تعزيز مركزها ومقاومة الدعاية الايطالية وتأمين طريق الهند وحماية منابع البترول فى البلاد العربية .

***

وأشارت جريدة ستمبا (روما ــ عن الأهرام ١٩٣٩/٢/٩) ان على ماهر والشيخ المراغى يعملان على اعادة الخلافة الى الملك فاروق . وأن المناداة بخليفة جديد لا يمكن أن يكون من الحوادث المفاجئة ولا يتم الا اذا اجتمع مؤتمر اسلامى ورأى فى الأحوال الحاضرة أن فاروق هو الأصلح والاجدر . وهل يوافق ملوك

البلدان العربية الأخرى على ان يتولى ملك مصر الخلافة أم لا . واشارت الى ان تركيا تعارض فى احياء الخلافة فى القاهرة ، وان العالم العربى يتجه الى مقاومة ترشيح رجل تركى للخلافة وفى هذه المرحلة ظهرت جبهة جديدة من الكتاب تؤيد قيام الخلافة وجبهة تعارضها : ويرى عبد الحميد سعيد (الهلال الذهبى — ١٩٣٩) ان الخلافة فى العصر الحاضر الزم منها فى اى عصر مضى . وان دول أوربا تعلم أن فكرة الخلافة تهدد سياستها الاستعمارية والذى يرعب اوربا أن قيام الخلافة يؤدى الى اتحاد الأمم الاسلامية وتعاونها فى سبيل نهضة الشرق كله ، هذه النهضة اذا قويت باتحاد الأمم الاسلامية تحطمت دونها مطامع الدول الأوربية وشهواتها الاستعمارية .

ويقـــول عبد القادر حمزة : أن من الحكومات الاسلامية المستقل والمستعمر والمحمى والخاضع للانتداب وهى حكومات ملكية وجمهـــورية وامامية وسلطانية واميرية جمعها تحت لواء الخلافة متعذر فضلا عن أن تركيا والمغرب تعارضان فى الخلافة ولا فائدة من نظام لا يعترف به الجميع ، كما ان الخلافة فى مصر تكون مصدر خطر عليها من الدول القوية وقد تحرك فى نفس بريطانيا عوامل جديدة تدفع بها الى الرغبة فى البقاء حتى تحين ساعة الجلاء . والخلافة عبء قبل أن تكون مزية .

وراى بعض المعارضين فى الخلافة انها ربما تخلق مع الزمن كهانة .

* * *

وهكذا ظلت مسألة الخلافة تشغل الفكر العربى بآراء وأدلة تؤيد هذا الجانب او ذاك ولم تتوقف الدعوة الى اعادة الخلافة ، وهى فى نظر دعاتها انما هى وسيلة لربط المسلمين برباط روحى ، وهى كالجامعة الاسلامية فى هذا الغرض وكل وسيلة من شأنها أن تربط أو توحد بين المسلمين يمكن ان تقوم مقام الخلافة .

* * *

ولا شك ان الاستعمار قد حرص على الا تقوم هذه الرابطة على أى وضع كان ، وكان ينظر الى الخلافة من وجهة نظره الخاصة فهو حين يؤيدها ويدعو اليها انما كان يحرص ان يلتمس من وراء السيطرة وتأكيدا لنفوذه وهو حين حال دون قيامها انما قصد الى تمزيق وحـدة المسلمين ومع ذلك فقد عجز الاستعمار عن فصم الروابط الروحية فى العالم الاسلامى بل وربما زادتها مقاومـة الاستعمار قوة وبأسا .

* * *

مرحلة التحـــدى ورد الفعـــــل
تطـــور الفكر العربى الإســـلامى
خـــلال الحربين العـــالميتين

- حملات التغريب
- حملات الغزو الثقافى
- حملات التجزئة

(١)

حمــــلات التغريب والغزو الثقـــافى

قامت الحضارة الغربية على أساس المـــادية والاقتصاد والصناعة . لذلك كان الاستعمار ثمرة من أهم ثمارها ، وجزءا مرتبطا بها مكمل لها لا ينفصل عنها. وقد اختلفت بذلك عن الحضارات التى سبقتها والتى كانت تجمع بين المادة والروح .

ولقد قامت الثقافة الغربية على أساس تفكير بدأ بالتحرر من سلطان الكنيسة عندما رأى المسيحية تحده عن الانطلاق فانفصل عن الدين كلية وجرى مع العـــلم الحديث فى مكتشفاته وعلومه وانشأ نظما وقيما اشتقها من حاجاته ورغباته وحاول تطبيقها .

وقد بدأت الحضارة الغربية بالثورة الصناعيـــة وقامت على أساس التنافس فى البحث عن المواد الأولية والخامات والصلب والبحث عن أسواق لتصريف المنتجات وكان لاختراع وسائل المواصلات السريعة أثره فى ربط أنحاء العالم وسرعة الانتقال بين أجزاءه المختلفة .

ولما كان الاستعمار هو عامل « الحـــركة » فى الحضارة الغربية المادية فقـــد كان لابد أن يتخذ من الوسائل التى تكفل له البقاء فى المناطق التى يغزوها . وذلك بعد ان استطاع فى خلال القرن التاسع عشر أن يخضـــع القارتين الآسيوية والأفريقية وجنـــوب أمريكا وكما ارتبطت الحضارة بالغزو الاستعمارى ارتبط هذا الغزو بالخصومة لغير الرجل الأبيض وغير الأوربيين . وصاحبت عمليات الغزو العسكرى عملية غزو فكرية واقتصادية وكان هذا الغزو أشبه بحملة انتقام عنيفة ربما كان مصدرها هزيمة الغرب فى الحروب الصليبية .

وقد بدأ الغرب نهضته على أساس ترجمة العلوم والفلسفات العربية التى كانت قوام حضارته الجديدة ومع ذلك فقد حمل معه لواء الغدر والافتراء والحقد على العرب والمسلمين وانكار فضلهم وأثرهم وقد استهلت أوربا حملتها بحرب صليبية عنيفة على العرب فى أسبانيا وعلى المسلمين فى تركيا وعلى العرب فى المغرب وهذه ربمـــا كانت انتقاما لمقتل القديس لويس وهو يقود الحمـــلة الصليبية التاسعة الى ساحل المغرب . ولم يلبث اللورد اللنبى أن كشف خبيئة هذا الأمر حين أعلن عند دخول « القدس » عام ١٩١٧ انه قد انتهت الحروب الصليبية.

وقد ارتبطت الحضارة بالاستعمار ، وارتبط الغزو بصورة تحمل معنى الخصومة للاسلام على نحو صليبى فيه معنى الصراع بين المسيحية والاســـلام ومحاولة الانتقام أو ربما كان الضغط على الاسلام انما جاء باعتباره العدو الأول للاستعمار وان بقاء الاستعمار الغـــربى المسيحى فى العالم العربى لا يتم الا بالقضاء عليه .

ويظهر ذلك واضحا فى أول مشروع استعمارى تقدم به القس « مينتز » فى ١٥ مارس ١٩٧٢ الى لويس الرابع عشر ملك فرنسا جاء فيه **« أريد ان اتحدث اليكم يا مولاى فى مشروع غـــزو مصر ، ولا يوجد بين أجـــزاء الأرض بلد غير مصر يمكن السيطرة منه على العالم كله. وعلى تجارة الدنيا باسرها وهى تستطيع ان تلعب هذا الدور لسهولة استيعابها لعدد كبير من السكان . وهى اليوم معقل الديانة المحمدية ، ولأى داع تخسر المسيحية تلك الأرض المقدسة التى تصل آسيا بأفريقيا والتى جعلت منها حاجزا بين البحر الأبيض والبحر المتوسط ومدخلا لبلاد الشرق باجمعها والذين يحقـــدون على فرنسا سينظرون بعين الارتياح لهجومكم على المسلمين تحدوهم روح مسيحية »** .

وعندما عرض المركيز دى سنيلاى مشروع شق قناة تصل البحر الأبيض بالبحر الأحمر قال فى مشروعه « انه مشروع صليبى ومن مميزاته امكان حفر قناة تكون ملكا مشتركا للعالم المسيحى » .

ويمكن ان يطلق على هذه المرحلة « مرحلة التحدى » لما حفلت به من حملات التغريب والغزو الثقافى والتجزئة التى اندلعت وفق مخطط مرسوم له هدف واضح وخطة واسعة المدى قوامها الغزو التجارى والاقتصادى والثقافى والعسكرى والسياسى ، **وعمليات الغزو الثقافى عن طريق الصحافة والكتابة والسينما والتعليم ، وحركات التبشير والاستشراق والدعوات المتعددة التى تهاجم التراث والقيم والدين ومحاولة التشكيك فيها ، والثنائية فى التعليم الدينى والمدنى وثنائية الثقافة بين الفرنسية والانجليزية والحملات على القيم ، والاتهامات ودعوات التجزئة والتمزيق ومحاولات نقل حشد هائل من المذاهب والنزعات والدعوات الغربية المتصلة بالدين والمجتمع والفكر وحملات الشيوعية والصهيونية والالحاد ، والحملات على الدين واللغة .**

وقد وقفت الأمة العربية من الحضارة الغربية موقفا رائعا ، لم يكن موقف الجمود ولا موقف الانصهار . لم **يمانع من تقبل الأضواء الحديثة على اساس ان تظل معالم شخصيتنا حية قائمة ، على ان تزداد بهذه الأضواء الجديدة قوة وحياة واندفاعا فى طريق الامم الناهضة .**

ولم يكن لدى البلاد العربية مانعا من تقبل الحضارة باعتبارها نتاج بشرى اشترك فيه الجنس الانسانى كله وقد قام العرب بدورهم فيها وحملوا امانتها — وحدهم — فترة تزيد على اربعة قرون كاملة وحدهم فحموها وزادوا فيها واضافوا اليها .

والاسلام دين متطور فسيح منطلق يتجوب مع الازمان المختلفة والبيئات المتعددة ، ولا يحول دون اقتباس اسباب الحضارة ، وقد تقبل مجتمعنا الحضارة من قبل واقتبس وترجم من ثقافات الشرق والغرب ومن حضارات الفرس والروم والهند والمسحيين واليونان مازاد شخصيته قوة وحياة .

ولكن الغرب عندما اتصل بالوطن العربى لم يقدم لنا من الحضارة الا الجوانب المتصلة بمظاهر الحياة وهى فى مجموعها جوانب الغرائز والترف وارضاء الاهواء .

وللحضارة الغربية جانبها : العلمى العقلى المتصل بالآلة والاختراع والتقدم العلمى والكشوف المختلفة . وجانبها المتصل بالترف والمتاع الحسى واطلاق الاهواء واللذات مما كانت المرأة والمراقص والحانات والكحول والمخدرات وسائلها وادواتها .

وقد حرص الاستعمار ان ينقل هذا الجانب وحده الى البلاد المحتلة ، وأن يحجب عنها الجانب الايجابى ، ولم يقصد بتقديم هذا الجانب من الحضارة الا العمل على تحطيم المجتمع العربى وبث روح الفساد فيه وتمزيق كيانه واستلاب ثروات الأثرياء الذين اندفعوا وراء اللذات ، وسقطوا فى حمأة المتاع الحسى فتركوا القرية وعكفوا على الاهواء فى المدن وبذلك فقدوا ثرواتهم والتهمتها المؤسسات الاستعمارية الربوية والعقارية ، اما فيما يتعلق بالثقافة فقد حجب الاستعمار عن الوطن العربى جانبها العلمى الرفيع المتصل بترقية الحياة والسمو بالفكر الى عوالم الاحساس والتسامى ، وأباح الجانب المتصل بالمذاهب الهدامة والآراء الالحادية والشبهات وقضايا الفكر التى ما زالت معروضة للبحث والتى لم تصل بعد الى درجة العقائد ، واتصل هذا بالنظريات ذات المظهر العلمى التى خلقها الاستعمار ليحاول اقناع الشرقيين والشعوب الملونة والمحتلة بانهم اقل من الشعوب البيضاء قدرة عقلية ، وأن الرجل الأبيض هو الانسان الذى خصته العناية الالهية بتحضير الشعوب المختلفة وحمل امانة حمايتها وتنويرها ، وهذا هو ما اقام هذا الاضطراب العميق والصراع النيء بين الفكر العربى والحضارة والثقافة الغربيتين .

وعندى أن أمر الحضارة والثقافة الغربيتين لو انتقل الينا انتقالا طبيعيا دون أن تكون وراءه هذه القوى التى تقوم على الغزو الثقافى وتنظم الحملات فى سبيل « سحق الشخصية العربية » لما حدث اى انحراف ، وانما الذى احدث الانحراف هو محاولة الغرب فى غزو بلادنا بجانب من ثقافته ان يفرض الجانب المنحرف المضطرب المتشكك .

* * *

والواقع أن الآراء والمذاهب الغربية لم تكن قائمة فى الغرب بهذه الكثرة أو التعدد فى وقت واحد وانما جرت محاولة حشد كل الآراء والأفكار والدعوات التى مرت بمختلف الثقافات والفلسفات فى الفترة الطويلة من عصر النهضة الى الآن حتى تأخذ صورة الحملة الجائحة التى تثير الأعصاب وتبعث الشك وتزلزل العقائد فى حين ان هذه الدعوات والمذاهب قد ظهر بعضها اثر البعض الآخر وانها لم تكن فى صيغة الحقائق المقررة وانما فى صيغة الآراء المعروضة المناقشة وكآراء قابلة للنقد وأن اغلبها انطوى وظهرت مذاهب اخرى تنقضه ثم ظهرت افكار اخرى تنقض على الأولى .

ولقد كانت هناك معركة ضـــــخمة هائلة ، هى « معركة التغريب والغزو الثقافى وقد حـــدث انحراف ووقعت ضحايا وظن الاستعمار ان تجـربة « تغريب تركيا » يمكن أن تتكرر فى العالم العربى .

حقا ، لقــد كانت تجربة تركيا سلاح رهيب فى ابانة ، ثم تبين من بعد أنها عمل فاشل وان « التطور » غير « التغريب » وأن « الاقتباس » غير « النقل » .

ذلك أن « تجربة تركيا » لم تقنع الأمة العربية بتقبل الحضارة الغربية كاملة ، بل لعلها زادتها حذرا من أن تمسخ شـــــخصيتها ولعنها هى التى حكمت بأن « الاقتباس » خير من النقل ، وأن قبـــول جوانب من الحضارة والثقافة ورفض اشياء أقوى لشخصية الامة من نقل كل شىء ، لقد ظهر كيف تميعت الشـــخصية التركية فلم تعد اسلامية أو شرقية أو غربية وانما هى خليط غير واضح المعالم .

* * *

— ١ —

حمــلات على الجنس السامية والآرية

اتسمت حملات « لتحطيم الكيان » التى قام بهــا الاستعمار بالعصبية والهوى والمغالطة وتجـاهل المنهج العلمى الصحيح . وقد اتصلت هذه الحملات بكل مايتعلق بكيان الشخصية العربية من قيم وتراث وخاصة فى ميادين الدين واللغة والتاريخ والجنس . وصدرت عن مخطط مرسوم واضح وضع قاعـدته الأولى كاتبين متعصبين استعماريين هما : جوبنيو وربنان .

وتقوم النظرية على وجود فوارق طبيعيـــة بين الساميين والآرايين ، وهما قاعدة الفوارق بين الشرق والغرب والرجل الأبيض والرجل الملون ، بل قاعـدة الاستعمار نفسه حين فرض الرجل الابيض نفسه على افريقيا وآسيا باعتباره حامل لواء المدنية .

حمل الغرب لواء الدعوة الى نظرية الجنس واقام على أساسها معركة التفرقة العنصرية . وترى هـذه النظرية ان هناك اختلافات جوهرية وجسمانية وذهنية بين الأجناس البشرية وبين الآريين والساميين بالذات ، وتفسير التاريخ تفسيرا يقوم على الهوى والانانية مع احتقار كل ما هو ليس آريا وتجريد غير الآريين من خير الصفات الانسانية .

وقد اختلفت أوربا فى حمل لواء هذه النظرية فقالت فرنسا بسيادة الجنس الكلتى ضد الجـرمانى ودعت بريطانيا الى سيادة السكسون ضد الكلت . واكدت المانيا سمو العنصر الجرمانى فوق الكلت والسلاف واللاتين .

ونشأ عن هذه الدعوة نظرية الحاجز اللونى التى تقوم على أساسه ظاهرة الاضطهاد الحضارى . وقد طبقت هذه النظرية فى أفريقيا وآسيا وامريكا باضطهاد الزنوج أصحاب الأرض الأصليين .

* * *

نظرية جوبنيو

ونظرية الأجناس البشرية التى دعا اليها الكونت دى جــوبنيو الفرنسى عام ١٨٥٨ قد اســتغلها الاستعمار فى الفتح والتوسع ، على أساس أنه لا مساواة بين البيض والسود ولا بين المتعمرين والشعوب التى يحتلونها ، وأن البيض المستعمرين أعظم عقلا من السود المحتلين . وأن هناك اختلاف جوهرى فى سلالة العرق وجريان الدم .

وترى هذه النظرية أنه ما دام هناك شعوب عليا ، وما دام قانون الطبيعة يعطى الغلبة للآرى المتفوق فان من حقه أن تكون له السيطرة وأن يقبض بيده على مقدرات العالم . وأن الجنس الأبيض ينفرد بكل الخلق العظيم كما انه اختص بالجمال والذكاء والقوة فى تاريخ الحضارات المتعاقبة وأن ما عداه من الأجناس الأخرى عالة عليه .

وقال جوبنيو : ان (اليتو توبيين) هــم ارقى الأجناس البيضاء جميعا وافضل السلالات البشرية على الاطلاق .

ولقد كان لاتصال جوبنيو مع الموسيقار « ريتشرد فلجنر » الألمانى اثره فى تبنى الموسيقار الألمانى للنظرية التى تلقتها المانيا فى الوقت الذى تحققت فيه الوحــدة الجرمانية واتجهت الى تأسيس امبراطورية كبرى وقد اتخذها رجال غليوم الثانى وسيلة لتعبئة قوى الشعب لغزو المعسكرات .

وتأثر « فردريك نيتشة » الفيلسوف الألمانى بهذه النظرية واوحت اليه بعض قصائده عن « السوبرمان » .

* * *

نظرية رينان

وكان للفيلسوف الفرنسى ارنست رينان (١٨٦٣ — ١٨٩٢) أثره الواضح فى توسيع هذه النظرية الاستعمارية وخلاصة آراء رينان هى :

● أن هناك فوارق بعيدة المدى بين الأمم السامية والأمم الآرية .

● أن الأمم السامية قصيرة الخيال ، جافة التصوير تدرك الأشياء ادراكا أوليا ولا تتعمق فى بحثها ولا تسترسل فى كشف الحقائق ومعرفتها وتحكم على الأشياء لأول مرة حكم المعتقد الجازم بصحة الشىء الذى اعتقدته . وخيالاتها محدودة وادراكاتها محدودة ، ونظاماتها الاجتماعية لا تعرف التطور . وليس فى نظام حكومتها ما يدل على سعة الادراك ولا على اثر التفكير . وليس لها فى علم الأدب والفن أثر يذكر بالنسبة لما تركته الأمم الاخرى ، بل ليس لها فلسفة ولم تسترشد الأمم الأخرى بشرائعها .

● أن الاسلام لا يشجع على العلم والفلسفة والبحث الحر ، بل هو عائق لها ، بما فيه من اعتقاد فى الغيبيات وخوارق العادات والايمان التام بالقضاء والقدر .

● من اشتغل بالفلسفة من المسلمين اضطهد واحرقت كتبه وما وصل اليه هؤلاء من الفلسفة ليس له قيمة كغيره فهو ليس الا فلسفة اليونان مشوهة . والفلسفة التى اخذها الأوربيون عن المسلمين فى أسبانيا كانت فاسدة رديئة الترجمة مشوهة الأصل لم تستفد منها أوربا الفائدة الحقة .

● العنصر العربى بطبيعته ابعد العقول عن الفلسفة والنظر فيها ، فالزمن الذى كان يسود فيه العنصر العربى — وهو عهد الخلفاء الراشدين — لم تكن فيه فلسفة ولم يظهر البحث العلمى ولا الفلسفة الا حين انتصرت الفرس ونصروا العباسيين على الأمويين .

● أن العقل العربى لا يصلح للدراسة والبحث لأن العقلية السامية مجدبة كالصحراء التى نتتت فيها ولاتقوى على التحليل والتعمق كما هو الحال بالنسبة للعقلية الآرية .

● ان عقيدة الجبرية عند المسلمين من شأنها ان تخنق الروح العلمية وان تحول دون المضى فى سبيل التقدم وان الاسلام عجز عن التطور وعن قبول اى عنصر من عناصر المدنية فاجتثت من قلبه كل بذرة من بذور الثقافة العقلية .

وكان رينان قد اذاع هذه الآراء فى محاضرة القاها فى السربون فى ٢٩ مارس ١٨٨٣ تحت اسم (التعاليم الاسلامية والعلم) ونشرت فى جريدة الديبا ورد عليها جمال الدين الأفغانى — الذى كان بباريس اذ ذاك — وجرت بينه وبين ارنست رينان مقابلة نوقشت فيها هذه الأفكار .

* * *

رد جمال الدين الأفغانى

وقد كان رد جمال الدين على هذه الآراء علميا واضح الدلالة : قسم موضوع المحاضرة الى عنصرين :

(١) ان الديانة الاسلامية كانت بما لها من نشأة خاصة تناهض العلم .

(٢) ان الأمة العربية غير صالحة بطبيعتها لا لعلوم ما وراء الطبيعة ولا للفلسفة وأجاب عن (النقطة الأولى) فقال :

ان المرء ليتساءل اصدر هذا الشر عن الديانة الاسلامية نفسها ام كان منشؤه الصورة التى انتشرت بها الديانة الاسلامية فى العالم ام ان اختلاف الشعوب التى اعتنقت الاسلام او حملت على اعتناقه وعاداتها وملكاتها الطبيعية هما جميعها مصدر ذلك .

ان مناهضة المسلمين العلم أو الفلسفة فى بعض عصورهم المتأخرة لا ترجع الى طبيعة دينهم بل اولى بنا ان ننسبها الى سوء فهم بعض الشعوب التى اعتنقته من غير العرب .

٢ — اما عن النقطة الثانية فالكل يعلم ان الشعب الذى خرج من حال الهمجية التى كان عليها واخذ يسير فى طريق التقدم الذهنى والعلمى ويغز السير بسرعة لا تعادلها الا بسرعة فتوحاته السياسية وقد تمكن فى

× هذه النظريات هى أساس كل ما حمل لواءه كتابا غربيون كثيرون قد انصفوا الاسلام والحضارة

كتابنا المغتربون امثال طه حسين وسلامة موسى ومع ان العربية . فقد ظلت هذه الآراء ذات اقوى اثر عندهم .

خلال قرن من التكيف بالعلوم اليونانية والفارسية فتقدمت العلوم تقدما مدهشـــا بين العرب وفى كل البـــلدان التى خضعت لسيادتهم .

وقد كان العرب فى ذلك الجهل حين شرعوا يتبادلون ما تركته الأمم المتمـــدنة فاحبوا تلك العلوم المندثرة . ورقودها وحلقوا عنها بهجة لم تكن لها من قبل . أو ليس هذا دلالة بل برهانا على حبهم الطبيعى للعلوم ! صحيح ان العرب أخذوا عن اليونان فلسفتهم كما أخذوا عن الفرس ما اشتهروا به ، بيد أن هذه العلوم التى أخذوها بحق الفتح قد رقوها ووسعوا نطاقها ووضـــحوها ونسقوها تنسيقا منطقيا وبلغوا بها مرتبة من الكمال تدل على سلامة الذوق وتنطوى على التثبت والدقة النادرين . وقد كان الفرنسيون والانجليز والألمان لا يبعدون عن رومه وبيزنطه بعد العرب عنهما ، وكان من السهل عليهم أن يستغلوا كنوز علوم تلك المدينتين ، ولكنهم لم يفعلوا حتى جاء اليوم الذى ظهر فيه منار المدنية العربية على قمـــة جبال البرانس يرسل ضوءه وبهاءه على الغرب .

فالواقع يكذب ما ذهب اليه رينان فليست عقلية العرب التى استطاعت تحصيل ثقـــافة الفرس والروم بسرعة لا تعدلها سوى سرعتهم فى الفتوح الاسلامية بعقلية جامدة راكدة .

ان هناك نوعا من التناقض عند ما يصف (رينان) عقلية العرب بالاجداب ثم يقول بأنهم أخذوا الفلسفة من الحرانيين ا . هـ .

وقـــد دارت مناقشة بين رينان وجمال الدين بينت له « أن الاسلام فى نصفه الأول لم يحارب العـــلم وانما حاربه فى نصفه الثانى . وأن المسلمين لا يحاربون العلم والفلسفة الا عندما يبتعدون عن المنـــابع الأولى لدينهم وعندما تضطرب أحوالهم الاجتماعية والسياسية واستطرد رينان : لقد خالنى الشيخ غير منصف انى لم أوف الكلام حقه ، ولم أقل فى المسيحية ما قلته فى الاسلام وأن الاضطهاد بين المسيحيين لا يقل عما كان بين المسلمين وهذا قول حق ، فجاليلو لم يلق من الكاثوليك خيرا مما لقيه ابن رشد من المسلمين .

* * *

وقد ظلت هذه الآراء التى قدمها جوبينو ورينان مبدرا الحملة على الفكر العربى والاسلامى واساسا لم ينقض أبدا بالرغم مما وجه اليه من رد وبالرغم من تراجع رينان عنه فيما روينا من حديثه مع جمال الدين .

وبالرغم من أن هناك مؤرخون منصفون واحرارا فى الفكر : أمثـــــال جوستاف لوبون وسيديو ودوزى فان الحملة على الكيان العربى قد اتخذت آراء المتعصبين أساســـا وتجاهلت آراء المنصـــفين ومضى الكثيرون من الكتاب العرب المتغربين على هذا النحو الخاطىء الظالم فهاجموا كياننا وقادوا حملة التغريب ، ولعل كل ما أورده طه حسين وانطون سعادة وغيرهم انما كان مصدره آراء رينان مما سنعرض له فى مكانه .

* * *

المراجـــع

مجلة المجلات العربية : مايو ١٩٠٧ .
الاسلام والتجديد : تشارلس ادمس .
الاتجاهات الوطنية : د . م . محمد حسين .
جمال الدين الأفغانى : د . محمود قاسم .
زعماء الاصلاح ة أحمد أمين .
مصر الحديثة : كرومر — ترجمة اسكندر شاهين ١٩٠٨ .
رائد الفكر المصرى : د . عثمان امين .
تاريخ الأستاذ : رشيد رضا .
قاسم امين : احمد زكى .
مجلة الرسالة : نظرية الأجناس البشرية اجيبون .

* * *

(٢)

حمـــلات على الدين

مهاجمة الدين واعتبار الاسلام سبب التخلف

تعددت حملات كتاب الغرب الذين قادوا معركة التغريب الثقافى على الدين وعلى الاسلام بالذات بادعاء أنه سبب التخلف للعرب والشعوب التى اعتنقته .

ونمثل للحملة على الدين ومهاجمة الاسلام بحملة الدوق داركواز بكتابه « مصر والمصريون » الذى صدر عام ١٨٩٣ جريا فى نفس الطريق وان اقتصر الكتابة عن المصريين وحدهم . وقد ضم كتابه سلسلة من المطاعن القاسية وكان قوامه التعصب .

وحاول مؤلف الكتاب أن يصور الاسلام فى صورة الدين الخرافى العتيق ، ويصور المسلمين فى صور الضعاف العجزة . ونعى على المصريين ضعف الخلق القومى وعزا تأخر الحركة الفكرية الى الاسلام . وقال انه ـــ أى الاسلام ـــ هو السبب الأساسى فى هذا التأخر وانه لا يحض على البحث فى العلوم غـــير الدينية وانكر أن للعرب الأولين مدنية خاصـــة واتهمهم باحراق مكتبة بالاسكندرية وادعى أن الاسلام هو الذى أمر بالحجاب .

***

رد قاسم أمين

وقد رد قاسم امين على دوق داركور بكتـــابه « المصريون » باللغة الفرنسية . وقال أن رادكور ملىء بالحقد على المصريين والاسلام ، جاهل بأصول الدين وتاريخ العرب . وأن ما يوجد فعلا مما رمى به المصريين من قصـــور لا يرجع الى طبيعتهم ولا الى دينهم ، وانما يرجع الى انهم كانوا يعيشون فى ظل الاستبداد الذى أوقف تقدمهم ونهضتهم .

وقال قاسم أمين : أن الأســـلام سبق الثورة الفرنسية بالفى سنة أو يزيد حيث أنكر امتيازات النبلاء والثروة ، ودعا الى العدالة الاجتماعية . وان ليس فى الاسلام طبقة تمثل السلطة الروحية التى كانت الكنيسة وانه افسح المجال للكفايات وجعل للفقراء حقا معلوما فى أحوال الاغنياء . وأن النظام الاسلامى يؤكد الاخاء والمساواة ، وأن ضعف هذا النظام انما حدث نتيجة لاضطراب المسلمين وقيام امراء طغاة يحكمون العـــالم الاسلامى مما ادى الى شيوع الظلم والقسوة .

ونقد قاسم امين حال المراة فى أوربا وقال : أن نظام تعدد الزوجات والطلاق هو نظام أرقى وانقى من نظام الخلائل والتعدد غير الشرعى السائد فى فرنسا وأوربا ، هذا النظام الذى يطبع الاطفال بطابع الجريمة وأن الاسلام قد احتاط لهذه الاخطار على أن الأصل أن يكون للرجل زوجة واحدة .

وأورد قاسم أمين احصاءا عن البغاء فى فرنسا ودلل على أن ربع المواليد فيها غير شرعيين . وأن ١٥٠ الفا منهم قتلوا وهم يخرجون من بطون امهاتهم ك

وقال قاسم : أن الميريين يؤمنون بأن الفضيلة مثل معنوى أعلى يضحى فى سبيله بلذات الدنيا .

وأن الاسلام لم يمنع المصريين من دراسة الرياضة والجغرافيا والكيميا والطبيعة والفلك ، وليس هو الذى أسلمهم لجماعة الطغاة المستبدين . وأن الأســلام لم يعترض تطور العقل الانسانى ولا تقـــدم العلوم ولا الآداب . ولم يحل دون اكتشاف الحقائق العلمية وأن ما تسرب الى الدين من اوهام وخرافات مما يراه بعض السائحين ليس من أصول الدين وخلص قاسم امين الى أن الاستعمار هو الذى حال بين بلادنا بين التقدم وأن القناصل الأوربيين كانوا يكونون حكومات داخل الدولة تحمى المجرمين واللصوص وسفاكى الدماء من رعاياهم وأن الغرب فرض تجارته علينا . وأن رعاياهم كانوا مثلا للفســاد والتسلط ، وانهم نعموا بخيرات البلاد دون أن يدفعوا مقابلا لها .

وقال أن حكام مصر حاولوا السير بمصر أولا أن أوربا خلقت لهم العثرات فاضحت البلاد مزرعة الغريب الأجنبى . وانه على الرغم من أن مصر تقابلهم بالاحترام فانهم لم يجدوا سبيلا للاساءة الا سلكوه . (ترجمة احمد خاكى : الثقافة ـــ ١٩٤٢/٥/١٩) .

حمـــلة هـانوتو

مهاجمة الإسلام والمفاضلة بينه وبين المسيحية

وكانت حملة « هانوتو » واحدة من هذه الحملات التى شنها الغرب على الاسلام ومحاولة اثارة الشبهات حوله والسخرية منه وقد حاول هانوتو (وزير خارجية فرنسا) أن يلصق بالاسلام كل عيب. متهما اياه بالتعصب والتخلف . وحاول أن يرفع من شأن المسيحية على حساب الغض من قدر الاسلام حيث قال : ان الاسلام برفع حق الربوبية ويجعل الانسان فى حضيض الضعف ودرك الوهن بينما ترفع المسيحية من شأن الانسان وتخوله حق القربى من الذات الالهة ، وقال هانوتو أن نتيجة الاتجاه الأول هو تحريض الانسان على اغفال شئون نفسه وبث القنوط فى قلبه وتثبيط همته .

وقال أن « المسيحية » هى الوارثة لآثار الآريين ، وهى منقطعة الصلة بالمذاهب السامية وان كانت مشتقة منها . أما الاسلام فهو متأثر بالمذهب السامى ، وذلك فهو ينزل بالانسان الى اسفل الدرك ويرفع الاله عنه فى علاء لانهاية له .

واعتد قول كاتب آخر هو « كيمون » الذى يعتقد أن الاسلام جذام فشا بين الناس واخذ يفتك بهم فتكا ذريعا ويقول « كيمون » بل هو مرض مريع . وشلل عام . وجنون ذهولى . يبعث الانسان على الخمود والكسل ويرى أن المسلمين وحوشا ضارية ويعتقد أن الواجب ابادة خمسهم والحكم على الباقين بالأشغال الشاقة وتدمير الكعبة ووضع ضريح « محمد » فى متحف اللوفر .

وأشار الى أن الاسلام دين وسياسة وان شعور المسلمين مبهم من حيث الجامعة السياسية والرابطة المدنية او الوطنية ، فالوطن عندهم فى الاسلام وهم يقولون أن السلطة مستمدة من الالوهية فلا يجوز أن يتولاها الا المسلمون .

وقال هانوتو : أن الاسلام عقبة فى سبيل العلم والحضارة .

رد محمد عبده

ورد محمد عبده على هانوتو متهما اياه بتحريك نيران العداوة فى الفرنسيين اثارتهم على حرب المسلمين . وقال ان أصل التمدن الآرى هو الهند وأن الاسلام هو الذي بعد أن صفاها وهذبها ، وذلك عن طريق الاندلس . وقال انه لا صلة بين الدين المسيحى والمدنية الحاضرة، فالانجيل يأمر اتباعه بالانسلاخ من الدنيا والزهادة فيها. ويقص عليهم أن دخول الجمل فى سم الخياط أيسر من دخول الغنى فى ملكوت السماوات . فهل تقوم المدنية الأوربية على هذا الأساس .

ثم قال أن الفينيقيين — وهم ساميون — هم اساتذة العالم فى الصناعة والتجارة بل والقراءة والكتابة ولا زالت الأمم يأخذ بعضها من بعض فى المدنية لا فرق بين آرى وسامى .

ودفع « محمد عبده » عن الاسلام تهمة الاتكال على القدر والجبرية وبين أن النبى وأصحابه جاهدا فى سبيل نشر الدعوة ولم يكتفوا بالتسليم للقدر فى اتمامها ، قائلين أن الذى كفل لهم النصر يكفيهم التعب . وان الآريين الذين دخلوا فى الاسلام من فرس ورومان هم الذين افسدوا العقائد الاسلامية فادخلوا فيها ما ليس منها . وقال أن ربط هانوتو بين المسيحية وبين الديانة اليونانية باطل ، وأن نظرية التشبيه لم تظهر فى المسيحية الا بعد قرون من نشأتها . وقال أن من المسيحيين الآن من يعتقد ان المسيح لم يكن الا نبيا مختارا بعثه الله لخلاص البشر اما الاسلام فقد دعا الى التوحيد وبعقيدة التوحيد فتح المسلمون الدنيا وجالوا فى علوم السماوات والأرض فنبغوا فى مختلف العلوم ، وانما فسدوا وتأخروا حين فسدت عقيدتهم ودخل فيها ما ليس منها ». ا.هـ .

* * *

ومما يذكر أن عصر التغريب بالذى امتد فى مصر خلال هذه الفترة (١٩٢٠ — ١٩٤٠) قد فرض أن يختار « هانوتو » هذا نفسه ليكتب تاريخ مصر فى مقابل ثمانية آلاف جنيه ، والعجيب أنه كتب تاريخا مشوها نقدته الصحف وعارضه الكتاب ، فقد زعم أن مصر لم تستقل فى حياتها الا فترات قصيرة جدا واجابت مجلة النهضة الفكرية (١٨ يناير ١٩٣٢) على ذلك : بأن مصر كانت امبراطورية كبيرة يوم كانت أوربا تتخذ من الكهوف والمغاور مساكن ومن جلود الحيوانات أطعمة . ولو لم يتصل اليونان بمصر لظلت فرنسا وانجلترا فى العصر الحجرى الى القرن العشرين . وتساءلت المجلة : هل كانت مصر مستعمرة فى عهد البطالسة أيام كانت فرنسا مسكونة بصنف من البشر همجى متوحش .

* * *

(٣)

حمـــلة كرومـر

على الإســلام والعرب ومصر والشرق

ويمثل كرومر بحملاته المتوالية التى اوردها كتابيه مصر الحديثة والخديو عباس وتقاريره الســنوية صورة الحملة الجماعية على كل مقومات شخصيتنا ومعالمهـا وتراثنا ووحدتنا وثقافتنا وماضينا .

يقول : ان الاسلام نجح كعقيدة ودين . ولكنه فاشل كنظام اجتماعى قـد وضعت قوانينه لتناسب الجزيرة العربية فى القرن السابع الميلادى . ولكنه مع ذلك أبدى لا يسمح بالمرونة الكافية لمواجهـة المجتمع الانسانى . وان الاسلام يحرم المراة من كل حقـوقها ويعتبرها أحط من الرجل وانه يبيح الرق . وانه دين متعصب متطرف يبيح لاتباعه أن يتخذوا المخالفين لهم فى العقيدة أسرى حرب ورقيقا . ويجعل من اتباعه جماعة من انصـار الهمج المحبين للحروب والذين لا تتسـع صدورهم لأى تسامح فهم لا يفهمون أن الخدف فى الراى ليس موجبا للكراهية والحقد .

وقال ان الاسلام دين مناف للتجديد ولم يكن صـالحا الا للزمن والمحيط الذين وجد فيهما . وان المسلمين لايمكن أن يرقوا فى سلم الحضارة والتمدن الا بعد ان يتركوا دينهم ، وينبذوا القرآن واوامره ظهـريا لأنه يأمرهم بالخمـول والتعصب ويثبت كيهم روح البغض للاغيار والشقاق وحب الانتقام وان الاسلام على الجملة هـو العقبة الكؤود فى سبيل رقى الأمة الاسلامية .

وقال ان الشرقيين أسرع الناس الى تصـديق الشائعات وهم يتملقون من فوقهم بنفس القـدر الذين ينتظرون فيـه الملق ممن هم دونهم . وهم لا يكـترثون للمستقبل ولا يتبصرون فى العواقب ولا يرون شيئا لمن يتركونهم من خلفهم وهم يدسون فى الخفاء ولا يعملون فى الضوء نتيجة للعصور المتوالية التى عاشوا فيهـا من الاضطهاد وهم يؤمنون بالقضاء والقدر . ويدفعهم ايمانهم هذا الى الرضوخ لكل ذى سلطان .

وقال : ان المسلم غـير المتخلق باخلاق أوربية لا يصلح لحكم مصر ، وأن المستقبل الوزارى سيكون للمصريين المتربين تربية أوربية .

وفاصل كرومر بين الاســلام والمسيحية وانتصر لديانته .

* * *

الرد على كرومر

وقـد رد على كرومر : مصطفى الغلايينى وفريد وجدى ومصطفى المنفلوطى ورشيد رضا ومصطفى كامل وغيرهم .

وجملة ردودهم أن كرومر انما قصـد الى محاولة تشويه سمعة المسلمين والعرب والمصريين فى العالم الغربى انتقاما منهم . وان هدفه هو التشفى من السخط الذى واجهه وان حملته على الاسلام انما هم الرابطة التى تعد القوة الأولى فى مواجهة الاستعمار وان الاسلام لم يكن فى يوم من الأيام مناقضا للمدنية العصرية او حائلا دونها ، وهـو لا يناقضها ولكنه لا يقبلها كلها ويرفض زيفها وانه اذا كانت المسيحية وقفت مانعا أمام المسيحى وبين المدنية والحضارة فان الاسلام ليس مانعا .

وان الاسلام لم يعرف فى عصر من عصوره سلطة البابا على الأمم المسيحية عند ما كان يضع القوانين التى لها قدسية الأوامر المنزلة .

وأن ادعاء الغرب بأنه فصـــل حكومته عن الدين ليس الا أكذوبة ضخمة فان فرنسا ما تزال حاميـــة الكاثوليكية وملكة انجلترا حامية البروتستانت .

وقد اضطر كرومر أمام الحملة العنيفة الى التراجع فأعلن انه كان يعنى مجموعة القوانين الاسلامية التى تسمى « الفقه » وانه لم يهاجم الدين الاسلامى نفسه .

* * *

المراجـــع

الاسلام : رسالة هانوتو : ورد الشيخ عبده عليها
الاسلام والرد على منتقديه : محمد عبده
الاسلام روح المدنية : مصطفى الغلاييني (الرد على كرومر) .
شبهات النصارى وحجج الاسلام : محمد رشيد رضـــا .
الاسلام والنصرانية مـــع العلم والمدنية : محمد عبده .

* * *

حمـــلات التعصب

وليست هذه الحملات التى عرضناها الا نموذجا لعديد من الحملات المتصلة القائمة على الهوى ، وقد قام بها كتاب وقسس وقضاة جنـــدهم الاستعمار فى خدمته للانتقاص من الأمة العربية ومقدراتها ، واتهامها بمختلف الاتهامات .

قال القاضى « مارشال » ان ما بين المســامين والأقباط فى مصر كما بين المسلمين والهندوس وأثنى على مصطفى فهمى رئيس الوزراء الذى ابقـــاه كرومر ثلاثة عشر عاما رئيسا للحكومة وقال : ان مصــطفى فهمى بكل تأكيد ليس مصريا وقال ان دم سعد زغلول ربما كان مزيجا من الدم الأوربى . وقال ان المصرى يمقت كل دين غير الاسلام ولا يعطف الا على الطغاة الذين يعاملونه بحزم .

وقال مسيو لوى برتران فى كتابه « بازاء الاسلام» ان الأوربى النازل الى مصر لم يبق موضع التقـديس والمهابة ، وان المصريين يعطفون على الأمير عبد الكريم الخطابى ويجمعون له الأموال وعبد الكريم ومن معه ليسوا الا ثائرين على فرنسا . وان مساجد المســلمين تشعر أن أهل البلاد يعيشـون فى طمأنينة لا يخشـــون اغارة مغير ولا عدوان معتد ، بينما كنائس النصارى فى صورة القلاع تدل على أنها عرضة لغارة هؤلاء الهمج عليهم .

وقد رد عليه الدكتور هيكل فى السياسة الأسبوعية (١٩٢٦/٣/٢٠) مقال : ان مســيو برتران يريد أن يعلن أن قومه اكرم عنصرا وأشرف مقاما فى الانسانية من الشرقيين ومن المسلمين ، فليعلم أن الزمن الذى اتاح لأوربا أن تحكم العالم ردحا من الزمن قد اتاح مثل ذلك من قبل لأمم آسيا ولأمم افريقيا ، ومصر قد حكمت العالم عصورا عديدة وقد صبغت العالم بمدنيتها ولعل اهلها يومئذ كانوا يعتقدون ان الأجناس التى تقطن أوربا كلها همج وبرابرة ومتوحشون .

وهناك كتاب «فولتير» عن النبى محمد الذى رفعه الى البابا وكتب فى مقدمته يقول « فلتأذن قداستك فى ان أضع الكتاب ومؤلفه تحت قدميك . ولتستغفر قداستك لعبد خاضع من اشد الناس اعجابا بالفضيلة ، اذ تجرا فقدم الى رئيس الديانة الحقيقية ما كتبه ضد مؤسسى ديانة بربرية كاذبة . .

ومن هذه الحملات حملة الكردينال لا فيجرى على الرقيق (يوليو ١٨٨١) والتى ادعى فيها بأن سوء معاملة الرقيق أمر يبيحه الاسلام ومن مغالطاته قوله : أن الرق قد الغى منذ عشر سنين فى معظم البلاد الاسلامية بتقيدا للمعاهدات التى عقدت بينها وبين انجلترا .

وقد تصدى للرد عليه المؤرخ احمد شفيق ١٨٩٠ بمؤلف بالفرنسية عن الرق فى الاسلام قال فيه أن الدين الاسلامى لا يبيح فى أى حال من الأحوال معاملة احد من الناس معاملة الرق اذا كان أبواه مســلمين حربين ، ولا يكون الاسترقاق الا فى الحرب ، ومع ذلك فهو مقيد بشروط وروابط معلومة ، وأن الشريعة الاسلامية تأمر تابعيها بالتزام الرفق والرأفة مع المملوكين .

وقد تحدث اللورد لويد فى كتابه « مصر منذ عهد اللورد كرومر » الذى أصدره عام ١٩٢٩ عن البـــلاد العربية فقال أنها لا تزال كل قرية فيها حتى اليوم تمثل الحوادث والتقاليد والعادات التى ســمعنا بها فى أيام الطفولة . والنساء يطحن الحبوب بالرحى اليـــدوية والثيران تدرس الحصاد حــول الجرن ، ومن دواعى الأسف ان الذباب لا يزال يحوم على الصيدلية ويجعل ما نصنعه من العقاقير ذا رائحة كريهة .

وقال : انه لا يظن احدا فى رأسه عقل يصدق أن بريطانيا ستمنح الهند حكما ديمقراطيا بمعنى الكلمـــة أو استقلالا تاما ، وتساءل عن فائدة الاســـتقلال فى مصر وفلسطين والهند للجماهير .

وقال : لقد رفعنا الحماية عن مصر وصرحنـــا باستقلالها بموجب الصيحة التى كانت ذائعة يومئذ وناديناً فى الوقت نفسه بقداسة المصالح البريطانية .

وطعن القس « جـــوين وكدويدن » على مصر والاســـلام وقال أن العـــلاقات بين حكومة المبشرين والاسلام على ما يرام ، وقال ان تأسيس مركز قــوى للتبشير فى السودان يحول دون انتشار النفوذ الاسلامى فى الشمال .

كما هاجم الكاهن (لاكى) الاسلام فى صحف بريطانيا وهاجم نظام الزواج الاسلامى كما هاجم الأزهر والقرآن وقـــد رد عليه الكاتب المصرى المسيحى « قرياقص ميخائيل » فقال : ان ما نشره القس من معلومات خاطئة من أساسها وغير صحيحة . فهو اما ان حرف ما يتحدث عنه وأما أنه بالغ فى رواياته ، فان الدين الاســـلامى لا يسمح لأحد بأن يتزوج أكثر من أربع نسوة فكيف جعلهن لاكى ستا ، فضلا عن أن تعدد الزوجات ليس مألوفا الا فى جزء من المجتمع لا يقيم وزنا للخلق الكريم وفى وسعى أن أؤكد بأن يقولون صادقين أن تعدد الزوجات لا يسمح به الا فى أحوال المسلمين استثنائية .

وقال قرياقص ميخائيل : أن الاسلام دين عظيم متمدن سمح بتعدد الزوجات تحت شروط معينة ، وان منزلة المراة فى مصر تزداد قوة واحتراما ، وان الكاهن مخطىء فيما ذكره عن الأزهر الشريف مركز الثقـــافة الاسلامية فى العالم وليس صحيحا ان القران الكريم هو المادة الوحيدة التى يدرسونها فى هذه الجامعة بل يعكفون فى الأزهر على التضلع فى اللغة العربية والفقه ويتعلمون الحساب والتاريخ والطبيعة .

* * *

وقد لقيت هذه الحملات نقدا شديدا من الصحافة العربية وردودا مدعمة بالوثائق والأدلة من كتاب العالم العربى فى هــذه الفترة ، ولم تنقطع هــذه الحملات بل استمرت وتوالت ، حتى لقد ذكر الدكتور عمر فروخ فى كتابه « التبشير والاستعمار » ان هــذه الكتب بلغت عشرات الألوف ، ومما لا شك فيه أن معظم هذه الكتب كانت حملات حاقدة طائشة وأن البقية القايلة منها لم تقم على أساس مذهب البحث العلمى الذى ابتدعه الغـــرب وباهى به وانما غاب عليها هدف واضح محدد هـــو « التغريب » وخدمة الاستعمار ومحاولة الانتقاص من هذا الكيان العربى وتمزيقه وتحطيمه .

ولا يمنع هذا الحكم الذى يعم الكثرة الغالبة من استثناء قلة قليلة من الكتاب حاولت ان تنتصف للدرب وأن تذكر الحقيقة ولقد كان للفكر العربى الاسلامى دوره الواضح فى هذه المرحلة ، وعمله الايجابى الضخم ازاء هذه الحملات فقد واجهها فى حكمة ومرونة وقدرة على ضبط النفس وبعد عن أساليب الهجاء أو الحقد .

وقد بلغ تجنى كتاب الغرب حدا جعل من المؤمنين بالغرب وكتاباته يهاجم تخبط كتاب الغرب فى فهم بلاد لبنان هو فؤاد افرام البستانى (مجلة المشرق مجلد ٧ ص ٩٣١) حيث يقول : ان الصحفى ربما يأتى ليراسل احدى الصحف الغربية فيتصل ببعض الفتيات الراقصات فتريه ما يشاء عن بلاد الشرق وتخبره بما يجـــول فى مخيلتها من سيطرتها على بعض رجال الحكومة البارزين فيؤخذ الصحفى بكل هذا ويكتب ان حكومة البلد الفلانى تحكمها الراقصات ولذلك أصبحنا نقف موقف الريبة والشك ازاء كل كتاب جديد عن بلادنا » . .

* * *

ولم يقف امر الغربيين عن مهاجمة الأمة العربية بالكتب والصحف بل امتدت الى الاذاعات والسينمائيات . فطالما عرضت دور السينما فى مختلف عواصم أوربا أفلاما تمثل المصريين والعرب « فى هيئة مزرية قذرة متوحشة وكتبت تحت عبارات تقول ان « الاسلام هو السبب فى جذب هذه الأمم الى الوراء وأن تعاليمه التى قذفت بهم فى احضان الهمجية والتوحش وشعائره هى التى أمرتهم بالكسل والخمول وحالت بينهم وبين الأخـــذ بأسباب المدنية الحاضرة » وذلك كما صورته عبارة الأمير شكيب ارسلان (مارس ١٩٣٢) فيما صورمن المطاعن التى يوجهها الغربيون وقال « ان نظرة الى القرآن وتاريخ النبى كفيلة بأن تظهر عملا ان ناشرى هذه الآراء السخيفة عن الاسلام من المنغمسين فى بحار الجهالة بهذا الدين » وقال أن هذه ليست الحملة الأولى من نوعها فان كثيرا من مشاهير الكتاب والمفكرين امثال توربان وباسكال وجيترار وجانبيه ورنيان والدوق داركور وهانوتو وكازانوفا تناولوا الاسلام على هذا النحو وقد علقت جريدة الأهرام ١٩٣٢/١/٢٩ على مثل هذا العمل عن فيلم عرض فى لندن وصف بأنه يتضمن وقاحة غريبة وقالت نقلا عن الديلى تلغراف : ان اكبر عدو لمصر هى السينما الأوربية فان رجالها يبحثون فى مصر عن أخطر الأمور حتى يصوروا الأمة المصرية على انها أمة همجية متوحشة ليس لها من التقاليد ما يضعها فى صف الأمم الراقية . وقالت الاهرام ان أى أمة لا تخلو

من الطبقات الدنيا وان فى اشد بلاد العالم مدنية مناظر تفوق ما فى مصر من مناظر فى هذه الناحية » .

ولقـــد ظل كتاب الغرب يتحاملون على تاريخنا ويصورون الفتوحات العربية والاسلامية فى أوربا بأنها غزوات بربرية وحمـــلات ناهبة مخربة ولطالما هاجموا هـــذا الفضل وجحدوا العرب الذ ن حملوا اليها ضـــياء الحضارة وانكروا هذه الحقيقة التاريخية .

ويتصل بهذا ما قامت به الصهيونية بما لها من سيطرة على دوائر النشر والاعلان فى أوربا وآســـيا وأفريقيا من تزييف تاريخ العرب لمصلحة قيام وطن قومى فى فلسطين ومنع نشر حقـــائق الانصاف عن العرب والاسلام . وقد نشرت خلال هذه الفترة التى تؤرخها مؤلفات ومراجع ودوائر معارف بمختلف لغات العالمكتبها اليهود وعملائهم من المؤرخينوالباحثين اغفلت اثر العرب وفضلهم على التاريخ والحضارة مع اقحام أسماء اليهود بغير مناسبة .

* * *

النظرية اليونانيـــة
وإنكار فضـــل العرب على حضـــارة الغرب

من أهم الدعوات التى أثارها الغرب فى سبيل الغزو الثقافى والتغريب : النظرية اليونانية ، مستهدفا تحطيم مكانة الثقافة العربية . وغاية النظرية : انكار اثر العرب على الفلسفة اليونانية وتجاهل فضـــل مصر والشرق على حضارة اليونان ـ ثم يستطرد هذا الى محاولة فرض فضل للثقافة اليونانية على الثقافة العربية

فقد انكروا أن اعلام اليونان سافروا الى الشرق لارتشاف علومه ، وقالوا ان الفلسفة العربية ليست شيئا آخر الا الفلسفة العربية دونت بحروف عربية .

وقد اشار المستشرق جويدى فى محاضراته التى القاها فى مصر عام ١٩٢٨ فقال : ان سفر اعلام اليونان الى الشرق للاستفادة من علومه قول منتحل ، وان مصر وسائر بلاد الشرق لم يكن لها فضل على العلوم والآداب والثقافات التى تنسب الى اليونان .

وقد ذهب طه حسين فى بحثه الذى صدر به كتاب (نقد الشعر) لقدامة الى أن قواعد البلاغة العربية انما أسست على وضع أرسطو ونقله العرب عن اليونانية وشايعه كثيرون .

وقال طه حسين : ان الناس فى الشرق والغرب وفى جميع الأجيال مدينون لثقافة اليونان . وقال ان عقلية مصر عقلية يونانية ، وانه لم يكن للشرق فى تكـــوين الفلسفة اليونانية والعقل اليونانى والساسة اليونانية تاثيرا يذكر وانما كان تاثير الشرق فى اليونان تاثيرا عمليا ماديا ليس غير .

وقد جرت بشأن هذه النظرية مجادلات شتى وكانت احدى الدعوات التى قصد بها القضاء على مكانة الفكر العربى القديم او التقليل من شأنه والواقع الذى روته كتب التاريخ وابحاث العلماء المنصفين فيه اجماع على أن المعارف اليونانية منقولة من المعارف المصرية ، وان فلاسفة اليونان تلامذة فلاسفة مصر القدماء . واليونانيون يعترفون بأنهم تلاميذ المصريين ، وكانت زيارة مصر واجبة على كل يونانى يريد التفقه فى أسرار الوجود . (زكى مبارك : الرسالة ١٩٤٣/١١/١٥) .

ولقد بلغ من عنف دعوة التغريب أن فرض هذا القول الخاطىء على الكتب المقررة للتدريس فى المدارس فى مصر ، ليؤمن الطلاب بالادعاء الكاذب الذى يقول بأن العقل الشرقى قد انهزم أمام العقل اليونانى مرات .

والواقع أن أرسطو وزملائه أخذوا من الفلسفة المصرية القديمة وأنه سجل الفضل للعقلية الشرقية فى مقدمة كتابه (ما بعد الطبيعة) اما ما ذكر من أن العرب لم يزيدوا فى فلسفة اليونان عندما ترجموها فالرد عليه يظهر لكل منصف فيما أضاف العرب الى علوم اليونان ، وأول فضل العرب على فلسفة اليونان هى النزعـــة الدمقراطية التى انزلت الفلسفة من السماء الى الأرض ويسرت لكل انسان أن يفكر فيها وارأى مجمع على ان العرب اضافوا الى الفلســفة اليونانية كثـيرا ، وابرز ما اضافوه ما ابتكره (ابو النصر الفارابى) من وضع أصول علم الموسيقى ووضع التعاليم الصوتية . كما أن العرب سنوا سنة الجمع بين الحكمة والعلم ، ولم يكن ذلك معروفا لليونان ، والمعروف أن العرب عندما تمثلوا فلسفة اليونان أضافوا اليها عنصرا جديدا وهو الدين ، أما الرد على ما يقال من أن العرب نقلوا فلسفة اليونان وعلومهم ، ولم ينقلوا آدابهم ، فان آثار اليونان الأدبية التى لم يتقبلها العرب فقد كانت من الأدب المكشوف الذى يثير الشهوات وهى الدعامة التى قام عليها الأدب الأوربى الحديث .

وقد سجل ذلك الشيخ رشيد رضا (المنار ج ٥ م ٢٧ ص ٣٩٧) موقف العرب من الشعر اليونانى على اثر ما اثير من ان العرب نبذوه ولم يترجموه أن يقتبسوا

من معانيه ، قال : قد كنا نجهله قبل أن يترجم لنا سلمان البستانى (الالياذة) نظما ، وكنا نبيح لانفسنا الحكم عليه ، فلما اطلعنا على (الالياذة) وهى اعلى شعر الاغريق ومفخرتهم التاريخية حكما بأن اجدادنا لم ينبذوا شعرهم وراء ظهورهم ، الا لانهم وجدوه دون الشعر العربى فى حكمة وسائر معانيه وانه على ذلك محشو بالخرافات الوثنية التى طهر الله عقولهم ومخيلاتهم منها بالاسلام .

* * *

ومما يتصل بالنظرية اليونانية المحاولات الفكرية التى جرت فى انكار فضل العرب على الثقافة العربية والعمل على التشكيك فى مساهمة العرب فى الحضارة ورد كل فضل الى اليونان ثم الادعاء بأن العرب كانوا نقلة ومترجمين فى الوقت الذى سجل لهم التاريخ الفضل فى الاضافة والانماء للثقافة والعلوم التى ترجموها عن اليونانية .

وقد كانت اسبانيا العربية (الاندلس) بعيدة الأثر فى ثقافة أوربا وحضارتها : سواء فى الادب أو الموسيقى أو الفن أو العمارة .

وقد سجل أكثر من باحث ومؤرخ وفى مقدمتهم المستشرق الأسبانى الأب اسين بلاسيوس الذى قال : ان شعراء (التروبادور) قد تأثروا بالشعر الاندلسى وان قصص (سرفانيتس) انما تصور فى الحقيقة شهامة ونجدة الفارس العربى .

كما أشار غيره الى اثر (ابن رشد) هذا الاثر الذى بقى فى ايطاليا حتى القرن السادس عشر بعد أن نقلت مؤلفاته الى اللاتينية ، وقامت له مدرسة من الفلاسفة الأوربيين ، كما نقلت اثار الطب وفى مقدمتها كتاب أبو القاسم الزهراوى فى الجراحة الذى ظل يدرس فى جامعات أوربا واكسفورد بالذات حتى عام ١٧٧٨ ، كما خرجت جامعات طليطلة وقرطبة عددا من الباحثين الأوربيين الذين سجلوا أن قرطبة كان بها ٧٠ دارا للكتب و ٩٠٠ حمام بينما كانت أوربا تعيش فى ظلمات القرون الوسطى ، هذه القرون الوسطى الذى يطلقها الغرب على ازهر فترات الحضارة الاسلامية تعنتا منه وتعصبا فانما كانت القرون الوسطى ثقافة واجتماعا ، بربرية وظلاما على الغرب وحده .

* * *

اما فى الاندلس العربية والشرق العربى كله فقد كانت تمر بأزهر فترات اليقظة والنهضة وأنضر صفحات الحضارة والمدنية .

ولقد انهزمت هذه النظريات باقلام كتاب من الغرب نفسه ، ومن المستغربين الذين استفاق ضميرهم الى الحق كزكى مبارك وهيكل ومنصور فهمى .

* * *

— ٥ —

حمـــلات التغريب والغزو الثقـــافى

ليس شك ان حركة « تغريب الشرق » هى دعوة **كاملة لها نظمها وأهدافها ودعائمها ولهـــا قادتها الذين يقومون بالاشراف عليها .**

وهى حلقد من مخطط واسع فى تأكيد الاســـتعمار ودعمه ، وعمل استعمارى فكرى بعيد المدى قصد به الى القضاء على معالم الشخصية العربية وتحويل هذه الأمة الى الصورة الغربية ومسخ ملامحها .

ويدعو « التغريب » الى تغليب الأنظمة والمذاهب والثقافات الغربية والقضاء على القيم والتراث العربى والمذاهب والثقافات الاسلامية .

وقـــد اصطنع التغريب لتحقيق رسالته وسائل متعـــددة ، كان برزها اعمـــال الاستشراق والتبشير والامتيازات وفرض المعاهـــدات على الأقطار المحتلة والزامها باتخاذ انظمة الحكم الغربى وفرض الارساليات والمعاهد والجماعات باتجاهاتها التبشيرية .

واستهدف الاستعمار من وراء حملة « التغريب » تركيز قواعده التى اقامها بالاغتصاب والتسلط والغـــزو العسكرى ، وذلك محاولة تغيـــير مفاهيم الوطن العربى ومحاولة كسب عقليات الشعوب وتفكيرها وعواطفها الى صفة والفصل بينها وبين ماضيها وقيمها ، ومحـــاولة تحطيم هذه القيم والتشكيك فيها واثارة الشبهات حـــول الدين واللغة والتاريخ ومعالم الفكر ومفـــاهيم الآراء والمعتقدات جميعا .

وقد بدأ الغزو الثقافى قبل الغزو العسكرى ومعه ، وتسللت جيوشه فى أزياء العلماء والمبشرين الذين يدرسون عقليات الشعوب ونفسياتها ويقرأون تاريخها السياسى والفكرى ، وبدأت مؤسسات أمريكية وفرنسية وبريطانية تعمل فى هذا المجال باسم : المدارس والصحافة والثقافة والتربية والتعليم والسينما وفى ميادين أخرى كالتطبيب .

ولقد كان لتعدد هذه الالوان من الثقافات اثرها فى بلبلة الفكر العربى الاسلامى واضـــطرابه وتخريج انواع متعددة تدين كل طائفة منها بالولاء للجهة التى خرجتها .

وقد « كان هـــذا التعليم — كما صـــوره جبران خليل جبران — يأتى من الغرب بشكل الصدقة . وكنا ولم نزل نأتهم خبز الصدقة لأننا جياع متضورون . ولقد أحيانا ذلك الخبز ، ولما أحيانا اماتنا . احيانا لأنه أيقظ بعض مداركنا ونبه عقولنا قليلا . واماتنا لانه فرق كلمتنا واضعف وحدتنا وقطع روابطنا وابعد ما بين طوائفنا حتى أصبحت بلادنا مجموعة مستعمرات صغيرة مختلفـــة الأذواق متضاربة المشارب . كل مستعمرة منها تشد فى حبل احدى الامم الغربية وترفع لواءها وتترنم بمحاسنها وامجادها ، فالشاب الذى تناول لقمة من العلم فى مدرسة أمريكية قد تحول بالطبع الى معتمد امريكى . والشاب الذى تجرع رشفة من العلم يسوعية صار سفيرا فرنسيا والشاب الذى لبس قميصا من نسج مدرسة روســـية أصبح ممثلا لروسيا » .

أضف الى هذا الأثر للغزو الثقـــافى ما قاله لورد كرومر من « أن الشبان الذين يتلقون علومهم فى انجلترا وأوربا يفقـــدون صلتهم الثقافيـــة والروحية بوطنهم ولايستطيعون الانتماء فى نفس الوقت الى البلد الذى منحهم ثقافته فيتأرجحون فى الوسط ويتحولون الى مخلوقات شاذة ممزقة نفسيا » .

وكان هذا بالطبع هو الهدف من الارساليات المختلفة التى غزت بلادنا والبعثـــات المرسلة الى التعـــلم فى أوربا .

وهكذا كان « التغريب » عملا منظما دقيقا قوامه الحرب المنظمـــة للقيم التى عاشـــت عليهـــا الأمة والحيلولة دون وصول أضواء الثقافة والعلم الغربى الينا

والاكتفاء بنشر غمامة كثيفة من الغموض والتشكيك والآراء المتناقضة وذلك في محاولة ضخمة لاعطائنا الصـــورة المظهرية دون الصورة الحقيقية للثقافة فقد قاوم الاستعمار التعليم الشامل لوجه الثقافة ووقف في وجه انشـــاء الجامعة المصرية .

وحاول أن يجعل هدف التعليم قاصرا على اخراج موظفين وليس لتخريج علماء وباحثين .

كما قدم في ميدان الحضارة أسوأ ثمراتها في تجارة الرقيق الأبيض والكحول ومواد الزينة واللهـــو وهي الأجهزة التي تمكن الغرب بها من القضـــاء على مقومات شخصيتنا والاستيلاء على أموالنا .

ولقد ظهر واضحا أثر هذا « التغريب » في الأقطار التي تحررت من بعد وكسبت الاستقلال ، فقـــد ظلت خطط التغريب قائمـــة في كل ميادين الفكر والصـــحافة في خلق طبقة من المفكرين ورجال الدولة الذين انصهروا في بوتقة التغريب فآمنوا بهذا الاتجاه ودافعوا عنه ، وكان ذلك باسم التمدين وباسم العهد التي قطعته الاتفاقيات والمعاهدات بأن نسير سيرة الأوربيين في انظمة الحـــكم والتعليم والثقافة وقد اتخذ « الغزو الثقافي » في سبيل فرض « التغريب » وسائل متعددة ، فالكتب التي تترجم هي كتب معينة تعين على حماية الاستعمار ودعم مركزه وتصورنا بصورة القصور والتخلف . وتصـــــور أوربا والغرب بصور الأمم العظيمة ذات القوى الجبارة وقد كانت هذه الكتب دائما من النوع الهدام الذي يهدف الى الفتك بالدين والأخلاق وتحطيم كيان المجتمع وتحـــويل نظره عن الحرية واجهاد في سبيل الاستقلال والجـــلاء ومحاولة قتل الشخصية العربية ومقوماتها وتدمير تفكيرها وتسميم ينابيع الثقافة فيها وعن طريقه ارتفعت أصوات الدعوة الى اذابة الأمة الاسلامية في الحضارة اذابة كاملة باعتبار ذلك هو السبيل الوحيد الى النهضة والحرية . وجرت الادعاءات الغربية التي تنفي أن العرب أمـــة وتحاول أن تجعل من دول البحر الأبيض المتوسط جامعة ورابطة .

ولقد ركز الغزو الثقافي احماله كلها على مهاجمة «الاسلام» كدين ونظام مجتمع واتهامه بأنه سبب انحطاط الشعوب ورأى «جب» أن « حركة التغريب كانت بعيدة المدى بانزال الاسلام من عرشه في الحياة الاجتماعية» وقد أعلن الكثيرون من دعاة التغريب اننا لسنا شرقيين اطلاقا واننا أوربيون في الدم والمزاج والثقافة واللغة ، وادعى هؤلاء اننا سكان العالم العربي من بغداد شرقا الى طنجة غربا نشترك وأوربا في ميراث واحد هو ميراث الدولة الرومانية .

وكان من نتائج هذا كله أن أضيف الى الفكر العربي الاسلامي « ترقيعات » متعددة من الثقافات الفرنسـية والانجليزية والأمريكية ، وهي البطاقات التي فرضـــت نفسها في المنطقة .

* * *

النقل والاقتباس

كان لحركة « التغريب » اثر واضح في الفكر العربي الاسلامي المعاصر والحياة الاجتماعية في العالم العربي فقد كانت مصدر كل الانحرافات والاضطرابات التي اصابت الشخصية العربية الاسلامية وانحرفت بها فترة من الزمن عن طريقها الطبيعي ، وليس من شك أن الثقافة والحضارة الغربيتين كان لهما نتائج ايجابية ونتائج سلبية .

ولو قد استقبلت الأمة العربية هذه الحضارة وهذه الثقافة دون أن ترتبطا بحملات الاستعمار والغزو الثقافي والتغريب لأمكن لها أن تنتقل منها ما تراه صالحا لها ، كما فعلت من قبل في أبان النهضة الفكرية الأولى خـــلال العصر العباسي الأول .

غير أن الأمر لم يكن باختيارها فقد فرضت الحضارة الغربية فرضا وفرضت معها الثقافة الغربية بما فيها من تيارات ومذاهب ونظريات في الاجتماع والدين والسياسة وأساليب في الحكم والتشريع والتعليم والصحافة .

ولذلك فقد كانت القضية الأولى في الفكر العربي الاسلامي المعاصر هي :

النقل أم الاقتباس ؟

وكانت هناك تجربة كاملة من تجارب النقل هي تجربة تركيا ، فقد تحولت من الشرق الى الغرب ، ومن اللون الاسلامي الى العلمانية اللادينية في الثقافة والحكم والتعليم .

وقد قام تياران واضحان : أحدهما يدعو الى النقل الكامل والثاني يدعو الى الاقتباس ، **وكان تيار « النقل الكامل » الذي دعا اليه سلامة موسى ومحمود عزمي**

وطه حسين جريا وراء دعوة « جاك الب » التركى وهم جميعا من تلاميذ (دوركايم) العالم الاجتماعى الاسرائيلى الذى نقل آراء كارل ماركس من ميـــدان الاقتصاد والسياسة الى ميدان الأخلاق والاجتماع . والذى يؤمن بأن الفرد لا قيمة له وانما القيمــة للمجتمع . وان القيم كلها كالاخلاق والأديان والعقائد والآداب انما يخلقهـا المجتمع ولذلك فهى ليست ذات قيمة او أهمية حقيقية .

وقد كان طه حسين تابعا لأحمد غايف التركى فى القول : بأن المدنية الاوربية كل لا يتجزأ ، اما ان يؤخذ كله أو يترك كله وهو قول مردود وكان الطرف الثانى يقول : أن التجديد فى الأدب والثقافة كالتجديد فى العلم لا يمكن أن يقوم الا على اساس تعاون الماضى والحاضر، وأن الفكر يبنى فى حاضره على ما اسس فى ماضية .

ولم يكن لدى العالم الاسلامى مانعا من قبل الحضارة باعتبارها نتاجا بشريا اشترك فيه الجنس الانسانى كله وقد حمل العرب امانتها فترة تزيد على اربعة قرون .

أما الذين قالوا بالتوقف دون الاقتباس فلم يكونوا على فهم صحيح بحقيقة الاسلام وقدرته على تقبـــل التطور وحقيقة مفاهيم الفكر العربى ؛ ذاك أن القاعدة فى ذلك هى اننا لانتقبل كل شىء ، ولا الاسلامى يتحول لى صور ممسوخة من الأمم الأخرى ، وأن علينا أن نضع امام انفســنا أولا المحافظة على ملامحنا الحقيقية ومعـالم شخصيتنا الواضحة والايمان الصـادق بتراثنا وقوميتنا وتاريخنا ولغتنا ومشخصات فكرنا ثم نقتبس ما يزيد هذه الشخصـية قوة وحياة ويدفعنا الى الامام فى طـــريق الحضارة جنبا الى جنب غير متخلفين فى ركب الأمم .

وقد كان هذا المبدأ « البناء على الاساس » هو حصاد المعركة الفكرية الطويلة الممتدة خلال اكثر من مائة عام .

فالمزج بين القديم والجديد والمـــاضى والحاضر والشرق والغرب انما يقوم على وجود شخصيتنا أولا والمحافظة على ملامح فكرنا العربى الاسلامى الواضح حيث لا يجوز أن يطمس ملامحه الاقتباس .

وقد كنا طوال تاريخنـــا (١) متحركين غير جامدين ولا متوقفين (٢) اصلاء اكبر من الاحداث وغير امعات تجرى مع التيار (٣) لدينا من المرونة والحيوية ما يمكننا من التكيف مع الظروف والمقـاومة الدائمة لكل محـاولة للطغيان عليها أو سحقنا ومن القدرة ما يمكننا من مواجهة التحدى برد الفعل السريع الذى يرقى فوق الاحـداث ولا يجعلنا نضيع فى زحمتها .

وقد كان « الاقتباس » فى معناه مزيج من « المعالم الاساسية » التراث الجديد ومن هذا كله يتكون شيئا جديدا هو شخصيتنا الفكرية العربية الاسلامية المتجددة.

وكان هذا التيار « الوسط » أصدق التيارات التى حققت ما أراده دعاة الثقافة القديمـــة من بعث التراث وتجديده بأساليب جديدة وحقق خـــير ما اراده دعاة التغريب الذين يريدون منا التحول نهائيا الى الصــورة الغربية .

وكان مفهوم الاقتباس ، أن معنى نقل الحضارة ليس فى مستوى مفهوم نقل الثقافة . وأن نقل الحضارة ليس معناه نقل كل الحضارة فهناك فوارق واضحة بين الثقافة والحضارة .

* * *

غير أن « التغريب » لم يكن يهدف الا الى النقــل الكامل للقضــــاء على شخصيتنا وكياننا ، ولذلك كان يضغط علينـــا ليحولنا من الاقتباس الى النقل عن طريق دعاته وعملائه .

وقد حدث انحراف فعلا ولكن اثاره لم تمتد طويلا ، فان بعض دعاة التغريب انفسهم قد تحولوا عن دعواهم تحول منصور فهمى والدكتور هيكل ومحمود عزمى .

وهكذا سار تيـــار النقل وتيار الاقتباس جنبا الى جنب ، كان الاقتباس يعنى الاعتدال وكان النقل يعنى الاندفاع وقد كان لمادية الفكر الغربى وتحلل الجوانب المنقولة من الحضـــارة الغربية أثرها فى موجة الانحراف التى أصابت الأمة الاسلامية .

ذلك أن أول آثار الثقافة الغربية والحضارة الغربية كانت القضاء على مقومات حياتنا الفكرية وهى مقومات روحية مقتبسة من الدين والخلق فظهرت ملامح الذاتية الفردية واسرا فالطبقة الوسطى فى تقليد الطبقة العليا المترفة التى صنعها الاستعمار له ، وتفشى الوصولية والزلفى والتبذل واستشراء روح الخنوثة والميوعة ،

حيث سرت روحها الى الصحافة والاغانى والكتـــابة والمسرح .

وبلغ الاهتمام غايته بالالفاظ ، واستولى روح من اليأس ، صاحبه روح من الاستهانة والسخرية بامجادنا وتراثنا واعلامنا وتاريخنـــا ولغتنا وديننا ، وبدا الوجود العربى تحت ضغط صراع الثقافات المتعددة من امريكية وفرنسية وبريطانية ، وثنائية التعليم الغربى والقديم ، مزيجا غريبا مضطربا من القديم والجديد ، دون أن يتبلور ذلك فى حضارة جديدة او ثقافة جديدة، وحرص الاستعمار على ان تظل هذه الجماعات المختلفة والآراء المختلفة ، والدعوات المختلفة ما بين اســـلامية وعربية وبابلية واشرية وبربرية قائمة حتى لا يتم « الامتزاج والتباور » بين اجـزاء البلاد العربية التى انفصلت فعــلا بحواجز وحدود وقامت فيها حكومات وعروش ونظم مختلفة مابين ملكية وجمهورية وامارات وما بين حمـــاية ووصاية وانتداب واستقلال واحتلال .

وبذلك امكن للتغريب ان يسيطر وان يحول الحياة الاجتماعية فى الأمة العربية تحت ضغط « النزعة المادية » الى الاندفاع وراء اللذات والمتاع المـادى مما ادى الى افلاس عدد كبير من التجار وسقوط عدد كبير من اعيان البلاد وهو ما اطلق عليه فريد وجدى « المبالغة فى المتاع بالحياة المادية » مما أدى الى استيلاء الاجانب اصحاب البنوك والأندية على هذه الثروات تحت تأثير التهالك على الشهوات على نحو خطير لم يعرف من قبل .

وقد كان حرص الغرب على نقل هذا الجانب الآثم من حضارته الى بلادنا خطير الأثر فى عمليـــة التغريب والقضاء على كياننا ، وكان اخطر ما فيه من اثر هــو القضاء على الكيان الاجتماعى والاقتصادى والنفسى لنا، مما يجعلنا عاجزين عن الجهاد والنضال فى سبيل مقاومة الاستعمار ، ومما يؤدى الى سحق قوانا وهدم معـــالم روحنا المعنوية وتطرق الفساد الى النفوس والوصول الى درجة التحلل التى تقضى قضاءا نهائيا على كياننا .

ولذلك كان كتاب الغرب يحرصون على تســجيل هذا المعنى فى دراساتهم ومشاهداتهم : يقـــول روث فرانسيس فى كتابه الشرق الناهض « لقـــد اصبحت البضائع التى تغمر الأسواق الشرقية هى الجوارب الحريرية والأثاث والمفروشات وثياب السهرة المكشوفة والأحذية العالية الكعوب . والسـيارات والمشروبات الكحولية والمياه المشبعة بالصودا والكتب الافرنجية .

وقد حرص التغريب ان يربط بين التجــــديد وبين الاباحة وان يجعل التجديد هدما دون بناء وان يكـــون التجديد فى اعم قممائيه هو ترويج البضـــائع الاجنبية وازدراء المصنوعات الوطنية وهدمها وجعل كل قــديم مزدرى .

وكان اضغط التغريب اثره فى ان العربى كان يعرف عن شكسبير وبرناردشو وكبلنج اكثر مما يعــرف عن المتنبى والجاحظ وابن الرومى .

وكانت غزوات المفكرين الغربيين لبلادنا انما تهدف البحث عن صور مسمومة يراد بها الاساءة ، والقـــاء محاضرات ترمى فيها بالاتهامات حتى ان احـدهم كان لا يتورع عن أن يحاضرنا فى الجمعية الجغرافية عن عقليتنا باسم (عقلية الشعوب المنحطة) أمثال الدكتور ليفى برول ويفسر هذه الشعوب بانها شعبنا .

والجمعيــات الثقافية التى انشئت فى بلادنا كان هدفها ربطنا بالغرب ، من هذه جمعيات التاريخ المصرى ونادى القلم وجماعة اكسفورد والمجمع الجغرافى والاتحاد المصرى الانجليزى الذى كان يتولى رئاســته اللور ملنر وبرنامجها كما ذكرت الصحف هو « افهام الراى العام الانجليزى الخدمات التى ادتها الحكومة المصرية الحكومة البريطانية والحلفاء فى خلال الحرب » كما كان هدف هذه الجمعيات خلق صداقات بين المصريين والفرنســيين من ناحية وبينهم وبين الانجليز من ناحية أخرى تولى رئاستها اجانب ثم مصريين متغربين .

حتى الجمعية المصرية التى انشئت ١٨٣٦ باللغة الانجليزية كان هدفها كما ذكـــر توفيق اسـكاروس (الأهرام ١٩٢٥/١/١٣) جمع معلومات خاصـــة بمصر وما لها من العلاقات بينها وبين بلدان افريقيا وآسيا وان اعضائها كانوا من الأجانب واغلبهم الانجليز ، وقـــد استعملت طبعا هذه المعلومات والابحاث لخدمة الاستعمار البريطانى ومهدت لوضع يده على بلادنا وقد عزا الدكتور محمد حسنى ولاية (الاهرام ١٩٣٤/١/٣) جمود روح البحث العلمى فى مصر الى وقوعها تحت نير الحـــكم الاجنبى عصورا طويلة وما يتبع ذلك من التضييق على ميادين الاقتصاد والعلم والزراعة .

ولا شك أن حركة التغريب كانت تستهدف ان تظل معرفتنا بتاريخنا ناقصة ، مما كان له أبعد الأثر فى ضعف الوطنية والقومية . ولذلك دعا عباس مصطفى عمـــار

(الاهرام ١٩٣٤/٤/١) الذين يعالجون ضعف الوطنية عندنا ويثيرون الشعور القومى أن يتأكدوا أن الاهتمام بشئوننا السياسية وحدها لا يكفى ، وأن تقوية العقيدة الوطنية انما يكون بقدر فهمنا لهذا الوطن الذى نعيش فيه من حيث جغرافيته وتاريخيه ومدنيته وحضارته كما أدى التغريب الى فقدان « الطابع » وانعدام التجانس الفكرى وأن الاستعمار الفكرى حرص على أن لا يصهر فى بوتقة واحدة حتى لا يحدث « التجمع » الذى هو اخطر عوامل مقاومة الاستعمار ولذلك كان يعول كثيرا على اثارة عناصر التفكك والتمزيق والتجزئة مما يحول دون خلق طابع واضح .

وقد كان أبرز عوامل فقد الطابع كما اوردها عباس عمار (الاهرام ١٩٢٥/٩/٣) هى : احتقار تراث الاجداد والنظر الى الدين نظرة ليس فيها احترام ولا تقديس والامان بمادية الغرب والسخرية بروحانية الشرق واعتبار كل ما فى الغرب جميل حتى اباحيته ونواحى الضعف فيه وكل ما فى الشرق حقير أن استحق أن ينظر اليه بعين الاحترام يوما ما فزمنه قد انقضى . وقد آن الأوان للتخلص من تراثه ووئده حيا كما اعتبر ظاهره الزواج من الغرب لها ابعد الاثر فى هذا التفكك لما يؤدى الى تنشئة الاولاد النشأة الغربية التى لا صلة لها بالشرق والتعلم باللغة الاجنبية وتجاهل اللغة العربية .

ونعى عبد العزيز الاسلامبولى (المعرفة ـ يولية ١٩٣٣) على مفكرينا التنكر لأبنائنا واجدادنا واكار ادبنا ولغتنا والزراية بتاريخنا وثقافتنا وقطع الصلة بين ماضينا وحاضرنا » وطالب بالتعرف الى التراث العربى والبحث عن اثاره ومخلفاته من اسلامى وعربى وقبطى وفرعونى فى اديانه وفلسفاته وروحانياته ومادياته ، وانه لا بد لتجديد من شرط الدين والقومية الصحيحة .

وليس ادل على اضطرابنا فى هذه المرحلة اننا احتفلنا بذكرى رينان وهو الداعية الاستعمارى الذى جهر باتهامنا بالقصور وصاحب نظرية الآرية والسامية .

* * *

الحملة على العقائد والقيم

انصبت حملة « التغريب » على ثلاث قيم هامة فى الفكر العربى الاسلامى هى : الدين واللغة والتاريخ فقد كان مفهوما أن القضاء على العوامل الثلاث من شأنه أن يحقق لمعركة التغريب نصرا بعيد المدى .

***

الحملة على الاسلام

ولقد كان « الدين » عنصرا هاما فى الفكر العربى الاسلامى ولا يزال دعامة كبرى من دعائمه لا سبيل الى تجاهل مدى خطرها وأثرها . كانت وستظل عاملا فعالا فى الثقافة والحضارة الاسلاميتين والنهضة التى حققتها . وعندما أصيب الدين بالضعف ودخلت عليه القشور والزيوف والبدع وانتفت عنه عوامل القوة ممثلة فى التجديد والاجتهاد كان مصدر الاضطراب والجمود الذى أصاب الوطن العربى والعالم الاسلامى ، ولذلك فان ظهور أول حركة لتجديد الاسلام ورفع الزيوف عنه ممثلة فى دعوة « محمد بن عبد الوهاب » كان علامة على يقظة **الفكر العربى الاسلامى** كان الدين عاملا هاما فى حياة الأمة العربية وكان الاسلام وهو دين الاغلبية قد اسبغ حضارة عربية اسلامية اشتركت فيها جميع العناصر وكان لها اثرها الواضح فى قوة الأمة الاسلامية وهيبتها ، **ولما كانت عناصر القوة والحرية والكرامة والوحدة والتجمع والذود عن الكيان والاجهاد فى سبيل الله من أبرز عناصر الاسلام وهى اذا استيقظت فى الأمة كانت عاملا بعيد المدى فى مقاومة الاستعمار والقضاء عليه لذلك عول الاستعمار فى غزوه الفكرى وحملته التغريبية فى حشد اكثر قواه لزلزلة قواعد الاسلام والقضاء عليه وعزله عن المجتمع وتحطيم قواعده وابعاده عن ميدان السياسة والاجتماع والفكر وسلبه سلطانه وفرض قوانين اجنبية وتشريعات غربية بدلا منه** حتى تزول اثاره القوية فى مقاومة الاستعمار .

من أجل هذا وجه الاستعمار للاسلام حملات عنيفة قاسية فوصف الاسلام بانه دين مناف للمدنية وانه ليس صالحا الا للزمن الذى ظهر فيه ومحيط الصحراء الذى عاش فيه .

وحاول كرومر أن يقنع المصريين والعرب بانهم لا يمكن أن يرقوا فى سلم الحضارة والتمدن الا بعد ان يتركوا دينهم وينبذوا القرآن وأوامره ظهريا « لانه يأمرهم بالجمود والتعصب ويبث فيهم روح البغض » .

وردد هانوتو الفرنسى أن تقدم المسلمين مستحيل لأن الاسلام يحول دون ذلك ، وأن كل حكومة انفصلت عن الشرق وسارت على منهج أوربا نجحت وأن « موات » الشرقى وضعفه وتخاذله وتواكله « وحياة » الغربى وقوته وانتصاره مصدرها اتصال الأول بالدين وانفصال الثانى عنه ، وأن الرابطة الوطنية أقوى من الرابطة الدينية .

وردد عشرات غيرهم مثل هذه الاتهامات حول النبى والقرآن والاسلام وزوجات النبى والطلاق وتعدد الزوجات ومجافاة الاسلام للمدنية ، وتعصب الاسلام ومعاملة الأقليات والأجانب .

وجرت فى هذا المجال محاولات نقد للأنظمة والشرائع القديمة واتهامها بانها لم تعد صالحة نظرا لاختلاف الزمن وقيل أن اغلب هذه الأنظمة والآراء بدائية وذلك بقصد القضاء على قداسة الشريعة ، وجرت محاولات للمقاومة بين الأديان السماوية وايجاد شبه بينها ووضع الكتب السماوية موضع النقد وايجاد شبه وشكوك واحياء الأساطير والاسرائيليات والاحتفال بها وتحويلها الى أدب وفن وتعمد الفصل بين الدين والقومية ، والدين والتاريخ ، والدين والأدب واذاعة مذاهب متطرفة فى البحث تدعو الى عدم الاحتفال بتمجيد الأمة والغض من تاريخها أو الاكتراث بنصر الاسلام أو هزيمته ودون التقيد بما ترضاه القومية أو تنفر منه العاطفة الدينية . ويتصل بهذا الحملات التى اثيرت على الغيب وتشكيك الناس فيما يخرج من دائرة المحسوس .

وكل هذا المخطط الذى جرى على السنة كتاب الغرب وغيرهم من كتابنا السائرين فى مجرى التغريب يهدف الى هدم الدين والقضاء عليه والقضاء على الروح

المعنوية التى تحمل راية جهاد المحتلين والمغيرين وتفكيك الرابطة بين المسلمين والقضاء عليها نهائيا وهما الحائلان الهامان أمام اضطرار الاستعمار ونموه وتدعيم مقامه .

وحول هذه النقط ردد الكتاب الغربيون اتهامات متعددة فندها كتابنا فى ردود قوية : كان ابلغها ما كتبه محمد عبده وفريد وجدى ومصطفى الغلاييني ومحب الدين الخطيب وشكيب وارسلان واحمد زكى باشا ورشيد رضا وعبد القادر المغربى .

وكان مجمل الرد على ذلك بأن الشريعة الاسلامية كليات وحدود عامة قابلة للتطور مرنة ، تستطيع مسايرة الحضارة وهى بذلك شريعة لا تصطدم بالواقع وتجرى مع كل زمان وكل أمة ، وقد قام الاسلام على النظر العقلى والاقناع بالحجة : واقر قاعدة تلاقى العقل مع الشرع والتجاوب مع الزمن وتطور البيئة واختلافها ودعامته فى الحكم : الشورى ، والحاكم فيه ليس بالمعصوم ولا هو مهبط الوحى وهو مطاع مادام على الحق ورضى المسلمين عنه ، وليس فى الاسلام سلطان الهى . كما ليس فى الاسلام وساطة ولا اكليروس وفيه — الى ذلك — تسامح مع العلم وتقبل له ، وتسامح مع الطوائف الأخرى وحماية لحقوقها وحرية اعتقادها وحماية مصالح الدنيا واباحة الزينة والطيبات والمزج بين الروحية والمادية .

وأن الجمود الذى استولى على المسلمين ليس سببه الاسلام ، فجوهر الاسلام الذى دفع الأمة بقوة عجيبة وانشأ هذه الحضارة الضخمة لم يتغير وجاء الخطر حين اخذ المسلمون بالتقليد وترويج خرافات وأوهام وثنية نسبت الى الدين الذى لم يكن فى حقيقته الا محررا للعقول والافهام من معانى الوثنية أو من معانى الاستبداد ، أما المرأة فقد كرمها الاسلام ومنحها من الحقوق فى الحياة والمال والقضاء ما سبق الغرب بقرون طويلة :

* * *

الحملة على نظم المجتمع

واتصلت الحملة على الاسلام بالحملة على نظم المجتمع وهدم الأخلاق واللغة والتاريخ وقد أذيع الالحاد ونشرت الاباحة تحت اسم حرية الفكر بالدعوة الى التحرر من قيود البيئة والوراثة وكل ما فيها من عقائد وعادات ونظم وقوانين مع التشكيك فى كل العقائد والآراء الموروثة والمتداولة .

وجرت محاولات اخرى لنقل ما حدث فى تركيا من القضاء على اللغة العربية والكتابة بالحروف اللاتينية .

واتصل هذا بالعمل على زلزلة النظام الاجتماعى وتحطيم الأسرة . وانتشار المخدرات وظهور الكوكاكين وحماية المحتل له وتجارة الرقيق الأبيض ودور البغاء . وقد ظلت هذه التجارات محتكرة للانجليز واعوانهم ، ومضت فرنسا وبريطانيا تصدر المورفين والحشيش وتحمى اعمال تسميم الأمة بحاجز ضخم أطلق عليه اسم المحاكم المختلطة والمحاكم القنصلية والامتيازات الأجنبية تحمى المهربين واللصوص والسفاكين ومصاصى دماء الشعوب وفى الصحافة والسينما جرت محاولات متصلة لعرض الصور المنحرفة والمائعة والرخوة وتغاليب الحديث عن الممثلات والمغنيات والراقصات واحاديث الأزياء والسهرات وملكات الجمال واستعراضات المانيكان والحديث عن مذاهب العرى والأدب الماجن والكتابة المكشوفة والاختلاط ووصف الشهوات واثارة الأهواء وترجمة القصص الاباحية وقد طفا هذا على كل شىء ، وانزوى الحديث عن المثل العليا والقيم والأفكار الحية والتسامى فاذا جرى حديث حولها فهو عن المذاهب الغربية فى الفلسفة والأدب والاجتماع والترجمة لعظماء الغرب وتمجيد دعاة الاستعمار والالحاد والاثارة .

وحجب التراث العربى والاسلامى وسير اعلام العرب والاسلام وجرى اضعاف النعرة الوطنية والدينية باثارة الشكوك والاتهامات أو بالغض من شأن العاطفيات والحماسة باعتبارها عيب وخطأ أمام المذهب العلمى الحديث .

وقد كان لتعمق تيار التغريب اثره الحياة الفكرية العربية فقد اضطربت الطوائف المختلفة واهتزت امامها القيم . وانطوى معنى الزهادة والتجرد وغلبت روح اليفمية على حد قول داود بركات (لا تجد اليوم الشيخ الأزهرى العالم الذى يكتفى بالجراية مأكلا ولا الزعبوط ملبسا .. ولا تجد الراهب فى عزلته فى صومعته لايشغله شاغل غير تسبيح ربه) .

ومرجع هذا الى غلبة النزعة المادية وتسلطها واختفاء روح التجرد والاريحية .

واتصل بهذا ما جرى من السخرية بالجادين والعالمين واحتقار المتدينين والاكتفاء بقشور الحضارة وغلبة روح التفرنج ، واعلن كرومر أن المسلم غير

المتخلق بأخلاق أوربية لا يصلح لحكم مصر وان المستقبل الوزارى سيكون للمصريين المتربيين ترتية أوربية .

وانتهى هذا الى ضعف الفكر والعلم والدين عن التجرد واستشرى التطاحن والتسابق فى ميادين المادية وتفشت « المنفعة » والوصولية فى جسم الأمة .

حتى الشبان العرب الذين سافروا الى أوربا عادوا ليضعوا ثقافاتهم وأقلامهم فى خدمة الطبقات الحاكمة والأحزا بوالاقطاعيين ممن أسماهم كرومر أصحاب المصالح الحقيقية فقد كانوا يتطلعون الى بيئة السادة من الأغنياء والمترفين والوصول الى المناصب العليا وقد علمتهم الثقافة الأوربية تغليب المنفعة على القيم ولم تكن الدعوة الى الحرية عندهم مذهبا فكريا ولا عقيدة اجتماعية بل قشورا لامعة لا تخفى وراءها الا تدمير القيم الحقيقية لذلك لم يستطيعوا قيادة الأمة وانما اكتفوا بأن عاشوا على هامش الحكام المستبدين وفى ظلهم .

* * *

— ٢ —

حمـــلات التجـزئة

كانت حملات تجزئة الكيان من اقوى حملات الغزو الفكرى والثقـافى والسياسى التى شنها الاستعمار على الوطن العربي والفكر العربى الاسلامى خلال هذه الفترة كجزء مكمل احملات التغريب والتبعية الثقافية . كان الهـدف هو تقطيع أوصال الأمة الى دول لها حدود ونظم وقوانين وعملات ومناهج تعليمية مختلفة وصحف ، مع ايقـاد نيران الصراع بـ ين هذه الأجزاء وبين ملوكهـا وامرائها وحكامها ، ثم « تجزئة التجزئة » وذلك بتقسـيم القطر الواحد الى أحزاب وعنصريات واثارة عصبياتها القديمة وخلافاتها الدينية والجنسية والفكرية وخلق قوة شعوبية يؤيدها الاسـتعمار تعمل على مهاجمـة القيم والتراث والآراء والعقائد المتعارف عليها وتحطيمها والنيل منهـا وذلك توسيعا لشقة الصراع وعملا على دعم سياسـة التمزيق وتعميق جذور التجزئة .

(الشـعوبية)

وقد تركزت فى الشعوبية كل دعوات « التمزيق » و « والتجزئة » واثارة القوميات الضيقة ، ولمـا كانت «الأمة الوجود العربى» قبل النفوذ الغربى والاحتلال والغزو الثقافى موحدا : ثقافة وارضا ، فقد حرص الاسـتعمار أن يثبت اقدامه عن طريق تمزيق هذه الوحـدة فى دول وجزئيات وامارا ت ، واتخذ دعوة « الشعوبية » ركيزة لتثبيت هذه التجزئة ، والشعوبيون هم خصوم وحـدة الأمة العرب وهم دعاة كل ما من شأنه ان يحـول دون عودتها الى الوحـدة مرة أخرى وذلك بخلق قوميـات ضيقة ، واتخاذ سلاح الغزو الثقافى وسيلة الى تفتيت وحـدة العرب ، كالفينيقية والفرعـونية والبربرية وخلق دعوات جديدة كدعوة البحر الأبيض المتوسـط والكيـان المصرى والكيان السـورى والكيان اللبنانى والكيان السودانى .

وقد اتخذ الشعوبيون عديدا من الصور على هيئة كتاب واحزاب وهيئـات وصحف وحملوا لواء هـذه الدعوات بقصـد التفريق بين العرب والبربر فى المغرب والسوريين واللبنانيين فى المشرق والموارنة والدروز فى لبنان والمسلمين والمسيحيين فى مصر والسنة والشـيعة فى سوريا والعراق والعرب والأكراد فى العراق .

وحملت هذه الدعوات لواء التبشـير عن طريق البحث العلمى القائم على المغالطات واتخـاذ الصحافة والكتابة ودور النشر وبعض الاذاعات وسلطان الحاكمين وسيلة لفرض هذه الآراء والدفاع عن هـذه النظريات المضـللة .

وقد كان حصاد هذه النظريات الشعوبية ، ماأذيع من ان اللبنانيين ليسوا عربا وأن اصلهم فرنسى والدعوة بأن سوريا أمة تامة ، هذه الدعوة التى حمـل لواءها انطون سعادة ، وان العلويين بقية من الصليبيين وان الدين العلوى جزء من الديانة المسيحية . وقـد حرص الاستعمار الفرنسى على نشر هـذه الدعوات وايدها ، وكان من ثمارها « سليمان المرشد » أحد زعماء العلويين الذى امدته فرنسا بالمال عندما ادعى الألوهية (١٩٤٦) كما فتحت فرنسا باب الهجرة للأرمن الى سوريا وفتحت بريطانيا باب الهجرة للاشوريين من العراق الى الجزيرة فى سوريا لخلق شعوبية جديدة ، وفى العراق استغلت الشعوبية الخلاف القديم بين السنة والشيعة ، كما عمد الاستعمار الى خلق صراع بين الأكراد والعرب فى العراق واجج ثوراتهم وثورات السريان أعوام ١٩٣٠ و ١٩٣١ و ١٩٣٢ وكانت الشعوبية فى فلسـطين اشد خطرا فان تصريح بلفور قد اباح قيام شعوبية عارمة تهـدف الى خلق حاجز أجنبى بين الأجزاء العربية فى آسيا وافريقيا وفى مراكش حاولت فرنسا خلق أمة من البربر لا صلة لها بالعرب حتى فى الدين وذلك بارجاع البربر الى التقـاليد القديمة ، وايفـاد الارساليات المسيحية الى المنـاطق البربرية ومساعدتها فى نشر النصرانية ومنع اختـلاط العرب بالبربر وجعل الانتقال بينهما يتم بواسطة جواز سـفر . ويعد الحزب القومى السـورى اكبر منظمة شعوبية قامت فى الوطن العربى .



دعــوات التجـــزئة

× تجزئة المغرب : البربر والعرب .

× تجزئة لبنـــــان : الدروز والموارنة / القــوميون السوريون / الكتائب .

× تجزئة مصر : المسلمون والمسيحيون .

× التجزئة بالقومية الضيقة : المصرية .

× التجزئة باحياء الماضى القديم (١) الفينيقية .
(٢) الفرعونية .

× دعوات التبعية : ثقافة البحر المتوسط .

× دعوات التموية : توحيد الاسلام والمسيحية .

تجزئة المغرب : البربر والعرب

اتجهت حملة التجزئة التى قامت بها فرنسا لشمال افريقيا الى (١) التجنيس (٢) الفرنسة (٣) الادماج (٤) الفصل بين البربر والعرب .

وكانت حملة التجزئة الأولى هى « التجنيس » وتحويل اهل المغرب (تونس والجزائر ومراكش) الى فرنسيين وقد فتح باب التجنيس بالجنسية الفرنسية اسوه بما فعلوه فى مراكش واستصدروا فتوى من رجال الدين والعملاء بأن تجنيس المسلمين لا يتعارض مع الدين ثم اتجهوا الى « الفرنسية » عن طريق «تمسيح» الشعب العربى ولما باءت هذه المحاولات بالفشل اتجهوا الى فكرة تمزيق عنصرى الأمة العربية المغربية : البربر والعرب وذلك بالفصل بين البربر وبين لغة العرب وقضائهم وثقافتهم فى اتجاه الى اقامة ثقافة منفصلة للبربر تستمد من تراثهم القديم قبل ارتباطهم بالعرب . قد عمدوا فى هذا الى البحث عن الروحانية القديمة التى عرفها البربر فى اتصالهم بروما واذاعوا فيهم الدعوة الى تحريرهم من سيطرة العرب الروحية والزمنية .

وقد قامت الثقافة الفرنسية الاستعمارية التى تحمل لواء التغريب الى توجيه الاستعمار نحو هذا العمل حين اشار الباحثان « جود فروى » و « مونبين » فى رسالة لهما عن التعليم الى خطورة ترك كتلة ملتحمة من المغاربة تتكون ، وتكون لغتها واحدة وانظمتها واحدة . وقالا : لابد ان تستعمل لفائدتنا العبارة القديمة « فرق تسد » وان وجود العنصر البربرى هو آلة مفيدة لموازنة العنصر العربى ويمكننا ان نستعمله ضد الحكومة المراكشية نفسها . وانه يجب ان تقوم اللغة الفرنسية —لا البربرية — مقام اللغة العربية كلغة مشتركة ولغة للمدينة » .

ورسمت هذه الدعوة ان تقوم برامج التعليم فى المدارس البربرية على اللغة الفرنسية وتحذف منها اللغة العربية والديانة الاسلامية وان تكتب اللهجات البربرية بحروف لاتينية . وان يعلم البربر كل شىء ماعدا الاسلام » وقد بدأت هذه السياسة تظهر (سبتمبر عام ١٩١٤) بزعامة « المرشال ليوتى » مقنن الغزو الثقافى فى المغرب ، وصنو الجنرال مود فى سورية ولبنان وكرومر فى مصر .

وقد حققت فرنسا الخطوات التنظيمية لذلك حين اصدرت الظهير البربرى الأول ١٩١٩ والثانى ١٩٣١ ومجملهما أن القبائل ذات التقاليد البربرية يجرى عليها الحكم والادارة بموجب شرعها الخاص وعاداتها اما ظهير (١٦ مايو ١٩٣١) فقد قضى باغلاق محاكم الشرع الاسلامى بين البربر على أن ترجع قضاياهم الى هيئة تؤلف تسمى الجماعة تربط مباشرة بالسلطة الفرنسية وتنصيب قضاة فرنسيين من البربر واعلنت انها انما تفعل ذلك بدعوى احترام التقاليد البربرية .

وافسح الفرنسيون المجال للبعثات التبشيرية بين البربر لتنصيرهم ، ووجهوا حملة اعلامية دعائية الى البربر على اساس انهم شعب مستقل عن « الغزاة العرب » ينحدر من شعوب اوربية ، وانهم اوروبيون اصلا ، ولذلك يجب ان يرتبطوا مع فرنسا وان يتجهوا الى الغرب . وعمد الفرنسيون من ناحية اخرى الى احياء العرف والعادات والتقاليد القديمة . واعترفوا بها مصدرا للتشريع المدنى . واقاموا لهم عملاء واعوانا من شيوخ القبائل الذين اصبحوا حلفائهم ويعد وجلاوى باشا مراكش الذى حاصر قصر السلطان محمد الخامس نموذجا لهؤلاء الشيوخ .

وهكذا تركزت سياسة التجزئة فى المغرب فى (١) القضاء على مقومات الوحدة بين العرب والبربر (٢) غزو البربر بتمزيق وحدتهم مع العرب فى اللغة والقضاء والثقافة (٣) دفع عدد ضخم من المستوطنين الفرنسيين والأوربيين الى الهجرة الى المغرب العربى للقضاء على الأصل العربى وتقليل وزنه ، وبذلك تقوم ثلاث قوميات

أقلهـــا القومية العربية مع اتحـــاد البربر مع قومية المستوطنين كما اتخذت حركة « التجزئة » وسيلة بالغة الخطورة حين عزلت المغرب العربى عن المشرق العربى وعمدت الى اقفال أبوابه ثقافيا واقتصاديا عن باقى أجزاء الأمة العربية فى آسيا .

كما حالت بين الأجـزاء الثلاثة : تونس والجزائر ومراكش بعضها عن الآخر ، واقامت فى كل اقليم سياسة وثقـافة وخطط استعمار تختلف عما اتخذته فى القطـر الآخر ، ولم يســتطيع المثقفون فى الأقطار الثـلاثة من الالتقاء الا فى القاهرة لارتياد الأزهر أو فى باريس .

* * *

(حركة المقـاومة ورد الفعل)

وقد قاوم المغرب بأقطاره الثلاث هـذه الدعوات وحطمها فى جهاد طويل ممتد وكان عبد العزيز الثعالبى (تونس) هو رائد دعوة الوحـدة العربية والربط بين المغرب والعـالم العربى وقد قام بحملات متعـددة فى القاهرة ودمشق وبغداد ودعا الى توحيد الثقـافة بين البلاد العربية وهاجم فى القاهرة بعنف أساليب التجزئة والتغريب والتجنيس والفرنسية التى تصطنعها فرنسا فى الشمال الأفريقى كما قام المغاربة الذين التجئوا الى الاســتانة برفع صوت المغـرب عاليا ضمن الجـامعة الاسلامية ، وقد كان للشيخ على باشا حنبه والشيخ للعتـابى اثرهما الكبير فى الدعوة للشخصـية العربية المغربية فى السويد والدانمرك والنرويج وقد عقـد لذلك مؤتمر فى استكهولم ١٩١٧ .

كما كان لعبد الحميد بن باديس وجمعية العلماء فى الجزائر التى قام عليها ، اثرها البعيد فى مقاومة هــذا الاتجـاه وذلك بمكافحة البدع والخرافات ومهاجمـــة « الأيدلوجية » التى أقامتهـا حملات التغريب لتجـزئة المغرب وفصل العرب عن البربر فقد دعم اللغة العربية بانشاء المدارس العربية فى المساجد والزوايا .

وكذلك قامت حركة « رد الفعل » والمقاومة للغزو الفـكرى على اساس علمى صـحيح قوامه العقـل والاسـتقراء فهدمت كل النظريات التى قدمهـا الغرب وكشفت كيف أن عنصرى الأمة (البربر والعرب) قـد امتزجا منذ الف واربعمائة عام وان الفوارق المختلفة قد ذابت كلها ولم يبق لها وجود حى وان اطلاق اسم البربر انما جاء نتيجة تاريخية لانقسام الدولة الرومانية بعـد وفاة الامبراطـور (تيودو سـيوس) عام ٣٨٨ م بين بيزنطة وروما ، وكان من نصيب بيزنطة ما يعرف الآن بالجبل الأخضر من ولاية بنى غازى الى مصر ، أما باقى افريقيا فقد كان من نصيب روما وقد أشار البستانى فى دائرة معارفه الى لفظ (البربر) وقال انه مأخوذ من لفظ (وررورا) باللغة السنسكريتية ومعناه غريب . ولم يكن لفظ خاص بأمة خاصة بل اطلقه اليونانيون على من لم يتكلم لغتهم وبه سمو ايطاليا (بربار) ثم اخذه الرومان واطلقوه على من لم يتكلم اليونانية اللاتينية .

وقد جرى تقـارب اللغتين العربية والبربرية الى حد كبير يدركه من له المام بهما .

٣ ــ وكان للحركة السلفية فى مراكش تقيـادة « محمد بن العربى العلوى » دورها كرد على احتضان حركة التجزئة والغزو الفكرى لمشايخ الطرق . وقـد حملت الحركة السلفية لواء عملين هامين فى محيط الفكر العربى هما :

(١) التحرر والجهاد ومقاومة الاستعمار ، ودعوة الشعب الى العلم والاصـلاح ومقاومة الجمود وتحطيم الخرافات وتربية الشخصـية الاسلامية على مبادىء الاسلام (٢) وتكوين وحدة سياسية تحت لواء الروابط الثقافية والعقائدية . كما دعت الحركة السـلفية الى مقاومة الاقليمية والتجزئة وجعل اللغة العربية صالحة لأن تكون لسان العالم العربى كله وصـلة الوصل بين سائر أفراده .

* * *

الرد على النظـرية البربرية

وقد كان مجمل الرد على النظرية البربرية قائمـا على أساس ما اتفق عليه النسابون من أن القبـائل البربرية ترجــع الى أرومتين مهمتين ، وهما : برنس وما دغيش . بحيث لا يوجد بين البرابرة من يخرج عن هذين الأصلين . فهم اما برانس كالمصـامدة وصنهاجه وكتامه أو بتر كنفوسه وضريسه . وقد ذكر المؤرخون ان البرانس من واد مازيع بين كنعان بن حام وان البتر من ذرية برين قيس ، وأن قبائل البربر كانت تسكن الشام وتجاور العرب فى المساكن والأسواق ، فازداد العنصران امتزاجا وتداخلا منذ أقدم العصور ، فالبتر عرب مصريون والبرانس اغلبهم من عـرب اليمن . ونص كثـير من

المؤرخين على انهم قدموا من آسيا فمروا بمصر وليبيـــا ودخلوا المغرب .

ولم يكد « ادريس » يشارف العقد الثـــانى حتى جمـــع حوله من العرب الاقحاح واناط بهم مهمـــة نشر اللغة العربية بين البربر ، وتعليم القبائل المنضويه تحت راية الادراسة الدين ، وسارت اللغة العربية فى أعقاب جيوش (ادريس) فتركزت حيث تركزوا وان الفضل فى تعريب برابرة الريف لا يرجع للادراسة وحدهم .

ومن هذا ينكشف مدى بطلان نظريةالعرب والبربر بعد أن امتزجا منذ آلاف السنين .

وهكذا فشـــلت دعوة التجـــزئة التى قام بهـــا الفرنسيون فىتونس والجزائر ومراكش لاحيـــاء القومية البربرية .

المـــــراجع

عبدالعزيز بن عبدالله : مظاهر الحضارة المغربية.

هلال الفـــاسى : الحركات الاســـتقلالية للمغرب العربى .

(د) نبيه أمين فارس : هذا العالم العربى .

الأهرام : « اغسطس ١٩٢٥ : شمال افريقيـــا واصول سكانه » .

* * *

* * *



النظرية الفينيقيـة (لبنـــان)

وتعد مؤامرة فصل لبنان عن الوحدة العربية من اهم احداث حركة «التجزئة» التى قام بها الاستعمار عن طريق الغزو الفكرى . فقد قامت هذه الحركة على أساسين .

(١) خلق دعوة فكرية تعتمد على عزل لبنـــان ، واعتباره قطرا مستقلا له حضارة تتصل بالغرب والبحر الأبيض المتوسط . (٢) خلق قوى حزبية كتائبية تعتمد على الارهاب والقتل تحمل لواء هذه الاتجاه ولا تتورع عن اغتيال احرار الفكر الذين يقفون فى وجه الاستعمار.

ولحملة التجزئة فى لبنان تاريخ قديم منذ بدأ صراع الاستعمار حول تقسيم العالم العربى والسيطرة عليه . ووقوع لبنان بين نفوذ فرنسا وبريطانيا ومؤامراتهما ، هذه المؤامرات التى ادت الى خلق النزاع والصراع بين الدروز والموارنة وهما عنصرى لبنان ، وقد امتدت هـذه المؤامرة حتى حققت ازمة دموية عام ١٨٦٠ كان لهـــا اثرها فى دعم النفـــوذ الأجنبى وتأكيد سلطان فرنســا وارتباط المارونيين بها وقيام وضع (التجزئة) فى لبنان ، وهو ما أطلق عليه « الوضع الخاص للبنان تكفله الدول الغربية الستة » وقد أعطى السلطان ، لهذه الدول عهدا بأن يكون للبنان وضع ادارى وسياسى خاص ولا تزيد علاقته بتركيا عن العلاقة الاسمية ، فقد كان يرشـــح لبنان حاكميه ويعرض أسماءهم على سفراء الدول التى تحمى استقلال لبنان فيختار السفراء واحدا منهم ويصدر السلطان الفرمان الخاص به .

كان من حق لبنان الا يدفع اى ضرائب للاســتانة أو يجند رجاله أو تمر القوات التركية ببلاده الا باذن ، ولقد استغلت فرنسا هذا الموقف استغلالا كان بعيــد المدى فى مفاهيم اهل لبنان وتفكيرهم ومحاولة عزلهم عن الفكر العربى والوحدة العربية. فأحيت تاريخا قديما ارتبط بتصريحات لويس التاسع الى بطريرك لبنان التى حاول أن يربط بين لبنان وفرنسا وفى هذا قوله « نحن على يقين من أن هذه الأمة التى وجدناها قائمة تحت اسم القديس مارون انما هى قسم من الأمة الفرنسية ، لأن اخلاصها للفرنساويين اشد باخلاص الفرنساويين بعضهم لبعض»

وقد ضمن لويس رسالته « ٢١ مايو ١٢٥٠ » تعهدا بأن تحمى فرنسا لبنان » اما نحن وكل الذين يخلفوننا على عرش فرنسا فنتعهد بأن نوليكم وشعبكم نفس الحماية التى لفرنسا وبين انفسهم وأن نعمل على الدوام كل ما هو ضرورى لسعادتكم » وقد ارتبط هذا بموقف المارونية من الحروب الصليبية حيث أمد الموارنة الصليبيين بثلاثين الف نبال واذا كان لهذا الخطاب معنى حقيقى فى مفهومنا اليوم فانما هو اخفاء مطامع فرنسا تحت اسم الطائفيـــة وحماية المارونية .

ثم اعلن لويس الرابع عشر (٢٨ ابريل ١٦٤٩) الحماية الفرنسية على الطائفية المارونية .

وعمل الغزو الثقـــافى الغربى فى حمـــلة التجزئة الضخمة على لبنان الى محاولة تصوير لبنـــان بصورة القطر الذى ليس عربيا وليس لاتينيا اوربيا وانمـــا هو جسر وممـــر ، وانه مكون من طائفيين :من المســـلمين والمسيحيين . وان كل طائفة منهما تضم طرائف فالمسيحية تضم الموارنة والأرثوذكس والكاثوليك والاسلامية تضم : السنة والشيعة والدروز .

وادعت فرنسا أن الشعب العلوى هو بقيـــة من الصليبيين وأن الدين العلوى جزء من الديانة المسيحية وأن اللبنانيين من أصل فرنسى .

واثارت فرنســـا دعوى فينيقية لبنـــان وذلك فى محاولة عزلها عن الجماعة العربية .

وقد تبين من بعد أن « الفينيقية » هى موجة عربية صدرت من جزيرة العرب كالفرعونية تماما .

وقد حملت البعثات التبشيرية والمراسلين الأمريكان والفرنسيين لواء هذه الدعوة لهدفين واضحين : (أولهما) التفريق بين جزئى لبنان : المارون والدروز (أو المسيحيين والمسلمين) على نفس النحـــو الذى اتخذته فرنسا فى

المغرب (ثانيا) عزل لبنان عن العالم العربى واقامة قومية خاصة به تستمد معالمها ومقوماتها من الكيان القومى الضيق ، والارتباط مع الغرب .

ولذلك فان فرنسا لم تلبث بعد احتلال لبنان ١٩١٧ ان نفذت منهاجا ضخما للقضاء على عروبة لبنان وعزله عن العروبة . بعد ان كانت الارساليات الغربية قد تقدمت بهذه المحاولة سنوات تزيد عن ستين عاما .

وكان ابرز معالم ذاك هو : وضع اللغة الفرنسية فى مستوى اللغة العربية فى الدستور و فى المدرسة والمحكمة والمصرف ، والصحافة ، والكتابة وبذلك خلقت ثنائية فكرية وثقافية ادت الى كثير من الانحراف الفكرى.

كما حاول الاستعماد الفرنسى فى غزوته الثقافية على دعوة الوحدة العربية التى كان لبنان أول من حمل لواءها ودعا اليها فى العشرينات من القرن العشرين ، والحقيقة الثابتة ان المسيحيين فى الشام وفى لبنان بالذات هم اول من حمل لواء الدعوة الى القومية العربية ولكن الاستعمار حرصا منه على تمزق كيان لبنان الداخلى وعزله عن القومية العربية عمد الى خلق «ازدواج لبنان» بدعم الطابع الطائفى تحت اسم المحافظة على الكيان اللبنانى

غير أن مؤامرة التجزئة ما لبث أن انكشفت ، وتبين اولا أن الصراع بين بريطانيا وفرنسا هو الذى خلق الطائفية وعمقتها باحداث ١٨٦٠ التى حرضت عليها بريطانيا وان الطائفية ــ كما يقول ادوارد حنين (مجلة : الندوة اللبنانية ٢٢ نوار ١٩٥٠) ليست الا مزيجا من قشور الدين دون لبه ، ومن شعائر الأديان دون الامان، ومن غيرة القساوسة والمشايخ دون رافتهم . ومن سذاجة اللبنانى دون فطنته ومن عمل السياسة دون وعيها وضميرها ومن خبث السياسيين وقساوة قلوبهم »

كما تكشفت حقائق الامتزاج بين طائفتى لبنان « حتى أن بعض العائلات اللبنانية الدرزية تربط نفسها بوشائج الأخوة والقربى الى بعض العائلات اللبنانية المارونية وبالعكس ، وان ما جرت به العادة بين الموارنة والدروز كان جاريا مثله بين الموارنة والشيعيين وبين المسيحيين والمسلمين » .

وتكشف « أن بريطانيا عملت على على ازالة الملكة الناشئة فى مصر بالاحتلال وتهديم الامارة المستمكنة فى لبنان بالفتنة » .

وان الاستعمار بنفوذه قبل احتلال لبنان وبادواته ووسائله بعد احتلاله عمد الى « انماء روح التفرقة بين اللبنانيين » وقال حبيب ابو شهلا « ان الطائفية فى لبنان معطلة للوحدة القومية ومسببة للتفكك فى الجسم اللبنانى وان الأنانية الطائفية والتوازن الطائفى والمصلحة الطائفية نكبة عظيمة وشر مستطير » وقد تأكد باجماع الراى ان المطامع الأوربية هى التى مزقت لبنان .

وقد القت الأربعينات على لبنان ضياء جديدا حين أعلن استقلال لبنان ١٩٤٣ اذا كان هذا الاستقلال نقطة تحول ونقطة التقاء .

فقد أعلن رياض الصلح ان (لبنان وطن ذو وجه عربى ــ وان لبنان لن يكون للاستعمار مقرا ولا لاستعمار الأقطار العربية ممرا) .

وكان هذا مقاومة لأفكار التجزئة التى تمثلت فى منظمة (الحزب القومى السورى) ثم وجه بشارة الخورى وهو من أصدق الوطنيين الذين حكموا لبنان عند اعتزاله النظر الى القومية العربية فقال « لاتحولوا وجوهكم عن دنيا العرب فان لكم فيها اخوان فكر وقلب ولسان » .

***

الحزب القومى السورى والكتائب

وقد تركزت هذه الدعوة الى تجزئة لبنان وعزله عن الأمة العربية فى منظمتين فى لبنان : هما الحزب القومى السورى الذى يعمل فى سوريا ولبنان وحزب الكتائب وهما متحدين فى الأهداف ــ وان كان حزب الكتائب فى حقيقته منظمة طائفية متطرفة ــ غير انها تحمل نفس الأهداف فى الولاء لفرنسا لا للبنان وفى الايمان بوسائل الارهاب والاغتيال .

وقد حمل الحزب القومى السورى لواء الدعوة الى الاقليمية والتجزئة وتزييف الحقائق للقضاء على الوحدة العربية ومقاومة دعوة القومية العربية فالوطن السورى ــ عند الحزب القومى السورى ــ هو البيئة الطبيعية التى نشأت فيها الأمة السورية . وهى ذات حدود جغرافية تميزها عن سواها تمتد من جبال طوروس فى الشمال الى قناة السويس والبحر الأحمر فى الجنوب .

وحدد الحزب موقف سوريا من الأمة العربية فقال

أنطون سعادة (مارس ١٩٨٣) ان العرب ليسوا فاتحين كغيرهم من الأمم التى مرت بهذه البلاد والفتح لم يغير هوية القومية السورية وان اندماج القضية السورية القومية فى القضية العربية كان سببه وقوع بلاد عربية غير سورية تحت التسلط التركى مما ساعد تولد فكرة اجتماع أمم العالم العربى الخاضعة لتركيا على القيام بحركة تحريرية مشتركة » كما وصف العرب بالصحراويين وبلادهم بالصحراء وقال انهم متخلفون عن بيئة سوريا وعنده « ان الأمة السورية هى الأمة المؤهلة للنهوض بالعالم العربى » .

وجرى الحزب القومى السورى على هدم التراث العربى واحياء تراث الشعوب التى حكمت سوريا قبل الاسلام كالأشوريين والكلدانيين والبابليين والحيثيين والفينيقيين .

وبذلك حملت منظمة القوميين السوريين لواء حملة التجزئة فى لبنان لمقاومة الوحدة بين اجزاء الكيان العربى وجرى الاب لامنس فى كتابه عن سوريا على نفس النهج فأعلن أن السوريون أمة تامة وأن القضية السورية قضية قائمة بنفسها ومستقلة عن اى قضية اخرى . وأن الأمة السورية هى وحدة الشعب السورى والمولدة من تاريخ طويل وان الوطن السورى هو البيئة الطبيعية التى نشأت فيها الأمة السورية .

وجرى أنطون سعادة على نفس النهج فقال بأن الأمة العربية شىء غير قائم فى الواقع وأن هناك شعوبا متعددة تتكلم اللغة العربية . وأن العرب لم يؤثروا فى سوريا اى أثر يذكر ، وانما هى أثرت فى العرب . وهو نفس ما تردد فى مصر بالنسبة للعرب فى الدعوة الى المصرية الضيقة والى الماضى الفرعونى .

ولم تقف منظمة (الحزب القومى السورى) الى حد اذاعة هذه الآراء والدعوة لها وانما عملت على فرضها بالقوة عن طريق الارهاب المسلح والقضاء على من يقف فى وجهها بحجة أن الشعب العربى لا يعرف ما يريد ، وهدفها الاتجاه الى قلب الأوضاع باسم « تغيير عقلية الحكم » . ولو كانت هذه الدعوة مجردة خالصة من التبعية والعمالة للاستعمار والغزو الاستعمارى الفكرى والتغريب لكان هناك مجال لقيام سجال فكرى بينها وبين مبادىء القومية العربية . للكشف عن مدى زيف هذه الآراء ، غير ان تأكد الصلة بين هذه المنظمة وبين الاستعمار قد حكم عليها بأن توضع فى صف الاستعمار نفسه كمنظمات التبشير ومختلف هيئات العمل الاستعمارى فى ميدان الغزو الفكرى العربى .

ذلك أن انطون سعادة انما بدأ دعوته الى فكرة القومية السورية فى المهجر ثم تابع الدعوة ١٩٢٩ بعد عودته الى وطنه لبنان ثم انشأ فى (١٦ نوفمبر ١٩٣٢) الحزب القومى السورى وكون تشكيلاته العسكرية متأثرا بالفاشية والنازية وعلى أساس الارهاب والتعصب والاقليمية والخيانة .

وقد أظهر عداءه للكيان السياسى اللبنانى ، فاعتقل مع اعضاء حزبه ، وحكم عليه بالسجن وحل الحزب عام ١٩٣٧ وعاد الى المهجر ، وفى أبريل ١٩٤٤ انشأ اتباعه الحز بالقومى الاجتماعى برئاسة نعمت ثابت . فلما عاد انطون سعادة ١٩٤٧ الى لبنان راس الحزب ثم بدأ يدخل مرحلة تنفيذ فكرته باحداث انقلاب فى لبنان وفق مخططه الاستعمارى واتصل بالسلطات الأجنبية وانكشفت هذه التحضيرات (يونيو ١٩٤٩) التى اتجهت الى تسلم الحكم بالعنف حل الحزب، واعلن سعادة التعبئة الشعبية العامة واعان الثورة فى لبنان حيث هاجم انصاره المخافر ودور الحكومة (تموز ١٩٤٩) ثم هرب سعادة الى دمشق بعد فشل الثورة حيث قبض عليه وحوكم فى ٢٠ يوليو ١٩٤٩ وحكم عليه بالاعدام ، غير أن الحزب عاد مرة اخرى بصورة اخرى كان لها بعد الحر ب العالمية الثانية دور كبير فى خيانة أهداف القومية العربية . وكان للحزب تاريخ واضح فى التغريب والتجزئة والعمل للاستعمار عن طريق عصابته الارهابية التى كانت سلاح المستعمر واداته فى القضاء على الأحرار وقتلهم امثال : رياض الصلح أول من قال (ان لبنان وطن ذو وجه عربى) وعدنان المالكى داعية القومية العربية فى الجيش السورى ونسيب المتنى الصحفى اللبنانى الحر .

وقد التقى حزب الكتائب اللبنانى مع الحزب القومى السورى فى أهدافه ومخططاته واغتيالاته يؤمنا بأن الاخلاص للقومية العربية خيانة واشتراكا فى كل مؤامرة ضد الوحدة وضد تجمع الأمة العربية وحريتها واتخذوا لهم من لبنان قاعدة ومنطلقا .

وقد أيد الحزبان الصهيونية فى فلسطين ووقفا فى وجه العمل لتحرير فلسطين وكشفا عن دورهما بالوقوف صراحة فى صف الصهيونية وهاجموا وثيقة الاستقلال التى أعلنها رياض الصلح واتفقا مع الجنرال كاترو (١٩٤٤) على مقاومة التيار العربى .

وقد عمل سعادة مع الألمان والأمريكان والانجليز وكان ايمانه بفرنسا انها « الأم » .

وتدواجه الفكر العربى الاسلامى المعاصر هذه الدعوة ، بالتفنين والتحليل وكشف عن مغالطاتها واخطائها وزيفها وعناصر الافتعال فيها والهوى الاستعمارى والتغريبى الواضح فى مخططها .

واول عوامل الخطأ فى نظرية انطون سعادة اضطرابه فى تحديد المنطقة التى يعتبرها (الوطن السورى) وتغييره حدود هذه المنطقة عدة مرات بالزيادة والحذف .
وان نظريته قامت على أساس الخروج من نطاق لبنان دون الدخول فى حوزة العروبة ، وزعمه أن سوريا منطقة منفصلة من الأمة العربية .

فقد عين حدود سوريا ببادية الشام ثم ادخل اليها قسما كبيرا من العراق ثم بلغ بحدودها الى جبال بختيارى وبذلك ادخل العراق كله فى حدود سوريا وقد فسدت منذ وقت بعيد نظرية العامل الجغرافى فى تكوين القوميات والأمم وتأكد أن دعامتى القومية هما اللغة والتاريخ .

ومن مغالطات سعادة معارضته للغة كعنصر من عناصر القومية ورفض القول بانه متى استبدل المرء لغة جديدة بلغته خسر قوميته ، وقد أعلن نظرية لا تثبت للمنافسة وهى أن فى الامكان أن تقبل الأمة لغة جديدة دون أن تفقد خصائصها وهو قول لا أساس له .

ولقد كانت الدعوة الى « التجزئة » وخيانة القومية العربية ، وتأييد الصهيونية وخيانة لبنان العربى بأحداث انقلاب ضده . وتأييد المستعمرين كلها من العوامل التى كشفت عن زيف الدعوة فضلا عن سيرها ضد التيار الضخم ، تيار التقاء الجزء بالكل وارتباط سوريا الأكيد بالأمة العربية تاريخيا وفعليا .

ويرى ساطع الحصرى ان الدافع الذى دفع انطون سعاده الى التحامل على القومية العربية هو (١) أن فكرة العروبة تختلط فى ذهنه مع معانى البداوة والصحراوية (٢) ومع الفكرة الاسلامية (الحزبية المحمدية) فقد توهم ان فكرة الوحدة العربية قناع لهدف اسلامى وهو فى هذا غير سليم النظرة .

***

نظرية البحر المتوسط

هذه دعوة من دعاة التجزئة والتغريب معا وهى ليست قاصرة على لبنان وحده وانما هى : دعوة « فرنسية » تحاول أن تربط العالم العربى : المغرب بأقطاره ومصر ولبنان بأوربا . بدلا من ارتباطها بالأمة العربية ، وهى احدى نظريات التجزئة الثقافية وهى دعوة القول بأن لحوض البحر المتوسط وحدة جغرافية وتجارية واجتماعية وفكرية قوامها : الفكر اليونانى والنظام الرومانى والدين السامى وان الذين ساهموا فى ابداع هذه الحضارة : الفينيقيون أصحاب الفضل فى استنباط الحروف الهجائية ومن نماذج مصرية ويونانية ورومانية وسواهم وقد حاول الاستعمار الفرنسى ان يذيع دعوى أن اللبنانيين ليسوا عربا بل فينقيين وان حضارتهم هى حضارة البحر المتوسط وانهم لا يمتون للعرب بصلة وقربى الا باللغة — كما نادى موسولينى أبان دعوته الفاشية الى حضارة المتوسط — وقد حمل الاستعمار الفرنسى لواء الدعوة الى بعث امجاد الفينيقيين عن طريق الشعر العربى (قد موس — سعيد عقل) وجرت مع ذلك محاولة بعث اللغة العامية واتخاذها اداة الكتابة وقد دعمت نظرية البحر المتوسط والاتجاه الى الغرب بدلا من الاتجاه نحو الشرق والصحراء .

كما حاولت فرنسا تأكيد الدعوة الى حضارة المتوسط فى المغرب كمحاولة لربط تونس والجزائر ومراكش بأوربا والغرب وفرنسا ووقف تيار الارتباط مع الأمة العربية التى هى جزء منها .

وقد واجه الفكر العربى هذه المعركة كما واجه أفكار التجزئة الأخرى واعلن زيفها وشكك فى جديتها ، وقال ذلك أن الثقافة أمر معنوى ويمكن ربطه بالعوامل الجغرافية .

كما تبين أن الفينيقيين فرع من الأمة العربية ، وان الحضارة الفنيقية جزء من الحضارة العربية . وأن العرب عندما دخلوا معترك التاريخ سيطروا على البحر المتوسط وحولوه الى بحر عربى . وكان لثقافتهم اثرها فى شاطىء البحر الأبيض المواجه ، فقد تأثرت ايطاليا وفرنسا واسبانيا بهذه الثقافة .

* * *

المســـلمون والمســـيحيون : مصر

اتخذ الاســـتعمار الانجليزى فى مصر من قضـــية الأقليـــات نقطة ارتكاز فى « مؤامرة التجزئة » فقد اثار الخلاف بين المســـلمين والأقبـــاط وادعى حماية الأقباط وخلق مشـــكلة الأكثرية والأقلية ، وبينما كان المصريون يعيشـــون فى ظل مجتمع متحـــد قبل الاحتلال ، حرص الانجليز علىضم فريق المسيحيينإليهم وخلقوا لهم وضعا معينا فى مختلف ميادين العمل والتعليم .

وقد سجل المؤرخون الأوربيون والمنصفون سماحة المسلمين ازاء الأقليات وان الاســـلام اكد حقوق أهل الكتاب ، غير أن النفوذ الغربى اتخذ من حماية الأقليات وسيلة للتدخل لتوطيد أقدامه ، وخلق عديدا من المشاكل والخلافات والفتن بين الطوائف المختلفة .

وكانت لبنـــان أبرز مثل لقدرة الاســـتعمار على استغلال الخلاف بين الموارنة والدروز ، اما فى مصر فان الموقف قد اختلف عن ذلك نظرا لليقظة وضـــبط النفس والقدرة على افساد الخطة التى حاولها الاستعمار .

وقد شهد بذلك فوردو كاتنج (١٩٢٩/١٠/٢٧ — الأهرام) فقال ان الأقليـــات المسيحية واليهودية كانت تعامل على الدوام خير معاملة فى البلاد الاسلامية الى ان تأتى دولة أوربية وتستخدم تلك الأقليات لقلب الحالة .

وقد كان للأقبـــاط منذ تعريب مصر مكانة مرموقة حيث كان اليهم ادارة البلاد واعمال المال وبينما اختص الأتراك بالمناصب العسكرية والادارية واختص المسلمون بالقضاء اختص المسيحيون بأعمال المال ، ولم يكن عـــدد الأقباط عام ١٩٠١ يزيد عن عشر سكان القطر بينمـــا كانوا يحتلون ٤٥ فى المائة من الوظائف ويحصلون على ٤٠ فى المائة من المرتبات ، بينما لم يزد نصيب المسلمين منها عن ٤٤ فى المائة وقد أحرز عددا منهم الباشوية ، وكان أول قاض قبطى هو (عبد الملاك كتكوت) بمحكمة منا الأهلية كما عين يوســـف عبد الشهيد مديرا لديوان القضايا بمديرية المنا وسرور بك وكيلا لمديرية الدقهلية وكان ذلك رمزا لاتحاد البلاد كما الف الأقبـــاط الجمعية الخيرية القبطية برئاسة قرياقص مفتاح .

غير أن الاستعمار البريطانىبدأ يدس بينالمسلمين الأقباط على نحو يفهم منه أن هناك اقلية واكثرية وانهم — اى البريطانيين — يراعون فريق المسلمين كما يحمون فريق الأقلية ، وذلك حتى يجعلوا نفوذهم مرجعـــا للفريقين ، وقد بدأت سنة ١٩٠٧ حملة صحفية قادتهـــا صـــحيفتا « الوطن ومصر » المســـيحيتين حيث هاجمتا الاســـلام هجوما عنيفا اضطرت معه اللواء والمؤيد للرد عليها فكتب اللورد كرومر فى تقريره (١٩٠٨) يقول أنه يوجد فرق ظاهرى شاسع بين المسلمين والأقباط . ولكن هـــذا الفرق لا يكاد يذكر فى الواقع . غير أن الضرورة تحتم أن الأقلية تتأثر بالأغلبية » وتحت ضغط الاشاعات التى روجها المستعمر بأن هناك دستور سيوضع وستهمل حقوق الأقلية ، رفع الأقباط الى كرومر عام ١٩٠٨ مذكرة ضمنوها بأربع مطالب :

١ — المســـاواة الكاملة مع المسلمين فيما يختص بالتعيين فى الوظائف .

٢ — اغلاق المحاكم يوم الأحد .

٣ — تعيين عضو آخر فى الجمعية الاستشارية .

٤ — تعليم الدين للطلبة المســـيحيين فى المدارس الأميرية .

وقد قبلت الســـلطات المطلبين الأول والثـــالث . وتبادلت جريدتى المؤيد واللواء التهانى لهذه الخطوة نحو المساواة الاجتماعية .

غير أن الاستعمار البريطانى لم يشـــأ أن يلتقى الأقباط والمسلمون فوسع شقة الخلاف حيث أزال امتياز

المسيحيين فى العمل المالى واخذ يدفع المسلمين اليه . (توفيق حبيب وجاك تاجر (ك) اقباط ومسلمون)
ثم لم يلبث أن عين بطرس غالى رئيسا للوزراء (١٣ — نوفمبر ١٩٠٨) وقد كان هذا عملا مستغربا اذ انه لأول مرة يرأس الوزارة مسيحى فى بلد له اغلبية مسلمة ، وقد اثار هذا عاصفة من النقد فى مجال الصحافة ، وان كان بطرس غالى عندما سألته الصحف المسيحية عن مطالب المسيحيين لم يشأ أن يعلن عن وجهته واكتفى بأن قال انه لا ينوى التدخل فى هذه المسألة . وكان بطرس غالى قد رأس المحكمة المخصوصة لمحاكمة اهالى دنشواى ووقع مع كرومر سرا اتفاقية السودان ١٨٩٩ التى قضت على كل صلة لمصر بالسودان وقد كان هذا كله مما اعده الانجليز للوصول الى النهاية التى وقعت بعد اذ تقدم شاب متحمس من شباب الحزب الوطنى فاغتال رئيس الوزراء ١٩١٠/٢/٢٠ وان كان قد ثبت ان هذا الشاب كان مدفوعا بمفاهيم السياسة لا بالعاطفة الدينية .

وبذلك وصل الانجليز الى غايتهم فى تعميق شقة الخلاف ، وكان مصطفى كامل من قبل قد حاول ان يجمع بين عنصرى الأمة . وضم الى حركته عددا كبيرا من اعيان الأقباط أمثال ويصا واصف ومرقص حنا وهو القائل « ان المسلمين والأقباط شعب واحد مرتبط بالوطنية والعادات والأخلاق وأسباب المعاش ولا يمكن التفرق بينهما مدى الأبد . وان الأقباط اخوة لنا فى الوطن وقد شهد (مرقس حنا) بعد وفاة مصطفى كامل بانه هو الذى « ارانا طريق الحرية والأخاء وأفهمنا أن الاتحاد هو السلم الأول للوصول الى الحرية والاستقلال »

وقد امكن ان يلتقى نخبة من رجال العنصرين فى مؤتمر عام استنكروا فيه عمل تلك الفئة التى اتجهت الى استعداء سلطات الاحتلال . بيد أن الاستعمار استطاع أن يدفع بالغلاة الى العمل على اثارة الخلاف مرة اخرى وتعميقه واعانت على ذلك الصحف الأوربية فى الخارج والأفرنجية فى مصر التى وصمت المصريين المسلمين بأقبح النعوت (ابراهيم عبده — تاريخ الأهرام ص ٣١٠) وقد كسب الاستعمار من هذه الفرقة ان شغل المصريين عن الجهاد الأساسى الذى يقوم ضد الاحتلال الى الانقسامات والخلافات المذهبية .

ثم عقد الأقباط مؤتمرهم فى اسيوط (مارس ١٩١١) وتم به اعداد مطالب خمسة هى :

(١) راحة يوم الأحد .

(٢) المساواة فى الوظائف .

(٣) تشخيص العناصر القبطية فى الهيئات النيابية.

(٤) المساواة فى التعليم فى مجالس المديريات واعانة مدارس الأقباط .

(٥) الانفاق من الخزينة المصرفية على جميع المرافق المصرية على السواء .

وقد واجهت صفوة رجال الأمة هذا المؤتمر بالتسامح ولم تشأ أن تعقد مؤتمرا حمل اسم المؤتمر الاسلامى حتى تفسد على المستعمر خطته فى التفرقة بل عقدوا مؤتمرا « مصريا » ضم المسلمين والمسيحيين فى مصر الجديدة برئاسة رياض باشا (مايو ١٩١١) وقد رفض هذا المؤتمر تقسيم الأمة المصرية الى عنصرين أكثرية اسلامية والقلية قبطية ودعا الى وحدة الأمة السياسة وسجل هذا فى عبارة مضيئة : « ان لكل امة دينا رسميا . ودين كل أمة هو دين الأكثرية منها ومن غير المفهوم ان يكون فى الأمة اكثر من دين رسمى واحد وعليه فلا معنى للاعتراف بأقليات دينية تعمل فى السياسة بهذه الصفة » .

وبذلك حطم المصريون مؤامرة « التجزئة الدينية » بعد أن استمرت اكثر من ثلاث سنوات .

وعندما طالبت مصر بحقوقها بعد الحرب العالمية الأولى ، ومنعت بريطانيا المصريين من حضور اجتماعات مؤتمر الصلح ، هب المصريون جميعا مسلمين ومسيحيين فى ثورة ١٩١٩ : وكان القساوسة ومشايخ الأزهر يتبادلون الخطابة والدعوة الى الحرية الوطنية فى الأزهر والمساجد والكنائس وكانت الأعلام التى رسم عليها الهلال والصليب تظهر متعانقة فى كل مكان ، وسجلت الحركة الوطنية مبدأ واضحا هو : الدعوة الى حرية مصر على أساس أن الجميع مصريون ، ولما اصدرت بريطانيا تصريح ٢٨ فبراير من جانب واحد لم تنس أن تنص على أن من المسائل المعلقة بينهما وبين مصر « حقوق الأقليات » وعندما بدأ وضع الدستور دس الاستعمار البريطانى دسائسه مرة اخرى بين المسلمين والاقباط فظهر اتجاه يدعو الى تحديد تمثيل نسبى لجميع الطوائف الدينية : وقال انصار هذا النظام (جاك تاجر — اقباط ومسلمون) انه اذا ضمنوا للأقليات الدينية تمثيلا ثابتا فى الجمعية الوطنية فانهم يمنعون بذلك الانجليز من التدخل فى شئون مصر الداخلية بدعوى حمايتهم للأقليات،

وقد ايد هـذا بعض المسلمين غير ان اغلبية الأعضـاء عارضـوا هذا الاتجـاه كما عارضـه المستنيرون من المسيحيين : وكان الراى أن هذا لو تحقق سيبقى على الانقسامات القديمة ويضعف الوحدة القومية ، وقد جرت مساجلات طويلة فى الصحف فى هذا الشأن حمل فيها لواء الدعوة الى تحديد التمثيل « توفيق دوس » ومن شايعه وحمل لواء الدعوة الىالاطلاق (عزيز ميرهم) ومنشايعه.

ومما كتبه عزيز ميرهم فى هذا الصدد تحت عنوان حماية اقليات (افتتاحية الأهرام ٨ مارس ١٩٢٢) قوله « لاانكر ان فى مصر اقليات من قبط وعرب ويهود وطوائف من المسيحيين الشرقيين وان كثيرا من هذه الاقليات يتمتع بقوانين خاصة وامتيازات مختلفة من التمثيل فى الهيئات النيابية ؟ وقد وجدت هذه الأقلياتبحكم أسباب تاريخية لا تختلف كثيرا عن الأسباب التى انتجت ما يشابهما من الأقليات التاريخية فى بلاد الغر ب .من هـذم الأسباب قيام الوطنية فى الماضى على اساس الدين قبل قيامها على وحدة الدم والتاريخ والوطن . وانما تقـدم الغرب على الشر قفى فكرة بناء الوحدة القومية على اساس وحدة الدم والتاريخ والوطن . اما فى الشرق فلتساهل الدين الاسـلامى وتسامحه لم يمنع الاسـلام الطوائف غير الاسلامية من المعيشة والانتشار فى جواره . » ثم اشار الى الصـعوبا تالتى وقعت بين طوائف من الأديان فى الشر قوقال ان هذه الخصومات لم تكن الا اعمالا فردية وقتية ، وقد وضع الأسلام منذ نشأته قاعدة حرية الدين واجاز للطوائف غير الاسـلامية حق مباشرة شـئونها الداخلية بنفسها . وان مصالح الأقليات فى مصر مضمونه ضـمانا تاما من مدة مديدة ومنهـا تمتع الأقبـاط فى مصر بالأنظمة الدينية الخاصـة بهم والتمتع بشـعائرهم الدينية وحق بناء المدارس والكنـائس والأديرة من غير قيد ، وحق امتلاك الأملاك الموقوفة عليها وادارتها .

وقال ان ادعاء بريطانيا حماية الأقليات انما يفتح باب الدسائس واسـعا ، واشار الى الأساليب التى يسـتعملها الانجليز تحت سـتار حماية الأقليـات التفـريق بين الطائفتين ، وقال أن الأمة المصرية قامت تنادى بمبدأ واحد وان جميع عناصرها قد التقت فى وحدة المطلب ووحدة الوطن وان مثل هـذا الاجراء ـ تحديد نسب التمثيل ـ تدخل معيب تأباه كرامة شـعب يريد الحياة » .

وعادت الأهرام فسجلت شعور المصريين (٩/٣/ عام ١٩٢٣) ورغبتهم فى الغاء مذهب الأكثرية والأقلية الذى خلقه الانجليز وابتدعوه «ليغروا به ضعاف النفوس وضعاف العزائم حتى يسـتميلوهم الى توتهم فيكونون خدمة لها فى ما تطمع وتريد » .

وقد نص دستور ١٩٢٣ على المساواة التامة بين جميع المصريين أيا كان دينهم أو عقيدتهم كما نص على حريتهم فى ممارستهم لشـعائر دينهم وقبولهم بالوظائف الحكومية . وجرت التقاليد على أن يكون دائمـا ضمن مجلس الوزراء وزير قبطى .

ولكن بريطانيا لم تتوقف عن اثارة النعرة الطائفية فترددت تحذيرات الصحف منها فى سنوات ١٩٢٨و١٩٢٩ معلنة « أن الأكثرية والأقلية بضاعة من بضـائع أوربا السياسية تصنع للتصدير الى الخارج وترسل الى الشرق التعس الذى القى فيه هذا الميكروب منذ دهر بعيد فغفل عنه وعمل عمله . وان الشرق لم يعرف فى ابان مجـده وحضـارته مثل هذه التفرقة ، وقد سجل « جاك تاجر » فى كتابه أقبـاط ومسلمون : ان الاندماج بين المسلمين والمسيحيين فى الحضارة والثقافة قد بلغ حدا بعيدا وان تقاليد المسلمين فى مصر لم تخل من الأثر الفرعونى ، بينما طبع الاسلام بروحه الأقلية القبطية التى ظلت متمسكة بالمسلمين ، وقد كف الأقباط عن التكلم بلغتهم وتعاموا اللغة العربية ونقلوا عباداتهم فى الكنـائس الى اللغة العربية أيضا وما حل القرن الثانى عشر حتى أصبحت كلها تتحد ثباللغة العربية ، كما اخذ الأقباط عن المسلمين ختان الأطفال كما تشبهوا بالمسلمين من حيث المطهر وهو ما عجز عنه اليونان والروما نمن قبل الأتراك من بعـد وكان هـذا علامة علىامتزاج العرب بالأسر المصرية والتقاء المسلمين والمسيحيين فى وحدة حضارية وثقافية كاملة .

* * *

التجزئة بالقومية الضيقة : المصرية والفرعونية

كانت حملة التجزئة بخلق القوميات الضيقة جزءا منخطة التمزق والقضاء علىوحدة الفكر العربى الاسلامى وخلق وحدات فكرية اقليميةضيقة تقوم على أساس المفاهيم المحدودة بحدود كل اقليم بحيث تصبح هنـــاك نزعات وفاســفات ضيقة . مصرية وســورية ولبنانية وعراقية وتونسية ومغربية وهكذا ، وقد تمثلت هذه المفاهيم فى التغنى بأنهار الاقليم وجباله وآثاره وعلاماته المميزة على أساس أنه شخصية مستقلة منفصلة وتلغ هــذا العمل مداه فىمعاداة مفاهيم الأقطار الأخرى ، فمصر غير العرب ولبنان غير سوريا وتونس غير مراكش كما جرتمحاولات للفصل بين كل قطر على أساس أن لكل قطر مقومات خاصة وعلامات مميزة فكرية وجنسية ونفسية ، وان كل قطر شعب ، وكل اقليم له جنس وحضارة وماضى وتراث وكانت كل هذه المحــاولات مصطنعة مفتعلة حيث كانت الأمة العربية منذ قرون « متحــدة » فى فكرها ومقوماتها تتلاقى جميعــا بترك مشــترك وتاريخ واحد ولغـــة واحدة .

وقد كانت دعوة التجزئة بالقومية الضــيقة أقوى ما تكون فى مصر ، ذلك لأن مصر سقطت فى يد الاستعمار منذ ١٨٨٢ مبكرة عن الوجود العربى كله ما عدا الجزائر ، ولذلك كانت عملية الغزو الثقافى لعزلها عنالوحدة العربية بعيدة المدى ، وكانت عملية تغريبتها وردها الى ماضيها القديم السابق على ماضيها العربى باسم أحياء مجدها والتغنى بعظمة الأهرام وأبو الهول التى لا مثيل لها فى العــالم .

وقد ارتبطت الدعوة الى القومية المصرية الضيقة بالدعوة الفرعونية وأحياء ماضى مصر القبطى . وقــد حشد الاستعمار لبث دعوة الفرعونية كل القوى : فكانت الصحف التى تســير فى ركابه تدعو كل يوم دعــوى الفرعونية وتربط مصر الحديثة تماضيها القديم وتتحدث عن الحضارة الفرعونية كما تبرع روكفلر بعشرة ملايين دولار لانشاء متحف للآثار الفرعونية فى مصر ومع ذلك الجهد المبذول فقد ظلت الدعوة الفرعونية غامضـــــة ، حيث لم يكن هناك تراث فكرى حقيقى يمكن ن تقوم على أساسه الدعوة .

وكان من أبرز الأخطاء تجاهل الحقيقة التى تقــوم على أن الفرعونية عصرا من العصور وليست جنسا من الأجناس .

وظن البعض أن الهدف أن تحيا مصر اليوم حيـــاة مصر منذ خمسين قرنا مضت ، تعيش كما كان الفراعنة يعيشون . أو أحياء الفرعونية فىالفن والأدب أو ترك الدين الذى ندين به للغابية أو اللغة التى تكتب بها .

وقد قيل فى مجال خلق المقارنة أن الغرب لميستطع اقامة حضارة قوية الدعائم الا بعد أن وصل بينه وبين حضارة اليونان والرومان .

وعارضت صفوة المفــكرين أن يكون الفن المصرى فرعونى ، لأن الفن الفرعوني انما هو فن وثنى قائم على التهاويل والأساطير والخرافات .

ووحد الفكر العربى الاسلامى أن الفرعونية لاتتمشى مع روح العصر ، اذا لم يكن لها ثقافة ، وأنها توقفت منــذ ظهور الاســلام وجمدت ، وفصل بيننــا وبينها تاريخ اجابا الفعالية قوامه : اللغة العربية والاسلام .

****

لم تكن الدعوة الاقليمية أو دعوة التجزئة قاصرة على دعوة واحدة وانما تعددت دعواتها وتنوعت ، فكانت هناك (١) الدعوة الى المصرية (٢) والدعوة الى المصرية الفرعونية القبطية (٣) والدعوة الى المصرية النيلية — ومن الناحية الأخرى كانت هناك دعوات الوحدة العربية والجامعة الاسلامية والرابطة الشرقية .

وكان الهدف من اثارة هذه الدعوات جميعها ومناقشتها فى الصحف والتركيز على احداها بعد الأخرى .. وقيام دعاة لهذه ولتلك ، ومحاضرات وكتب واحاديث ، كان الهدف من ذلك كله خلق جو من البلبلة والتمزيق للفكر .. وتفسيخه حتى يعجز عن السير فى تياره الطبيعى وداء واجبه .

وكان الاستعمار البريطانى فى مصر حريصا على التركيز على دعوة القومية الضيقة بأنواعها الوقوف بها ضد الوحدة العربية التى كان معروفا انها الاتجاه الطبيعى والمجرى الأساسى العميق الذى يؤدى الى تضامن سائر دول العالم العربى فى وحدة سياسية وهو ما يحرص الاستعمار على افساده . كما حرص الغزو الثقافى فى مجال التجربة الى أن يحمل الأقباط لواء الدعوة الى القومية المصرية ذات اللون لفرعونى المرتبط بالقبطية بينما يحمل المسلمون لواء الدعوة الى القومية المصرية ذات اللون النيلى أو اللون الاسلامى .

وكان لظهور الأفكار القومية فى أوربا أثره فى الاتجاه الى دعوة القومية ، غير أن الاستعمار حصر هذه الدعوة فى المجال المحلى الضيق ، وبذلك ظهرت دعوة « تمصير » الفكر وعزله عن الفكر العربى تأثرا بالمفاهيم اوربية ، ومحاولة خلق صورة ذات ملامح للقومية المصرية والشخصية المصرية قوامها ميل المصريين الى التدين وتمسكهم بعادات اجتماعية معيننة ، وهى صورة لا تزيد عن انها جزء من صورة القومية العربية والشخصية العربية ، فقد كانت ملامح الأجزاء العربية كلها متحدة فى المشاعر والتقاليد والأخلاق والفكر والتأثر بالأحداث المختلفة نتيجة الركيزة الأساسية من الثقافة العربية والتراث الاسلامى والأديان والتاريخ المشترك .

وجرى فى ظل هذه التيارات الدعوة الى الأدب المحلى الذى يصور الحياة المصرية وحدها ، وجرت الدعوة الى اللغة المحلية والانفصال عن اللغة العربية الأم والعصبية للاقليم وتفضيله ورفعه فوق كل أقليم .

وجرت الدعوة الى « مصر للمصريين » وكانت تحمل هدف فصل المصريين عن الأمة العربية وعن جيرانها فقد هاجم دعاة القومية الضيقة أولئك الذين هبوا لمساعدة الليبيين من هل طرابلس الغرب عند الهجوم الايطالى عليهم وقالوا أن على المصريين الا يتأثروا بعواطف غير منبعثة من أقليمهم وحده .

وحملت دعوة مصر للمصريين الكراهية للارتباط بالعرب أو المسلمين أو دعوة الخلافة وكانت مثل هذه الدعة تجرى فى سوريا والسودان وفى كل مكان بدات فيه حركة مقاومة للاستعمار .

ولم يشأ احد ان يرى الطريق الصحيح بعيدا عن العاطفة الأقليمية العصبية المندفعة بفعل الغزو الثقافى وتحت رداء التجزئة ويفهم أن الوحدة المصرية عمل نافع لالغاء الخلافات المذهبية والحزبية والارتفاع عليها كمقدمة لتكوين حلقة من وحدة اكبر كالوحدة العربية ، انما كان الدعاه يرون أن مصر وحدة مستقلة ، منفصلة تقوم على أساس الهرم أو النيل فقط وتحمل الكراهية للعرب ولكل ما هو عربى وترى أنهم دخلاء غزاة كالبونان والرومان .

وكانت الحركة الفكرية قد رسمت خطة لدعم هذه التجزئة بدعوة القومية المحلية بدراسة الكتابات الهيروغليفية وتاريخ الفراعنة والربط بين العصر الفرعونى والعصر القبطى .

واستهدف هذا العمل القول أن مصر أمة مستقلة لها مقوماتها العقلية والاجتماعية ، وانها ظلت معزولة عمن جاورها ، تفصل بينها وبين جيرانها البحار والصحارى وان الصحراء تحيطها شرقا وغربا وانها نمت منفرده منذ أقدم الأزمان كوحدة تاريخية منعزلة لها تراث خاص وتقاليد مستقلة .

وكانت تحاول أن تصور العرب بصورة مزرية ، هى صورة أولئك الأعراب الذين يقيمون فى الخيام يرعون الأغنام ، وهى صورة غير صحيحة اطلاقا فالكيان العربى فى حضره لا تقل من حيث المدنية والحضارة والثقافة عن مصر ، وان بغداد ودمشق والمدينة وطرابلس والخرطوم وتونس ومراكش والجزائر لا تقل من حيث الحضارة والثقافة عن القاهرة . وأن لكل قطر حاضرته وباديته .

* * *

١ — الدعوة المصرية

كانت الدعوة الى « المصرية » تحمل هدف اقامة ادب محلى . وفن فرعونى . واحياء التاريخ المصرى القديم فى حلقاته الثلاث : الفرعونية والقبطية والرومانية واعتبار العرب غزاة كالفرس والترك والانجليز . والعمل على تمصير كل شيء : اللغة والفكر والتاريخ . وقد ارتبطت الدعوة الى المصرية بالدعوة الى الماضى الفرعونى وقدمت فى سبيل ذلك أبحاث عن عظمة الحضارة المصرية القديمة ، وكما جرت أبحاث أخرى لمحاولة اثبات ان المصريين ليسوا من العرب ولا من الشرق ولكنهم من دول البحر الأبيض يرتبطون مع الغرب ومع أوربا فى العقلية والقامة وتركيب الجمجمة والبشرة ، وكان الدكتور محمد شرف قد اذاع ان المصريين أمة غير شرقية وان جماجم المصريين تشبه الشعوب التى عاشت حول حوض البحر الأبيض فى جنوب أوربا ولا علاقة لهم بآسيا اصلا . وقال انه من البحث فى الدم يتضح أن المصريين هم من الطراز الادرى من ٢ الى ٤ وليسوا من الطراز الآسيوى . ويمكن القول أن مصر الحديثة هى نفسها من سلالة مصر القديمة وان الفحص عن الدم اثبت انها غير أفريقية وغير اسيوية وانها اوربية وردد سلامة موسى آراء اليوت سمث اتقى اذاعها فى كتابه المصريون القدماء

The Aneieut Egyqt Imas

بما يفيد المشابهة بين المصريين وسلالة البحر المتوسط والتى تقول تأن شعوب البحر المتوسط من جهاته الاربع تنتهى الى اصل واحد وان قدماء المصريين وقدماء الانجليز يرجعون الى سلالة واحدة . كما ان هناك كلمات فرعونية تتفق لفظا ومعنا مع الكلمات الانجليزية الحديثة .. وانه ليس هناك فرقا بيننا وبين الأوربيين فى السلالة والدم . وأنه لذلك ليس بيننا وبين الأوربيين خصومة فنحن وهم ننتمى الى أصل واحد ونتفق فى المزاج النفسى والذهنى ونختلف قليلا فى الأخلاق لاختلاف الأحوال الاقتصادية وليس هناك فرق الا اننا نعيش حضارة زراعية وهم يعيشون حضارة صناعية » .

وليس معنى هذا القول اذا نظرنا اليه نظرة مجردة — الا أنه دعوة لنا الى قبول الاستعمار البريطانى والتغريب والغزو الثقافى والانفصال عن الأمة العربية والاسلام والشرق ، باعتبارنا جزء من أوربا وبيننا وبين بريطانيا نسب قديم وهو معنى استعمارى ودعوة الى قتل روح النضال الفكرى والمقاومة السياسية .

واذا كانت الدعوة الى « المصرية » الضيقة هى فى حقيقتها دعوة تغريبية فانها قد حققت بعض جوانب اليقظة للفكر العربى الاسلامى اذ خلقت الدعوة الى الاستقلال عن الفكر الغربى وعدم نقله آليا او سيطرته على ثقافتنا . فقد ظهرت صيحات تطالب بأن علينا أن نمصر الفن والأدب فلا نقتبسه من الأدب والفن الأجنبيين ، أو اعطائه روحا ايطالية أو فرنسية فان ذلك يمسخه مسخا على حد تعبير عبد الله حسين (الأهرام ١٦/٥/١٩٢٣) .

فهو يرى أننا نقتبس من البلاد الأوربية علومها الحديثة واختراعاتها وسياراتها وقاطراتها واقتصادها ، ولكننا يجب لا نواصل الأمعان فى اقتباس الفن الأوربى وجعل النهضة الفنية فى مصر قائمة على رقابة اجنبية .. ذلك أن الفن كالشعر والأدب والعادات من مشخصات القومية فاذا جعل الفن اجنبيا آذينا قوميتنا وحكمنا على خننا بالعقم واستحال علينا النهوض » ا هـ .

كما أن الدعوة الى القومية المصرية بالرغم من خضوعها للغزو الثقافى الغربى قد اعانت على تحقيق وحدة عنصرى مصر بما أعان على مقاومة خطة الاستعمار بالتفريق بينهما ، غير أن الدعوة الى المصرية بالرغم من — الأقلام المتعددة القوية ذات النفوذ واطحف الكثرى التى كان تتظاهرها — لم تستطع أن تقدم مخططا واضحا لها ينفصل انفصالا تاما عن الوحدة العربية ، ذلك لأن عناصر الفكر العربي كلها كانت عميقة التغلغل فى اى دعوة قومية مهما كانت ضيقة وجزئية ، وان الفصل بين الدعوة المصرية وبين الوحدة العربية او الفكر العربى أو اللغة العربية او التاريخ العرتى كان أمر ميئوسا منه ، وأن محاولة الارتباط بتراث فرعونى كان مستحيلا . وان المحاولات التى جرت لاحياء ذلك التراث او بينه او ايجاده لم يكتب لها أى نجاح فضلا عن ذلك الهجوم العنيف الذى لقيته الدعوة ودعاتها من مثقفى الوجود العربى على أساس من العلم لا العاطفة .

وقد كان من أبلغ المتناقضات أن دعاة التغريب كانوا فى الوقت الذى ينكرون على المصريين الارتباط بالتراث العربى وهو الماضى القريب الحى المتصل بحاضرنا باللغة والدين والتاريخ ، يدعونهم الى الارتباط بماض أشد ايغالا فى القدم يبعد عنا خمسة آلاف سنة وليس له قيم ولا تراث ولا ثقافة وقد انقطعت رابطته وزالت بعد ظهور الاسلام وتعريب مصر .

٢ ــ التيار الفرعونى

كانت الدعوة الفرعونية فى مصر والفينيقية فى لبنان والاشورية فى العراق : دعوات تجزئة وانفصال تقوم على اساس احياء الماضى القديم وبعثه ، والغاء الماضى العربى الطبيعى واعتبار العرب غزاة .

وكان العثور على حجر رشيد عام ١٨٠١ ونقله الى لندن وقيام (شامبليون) بتفسير كتاباته عام ١٨٢٣ هو نقطة البدء فى هذه الدعوة التى اتسع نطاقها مع حملات الغزو الثقافى فى عهد الخديو اسماعيل ثم حمل لوائها الاستعمار البريطانى بعد احتلال مصر .

وكان تأسيس متحف بولاق الفرعونى ١٨٦٣ بواسطة ماريت وماسبيرو دعاة الفرعونية ودار الآثار العربية ١٨٦٩ والمتحف القبطى ١٩٠٠ علامة على الشروع فى خطة « البلبلة » والمسخ لتاريخنا وتصويرنا فى صورة البلاد التى غزاها العرب والرومان واليونان والتى لها ماض فرعونى وقبطى ويونانى وعربى . وان الصلة بيننا وبين العرب هى صلة غزو وليست رابطة اساسية قامت على اساسها الحياة الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية فى محيط الأمة العربية منذ تعربت هذه المنطقة جميعا وارتبطت باللغة العربية والاسلام وشاركت فى ذلك التراث والثقافة والتاريخ الحافل بالأمجاد .

وقد عمد الانجليز الى الدعوة الفرعونية كأساس للحركة الانفصالية ودعوة التجزئة فأثاروا حملة ضخمة ــ لا فى مصر وحدها ــ ولكن فى العالم العربى كله للكشف عن الآثار القديمة والتهليل لهذه الآثار ، وخلق تيار فرعونى قومى يحمل لواء الدعوة الى فرعونية مصر وقد تحقق للاستعمار نصرا كبيرا فى هذا المجال بالكشف عن قبر توت عنخ آمون ١٩٢٢ مما عمق هذا التيار وظهر محمود مختار بتماثيله الفرعونية ونحت تمثال نهضة مصر فى باريس ١٩٢٠ ثم انشاء قبر سعد زغلول على الطراز الفرعونى ووضع صورة ابى الهول على طوابع البريد واتخاذ الجامعة المصرية تمثال الآلهة الفرعونية رمزا لشارتها .

وقد حاول ماسبيروا عام ١٩٠٨ وضع نظرية لربط مصر المعاصرة بمصر الفرعونية فى محاولة ملفتة قوامها ان مصر قاومت كل الغزاة واثرت فيهم بما فيهم العرب ، وان المصريون اقباط اصلا . وان التراث الفرعونى القبطى صمد فى وجه الفتح الاسلامى وان الاقباط حافظوا على نقاوة دمهم بينما اختلطت دماء المسلمين مع دماء شعوب اخرى . وقال ان القومية المصرية تقوم على اساس تغلب مصر على دخلائها وان المصريين اصلهم فرعونى وانه لا يوجد مصران : مصر مسلمة واخرى قبطية بل توجد مصر واحدة ، وان مسألة مسلم وقبطى مسألة دينية فقط .

وكانت الاكتشافات الفرعونية قد بدأت عام ١٩٠٣ عندما ظهرت مقبرة الملك تحتمس الرابع واكتشف مستر كارتر مقبرة الملكة حتشبسوت وكشف (كوبيل) ١٩٠٤ عن مقبرة الملكة (تى) والملوك اخناتون وحرمحب وسيبتاح وامضى كارنفون وكارتر فى الحفر عن طيبة من عام ١٩١٧ حتى اكتشفوا عام ١٩٢٢ قبر توت عنخ سمون .. وتوالت الأبحاث واشترك فيها المصريون فكانت حفريات متصلة لم تتوقف وكان احمد كمال باشا (المتوفى عن ٧٣ سنة فى اغسطس ١٩٢٣) اتى الأثريين فى مصر وصاحب المدرسة التى انشئت لتمصير علم الآثار ، قد تحقق لم انشاء اول مدرسة لتعليم اللغة المصرية القديمة عام ١٨٦٩ واشهر من نبغ منها سليم حسن ومحرم كمال لكمال باشا ابحاث متعددة وقاموس هيروغليفى عربى فرنسى يضم الألفاظ العربية ذات الأصول العربية ، هو اول القائلين بأن اللغة المصرية القديمة فرع من اللغة العربية ، وأن اللغة العربية اصل لها . وقد كان لأحمد كمال محاولة هامة فى قتل هدف الدعوة الفرعونية التغريبى وكان لسليم حسن دوره وخطره فى الاستكشافات والأبحاث وهو الذى كشف عن الهرم الرابع (فبراير سنة ١٩٣٤) وكان قد بدأ العمل فى منطقة الهرم منذ عام ١٩٢٩ حيث كشف عن مضجع اول امراة حكمت مصر فى التاريخ (خنت كاوس) وهى الحلقة الموصلة بين الأسرة الرابعة والأسرة الخامسة وقد اسمت نفسها ملكة الوجهين القبلى والبحرى كما كشف من بعد حتى عام ١٩٣٥ عن الطريق الموصل بين المعبد الوادى والمعبد الجنائزى وكشف عن أسرة (خفرع) كما كشف عن حقيقة جديدة لم تكن معروفة من قبل ، فقد كان الشائع ان احجار الأهرام قد نقلت من جبل المقطم على حين أن الواقع أن هذه الأحجار انما قدت من الصخور المثبتة حول الأهرام .

وقد ظل علم الآثار احتكارا للغربيين والفرنسيين

بالذات خلال مدة طويلة بدأت منذ قدوم (ماريت) الى مصر ١٨٤٦ بعد أن وقف على رموز الهيروغليفيه على طريقة شامبليون وقد اتيح لم عام ١٨٥٠ أن ينفذ خطة واسعة ظاهرها قيامه بشراء الكتب القبطية من بعض الأديار والبحث عن مدفن العجل ابيس . وقد وجد فى رمال سقارة تمثالا لأبى الهول ينطبق على الوصف الذى وضعه المؤرخ سترابون لهيكل العجل ابيس ، هنالك تبين له أن الهيكل مدفون تحت الرمال فاستأجر بعض الفلاحين لرفع الرمال وكشف عن ١٢٤ تمثالا وظل يحفر حتى عثر على تمثال لأبيس من الجبس وسمع الخديو لماريت أن يرسل الى فرنسا ٥١٣ قطعة . وكانت هذه مقدمة حركة لسرقة الآثار المصرية وتهريبها الى الخارج حيث غمرت عواصم اوربا .

وأمكن لماريت فتح قبر ابيس (نوفمبر ١٨٥١) وكان هذا اول كشف اثرى من نوعه وكان محمد على من قبل اسماعيل قد وهب الفرنسيين مسلتين من قصر الأقصر حيث نقلت الى باريس ونصبت احداها فى ميدان الكونكورد (٢٥ اكتوبر ١٨٣٦) وتكلف نقل المسلة الواحدة الى باريس مليون وثلاثة وخمسين الف فرنك ذهبا .

وقد ارتبطت الكشوف الأثرية بالدعوة الى الفرعونية وتأثر تها «شوقى» بعد كشف قبر توت عنخ آمون . هذا فضلا عما كشف من أوراق البردى التى باعها الأثرى بريس دافين ١٨٤٧ وهى تمثل اقدم كتاب فى العالم يضم نصائح وحكم ومواعظ منذ ٥٥٠٠ سنة كما أصل ذلك بدعوة احمد كمال الى تعليم اللغة المصرية القديمة باعتبارها لغة الأجداد وقد نشر (١٩٢٣/١/١٥) اسماء الكتب التى تعين على ذلك .

وقد ارتفع صوت الصحافة فى الثلاثينيات بتسرب آثار مصر الى الخارج طالما أن أعمال الحفر والتنقيب فى أيدى الأجانب الذى يرون أن (سرقة) هذه الآثار لا يعدو أن يكون خدمة علمية .

وكان «هوارد كارتر» مكتشف قبر توت عنخ آمون (المتوفى فى ١٩٣٩/٣/٤) قد جاء الى مصر ١٨٩٠ وعاون فى حفائر تل العمارنة وعين مفتشا لمصلحة الآثار وتنظيم دار الآثار فى مصر العليا وادخل نور الكهرباء الى وادى الملوك وابو سمبل واكتشف لحساب الحكومة المصرية مدافن الملوك منتوحب وحتشبسوت وتحتمس وامنحتب الأول .

وكان آخر مديرى المتحف المصرى الأب ايتين دريتون (١٩٣٧) وقد تبين أنه خلال عمل الأمناء الأوربيين قد اختفت من المتحف ٢٦ الف قطعة ، وقد حرص هؤلاء الأثريون جميعا على تحريف التاريخ وافتعال نظريات تهدف الى تعزيز (الدعوة الفرعونية) كجزء من خطة « التجزئة والتغريب » التى كانت هدف الاستعمار كله فرنسيا كان او انجليزيا ، ولكن خطوة واحدة لم تتحقق هى ان تصبح الهيلغريفية لغة مرة اخرى او أن تصبح الفرعونية حركة أو ثقافة او تيارا فكريا واضحا .

* * *

٣ — التيار القبطى

هذا هو الوجه الثالث للقومية الاقليمية الضيقة فقد كانت « المصرية » ترتبط بالماضى الفرعونى . وكان حملة الدعوة الى الفرعونية هم المثقفون الأقباط الذين اتصلوا بدعاة التغريب ورجال الآثار الذين ركزوا على احياء الفرعونية فى الثقافة والفكر والمجتمع ، وكان دعاة الفرعونية الأقباط يحاربون الاتجاه الى الوحدة العربية او التراث الاسلامى ويعملون فى نفس الوقت الى الربط بين الفرعونية والقبطية باعتبار ان الأقباط هم خلفاء الفراعنة وورثة هذا التراث .

وقد ردد دعاة القبطية ما نادى به « ماسبيرو » من أن المصريين اقباط اصلا ، وأن العرب غزاة وعملوا على تمجيد الفرعونية وتعظيم الحضارة المصرية القديمة ، وكان فى مقدمة هؤلاء الدعاة : مرقص سميكه منشىء المتحف القبطى وجرجوس فلينساس عوض وميخائيل عبد السيد وتوفيق اسكاوروس وتارس شنوده ميخائيل عبد السيد وسلامة موسى .

ولما كان عدد الأقباط فى اول القرن التاسع عشر ١٥٠ الف قبطى بين ثلاثة ملايين مصرى فقد كان ذلك عاملا على الاحساس بمعنى الأقلية الذى يفرض قيام طائفية قوامها المحافظة على مصالح مجموعهم من الأغلبية عن طريق التماسك والتكافل . وكان الاسلام قد رسم نظاما عادلا للطوائف المختلفة التى تعيش فى مجتمعه غير انه فى خلال عهود الظلم وسيطرة الولاة والأتراك والمماليك قد أحس الأقباط بضغط واضطهاد ، ولذلك كان لهم موقف ازاء المستعمر ، وقد كان هذا الموقف واضحا ابان الحملة الفرنسية ثم تكشف بصورة أوضح بعد ذلك ابان الاحتلال البريطانى .

ويؤكد الدكتور انيس صايغ ـ وهو كاتب مسيحى لبنانى ـ فى كتابه الفكرة العربية فى مصر ـ ص ٩٨) أن الأقباط تحالفوا مع الفرنسيين وتجسسوا لصالحهم على حساب الشعب وتنكروا لحق المشاركة القومية .

وانهم انحازوا الى نابليون وزودوا جيشه بالرجال والعتاد وكان لهم اليد اليمنى فى دعم الحكم الانجليزى فى مصر وقد اقاموا الصلاة فى كنائسهم يوم وصول الانجليز الى مصر . وقال ان الأقباط « كانوا يبررون علاقاتهم مع عدو البلاد بحقهم فى حفظ كيانهم وحقوقهم » واشار الدكتور صايغ الى زعامة المعلم يعقوب القبطى الذى عاون الفرنسيين واستحق انعام السلطة الفرنسية عليه بتعيينه قائدا للفرقة القبطية التابعة الجيش الفرنسى والذى رقى الى رتبة جنرال وصاحب مشروع استقلال مصر عن العثمانيين المسلمين برعاية الغرب المسيحى هو أول من طالب بأن تكون مصر وطن مستقل عن العرب والأتراك وان يعتبر مصر جزءا من أوربا وقد اضطر للجنرال يعقوب أن يسافر مع الفرنسيين فى حالة جلائهم عن مصر ومعه مشروعه ليعرضه مستجديا عطف فرنسا وبريطانيا .

وقد انطوت هذه الصفحة حتى جاء الاحتلال البريطانى فبدات دعوة المصرية التى ترتبط بالماضى الفرعونى تبرز فى حضانة الأقباط الذين بداوا يؤلفون الكتب ويصدرون عشرات الصحف التى تدافع عن الفرعونية والربط بين الماضى الفرعونى والقبطى كما انشاوا عشرات النوادى والجمعيات والمدارس وفى مقدمتها جمعية التوفيق ١٨٧٢ .

وقد بدأ عمل تاريخى لاعادة دراسة التاريخ المصرى وايضاح اثر الأقباط فيه وكان لظهور الآثار المصرية واتساع نطاقها أثر فى دعم هذا الاتجاه التاريخى والقول بأن الحضارة المصرية القديمة هى أولى حضارات العالم القديم .

وقد كانت أهم هذه الأبحاث ما يتعلق بتصوير الروابط بين الفرعونية والقبطية وبين اللغة الهيروغليفية اللغة القبطية .

وقد صور (مرقص سميكة) كيف حافظ الأقباط على تاريخ أجدادهم بمحافظتهم على اللغة المصرية القديمة وكيف « أن اللغة التى تستعمل فى اقامة الشعائر الدينية عند الأقباط هى نفس اللغة التى كان يتكلم بها الفراعنة ، وقد ادخل عليها طائفة من الألفاظ اليونانية . وقال انه لولا المحافظة على لغتهم الأصلية لما تمكن شامبليون من قراءة وترجمة الكتابة المنقوشة بالحروف الهيروغليفية والديموطيقية واليونانية على حجر رشيد الموجود الآن بالمتحف البريطانى ، وقال ان لفظ قبطى معناها مصرى وهى محرفة من اللفظة اليونانية **Stguttlions**
وقال : لذلك فان جميع المصريين : بعضهم اقباط مسلمون والبعض مسيحيون وكلهم متناسلون من المصريين القدماء.

وقد جرت أحكام كثيرة من هذا النوع ، ليست قائمة على الأساس العلمى وانما قائمة على التعصب . ولقد بلغ هذا الأمر حدا دفع مثل احمد زكى باشا الى ان صحح الأوضاع حتى يذود التعصب والطائفية وكانت دعوته مثلا جرى على الألسنة : وهى قوله : « مصريون قبل كل شىء » غير أن جرجس عوض جبهة بدعوة أخرى مضادة هى « اقباط قبل كل شىء » واتخذ نفس أسلوب مرقص سميكة ودعواه .

وقد حمل دعاة الفرعونية القبطية فى هذه الفترة الدعوة لفصل العرب عن مصر وهاجموا الحزب الوطنى واشادوا بالاحتلال البريطانى .

* * *

الفرعونيـــة والعربيـــة

كانت الدعوة الفرعونية احـدى دعوات التغريب والتجزئة والغزو الثقافى وقد وجدت ارضا خصبة وحمل لوائها الكتاب المسيحيون ثم اشترك فيها عـدد من دعاة التغريب من الكتاب المصريين واستغل الاستعمار الكشوف الأثرية واصطنع اسلحة الصحافة والكتـابة وغيرها فى سبيل . اثارة « عاطفة » لأمجاد مصر القديمة لربط مصر الحاضرة بها ، وكان قوام دعوته ان المصريين جميعـا اقباط وان العرب غزاة . وان القومية المصرية تتطلب فنا مصريا خالصا وادبا محليا ولغة مصرية منفصلة من اللغة العربية . وقد حمل لواء الدعوة الى اللغة المصرية كتاب غربيون وقضاة ومهندسون ، ثم حملها كتاب مصريون . بغية القضاء على اللغة العربية .

وقد ظل دعاة التغريب يوجهون النظرية الفرعونية اتجاها منحرفا ضد القومية العربية حتى ظهر احمد كمال باشا أول رائد مصرى لعلم الآثار واعلن أن اللغة العربية اصل للمصرية القديمة (الهيلوغريفية) لـما بينهما من الموافقة فى كثير من العصور . وقد دفعه ايمانه بهـذه النظرية الى اعداد قاموس اللغة المصرية القديمة لم يطبع حتى الآن ، قضى فى تأليفه ربع قرن ويقع فى ٢٢ مجلدا ضخما كشف فيه عن حقيقة العلاقة بين اللسان المصرى القديم واللغة العربية وجملة قوله « أن نصف اللغة التى استعملها قدماء المصريين هى عربية الأصل لفظا ومعنى فضلا عن انها شبيهة بالعربية المصرية التى نستـعملها اليوم ، وبالجملة فان لغة المصريين القـدماء هى لغـة جزيرة العرب لا تختلف احداها عن الأخرى الا بالامالات وبعض المترادفات فهما لهجتان فى لغـة واحدة وبذلك يكون قد تحدد القول بأن الفرعونية سلالة عربية وفدت الى مصر من بين الموجات التى خرجت من جزيرة العرب ولم يعد هناك صراع حقيقى بين العربية والفرعونية » .

ولا شك ان عظمة الفراعنة جزء من تاريخنا وان ريادتهم للحضارة الانسانية شرف كبير ، غير ان هنـاك فارق بين الحقائق تعرض مجردة أو فى حلقة من حلقات التاريخ وبين استغلالها ونقلها الى اتجاه منحرف للقضاء على الروابط العربية والاسلامية بين مصر والكيان العربى

وقد كان الهدف السياسى لدعاة التغريب من بعث الدعوة الفرعونية هو احيـاء الوثنية واضـعاف روح الاسلام واللغة العربية وتمزيق وحدة الفكر العربى المتجه فى مجراه الواسع ، وخلق ثنائيات فكرية ودعوات متعددة وقطع الماضى القريب عن المستقبل ومحـاولة الارتباط تقديم منعزل ليست له ثقافة واضحة .

وغاية ما حققت هذه الدعوة فى مجال الفكر العربى الاسلامى هو كسر الحاجز الذى كان يقف امامه المفكرون دون دراسة تاريخ الفراعنة واعتباره من تراث الوثنيـة . وبذلك اعتبرت الحضارة المصرية جزءا من أمجادنا كعرب وشرق وخاصة بعد أن تبين مدى الارتباط بين الفراعنة والعرب وان الفراعنة ما هم الا موجة من موجات الجزيرة العربية .

وقد جرى سجال فى المقطم (اكتوبر ١٩٢٩) اثاره نقولا الحداد حيث نقل راى المؤرخ (رو لنصون) الذى يقول ان المصريين الأولين وفدوا من بلاد العرب وغزوا البحر الأحمر ونزلوا عند حدود الحبشة ثم تدرجوا الى ان هبطوا وادى النيل واسسوا دولتهم فاذا رجحت هذه النظرية فسيكون العرب قد دخلوا الى مصر ثلاث مرات : الأولى وهى التى نحن بصددها والثانية غزوة الهكسوس اى الرعاة والثالثة : الفتح الاسلامى وبذلك لا يبقى شك أن المصريين القدماء (الفراعنة) سلالة عربية الأصل .

ورد احمد زكى باشا (١٠ أكتوبر ١٩٢٩) قوله : « الفراعنة عرب عرباء » وقد اشار الى أن القول الراجح من علماء العاديات المصرية أن اوائل المصريين الأقدمين قد هبطوا من ارض اسيا الى وادى النيل . وقد اثبت ذلك بروكس الألمانى وابيرس الألمان ولوث وليبان النرويجى . وكان أول من اثبت هذه النظرية « هومل الألمانى » حين ذهب الى أن الحضارة المصرية بحذافيرها كلها انما هى مشتقة من الحضارة البابلية اما الاخصـائيون فيقولون بمجىء أوائل المصريين الى هذا الوادى عن صحراء لوبيا وما اليها من الأصقاع الممتـدة على ساحل البحر الأبيض المتوسط (ا هـ .) .

وفى مجال المساجلة الفكرية قال دعاة الفرعونية ان عشر اللغة العربية التى نتحدث بها هيروغليفى ومنها الأرغول والدف والناى والعود وكان الرد على ذلك بأن اكثر من نصف اللغة المصرية القديمة انما هى فى الأصل عربية .

وقال ساطع الحصرى (آراء وأحاديث فى القومية العربية) انه لا تعارض بين الفرعونية والعربية وان التعارض والتصادم لا يحدثان الا بين الأشياء التى تسير على مستوى واحد فى عالم واحد . والفكرة العربية التى تعمل فى القرن العشرين للأجيال القادمة لا يمكن أن تتعارض مع آثار بقيت ميراثا من ماض سحيق يرجع الى اكثر من خمسة آلاف من السنين . وان الأهرام لم تمنع مصر من الاتحاد مع سائر الأقطار العربية اتحادا تاما فى ساحة اللغة ، فهل يمكن ان تحول دون اتحادها مع تلك الأقطار فى ساحة السياسة أيضا وان العرب لم يطلبوا من المصريين التنازل عن مصريتهم بل انهم طلبوا اليهم أن يضيفوا الى شعورهم المصرى الخاص شعورا عربيا عاما .

* * *

كما ذكر محب الدين الخطيب أن « مينا راس الفراعنة رجل آسيوى جاء الى مصر من آسيا عن طريق سينا العربية او من جبال واودية أخرى وراء سينا وأعمق فى العروبة » بل انه ليس هناك ما يمنع من القول بأن مينا ابن جزيرة العرب . وذلك أن جزيرة العرب تغذى مصر بأبنائها من قبل مينا ومن بعد مينا ومن قبل عمرو ابن العاص ومن بعد عمرو بن العاص . وأن فرعون نفسه كانت تجول فى عروقه دماء غير قليلة من الدماء التى كانت تجول فى عروق عدنان .

وقال ساطع الحصرى فى مجال الرد على العلاقة بين الفرعونية وبين الآثار ان مصر قد تباعدت عن ديانة الفراعنة دون أن تهدم ابا الهول وتخلت عن لغتها القديمة دون أن تقوض الأهرام . وجميع آثار الفراعنة التى زينت بها متاحف مصر ومتاحف العالم لم تولد نزوعا الى الديانة التى أوجدت تلك المآثر الخالدة ولا حركة ترمى الى بعث اللغة التى رافقتها خلال قرون طويلة .

ورد ساطع الحصرى على القول بأن تاريخ مصر مستقل تمام الاستقلال عن تاريخ اى بلد آخر فقال : ان هذا الادعاء افتئات صارخ على الحقائق الواقعة فان تاريخ مصر اختلط اختلاطا عميقا بتاريخ سائر البلاد العربية وتشابكت أوشاجه معها خلال القرون الثلاث عشرة الأخيرة على الأقل ، وان من يلقى نظرة عامة على تواريخ الأمم المعاصرة لنا يضطر الى التسليم بأن العلاقات التاريخية التى تربط مصر بسائر الأقطار العربية أقوى واعمق واطول من العلاقات التاريخية التى تربط الأقاليم الفرنسية بعضها ببعض .

وفى هذا المجال اعلن مكرم عبيد المصرى القبطى أن المصريون عرب « نتيجة امتداد أصلنا القديم الى الأصل السامى الذى هاجر الى بلادنا من الجزيرة العربية » واشار المؤرخ فيت (الأهرام ١٩٣٣/٤/١) ان المسيحية لم تنفح مصر بمدينة جديدة غير مدينتها الفرعونية ، وان مصر حين انتقلت ذلك الانتقال الرائع من حكم بيزنطة الى حكم العرب لم تضطرب ولم تتقلقل لأن القبط الذى أساء اليهم الاغريق قابلوا العرب وتلقوهم تلقى المنقذ المخلص .. واذا كانت قد وقعت فى أواخر القرن الثامن واوائل القرن التاسع احداث ، فان سبب الثورة لم يكن الاضطهاد الدينى ولكن سببه ثقل عبء الضرائب . ولا يستطيع المؤرخ ان يغفل أن الخليفة العزيز اصدر عام ٩٧٥م أمره بالمساواة فى الحقوق بين المسلمين والمسيحيين وكم مضى من القرون والأجيال على اوربا حتى وصلت الى مثل هذه الهوادة بالدين .

واذا كان الدكتور محرم كمال (الأهرام — ٢٨ — سبتمبر ١٩٢٥) يمجد عظمة مصر ويقول : انه بينما كانت اليونان تغط من نومها كانت مصر تحمل علم الفنون ومصباح المعرفة . وبينما كانت اليونان فى مهدها كان ذكر مصر من حيث عظمتها وبهائها وثروتها وقوتها قد طار يعم البلدان واعترف لها الجميع بالتفوق بل بمنصب الأستاذية فى الحكم والمدينة . وقد اخذ الأغريق عنهم كثيرا من الأشكال المصرية » فان هذا القول يرد الى أن عظمة الفرعونية هى جزء من عظمة البلاد العربية .

* * *

المراجع

الاتجاهات الوطنية : الدكتور محمد حسين .

المعارك الأدبية : انور الجندى .

الفكرة العربية : أنيس صايغ .

آراء واحاديث فى القومية العربية : ساطع الحصرى .

الأهرام : ٢٥/٩/٢٨ — ٢٣/٤/١ — ١٩٣٣/٩/١٩

المقطم : ١٩٢٩/١٠/٩ و ٩٢٩/١٠

الأهرام : ١٩٢٦/٢/٣ (اللغة القبطية — مرقص سميكة)

أدوات التغريب والغزو الثقـــافى

* الاستشراق
* التبشير
* دعوات التغريب
* صراع الثقافات الغربية
* دور الحضارة الغربية
* الامتيازات واستعارة النظم

(١)

الاستشراق

كان الاستشراق والتبشير من أبرز ادوات التغريب والغزو الثقافى . ولاشك أن بين الاستشراق والتبشير فوارق واضحة . ذلك أن الاستشراق « عمل ثقافى » يحمل معنى دراسة الشرق وجغرافيته وتاريخه ونفسية أممه وتراثه . وليس الكشف عن التراث المدفون والمخطوطات الفردية النادرة وتقديمها محققه مراجعة على مختلف النسخ مبوبة مفهرسة الا غشاء شفاف يخفى الهدف والغاية التي هى فى حقيقتها « استكشاف الأرض المستعمرة » واعدادها للغزو والتبشير وسيطرة الاستعمار .

* * *

الاستشراق والمستشرقون

اما التبشير فهو « حركة » ينتقل بها مجموعة من المرسلين الى بلاد الشرق حيث ينشئون المدارس او المستشفيات أو المعاهد التيتجتذب ابناء البلاد وفق منهج مرسوم لنشر المسيحية بينهم .

غير أن هناك بينالاستشراقوالتبشير خيوطا دقيقة وصلات أساسية تتجه كلها الى الهدف الذى رسمه الاستعمار وهو التغريب والغزو الثقافى .

ولقد بدأ الاستشراق والتبشير معا بعد الحروب الصليبية ونشأ فى حضانة الكنيسة والبابا ، وكان الاستشراق يستهدف ترجمة القرآن الى لغات أوربا وترجمة الانجيل والتوراة الى اللغة العربية .

اما التبشير فهو توأم حركة الغزو الثقافى الغربى وفق مخطط مدروس على اساس استغلال الطلاب والمرضى وتحويل عقائدهم والتأثير على مفاهيمهم وتحطيم معنوياتهم وتنشئة اجيالممسوخة مبلبلة العقائد مضطربة الثقافة منكرة لقيمها وتراثها ولغتها وتاريخها وبذلكيمكن القول أن المستشرقين هم طلائع المبشرين » وليس مايمنع من أن ننظر الى رجال الاستشراق علىاساس أنهم علماء لهم جهد وكفاية وقد قدموا أعمالا هامة فى أحياء التراث ، غير أن الهوى والتعصب كان عند أكثرهم يغلب على الحق والانصاف وانهم لم يطبقوا المذهب العلمى الذى نادوا به فى أبحاثهم ، واذا أخذنا برأى باحث تغلغل فى هذه الأوساط وتعرف بالمستشرقين وعاشرهم وصحح معهم ترجمة التوراة وخدم مطابعهم فى مالطه ولندن كفارس الشدياق وضعنا نظارات سوداء على أعيننا ونحن ننظر الى أعمال المستشرقين فهو يقول (ذيل الفارياق ص ٢) : ان هؤلاء الأساتيذ لم يأخذوا العلم من شيوخه وانما تطفلوا عليه تطفلا وتوثبوا توثبا . ومن تخرج فيه بشىء فانما تخرج على القسس ثم أدخل راسه فى أضغاث احلام وتوهم انه يعرف شيئا وهو بجهله ، كل منهم اذا درس فى احدى لغات الشرق أو ترجم شيئا منها تراه يخبط فيها خبط عشواء ، فما اشتبه عليه منها رفعه من عنده بما شاء ، وما كان بين الشبهه والتبين حدس فيه وخمن فرجع منه المرجوع ، وفضل المفضول » .

ونحن اذا نظرنا فى عوامل نشأة الاستشراق وجدنا هدفه وغايته :

لقد نشأ الاستشراق لمقاومة الامتداد والتوسع العربى الاسلامى ، هذا الامتداد الذى عبر الى أوربا وسيطر على اسبانيا واجتاح جزءا من جنوب فرنسا حتى مدينة) بواتيه (أو بلاط الشهداء ، وتقدم الى جزيرة صقلية وبدأ يسيطر على جنوب ايطاليا معقل المسيحية ، وكان من نتيجة ذلك أن تألف (مؤتمر فيينا ١٣١١) الذى تراسه البابا كليمان الخامس وتقرر فيه تأسيس مدارس خاصة فى برلين وبولون واكسفورد وسلمنكة تدرس فيها العربية والعبرانية والكلدانية لتخرج وعاظ يستطيعون تنصير المسلمين او تشكيكهم فى عقائدهم .

وقد كان هذا العمل الذى بدأ فى أحضان البابوات

والكنيسة ثم تحول الى خدمة الملوك ورجال السياسة ، يهدف الى دراسة الشرق ولغاته وتاريخه والعقلية العربية

وكان ذلك كله يقدم فى تقارير الى الحكومات ، وكان جل المستشرقين على اتصال دائم بوزارة الخارجية او وزارة المستعمرات . ولم تكن بعثاتهم التى قاموا بها الى بلاد الشرق بعثات علمية خالصة لوجه العلم وان حملت اسماء الجامعات والمعاهد العلمية ، وانما هى بعثات سياسية يذهب محصولها الى وزارة المستعمرات ولا زلنا نذكر البعثات العلمية التى وردت الى الوطن العربى قبل الحرب العالمية الأولى والتى ساحت فى صحراء سينا وجزيرة العرب وكيف انها كانت فى الحقيقة بعثات سياسية حربية أرادت ان تكشف عن الطرق والمياه والسكك الحديدية ومواقع الجيوش وتحركات الغزو ، وقد جاء الجاسوس « لورنس » الذى اطلقوا عليه من بعد الحرب العالمية الأولى ملك العرب غير المتوج مع احدى هذه البعثات .

وقد استهدف الاستشراق خدمة الاستعمار عن طريق العلم ، وظهرت جميع النظريات الاستعمارية التى قامت على التهوين من شأن الشرق والعرب والاسلام فى أحضانه . وكلها نظريات انخدع بها باحثونا فى الثلاثينيات من هذا القرن ورددوها فى مؤلفاتهم ، وقد قامت على الهوى والغرض وكان فى مقدمتها نظرية « السامية » والآرية التى تصف العرب والجنس السامى بأنهم قوم اقل درجة فى الفكر والثقافة من الاجناس الأخرى كما سجل ذلك ارنست رينان احد كبار المستشرقين عام (١٨٩٢) فى كتابه تاريخ اللغات السلمية قال : ليس للجنس السامى روحانية الآريين التى عرفها الهنود والألمان وليس لهم هذا الاحساس بالجمال الذى بلغ حد الكمال عند اليونان : وقد ارتبط التوحيد عند الساميين بالتعصب . فالساميون تنقصهم الدهشة التى تدعو الى التساؤل والتفكير . فلسفتهم منقولة عن اليونان . ينقصهم الاحساس بالتنويع . ملكة الضحك عندهم معدومة . وعندهم نقص فى الفنون الجميلة مثل صناعة التماثيل والتصوير » .

ولعل هذه النظرية وحدها تعطى حقيقة الاستشراق وموقفه من المنهج العلمى ومن التعصب .

وقد اداهم هذا التعصب الى أن يتخذوا طريقا محفوفا بالمخاطر حيث تراهم يفرضون فرضا يتفق مع اهوائهم ثم يبحثون فى القرآن او الحديث او الآثار المختلفة عن الأدلة التى تؤيدها وجهة نظرهم .

وقد كانت مؤتمرات الاستشراق لا يدعى اليها من البلاد العربية الا أعوان المستشرقين ودعاة التغريب وان احدا منهم لم يعارض اى اتجاه للمستشرقين فيما عدا احمد زكى باشا شيخ العروبة وعبد الله فكرى فى أول مؤتمر للمستشرقين حيث تحدث الأخير عن بطلان دعوى اللغة العامية .

* * *

(التركيز على الاسلام)

ولعل اهم ما ركز عليه المستشرقون هو الاسلام والنبى محمد فهم معتدلوا الراى عندما يتعرضون لتاريخ العالم القديم فاذا بلغوا مرحلة الاسلام بدأ التحريف والافتراء والكذب على الدين وعلى النبى فمرجليوث يقول أن « محمد » هو مؤسس دين حربى لا صلة بينه دين الفضيلة وان « ابن عبد الله » تطلق على الوالد المجهول او على من ليس لى أب وكان لفظ (عبد الله) معناه الشخص المجهول . وان القرآن مافق .. وان القرآن كسجل تاريخى ليس مرتبا حسب الحوادث والتاريخ . وفنسنك رئيس تحرير دائرة المعارف الاسلامية قد حشا دائرة المعارف الاسلامية طعنا جارحا على النبى وعلى الاسلام فى كل مادة .

وهم فى سبيلهم الى اثارة الشكوك والبلبلة لا يدرسون الأسلام الصحيح ولكنهم يدرسون الالحاد فى الاسلام والشخصيات التى عرفت بالانحراف كابن الراوندى والحلاج والسهروردى وابن عربى ويدرسون مذاهب الخلاف والفرقة كالمذاهب الكلامية والتصوف والزندقة كما يدرسون القرامطة والزنج والشعوبية البابكية وغيرها على انها فرق من الاسلام ومذاهب منه .

والغرض من هذا كله تصوير الاسلام بصورة مضطربة منفرة قوامها الخلاف والصراع والتخلخل .

وقد وزع المستشرقون انفسهم على ابحاث الاسلام فاختص قسم منهم بمباحث القرآن وآخر بمباحث النبى وثالث بأبحاث الدين الاسلامى .

وفنسك المستشرق الهولندى المتعصب قد زود جماعة المستبشرين والمستعمرين باجابات على اسئلة ورد على فروض لتكون اداة فى زعزعة عقائد المرسلين ومما ردده فنسنك ان محمدا كان وثنيا قبل البعثة وقول

اميل در منجم ان محمدا كان يتعبد على طريقة اليهـود والمسيحية .

واعلن المستشرق سيكارو صراحة : ان الاسـلام فى روحه الخاصة يتناقى مع مصلحتنا فيجب التقليل منـه بين الشعوب الخاضعة لنا .

ويقول مرجليوث ان الاسلام معناه الذل والخضوع .. وقال عن القرآن ان اول ما يلفت النظر اليه هو كثرة التكرار لدرجة المبالغة وهو يحوى شيئا كثيرا من اللفظ الحوشى .

وجملة آراء المستشرقين فى الاسلام والقرآن واللغة العربية :

● — محمد : مجهول الأب ، كان وثنيا قبل الهجرة

● — القرآن كتـاب وضعه محمد ، وانه حرف وبدل بعـد النبى وان التوراة والانجيل مقدسـين وان القرآن غير مقدس .

● — الدين الاسلامى مخترع ملفق .

● — اللغة العربية الفصحى لا تصلح لشىء وهى لغة قديمة قد ماتت ولا يتكلم بها احـد واللهجات المحلية انفع منها .

● — لم يكن للعرب فضل فى ثقافة او تاريخ .

كما جرى الاهتمام بانكار ان أصل العلوم اليونانية وتطورها له صـلة بالشرق . وانكار النصـوص اليونانية التى تعترف للشرق بانه واضـع العلوم وان اليونان اخذوا عنه معارفهم (جويدى) .

— العناية بدراسة اللهجة العامية بمصر . وهى ما يطلقون عليها اللغة المحكية . (نلينو) .

● ان اهالى مراكش من البربر لم يعرفوا الاسلام ولم يؤمنـوا به . وانهم لا زالوا غير مسـلمين ، وان « العرب » الذين فتحوا الأندلس وغزوا فرنسا وايطاليا كانوا مسيحيين وان طارق بن زياد لم يكن عربيا ولـكنه كان بربريا مسيحيا .

واذا كان بعض مؤرخو الغرب أو كتابه قد انصفوا الاسلام والقرآن امثال كارليل وجوستاف لوبون وجوته وهنرى دى كاسترى وولز وبرناردشو فانهم ليسوا من المستشرقين .

ومن مثال ذلك قول ولز : عن خصائص الاسـلام « ان ابرز خصائصـه الوحدانية المطلقة التى لا تعرف هوادة ، وعقيدته السهلة المتحمسة فى الله وحكمه وخلوه من التعقيد المذهبى والتحرر المطلق من الرهبنة والمعبد ، ذلك هو تأكده الاخاء والمساواة بين المسلمين أمام الله مهما تكن الوانهم واجناسهم واوضاعهم » .

* * *

موقف الفكر العربى الاسلامى من الاستشراق

كان موقف الفكر العربى الاسلامى من الاستشراق كشأنه دائما من كل ما هو غربى : الحرص والحذر بالرغم من ظهور طائفـة من دعاة التغريب من تلاميذ المستشرقين الذين رددوا آرائهم وحملوا لواء افكارهم امثال منصور فهمى واحمد ضيف وطه حسين وزكى مبارك واسماعيل مظهر وتوفيق الحكيم . فقد كتب منصور فهمى رسالة الدكتوراه فى باريس تحت اشراف المستشرق الاسرائيلى « ليفى بريل » عن (حالة المرأة فى التقاليد الاسلامية وتطوراتها) وكان مما جاء بها ان محمد شرع لكل الناس واستثنى نفاسه وكان له ضعفه واختص نفسه ببعض المزايا . وقال منصور انه نشأ مسلما فى وسط اسلامى وانه قصـد باريس ففتح عليه بارشـاد العلامة ليفى الاسرائيلى فظهرت فيه « المؤثرات السعيدة » فدون هذه الرسالة التى بحث فيها حالة المرأة فى الاسلام .

وكتب طه حسـين تحت اشراف اليهودى دور كايم رسالة عن ابن خلدون نقل فيها راى المستشرقين فى كفاح أهل المغرب ضد الغزاة والمستعمرين الفرنسيين وهاجمهم واتهمهم بأنهم يؤخرون عمل فرنسا فى نشر الحضارة .

ونقل آراءه فى كتاب الشعر الجاهلى من رسالة لمشر وايس لمستشرق هو (هاشم العربى) وفى الشعر الجاهلى كذب طه حسين القرآن فى اخباره عن ابراهيم واسماعيل وأنكر القراءات السبع المجمع عليها فزعم انها ليست منزلة من عند الله تعالى وطعن فى نسـب النبى وانكر ان للاسلام اوليته فى بلاد العرب وانه دين ابراهيم وردد توفيق الحكيم آراء « رنيان » فى العقل العربى . وردد اسماعيل مظهر آراء المستشرقين الغربيين من انه

لا علاقة البتة بين الدين وبين المجتمع وقال ان الذين يقولون بأن للدين أثر فى المجتمع واهمون فان المجتمع قائم على أمران : القوانين الوضعية والمعاهدات والنظم الموروثة « فما دخل الدين اذن فى النظام الاجتماعى » ؟

وقد عرض كثير من كتابنا لرأيهم فى الاستشراق والمستشرقين :

من ذلك ان محمد كرد على رئيس المجمع العلمى بدمشق الذى التى فى القاهرة (٧ مايو ١٩٢٧) محاضرة بمدرسة المعلمين العليا امتدح فيها المستشرقين بأنهم خدموا اللغة العربية باخراج ذخائرها وتعريف المعاصرين من اهلها بمجد اسلافهم وذكر عشرات من مستشرقى كل مملكة واسماء امهات الكتب التى كان لها الفضل فى طبعها .. وقال ان الاستعمار كان سببا من اسباب عناية الأوربيين بدراسة اللغات الأجنبية عامة والشرقية وفى مقدمتها العربية خاصة ورد عليه عبد العزيز شاويش فقال ان المستشرقين فى العصر الحديث قد اصبحوا دعاة للاستعمار وقال ان تأدبهم بآداب العرب لم يزدهم الا جفوة وغلظة وعتوا .

وقال ان المستشرقين انما يتفوقون بما يجدونه من مساعدات مادية ومعنوية فهم يسيرون فى البحث العامى تتقدمهم مدافع حكوماتهم واموال أوقاتهم المرصودة لخدمتهم . وقال ان المستشرقين مع كل امتيازاتهم قل منهم من يفقه آداب اللغة وأسرار الاسلام ومنهم من يظن أن اكل لحم الجمل من الفروض الاسلامية وطبع احدهم كتابا عن القرآن ملىء بالأخطاء فى اللغة وان مستر فاولا مدير دار الكتب المصرية طعن فى القرآن فى محاضرة القاها فى مؤتمر المستشرقين فى الجزائر سنة ١٩٠٥ .

وتساءل الدكتور على العنانى (الهلال م ٤٠ ص ١٣٩٣) عن عناية المستشرقين بالأدب العربى وهل هى خالصة للعلم . وقال ان الغربيين الذين يكتبون فى اوربا عن الشرق ينقسمون الى قسمين : قسم يكتب فى الناحية السياسية . وقسم يكتب فى الناحية العلمية .

وهذا القسم الأخير ينقسم الى فريقين (١) فريق تحرر افراده من الهوى فى مباحثه العلمية (٢) وفريق تغلب عليه العواطف المغرضة ، والقسم الأول مهمته الاشادة بعظمة اوربا والحط من كرامة الشرق لتقرير نظرية دوام وصاية اوربا على الشرق ، والقسم الثانى : على القارىء الشرقى أن يتعرف روح كتابته ويفرق بين الكاتب الذى يتأثر بعاطفة مخصوصة وبين الذى يكتب للعلم مجردا من أيه عاطفة » ومؤدى الرأى التشكيك فى اغلب ما يكتب المستشرقون .

اما « روحى فيصل (الرسالة ع ١١١ ص ١٢٣١) فيرى أن بين المستشرقين طائفة معتدلة قد اخلصت فى دراستها الاخلاص كله . فنظرت الى الأدب العربى والتاريخ الأسلامى والى كل ما انتجه الشرقيون من دين وعلم وفلسفة نظرة مجردة عن الهوى كما يتطلبها البحث العلمى الحديث الا ان بعض افراد هذه الطائفة انعدوا لا يتجاوزون عدد الأصابع وهم ازاء الكثرة الهائلة المغرضة من المستشرقين لا يذكرون شيئا وقد قيل أن النادر لا حكم له » .

وقد عنى محمد كرد على بالدفاع عن المستشرقين والاشادة بفضلهم من : سلفتر دى ساسى (زعيمهم الأول) الى اليوم نتيجة لعملهم (فى الكشف عن تراثنا الذى كنا نجهله وطبع المخطوطات العربية) غير انه عاد فاعترف بخطر اعمالهم فقال (الرسالة ع ١١٤ ص ١٤٧٧) انى موافق على ما قاله (روحى فيصل) فى تزييف بعض من تعلموا لغات الشرق الا اننى لا اغمط حق العاملين منهم . أعلم ان كثير منهم يعملون لسياسة بلادهم وان منهم دعاة دين متعصبين يتخذون الاستشراق ساما لخدمة دينهم على نحو ما فعل اسلافهم فى القرون الوسطى » .

اما الدكتور حسين الهراوى فقد هاجم المستشرقين بمناسبة تعيين « فنسك » عضوا فى المجمع اللغوى المصرى (نوفمبر ١٩٣٣) فقال (الهلال م ٤٢ ص ٣٢١) : اذا قلبت اى كتاب اجتماعى او عمرانى باللغة الأجنبية يتكلم عن مصر او الشرق او الاسلام وجدت اشياء كثيرة لا يقرها عقل ولا يستسيغها منطق وليس من الحقيقة فى شىء . ويلفت نظرك بصفة خاصة ما يوصف به الدين الاسلامى من الصفات التى لا تنبو فقط عن الذوق السليم والحقيقة . بل أن الكتاب الأوربيين يصورون الاسلام بصورة بشعة غريبة لا تكاد تقرأها حتى يقشعر بدنك من هول ما تقرأ .

وقال : كنت اطالع هذه الكتب التاريخية فأجد فرقا كبيرا عندما يكتب عن التاريخ القديم كوصف مصر القديمة وآثارها وسوريا وتاريخها والعراق وماضيها . فاذا تكلمت عن الجزء الاسلامى او حياة سيدنا محمد (ص) اجد تحريفا ظاهرا واضحا وتشنيعا كثيرا .

وقال : اطلعت على تقرير لجنة العمل المغربى الذى كتبه المستشرق سيكارو يصف طرق مقاومة الاسلام وهو واحد من التقارير السرية التى يرسلها المستشرقون من البلاد المستعمرة الى حكوماتهم لمقاومة الاسلام لأنه روح يتنافى مع الاستعمار والتقليل من اهمية اللغة العربية وصرف الناس عنها باحياء اللاهجات المحلية فى شمال

افريقيا وتحبيذ اللهجات العامة حتى لا يفهم المسلمون قرآنهم ويمكن التغلب على عواطفهم » ويقول سيكارو ان الاسلام فى روحه الماضية قوة مخالفة لاحتياجاتنا ورغباتنا ونزعاتنا . وان من مصلحتنا التقليل منه بين الشعوب الخاضعة لسلطتنا » .

قال : وفى زيارتى لأوربا علمت ان الأوربيين يربون طائفة من العلماء على كراهية الاسلام واحتقار الشعوب الاسلامية . وان المستشرقين جماعة يربون تربية استعمارية — ليعملوا فى المستعمرات — على اسلوب يحذرهم من العطف على الشرق او الميل للاسلام .

وقال : اما عن مواضع دسائس المستشرقين فهم يتكلمون فى التاريخ الاسلامى بروح المؤرخ اما عن سيدنا محمد (ص) وعن الاسلام وعن القرآن فهم يتكلمون بروح المنفر الذى يخيف الناس من الاسلام وبروح المتحامل الذى يكيل الشتائم من غير وزن .

وقال ان من طريقة « فنسك » فى البحث التوصل الى الآيات التى تتناسب مع الرأى الذى يفترضه فاذا وجد آية لدحض رايه حذفها وانكرها انكارا حتى يخرج بالنتيجة التى تزرع الشك فى فؤاد من يطلع على اقواله من غير تمحيص . وقال انهم تنقصهم فى مباحثهم عن الاسلام : « الروح العلمية » . ولهم فى الاستقصاء طريقة لا تشرف العلم . وهى انهم يفرضون فرضا ثم يلتمسون اسبابه ، فاذا وجدوا فى القرآن آيات تتناسب فى معانيها مع فرضهم اقتبسوها ، واذا وجدوا آيات لا تتناسب مع اغراضهم تجاهلوها ، وقالوا انها غير موجودة فى القرآن — وقال اننا اذا ما خلعنا عنهم تلك الزخارف البراقة من الوهم الذى احاطوا به انفسهم لظهروا قوما ضعافا فى العلم لهم فى الاسلام مآرب سيئة » ا . هـ .

***

المستشرقون والاسلام للدكتور الهراوى

وحاول زكى مبارك الدفاع عن المستشرقين فاثبت كل ما وجه اليه من تهم (الهلال ص ٣٢٥ م ٤٢) قالوا : ان المستشرقين طلائع الاستعمار وهذا صحيح . على ان المستشرقين لا يستطيعون ان يقضوا اعمارهم جميعا وهم ادوات استعمارية فبعضهم تغلب عليه النزعة العلمية وتضعف النزعة الاستعمارية ، ومن دلائل ذلك انكباب كثير من المستشرقين على مسائل نظرية بحتة لا تقدم ولا تؤخر فى خدمة الاستعمار وقالوا : وللمستشرقين اغلاط : وهذا صحيح فان كبار المستشرقين لهم اغلاط مضحكة فى فهم المعانى الشعرية .

وقال زكى مبارك « وللمستشرقين اخطاء فى شرح قواعد الاسلام وهذا صحيح فلكثير منهم فصول لا تجمل بالعلماء . وخاصة حين يتحدثون عن حياة الرسول . ولهم نظرات الى حياته المنزلية والاجتماعية والتشريعية تدل على ان فريقا منهم يخدم بعض الهيئات الدينية » .

وقد سبقونا الى الدراسات الأدبية والاسلامية بنحو ثلاثة قرون . والباحث الجاد فى مصر والشرق لا يستطيع الفرار من بحوثهم : وليس لدى ما يمنع من الاعتراف بأن اثر المستشرقين ابقى فى ذهنى واوضح . ومن الفصيحة ان اشير بتاثير خطوات المستشرقين فى غير زيغ ولا ضلال . ولا ننسى ان المستشرقين ناس لهم مطامع ولهم اهواء . واكثرهم لا يتصل فى بلده بغير وزارة المستعمرات وانا لا اهون من أغلال المستشرقين ولا ادعو الى متابعتهم فى غير بصيرة ولا روية » .

وقال الدكتور هيكل (حياة محمد ص ٦١) انهم متأثرون بالنصرانية الأدبية تأثرا يجعل اكثرهم ينظرون الى الأديان نظرة تملؤها الريبة . وتجعل الأقلية المستمسكين بمسيحيتهم يتأثرون بما كان بين المسيحية والعلم من نضال فيخضعون فى بحوثهم الاسلامية لمثل ما خضع له امثالهم فى بحوثهم المسيحية او بحوثهم الدينية بوجه عام .. وقال « ان الخطأ يتسرب الى بحوث المستشرقين : لعدم الدقة فى ادراك اسرار اللغة العربية تارة ولما يشوب نفوس طائفة من هؤلاء العلماء من الحرص على هدم مقدرات دين من الأديان او على هدم مقررات الأديان جميعا . ومن الأدلة على تأثر بعض المستشرقين بحرصهم على هدم المؤثرات الدينية واسرافهم فى ذلك ما تدل عليه مباحثهم من ان القرآن ليس وثيقة تاريخية لا محل للريبة فيها ، وان تجنيهم على الاسلام لم يمليه الا الحقد . وان دراساتهم لم تمكنهم من ادراك روح الاسلام واساس حضارته » .

ويضيف نجيب العتيقى (فى كتابه « المستشرقون ص ١٩٧) كيف ساعد المستشرقون ملوكهم وولاتهم فى استيلائهم على الشرق وعن طريقهم درسوا كل ما فى الشرق : عقليته وكتبه واديانه وعقائده وتاريخه ولغاته مقدمة لغزوه — وبذلك تمكنوا من فرض ثقافتهم ولغاتهم فما بقى فى الشرق اليوم زاوية الا ولغة غربية تعلم رسميا فيها الى جانب لغاته « ومن اجل ذلك احسن ملوك الغرب

صلات المستشرقين وانتدبوهم سفراء وقناصـل وتراجم وموظفين فى سلكى الجيش والسياسة ومنحوهم القاب الشرف كبارون وكونت والأوسمة وكراسى التدريس فى اشهر الجامعات » .

وقال شكيب ارسلان : انهم اذا عثروا على حكاية شاردة او نكتة واردة فى زاوية كتاب قـد يكون محرفا سـقطوا عليها تهافت الذباب على الحـلواء وجعلوها معيارا ومقياسا ، لا بل صيروها محكا يعرضون عليهـا سائر الحوادث ويغفلون او يتغافلون عن الأحوال الخاصة .. ويرجع هذا التهور الى قلة الاطلاع على الأصل .

وقال يوسـف داغر فى كتابه (مصادر الدراسـة الأدبية) ان لبعض المستشرقين ابحاث فكرية تفتقر الى الدقة وذلك لعجمتهم وقلة خبرتهم بمذاهب الكلام عنـد العرب وضعف الروح العربى فيهم .

* * *

اخطاء المستشرقين

وقد سجل نجيب العقيقى ـ (ص ٢٢٣ من كتابه المستشرقون) اخطاء المستشرقين :

اولا : التعصـب الدينى : وقال ان الضـلال فى العصبية الدينية ، فاذا كتب المستشرق المسـيحى عن ديانات الشرق غير المسيحية فلا يكتب بذلك القلم الذى يكتب به فى الآداب والتاريخ والأخلاق والعادات ، لأنه لم ينس دينه ساعتئذ ، منهم من ينكر ان يكون لمحمد ولد من الذكور ولو دعى بأبى القاسم ويشك فى تلك الشـجاعة التى عرف بها العرب ويميل بهـا الى الخرافة . ومنهم كازاونا الذى يتقول بأبى بكر انه اضاف فى جمعه القرآن قوله : ان الله انزل القرآن على النبى » واغرب من ذلك قول مرغليوث انه كان النبى جمعية كالجمعيات السرية اليوم .

ثانيا : اخطاء الترجمة والنسخ : لمـا كان بعض المستشرقين لا يحسن الترجمة عمدوا الى الاستنتاجات . ترجم كازانوفا كلمة « أمى » بشعبى ومما يؤخذ على المستشرقين اعتمادهم على اصول اللغة ومعظمها لاقواعد له فيشرحون على الطريقة الكلامية دون معرفة القصـد الذوقى فيها . وثمت تعابير عربية او دخيلة يشق عليهم فهمها وخاصة اذا استندوا الى من تقدمهم من مستشرقين وقد كتبوها بالحروف اللاتينية التى كثيرا مالا تفى بحاجة اللفظة العربية .

ثالثا : نرى أن بعض هؤلاء الناس يفترون بنفوسهم فيترفعون عن العلماء العرب ولا ينظرون اليهم الا نظرتهم الى تلامذة الكتاتيب .

نرى أن بعض هؤلاء ـ اى المتغربين العـرب ـ خدعو بينهم وبين انفسـهم فظنوا ان المستشرقين اتوا فصل الخطاب والحجة الواضحة .

وقال نجيب العقيقى : ان السير وراء المستشرقين حتى النهاية هو عين الضلال .

× كما هاجم امين الخولى الاسـتشراق (الأدب سـبتمبر ١٩٥٧) وقال أن الاستشراق والاسـتعمار والتبشـير اشبه بالحلقـات الثلاثة المتداخـلة وهاجم مؤتمراتهم التى قال انه يحضرها منذ عام ١٩٣٢ لأنهـا تتجاهل اللغة العربية بالرغم من انها لغة الدراسـة الاسلامية على اختلاف صنوفها . وقال : ان هذه المجامع لا تعد اللغة العربية لغة لهم بصفة عامة ، وقال : ان كل اقتراح قدم فى مؤتمرات المستشرقين لجعل اللغة العربية لغة رسمية رفض .

* * *

المـــراجع

مجلة المجمع (دمشق) مجلد ٨ ص ٦٨٠ : خطاب

كرد على فى مؤتمر المستشرقين باكسفورد .
حياة محمد : الدكتور هيكل
حسين الهراوى : المستشرقون والاسلام
اغراض الاستشراق : الرسـالة ع ١١١ ص ١٣٣١ و ع ١١٤ ص ١٤٧٧
الهلال : المستشرقون : الهراوى وزكى مبارك م ٤٢/٣٢١
الهلال : المستشرقون والآداب العربية م ٤٠/١٣٩٣
الثقافة : عدد ١٤ ص ٢٢ وعدد ٧ ص ٣١ عدد ٢٧١٨ .
المكشوف : عدد ٤٣

(٢)
التبشـــير والاســـتعمار

ليس « التبشير » الا احد الحركات الكبرى للغزو الثقافى والتغريب والسيطرة على العالم العربى وقد سبق الاستعمار ومهد له وفق خطة ضخمة تهدف الى القضاء على العقائد الدينية والثقافات والقيم التى تقوم عليهـا مقدرات الأمة العربية باعتبار ان هذه العقائد قامت على اساس القوة الروحيةوالنفسية التى الهبت مشاعرهذه الأمة فى الدفاع عن كيانها والجهاد فى سبيل حريتها ، وقد وضع مخطط التبشير على أساس القضاء على كل مقاومة او مناعة مســخرين العلم والطب والسياسة والحيـاة الاجتماعية والثقافة والأدب واللغة فى سبيل هذا الهدف واستغلال فقر هـذه الشعوب وجهلها وضـعفها فى السيطرة على عقائدها وعواطفها ومشاعرها .

ويهدف مخطط التبشير الى :

١ ــ تشويه الثقـافة الاسلامية والتراث العربى والاسلامى .

٢ ــ افساد الخصائص القومية فى البلاد العربية والاسلامية .

٣ ــ خلق تخاذل روحى وشعور بالنقص مايؤدى الى الخضوع للمدنية الغربية .

٤ ــ توسيع شقة الخلاف بين الطوائف والمذاهب واثارة النزاع بين الأديان .

٥ ــ اخضـاع الأمة الاســلامية والوطن العربى للاستعمار الغربى .

٦ ــ اعداد شخصيات عربية لاتقاوم النفوذالأجنبى

وقد بدأ التبشير عمله ١٨٣٠ بعد ان اقره البابوات ورسموا خطته ووضعت الدول الاعتمادات الضـخمة له ، وفى مقدمتهم بيوس الحادى عشر (ك / التبشـير والاســتعمار ــ م. خالدى و ع. فروخ) عن طريق المدارس الأجنبية والارساليـات الخاصـة والجمعيات العلمية والجامعات والأندية والصحافة والمستشفيات والملاجىء كطليعة للاستعمار وكوسيلة للسيطرة والثقافة الدينية والسياسية على العالم الاسلامى .

وعن طريق التعليم زيفوا التاريخ الوطنى والاسلامى والعربى . وطعنوا على العرب اوالاسلام .

وقد استخدم التبشير لتحقيق اغراضه فى افريقيا .. ومن ذلك ان (لفجنســتون) الذى اكتشـف وسط افريقيا لم تكن رحلته الكشفية الا جزءا من عمـل البعثات التبشيرية .

وكان المبشرون من ناحية اخرى اداة لتقديم معلومات وبيانات الى وزارات الخارجية والمستعمرات واسـتغل الاستعمار صفا من دعاة التغريب فى البلاد العربية لمعاونة المبشرين ووضع خططهم وأفكارهم موضع التقريب الى الجماهير ، ونشرت فصول فى الصحف لاثارة الشكوك والاتهامات وخلق قضايا ثقافية تتعلق بالالحاد والاباحـة باسم حرية العلم والتخلص من سلطان الدين والتقـاليد ومهاجمة اللغة العربية والاسلام . ورموا كل من يقف فى وجه سمومهم بالجهود والرجعية .

***

عمل المبشرين فى ميدان التعليم

اتخذ التبشير اتجاهين كبيرين : الاتجاه الأول عن طريق التعليم وانشاء الكلـيات والمدارس وقد تركز فى لبنان ومصر واسانبول واسـتهدف المراة العربية بنوع خاص والاتجاه الثانى : وهو التبشير السرى وقد شمل العالم الاسلامى كله وقد بدأت حملات التبشير على الكيان العربى

فى الربع الأول من القرن التاسع عشر فى صورة المرسلين الأمريكان الذين وصلوا الى بيروت بزعامة غالى سميث عام ١٨٢٧ ثم بوصول فان ديك ١٨٤٠ ودانيال بليس مؤسس الجامعة الأمريكية ١٨٥٦ ،

وبدأ نشاط اليسوعين (العازاريين) بانشاء اول مدرسة فى عنبطورة ١٨٣٤ واسس الانجليون الأمريكان اول مدرسة فى عبيه ١٨٤٦ ، وقد تم انشاء الجامعة اليسوعية والجامعة الأمريكية ، كما وفدت جماعة المرسلين الأمريكية الانجليين الى مصر ١٨٥٥ حيث انشأت كلية أسيوط ثم الكلية الأمريكية بالقاهرة (وقد وردت ارساليات لدول عربية متعددة وكانت كل دولة تحتضن مذهبا من مذاهب المسيحية ، فالكاثوليكية فى حماية فرنسا ، والأرثوزكية فى حماية روسيا ، والبروتستانتية فى حماية بريطانيا (انجلترا) وقد استهدف التبشير تحقيق غاياته الاستعمارية عن طريق التعليم وهو تنشئة جيل يدين بالولاء للدولة التى تتبعها المدرسة أو الجامعة فضلا عن الولاء للثقافة الغربية نفسها والاستعمار والاستهانة بالقومية والدين واللغة) .

وقد عدت الجامعة الأمريكية فى بيروت مركزا هاما من مراكز الغزو الثقافى فى الشرق الأوسط كله واستهدفت منذ اليوم الأول تعليم الدين المسيحى والمذهب البروتستانتى ، وصرح المستر بنروز أحد عمداء الجامعة : ان الغاية الأولى من تأسيس الجامعة لم يكن تعليم العلم وانما نشر المذهب البروتستانتى .

وقد كان جميع رؤساء الجامعة الأمريكية ومدرسوها مبشرون على اساس أنها مدرسة بروتستانتية ولذلك فهى تجبر الطلبة على حضور الصلوات .

وقد أسفرت الجامعة الأمريكية — وان توارى اتجاهها الآن قليلا — كل دروسها فى سبيل تأويل مسيحى لفروع العلم كالتاريخ وعلم النبات . وقد أعانت الكلية فى كل مناسبة أعرض فيها الطلبة المسلمون الذين تضمهم من الشام والعراق ومصر والسودان عن اجبارية دخول الكنيسة : انها كلية مسيحية اسست بأموال شعب مسيحى وانهم قد عملوا لايجاد تعلم يكون الانجيل من مواده ولذلك لابد ان تعرض منافع الدين المسيحى على كل تلميذ .

* * *

التبشير والاستعمار

وقد صرح بنروز رئيس الجامعة الأمريكية (١٩٤٨) عن هدف التبشير من التعليم فقال : لقد برهن التعليم على انه أثمن وسائل التنصير .

ولذلك كان الهدف الأمريكى من التبشير هدفا دينيا اساسا ، ولكنه تحول الى هدف سياسى بعد أن بدات امريكا تتدخل فى سياسة العالم العربى وخاصة موقفها من اسرائيل بعد ان خلقتها وأمدتها بالحياة وقد استهدفت هذه الدعوة :

(١) التشكيك فى الاسلام .

(٢) القضاء على اللغة العربية وتغليب اللهجات العامية .

(٣) كتابة هذه العلوم بالحروف اللاتينية .

أما هدف المبشرين الفرنسيين (ومركزهم الجامعة اليسوعية فى بيروت) فهو خلق صداقة روحية مع فرنسا .. فالاستعمار فى المؤسسات الفرنسية يستهدف خلق روابط ثقافية وسياسية مع فرنسا ، على أساس البرنامج الفرنسى الذى وضع عام ١٨٦٤ وهو « معرفة فرنسا ومحبتها » وقد أعطى الاحتلال الفرنسى ببيروت فرصة كبيرة فى سبيل دعم هذا الموقف .

ولا شك ان تعدد جهات التعليم فى الوطن العربى كانت فى حد ذاتها هدفا استعماريا وغزوا ثقافيا وتعزيزا التغريب وذلك بتمزيق وحدة الفكر العربى الاسلامى عن طريق تمزيق تيارات التعليم فى التبعية لفرنسا أو لبريطانيا أو لأمريكا مما يؤدى الى القضاء على الوحدة الفكرية ، وهكذا سيطرت هذه المعاهد التغريبية المسيحية النزعة على الشباب المثقف الذى اصبح بعد من قادة بلاده ، وذلك بانشاء فلسفة متسامحة مع الاستعمار ، محرومة من روح الجهاد والحرية التى يدعو اليها الاسلام .

* * *

اهداف التبشير

وقد لخص كثير من الباحثين أهداف التبشير فى انه العمل لسيطرة الاستعمار سياسيا واقتصاديا وذلك بالقضاء على اللغات والأديان غير النصرانية والتاريخ

القومى موصلا الى استعباد اتباعها ، ذلك أن الاسلام بأهدافه فى المقاومة وتاريخه فى الجهاد كان موضع خشية الدول الأوربية التى تراه قوة ضخمة تحول بينها وبين استعباد الأمة العربية والسيطرة عليها وترى انه شديد المراس فى صد كل دخيل وانه دين الحرية والكرامة والمقاومة ، وقد اجمع المبشرون ومنهم (كارل بيكر وجاردنر) أن القوة التى تكمن فى الاسلام هى التى تخيف أوربا .

ولقد كان أشد ما يخشاه الاستعمار أن يتم الالتقاء بين أجزاء الأمة العربية فتتم الوحدة التى تقاوم الاستعمار — كما أشار المبشر لورنس برون — الى ذلك حين أشار الى أن هدف التبشير أن « يبقوا — أى المسلمين — متفرقين حتى لايكون لهم وزن ولا تأثير اذ ان تجمع العرب يساعدهم على التخلص من السيطرة الأوربية » .

كما هدف التبشير الى اظهار الأوربيين فى ثوب الأبرار حماة الحضارة أنصار الحياه والعلم وذلك حتى يتمكنوا من الوصول الى قلوب العرب والمسلمين وتحقق أهدافهم التى ترمى الى سلب القيم العربية العقلية والخلقية والروحية عناصر قوتها وتمييع هذه القيم والتشكيك فيها .

ويرى المبشرون ن هدف التبشير فى الأغلب ليس نشر المسيحية بقدر ما هو هدم الاسلام . ويقول المستشرق هنرى جسب أن (المبشرين) استغلوا جهودهم لخدمة دولهم واذكوا نار العدواة فى الذين كانوا يبشرون بينهم .

* * *

التبشير والاسلام

لا شك « أن محاربة الاسلام » هى العمل الأول للتبشير . وقد اتخذ لذلك خططا متعددة تقوم على أساس المغالطة فى تاريخ المسلمين ودينهم وتاريخ النبى محمد ووقائع حياته .

وكان أبرز ما يركز عليه التبشير هو محاولة اخضاع الاسلام لمذاهب الفكر الغربى وفق ما خضعت له المسيحية ، وذلك بالأغضاء عن الحقيقة الواضحة التى لا سبيل الى انكارها أو تجاهلها فى النظر الى الاسلام وهى : انه عقيدة ونظام اجتماعى وذلك بخلاف النصرانية .. ولذلك فان المسلمين ينظرون الى النظم الغربية التى تهدف الى اقامة مجتمعات جديدة على انهـا تقوم على تجارب خاضعة للنجاح والفشل ، بينما يجد المسلمون عندهم نظاما اجتماعيا قابلا للتطور مع الزمن والالتقاء مع البيئات المختلفة وهم لذلك ليسوا فى حاجة الى النظم الموضوعة تحت التجربة .

* * *

ومن الاتهامات التى يوجهها الفكر الغربى عن الاسلام أنه قام بالفتح على أساس السيف . وأنه سفك الدماء واقام المذابح والحرب فى سبيل تحقيق غايته وهو اتهام واضح خطاه ومدى المغالطة فيه ظاهرة .

(٢) ومن ذلك قولهم أن الفلسفة العربية هى الفلسفة اليونانية مكتوبة بحروف عربية ، وعند رينان أن كل مظهر للفلسفة الاسلامية انما هو للفرس واليونان أو النساطره أو اليعاقبة . وذلك الرأى مخالف لما رواه المنصفون أمثال جوستاف لوبون من أن العرب لم يتقبلوا الفلسفة اليونانية فقط وانما ناقشوها ونقحوها وزادوا فيها .

(٣) ادعى المبشرون ان نصارى لبنان هم الذين بعثوا النهضة العربية الحديثة وان البربر وحدهم هم أصحاب المدنية فى شمال افريقية والأندلس . وان العالم العربى هو (مصر والشام والعراق ونجد والحجاز واليمن) وانه مسحته ٣ ملايين كيلو مربع وسكانه ٤٠ مليونا (مع أن مساحة الجزيرة العربية وحدها ٣ ملايين كيلوا مربع) وان النهضة العربية بدات فى مصر . وان البربر لم يقيموا وحدهم مدينة المغرب والأندلس بل شاركهم العرب وان البربر كالعرب مسلمون ، والمدنية التى خلقوها عربية ، وان السودان وشمال افريقيا وليبيا وتونس والجزائر ومراكش هى أجزاء من الوطن العربى وان النهضة العربية بدات فى مصر وليس فى لبنان وان النهضة بدات فى القسم الأخير من القرن التاسع عشر وليس فى مطالع القرن التاسع عشر . وان حصر الحركة فى نصارى لبنان والمبشرين الأمريكيين ظلم للتاريخ والأدب وخطأ لا مبرر له .

وقد صور عدد من المبشرين مدى خطر الاسلام على الاستعمار . وقال (اشعيا بومان) ان الاسلام ليس دينا فحسب بل انه من اركانه الجهاد . ولم يتفق قط أن شعبا دخل الاسلام ثم عاد نصرانيا .

* * *

المـرأة والتبشير

استهدفت خطة التبشير فى أساسها استغلال المدارس المسيحية فى القاء بذور الشك فى نفوس النشء المسلم وافساد عقيدتهم . ولذلك كان الاهتمام بالفتاة العربية بالغ الأهمية اذ ان تربيتها فى المدارس المسيحية والقاء بذور الشك فى نفسها منذ عهد النشأة مما يساعد على تحقيق هدف التبشير والاستعمار بالنسبة الى تحطيم الأسرة العربية والقضاء على الجيل الجديد الذى تنشئه الفتاة العربية التى تعلمت فى مدارس التبشير — لذلك عول المبشرون على الغزو التبشيرى عن طريق المرأة فقال (أتين لامى) فى مجلة العالمين الفرنسية (سبتمبر سنة ١٩٠١) « ان تربية البنات فى مدارس الراهبات ادعى لحصولنا على حقيقة القصد ووصولنا الى نفس الغاية التى وراءها نسعى ، بل اقول أن تربية البنات فى مدارسنا هى الطريقة الوحيدة للقضاء على الاسلام بيد أهله . ان التربية المسيحية او تربية الراهبات لبنات المسلمين توجد للاسلام فى داخل حصنة المنيع عدوه لداء لا يمكن للرجل قهرها لأنه سهل على المراة والحالة هذه ان تؤثر على احساس زوجها وعقيدته فتبعده عن الاسلام وتربى أولادها على غير دين أبيهم » .

وقد انشئت أول مدرسة للبنات فى العالم العربى فى بيروت عام ١٨٣٠ للمبشرين الأمريكان الذين اهتموا بانشاء مدارس البنات — أولا قبل مدارس الأولاد — فى مصر وسوريا والسودان ، ووضعت الخطة على اساس ان التبشير يكون اتم حبكا فى مدارس البنات الداخلية حيث الصلة بالطالبات اوثق ولأنها تنتزعهن من نفوذ حياة بيئة غير مسيحية — كما قالت المبشرة ابا مبليجان — حيث يجتمع بنات مسلمات عن أسر باشوات وبكوات تحت النفوذ المسيحى وليس ثمة طريق الى حصن الاسلام اقصر مسافة من هذه المدرسة » .

وقد عمد التبشير فى رسم هذه الخطة الى نظرية نفسية واضحة الدلالة هى ان الأثر الذى تحدثه الأم فى اطفالها — ذكورا واناثا — حتى الصلة العاشرة من عمرهم بالغ الأهمية وبما ان النساء هن العنصر المحافظ فى الدفاع عن العقيدة ، لذلك كان لابد من العمل بين المسلمات على انه « وسيلة مهمة فى التعجيل بتنصير البلاد الاسلامية » وقد استعملوا لذلك المبشرات المثقفات ووضعوا البرامج التى تجعل سيطرتهم نفسيا على المرأة العربية يسيرا .

وهذا هو السر فى اللهفة العجيبة التى يبديها الاستعمار وكتابه وأعوانه من كتاب التغريب على تحرير المرأة وتعليمها والدفاع عن دعاتها وهو ما لا يتفق مع خطط الاستعمار فى تأييد تنوير المرأة وتعليمها وسفورها بينما هو يقف موقف الخصومة لتعليم الرجل وتثقيفه .

* * *

مخطط التبشير

بدأ التبشير عمله فى كنف الكنيسة لمقاومة الاسلام ثم اتجه الى العمل السياسى ، وقد اعلن بلفور وزير خارجية بريطانيا (١٩١٧) ان المبشرين هم ساعد جميع الحكومات المستعمرة وعضدها فى كثير من الأمور الهامة ولولاهم لتعذر على تلك الحكومات من تذلل كثيرا من العقبات .

وقد اتخذ التبشير فى أول أمره خطة المهاجمة والبحث عن المناطق التى تصلح لتضليل اهلها ومحاولة تحويلهم الى المسيحية ، وذلك بوسائل الاغراء المختلفة ، غير أن هذه الخطة لم تجد نفعا وفشلت فشلا كبيرا ، فقد قاوم المسلمون عمليات التنصير وواجهوها بالخصومة مما دفع المبشرين الى الفشل والبحث عن خطط أخرى ، وقد كان المبشرون فى القرن التاسع عشر يدخلون فى جدال مع المسلمين يسوقون فيه الاتهامات الباطلة .

وقد عقد المبشرون عديدا من المؤتمرات واصدروا الوفا من النشرات والصحف والمجلات فى البلدان المختلفة وباللغات المختلفة كما استغلوا الصحافة غير التبشيرية لنشر اغراضهم بالتشكيك فى الاسلام ومهاجمة اللغة العربية والتاريخ وايقاع الخلاف بين الأديان والمذاهب والمعتقدات . وقد اتخذ التبشير من تقسيم العالم العربى بعد الحرب العالمية الأولى فرصته الكبرى وعد هذا العمل بالنسبة له نصرا كبيرا ، غير انه لم يصل الى نتائج ذات أهمية واضحة .

وقد نصت معاهدة فرساى (المادة ٥٣٨) على جواز التبشير فى سوريا . وبذلك استطاع المبشرون فى الشام ان يضغطوا على البصيرية فى تلاد العلويين ونشر الدعوى بينهم بأنهم من أحفاد الصليبيين .

وقد كان عام ١٩٣٢ هو موعد تعديل هذه الخطط والاتجاه الى محاولة اقناع الأفراد والوصول الى قلوبهم عن طريق الصداقات واحترام العادات الشرقية والاسلامية للتمكن من بث آرائهم .

غير أن هذه الخطة الجديدة لم تحقق للتبشير الوصول الى نتائج أكبر . وظهر المثقفون الذين آثروا أن يكونوا من دعاة التغريب وانكشف أمرهم ولم تخدع كتبهم ولا آرائهم المجموعة الواعية ، ولذلك كانت دعوات الفرعونية فى مصر الفينيقية فى لبنان والأشورية فى العراق والبربرية فى الغرب أسلحة التجزئة والتمزيق التى حمل لواءها التبشير ، ولقد كشف القس زويمر رأس المبشرين فى العالم العربى عن فشل جميع الخطط التى وضعت للتبشير بين المسلمين ونقلهم الى المسيحية . ودعا الى بذل مجهودات مضاعفة لهذا الغرض .ومن أمثلة ما كان يذاع من نشرات لدعم خطط التبشير ما كتبه القس باركين الى المبشرين يطالبهم فيه بحشد الجهود للعمل : فى الجزيرة العربية ، ومما قاله « ان الحاجة شديدة الآن الى مائة مبشر يذهبون الى قبائل بلاد العرب المهملة التى لم تبلغها الدعوة بعد ، هناك نحو مائة قبيلة فى بلاد العرب يمكن تبليغهم الدعوة وهم يسكنون بلادا غير انجيلية مساحتها ثلث مساحة الهند وهم يعيشون فى الخيام .

اذهب بنفسك الى بلاد العرب . أسأل غيرك أيضا . احمل الكتاب المقدس الى بلاد العرب . ادع بلاد العرب والعرب الى المسيح . ادع ٢٢٠ مليونا من المسلمين ليدينوا بديانة المسيح : (الجمعية العالمية الصليبية للتنصير فى العالم وبلاد العرب ١٩ هبيلندرود — أبرنورود — لندن) » .

ومع ذلك فقد عجز التبشير أن يحقق لا فى الجزيرة العربية ولا فى قلب أفريقيا بمثل ما استطاعه التاجر المسلم البسيط من الدعوة لدينه بالرغم من الاعتمادات الضخمة وقوة الدول المستعمرة التى ظاهرت ركب التبشير .

تطور التبشير فى العالم العربى

اتخذ التبشير وسائل متعددة فى سبيل تحقيق هدفه الذى هو ليس ادخال العرب المسلمين فى المسيحية بقدر ما هو القضاء على الاسلام والتشكيك فيه والتهوين من شأن القيم العربية واللغة العربية والتاريخ ، وبذر بذور البلبلة فى الفكر العربى الاسلامى واقامة ثقافات متعددة متصارعة وخلق جيل من مضطربى العقيدة ، الذين لا يقيمون وزنا لتراثهم ولا أمجادهم ولا لغتهم ، والمتسامحين مع الاستعمار والتغريبن ، المعجبين بحضارة الغرب ، المتطلعين الى مزيد من الحضارة والمدنية لبلادهم عن طريق الاستعمار وكذلك خلق قادة لهم لا يدينون كثيرا بالقيم العربية الاسلامية فى الحرية والكرامة والجهاد فى سبيل الحق والاتقاء مع الغاصب ومصادقته واعتباره ممدنا ناشرا للحضارة والعلم .

وقد استطاع التبشير أن يحقق جانبا من هدفه عن طريق الجامعات والمدارس والصحف والبعثات ، بينما أخفق بالنسبة للمجموعات الشعبية الضخمة التى كانت رغم الفقر والجهل أصلب عودا من طبقة المثقفين .

* * *

لبنان والتبشير

ولقد كان لبنان أخصب حقل للتبشير ولذلك ركز عليها المرسلون من كل أقطار العالم الغربى وجعلوه مقرهم الأساسى للعالم العربى كله . وكان لبنان فى الستينات من القرن التاسع عشر موضع صراع ضخم بين بريطانيا وفرنسا ، عمل فيها كل فريق على تأييد طائفة ومحاربة الأخرى واثارة الفتنة لتحقيق هدفه . وكانت بريطانيا قد أرسلت الكاهن الايرلندى (وود) لاغراء البطريرك باعلان لبنان امارة مارونية مقابل مساعدة الموارنة البريطانية . كما قصد اليها تشرشل واونفرا واللادى استنهوب لاثارة الصراع الطائفى بغية فتح المجال أمام بريطانيا غير أن فرنسا هى التى استطاعت أن تكسب الجولة لروابطها مع الموارنة المسيطرين على لبنان اذ ذاك والمرتبطين مع فرنسا على طريق الكاثوليكية

ولقد كان لنجاح التبشير فى لبنان أثره فى الدعوات التى انطلقت تنادى بأن لبنان بلد كاثوليكى وانه يجب ان يكون وطنا قوميا لكل المسيحيين فى الوطن العربى ، كما انطلقت من لبنان الدعوة الى قيام وطن قومى لليهود فى فلسطين .

وفاخر دعاة التغريب فى لبنان بالدور الذى قامت به لبنان ابان الحرب الصليبية حيث أمد الموارنة طلائع الصليبيين بثلاثين الف نبال أجمع الفرنجة على الاعجاب بشجاعتهم ومهاراتهم . (فؤاد أفرام البستانى : الندوة ٢١ / حزيران / ١٩٤٨) وقد حمل لواء التبشير فى لبنان غالى سمث ودانيال بليس وكان ابرزهم « كرنيلوس فانديك » الذى اقام فى لبنان طبيبا مبشرا اكثر من أربعين عاما (١٨٤٠ — ١٨٨٠) وقد تعلم اللغة العربية وانشأ مدرسة عبية المشهورة وعمل معلما واعظا ومبشرا وعنى بترجمة التوراه والانجيل ، وقد اتم هذه الترجمة عام

١٨٦٤ بمساعدة صديقيه البستاني والبازجي ، وهو صاحب فكرة البدء بالتبشير من القرية والتوسع فيه للوصول الى المدينة .

ولكى نرسم صورة لأثر التبشير فى الثقافة العربية والفكر الاسلامى نعرض نموذجا من تاريخنا كما يكتبه المبشرون ويدرسونه فى مدارس الارساليات الأجنبية فى لبنان بقصد تشويه تاريخنا واهدار عظمته وجلاله .

يقول (لاكولى) فى كتابه البحث من الدين الحقيقى : « فى القرن السابع للميلاد برز فى الشرق عدو جديد ذلك هو الاسلام الذى اسس على القوة . وقام على اشد انواع التعصب . لقد وضع محمد السيف فى ايدى من اتبعوه . وتساهل فى اقدس قوانين الأخلاق . ثم سمح لأتباعه بالفجور والسلب . وبعد قليل اصبحت آسية الصغرى وأفريقية واسبانيا فريسة له .

ثم هاهى النصرانية تضع بسيف كارل مارتل سدا فى وجه الاسلام المنتصر عند بواتيه ٧٥٢ م ثم تعمل الحروب الصليبية فى مدى قرنين تقريبا (١٠٩٩–١٢٥٤) فى سبيل الدين لنجاة النصرانية ، وهكذا تقهقرت قوة الهلال امام راية الصليب وانتصر الانجيل على القرآن » .

* * *

مصر فى ظل التبشير

ظهر التبشير فى مصر منذ أوائل القرن الماضى واتسع فى عهد اسماعيل وبلغ ذروته فى ظل الاحتلال البريطانى (١٨٨٢) وكان أبرز دعاته « القس زويمر » الذى اقتحم الأزهر ووزع منشوراته فيه علنا فى عهد حكم اسماعيل صدقى (١٩٣٣) وقد كانت : الجامعة الأمريكية ومستشفى هرمل هما أبرز معاقل التبشر فى مصر .

وقد كان احتلال السودان خطوة عزو بعيدة المدى بالنسبة لحركة التبشير فقد فتح لها الطريق الى قلب افريقيا .

ويروى توفيق حبيب (الصحفى العجوز فى هامشة ٢٩/٤/٣٨ الأهرام) انه فى أوائل القرن الماضى ١٨٠٠ حضر الى مصر خمسة من رجال الكنيسة الانجلزية للوعظ والتبشير ثم عادوا الى بلادهم الواحد بعد الآخر ولم يبق منهم الا رجل واحد هو المستر (ليدر) وسكن بالدرب الواسع ، واتصل ببطريرك الأقباط الانبا كليرس الرابع ذكر له ان الكنيسة الانجليزية مستعدة لانشاء مدرسة خاصة لتعليم ابناء الأقباط وأرسل بعثة منهم الى مالطة للتعليم على حسابها . ثم انشأ الأسقف جوين الانجليزى مجلة (الشرق والغرب) وكنيسة فى حى قصر الدوبارة ومستشفى هرمل فى مصر القديمة . وكانت لها دار فى ميدان الأزهار (الفلكى) للمساجلات الأدبية والبحث فى العقائد لم تلبث أن عطلت منعا لما كان يقع فى بعض اجتماعاتهم من المشاغبات . وكان القس (جاردنر) من ابرز رجال الارسالية الانكليزية واعرفهم باللغة العربية وكان لهذا القس اليد الطولى فى تأسيس فرع مصر لجمعية اتحاد الكنائس وانشاء اقسام مصرية لجمعية امجاد الشبان المسيحية » .

اما المبشرون الأمريكيون فقد ظهروا فى مصر فى عهد اسماعيل وأخذوا يطوفون ارجاء البلاد للتبشير داعين الأقباط الأرثوزكس الى التمذهب بالمذهب البروتستانتى . واستمالوا عائلتى ويصا وخياط الذين تحولوا من ارثوزكس الى برتستانت (١٠ فبراير ١٩٣٢ — مجلة الدنيا المصورة) .

وقد كان للخديو اسماعيل دورا كبيرا فى تشجيع الارساليات ومدها بالمال والأرض اللازمة لانشاء المؤسسات . ولما اراد مقاومة مدارس المبشرين البروستانت لأنهم يتدخلون فى السياسة ويثيرون الاضطرابات فى البلاد منعته القنصليتين الانجليزية والأمريكية وايدتا المبشرين وحملتا الحكومة المصرية على التقيد بالدستور العثمانى الذى ينص على احترام الحرية الدينية .

وقد اتسع نطاق التبشير بعد الاحتلال البريطانى وبلغ درجة بالغة الخطورة حتى ان عبد الله النديم هاجمه فى مجلة الأستاذ ١٨٩٣ ونشر فصلا من كتاب مبشر يدعى (يوحنا هورى) الألمانى سماه (الاسلام وتأثيره على تابعه) قال فيه : حيث ان الدين الاسلامى دين غير صحيح وانه لا تأثير له فى حياة تابعيه الدينية ولا فى تقدمهم فى العلوم ، حينئذ يلزمنا ان نضع الدين النصرانى محله » .

وقال عبد الله نديم انه لو ان اى مسلم كتب مثل هذا التعصب لقامت عليه قيامة اوربا وقالوا : هذا دعاء للحرب الدينية وتعرض للدين المسيحى وسحبوا قناصلهم ونادوا بين أتباعهم المعتمدين فى الشرق بالرحيل بدعوة فقدان الأمن العام وتوحش المسلمين ، فنحن نسأل من

ملأو اعمدة التيمس وغيرها من نسبة التعصب الى المصريين خصوصا والمسلمين عموما . هل راوا المسلمين اجتمعوا لتغيير دين النصارى ليكونوا معهم .أوتعرضوا لمسيحى بالمجادلة والمناظرة » .

وقد كان القس البروتستانتى « زويمر » رئيس ارسالية التبشير العربية فى البحرين وراس مؤتمر المبشرين فى القاهرة ١٩٠٦ هو ابرز الدعاة الى وضع الخطط للتبشير فى العالم العربى .

وقد سمحت الجامعة الأمريكية فى القاهرة كما يذكر صاحب الهلال (١٥ يناير ١٩٠٤) بعقد حلقات جدل بين النصرانية والاسلامية . واحضار بعض الذين غرر بهم ليتكلموا وقد أدى ذلك الى اثارة كثير من الاضطراب والبلبلة تحت سمع الحكومة الخاضعة للاستعمار وبصرها .

وكان لعقد مؤتمر المبشرين فى القدس ١٩ ابريل عام ١٩٢٨ برئاسة القس جون موت الرئيس العام لجمعيات الشبان المسيحية ومطاعنه على الاسلام اسوأ الأثر فى نفوس العرب والمسلمين .

وقد استغل المبشرون حوادث تركيا حيث اعانهم على ذلك دعاة التغريب فى العالم العربى الذين هاجموا الاسلام ودعوا الى أن تطبق مصر أنظمة تركيا فى اللادينية واغلاق المساجد والكتابة بالحروف اللاتينية وكان ذلك ايذانا بحركة ضخمة مركزة بذات على اثر ذلك حيث اقتحم زويمر الأزهر الشريف وقت اشتغال الطلاب بدروسهم (١٨ أبريل ١٩٢٨) ووزع عليهم رسائل تحتوى تشكيكا وطعنا فى الاسلام .

* * *

زويمر

ومن بين ما وزعه كتاب عنوانه (وجوب الرجوع الى القبلة القديمة) .

وقد اشارت الصحف الى أنه دخل على طلبة القسم الرابع من السنة الأولى بالقسم العالى ومعه سيدة وثلاثة رجال وكان الشيخ على سرق الزنكلونى هو استاذ الفصل وقد سالوا عن بعض آيات من القرآن .

وهاجمت الصحف هذا العمل وقالت ان الامتيازات الأجنبية تحمى النزلاء من المثول أمام المحاكم المصرية ومن التقاضى امامها . ولكن هل تحمى مثل الدكتور زويمر الذى قضى سنينا طوالا يطعن فى دين الدولة ويوزع نشرات الطعن على أكبر معهد موجود فى الشرق وهو الأزهر ، وقالت الصحف أن كنيسة روما قد خصصت ملايين الجنيهات عام ١٩٢٩ للتبشير وتنصير المسلمين ومن ثم بدأت جرائم خطف الأحداث وتعذيبهم واخضاعهم التنويم المغناطيسى :

وعلق فكرى أباظة (الأهرام ١٩٢٨/٤/٢٣) على الأحداث فقال : الا الدين يا جانب ، سكتنا على تهريب الحشيش والأفيون والكوكاكيين ، وسكتنا على تمتعكم بحرية القتل بالمسدس والسكين . وسكتنا على امتصاصكم دماءنا وخيراتنا عن طريق الفايظ والتجارة الخبيثة فلم نضرب عليكم الضرائب ، الا الدين يا اجانب ... لقد دخل الأب زويمر الأزهر . اذن فليكتسح الاسلام ودين الاسلام ما دامت الوكالة البريطانية وراءه تسنده وتحميه . أيها الناس : وصل منسوب الذل الى الأفواه » .

وقد اشتهر زويمر القس الأمريكى بعداوة الاسلام، وحرر كتبا هاجم فيها النبى والاسلام ، ومن رايه عدم مجادلة المسلمين بالبراهين العقلية . بل الدخول عليهم من الجهة القلبية باستجلاب عواطفهم واستمالة اهواءهم وتمريض أجسامهم ومواساة فقرائهم ، وقد دعا المبشرين النصارى الى توحيد العمل فى شن الغارة على الاسلام من كل جهة ، ويعتقد أن هزيمة المسلمين تمت فى الحرب العالمية الأولى وان هذا كان انتصارا ساحقا للكنيسة المسيحية . ويدعو الى اتباع برامج تعليمية مثل ما هو متبع فى كلية غردون بالسودان « فان هذه الخطة مما يزيد الحواجز بين الاسلام والنصرانية » وقد طالب الكنيسة بأن تعبىء جميع قواها وتشن الغارة على العالم الاسلامى ومن رايه أن نشر المدنية الغربية فى العالم الاسلامى كفيل بزعزعة العقيدة الاسلامية فى نفوس المسلمين .

وقد بلغت حركة التبشير ذروتها عام ١٩٣٣ حيث وقعت حوادث تنصير فى الجامعة الأمريكية كان أولها (يوسف عز الدين عبد الرحمن) وقد تبين للنهاية من التحقيق (الأهرام — ١٩٣٢/٧/١٩) ان الجامعة الأمريكية تدرس للطلبة علم الأخلاق والانجيل . وتبين ان اجابات الطلبة تدل على نزعة دينية خاصة . وقد وجد أن منهج الأخلاق الذى يدرس بالجامعة يشمل دراسة نوح

وابراهيم ويعقوب ويوسف وموسى ويوشع تن نون وشمشون وشاول وداود وسليمان وايوب ودنيال .

وتبين أن هذا يدرس بدلا من الدين ويقوم بتدريسه أساتذة مسيحيون لجميع التلاميذ على السواء . ومن ناحية أخرى كانت هناك الارسالية الأسقفية الانجليزية .

ولها ١٥ فرعا فى بولاق ومصر القديمة والجيزة وقصر الدوبارة وكان لمستشفى الدكتور هرمل فى مصر القديمة شهرة ضخمة فى أعمال التبشير فقد تبين انه يلقى على المرضى دروس الصباح من الانجيل من مبشر يذهب مع المريض الى الطبيب الذى يفحصه فيقابله بالبشاشة والترحاب ويسأله عما سمع مما ألقى من دروس الصباح وينبث المبشرون بين المرضى ويقومون بزيارات متعددة للمنازل بعد خروجهم من المستشفى .

واعلن الدكتور هيكل فى السياسة (١٩٣٣/٦/٢١) انه ثبت بالوثائق ان هذه المعاهد تتخذ برامجها التعليمية وسيلة لتغيير العقائد وانها تجعل النزعة الدينية هى الغالبه على كل شىء وانها تقدم الى تلاميذها كتبا تقضى بالطعن فى الدين الاسلامى وفى النبى العربى ، واشار بيان هيئة كبار العلماء (٢٧ يونيه ١٩٣٣) الى أن هذه المعاهد تعلم أولاد المسلمين امورا ضد الدين الاسلامى وضد النبى وضد القرآن الكريم . أما فى الملاجىء فانهم يتصدون الفقراء الذين مسهم الضر ثم يضعونهم فيها ليطعمونهم وعند ذلك يتصرف المبشرون فى عقائدهم الدينية حتى يخرجوهم من دين الاسلام .

وقد اتسعت حملة الصحافة ضد التبشير وكان قوامها مهاجمة حكومة صدقى باشا على نحو حزبى ، ولم تكن هذه الحملة بقادرة على مقاومة هذا الخطر الا بمطالبة الحكومة بالقيام بعمل ايجابى ومناشدة الأغنياء وأصحاب الراى الى انشاء مدارس ومستشفيات تحول بين التلاميذ والمرضى من الوقوع تحت سيطرة هذه المدارس ، كما ارتفعت الدعوة بالمطالبة بالعدل الاجتماعى ووضع نظم لأداء حق الطبقات الفقيرة وكان مصدر هذا العجز عن مقاومة التبشير بصفة فعالة حماية الامتيازات الأجنبية لهؤلاء الأجانب من المحاكم ، ولقد لقيت حركة التبشير ازدراء الوطن العربى كله بأساليبها الوحشية التى لم يعرف لها مثيلا فى الدعوة الى دين من الأديان حيث لم تضم من قبل دعوة قوامها الغدر والخيانة واستغلال الفقراء والجهلاء كما فعل الاستعمار عن طريق التبشير .

وقد صور الدكتور هيكل فى مذكراته السياسية (ص ٣٢٨/ج ١) كيف ظهر نشاط المبشرين بالمسيحية فى ثوب مخوف قال « لقد قالت الصحف يومئذ ان الجامعة الأمريكية بالقاهرة هى مصدر هذه الدعايات التبشيرية وان بها أركان الحرب التى تنظم هذه الدعايات ، وكان غريبا حقا هذا النشاط الذى ابداه المبشرون والذى لم نسمع بمثله من عشرات السنين وقد امتد هذا النشاط من القاهرة الى بورسعيد الى غيرها من المدن والأقاليم . وتحدثت الصحف عن وسائل الاغراء التى يلجأ اليها المبشرون لحمل السذج على اعتناق المسيحية ولتنصير الأطفال الأثرياء من أبناء المسلمين الفقراء ، وارتاع الناس لهذه الحملة التبشيرية أيما ارتياع وتألفت جمعية لمقاومة هذا التبشير تجتمع فى دار الشبان المسلمين وكنت من اشد الأعضاء تحمسا لمقاومة التبشير ، اقتناعا منى بأن هذه الحركة يقصد بها اضعاف ما فى النفس من ثقة بدين الدولة ولما ينطوى عليه من قصد سياسى وهو اضعاف معنويات هذا الشعب باضعاف عقيدته » وقد أشار صاحب هامش الأهرام (١٩٣٣/٦/٢٤) الى موقف اقباط مصر من التبشير فقال : ان المسيحيين عارضوا الحملات وأن جرجس فيثاؤس عوض قال أنه لم يسمع أن مسلما لجأ الى القبط لينصروه وانه قد وقع الخلاف بين الأقباط وهذه الارساليات .

* * *

ولم تكد حركة التبشير فى مصر تخف قليلا حتى ظهرت دعوة تبشيرية أخرى هى « البهائية » التى اصطنعت أساليب تفوق أساليب المبشرين فى الاباحية والغزو عن طريق المرأة ، وعقد الاجتماعات ذات الأضواء الصارخة والعرى ولكن هذه الدعوة لم تلق صدى الاعند بعض الأغرار والسذج ولم تقو على البقاء أو احراز أى نجاح ، ومجمل هذه الدعوة أن بهاء الدين جاء للعصر الجديد وهو روح العصر الجديد وتهدف البهائية الى توحيد الأديان جميعا تحت علم البهائية ، وقالت النهضة الفكرية ١٩٣٣/٧/١٥ أن للبهائية أساليب تختلف عن أساليب المبشرين وتفوقهم ولهم فى اباحيتهم الأخلاقية أكبر ضرر لهم . وأن الذين يمدون المبشرين بالمال يمدون البهائيين . وبينهما فروق ولكنهما يلتقيان عن نقطة أساسية وغاية موجودة هى الخروج عن الاسلام والتشكيك فى الرسالة والنبى » .

* * *

فى الســـــودان

وقد وجد الاستعمار البريطانى فى السودان مجالا خصبا لحملات التبشير التى انطلقت منه الى افريقيا كلها وتعالت الصيحات المتوالية بما يقع فى السودان وخاصة فى جنوبه من وسائل العنف والغزو لفرض المسيحية ، وقد وقعت عام ١٩٣٧ احداث ضخمة اذ تبين أن أهالى المناطق الجنوبيـــة من المسلمين لا يعاملون على قـدم المساواة مع افراد الجاليات الأخرى ، وانه محظور عليهم أداء واجباتهم الدينية وأن هناك موانع تحول دون سفر المسلمين من شمال السودان الى جنوبه .

ونشرت (جريدة السودان ـــ ١٩٣٧/١٢/٢٥) أن المبشرين يتمتعون فى جنـــوب السودان بحماية الحكومة السودانية التى لها السلطة فى ابعاد من يرون ابعاده من التجار والموظفين غير المرغوب منهم ، وأن المسلمين هناك يلقون عنتا فى سبيل اقامة شعائر دينهم مع مســـــاعدة المبشرين بالمال الذى تدفعه الحكومة كما عمدت بريطانيا الى محاولة اتخاذ لهجات القبائل فى جنوب السودان لغـــة رسمية لهم يدرسونها فى المدارس لتقوم محل اللغة العربية وتحول دون انتشار اللغة التى تمكنهم من معرفة الاسلام كما منعوا التكلم باللغة العربية فى هذه المناطق حتى تنشىء الرطانة الأعجميـــة .

وقد حاول حاكم السودان الانجليزى عندما وجهت له هذه الحقائق أن يدافع عن موقفه فقال : ان ما فرض فى جنوب السودان من القيود المحلية على صغار التجار وأمثالهم فقد قصد به منع استغلال الأهالى الذين هم فى ابسط حالات الفطرة استغلالا غير مشروع .

وفيما يتصل بذلك انشأ الانجليز كلية غردون عـــام ١٩٠٣ فى الخرطوم وقد جمعت لها بريطانيا ١٠٠ الف جنيه من أعيـــان انجلترا ونفذت فيهـــا نظاما يربطها بالثقافة الانجليزية .

* * *

فى الجـــــزائر

وفى الجـــزائر : قام الكردينال « لافيجرى » رئيس الأساقفة بعمـــل ضخم فى سبيل التبشير فقد كان ينشىء بعض مراكز التبشير فى منتصف الطرق الموصلة بين المدن على نمط الزوايا الاسلامية لاغراء المسلمين وتنصيرهم وكان يخفى طابعها المسيحى زيادة فى الخداع والتضليل ، ومن ذلك المركز الذى أنشأه فى مدينة بسكره فى منتصف الطرق بين جبال الأوراس وبحيرات شط العرب واطلق عليـــه اسم بيت الله وليس المبشرون فيه لبـــاس رواد الصحراء تشبها باللباس الاسلامى .

ومـــا يذكر أن الكردينـــال (١٨٢٥ ـــ ١٨٩٢) لافيجرى قد عجز بعد أن امضى اسقفا فى الجزائر اربعين سنة أن يحقق خطته فى تنصير المسلمين وكان قد عمل فى افريقيا والسودان بتكليف من البابا بيوس التاسع نفسه .

* * *

فشـــل الغـــزو

تحولت خطط الغزو التبشيرى فى خلال الفترة من ١٨٣٠ ـــ وهو تاريخ احتلال الجزائر الى نهـــاية الحرب العالمية الثانية ـــ اكثر من مرة وعقدت عشرات المؤتمرات والفت فى محاربة الاسلام والقرآن والنبى محمد اكثر من مائة الف كتاب وجندت أوربا عديد من كتابها من «فولتير» داعية الحرية الى زويمر ولافيجرى بل ان عددا من كبار المستشرقين قـــد تحولوا الى التبشير التحقـــوا بوزارة المستعمرات امثـــال ما سينون الفرنسى وجيب المستشرق الانجليزى الموظف بوزارة المستعمرات البريطانيـــة كما استعان التبشير بجميع الاقليات المستوطنة والطارئة فى الوطن العربى لمعاونته أمثال الارمن والاشوريين ومهاجرى اليهود والروس . وهاجمت فرنسا اليسوعيين فى بلادها وطاردتهم وحمتهم فى المستعمرات وامدتهم بالعون ووضع الاستعمار التبشـــير مخططا يرمى الى خلق دعـــوات : كالشعوبية والفرعونية والأشورية ، واثارة الشكوك فى اللغة العربية والاسلام والتاريخ ، وذلك كوسيلة لخلق جيل خاضع تابع مستغرب لا سيطرة للحرية ولا الكرامة العـــربية عليه .

*** وفى مصر وجد التبشير يعقوب ارتين باشا وكيل وزارة المعارف الذى عين المبشر «دوجلاس دنلوب» معلما فى مدرسة بالاسكندرية ثم نقل الى وزارة المعارف مفتشا ثم اصبح صاحب السلطان الاعلى على التعليم والتربية فى مصر طوال فترة الاحتلال وفى ظـــل كرومر وظل اثره قائما طـــوال الفتـــرة .**

وقد وجد التبشير فى كثير من الأحداث سبيله الى دفع خططـــه الى التنفيذ : فاستغل صـــدور الدستور العثمـــانى ١٩٠٨ فقال اســـتورد لروورد رئيس مؤتمر

عام ١٩١١ فى لكنوا بالهند أنه بعد الانقلاب العثمــانى يمكن انتهاز الرصة لهداية العالم الاسلامى الى الانجيل .

كما استغلت فرصة الحرب العالمية الأولى وتقسيم الوطن العربى ، وقال زويمر ان هذا التقسيم هو الذى سيقضى على الاسلام ويحقق مهمة التبشــير ــ وكان الاحتــلال البريطانى لمصر والاحتلال الفرنسى للجــزائر فرصة للتوسع بشمال أفريقيا ، وكان احتلال الســودان فرصة للتوسع فى وســط أفريقيا ، ومع كل الاعتمادات الضخمة التى وجهت للتبشير فى ميزانيات عدد من الدول الغربية كفرنســا وانجلترا وأمريكا وايطاليــا وهولندا وبالرغم من انشاء فروع لجمعيات الشــبان والشابات المســيحيات فى مختلف نواحى العالم العربى فقد كانت النتيجة هى ما قاله مستر أوجين يونج المندوب السامى الفرنسى (١٩٢٨) فى مؤلفه عن استعباد الاسلام : قال :

« أن الاســلام قوة كبرى لا يمكن الاحاطة بهــا ولا معرفتها معرفة تامة فلا العقيدة اللاتينية ولا المذهب الكاثوليكى يمكنهما أن ينالا من الاسلام شيئا او يســيطرا عليه . بل أن الأمر على العكس من ذلك ان الاســلام ينتشر ويسير فى هذه الطريق بخطوات واسعة » .

وكانت نتيجة عمليات الغزو الضخمة باسم التبشير والتى انفقت فيها الدول المستعمرة ملايين الجنيهات انه لم يحدث انتقــال فى صورة جمــاعية من الاســلام الى المسيحية على النحو الذى كان يتخيله دعاة التبشــير . وكان ذلك مخيبا لآمالهم على طول الخط ، فبعد أكثر من تسعين عاما من العمل المتصل (١٨٤٠ الى ١٩٤٠) عاد المبشرون يغيرون خططهم ليحاولوا تحقيق نصر فردى فى هذا المجال بعد ان عجزوا عن النصر الجماعى ، غير ان كل الخطط فشلت ومؤدى هذه النتيجة ينطبق مع موقف الفكر العربى الاسلامى من الغزو الثقافى ، ويجرى وفق نظرية « التحدى ورد الفعل » التى لم يظهر أثرها فى أى عمل من أعمال التغريب الثقافى كما ظهر فى هذه الحركة .

وقد أشار مؤلف كتــاب « فى الدراسات الدينية » الفرنسى الى عجز المبشرين فى مجال تحويل المسلمين عن الاسلام حيث قال : ينبغى أن نذكر أن الدين الاســلامى مخالف كل المخــالفة لهذه الأبراج المتشامخة التى تسقط من ضربة واحدة لأن فيه قوة كامنة وصلابة ومتانة تجعله قادرا على المقاومة مقدرة تامة » .

* * *

المــراجع

التبشير والاستعمار : الدكتوران مصطفى خالدى وعمر فروخ .
حاضر العالم الاســلامى : ج ١ عجاج نويهض وشكيب ارسلان .
آراء وأحاديث فى التاريخ والاجتماع : ساطع الحصرى .
مذكرات الدكتور محمد حسين هيكل السياسية ــ ج ١ .
مجلة الفتح : محب الدين الخطيب : (العدد ٤٤) ٥ مايو عام ١٩٣٢ .

* * *

(٣)

منهج البحث العلمى الحديث

إزاء العقل العربى

كان من أهم ما دعا اليه الفكر الغربى وحمل لوائه المستشرقون منهج « البحث العلمى الحديث » وهو سليم الأسس يقتضى أن تمحو من نفسك كل رأى وكل عقيدة سابقة من هذا البحث . وان يبدأ البحث بالملاحظة والتجربة ثم بالموازنة والترتيب ثم بالاستنباط القائم على المقدمات العلمية للوصول الى نتيجة علمية خاضعة البحث والتمحيص .

ولم يكن الغرب الذى دعا الى هذا المنهج محدثا فى مذهبه ، وانما كان قد اتخذ اساسا له من مذهب الفكر العربى الاسلامى القديم فى البحث الذى دعا الى العقل والبرهان « قل هاتوا برهانكم » والاقناع بالحجة وتقديم العقل على ظاهر النص .

وقد جرى « الغزالى » على هذه الطريقة حيث أعلن فى كتبه أنه جرد نفسه من جميع الآراء ثم فكر واستدل حتى وصل الى ما وصل اليه من رأى على أساس الدليل والبرهان .

ولذلك فان ما ادعاه الغرب من ايمان العرب بالعقلية الغيبية محض افتراء لا أساس له ؟ فقد وصفت العقلية الشرقية بأنها جزئية تنتقل من الجزء الى الجزء الآخر دون أن تربط بين الأجزاء ، ولا تبحث فى المقدمات والنتائج ولاتعنى بالتحليل وهذا مالايتفق مع مقدمات العقل العربى ولا الفكر العربى الاسلامى عامة الذى اثبت على طول القرون علميته وبراعته فى الشك والنقد والبحث عن البرهان للوصول الى الحقائق على أساس المنطق والمقدمات والنتائج ووفق أسلوب التحليل .

يقول « ابن رشد » فى تصوير منهج البحث العلمى العربى : يجب علينا اذا الفينا ممن تقدموا من الأمم السالفة نظرا فى الموجودات واعتبارا لها بحسب ما اقتضته شرائط البرهان أن ننظر الى هذا الذى قالوه من ذلك ، وما أثبتوه فى كتبهم ، فما كان منها موافقا للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه . وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرناهم منه وعذرناهم أن كل ما أدى اليه البرهان والعقل وخالفه ظاهر الشرع فان ذلك الظاهر يقبل التأويل » .

ويقول الامام الشافعى فى تصوير منهج البحث العلمى كما يراه : أن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون منه ، لقد ادركت سبعين ممن يقولون : قال رسول الله عند هذه الأساطين فما أخذت منهم شيئا . وان احدهم لو أوتمن على بيت المال لكان أمينا ، الا أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن » .

وهذا يعنى فى نظر الفيلسوف العربى الأندلسى والفقيه العربى القاهرى ان يقوم البحث العلمى على أساس أهلية من يحمل العلم ، والقدرة على فحص النصوص ومطابقتها الحق على أساس البرهان والعقل ، وبذلك وضع الفكر العربى الاسلامى قواعد البحث العلمى وأصول التفكير وحصرها فى الملاحظة والاستقراء وتحكيم العقل .

ولقد تخلف الفكر العربى الاسلامى من بعد عن منهجه وعلاه التراب ثم جاء الغرب فوضعه فى قالب جديد دون أن يخرج به عن مضمونه ولذلك فان نظريات باكون وديكارت ليست الا صورة مما جاء فى أقوال ابن رشد والغزالى والشافعى .

وقد أعلن الفكر العربى الاسلامى «نظرية المعرفة» قبل الفكر الغربى بسبعة قرون ، هذه النظرية القائمة على أساس الاختبار المحسوس ، والاستقلال والتجربة دون التقليد ، قال ابن حزم « أن المعرفة تكون أولا بشهادة الحواس ، أى باختيار لما تقع عليه الحواس وما يقول

العقل أى بالضرورة من غير حاجة الى استعمال الحواس الخمس ، وببرهان راجع من قرب أو بعد الى شـــهادة الحواس وأولها العقل .

وقال ابن حزم : أن التقليد حرام .

وعلى اساس نظريته التى هى من صميم الفـكر العربى الاسلامى خالف كثيرا من الأقوال التى كانت معتمدة فى زمنه وهو القائل بأن الغرض من الفلسفة والشريعة انما هو « أصلاح النفس » .

وفيما يتصل بهذا ما عرف الفكر العربى الاسلامى من اصول النظريات السياسية المستقلة عن الفكر الأغريقى والرومانى . وقد سبقت ما أنتجه العقل الأوربى .

وابحـــاث الامامة والعقد السـياسى والعـــدل وتطبيقات الشيعة والمعتزلة والمرجئه وشئون المعـاملات والبيعة ، كلها غير مسبوقة وان كان ما ادعاه الغرب من ان اليونان هم وحدهم الذين عرفوا النظريات السياسية هى دعوى تغريبية تكذبها الوثائق الصحيحة .

وقد صور الغزالى فى كتـــابه (المنقذ من الضلال) اسلوبه العلمى فى فهم الاسلام فقال انه رأى « صـبيان النصارى ينشـأون على النصرانية ، وصـــبيان اليهود ينشأون على اليهودية ، وصبيان المسلمين على الاسلام وانه لم يقتنع بهذا الدين التقليدى اليقينى ولذلك اتجه الى ان يعلم حقائق الأمور ، وأن يبنى دينه على يقين ، ولذلك بدا بالشك فى كل ذلك حتى يقوم البرهان على صحته ، وقال بالنص : كل ما أعلمه على هذا الوجه ولا اتيقنه هذا النوع من اليقين فهو علم لا ثقـــة به ولا أمان معه وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقينى » .

وتطبيقـــا لنظرية « المنهج العلمى العربى » نقد الفيلسوف « النظام » آراء أرسطو كما نقضها الجاحظ أيضـــا ونقد « البيرونى » نظريات اليونان والهنـــد فى الرياضيات . ووقف الغزالى فى كتابه « المنقذ » موقف ديكارت الذى جاء من بعده .

وبعد فهل طبق الغرب منهج البحث العلمى الحديث عندما بحث تاريخ الأمة الاسلامية ودينها ولغتها وتراثها.

وهل تجرد كتاب الغرب ومحوا من أنفسهم أحقادهم وخصوماتهم وتعاليهم عندما نظروا الى تاريخ البلاد العربية أم تأثروا بنظريات جيبون ورينان فى الفرق بين السامية والآرية ونظريات الأجنـــاس والعنصرية ورسالة الرجل الأبيض .

الواقع أن من ينظر الى ما كتبه علماء الغرب يجده مليئا بالافتراءات والأكاذيب على الاسلام والنبى والقرآن وتاريخ العرب واصول دينهم وحضارتهم فهو فى أغلبـــه جانح أشد الجنوح عن مذهب البحث العلمى الذى لا يريد الغرب حين يفرضه علينا الا اثارة الشـكوك والاتهامات ومحاولة التصغير من شأن بطولاتنا وأمجادنا .

والواقع أن نظرية قصر العلم على أساس البحث والملاحظة والاستقراء انما وضعت أول الأمر للنظريات العلمية وحدها ، ثم انسحبت على الفكر والتاريخ والعقيدة غير أن الايمان بقدرة العلم المطلقة لم تلبث أن تراجعت أمام الجوانب الغيبية واقرتهـــا بعد أن انكرتها أول الأمر انكارا مطلقا .

وكان « أوجســـت كمت » العالم الفرنسى أول من قدر ذلك حين قرن بفلسفته العلمية ديانة الانسانية .

ثم تحرر العلماء من قيد النظرية وأعلنوا الى أن العلم قد عجز عن أن يعد غذاء نفسيا للشعوب الغربية وأنه لا مفر من الالتجاء الى أديان الشرق ومذاهبه ، وقـــد نشأت على اثر ذلك نظرية « اقتراض » الغرب لثقافات الشرق الروحية وظهر مذهب الثيوصوفية .

* * *

دعـاة التغـــريب

اعتمد التغريب على عناصر ثلاث (١) خليط الأفكار الغربية التيقذف بها الفكرالعربى الاسلامى دفعةواحدة ، وركزفيها علىالنظريات التىطالما نظرفيها الغربورفضها وعارضها بنظريات اخرى وخاصة ما يتصل منها بانكار الخالق والشك فى الأديان وتغليب جانب المادة والجنس كنظريات دارون وفرويد .

(٢) المستشرقون والمبشرون والعلماء الذين وردوا الى الشرق فى امواج متوالية وتحت اسـماء وشعارات مختلفة ، والذين حملوا معهم افكار جوبنيو وريناان حول فوارق اللون والعقل بين الآرية والسامية ورسالة الرجل الأبيض ، وقد حرص هؤلاء الكتـاب والعلماء على نقل اسـوأ الصور ، والاتهـامات والأخطاء وكانوا بطبيعة الدراسات التىتلقوها واستعدادهم الطبيعى — الا القليل من المنصفين احرار الفكر — منحرفين استعماريين .

ولذلك كانت كتاباتهم جميعا بعيدة عن نزاهة المنهج العلمى الحديث ، متعارضة مع الحقائق والوقائع .

(٣) كتا بالعالم العربى المتغربين ، الذين سافروا فى بعثات علمية الى فرنسا وبريطانيا وأمريكا ، والتقوا هناك باساتذة من علماء التبشير والاستشراق فارتبطوا بهم فكريا وحمـلوا لواء نظرياتهم الى الوطن العربى . وترجع النظريات التى حملتها كثير من الدراسات والتى احدثت ضجة فى بلادنا الى اقتباسـاتها من آراء هؤلاء الكتــاب وهى لا تخرج فى مجموعها عن آراء مرجليوث ودوركهيم وليفى بريل وماسـنيون ومرسـيه وجميعهم مستشرقون متعصبون لليهودية أو المسـيحية ، يخدمون الاستعمار ويحقدون على الاسلام واللغة العربية . ومن امثلة ذلك ما تأثرت به رسالة (منصور فهمى) عن المراة فى الاسـلام التى كتبهـا عام ١٩١٣ بآراء ليفى تريل الاسرائيلى كما تأثرت رسالة طه حسين عن ابن خلدون (١٩١٨) بآراء دوركهيم وتأثرت رسالة طه حسين عن الشعر الجاهلى بآراء مرجليوث وماسنيون .

وابرز مظاهر عمل هذه الطائفة : « التشكيك » فهؤلاء اقرب بالطبع الى اهل أوطانهم ويكتبون باللغـة العربية ، ولذلك فان كتـاباتهم من شأنها ان تجد قبولا خاصا اذا قامت بناء على منهج مرســوم ، فيه الموالاه والتدرج والتكرار ، وقد قام بهذا العمل كتـاب كثيرون وصحف كثيرة من اهمها المقتطف والمقطم وكان اجرا كتاب هذه الدعوة : فرح انطون وسـلامة موسى واسماعيل مظهر وطه حسين .

وهناك كتاب قاموا فى مطلع حياتهم بهذا الدور ثم تخلوا عنه بعد أن تكشف لهم الحقائق من هؤلاء : منصور فهمى والدكتور هيكل وزكى مبارك .

ومما يذكر ان هنـاك كتاب سـافروا الى اوربا ودرسـوا بها واتصلوا بالمستشرقين والعلمـاء ودعاة التغريب ولكنهم استطاعوا الاحتفـاظ بروحهم العربى الأصيل .

ولقد كان الكتاب المتغربون يوما من الأيام سـلاحا بتارا ازاء كل قلم كريم أو رأى حكيم ، وكانوا يهاجمون كل دعوة الى الاعتدال فى نقل الحضارة او المحافظة على الدين والقيم أو مقومات الشخصـيـة العربية او تراث الاسلام فما أن تنطلق دعوة من هذه الدعوات حتى تخرج لها اقلام دعاة التغريب لتدحرها متهمة اياها بالرجعيـة والسطحية والخيـانة للحضارة ومقاومة تيـار التمدن ومعارضة التطور .

ويمكن أن توصف كتابات هؤلاء الكتاب بأنها حملة تغريبية شاملةمتعددة الجوانب ، فقد تناولت اللغةوالزى والدين والمجتمع والمراة وموقفنـا من الشرق والغرب واقليمية الأدب والايمـان بفرنسا ومهاجمة الشريعـة الاسلامية .

وهاجم طه حسين احمد زكى باشا شيخ العروبة لأنه مجد مدنية العرب وأشاد بها وكشف عنحقائقها ورد اخطاء المستشرقين وكشف عن بغضـهم ومغالطاتهم . واتهم سـلامة موسى العرب بأنهم دبروا هجـوما على المدنيات الرومانية والأفريقية .

وقال أن اسماعيل باشا اعظم من مصطفى كامل لأنه سبق الى اتخاذ قانون نابليون كما اعتبره زعيم المجددين .

* * *

التعصب والتسامح بين الاسلام والمسيحية

والكاتب (فرح أنطون) نموذج لهؤلاء الكتاب فى اتهاماته للاسلام بالتعصب والمسيحية بالتسامح (الجامعة — يوليه ١٩٠٢) قال :

« أى كان أكثر تسامحا وأقل تعصبا فما يختص بالعلم والعلماء : الدين المسيحى أم الدين الاسلامى فمنهم من يرى أن الدين المسيحى كان أكثر تسامحا من الدين الاسلامى لأن بعض علماء النصرانية وكتابها قالوا فيها أقوالا فى منتهى التطرف والغلو والتحامل ومع ذلك لم يضرهم شىء ، ويرد عليهم آخرون يقولون ان الدين الاسلامى كان أكثر تسامحا من الدين المسيحى فانكم هل رأيتم فى تاريخ الدين الاسلامى علماء يحرقون وهم على قيد الحياة لأنهم انكروا ما انكروه كما جرى فى ديوان التفتيش فى أسبانيا ؟ كلا .

اننا نرى أن السلطة المدنية فى الاسلام مقرونة بالسلطة الدينية بحكم الشرع لأن الحاكم العام هو حاكم وخليفة معا . وبناء على ذلك يكون فى هذه الطريقة أصعب منها فى الطريقة المسيحية ، فان الديانة المسيحية فصلت بين السلطتين فصلا بديعا مهد للعالم سبيل الحضارة الحقيقية والتمدن الحقيقى : وذلك بكلمة واحدة : اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله .

ثم ان العلم والفلسفة قد تمكنا الى الأبد من التغلب على الاضطهاد المسيحى ولذلك نما غرسهما فى تربة أوربا وأينع ثمر التمدن الحديث ولكنهما لم يتمكنا من التغلب على الاضطهاد الاسلامى » ا . هـ .

* * *

رد محمد عبده

« انى أعمل فى الجواب بما يلافى هذين الحكمين اجمالا : أما الأول فان كان الانجيل فصل بين السلطتين بكلمة واحدة فالقرآن قد أطلق القيد من كل رأى بكلمتين كبيرتين لا كلمة واحدة « لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » .

أما الثانى : فاسأل الجامعة فى جوابه : أين الاضطهاد الواقع على العلماء اليوم عند المسلمين وأين أولئك العلماء المضطهدون . وأريد بالعلماء أولئك الذين يساوون من ذكرتهم من فولتير وديدرو ورسو وأمثالهم .

فاذا ارادت — أى مجلة الجامعة — شاهدا على حال المسيحية والعلم فلتمر بنظرها اليوم على أسبانيا ولتقف برهة من الزمان لتحكم . يمكنها أن تعد من طلبة العلوم المسلمين مئين من مدارس المسيحيين من جزويت وفرير وامريكان . فهل يمكننى أن أجد طالبا واحدا مسيحيا فى مدرسة دينية اسلامية يباح الدخول فيها لكل طالب علم من أى ملة ، لا نجد الا قليلا منهم فى مدارس الحكومة ، فهل سمع أن والدا اضطهد لأنه بعث بولده الى مدرسة مسيحية يديرها قسوس مسيحيون ، الا الا يعد هذا من تسامح الاسلام مع العلم اليوم .

ومثله اشتراك المسلمين فى الجرائد المسيحية وعدم اشتراك النصارى فى الجرائد الاسلامية الا نادرا .

ولا يجوز فى شريعة الانصاف أن يذكر المسلمون فى جانب جمهور المسيحيين اذا ذكر الغلو فى التعصب الدينى فضلا عن ان يقال ان المسلمين اشد افراطا فيه ، وما على طالب الحقيقة الا أن يسبح بفكر ، فى مثل المستعمرات الهولاندية فى الشرق ومملكة الترنسفال قبل سقوطها وبلاد الناتال فى الجنوب ثم يرجع الى الجزائر وما يليها من جهة الغرب ليعلم كيف تكون الشدة فى المعاملة مع غير أهل المذاهب المسيحية وكيف يبلغ التعصب من اهله حدا تنظر اليهم فيه الانسانية شزرا . ولا تقبل لهم فيه المدينة عذرا .

* * *

الفكر العربى بين الغيبية والسطحية

وكتب اسماعيل مظهر فى المقتطف (فبراير ١٩٢٦) يهاجم الفكر العربى ويرميه بالغيبية والتحلل والسطحية قال : اذا نظرت فيما أبرز العرب من نتائج الفكر من علم وادب او فلسفة أو فن وجدت ان فيها اثار التخلخل والتشعب .ما هو جدير بأن يبرز فى عصر عكف فيه الفكر على طريقة الشك الغربى ولم يعدها الى طريقة التحليل

والنقد . وذاعت بينهم مذاهب فلسفية نقلهـا المترجمون وجلهم من النساطرة واليهود ووثنى حران عن اليونان . ولكنك لا تجد عندهم مدارس فلسفة نسب اليهم ابتكارها فليس عندهم مدرسة تعزى الى الفارابى او ابن رشد أو ابن سينا مثلا . فالمذهب الفلسـفى ظل رأيا فرديا عند العرب .

هذه العقلية بذاتها هى التى ورثها السيد الأفغانى عن العرب ، عقلية وقفت عند حد الأسـلوب الغيبى لم تتعده وتنكبت كل سبيل كان من الممكن ان يصل بها الى الأسلوب اليقينى .

ورد عليه الأمير (مصطفى الشـهابى) المقتطف نوفمبر ١٩٢٦ فقال :

اليونانيون ساروا فى بعض اتجاهاتهم العلمية على الأسـلوب اليقينى وحادوا عنه فى بعض آخر ــ وكذا اجـدادنا العرب ــ وقـد يكون اليونانيون اقرب الى الأسلوب اليقينى من العرب اجمالا ، ولم ينفرد العرب باتباع الأسلوب اليقينى فلا غضاضة اذن عليهم بل على العكس كانت علومهم المستمدة من علوم اليونان والفرس والهنود متأثرة بتأثير باقى الأقوام فى هاتيك العصـور المظلمة .

فالعرب وهم تلامذة اليونانيين قام منهم عدد غير قليل ممن اتبعوا الأسلوب الغيبى فى أبحاثهم فأثبتوا حقائق ستظل فخرا لهم الى الآن وخلاصة الرأى أنه يجب اما أن نقول بأن العرب كانوا كاليونانيين والرومانيين يتبعون الأسلوب الغيبى فى بعض ابحـاثهم واليقينى فى البعض الآخر . واما أن نحكم على الأقوام الغابرة جميعا حكما صارما فنقول انهم اصحاب اسلوب غيبى على الاطلاق وان الأسلوب اليقينى لم يوجد الا فى عهد اسحاق نيوتن وديكارت وفى هذه الحالة يشمل الحكم اليونانيين بلاريب .

* * *

دعـــوات التغـــريب

تعددت دعوات التغريب ، وظهرت فى كل بقعة من الوطن العربى دعوة منها تختلف عن الدعوة التى تظهر فى المكان الآخر ، وهى منوعة بين معالم المزج بين الأديان ، أو هدم بعض هذه الأديان ، أو التغريب الكامل والهجوم على الاسلام والشرق واللغة العربية وظهرت دعوة الى الايمان بالغرب ايمانا كاملا وكذلك الى الأدب المحلى والى تقديم المســتشرقين على علماء العرب فى فهم الاســلام والقرآن والدين ، وهناك دعوات فرنســا الأم والهجوم على الاسلام فى موقفه من المراة ونظرية ديكارت وغيرها .

وقد تحدثنا عن هذه النظريات فى أماكن متعددة من هذه الدراسة وهذه نظرة عامة اليها :

* * *

توحيد الاسلام والمسيحية

من بين دعوات التغريب والغزو الثقــافى : دعوة التوحيد بين الاسلام والمسيحية وقد بلغت هذه الدعوة قمتها حين أيد الاســتعمار الحركة البهائية باعتبــارها « دينا » جديدا يتمشى مع روح العصر وتهدف الى توحيد الأديان جميعا تحت علم البهــائية وقد تعدد الدعاة التى تدموا الى العالم العربى يحملون الدعوة الى محــاولة التقاء الاسلام والمسيحية فى دين واحد . وقد جرى سجال فى هــذا الشأن بين الشيخ محمد عبده واحد القســس الانجليز عام ١٨٨٧ فى دمشق ابان نفيه . وعندى انهــا دعوة ماكرة مغرضة لاتستهدف الا القضاء على الاسلام أو التشكيك فى شأنه .

وقد روى الشيخ حمزة فتح الله للدكتور حســين الهراوى (٨ يوليه ١٩٣٢ السياســة الأسبوعية) انه وفد على القطر المصرى فى أوائل هذا القرن رجل فرنسى يقال له (جبارة) أخذ يفاوض المفكرين العرب ورجال الأزهر فى فكرة توحيــد الأديان ، فلما ذهب الى الشيخ حسن الطويل شيخ الأزهر : قال له : ان الفروق بين الأديان مسائل فرعية الغرض منها الدعوة الى الخير ، والنهى عن الشر فماذا علينا لو عملنا على ادماج هــذه الأديان .

ويروى حمزة فتح الله ان الشيخ حسن الطويل كان يتناول افطاره فلم يلبث أن ابتسم ، وقال للمبشر جبــارة فى تهكم :

— هل لك يا خواجة فى أكلة لذيذة من الفول المدمس

وقال « منيا ابراهيم » احد رجال المسيحية فى مصر لجباره : انه من الخير للعالم والانسانية ان يهمل فكرته حتى لا ياتى بمذهب جديد فتكثر الملل والنحل !

٢ — ومما يتصل بهذه المؤامرات ما ذكره « بلنت » من أن احد القســس الانجليز (اســحاق تيلور) التقى بالشيخ محمد عبده فى دمشق أثناء منفاه ١٨٨٧ وكان يقوم بالدعاية لتوحيد الاسلام والنصرانية .

٣ — وقــد عقد المستشرقون والمبشرون عددا من المؤتمرات الخاصة للبحث فى تاريخ الأديان من أهمهــا مؤتمر باريس ١٩٣٣ الذى اشتركت فيها جامعات فرنسا وانجلترا وسويسرا وأمريكا وايطاليا وبولونيا واسبانيا وهولندا والاستانة .

وفى مؤتمر الأديان الدولى ببروكسل عام ١٩٣٥ ألقى الشــيخ أمين الخولى بحثا عن صلة الاســلام باصلاح المســيحية أشار فيه الى ما قامت به أوربا من اقتباس الاصلاح الدنى من الاسلام وقال : أن اثر الاســلام فى حيــاة أوربا الدينية لا يقل أبدا عن أثره فى حيــاتها الفلسفية والعلمية والفنية .

وفى مؤتمر الأديان العالمى (يوليو ١٩٣٦) الذى دعا الى تضافر جميع الأديان فى سبيل الاسلام وعقد فى لندن وأعلن انه يرمى الى تعزيز روح الأخاء والزمالة بين الشعوب على اختلاف اديانها وجنساتها ، وأن الاتفاقات

السياسية عجزت عن ايجاد أساس صحيح لسلام العالم وان فى وسع كل ديانة أن تساهم فى حل مشكلة العالم الفكرية ، وقد دعى الأزهر الى الاشتراك فى هذا المؤتمر لتمثيل الاسلام ، وكتب شيخ الأزهر مصطفى المراغى رسالة عن المثل الأعلى للروحية صور فيها مفهوم الاسلام لرسالة السلام .

٤ — والواقع أن « التوفيق » بين الاسلام والمسيحية — وليس توحيدهما هى الدعوة التى حملها الأبرار فى الوطن العربى لمقاومة النفوذ الأجنبى الذى كان يعتمد دائما على التفرقة بين الطوائف والأديان ويناصر أحدها على الآخر .

وقد كان « التوفيق » بين الاسلام والأديان الأخرى اتجاه قديم معدود من أصول الشريعة .

وفى التاريخ الحديث التقى الهلال والصليب فى ثورة عام ١٩١٩ المصرية ، كما ترابطت المشاعر باسم الوطنية فى أنحاء الوطن العربى وحمل المسيحيون فى الشام لواء الدعوة الى القومية العربية ومزج الكتاب المسيحيون بين عواطف الاسلام والعروبة والتغنى بالتراث العربى الاسلامى وبطولة محمد وعمر وخالد باعتبارها بطولات عربية وقد مجد كتاب العرب من المسيحيين النبى محمد على أساس أنه مفخرة للعرب واسمى مارون عبود ابنه محمدا وكتب لبيب الرياشى وشبلى ملاط والياس فاعور ونجيب نصار وجورج سلستبى والتقى المسلمون والمسيحيون فى معركة الجريه .

واشار توماس ارنولد فى كتابه « الدعوة الى الاسلام » بأن الكنيسة المسيحية قويت وتقدمت فى رعاية المسلمين وحكمهم ، وأن جميع المذاهب المسيحية كانت تتمتع بالرعاية والتسامح من الحكام المسلمين على حد سواء . بل أن هؤلاء الحكام من المسلمين كانوا هم الذين يمنعون اضطهاد بعض المسيحيين للبعض الآخر ويكفلون الحرية الدينية للجميع » وقد التقى رأى قادة الاسلام والمسيحية على العمل لصيانة هذه الوحدة فقد حدث عام ١٩٣٠ أن أرسل الشيخ اللبان شيخ معهد الاسكندرية خطابا الى الانبا يؤنس بطريرك الاقباط يقول فيه : أن فريقا متهوسا ممن ترعاه الكنيسة المرقسية يعمل على هدم ما بناه العقلاء ويدبر الحملات الطائشة ضد الاسلام دين الدولة الرسمى معرضا بذلك الوطن لأعظم الأخطار فأجاب الأنبا يؤنس بقوله : « اذا وجد فرد أو أفراد يعملون ضد الوحدة المقدسة بالظن فى الدين الاسلامى الذى هو دين اخواننا فى الوطنية فانهم يكونون من شر الجناة على الوطن .

٥ — وقد أجرت مجلة الهلال استفتاء (ابريل ومايو عام ١٩٣٩) فى شأن توحيد الاسلام والمسيحية فكان رأى علماء المسلمين (فريد وجدى) أن الاسلام جاء للتوفيق بين جميع الأديان ورفع أسباب الخلاف بينهما . وقال ان الاسلام يتقدم الى الناس لا باعتبار انه دين جديد ولكنه باعتبار أنه دين البشرية الأقدم خالصا من جميع الشوائب التى الحقتها به الأجيال المتعاقبة .

وقال القس ابراهيم سعيد : ان الدين ليس غاية فى ذاته ولكنه وسيلة لغاية وقال أنه يعتقد بامكان توحيد الأديان لا ببتر جزء من هذا الدين وجزء من ذاك الدين ليتكون منهما دنيا واحدا ، وانما اعتقد بتوحيد الأديان على اساس روحى يحتفظ فيه كل بحسمه . وقال القمص سرجيوس : أن هناك اتحادا ممكنا هو أن تتحد المسيحية والاسلام فى محاربة الالحاد والاباحة .

ومعنى هذا أن مؤامرة استعمارية فكرية استهدفت الغزو الثقافى والتجزئة والقضاء على الاسلام او تشويهه قد فشلت أيضا لأن عقائد الفكر العربى الاسلامى وقيمه استطاعت بعمقها وحيويتها أن تقاوم كل تيار من تيارات التغريب .

***

٢ — التغريب الكامل

وهناك دعوة تغريبية أخرى هى : الاتجاه المطلق الى الغرب وقد حمل لوائها سلامة موسى وطه حسين .

ويعارض (سلامة موسى) الشرقية والعربية والاسلامية ويهاجم اللغة العربية والدين والقومية العربية ويدعو الى التغريب الكامل وهذه مجمل آرائه :

× ليس هناك حد يجب أن نقف عنده من اقتباسنا من الحضارة الأوربية .

× لنا من العرب الفاظهم ولا أقول لغتهم . بل لا أقول كل الفاظهم ، فاننا ورثنا عنهم هذه اللغة العربية . وهى لغة بدوية لا تكاد تكمل الأداء اذا تعرضت لحالة مدنية راقية كتلك التى نعيش بين ظهرانيها الآن .

× نحن فى حاجة الى ثقافة حرة ابعد ما تكون عن الأديان . ولا بأس من أن تعتمد على الترجمة الى حد بعيد حتى يتحضر العلم وتتحضر الفاظه .

× علينا أن نرتبط بأوربا وأن يكون رباطنا بها قويا .. نتزوج من أبنائها وبناتها . وننظر للحياة نظرها ، ونجعل أدبنا يجرى وفق أدبها ، بعيدا عن منهج العرب ونجعل فلسفتنا وفق فلسفتها ونؤلف عائلاتنا على غرار عائلاتها .

× اصطناع القبعة أكبر ما يقرب بيننا وبين الأجانب ويجعلنا أمة واحدة ، القبعة هى رمز الحضارة يلبسها كل رجل متحضر .

أن الحركة التى قامت فى العام الماضى ، وكانت غايتها اصطناع القبعة قاومها زعماؤنا وقتلوها فى مهدها ، فأثبتوا بذلك أنهم لايزالون آسيويين فى انكارهم لايرغبون فى حضارة أوربا الا مكرهين .

× الجامع الأزهر يبث فينا ثقافة القرون المظلمة — واذا كانت الرابطة الدينية سخافة فان الجامعة الدينية وقاحة .

× كلما ازددت خبرة وتجربة وثقافة توضحت أمامى أغراضى فى الأدب ، كما أزاوله فهى تتلخص فى أنه يجب علينا أن نخرج من آسيا وأن نلتحق بأوربا فانى كلما زادت معرفتى بالشرق زادت كراهيتى له وشعورى بأنه غريب عنى وكلما زادت معرفتى بأوربا زاد حبى لها وتعلقى بها . وزاد شعورى بأنها منى وأنا منها ، هذا هو مذهبى الذى أعمل له طول حياتى سرا وجهرة فأنا كافر بالشرق مؤمن بالغرب .

— نريد من الأدب أن يكون أدبا أوربيا ٩٩ فى المائة قائم على المعنى والقصد . لأعلى اللفظ كما كان الحال عند العرب .

— نريد من التعليم أن يكون تعليما أوربيا لا سلطان للدين عليه ولا دخول له فيه .

***

● أن هذا الاعتقاد بأننا شرقيون قد بات عندنا كالمرض . ولهذا المرض مضاعفات . فنحن لانكره الغربيين فقط ونتأفف من طغيان حضارتهم فقط . بل يقوم بذهننا أنه يجب أن نكون على ولاء للثقافة العربية ، فندرس كتب العرب ونحفظ عباراتهم عن ظهر قلب كما يفعل أدباؤنا المساكين أمثال المازنى والرافعى وندرس ابن الرومى ونبحث عن أصل المتنبى . ونتعصب للجاحظ وليس علينا للعرب أى ولاء . ثم يجب أن نذكر أن ادمان الدرس العرب يشتت الأدب المصرى ويجعله شائعا لا لون له .

● الرابطة الشرقية سخافة . اننا فى حاجة الى رابطة غربية .

× عندى أن قليلا جدا من ألفاظ اللغة يكفينا بلاحاجة الى هذه القائمة التى لا تكاد تخلو منها صحيفة من الصحيح والخطأ .

واذا كانت ٨٥٠ كلمة انجليزية تكفى الانجليز فلماذا لا تكفينا مثله أو ضعفه أو ثلاثة أضعافه .

× أرى أن مصلحتنا ومصلحة العالم كله أن نغرس فى أذهان جميع العرب فى مصر والعراق وسوريا وشمال أفريقيا أنهم أوربيون سلالة وثقافة وأنهم يجب عليهم أن يسيروا سيرة الشعوب الأوربية يتثقفون بثقافتهم ويتعودون بعاداتهم .

× أن العلماء يتجهون الى القول بأن مصر هى التى أنشئت الحضارة فى العالم وأن المصريين القدماء لم يكونوا أمة شرقية بل كانوا أمة غربية الدم والمزاج .

× حرمان لغتنا من كلمات الثقافة العصرية هو لذلك حرمان للأمة من المعيشة العصرية ، فنحن ما زلنا نعيش بكلمات الزراعة ، ولما نعرف كلمة الصناعة ولذلك فان عقليتنا قديمة جامدة متبلدة تنظر الى الماضى . حتى اننا نؤلف فى ترجمة معاوية ابن أبى سفيان فى الوقت الذى كان يجب أن نؤلف عن هنرى فورد أو كارل ماركس .

● بلاغتنا التقليدية هى بلاغة الانفعال والعاطفة فى الوقت الذى نحتاج فيه الى تأكيد المنطق والعقل .

● ما تحمل اللغة من رواسب تاريخية قد يعود علينا بالضرر لأنها كانت تخدم مجتمعا ربما كانت فضائله معدودة بين الجرائم فى سلوكنا العصرى .

***

٣ — الايمان بالغرب

ويؤمن «زكى نجيب محمود» بالغرب ايمانا مطلقا : يقول : من الغرب تمنيت لو أشرق على بلادى شعاع من نور ، من الغرب الذى شاءت له ارادة الله أن يكون فى عصرنا مبعث المدينة ومنارها . ومنه ينتج العلم والفلسفة والأدب والفن . وتنشأ النظم الاجتماعية والسياسية . وبين اهله تقوم الثورات التى تحطم اسوار القديم لتنبت فى الأرض نباتا جديدا .

اننى فى ساعات حلمى ، حين احلم لبلادى باليوم الذى اشتهيه لها فانما اصورها لنفسى وقد كتبنا من اليسار الى اليمين كما يكتبون . وارتدينا من الثياب ما يرتدون . واكلنا كما ياكلون . لنفكر كما يفكرون وننظر الى الدنيا بمثل ما ينظرون » .

* * *

الأدب المحلى

دعا كثير من دعاة التغريب وفى مقدمتهم امين الخولى الى اقليمية الأدب وخلق ادب اقليمى « متميز موسوم بسمة الاستقلال ومطبوع بطابع البيئة المحلية بدلا من الأدب المشترك الذى (لا يميز اقليما على اقليم ولا بيئة على بيئة) ويرى ان عوامل البيئة المحلية تفرق بين الأقطار العربية « اقرا كتابه فى الأدب المصرى » .

* * *

علماء الأزهر والمستشرقين

ويرى طه حسين أن « المستشرق بول كازانوفا » اعظم علما فى الاسلام نفسه من علماء الأزهر ويقول (١٩٢٦/٣/٢٧ السياسة اليومية) :

« عرفته استاذا فى الكوليج دى فرانس ولم اكد اسمع له حتى اعجبت به اعجابا لم اعرف له حدا . كان يفسر القرآن وكنت حديث العهد بباريس ، وكنت شديد الاعجاب بطائفة من المستشرقين ، ولكنى لم اكن اقدر ان هؤلاء المستشرقين يستطيعون ان يعرضوا فى اصابه وتوفيق لألفاظ القرآن ومعانيه والكشف عن اسراره واغراضه .

فلم اكد اجلس الى كازانوفا حتى تغير رايى أو قل حتى ذهب رايى كله وما هى الا دروس سمعتها منه حتى استيقنت ان الرجل كان اقدر على فهم القرآن وامهر فى فهمه وتفسيره من هؤلاء الذين يحتكرون علم القرآن ويرون انهم خزنته وسدنته واصحاب الحق فى تأويله .

كان كازانوفا مسيحيا شديد الايمان بمسيحيته يذهب فيها الى حد التصوف . ولكنه كان اذا دخل غرفة الدرس فى الكوليج دى فراس نسى من المسيحية واليهودية والاسلام كل شىء الا ان لها نصوصا يجب أن تخضع للبحث اللغوى كما تخضع المادة للعلماء .

نعم لم يكن مسلما ولكنه لم يكن مسيحيا ولا يهوديا ولا متدينا حين كان يعرض لنص من نصوص القرآن يدرس لفظه ويكشف معناه ويبحث عن تاريخه » وظاهر فى هذا القول معنى الخداع فكازانوفا ليس الا مستشرقا متعصبا ضد الاسلام يلبس مسوح البحث العلمى ويتخذه وسيلة لمهاجمة الاسلام والتشكيك فيه .

* * *

نقل الحضارة وما يعاب وما يكره

« ودعا طه حسين أن (نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم) وان نقبل من الحضارة (خيرها وشرها وحلوها ومرها وما يحب منها وما يكره وما يحمد منها وما يعاب » . وقال « أن العرب غزاة دخلاء على المصريين وان صلة مصر بالغرب أوثق منها بالشرق . وأنه لاسبيل لنا ان نفعل غير هذا لأننا التزمنا امام اوربا ان نذهب مذهبها فى الحكم ونسير سيرتها فى الادارة ونسلك طريقتها فى التشريع فى معاهدة مونترو » .

* * *

عرب المغرب

كما هاجم الدكتور طه فى رسالته عن «ابن خلدون» عرب افريقيا الشمالية ورماهم بالهمجية والتوحش قال : ان الفرنسيين قد عانوا مشقة شديدة فى سبيل اخضاعهم .. وزعم ن ابن خلدون مخطىء فى اسناده هذا العصيان من عرب المغرب الى العزة والاباء . وقال ان الفرنسيين انفسهم قد عانوا ولا يزالون يعانون مشقات فادحة فى مراكش فى سبيل بسط حضاراتهم عليها ، ولم يستطع الرومان ولا الاسلام أن يلطفا من أخلاق هذه القبائل أو

يروضاها على الحياة المنظمة للشعوب المتمدينة ولكن الحضارة الحديثة مع ما لديها من وسائل اقوى وانفذ قد تصل الى هذه الغاية يوما ما » ا . هـ (ص ١٠٨)
ولا شك ان هذا البحث ليس لوجه العلم ولا نصرة الحق وانما هو ارضاء للمستعمرين وتسمية الاشياء بغير
وحمايته شيء والاقتباس من الحضارة شيء آخر وان اباء
وحمايته شيء والاقتباس من الحضارة شيء آخر وان اباء
المغرب وعزته ووقوفه فى وجه الاستعمار لا يمكن ان يوصف أبدا بالتوحش والهمجية الا من كتاب التغريب الذين ينقلون وجهات نظر المستعمرين بألفاظ عربية .

* * *

فرنسا الأم

وقد شاد بعض كتاب العرب ومصر خاصة بفرنسا عندما تحطمت أمام الغزو الألمانى وخرت ، ونظمت فى رثائها القصائد وقال الكتاب عنها انها — اى فرنسا — هى الوطن الروحى لهم ، حدث هذا فى مصر فى الوقت الذى كانت قنابل فرنسا تضرب دمشق والجزائر وتونس ومراكش وقال على الطنطاوى (دمشق) لزكى مبارك (القاهرة) لقد اثرت صلة هواك بملاهيها — اى فرنسا — وحبك لغانيها على صلتك باخوانك الذين سقاهم أبناء النور الصاب واورثوهم شر مورد ؟ اثرت هذه على صلة الدم واللسان والاسلام ما كان لك أن تنساها .

وقال : ان الأستاذ الزيات صاحب الرسالة شريكك فيما أعاتبك عليه وقال الزيات : يجب التفريق بين فرنسا السياسية وفرنسا الروحية ، فانه لو فعل ذلك لاتفقنا على أن فرنسا الروحية هى الوطن الفكرى لكل اديب .

* * *

وهذا كلام مضلل . لأن فرنسا المستعمرة هى فرنسا الروحية ، وان أبرز معالم الفكر الفرنسى هو التفرقة بين السامية والارية ، وبين الرجل الأبيض والرجل الملون ، وان دعوى المساواة والحرية والأخاء وانما هى كلمات براقة لا تعرفها فرنسا خارج فرنسا » .

* * *

المراة والاسلام

ووقف الدكتور فخرى فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة (٤ فبراير ١٩١٠) وهاجم الشريعة الاسلامية باسم العلم وطعن على الدين باسم الانتصار للمراة وقال الدكتور فخرى أن الشريعة الاسلامية مخطئة لعدم مساواة الرجل والمراة فى الميراث .

* * *

طريقة ديكارت

ودعا دكتور محمد كامل حسين فى مقال له أن يتقدم باحث جرىء ليحمل لواء رسالة ديكارت كما حمل لطفى السيد رسالة ارسطو وقال « يجب أن نخطو الخطوة التالية فى تطور حياتنا الفكرية على الطريقة الغربية . وسيتم ذلك حين يقوم بيننا من يدعو الى ديكارت على طريقة لطفى السد الى ارسطو ، ولن يكون ذلك بمجرد نقل مؤلفاته الى العربية وانما يكون بقيام رجل فيه روح التفكير التحليلى والايمان به والاستعداد الخاص له وأن يكون دعوته الى طريقة ديكارت بأن يكون مثلا حيا لهذه الطريقة يحمل الناس عليها .

صراع الثقافات الغربية

كان للثقافات الغربية الثلاث (الفرنسية والانجليزية والأمريكية) اثرها فى الفكر العربى الاسلامى المعاصر، وكان صراعها بعيد المدى ، وذلك لأن لكل منها اتجاها وطابعا، واسلوبا مغايرا لأسلوب الثقافة الأخرى . لقد بدات الارساليات الثلاث عملها فى العالم العربى على هيئة الغزو ، كان اسلوبها اسلوب السيطرة ، كانت تحمل لواء الدعوة الدينية اللاهوتية التبشيرية فى اول الأمر ثم تحولت عنها الى أسلوب التعليم الغربى بما يحمل من دعوة كل ارسالية الى تعزيز لغة دولتها وثقافتها .

وقد كان بين الارساليات الأمريكية والفرنسية تنافس واضح بعد منتصف القرن التاسع عشر فى لبنان ومصر ثم لم تلبث الارساليات الانجليزية أن ازدادت قوة بعد احتلال مصر ودخلت فى صراع عنيف مع الارساليات الفرنسية مما خلق مشكلة الصراع بين الثقافتين الفرنسية والبريطانية فى مصر ، اما فى لبنان فقد ظلت الارساليات الأمريكية والفرنسية تتنازعان السلطان والدعوة للثقافتين السكسونية واللاتينية .

أما فى المغرب العربى فقد سيطرت الثقافة الفرنسية سيطرة كاملة منفردة منذ بدات تحتل هذا الجزء من الوطن العربى .

وعندما عاد رفاعة الطهطاوى وعلى مبارك فى الأربعينات من القرن التاسع عشر كان شعارهما « نقل الوجوه الحسنة من مدينة الغرب ونبذ السىء منها » وقد تحول هذا الأتجاه من بعد فى بعثات العشرينات من القرن العشرين عندما ارتفع الصوت بالتغريب الكامل .

ولا شك أن الثقافة الفرنسية كانت ذات اثر منذ قدم نابليون الى مصر وعندما توثق اتصال محمد على بفرنسا سياسيا وثقافيا واتجهت البعثات الى فرنسا وتأثرت تركيا العثمانية بفرنسا بعد اعلان دستور الثورة الفرنسية بعد عام ١٧٨٩ مما وجه انظار دعاة الاصلاح العثمانى امثال نامق كمال ومدحت الى اقتباس النظم الأوربية وخاصة الدستور الفرنسى ، واتسع امر المطالبة بالدستور فشمل تركيا ومصر وتونس .

فلما وقع الصراع بين دعاة الاصلاح من الاتحاديين فى تركيا وبين السلطان عبد الحميد كانت فرنسا موئلا لهم ولما وقع الخلاف بين مصر وبريطانيا احتضنت فرنسا كل مقاومى بريطانيا فوردها جمال الدين ومحمد عبده واصدرا بها جريدة العروة الوثقى ووردها دعاة القومية العربية واقاموا بها مؤتمر باريس ١٩١٩ ووردها مصطفى كامل وكان ذلك جزءا من خطة الصراع الاستعمارى بين فرنسا وبريطانيا .

ولقد حرص دعاة الثقافة الفرنسية الى الربط بين البلاد العربية وبين الثورة الفرنسية وقالوا أن الحملة الفرنسية هى بداية اليقظة فى العالم العربى . ولطالما رددوا أن الثورة الفرنسية كانت ثورة (سياسية) لأنها انتهت بقلب نظام الحكم الملكى فى فرنسا الى نظام جمهورى (واجتماعية) لأنها ردت الى العامة امتيازات الاشراف ورجال الدين ومحت الفوارق التى كانت قائمة بين طبقات الشعب الفرنسى و (اقتصادية) غيرت نظام الضرائب والرسوم الجمركية والغت نظام الاحتكار ورفعت القيود التى كانت على الصناعات وانتزعت أملاك الكنيسة وجعلتها ملكا للأمة .

ولكن هل كان العرب فى حاجة الى مثل هذه الدعوة الى الحرية والأخاء والمساواة وهل كانت هذه المبادىء جديدة بالنسبة لثقافتهم وتراثهم . وان اعلان حقوق الانسان فى ٢٦ أغسطس ١٧٨٩ قد وقع بالنسبة للعرب من قبل ذلك بألف عام .

والواقع أن اليقظة العربية بدات بحركة محمد بن عبد الوهاب وهى حركة سابقة على الثورة الفرنسية وفيها كل معانى « النهضة » على النحو الذى عرفه المشرق ، فاذا كانت عوامل الثورة الفرنسية قد نقلت الى

الشرق بعض المعانى المستحدثة للحرية فانما كانت هذه المعانى أساسا موجودة فى الثقافة العربية ولم تكن جديدة عليها . وأن موقف العلماء عام ١٧٩٥ فى تحرير الشعب من ظلم الحكام وتوقيع وثيقة حقوق الانسان العربية فى مصر انما جاء قبل أن تستكمل الثورة الفرنسية نضوجها ، ولم يكن تقليدا لها ، وانما كان انبعاثا من واقعنا العربى الاسلامى ، فتقد أحرز العلماء نصرا بارغام ابراهيم بك ومراد بك على أن يوقعا حجة عامة يتعهدان فيها بأن يتوبا عن المظالم ويرجعا الى الحق ويكفا اتباعهما عن امتداد أيديهم الى أموال الناس وأن يسيرا فى الناس سيرة حسنة .

ثم كانت ثورة الأهالى على الحاكم خورشيد واقصائه تحمل نفس المعنى المستمد من المفهوم العربى للحرية وقد قال عمر مكرم بالنص :

« لقد كان لأهل مصر دائما الحق فى أن يعزلوا الوالى اذا اساء ولم يرض الناس عنه » .

لذلك فان اثر الثورة الفرنسية لم يكن اكثر من ترديد للمعانى التى كانت واضحة فى مقومات الفكر العربى الاسلامى والتى يمكن أن يقال انها انتقلت منه الى فرنسا وأوربا جميعا بحكم الاتصال وعمليات العطاء والأخذ التى تمت عن طريق امتداد الثقافة العربية من اسبانيا الى فرنسا وعن طريق الحروب الصليبية وعن طريق امتداد النفوذ العثمانى الاسلامى الى اسوار فينا .

غير أن الغزو الفكرى الفرنسى لم يدع فرصة فى خلال فترة ما بين الحربين دون أن يشير الى اثر الثورة الفرنسية فى الفكر العربى الاسلامى الحديث ومدى ما تأثرت به الدولة العثمانية والشام ومصر .

ويمكن القول بأن سلطان « الجديد » ، وارتباط الثقافة الغربية بالاحتلال العسكرى انما كانا هما المصدر الأول لاقتباس أنظمة الحكم الغربية . فقد كان لابد من رد فعل عربى للتحدى الغربى بالوقوف فى صف غزوه واحتلاله بنقل أنظمته ومحاولة تعريبها وهى محاولة لم تنجح اول الأمر ، ذلك لأن امثال اسماعيل وخير الدين التونسى ومصطفى كمال وكرومر وليوتى انما كانوا يهدفون جميعا الى فرض هذه الأنظمة السياسية فرضا للقضاء على الأنظمة المستمدة من الاسلام .

ولا شك ان دعوة « القومية » للتحرر من « استبداد العثمانيين » التى تمت فى الوطن العربى قد وجدت موئلا من الغزو الثقافى الغربى الذى كان يهدف من وراء مظاهر هذه الدعوة الى تفتيت الوحدة القائمة فى الوطن العربى ، فاذا جاء دور اكتمال دعوة القومية العربية حال دون قيامها كما حدث فعلا بعد الحرب العالمية الأولى بتمزيق الوطن العربى الى دول ودويلات .

* * *

الحملة الفرنسية

وقد كان لدعوة الغزو الثقافى الفرنسى أثرها البعيد المدى فى تصوير النتائج الترتبة على الحملة الفرنسية بحيث أمكن رسم صورة بعيدة عن الواقع لآثار ونتائج هذه الحملة وقد أغرقت كتب التاريخ التى يدرسها الطلبة فى العالم الغربى يمثل هذه « الاكذوبة » الضخمة وتد تردد أن الحملة الفرنسية هى أول مجارى الثورة الفرنسية الى الشرق العربى وان ما أطلق عليه رئيف خورى « الفتح النابليونى » قد « هز جو الجمود الذى كان مخيما على مصر فنهضت واتجهت الميول الى الارتشاف من الثقافة الفرنسية » .

والواقع ان الحملة الفرنسية كانت أول صدام حقيقى بين الشرق والغرب بعد الحرب الصليبية . وأن الوحدة العربية التى كانت قد غفت تحت سيطرة الجمود الذى أصاب الامبراطورية العثمانية لم تلبث ان استيقظت على هذا الغزو فواجهته مواجهة جبارة رائعة مازال التاريخ يحمل لها صورة من البطولة فى المقاومة والفداء فى البذل . اذن فليست الحملة الفرنسية هى التى أيقظت العروبة بآثارها ، بل ان العروبة استيقظت على هذه القوة الغازية وأرغمتها على العودة وكانت ثمرة هذه اليقظة قيام منظمة المقاومة الشعبية التى عزلت الحاكم العثمانى وفرضت حاكما بدلا منه باختيار الشعب ، ثم بدأت النهضة العسكرية والصناعية والثقافية التى وجهها محمد على الى عمل ديكتاتورى لتحقيق مطامعه الخاصة فكان أن تحطم الكيان كله لأنه لم يقم على أساس من القوى الشعبية التى تحمل على كواهلها أعباء النهضات .

ولقد كانت نهضة مصر باسم « الامبراطورية العربية » فى عهد محمد على عملا ضخما لولا انه لم يقم على أساس شعبى من ناحية ولم يكن خالص للهدف من الناحية الأخرى ، وكانت دوافعه ذات مطامع خاصة لاقامة حكم أوتقراطى خالص لأسرته وابنائها واحفادها .

ولقد اتصل محمد على بفرنسا وكان هذا هو اساس تركيز الثقافة الفرنسية فى مصر لتكون من معاقلها اسوة بلبنان والمغرب .

ولقد كشفت فرنسا عن تبعية الحضارة الغربية وبعدها عن العمل الخالص لخير الوطن الذى تتصل به ، عندما اشتركت فرنسا مع سائر الدول العربية فى ضرب اسطول مصر فى « نفارين » وسحبها قادتها البحريين وضباطها الذين كانوا يعملون مع الحملة المصرية فى سوريا وكان هذا درسا ضخما للوطنية العربية فى عدم اعتمادها على الغرب .

وقد حرصت فرنسا على دعم الروابط الثقافية بينها وبين الوطن العربى ، اما فى لبنان فقد سيطرت فيها الثقافة الفرنسية سيطرة كاملة عن طريق الارساليات الكاثوليكية .

أما فى مصر فقد تنازعت الثقافة الانجليزية واللغة الانجليزية الثقافة الفرنسية بعد الاحتلال البريطانى عام (١٨٨٢) وان ظلت سيطرة الثقافة الفرنسية قائمة بدافعين ، الأول محاربة النفوذ البريطانى — فقد كان المصريون يقبلون على الثقافة الفرنسية بدافع وطنى حتى لا يتعلموا لغة المستعمر ولا ثقافته ، وكانت الطبقة الحاكمة من القصر الى الوزراء والأمراء وكبار رجال الدولة من اتباع الثقافة الفرنسية ، حتى كانت اللغة الفرنسية والى قبل الحرب العالمية الثانية هى اللغة الرسمية فى المكاتبات حتى مع بريطانيا ، وكان المفاوضون المصريون وفى مقدمتهم سعد زغلول لا يتحدثون الا باللغة الفرنسية ويتناولون نصوص المعاهدات ومداولاتها بها ما عدا فئة قليلة من السياسيين الذين خرجتهم كلية فيكتوريا التى كانت دعامة من دعائم الثقافة البريطانية ، ولقد ترددت فى مصر دعوات كثيرة لخدمة الثقافة الفرنسية وكانت أضخم الصحف العربية فى مصر (الأهرام) تحمل لواء الدعوة الى الثقافة الفرنسية وتهاجم الاتجاهات البريطانية السياسية خدمة لصالح فرنسا الاقتصادية والثقافية ، وعلى الجملة فقد كان الاتجاه الثقافى الفرنسى يعانى مقاومة الاستعمار البريطانى ومعارضته .

وكان للمدارس الفرنسية التى اتسع نطاقها اثرا كبيرا فى تأكيد هذا التيار ودعمه ، فضلا عما كانت تنشره الصحف فى مختلف المناسبات الثقافية عن فرنسا : عيد الثورة الفرنسية وسقوط الباستيل وعيد جان دارك والدراسات المتعددة عن كتاب الثورة الفرنسية وابطال فرنسا وقناة السويس .

وكانت الدعوة التغريبية الفرنسية « حضارة البحر الأبيض المتوسط » من الروابط الوهمية التى اقامتها فرنسا لتربط بينها وبين مصر ولبنان والمغرب باعتبارها جميعا دولا يجمعها مناخ البحر الأبيض ووحدته الجغرافية

وتردد ما قيل من أن لكل انسان وطنان : وطنه الخاص وفرنسا ، وما كان يردده سفير مصر فى فرنسا اذ ذاك قوله : بين بلدينا اللذين يصل بينهما البحر الأبيض ولا يفصل بينهما شىء تزداد علاقات الصداقة والثقة المستمرة وفى خلال مياه النيل والرون التى يمتزج فى البحر المتوسط يجرى تياران من تيارات الصداقة وفى خلال الأمواج المتتابعة فى تيارها نحو مصر تبدو لؤلؤة البحر المتوسط جزيرة (كوركسيا) حيث ولد نابليون » .

ومما يتصل بهذا قيام الجمعيات الثقافية الفرنسية فى مصر وقيام معاهد متعددة فرنسية فى روما واثينا ومصر وسوريا وتركيا لنشر الثقافة الفرنسية ، كما قامت أكاديمية البحر الأبيض المتوسط التى وصفتها مجلة الرسالة بأن مهمتها أن تساهم فى تأدية هذا الدور الذى تضطلع به فرنسا فى توجيه الثقافة فى البحر الأبيض المتوسط وان اهتمام فرنسا بتوجيه الثقافة فى أمم البحر الأبيض المتوسط يرجع الى عهد الصليبيين فقد بدأت فرنسا هذه المهمة فعلا فى لبنان منذ القرن الرابع عشر الميلادى .

ولطالما ردد الأهرام (١٩٣٨/٥/١) بأن مصر ابنة فرنسا البكر فى الثقافة ، وقد قال مسيو فرنان برون سكرتير جمعية (فرنسا — مصر) أن فرنسا منذ ١٨٠٢ قد ساهمت فى تكوين خير المصريين وتثقيف عقولهم «وهى — أى مصر — ابنتنا البكر فى المشرق كما قال سعد زغلول » .

ومع هذا فان عددا من كتاب فرنسا المشهورين الذين زاروا مصر أمثال اندريه مروا وبول موران فرنسيس كاركو ، واندريه سجفريد ، وادوار هريو قد كتبوا عن مصر كتابة مشوبة بروح السخرية والانتقاص .

ودعت الكاتبة المصرية « الفرنسية الثقافة » سيزانبراوى منذ عام ١٩٢٩ الى نشر الثقافة اللاتينية فى مصر لأنها تتفق مع استعداد المصريين وميولهم وأن علينا أن ندخل اللغة الفرنسية فى التعليم الثانوى وان محاولات بريطانيا بانشاء مدارس انجليزية لم يضعف اثر الثقافة الفرنسية .

فى المغرب

وفى المغرب سيطر الفرنسيون على الثقافة وحاربوا الفكر العربى الاسلامى وقال هانوتو ١٨٩٧ لقد فصلنا بين شمال أفريقيا والتاريخ العربى ، وقد قام المارشال ليوتى بالدور الذى قام به كرومر ودنلوب فى مصر حيث فصل بين البربر والعرب ، وأوقف اللغة العربية والثقافة العربية وحصرها فى المساجد ، وقالت الأهرام (١٦/١/١٩٣٢) أن المارشال ليوتى الفرنسى خدم بلاده خدمة جليلة فى بلاد الاسلام وعرف طريقة استمالة المسلمين الى فرنسا .

* * *

فى لبنـــان

أما فى لبنان فقد أكد الفرنسيون فى اكثر من مناسبة أنها معقل لغتهم وثقافتهم الأول — كما قالت جريدة الطان (يونيو ١٩٣٧) وأنه « اذا كانت اللغة الفرنسية باقية فى العالم العربى — ماعدا فلسطين — كلغة من الدرجة الثانية بالنسبة للغة العربية مع محافظتها على سيادتها فى التجارة والعلاقات الاجتماعية فان الفضـــل فى ذلك يرجع الى المرســاون العثمانيون والدينيون والمـدارس المسـيحية والأباء اليسـوعيين والارساليات العثمانية والاتحاد الفرنسى والاتحاد الاسرائيلى العام .

وقالت الطان « و لايزال الاعلام الفرنسيون الذ ن هاجروا من وطنهم الى الربوع الشرقية لنشر ثقـــافتنا يقومون بعلمهم الخطير .

الصراع بين الثقافتين الفرنسية والانجليزية

غير أن الثقافة الفرنسية لم تنفرد بالسلطان الأوحد فى الوطن العربى ، فان الصراع بين الارساليات الفرنسية اليسوعية والكاثوليكية والأمريكية الانجلية البروتستانت قد بدأت فى لبنان منذ الثلاثينات من القرن التاسع عشر .

وقام الدكتور فانديك الأمريكى بدور ضخم فى هذا العمل وقفد بدأت هذه الحركة بالقرى دون المدن . بدأها االفرنسيون من قرية (عينطورا) وبدأها الأمريكيين من مدرسة (عيبة) ثم عمت لبنان ، وكان الدكتور « فنديك » يصور التنافس بين الأمريكيين والفرنسيين فيقول انا فى طريقى الى قرية كذا لأفتح مدرستين فاذا قيل له انهـــا لا تحتمل ذلك قال : سأنتح مدرسة وسيأتى اليسوعيون فيفتحون مدرسة اخــرى ، ثم نشأت الكلية الأمريكية والكلية اليســوعية فى بيروت غير أن هــذا الصراع لم يكن فى عنف الصراع الذى قام بين الثقافتين واللغتـــين الفرنسية والانجليزية . ذلك لأن أمريكا لم تكن مشاركة فى الاحتلال العسكرى لأقطار الدول العربية مثل فرنسا وبريطانيا ، وانما كانت تعمل على السيطرة عن طريق الغــزو الثقافى . وان الصراع بين الثقافة الفرنسية والانجليزية انما قام على اساس الصراع السياسى بين الدولتين فى الشرق ، ومحاولة بريطانيا احلال ثقافتها محل الثقافة الفرنسية فى البلاد الواقعة تحت احتلالها وكان التيار الفكرى المهجرى تيارا أمريكيا وكانت الهجرة الى أمريكا جزء من الأثر الثقافى الأمريكى للفكر العربى .

لقد انفــرد نفوذ بريطانيا الثقافى فى العــراق والسودان وفلسطين كما انفرد نفوذ فرنسا الثقافى فى المغرب ، أما مصر فقد وقع الصراع حيث أخذ البريطانيون فى طرد الأساتذة الفرنسيين (ذوى النفوذ) من مدارس الحقوق والطب ووزارة المعارف وحلت اللغة الانجليزية بدل الفرنسية فى معظم المواد . وتولى الأساتذة الانجليز مقــالد الادارة والتعليم فى معظم المعــاهد ، وتحولت البعثات الخارجية الى انجلترا بدلا من فرنسا .

وفى ميدان الصحافة الثقافية حملت مجلة المقتطف (التى صدرت فى بيروت (١٨٧٦) وانتقلت الى القاهرة عام (١٨٨٥) لواء الثقافة الانجليزية حيث كان اصحابها الدكاترة : صروف ونمر ومكاريوس من خريجى الجامعة الأمريكية ثم حملت « المقطم » لواء الدعوة الى الثقــافة الانجازية وتأكيد مركز اللغــة الانجليزية فى مصر وحملت الترجمة لواء الغزو الثقافى وتأثرت بالصراع بين الثقافتين .. وكانت فى اول الأمر فى خدمة البعثات التبشيرية حيث ترجمت التوراه والانجيل . ثم تحولت الى خدمة اغراض التغريب .

وكا ن الأدب الفرنسى اثيرا فى العــالم العربى لأن رواده ودعاته قد نقلوا الى الأدب العربى لونا معينا من الوانه هو أدب الاباحة والكشف والجنس ، وقد لاحــظ المســتشرق « جب » ولاحظ « كرومر » من قبــله أن الثقافة الفرنسية انما فتنت المصريين لأنها تحرص على نقل اتجاه معين من الأدب الفرنسى لا الأدب الفرنسى فى جملته وقال « جب » اننا اذا تصورنا الثمرة التى قــد يؤدى الى انتاجها التلقيح بهذه العناصر السلبية والمتشككة فى الثقافة الفرنسية الحديثة فان المرا لا يســعه الا أن يشاطر المحافظين خوفهم من أن يكون التخريب هو كل ما تقضى به هذه الدراسات الأدبية .

(الصراع بين اللغتين الفرنسية والانجليزية)

وقــد كان صراع اللغتين فى مصر من أبرز معــالم الصراع بين قوى الغزو الثقافى والسيطرة والتبعية عن طريق اللغة والثقافة واخذت اللغة الانجليزية فى السيطرة على مناهج التعليم منذ اليوم الأول للاحتلال غير ان نفوذ الثقــافة الانجليزية ظل ضــعيفا بعامل احتلالها للبلاد وكراهية اهل الوطن لها .

وقــد أدهش بريطانيا بعد مرور نصــف قرن أن مركزها فى الغزو الثقافى ليس على النحو الذى يتفق من مكانها الاستعمارى فى المنطقة وقد ابدى ولى عهد بريطانيا ملاحظته من أن نفوذ اللغة الانجليزية فى مصر مازال محصورا فى دائرة ضيقة (يوليو ١٩٣٥) مع «أن لبريطانيا مركزا ممتازا فى مصر منذ ١٨٨٢» وقال أن اللغة الفرنسية لاتزال تعتبر اللغة الرسمية فى التخاطب مع الأجانب وانتقد ذلك، وقال ان المسئولية فيه ترجع الى «تسامح» البريطانيين، ودافعت الأهرام عن اقتراح الانجليز بالغــاء دراســة الفرنسية من التعليم الثانوى فقالت (فى ١٩٣٥/٢/١٤) أن نشر الثقافة الانجليزية عن طريق تعلم لغتها انما كان ضرورة قضت بها ظروف ليست خفية ، وان المصريين لو تركوا وشأنهم لآثاروا الثقــافة اللاتينية . وان أكثر من نصف قرن من قيام هذه الضرورة لم تكف لزحزحة اللغة الفرنسية عن مكانها .

وعللت سر ذلك بأن هــذه المظاهرة نتيجة لدوافع قوية مشتقة من طبيعة البلاد وحاجتها العلمية والاقتصادية وهى وقوع مصر فى منطقة واحــدة من البلاد اللاتينية يصلها بها البحر الأبيض الذى طالما اسموه «البحر اللاتينى» .. وأن التشريع فى الدولة وهو مظهر حياتها الاجتماعية مشتق من التشريع الفرنسى وقالت تقارير دعاة الثقــافة الفرنســية (الأهرام ــ ١٩٣٥/٣/١٦) أن اللغــة الفرنسية فى مصر لها وظيفة « خاصة » فى تكوين اذهان التلاميذ . وأن اهمية الفرنسية لمصر انما مرده الى انها بلدا من بلاد البحر الأبيض ، وان مصر اتصلت بالغرب عن طريق هذا البحر وأنه اذا كانت مصر ترغب فى أن تكون على رأس بلاد الشرق الأدنى او عــلى رأس البــلاد الاسلامية فيجب عليها ان تذكر أن سوريا ولبنــان مثلا تحظى جميع الطبقات العليا فيها باتقان اللغة الفرنسية كذلك الحال فى بلاد شمال افريقيا الاسلامية .

وفى الجانب الآخر أعلن انصار الثقافة الانجليزية فى مصر أن اللغــة الانجليزية لغة عالمية . والقى المستر باكستون محاضرة بالجامعة الأمريكية (١٩٣٤/١٢/١٩) قال فيها : أن من أهم مزايا اللغة الانجليزية ســهولة تعلمها ، وقال ان اللغة العربية لا تصلح لما تصلح له لغة بلاده . وقال أن كلمة TOENTER لاتفيد الدخول فحسب بل « تفيد الدخول والتوغل فى » . وقال ان ما يقابل هذه الكلمة فى اللغة العربية فى كلمتين (يمشى فى) وغاب على اللغة العربية كثرة اصواتها ومترادفاتها ومثل لذلك بأن للأسد من الأسماء ما يزيد على مائة اسم وقال أن نفوذ اللغة الانجليزية يتوقف على نفوذ انجلترا فى العــالم العربى .

وقال كاتب آخــر (الأهرام ــ ٣٥/٣/٢١) ان اللغة الانجليزية فى هذه السنوات الأخيرة تجرف امامها فى قوة وعنف جميع اللغات الدولية الأخرى حتى أصبح ازاما أن نســمعها فى المؤتمرات والاجتماعات الدولية . ويبلغ عدد متكلمى اللغة الانجليزية نحو ٥٠٠ مليون نسمة بينما يتكلم الفرنســية ٧٠ مليونا وتبلغ كلمات اللغــة الانجليزية ربع مجموع كلمات اللغة الفرنسية فهى اسهل استظهارا واقرب حفظا ، ثم ان تصريف الأفعال فيهــا اسهل من تصريف أفعال اللغات الأخرى وان مراجع اللغة الانجليزية فى العلوم والفنون والسياسة هى أكبر مراجع اللغات جميعا .

وقد حدث هذا فى نفس الوقت الذى أصدر فيه عن « عبد السلام ذهنى » المستشار بالمحكمة المختلطة احكاما باللغة العربية لأول مرة فهز العالم الغربى كله واضطربت فرنسا لأن المستشارين المصريين منذ انشاء هذه المحاكم فى عهد اسماعيل لم يصدروا احكاما بغير اللغة الفرنسية مع أن القانون يجيز اصدار الأحكام باللغة العربية . وقد رفض رئيس المحكمة اجازة الأحــكام التى اصــدرها عبد السلام ذهنى وأوقف ارسال القضايا اليه وقد تبعه مستشارون آخرون فأصدروا أحكامهم باللغة العربية .

وقال الكثيرون : أن هــذا الصراع بين اللغتين الفرنسية والانجليزية انما كان على حساب اللغة العربية، وان الحل الوحيد لوقف هــذا الصراع هو احلال اللغة العربية محل اللغات الأجنبية التحكمة فى مرافق البــلاد بحسبانها اللغة التى تستطيع « أن تتمتع بجميع عناصر القوة وتتسلح بكل الأسس القامة والتى تكفل لها النصر على أيه لغة أجنبية فى البلاد » .

ثم اتسع نطاق الدعوة الى احلال اللغة العربية فى خطابات البنوك واللافتــات ومختلف أعمــال الشركات والمصالح .

وأقامت بريطانيا « الاتحاد الانجليزى المصرى » برئاسة الدكتور احمد زكى ابو شادى الذى اعلن فى الصحف (١٩٢٦/١٢/٥) ان هدف الاتحاد « تنمية روح الولاء والمحبة بين مصر وبريطانيا ودعم حسن التفاهم الذى جنينا منه خير الثمرات » وأن الاتحاد الانجليزى المصرى يعتمد على الوسائل الثقافية والاجتماعية .

وفى ميدان الصراع الفكرى بين الثقافتين ، أقام الفرنسيون مؤتمرا لكتاب اللغة الفرنسية من الشرقيين اشترك فيه الكتاب المصريون (يونيو ١٩٢٧) .

وقال رئيس المؤتمر ان ازدياد عدد الشرقيين الذين يختارون اللغة الفرنسية للتعبير عن أفكارهم دليل على ما لفرنسا من النفوذ .

وجرت مساجلات بين منصور فهمى والصاوى محمد فى الأهرام بعنوان « من السين الى النيل » علامة على الروابط الفكرية بين كتاب مصر الذين أطلقوا على فرنسا وطنهم الروحى ، وفى حادثين هامين كشف الفرنسيون عن موقفهم الحقيقى من أن الثقافة الفرنسية انما هى عامل من عوامل الغزو والسيطرة واحلال التبعية . وكشف الكتاب المصريون فى الثانى عن مفاهيمهم الحقيقية ازاء فرنسا .

الأول : الغاء الامتيازات الأجنبية ١٩٣٧ بعد توقيع معاهدة ١٩٣٦ .

والثانى : سقوط فرنسا تحت براثن الغزو الألمانى ذلك انه عندما عقدت بريطانيا مع مصر معاهدة ١٩٣٦ وقفت فرنسا فى وجه الغاء الامتيازات وهددت بريطانيا بالاستيلاء على جميع المعاهد والمؤسسات التابعة للدول المختلفة وادارتها بمعرفتها .

وكانت فرنسا تخشى ان يضعف توقيع المعاهدة نفوذها فى مصر بعد الغاء المحاكم المختلطة ولذلك واصلت حملاتها لتثبت « النفوذ الفكرى الفرنسى » فى مصر ومن ذلك ما كتبه (أوكتاف اوبرى) فى الأهرام (٤/٩/ عام ١٩٣٦) حيث يقترح على فرنسا ان ترسل بطريق الجو الصحف والكتب الفرنسية حيث انها عن طريق البحر يقتضى وصولها تسعة أيام او عشرة أيام .وان عليها انتزود دور السينما بالأفلام الفرنسية لمنافسة الدور الأخرى التى تعرض الأفلام المختلفة . وقال ان على فرنسا أن تبذل الجهود للمحافظة على الارث المتصل اليها من فرنسا القديمة ومقاومة الادارة البريطانية التى توجد فى وجهها عراقيل شديدة .

وتوالت أقوال الصحف الفرنسية مؤكدة ضرورة الاستمرار فى غزو العالم العربى عن طرق التعليم والترتية ، ولذلك أسرعت فرنسا فأرسلت مسيو هرير رئيس مجلس النواب الفرنسى وقال طه حسين عميد كلية الآداب اذ ذاك بمناسبة زيارته (١٩٣٨/٥/٥) « أن فرنسا لها صبغة مشهورة اذ انها اقدر الأمم على توثيق الصلات بينها وبين أمم الأرض » . وقال الدكتور هيكل وزير المعارف اذاك موجها كلامه الى مسيو هرير : حين تزور بعض البلاد الأجنبية ويلقاك اهل البلاد بما انت اهل له من الكبار انما يكرمون فيك فرنسا التى تمثلها اصدق مثل واروعه . تمثل ثقافتها الراقية الممتازة وتمثل ديمقراطيتها الحرة . تمثل حبها للخير ورغبتها فى السلم . تمثل شعورها الممتاز . الم تقل فى مقدمة كتابك البديع عن مركز فرنسا فى العالم ان الحياة الفرنسية يجب أن تقوم على أصلين اساسيين : احداهما مراعاة المنفعة المحققة، والآخر الوفاء بالعهد » ثم لم تلبث فرنسا ان دعت الدكتور طه حسين الى جامعة ليون (١٩٢٦/٩/١١) وأنعمت عليه بنيشان جوقة الشرف من درجة أوفسية « تقديرا لمواهبه الأدبية وتوثيقا لعرى التعاون الفكرى بين فرنسا ومصر » وقال طه حسين هنالك : ان مصر مدينة بكثير من الفضل لفرنسا ، ووصفت جريدة البروجرية طه بأنه « رينان مصر الضرير » أو « رينان الاسلام » وقالت انه الف عددا من الكتب فى مختلف الموضوعات مبينا فيها الأفكار اليونانية المنقولة الى العبرية ثم الى العربية . ومنها الى الحضارة الغربية حيث ازدهرت فى علم الأدب الفرنسى وكيف رسخت فيه الأفكار الفرنسية فأعطاها فى بلاده قوة شديدة مؤثرة » وهكذا صورت صحافة فرنسا مفهوم طه حسين الحقيقى للثقافة الغربية وقال الدكتور طه : نحن مع تعلقنا بفرنسا بالفكر والقلب نحافظ على اتفاقنا الصادق مع انجلترا (معاهدة ١٩٣٦) فانها برت بوعدها لنا بمساعدتنا على توطيد أركان استقلالنا الوطنى ، ووصف طه حسين ايمانه بانجلترا وحرياتها الديمقراطية وقال أن على مصر ان تتوخى السير فى سنن الحضارة الغربية والرقى الديمقراطى ناهجة نهج فرنسا وانجلترا فى الأقرب العاجل .

وأشارت جريدة البروجريه الى العناية التى تبذلها قرينة طه حسين لمعونته وما كان لها من شأن عظيم فى حياته وانها قد هدت خطاه منذ كان فى مونبيليه .

وقد الهم هذا الموقف الدكتور طه حسين وضع كتابه « مستقبل الثقافة فى مصر » الذى صور فيه ما ينبغى ان يكون عليه نظام التعليم والتثقيف فى مصر بعد الاستقلال كما اشار الى ذلك فى حديث له مع الأهرام فى ١٩٣٨/١٠/٧ بعد عودته من فرنسا اثر احرازه دكتوراه جامعة ليون . قال أن قراءاته كانت عن نظم التعليم فى البلاد الاوربية والمعروف أن كتاب (مستقبل الثقافة) كان بعيد الأثر فى تيار التغريب الفكرى ، اذ ان طه حسين دعا فيه لأول مرة دعوته الجريئة الى نقل الحضارة : خيرها وشرها وحلوها ومرها وما يحب منها وما يكره وما يحمد وما يعاب وقال « اننا لا سبيل لنا غير ذلك فقد وقعنا فى مونترو معاهدة تفرض علينا ان نأخذ نظم الغرب فى الحكم وأساليبه فى الثقافة » .

× والموقف الثانى عندما سقطت فرنسا فى براثن الغزو الفرنسى واستقبل كتابنا العرب هذا الحدث بالرثاء البالغ لها . وفى مقدمتهم طه حسين .

ولم يقل احد من كتاب التغريب فى فرنسا كلمة الحق التى قالها المارشال بيتان «لقد جاءت الهزيمة من الانحلال فدمرت روح الملذات واللهو ما شيدته روح التضحية .

وقد حمل كتاب العالم العربى على مصر وكتابها لهذا الموقف فى الوقت الذى كانت فيه فرنسا (حاملة لواء الراى الحر والحضارة) تضرب اهل دمشق بالدافع وتذيق عرب المغرب أشد الوان الاضطهاد والعدوان باسم مبادىء الثورة الفرنسية : الحرية والأخاء والمساواة . وعجب كتاب سوريا من كتاب عرب يبكون على فرنسا متناسين ما فعلته بالعرب وما انزلته من النكبات بعد الحرب العالمية الأولى .

وآية عدوان فرنسا أن الجنرال ليوتى الاستعمارى الفرنسى الطاغية قد اختير عضوا فى الأكاديمية الفرنسية نظرا لعملة الأستعمارى فى شمال أفريقيا فكان خطابة الافتتاحى عن تمجيد الأستعمار وتزيينه والحث عليه ومما وقال « الأدب الفرنسى لاينفصل عن الأستعمار الفرنسى » .. وقال ان الاستعمار مصدر هام للقوة والثروة ومنبع لا ينضب الجيش وساحة تدريب وتكوين للقواد وقد ردد كتاب الغرب ما توصف به فرنسا من انها محررة الأمم او مشعل النور وما هى الا اكاذيب .

واشار ساطع الحصرى الى ما ادعاه كتاب مصر من التفريق بين فرنسا الفكرية وفرنسا السياسية فقال انه محض اختلاق وأنه لا يمكن التمييز بين فرنسا الأدبية التمدنة وفرنسا المستعمرة وان الأدب الفرنسى لم يلتزم الحياد تجاه السياسة الفرنسية بوجه عام وحيال السياسة الاستعمارية بوجه خاص بل على العكس من ذلك انبرى لخدمة تلك السياسة بكل الوسائل الممكنة فقد كتب الأدباء الفرنسيون المقالات والخطب والأشعار والقصص والروايات التى تمجد الاستعمار وتزينه فى النفوس ، وان الأكاديمية الفرنسية اختارت رجالها من بين صناديد الاستعمار وان الأدب الفرنسى لم يرفع النفس الفرنسية الى درجة الوصاية الرشيدة على ميراث الفضائل الانسانية . واكبر دليل على ذلك الأسس الاجتماعية الفاسدة والبراكين الداخلية والأغلال والتفكك . وان فرنسا كانت اعظم عائق فى طريق المفاوضين المصريين فى مؤتمر مونترو لالغاء الامتيازات كما عرض كثيرون من الكتاب للادعاءات التى طالما رددها الفرنسيون عن ان ثورتهم هى أولى الثورات فقالوا ان هناك عشرات من الثورات قامت قبل ثورة باريس المعلومة ، وقد اعترف الفرنسيون بأنهم تأخروا فى تحقيق المساواة والعدل الاجتماعى . كما نقد الفيلسوف الانجليزى هربرت سنبسر الأسطورة القائلة بتفوق الفرنسيين على جميع الشعوب وانتقد انتقادا لاذعا المبالغات التى اطلقت على فرنسا لقب محررة الأمم . وقالوا ان سبق فرنسا انما كان فى أواسط القرن السابع عشر واواخر القرن الثامن عشر غير أنه فى القرن التاسع عشر تبدلت حالة اوربا تبدلا هائلا ولم تحتفظ فرنسا بمنزلتها السابقة ، هذا فضلا عن انهيار فرنسا السريع ازاء الغزو الألمانى .

* * *

الثقافة الأمريكية

كان الغزو الثقافى الأمريكى فى الأول الأمر غزوا تبشيريا دينيا ثم تطور الى غزو فكرى كامل عن طريق الارساليات والتبشير والسينما والصحف والمطبوعات . وقد انشأت امريكا سبع جامعات امريكية فى الوطن العربى غير المدارس والبعثات الدينية وبلغ ما ينفق عليها سنويا حوالى ١٥ مليونا من الدولارات .

واذا كان الاتجاه الثقافى الأمريكى هو محاولة سيطرة المسيحية البروتستانتية على الاسلام وعلى المسيحية فى المذاهب الأخرى ، فان هناك هدفا آخر اخذ مكانه بقوة هو تأييد « الصهيونية » فكريا وثقافيا وعن طريق البحث العلمى والتاريخى فى محاولة ايجاد حق

لليهود فى فلسطين ، وقد كان واضحا تمام الوضوح فى جميع الدراسات التى قام بها المستشرقون والمبشرون والكتاب اليهود فى مختلف المؤتمرات الفكرية العالمية والصحف والمؤلفات والموسوعات التاريخية ودوائر المعارف .

وقد تأثر العرب والمصريون فى الحرب العالمية الأولى بالدعوة التى حمل لوائها « ولسون » رئيس الولايات المتحدة وهى «حق تقرير المصير» غير ان العرب صدموا اشد صدمة عندما اعلن ولسون موافقته على احتلال بريطانيا لمصر وفرنسا لسوريا ولبنان وتأكيد تصريح بلفور فى اقامة الوطن القومى لليهود فى فلسطين .

كما كان لأمريكا انطباعات اخرى لزيارة روزفلت لمصر وتصريحاته عن تأييد احتلال بريطانيا ومن عامة رجال الغزو الثقافى الأمريكى فى العالم العربى(١) دانيال بايس الذى قام بتأسيس الجامعة الأمريكية فى بيروت(٢) تشارلز وطسن الذى قام بتأسيس الجامعة الأمريكية فى مصر(٣) كورنيلوس فان ديك الطبيب المبشر الأمريكى الذى عاش فى سوريا اربعين عاما واشترك مع نصيف اليازجى وبطرس البستانى فى ترجمة التوراة الى العربية

وقد تغلغل الغزو الأمريكى عن طريق التعليم وعن طريق الصحافة ثم تحقق له بعد ذلك الحصول على امتياز استخراج البترول فى المملكة العربية السعودية سنة ١٩٤٣ وشملت عمليات الحفر اكثر من ٤٢٤ الف ميل وتداخل راس مال الأمريكى فى صناعة استخراج البترول ونفط الكويت ووضعت امريكا يدها على ٤١ فى المائة من بترول البلاد العربية .

ثم كان لأمريكا دورها فى تمكين الصهيونية من السيطرة على جزء هام من الوطن العربى هو «فلسطين» كما عمدت امريكا الى محاولة تقديم خدمات اقتصادية واجتماعية فى انظمة تغريبية كالتربية الأساسية والاتجاه الى القرى والحصول على معلومات احصائية مختلفة عن الثروات ، وقد انشأت امريكا مؤسسات تعليمية مختلفة فى لبنان ومصر والأردن . وادخلت اساليب علم النفس وتجاربه القائمة على نظريات فرويد والجنس لتحويل تفكيرنا ، عن الأسس الحقيقية للفكر العربى الاسلامى والخروج من تقاليدنا الى التقاليد الأمريكية ومحاولة الغض من آدابنا وتراثنا ومعالم فكرنا وشخصيتنا .

* * *

اثر الصراع فى الفكر العربى الاسلامى

وبعد : فماذا كان اثر هذا الصراع فى الفكر العربى الاسلامى .

كان ابلغ آثاره ماصوره فرح الله الحايك الكاتب اللبنانى (الرسالة — ١٠ يونيه ١٩٤٠) حين قال : يسألوننى لماذا نأخذ اللغة الفرنسية كاداة للتعبير . وجوابى هو جواب الأكثرية الساحقة من اللبنانيين ، فنحن لا نستطيع ان نفصل بين محبتنا لفرنسا بين تأثيرها الثقافى علينا . فنحن نعيش فى وسط فرنسى ، فرنسى فى روحه ولغته ، ورغم التباين العميق بين لغتنا العربية وبين اللغة الفرنسية فنحن نهضم هذه الى درجة اننا اصبحنا نفكر بالفرنسية » ولاشك ان هذا اغراب فى التغريب ، وذهاب فى « التبعية » والولاء للأجنبى الى ابعده حدوده مما يتعارض مع استقلال الفكر العربى الاسلامى ونزعته الحرة الى الاقتباس مع الاحتفاظ بشخصيته دون ان يندمج او يستغرب أو ينطوى ، ومثل هذه الصورة تراها فى كتاب الياس ابو شبكة (روابط الروح بين العرب والفرنجة — ١٩٤٥) حيث يقول أن فرنسا أعظم جرم يرى فى العالم ، ويعمم فى تحيز فيرى أن جميع الحركات الشعبية والفكرية التى تمخضت عنها اوربا وآسيا انتهت اليها ، وانه ان يكن نابليون فشل فى فتح سوريا فقد تولى هذا الفتح مكانة اعلام الفرنسيين فى رجال الأدب والعلم . وهكذا يرى الياس ابو شبكة ان سائر الآداب الانسانية مدينة لفرنسا بالشىء الكثير «لأن فرنسا هى الفرن الذى يخبز فيه خبز الانسان الثقافى » وجرى طه حسين مع دعوى جيبون ورينان فى التفرقة بين العقل الآرى والعقل السامى فطبق ذلك على الأدب العربى (الهلال نوفمبر ١٩٢٧) وقال : الفرق بين الأدب الفرنسى والأدب العربى هو فى الواقع فرق مابين العقل السامى والعقل الآرى . فالأدب العربى سطحى يقنع بالظواهر والأدب الفرنسى عميق دائم التغلغل . وفى الأدب الفرنسى وضوح وتحديد لا وجود لهما فى الأدب العربى . والأديب الفرنسى اذا عالج موضوعا الم بالتفصيلات وهو مع ذلك لا ينسى الكل والمجموع . اما الأدب العربى فيجتزىء بأخذ وردة من البستان او لون من الوردة . ولا يفكر فى البستان . فالمزاج العربى هو المزاج السامى الذى لا يحيط بالموضوع أجزائه وكلياته . ولا ينزع الى التحليل ودرس التفاصيل ، ثم يجب ان لا ننسى ان فى الأدب الفرنسى والأوربى على وجه العموم فنونا لم يعرفها العرب قط مثل التمثيل والقصص » .

وتمثل هذه العبارات هدف الغزو الثقافى والتغريب وهى اتهام الأدب العربى بالقصور عن الآداب

العالمية ، والنظرية اصلا تقوم على اساس ثبت بطلانه وهو الفرق بين الأوربيين والساميين من الناحية العقلية أو الثقافية ، وبالرغم من هذا فان طه حسين ناقض نفسه اكثر من مرة وهو ينقل نظريات التغريب وحمل لواء آراء المستشرقين والمبشرين ودعاة الغزو الثقافى حين قال بعد بنظرية البحر الأبيض وغيرها من النظريات التعددة التى لم يقصد بها الوصول الى حقائق معينة ، وانما الى بلبلة الفكر العربى بعشرات من النظريات التضاربة المتعصبة التى تهدف الى اثارة الشك وخلق روح الشبهات وولادة مذهب الاحتقار والاستهانة لقدراتنا وتتبيع الفكر العربى الاسلامى للفكر الغربىليكون صورة بالكربونمنه تضيع منها ملامح الشخصية العربيةومقومات كياننا الروحى وطابعنا الانسانى .

* * *

ولقد كان الهدف الأساسى للغزو الثقافى الغربى هو خلق جو من البلبلة والتشكك بتعدد ضروب الثقافات التابعة لها وأديان الهيئات الدينية التى قامت بانشائها وهى فى مجموعها تخرج مجموعا مبلبلا من التعلمين والمثقفين الذى يختلف فى الراى والنزعة والاتجاه بين التعليم الدينى الاسلامى الذى يقوم به الأزهر والقرويين والزيتونة والمدارس اللاهوتية البرتستانية والكاثوليكية والأرثوزكسية وبين اللغات الفرنسية والانجليزية وبين تيارات الثقافات اللاتينية والسكسونية مما يخلق تنوعا عجيبا يحول دون وحدة الفكر العربى الاسلامى والقاء المثقفين العرب أمام أهداف موحدة وخاصة فى :

(١) مسائل الحرية والقومية والتحرر الفكرى والتبعية الثقافية وقد ظهر ذلك واضحا فى اعجاب المثقفين العرب بالثقافة الفرنسية والتبعية لها .

وفى (٢) النظر بعين الاستهانة الى التاريخ العربى واللغة العربية والتراث العربى كله والتطلع الى النقل من الثقافة الغربية حتى فى الجوانب التى يبدو غناها واضحا فى الفكر العربى الاسلامى ، وهذا هو اثر سيادة النزعة الأجنبية فى برامج التعليم التىسيطرت علىالوطن العربى ، خلال قرن كامل (١٨٤٠ — ١٩٤٠) حيث حرصت هذه المناهج على حجب مفاهيم الحرية وتاريخ الكفاح والانتصارات من البرامج الدراسية والكتب والصحف حتى لا يكون عاملا فى تغذية الشعور القومى وقد صدرت عشرات المؤلفات حتى خلال هذه الفترة عن الثورة الفرنسية وابطال اوربا وكتابها وفلاسفتها وعن مدن باريس ولندن ولم يصدر بما يوازى واحد فى المائة منها عن أبطالنا وأعلامنا ومدننا وتاريخنا .

* * *

دور الحضارة فى معركة الغزو الثقافى

اجمع المؤرخون والمفكرون المتصفون أن الحضارة العالمية التى اطلق عليها « الحضارة الغربية » هى تراث انسانى عالمى شاركت فيه البشرية كلها ، وكان للعرب دور كبير فيه . فان جذور هذه الحضارة التى قامت فى عصر النهضة كانت نتيجة لنقل العلوم التى انشأها المسلمون والترجمات التى نقلوها عن اليونان واضافوا اليها ونموها فى مختلف الفنون وهى ليست غربية الا بالاسم انما هى ملك مشاع للانسانية وهى ثمرة الحضارات القديمة جميعها .

***

موقف المسيحية من الحضارة

قامت الحضارة العالمية العصرية على اساس المادة والايمان بقدرة العلم المطلقة ، وقد ارتبط الأساس المادى للحضارة بانكار الدين والروحية واسس الألوهية والنبوات واقامة مذهب البحث على اساس العدمية والالحاد والشك فى كل ما وراء الواقع اللموس وقصر الايمان على ما يصل اليه البحث بالملاحظة والاستقراء .

وترجع هذه الخصومة للدين الى موقف الكنيسة الأوربية من العلم والحرية اذ ناهضتهما واستعدت محاكم التفتيش على العلماء وافكارهم وبذلك ارتبط « الدين » فى عرف الغرب بالتعصب والوقوف فى وجه العلم ، وهكذا كان على الحضارة أن تصارع الكنيسة الأوربية اذ وجدتها جامدة معارضة لقبس الحرية وضياء الفكر ، كما طاردت رجال الكنيسة الى المعابد والأديرة واعلنت فصل الدين عن الدولة وبذلك لم تبق المسيحية فى الغرب الا كتراث تاريخى ووسيلة للاستعمار فى خارج اوربا ، وكذلك قامت الحضارة الغربية على الالحاد والشك والمادية والاباحية والتهافت على اللذة واطلاق الغرائز وتجهيز المرأة بالمغريات وقيام مذهب الاثرة وشرعية الربا وتغليب مذهب « الغاية تبرر الواسطة » واصطناع الميكافيلية فى السياسة وهى انكار الأخلاق فى سبيل تحقيق الغرض ، والبراجماتزم (وهو مذهب الذرائع وتبادل المنافع الذى يجعل لكل شىء ثمنا ومقابلا) .

موقف الانسان من الحضارة

كان الغزو الثقافى الغربى حريصا على ان ينقل الى الفكر الغربى هذه الشكوك والنزعات والزوايا الحادة المتضاربة ، محاولا تطبيق نظرياته على المجتمع العربى بعقائده ومذاهبه وافكاره وتراثه ، غير انه لم يقدر مدى الفروق بين الكنيسة وجمودها الذى واجه الحضارة الغربية وبين الاسلام ، فقد قصرت المسيحية عن التطور والاستجابة للحضارة ، ولكن الاسلام لم يكن طوال حياته جامدا ، بل كان مرنا قادرا على مواجهة التطور فى مختلف العصور والبيئات والأزمنة ، قادرا على الالتقاء بالحضارات والثقافات المختلفة ، والاقتباس منها ، وله فى ذلك تجربة ضخمة تكاد تكون مثلا حيا لذلك هى تجربته فى اقتباس الثقافة اليونانية والرومانية وحضارتهما ، فقد قامت فى ظل الدولة العباسية مدرسة ضخمة للترجمة والاقتباس كانت بعيدة المدى فى تطوير كل فنون الثقافة العربية وترجمة كتب العلم والطب والفن والفلسفة ، اذ حمل عباقرة علماء العرب هذه الفنون وزادوا فيها واضافوا اليها واقاموا نهضة علمية بعيدة المدى استمرت خمسة قرون كانت أوروبا خلالها تعيش فى دياجير الظلام حملت لواءها جامعات دمشق وبغداد وقرطبة والقاهرة ، ثم عاد الغرب فاتصل بهذه الحضارة عن طريق الأندلس وفرنسا وعن طريق الحملات الصليبية ، وعن طريق تركيا العثمانية ، وعن طريق رحلات العلم المختلفة التى قام بها العلماء الغربيون الى الشرق .

***

الحضارة ومجتمع الغرب

ولقد كان للحضارة المادية ، اثرها فى المجتمع الغربى ، هذا المجتمع الذى عاش حياة مضطربة لم تعرف الاستقرار نظرا لكثرة المذاهب والعقائد والنزعات وتضاربها وتغلب المطامع والصراع المادى وقد تردد الغرب بين عشرات المذاهب التى خلقها وحاول بها أن

ينشيء مجتمعا مثاليا ، غير أن هـذه الأنظمة والمذاهب والعقائد تداعت وفشلت ولم تحقق اي نتيجة ايجابية .

ثم كان لظهور المادية الماركسية الشيوعية اثرها فى قيـام صراع عالمى ضخم بعيد المدى بين المجتمعـات الراسمالية المسيحية وبين المجتمعات الشيوعية الماركسية مما حال دون الوصول الى نظام مثالى (اثيوبيا) صالحة

وكان سقوط فرنسا دلالة كبرى على مدى الانهيار فى النفسية الغربية والمجتمع الغربى وهكذا عجزت الحضارة الغربية عن أن تقدم للانسـانية مجتمعا ناجحا ، وعاش فى ضرام من المذاهب المتناحرة ، القائمة على الاسـتعلاء بنعرة الجنس وعصبية اللون ومحاولة السـيطرة على العالم الملون واستغلال الاستعمار لكل ما لدى الحضارة الغربية من علم وادب وفلسفة فى سبيل السيطرة . وكان غزو اوربا لآسيا وافريقيا غزوا استعماريا ماديا لا غزوا حضاريا ، انهارت معه كل ادعاءات الحضارة فى الحرية والأخاء والمساواة وتمدين الشعوب وحق تقرير المصـير والحريات الأربع وما سوى ذلك من شعارات اعلنهـا الغرب خادعا بها ، وتبددت فى ظـل الأحداث الدموية الرهيبة كل دعوات الرجل الأبيض المتمدن وعن امانتـه فى نقل الحضارة الى الجنس البشرى ، فقـد تبين أن الاستعمار والاستغلال والمطامع المادية والاقتصادية هى الأسس الحقيقية للحضارة الغربية ، وقد اشـترك فى هذه النزعة كلا المذهبين العالميين على العالم الغربى : الرأسمالية المسيحية والشيوعية الماركسية ، فهما كلاهما : يحاربان الأديان وينكران الجوانب الروحية ويتصارعان على امتلاك اراضى جـديدة بها خامات تقـدم وقودا للمصانع وأسواقا لتصريف الانتاج .

* * *

مادية الحضـارة وروحية الشرق

غير أن هذا كله لم يمض دون أن يتنبه الفلاسـفة والمفكرون الى مدى خطر « مادية الحضارة العـالمية » فتراجعت قدرة العلم الـمادية المطلقة ، وظهرت مذاهب جديدة تهدم المذاهب القديمة ، واعلن قادة الفكر الغربى بأن الحضارة يجب ان تلتمس لها روح وايمان ، من ذلك دعوة أوجست كمنت الى ديانة الانسانية .

ووصل العلماء بتطور المفاهيم والأبحـاث الى أن العلم قد عجز « وحده » من أن يكون غـذاء نفسيا للشعوب الغربية ، وانه لا مفر من الالتجـاء الى الشرق واديانه وروحانيته .

وكان هذا اعلانا لافلاس الحضارة الغربية المادية. وبدات اوربا فى الثلاثينيات من هذا القرن تبحث مذاهب الهند القديمة ، وانبعثت دعوة الثيوصوفيه وهو مذهب يدل على التعطش الروحى ، وكان العلامة « هالدين » عندما أصدر كتابه (المادية) قد أثار ضجة كبرى وصفت بأنها دقت المسمار الأخير فى نعش المـادية فقد قال ان اولئـك الذين يؤمنون بالمعجزات على حق ، ومثلهم فى صحة العقيدة اخوانهم الذين يؤمنون بأن الحياة أساسها كيمائى نفسى ، والنفس من عالم الأرواح منشئوها واليه مآبها ، وان الحقيقة التى طفق الانسان يبحث عنها دهورا عديدة ، واعيـاه نشدانها ، هـذه الحقيقة روحانية فى جوهرها ، والروح لا يدركها العقل .

ثم قال « انتشين » العالم المادى الكبير «ان العالم فكرة فى عقل الله » واعلن الكثيرون أن نظرية (النشوء والارتقاء) المبنية على « النظرية الحتمية » قد انهـار جوهرها من الأسـاس بعـد ظهور نظرية تحطيم الذرة واثبات أنها تتجزأ .

وقال (هارلود لاسـكى) انه اذا كانت أوربا تخلصت من وصمة التعصب المذهبى فى نطاق الدين فانها لا تزال تتخبط فى حماة التعصب المذهبى فى نطاق الاقتصاد والسياسة .

وقال « لاسكى » ان الحضارة تمر بمحنة من الشك والجدف والالحاد وتميع المعايير الثقافية والقيم الأخلاقية بصورة لم تنذر بشر مستطير فى حياة الفرد وحياة الجماعة وان الحضارة فقدت ثقتها فى نفسها كما فقدت ايمانهـا العميق بحيوية القيم الثقـافية السائدة ، وعجزت عن تحقيق ذلك الوفاق المنشود بين عالم المثل الأعلى الممثل فى كتابات الانسانيين وبين حقائق هذا الواقع الحـافل بأهـوائه وأطماعه وخصوماته وان استفحال النظـام الراسمالى سخر سلطات التشريع والسياسة لخدمة مصالحه دون احتضان برامج الاصلاح الاجتماعى ،

وقال (جون دودف) ان الغرب الذى يتيه فخـرا بطابع حضارته الوضعية الحديثة ، هذا الطابع الذى يطلق عليه اسم « المودرنزم » أو العصرية التطورية قد قامر بكل رأس مـاله على مائدة هذا المودرنزم ، بل وافنى شخصيته الانسانية بكل طاقتها الابتداعية والروحية ،

داخل دولابها الآلي الرهيب ، أن هذا الدولاب الدائب الدوران تفعل البخار والكهرباء أو الذرة قد غدا فى ذاته قيمة أساسية تقاس بها كل القيم فى مجتمع الغرب .

وقد أصبحت دول الغرب برمتها شوهاء الصورة « من الداخل » الى حد مخيف ، بعد أن سيطرت حضارة الالية الديناميكية سيطرة عمياء بلهاء لاهدف لها ولاناموس الا مجرد التطور الآلي الذاتى ، هذا التطور ، بل هذا الاندفاع الذى يسن لنفسه بنفسه قانون حركته مستقلا عن روح الانسان ومعنوياته كلها مع أنها تراث الآلاف من السنين ، وما دامت الثقافة هى صورة حية للنفس الانسانية فى جهادها الدائب من أجل الاستعلاء وجهادها المنبثق من الداخل العميق الأغوار فلنا ان نحكم تبعا لذلك بأن أوربا وأمريكا محكومتان بدوافع شخصية آلية او لا شعورية عمياء وليس بدوافع ثقافية عميقة واعية .

وتسائل (جون وودف) ماذا يبتغى الانسان من وراء السيطرة على الطبيعة ، وكشف اسرار الحياة : هل الهدف هو ان نسود الطبيعة أم تسودنا الطبيعة ، هل الهدف حين نهتك اسرار هذه الحياة سرا وراء سر ان نشقى بهذه الحياة أم أن نسعد بها نحن والأجيال القادمة .

وهكذا تبدو « الحضارة الغربية » وهى تتحول الى موقف الانهيار الذى وصفها به شبنجار فى كتابه احتضار الغرب) :

فقد كان مذهب ما قبل الحرب الأولى هو مذاهب الدم والحديد ، مذهب بسمارك وهو ذات المذهب الميكافيلى القديم القائم على نظرية «الغاية تبرر الواسطة» وبعد الحرب ظهر تعصب مذهبى جديد كان أقسى تطرفا : ممثلا فى الشيوعية والفاشية والنازية مع التعصب المذهبى المصطنع بصبغة قومية مسرفة وانقسم العالم الى معسكرين خصيمين هما : الدكتاتورى والرأسمالى .

* * *

تدهور الحضارة

وقد اجمعت آراء الباحثين على ان الحضارة الغربية مشرفة على عهـد انحطاط وتدهور وفنـاء ، كما أشار اشبنجلر فى كتابه (احتضار العرب) وقال أن الحضارة الغربية قد أجديت وافرغت جعبتها .

وقال ليونارد ولف (مقتطف أبريل ١٩٣٤) انه قد جرت محاولات ضخمة لمقاومة هـذه الحضارة ، اهمها ما قامت به الهند احياءاً لحضـارتها الهندية القديمة . وقال : أن حركة التجديد فى تركيا انما كانت تهدف الى التحرر من العبء الاقتصادى والسياسى الذى لحقها من الحضارة الغربية » .

وقد عدد البـاحثون مظاهر الانهيار فى الحضـارة الغربية متمثلة فى « العنصرية » التى تنادى بسـياسة القوة و « الدعوة الجرمانية » ممثلة فى فلسفة نيتشـه وتطبيق الولايات المتحدة لسياسة الحـاجز اللونى فى طوائف الهنود وفى جنوب افريقيا (وفى الولايات المتحدة ١٣ مليونا من الزنوج الأفريقى الأصل ، يعاملون أسـوأ معاملة) واضطراب ولسون بين اعلان المبادىء الثلاثة عشر فى حق تقرير المصير ، ثم تأييده الحماية على مصر ، والفلسفات النحلة المادية والاتجاه نحو الجنس ، وغلبة المدرسة السريالية بعد الحرب الأولى تحمل بذور الحيرة والقلق والحقد والثورة ، وظهور المدرسة الوجودية بعد الحرب الثانية تحمل عناصر الشـك والنموية واطلاق العنان للأعصاب المنحلة ، ودعوة اخضاع الآداب العامة الى الاقتصاد ، وأن الحوادث الكبرى فى التـاريخ ترجع الى أزمات قامت فى نفوس الأفراد .

كما أكد الباحثون تعصب الحضارة الدينى والذهبى وقالوا أن الثقافة الأوربية لم تتخل قـط عن نصرانيتها وتعصبها . واشاروا فى هذا الى تصريح ناظر معـارف هولندا فى مؤتمر المستشرقين ١٩٣١ فى لندن حين قال : أن هولندا لم تذهب الى الشرق لأجل التجارة بل لنشر حسنات الدين المسيحى . كما صرح وزير الخـارجية الألمانية بأن ثقافة ألمانيا مبنية على الدين المسيحى .

ويتصل هذا بما تظهره دول أوربا من مظهر لادينى فى الثقافة والحكم ، بينما تتعصب تعصبا واضحا للمسيحية فى المراسم الدينية وحفلات الكنائس وأسـماء الأحزاب وامداد البعثـات التبشيرية والارسـاليات بالاعتمادات الضخمة والدعاية .

هـذه هى صورة الحضـارة الغربية فى مذاهبها وعقائدها التى حاول الغرب أن يعرضها فى حملة الغزو الثقـافى والسياسى والعسـكرى على العرب وان يفرضها ، بينما لم يصل هو بعد الى نظام او عقيـدة او (طوبيا) صالحة لاقامة مجتمعه ، وهو فى خلال هـذا الاضطراب بين العقائد والنظم والنظريات التى لم تحقق أى نجاح ، يحاول أن يغزونا بها ، واتخذ عنا نحن لهـا حينا حين اعتنقنـا بعض هذه المذاهب ودافعنا عنهـا وتحمسنا لها وظهر منا كتاب يدعون الى نقلها نقلا كاملا، دون أن يفكروا فى فوارق التفكير والزمن والبيئة والدين والثقافات، فكان هذا الاضطراب العنيف الذى أصاب الفكر العربى الاسلامى ، واصابه بالزلزلة العميقة ، واقام فيه جوا عنيفا من الصراع الطويل حتى أمكن ان يتم التغلب على نظرية (النقل) وأبدالها بكلمة (الاقتباس) .

* * *

مواجهـــة الحضـــارة

كيف واجه الفكر العربى الاسلامى الثقافة الغربية والحضارة الغربية .

علينا قبل أن نصور ذلك أن نكشف عن الفرق بين الكلمتين : الثقافة والحضارة .

الثقافة فكر والحضارة مادة

وقد جرت ابحاث متعددة حول الثقافة والحضارة ، واختلط على كثير من الكتاب الفرق بينهما : وجملة القول فى هذا ان الحضارة هى الجانب المادى وان الثقـافة هى الجانب الفكرى .

ويرى شبنجار هذا الراى فيقول : أن الثقـافة أفكار معارف وآراء . وانها مجموعة المعارف والأفكار التى تمثل الحياة والتى تنمو بها الأمة وان الثقـافة من الحضارة بمثابة السبب من النتيجة .

ويرى شارلس ريشيه : أن الحضارة هى مجموعة الآراء والعادات الناشئة عن الجهود التى تبذلها الأمة فى ميادين العلوم والفنون والصناعات والدين .

ويفرق الدكتور عبد الوهاب عزام بين الثقـافة والحضارة فيقول : فرق ما بين الصنـاعات والأخلاق والعادات . فاذا احسنا التفكير لم يلتبس علينا ما ناخذ من أوربا من العلوم الطبيعية ونتائجهـا وما نتجنب من أخلاقها وآدابها . فانه لا فرق بين الحساب والهندسـة والكيمياء فى الشرق والغرب .

ولكن شتان ما بينهما من العقائد والخلق وسـنن الاجتماع ، وما يتصل بذلك ، فان لكل أمة من اخلاقهـا وآدابها ثوبا حاكته القرون وعملت فيه الأجيـال فليس يصلح لغيرها ولا يصلح لها غيره .

وقـد أشار البـاحثون الى الفرق بين البحث فى الحضارة والبحث فى الثقـافة وكيف انه لا يمكن تطبيق مبادىء التسامح التى طبقت فى مجال الحضارة والعلوم على الثقافة (الاجتماع والعقائد) .

معركة المواجهة

حمـل دعاة التغريب فى هذا المجـال رسالة المستشرقين فى الدعوة الى قبول الحضارة كلها (خيرها وشرها) وكان فى مقدمة هؤلاء سلامة موسى وطه حسين ولم يصـيبوا نجاحا يذكر ، وفشـلت الدعوة الى تعدد الثقافة والقضاء على توحيدها ، وعندما ارتفعت الأصوات بالدعوة الى ثقافة عربية خالصة موحدة هاجم سـلامة موسى هذا الاتجاه . وقال انه ليس من مصـلحة الأمة (البلاغ ١٩٣٦/٣/٢٦) وقال : ان من مصلحة الأمم فى تعدد الثقافة والبعد عن كل محاولة يراد بها التوحيد . وقال : ولسنا ننكر ان تعدد الثقافة يؤدى الى التزعزع والقلق ولكنه خير من الركود » .

ولا شك أن الدعوة الى تعدد الثقافة انما هى دعوة الى البلبلة وقتل مقومات الأمة ولذلك لم تلق أى قبول .

واعترف فيليب حتى بأن « التحرر الفكرى فى العالم العربى » اصطدم بمجموعة صلبة من المبادىء والأفكار هى (وحـدانية الله ونبوة محمد ورسالته وقدسـية الاسلام) وأن أحدا لم يخرج على هذه العقائد . وقال : أن بعض المفكرين حاول النظر الى الاسلام والقرآن بروح النقد (طه حسين وعلى عبد الرازق) غير ان هـذا الاتجاه لقى مقاومة شديدة ومات فى مهده » .

ويقصد « فليب حتى » بالتحرر الفكرى ما نطلق عليه دعوة التغريب ، وقـد لاحظ كثير من المستشرقين الذين بحثوا نتائج حملة التغريب « أن تأثير الفرنجة لم يتجاوز المدن لأن كل الوسائل والأساليب التى استخدمها الغربيون من صحافة ودعاية ومؤسسات علمية أو اجتماعية أو سينما أو شراء للأقلام ، كل ذلك وقف عند حـدود المدن ولم يتجـاوز الى الريف » وكان من نتيجة ذلك

ما رسم من خطط جديدة بعد الحرب العالمية الثـانية لاقتحام الريف بعد عجز التبشير والتغريب عن اقتحامه فى الفترة التى نبحثها .

وقد انقسم الراى بين المفكرين فى « نقل » الثقافة الغربية او « اقتباسها » ودعا زكى مبارك الى ما اسماه « الاستيعاب » وفى مقال له (هلال نوفمبر ١٩٣٦) عن الثقـافة العربية وهل ينبغى استقلالها عن الثقـافات الأجنبية : قال : نحن نريد أن يكون للأمم العربية ثقـافة لهـا خصائص واصـول . ولكننا ننكر انقطاعهـا عن الثقافات الأجنبية وقال أن فى اللغة الانجليزية الف كلمة عربية تدور على الألسنة فى الخاطبات والكاتبات .

ودعا الى « استيعاب » الثقافات الأجنبية وقال : يحسن حين يمكن ذلك أن نهضمها بحيث تصبح عنصرا من ثقافتنا القومية . وقال : لا أوصيكم بالفنـاء فى الآداب الأجنبية ، ولكن أوصـيكم بالتخلق بأخلاق الأقوياء من الأجانب وعهدى بهم ينقلون الى لغاتهم ما يملكون نقله من جيـد الآراء ثم يتصرفون تصرف البقـريين لا تصرف الناقلين ، وقال أن العرب القدماء هضموا أكثر ما عرفوا من الثقافات الأجنبية ثم فرضوا ثقافتهم على من اتصل بهم من الناس .

وعرض البـاحثون لنظرية ابن خلدون عن « ولع المغلوب بتقليد الغـالب » وما اورده شينجلر فى نظرية (التشكل الكاذب) حيث قال : أن التشكل الكاذب يحدث عندما تضغط حضارة كبيرة قوية على حضـارة قدمة ناشئة فتصبها فى قالبها وتعطيها احيانا شكلا كاذبا لايمت الى شخصيتها الحقيقية العميقة بصلة » .

ويتصل بهـذا فشل النتائج التى ترتبت على نقل الأنظمة السياسية والاجتماعية عن البلاد المثقوفة ، فان هذه الأنظمة قد طبقت فى الوطن العربى تطبيقـا شكليا تقليديا دون تقدير لفوارق البيئة والزمن والطبيعة .

والواقع أن البلاد العربية كانت فى حاجة الى أن تمر بمرحلة يقظة حرة لا ضـغط فيها هى مرحلة « التكيف » وصوغ انظمة تتفق مع تراثنا وتتمشى مع ملامح شخصيتنا ومعالمها وتطورها غير أن الاستعمار حال دون ذلك .

ويمكن القول بأن (الحضارة المادية) يمكن نقلها واقتباسها ، ولكن (الثقافة الفكرية) تجد من العسير نقلها نقلا كاملا . وفى هذا ما قاله غاندى (اننا لم ننهمك فى النظريات بحثا عن حياتنا ، وانما انهمكنا فى حيـاتنا بحثا عن النظريات فلم نترك اى عقـائد تفرض وجودها على غير واقع ، توجه سير أحداثنا وتصنع تاريخنا) .

ودعا توفيق الحكيم (الأهرام — ١٩٣٨/٥/١٣) الى أن ننخرط فى سلك الأمم الأوربية — اذا لم تكن لنـا قدرة على خلق حضـارة شرقية ، أما اذا كان للشرق رسالة — كما يقول الدكتور هيكل — وكان الشرق هـو النوط باصلاح مافسد فى الغريب ، فان أول خطوة ينبغى أن نخطوها انما هى اعادة النظر فى الحضـارة الأوربية ووصـل توفيق الحكيم الى غايته حين قال : انك قـد تسـتطيع أن تقتلع من رأس الشرقى عظمة السـماء ولا تستطيع مطلقـا ان تقتلع منه عظمة (العلم الأوربى الحديث) وانه من اليسير أن تسـفه عند الشرقى الآن رسالة الأنبياء ولا يمكن أن تسفه رسالة الصناعة الكبرى ، نعم اليوم لا يوجد شرق » ولا شك أن توفيق الحكيم قد جاوز الحق فى هذا التصوير لتحول الشرق عن الروحية الى المادية .

وقد جرى البحث عن نهضة الشرق وهل هى عربية ام غربية وتعددت الآراء ، ولكنها كانت فى الأغلب مجمعه على « الاقتباس » لا النقل (الهلال م ٣١) قال ميخائل نعيمة : ان القائل لا غالب الا الله (اى الشرق) لأحكم فى نظرى من القائل لا غالب الا انا (الغرب) وأن الغرب أحوج الى مدرسة الشرق .

وقال سلامة موسى : ليس هناك حد يجب أن نقف عنده من اقتباسنا من الحضارة الأوربية .

ودعا لطفى جمعه الى « الاقتباس » من الحضـارة الغربية : الاشتراكية ومحـو تعدد الزوجات والغـاء الطربوش والحبرة وتوجيه التعليم الى الكيمياء والطبيعة والرياضيات .

وقال انيس المقـدسى : ان جامعة الشرق العربى هى اللغة وليسـت الدين وحذر من تقليد الغرب تقليدا اعمى يذهب بشخصيتنا .

وقال جبران خليل جبران : ان الغربيين فى الماضى كانوا يتنـاولون ما نطبخه فيمضغونه ويبتلعونه محولين الصالح منه الى كيانهم الغربى ، اما الشرقيون فى الوقت الحاضر فيتناولون ما يطبخه الغربيون ويبتلعونه ولـكنه لا يتحول الى كيانهم الشرقى بل يحولهم الى شبه غربيين:

وقال (مستهل) الكرملى : اذا كان لابد من الاقتباس من وسائل المدنية الغربية فيجب أن يكون بقدر ما يكفينا ، فاذا زاد عن الكفاية اخرنا . على ان يكون ذلك القدر ملائما لأخلاقنا وبيئتنا وعوائدنا الحسنة وبلادنا وهواءها .

وقال الرافعى : ان نهضة الشرق العربى لا ينهض بها الا الركنان الخالدان : الاسلام واللغة العربية فاذا اخذنا من الغرب فلنأخذ ما يتفق مع الأصل الراسخ فى آدابنا من الشورى والحرية الاجتماعية .

* * *

(الحضارة)

وفى مجال البحث عن الحضارة القادمة : هل هى فرعونية أم عربية أم غربية وتعددت الآراء . قال الدكتور على ابراهيم : ان تقدمنا سيكون فى نطاق الحضارة الاسلامية مع الاقتباس من الحضارة الراهنة . وقال أن اللغة العربية تصلح لأن تكون لغة علمية ، وأننا لن نرتمى فى أحضان المدنية الحاضرة ولن نرفضها كلها . وقال منصور فهمى : أن هذه البلاد تلقت عن العرب اللغة والدين ، وانه اذا كان المصريون مصريون فهم عرب باعتبار لغتهم وما ادخلته اللغة فى نفوسهم من العواطف والأفكار . وقال أن هناك ثلاث روابط : رابطة الاسلام ورابطة الشرق والرابطة العربية :

وقال طه حسين : أن الدين العربى واللغة العربية مقومان أساسيان للحياة المصرية الحديثة ، وانه لا يرى رأى الذين ينكرون الحضارة أو يتهمونها بالشر والفساد والاغراق فى حب المادة وقال اننا سنأخذ من الحضارة كل ما تحتاج اليه حياتنا العقلية وحياتنا المادية .

وقال الدكتور محمد شرف : ان حضارة المستقبل فى مصر ستكون اسلامية عربية ، لأن اللغة والدين من اسس الحضارة وهى غنية بمبادئها الرائعة وبلاغتها الكاملة (الهلال م ٣٩ — ص ٨١٧) .

* * *

(الدين والفكر العربى الاسلامى)

كما جرى البحث حول مكان الدين فى حياتنا الفكرية وذلك بمناسبة زيارة الكاتب الانجلزى روم لاندو للشرق

وقال المراغى : الاسلام كما يفسره الأزهر يسعى الى أن يطابق بين قواعده وبين مطالب الحياة . وان الهدف هو التوفيق بين الروح والمادة توفيقا عمليا ونظريا فى أن واحد .

وقال : انه ليس فى القرآن شىء يناقض العلم والحق . وأعتقد أن الأمة لن تهجر الدين وانها ستعود الى حماة .

وقال روم لاندو : أن الغربيين يعتقدون أن التفكير العربى تفكير نظرى ، فاذا كان تفكير مصر فى خلال اربعمائة عام لم يجاوز نطاق الفقه الدينى فقد يبدو أن هؤلاء الغربيين لم يخطئوا . وقال ان التفكير الغربى تفكير واقعى ينفر من المفروض النظرية وينصب على شئون اليوم ، أما التفكير العربى فيبدو أنه منوط ببحث القواعد التى سبق تقريرها فهو كقطع (الأرابيسك) لا ترى فيها حياة نابضة .

ورد على ذلك لطفى السيد فقال : يؤسفنى الا اوافقك فانى أرى نقيض ما ترى ، اذ يبدو لى أن التفكير العربى اقرب الى الواقع من التفكير الغربى فالشريعة الاسلامية التى ذكرتها دلالة على (نظرية) تفكيرنا ، ليست كالشريعة المسيحية مقصورة على بحث أصول العقائد والأخلاق فحسب ، بل نتناول تفاصيل الحياة ووقائعها ، فهى تضع قواعد للعمل وللزواج وللميراث ولما شاكل ذلك من أمور الحياة .

وتساءل روم لاندو : هل لا يزال الدين عاملا قويا فى الحياة المصرية ولجاب لطفى السيد : لا يزال اثره فى الحياة الاسلامية أوضح من أثره فى الحياة المسيحية ، ذلك لأن قواعدنا تقوم على قاعدة من القرآن . ومن العسير فى الأقطار الاسلامية أن تفرق كثيرا بين تعاليم الدين وأمور الحياة اليومية » .

وقد أشار كثير من الباحثين الى مدى الفارق بين الشرق والغرب من ناحية الدين ، فالغرب قد ترك دينه لأنه وجده يقف به عن التطور والانطلاق ، ولذلك فصله عن الدولة . أما الاسلام فانه لا يقف عقبة أمام الفكر العربى أو الحضارة ، بل أنه يفتح باب التطور . كل ما هناك أن صورة المسلمين قد تحاول أن تعطى صورة الاسلام وهذا خطأ ، فان جوهر الدين واضح الدلالة ، أما مظاهر المسلمين فانها بطول الزمن وبعوامل الاضطراب والقصور الماضية قد أصابها ما جعلها غير مطابقة تماما

لجوهر الدين وقد اشار « جب » فى تقرير له الى أن الشرق وصل الى نتيجة حاسمة هى اتخاذ سبيل المدرسة الوسطى التى تجمع خير ما فى ثقافة الغرب الى تراثها العربى المجدد قال « لقد أخذ جميع المسلمين المتنورين يسلكون سبيلا وسطا فأخذوا خير ما فى الشرق وخير مافى الغرب . وأن الذكريات التاريخية والاعتزاز المشترك بالماضى سيظل لهما المكان الأعلى ولن يستطيع العرب أن يقطعوا صلتهم بالماضى كما قطعها الأتراك ولما كان الاسلام جزءا لا يتجزأ من الماضى فليس فى وسع المثل العربى الأعلى أن يتجرد منه تجردا تاما .

(الامتيازات واستعارة النظم)

هل ترك الغرب للعالم العربى حريته فى الاقتباس او النقل من الحضارة ؟ الواقع أنه لم يفعل ، وأنه فرض نظمه القانونية والسياسية والاجتماعية وكانت الامتيازات الأجنبية عاملا هاما فى هذا المجال .

ذلك أن الغرب حين امتد نفوذه الى الوطن العربى عن طريق قناصله وارسالياته ثم عن طريق الاحتلال لم يتوقف أمام تحطيم الأنظمة ذات اللون الاسلامى القائم فى العالم العربى بل حطمها وأحل بدلا منها انظمة جديدة منقولة من القوانين الأوربية . وكان ذلك فى مجال القضاء والتشريع والحكم ، كما فصل الاستعمار بين الاسلام والسياسية .

والقانون المدنى الأوربى يستبقى من منبعين احداهما رومانى والآخر مسيحى وكان اسماعيل أول من سمح بترجمة القوانين الفرنسية وجعلها اساسا لقوانين الدولة دون اشراك التشريع الاسلامى فى موادها .

كما عمد مصطفى كمال فى تركيا بعد الثورة التركية الى اقصاء التشريع الاسلامى كلية ، والعمل بقانون سويسرة المدنى وقانون الجزاء الايطالى .

وقال : ان التشريع والقضاء فى أمة عصرية يجب أن يكونا عصريين مطابقين لأحوال الزمان لا للمبادىء والتقاليد .

وقد كان واضحا أن عمل كلا من اسماعيل باشا فى مصر ومصطفى كمال فى تركيا ليس جريا حرا مع طبيعة التطور ، وانما كان مفروضا بنفوذ الغرب الفكرى والسياسى . اذ أن هذه القوانين كانت بعيدة عن العقلية العربية او الاسلامية وعن الذوق والمنزع والشرب .. ولم يكن فيها ما يتفق مع الزمان ، والمكان . خاصة اذا عرف أنها نقلت . دون تعديل أو تنسيق مع أحوال البلاد وفروق الزمن والبيئة .

وقد عزل التشريع الاسلامى عزلا تاما فى هذه المرحلة مع سعة مذاهبه ويسره واجازته العمل بالصالح الرسلة ، وقد اتخذ خصوم الاسلام من جمود بعض فقهاء العالم العربى الاسلامى حجة على جمود الشريعة .

وفى ابان وضع الدستور المصرى وبعد تشكيل لجنة الدستور (١١ ابريل ١٩٢٢) جرت أبحاث متعددة فى الصحف عن موقف اللجنة من التشريع الاسلامى ، وقد اخذت مواده من الدساتير الأوربية . ولم يرد فيه أى نص من الاسلام سوى العبارة التى تنص على أن دين الدولة الرسمى هو الاسلام .

ويتصل بهذا سيطرة الامتيازات الأجنبية على الحياة الفكرية والاجتماعية المصرية ، وحيلولتها دون اتخاذ السبيل الحر فى معاملاتها او تشريعاتها أو احكامها وقد زاد فى وطأة الامتيازات بمصر انشاء المحاكم المختلطة فى عهد اسماعيل وظلت الامتيازات الأجنبية عقبة فى سبيل الاصلاح .

ويمكن القول بأن الامتيازات الأجنبية كانت ركيزة استعمارية بعيدة المدى ، فى مجال الاقتصاد والاجتماع والسياسة والفكر .

***

موقف الفكر العربى الإســـــلامى
من الصهيـــونية والشـــيوعية



(١)

أثر الدعوة الصهيونية فى الفكر العربى المعاصر

كان للدعوة الصهيونية اثرها فى الفكر العربى الاسلامى المعاصر ، بعد أن عم اثرها الفكر العالمى كله ، وتداخلت مع الفكر الغربى الاستعمارى والفكر الشرقى الماركسى . ولقد كان الفكر الصهيونى بالغ الأثر فى هذين التيارين المتصارعين . ولعل أول ما يقال هنا أن اقوى نظريات الهدم والتدمير والتخريب التى حمل لوائها الاستعمار الغربى والغز والثقافى الى الشرق ، والى العالم الاسلامى انما كانت من (ابداع) فلاسفة يهود أصلا ، وصهيونيين ثانيا ، يحملون الدعوة الأساسية التى حملتها الصهيونية ولونت بها الفكر العالمى بقصد فرض سلطانها على الفكر العالمى والسيطرة على العالم ، وتحقيق حلم انشاء الحكومة اليهودية الكبرى التى تحكم العالم كله .

ولقد ظهر الصراع قويا بين الفكر الصهيونى والفكر المسيحى فى نواحى ، وظهر الالتقاء فى نواحى اخرى ، ومن هنا نشأت تيارات ثلاث كانت تتضارب فيما بينها ، ولكنها تلتقى عند هدف واحد هو : السيطرة على الوطن العربى الذى هو مفتاح العالم الأسود الأفرو آسيوى الذى ظل مركز الصراع بين الاستعمار الغربى والاستعمار الصهيونى والاستعمار البلشفى .

* * *

الماسونية الحديثة

واذا كانت الدعوة الصهيونية قد اخذت سبيل العمل الحقيقى لاقامة كيان يهودى بمؤتمر « بال » عام ١٨٩٧ الذى يعد أول مؤتمر صهيونى وضعت فيه خطط المشروع الأساسى للعمل على اقامة دولة يهودية . كما وضعت به بروتوكولات صهيون التى استمدت مقوماتها كنظام من « التلمود » ، فان هذا المؤتمر كان نتيجة لخطوات طويلة وأعمال تمهيدية بعيدة المدى ، هذه الخطوات التى يمكن العودة بها الى الوراء ، ربما الى مائة وثمانين عاما ، اى الى عام ١٧١٧ وهو العام الذى ولدت فيه « الماسونية الحديثة » فى انجلترا ثم ١٧٢١ فى فرنسا حيث أعلنت الماسونية أن هدفها هو المحافظة على نفوذ الاسرائيليين واتخذت من هيكل سليمان شعارا لها ، وقد سيطرت اليهودية على اغلب محافل الماسونية فى العالم ووجهتها للعمل واليها عزى كل ما أريق من دم فى الاغتيالات الخفية التى دبرت ونفذت حيث سارت الماسونية مع الصهيونية لصنع الثورات أو اشعال نيرانها أو الاستفادة منها لتحقيق اغراضها .

وقد حققت الماسونية أكبر انتصار لها فى الثورة الفرنسية (١٧٨٩ — ١٧٩٥) حيث كان أبرز أبطالها من اليهود : ميرابو وفولتير وروبسبير .

* * *

الماسونية

وقد حققت منظمات الماسونية نجاحا واضحا فى الوطن العربى كدعوة وظهر لها تيار فكرى واضح فى مؤلفات متعددة وكتابات وصحف ، فكتب فى الدعوة لها جورجى زيدان وكان شاهين مكاريوس بمجلته اللطائف من أكبر دعاماتها وكتب فى الترويج لها محمدسعيد المراغى واحمد زكى أبو شادى وعزيز ميرهم وغيرهم كثيرون ، وهاجمها مؤلف كتاب «كشف الظنون عن حال الفرمسون» والأب لويس شيخو اليسوعى صاحب مجلة (الشرق) .

وقد طبعت قوانينها بالعربية فى بيروت ١٨٨١ وطبعت « النظامات » فى مصر ١٨٩٠ ووصفها جورجى زيدان بأنها اقدم الجمعيات الحية وارجع انشائها لأول القرن الثامن قبل الميلاد فى زمن (نومايومبيلوس) وقد تقلبت فى أحوال شتى ووصف عزيز ميرهم كلمة (الماسون) بمعنى البنيان ، وارجع تكوينها الأول الى البنائين الذين وضعوا فن البناء ، ثم تطورت من مزاولة فن البناء المادى الى فن البناء الأدبى والاجتماعى وبقى من آثار الجماعة

الأولى نظامها وترتيبها وطقوسها وآلاتها واصبح ذلك كله رموزا وأسرارا للكتابة عما يرمون اليه من تربية نفسية وتشييد اجتماعي . وقال : ان المحافل الماسونية لم تجتمع في سلطة عليا الا عام ١٧١٧ في لندن وانتخب استاذا أعظم لها الدوق دى مونتاجو .

وقد كشف كثير من الباحثين عن الصلة بين الماسون وبين اضطهاد اليهود ، فقال انها تهدف في الأغلب الى مقاومة التعصب الديني وخلق جو من السماحة والحرية أمام أعضائها أياكان دياناتهم وأداء الخدمات لهم . وقد عزا اليها عزيز ميرهم (السياسة الأسبوعية ٢٦/١٢/١١) وغيرهم أثرها في الثورات وحركات التحرر . فأشار الى انها وضعت شعار الثورة الفرنسية (حرية واخاء ومساواة) وان كبار رجال الثورة كانوا من الماسون أمثال ميرابو وبريسو وكاميل ديمولان ودانتون وان « لافييت » الذى أملى وثيقة الاعتراف بحقوق الانسان والذى حرر الولايات المتحدة كان من الماسون .

وقال عزيز ميرهم : ان الماسون هم الذين حرروا العالم من سلطان البابوية وفرقوا بين السلطة الدينية والسلطة الدينية للبابا ، وانهم حملوا لواء الحرية الفكرية وهدموا سلطان الكنيسة في ايطاليا وفرنسا وانالوا تركيا دستورها بفضل محافلهم القائمة بها — وقد اختلفت الكنائس في النظر الى الماسونية (هامش الصحفي العجوز — الأهرام ١٩٣٣/٦/٢) فالكنيسة الكاثوليكية تمقت الماسونية وتحاربها ، اما الكنيسة الانجليكانية فهى على عكس ذلك . ووصف تطور الماسونية في مصر فقالت انها دخلت في عهد اسماعيل ، وكان الخديو من اكبر رؤسائها وكان الأمراء والوزراء وكبار رجال القضاء أعضاء في محافلها . ثم تطورت واتسع نطاقها . وتعددت لوجاتها ومحافلها ودخلها كل من هب ودب . وأشار الى ما قيل من فوائد الماسونية ومنافعها لأعضائها ومشتركيها وللهيئة الاجتماعية وما قيل « مما لا يصدق عن عقاب من يبوح بتلك الأسرار المقدسة وجزاءه العقاب بالقتل في رائعة النهار بالسم او السيف والمسدس » .

وعارض رأى القائلين بالسرية وقال ان الفضائل يجب ان لا يكون سرا ، وان طبيعة العصر تناقى السرية وأصحاب الأسرار . وأشار الى ان موسوليني شتت المحافل الماسونية في ايطاليا وتبعه هتلر .

وارتاب لويس شيخو اليسوعي (مجلد ١٥ ص ٣٢٦ — المشرق) في أمر الماسونية فتساءل لماذا « تحتجب عن أعين الناس وتتستر في زوايا الظلمات ولايجتمع أعضاؤها الا في الليل الدامي في بيوت يحصنونها بالحراس فلا يدخل الا من عرف كلمة الجواز السرية واذا دخلوا كتموا بكل حرص ما يدور بينهم من الأحاديث ، وأشار الى تعارض العمل الخيرى مع الأقسام والايمان بعدم البوح بالأسرار . وقال (ان للماسونية طقوسا ورتبا وأزياء غريبة وملمسات وخطوات وطرقات وتهويلات في درجاتها العديدة من الدرجة الأولى الى الدرجة الثلاث والثلاثين . ومن درجة الرفيق الى الأستاذ » .

وقد كشف معارضى الماسونية وأغلبهم من المسيحيين انها تهاجم المسيحية وانها ترمى الى القضاء على الدين كما فعلت في ثورات ١٧٨٩ الفرنسية و ١٩٢٠ الشيوعية و ١٩٢٦ التركية ، وقد ردد الدكتور صروف (المقتطف فبراير ١٩١٠) (اتهام بعض الناس للجمعية الماسونية بأنها حملة سياسية معادية لكل سلطة مدنية) ثم دافع عنهم وقال ان اتهامها بمعاداة الأديان لا يتفق مع وجود عدد كبير من رؤساء الأديان بها وقال : والذين يعرفون الجمعية الماسونية يعرفون حق المعرفة انها ليس لها غرض الا ان تساعد أعضائها بعضهم بعضا في أمورهم الزمنية وان يسعوا في كل ما يعلى شأن البشر ولهم في ذلك مآثر كثيرة » .

وقال خصوم الماسونية ان القضاء على سلطان الكنيسة وهدمه والفصل بين السلطة المدنية في البابوية والمسيحية والغاء الخلافة في تركيا كل هذا كان من عمل الماسونية التى هى في نظرة جمعية سرية صهيونية قامت وفق بروتوكولات صهيون وتسترت في أغراضها وراء هذا الشعارات والأهداف ، وانها كانت ذات يد في القضاء على كل من وقف أمام الصهيونية كاقصاء السلطان عبد الحميد ، ومدحت وهتلر وموسوليني وجمال الدين الأفغاني الذى انشق عن المحفل الماسوني وعارضه وأقام محفلا ماسونيا تابعا للمحفل الفرنسي .

ولقد تأثر الفكر العربي الاسلامي بأفكار الماسونية التى انتشرت في العالم العربي وكان لها محافل متعددة في مصر والشام والمغرب ، وكان جمال الدين الأفغاني قد دخل الماسونية ظنا بأنها تخدم أهدافه لتحرير العالم الاسلامي من الاستعمار .

اما في العالم الاسلامي فقد تركزت الماسونية في تركيا على نحو ضخم ، وكان لها سلطانها الواضح على جمعية الاتحاد والترقى العثمانية التى قامت نظمها أساسا وفق أنظمة الماسون وكان أغلب أعضائها من الماسون .

وقال الدكتور صروف أنها هى التى بثت في نفوس

العثمانيين روح الحرية . وقد اعلن المؤرخ برتوبك بأن الماســـونية كانت هى المحرك الأول والمرشـــد الاكبر فى تقويض الاستبداد العثمانى وخلع عبد الحميد .

* * *

الصهيونية فى اولى خطواتها

وقد كان نداء ١٧٩٨ الذى وجهه يهودى فرنسى الى اليهود للقيام بمعاونته فى اعطاءهم (اورشليم) داعيـــا الى تحقيق مشروع القدس واقامة مجلس ينتخبه اليهود المقيمون فى ١٥ قطرا للاستيلاء على مصر والمنطقة الممتدة منها الى عكا الى البحر الميت الى البحر الأحمر مؤكدا ان هذا المركز يجعل — اليهود وفرنسا — مســـيطرين على سير الملاحة فى البحر الأحمر قابضين على ناصية تجارة الهند وبلاد العرب . كان هذا النداء مقدمة للنداء الذى وجهه « نابليون » عام ١٧٩٩ لمعاونته فى اعطاء اليهود « أورشليم » غير ان اليهود الذين كانوا حريصين على أن يتموا مشروعهم بأنفسهم قد تجاهلوا نابليون وقصدوا الى عمل آخر حين اتصلوا بالسـلطان عبد الحميد من ناحية ثم بمحمد على من ناحية أخرى ، اما (السلطان عبد الحميد) فقد رفض العرض الذى يرمى الى استثمار مليون فدان فى السلط بفلسطين بالرغم من سخاء العرض الذى قدم له وهو فيما يروى بعض المؤرخين سبعة ملايين جنيها ذهبا . اما العرض السابق فيغلب أنه نجح حيث منح « محمد على » امتيازا واســع المدى لموسى مونتو فيورى الثرى اليهودى الكبير لشراء مساحات كبيرة كانت هى أولى المناطق التى استولى عليها اليهود فى فلسطين وبها انشئت اول جمعية لاستثمار اراضى فلســطين عام ١٨٧٩ .

وفى هذه الفترة كتب . الدكتور تيودور هرتســـل اليهودى النمساوى (١٨٩٥) كتابه الذى آثار ضـجة وذيوعا (الوطن الاسرائيلى) والذى ترجم الى الفرنسية والانجليزية والعبرانية والنمساوية ، وقامت الفكرة فيـــه على أساس احتلال اليهود لفلســطين ، وخلاصة آراء هرتسل ان اعداء الساميين آخذون فى الازدياد ولا يستطيع اليهود مقاومتهم لتشتت شملهم فى الأرض ، لذلك لابد من قيـام جمعية سياســية مالية تشرف على شركة يهودية اقتصادية رأس مالها (كذا) مليون جنيه ومركزها لندن للقيام بشراء اراضى فلسطين التى يوجد بها هيكل سليمان على أساس أن الناس — أى اليهود — لا يســاوون الا بمثل هــذه الشعائر الدينية ، ورسم مؤتمر بال ١٨٩٧ خطة العمل : ايجاد وطن شرعى للشعب الاسرائيلى فى فلسطين وذلك مع احياء الآداب العبرانية ونشرها وتعاليمها وبعثها بعد انطوائها اكثر من الفى عام . وقد تحقق ذلك بانشاء الجامعـــة العبرية فى القـــدس وبدأ التنقيب على الآثار اليهودية .

ومنذ ذلك التـــاريخ دخلت الى الفـــكر العربى الاســــلامى محـــاولات كثيرة لتســـميم حقـــائق التـــاريخ والفـــكر وذلك بمحـــاولة ابراء تحـــريف التـــاريخ والتراث العربى حيث دس اليهـــود فى مختلف المؤتمرات والمؤلفـــات والكتابات ما اطلقوا عليـــه حقهم الكاذب فى فلسطين ، وقد كان لهم من السلطان عن طريق فرنسا وبريطانيا ما مكنهم من التسلل الى كتب التـــاريخ التى تدرس فى المدارس الجامعات وعن طريق المستشرقين اليهود أو أصحاب الولاء للصهيونية الذين عملوا فى مصر ولبنان وغيرها من دول العالم العربى ، كما امتد نفوذهم الى الصحف العربية والمصرية بالذات وذلك ضمن خطة انشاء الصحف الكبرى فى روسيا والنمسا وايطاليـــا وانجلترا والصـــين واليابان والباكســـتان وقد اســـتغل اليهود الاضطهاد الذى واجههم فى روسيا ابتداء من عام ١٨٨٣ وقضية ديفورس ١٨٦٧ التى تجلى فيها العـــداء لليهود على اشده ، وبدأ ظهور النزعات القومية فى اوربا ممـــا اداهم الى الاندفاع فى الخطة التى حققت فى نهاية الحرب العالمية الأولى قيام وطن قومى لليهود فى فلسطين بصدور وعد بلفور فى ٢٠ نوفمبر ١٩٤٨ .

ويهمنا هنـــا أن نصور أثر الصـــهيونية فى الفكر والثقافة حيث ظهر عشرات من اعلام الفلاسفة والكتاب الذين ســـلطت عليهم قوة اليهود المادية وســـلطانهم فى ميدان النشر والصـــحافة مختلف الأضـــواء ومن هؤلاء سبينوزا أكبر فلاسفة التاريخ اليهودى . وماكس نوردو الذى هاجم النظم البشرية : الدين والملكية والسياســـة والذى تنبأ بالمدينة اليهودية المقبلة وقال : أرى أن مدينة اليوم القائمة على التشـــاؤم والكذب والأنانية ســـتبيد وتتبعها مدينة ترتكز على الحق والغيريه والتفاؤل حيث تصبح الانسانية حقيقة واضحة لا معنى خياليا ، وكان من أعظم زعماء الصهيونية وعضد « هرتزل » عندما أسست الحركة الصهيونية وكان نائبا عنه فى مؤتمر « بال » وهو الزعيم الأكبر لمفكرى الصهيونية .

« وفرويد » داعية علم النفس الذى حاول بمذهبه تحطيم القيم الروحية للبشرية « ورويتر » صاحب اضخم وكالة انباء فى العالم والذى سيطر ووجه اخبـــار العالم لحساب اليهود فى مدى امتد اكثر من سبعين عاما .

« واندريه مروا » الذى وجه الأفكار الى الاثم عن طريق الأدب ».

و « كارل ماركس » الذى وضع اساس المذهب الشيوعى وفق خطة الصهيونية فى السيطرة على العالم كما رسمها باروخ ليفى فى خطابه الى ماركس (مجلة باريس يونيه ١٠٢٨) وقال فيه : يقتضى التنظيم الجديد للانسانية أن ينتشر أبناء اسرائيل على سطح الأرض ويتسلموا فى كل مكان زمام الأمور ، خصوصا اذا نجحوا فى فرض اشراف شديد على الطبقة العاملة . فينتقل زمام الحكومات فى العالم الى أيدى الاسرائيليين تحت شعار الطبقة العاملة وتلغى حينئذ الملكية الفرديةوتفرض رقابتها على كل مكان من الأموال العامة » .

وقد ركز اليهود على خلق اسس الفكر اليهودى كمحاولة للسيطرة على التاريخ والفكر العالمى وتحويل الانظار نحو تأييد اكاذيبهم فى ادعاء الحق التاريخى فى فلسطين عن طريق انشاء الجامعة العبرية فى القدس وهو مشروع اعده هرتزل وماكس نوردو وحاييم وايزمان ؟ وقد صور هذا المعنى (آنشتين) العلامة اليهودى الكبير حيث قال : أن الجامعة هى المكان الذى تتجلى فيه النفس البشرية بأحلى معانيها . وليست جامعات أوربا فى الحقيقة سوى مراجل تغلى فيها الوطنية المتطرفة غليانا أكلا . ويسود التعصب الأعمى فيها كل الأشياء الخارجة عن دائرة الأمة والسلالة وكل الأشياء التى تكون معصوبة بطابع فردى مختلف . وقال أن جامعتنا حرة طليقة من كل قيود التعصب والتفاسد » .

وفى هذه العبارات ما يرسم الهدف الحقيقى للثقافة العبرية القائمة على تمثل أحقاد اسرائيل ومطامعها فى محاولتين كبيرتين ، الأولى : ابراز اثر اليهود فى الفكر العربى القديم ، والثانى : محاولة تزييف التاريخ لاثبات حق وهمى فى فلسطين العربية .

وليس ادل على حقيقة أهداف الفكر الاسرائيلى من قول الدكتور اوسكار ليفى : نحن اليهود لسنا شيئا الا مفسدى العام ومدمريه ومحركى الفتن فيه وجلاديه .

وقد وجه الفكر العربى الاسلامى هذه المحاولات ولم يقف أمامها صامتا وانما فندها واثبت انها مسمومة ومخالفة لحقيقة الواقع التاريخى وحتمية التاريخ ، فمنذ اربعين قرنا لا يعرف التاريخ لفلسطين سكانا غير العرب وبنو اسرائيل الذين طردوا مصر والتجأوا الى فلسطين انما وجدوها اذ ذاك يسودها الشعب الكنعانى العربى ، ولم يكن بنو اسرائيل فى وقت من الأوقات اكثرية فى فلسطين، وأن الذين شردوا من فلسطين بعد تدمير الهيكل فى عهد القيصر « أدريانوس » لم يكونوا سوى رجال الدين ولا يزيد عددهم عن خمسين الفا ، أما سكان فلسطين الأصليين فلم يتعرضوا للتشريد ، وهذا ما يؤكد بالدليل القاطع أن الصهيونيين الموجودون الآن فى أوربا وأمريكا ليسوا هم أحفاد اليهود الذين اخرجوا من فلسطين وانهم بعيدون كل البعد عن الجنس الاسرائيلى القديم وعن الدين اليهودى الصحيح وهم كذلك بعيدون عن الثقافة اليهودية السامية القديمة فليست لغتهم الأصلية هى اللغة العبرية وأنهم انما يتكلفون بعث هذه اللغة الميتة اليوم فى محاولة فاشلة لايجاد وحدة مصطنعة ، وأنثقافة الصهيونيين الحقيقية هى ثقافة جرمانية ولغتهم المسماه « يدش » هى اللغة الألمانية القديمة .

وقد انقضى الأجل الذى يربطهم باليهودية وانما هم يتخذون من الجنس والدين وسيلة للسيطرة العالمية .

* * *

(بروتوكولات صهيونية)

عندما عقد (يتودور هريزل) المؤتمر الصهيونى الاول فى بال بسويسرا عام ١٨٩٧ اجتمع اكثر من ثلاثمائة من حكماء اسرائيل حيث رسموا خطة وضع العالم تحت سيطرة اليهود وتقويض أركان الحكومات لاقامة دولة يهودية واحدة تحت تاج ملك من نسل داود ، وقد وضعت هذه الخطة موضع التنفيذ فى بروتوكولات سرية أطلق عليها « بروتوكولات صهيون » .

وقال هرتزل الذى يعده اليهود رابع اربعة هم : موسى وسلمان وزروبابل « ومتى أصبحنا أسياد الناس لا ندع فى الوجود سوى ديانتنا التى تنادى بالاله الذى يتعلق به مصيرنا ، لأننا نحن شعب الله المختار . ولأن مصيرنا يقرر مصير العالم ، ولذلك وجب علينا أن نلاشى سائر الأديان . فان أدى عملنا هذا الى قيام كفرة محدثين .. فسوف نجعلهم عبرة لشعوب لابد أن تخضع لديانة موسى المتينة الصوايبه الكفيلة بأن توصلنا للسيادة على سائر الشعوب » .

وقد كان من الخطط التى وضعت لتنفيذ وصايا « هرتزل » انشاء الماسونية الكونية ، والماسونيةالملوكية والماسونية الرمزية العامة لمختلف الملل والديانات

والأجناس ، وقد اتخذوا من الماسونية وسيلة لاستغلال غير اليهود فى الوصول الى المركز الخطير الذى احتلوه فى توجيه السياسة العالمية خاصة فى أمريكا وانجلترا . وقد كانت الماسونية هى الأداة التىيتحقق بها حلم الصهيونية عن طريق تحطيم مقومات كل الشعوب والأديان ولها أن تتخذ شعارا خادعا هو (الحرية والمساواة والأخاء) ليخفى حقيقة العمل لامبراطورية يهودا الكبرى .

وقد أشار كثير من الصهيونيين الى ان هدف بروتوكولات حكماء صهيون هى حكم الجماهير والأفراد عن طريق عبارات ونظريات وقواعد للحياة معدة اعدادا ماهرا وعن طريق شتى أنواع الخداع والحيل وقالوا : اننا وقفنا وراء الكواليس وحرصنا على أن تبقى منظمتنا مستترة خفية . ويتصل بهذا أن الصهيونية هى حاملة لواء الدعوة الى هدم الديانات . والقول بأن الأديان لم تعد تسد حاجات المجتمع الحديث ، وقد دست الصهيونية على رجال الكهنوت ملحدون يعملون قسسا ويتحدثون عن الالحاد عن طريق خفى ، وقد بلغ هذا العمل حدا عنيفا فيما يروى عن ان كبير حاخامى اليهود فى القسطنطينية وجه الى يهود فرنسا نصيحته : (اجعلوا من أبنائكم أطباء وصيادلة حتى يتمكنوا من القضاء على حياتهم دون أن تخشوا عقابا) .

وقد تضمنت هذه البروتوكولات (كما أوردها مترجمها محمد خليفة التونسى) خطة قوامها : استغلال العالم لمصلحة اليهود والسيطرة الكاملة على العالم ، وهدم الحكومات فى كل الأقطار والاستعاضةعنهابحكومات ملكية استبدادية ، واغراء الملوك باضطهاد الشعوب واغراء الشعوب باضطهاد الملوك . والقاء بذور الخلاف والشغب فى كل الدول عن طريق الجمعيات السرية والدينية والمحافل الماسونية ونقل الدول من التسامح الى التطرف السياسى والدينى فالاشتراكية فالاباحية فالفوضوية . وافساد أساليب الحكم . ووضع كل وسائل الطبع والنشر والصحافة والسينما والجامعات والمسارح فى يد اليهود ووضع أسس الاقتصاد العالمى على أساس الذهب الذى يحتكره اليهود واحداث الأزمات الاقتصادية العالمية على الدوام .

وهذا نموذج من البروتوكولات :

* * *

البروتوكول الأول

« لقد أقمنا على أطلال الأرستقراطية الطبقية والوراثية أرستقراطية من عندنا على أساس بلوتراطى (الحكومة الأقلية الغنية التى تملك معظم الثروة) ولقد أقمنا الأرستقراطية الجديدة على الثروة التى تسلط عليها وعلى العلم الذى يروجه علماؤنا .

أننا فى صلاتنا بالناس كنا دائما نستثير مرضى ضحايانا من أجل المنافع ونحرك شرههم ونهمهم وحاجاتهم المادية .

وكل واحد من هذه الأمراض يستطيع وحده أن يحطم قادة الشعب وزعماءه وظاهر من هذا أن حكماء اليهود يوصون قومهم بأن يسددوا ضرباتهم الى القادة الذين هم فى الطليعةفاذا حطموهم تحطمت الأمم والطوائف التى يتبعهم من غير عناء » .

* * *

البروتوكول الثانى

« لضمان الرأى العام يجب أولا أن نحيره كل الحيرة بتغيرات من كل النواحى لكل أساليب الآراء المتناقضة حتى يضيع الأميون (غير اليهود) فى متاهم وعندئذ سيفهمون أن خير ما يسلكون من طرق هو ألا يكون لهم رأى فى المسائل السياسية . هذه المسائل لا يقصد منها أن يدركها الشعب بل يجب أن تظل من مسائل القادة الموجهين فحسب » . ا . هـ .

* * *

(السامية اليهودية)

ولقد حالت الصهيونية فى مخططها الذى قامت به بعد وعد بلفور ربط نفسها بالثقافة السامية حين أذاعت فى ظروف مختلفة أن أوربا المسيحية الآرية تضطهدها باسم السامية . وذلك لمحالة تزييف الواقع التاريخى يربط الصهيونيين الذين لا رابطة حقيقية بينهم وبين اليهود منذ ٢٥٠٠ عام بالعرب باعتبار أن السامية كانت تجمع العرب واليهود ، والواقع أن هناك فارقا بين اليهودية الشرقية وبين الصهيونية الغربية لا سبيل الى انكاره ، مما لا سبيل الى الربط بينهما بوجه من الوجوه ، فضلا

عن أنه ليس من المستطاع التصور بأن الخمسين الفا من المشردين قد استطاعوا رغم الذابح والاضطهادات المنكرة ان يصبحوا ـ خمسة عشر مليونا من الالمان والسلاف يدينون بالدين اليهودى (دكتور محمد عوض محمد الهلال : يونيه ١٩٤٨) .

ولم يعد هناك شك أن الصهيونيين تغلغلوا فى الغرب واختلطوا بالشعوب الآرية فى خلال هذه القرون الطويلة اختلاطا اضاع صلتهم باليهودية والسامية وصهرهم مع الشعوب التى اندمجوا فيها ، وهى الشعوب الآرية مما أثر فى آرائهم وتفكيرهم ، لذلك لم يكن هناك ما يثبت اية رابطة بين الصهيونيين وبين الثقافة العربية الاسلامية التى عاشت مستقلة خلال تسعة عشر قرنا ، ومن الحقائق المؤكدة أن الفكر العربى الاسلامى قد نفر من اساس الفكر الغربى وهو الالحاد .

ولقد وقف يهود من مصر امثال جاستون زنانيرى فى مؤتمر اللغات والآداب القديمة البحر التوسط فى موناكو (نوفمبر ١٩٣٥) ليحاولوا الربط بين الصهيونية وبين السامية القديمة . ولم يكن هناك رد على مثل هذه الادعاءات من أن السامية بقيمها وبطولاتها وثقافتها القائمة على الدين والخلق والكرامة والوفاء تختلف تماما عن الصهيونية بمعالمها الجديدة ممثلة فى بروتوكولات صهيون وفى الاغراق فى المادية والدعوة الى اشاعة الاباحة والرذيلة فى العالم وتحطيم المعتقدات الاسلامية والمسيحية وسحق القيم الروحية والمعنوية واثارة الشكوك حول الألوهية وقيادة حركة التغريب .

وقد اتجهت الصهيونية الى مثل هذا الغزو الثقافى عن طريق اعادة ربط العرب واليهود معا ازاء حملات اوربا على السامية ، النزعة التى أطلق عليها Antisemitim وهى فى الواقع ليست موجهة الى السامية بقدر ما هى موجهة الى اليهود الصهيونيين دون غيرهم من الساميين .

وقد اشتدت دعوة (عداء السامية) فى أوربا بعد صدور وعد بلفور وقيام الثورة البلشفية الشيوعية فى روسيا ، فقد تكشف بالدلائل التى لا تقبل الشك أن اليهود هم زعماء الحركات الثورية والانقلابية فى العالم ، واليهم ينسب كل ما يقع من أزمات وحروب ، ومنهم رؤساء الشيوعية وناشروها فى العالم . وهم فى نفس الوقت ملوك المال والصيرفة الذين يسيطرون على أسعار السلع وتقلب العملة والأوراق المالية ، ولهم جهازا ضخما للاستعلام والجاسوسية فى مختلف انحاء العالم .

وانهم قد استفادوا من الثورات الفرنسية ١٧٨٩ وأوقدوا نار الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ والثورة الروسية ١٩١٧ والثورية الايطالية ١٩٢٢ والثورة الاسبانية ١٩٣٠ .

وانهم حماة الدعوات المتضاربة سواء الراسمالية الغربية أو الشيوعية الروسية وذلك بقصد خلق كتلتين فى العالم وابقاء الصراع الدائم بين الشرق والغرب .

* * *

(الجامعة السامية)

وقد احتضنت بعض الدوائر فى مصر فكرة (الجامعة السامية) التى نادى بها اليهود ونشرت صحفها ابحاثا عنها حيث كانت بريطانيا تفرض حمايتها على هذه التيارات المتعددة وتبيح لها الظهور امعانا فى بلبلة اتجاه الفكر العربى ، يقول قدمى كوهين (الأهرام ـ ١٩٣١/٧/٥) أنه بدأ منذ عام ١٩٢٢ فى نشر سلسلة من الأبحاث حول (الجامعة السامية) وفى مقدمتها كتابه (افلاس الصهيونية) ويرى الصهيونية قائمة على قواعد واهية لا قيمة لها من الوجهة الأدبية والنفسية . انها لن تسفر عن نتيجة مالم تحل المسألة التالية وهى :

هل الصهيونيون الذين يعودون الى فلسطين يكونون جلادى العرب فيجتاحون بلاد اخوانهم فى الدم ويخونون فضلهم . أم يعودون الى هذه البلاد للقيام بجميع الواجبات المفروضة على الشرقيين .

ويقول : الصهيونية اما أن تتحد مع الغرب أو مع الشرق . وفى الحالة الأولى تظل شيئا حقيرا لا امل له فى البقاء الا إذا وضع نفسه موضع الجشع الاستعمارى الأجنبى ، وفى الحالة الثانية يكون مشروعا عظيما يبعث على أعظم الآمال فى نفوس الجنس الذى ينتسب اليه « شعب الله الخاص » وهو يدعو الى الاتفاق بين العرب والصهيونيين ويقول « الغاية فى نظرى اتحاد سامى يضم جميع البلاد الواقعة بين البحر التوسط والبحر الأحمر والاقيانوس الهندى وايران وتركيا وبين هذه الولايات المتحدة فى الشرق الأدنى . وانى أرى ولاية كبيرة يهودية تسع أبناء اسرائيل ، والوسيلة الوحيدة المؤدية لذلك يجب أن نجدها فى الجامعة السامية . أن النهضة العربية لا يمكن أن تسفر عن النتائج المنشودة دون معاونة اليهود .. كما اننا فى حاجة الى الاستعانة بالعرب ولغتهم البديعة لجعل لغتنا ملائمة لمقتضيات العصر . فأين يجد

العرب الحال اللازم لانهاض بلادهم واستثمارها . ان وجوده فى اوربا وأمريكا فانهم يدفعون فيه ثمنا غاليا . هذه الفكرة لا نصل لها الا باعتناق فكرة الجامعة السامية التى توحد جميع الموارد والجهود لتحقيق أمانى الفريقين .. ان العبقرية اليهودية فى حاجة الى أن تستمد قوة جديدة من الأرض التى نشأت فيها ، وان مهمة الجامعة السامية هى احياء الشرق وايجاد الصلة بين اليهود وبين العرب » . ا . هـ .

هـذه صورة من الاتجاه الصهيونى الذى حاول السيطرة على الفكر العربى لاقناعه بمغالطات واكاذيب فى محاولة ايجاد جامعة سامية بين العرب وبين الصهيونيين الذين لا صحة لنسبهم واتصالهم الحقيقى بيهود العالم العربى ولا بالسامية اطلاقا ، فضلا عن الخداع العجيب الذى تطويه الكلمات المسمومة حين يدعى قدمى كوهين) المستشار بمحكمة الاستئناف بباريس بانه يكتب ما يطلق عليه (افلاس الصهيونية) فى حين انه يرسم مؤامرة اشد خطورة حين يحاول خداع العرب بصداقة الصهيونية وامكان الاخاء بينهما ، وهم يغدرون بجزء هام من أرض الأمة العربية ويغتصبونه ، وقد رد عليه كذاون يفندون آرائه المسمومة . وقال محمد رفيق اللبابيدى (١٠/١٧ عام ١٩٣١ — الأهرام) انه اذا كانت الدعوة السامية معناها أن العرب يتسامحون فى حقوقهم ويتهاونون فى الدفاع عنها وينزلون طواعيه عن بلاد لم تبق ذرة فيها الا امتزجت بدم ابائهم واجدادهم فى سبيل ضفر اكاليل السامية وتكوين الولاية اليهودية لهى فكرة طائشة ، وقال أن غاية الدكتور مفادها أن تكون فلسطين العربية الخاصة هى هذه الولاية النكرة التى تسع جميع ابناء اسرائيل داخل ما يستبيح مما قاله انه يسوق العرب انفسهم دعاة فى سبيل السامية لخير الصهيونية التى يحاربها اسماء بزخرف القول .

وهكذا ارتبط « مؤتمر بال » بحركة فكرية امتدت وتضخمت وسيطرت على الصحف ومؤتمرات المستشرقين واساتذة الجامعات وكتاب العالم ، فقامت دعوة اخرى للجامعة السامية الى جوار الدعوة الفرعونية والأشورية والبابلية والماركسية والشيوعية ، وقد القى الحاخام اليهودى فى مصر عدة محاضرات عن تطور اللغة العبرية حاول فيها أن يربط بينها وبين اللغة العربية مبينا مدى الدور الذى لعبه الفكر العبرى فى الفكر العربى القديم وظهرت مؤلفات تعلن يقظة الفكر اليهودى منها (كتاب يقظة الفكر اليهودى : ايلى ليفى ابو عسل — ١٩٣٤ مصر) .

(الحضارة اليهودية)

ولقد برز فى هذه الفترة تيار قوى أطلق عليه اسم (الحضارة اليهودية المستقبلية) كان أساس دعوته أن الحضارة المسيحية التى تحمل لوائها أوربا هى على وشك الزوال وستقوم مكانها حضارة أخرى ستكون أكثر اهتماما بالماديات ولكن على نسق آخر ، وقد صور عمر عنايت (الغصور — فبراير ١٩٢٩) هذا التيار الذى انبثق عن الدور الذى قام به اليهود حين أثروا فى توجيه الرأى العام الى جهة غير الجهة التى كان يتطلع اليها . وانهم قد استفادوا من القلق الاقتصادى الذى ينتج عن الحرب .. وقال انه اذا بحثت كل حركة هدامة أو مجددة فى الوقت الحاضر تجد أن محورها الدعاية الودية ، الأمر الذى يمكننا شاهدته متجليا فى موقفين : الأول فى روسيا والثانى فى فلسطين .

ففى روسيا نجد الثورة تزكيها الدعوة اليهودية التى تجد المجال فسيحا لمهاجمة المسيحية حاملة علم الدنية الحالية . اما فلسطين فاليهود يريدون أن يشيدوا بها نقطة ارتكاز يوجهون منها جودهم حث شاءوا ، فكما أن روسيا ليست غير معمل البارود البلشفى الذى يعمل على نسف المدينة المسيحية ، فان فلسطين ليست سوى العش الذى ستولد فيه المدنية الودية المستقبلية ، ومن السهل ملاحظة التسيطر المالى اليهودى الآخذ بخناق العالم ومحاولة العمل لانشاء مملكة داود الجديدة » ومما يتصل بهذا الاتجاه ما عرف من انتهاء سيادة أوربا بعد الحرب العالمية الأولى وانتقال هذا السلطان الى أمريكا التى عاونت على قيام اسرائيل . وبذلك تخلفت أوربا المسيحية الغربية وسقطت تحت سلطان أمريكا التى تسيطر عليها الصهيونية . وكان هذا التركيز هو مقدمة لاعلان الصراع (كما أعلنه الحاخام عما نوفل ايفانوفنيش — ١٩٥٤ بودابست) بين أمريكا وروسيا « حتى يضعف الخصمان وتتضعضع قواهما . ثم تتم السيطرة اليهودية على العالم . وذلك كمقدمة لتوليد جيل جديد يقوم على تزاوج البيض والسود لانشاء شعب من الجنس الأسود ونشر العقيدة الاسرائيلية فى جميع انحاء العالم — وقد بلغ عدد الصحف الصهيونية التى تصدر فى العالم وتوجه الرأى العام ٨٩٩ يصدر منها فى الولايات المتحدة وحدها ٢٢٤ صحيفة .

وهكذا كان الفكر الصهيونى الجديد فى مقوماته هادفا الى الصراع مع المسيحية الغربية ومع الاسلام والفكر العربى الاسلامى فى أدق خصائصه ومقوماته .

وجملة القول : ان هدف الدعوة الصهيونية الفكرية كان بالغ الأثر فى حملة التغريب التى جعلت توامها البلبلة والتشكيك وتحطيم المعتقدات والقضاء على القيم الروحية والمعنوية واثارة الشبهات وادخال الاسرائيليات الى نصوص الدين .

وقد اتفقت اهداف التغريب السيحى مع الدعوة الصهيونية التى لم تقم الا على اساس استعمارى يهدف الى اقتطاع منطقة من الوطن العربى باسم العنصرية لدعم بقاء الاستعمار فى العالم العربى ، وقد وصف الدعوة الصهيونية مستر مور غنتو سفير امريكا فى الاستانة بانها « اعظم تضليل ظهر فى التاريخ اليهودى » .

وقد تحققت نتيجة لهذه الفلسفة اكبر جريمة فى تاريخ الأمة الاسلامية والانسانية عامة حيث قامت اسرائيل تحقيقا لمبادىء التلمود وبروتوكولات صهيون وكنواة للمملكة المرتقبة التى تفرض سلطانها على العالم .

ولم تقم هذه الدولة — كما هو شأن كل اعمال الصهيونية — الا على سفك دماء ملايين البشر واستغلال الثورات والسيطرة على الحكومات بسلاح المال والاعلام

وقد كان لاحتلال الصهيونية لفلسطين ابعد الأثر فى الفكر العربى الاسلامى الذى اثاره هذا العمل الخطير وايقظ روحه ودفعه فى قوة الى المقاومة ووجه كل طاقاته الى العمل .

المراجع

اسرار الصهيونية : عبد المنعم شميس
بروتوكولات صهيونية : ترجمة محمد خليفة التونسى
صحف الأهرام والمقتطف والمشرق .

* * *

الدعـوة والشـيوعيـة

عندما وقع الوطن العربى تحت سيطرة الاستعمار الغربى ، كان مخطط تغريبه وتحطيم شخصيته يهدف الى توجيه تيارات فكرية متعددة متضاربة ، وكان لسـيطرة الاستعمار على اوجه الأعلام أثره فى رسم صـور مختلفة لهذه الآراء والمذاهب والدعوات .

ولقد كان من الطبيعى أن تصـل هذه الدعوات : الراسمالية المسيحية والصهيونية والماركسية والشيوعية الى الوطن العربى باعتبارها دعوات عالمية لهـا أجهزة ضخمة تذيعها ككل الأفكار والآراء والتيـارات ، غير أن الاستعمار الغربى كان حريصا على أن يوجه هذه الأفكار ويرسم لهـا صورا معينة حسـب وجهة نظره كتأييده للصهيونية ودعوته ومهاجمته للشـيوعية والاشتراكية . وليس ادل على هـدفه فى زعزعة العقـائد وأحداث اضطرابات ضخمة فى الحياة الفكرية العربية من أنه سمح بقيام دعوات وصحف وكتابات للشيوعية وهو على خلاف معا وخصومه وتعارض ، ذلك لأنه انما كان يهدف بذلك الى تعميق حملة التغريب وتحطيم الشخصية الاسلامية وتمزيقها وسلخها عن أهدافها ، فضلا عما فى الشيوعية من حملة عنيفة على « الاسلام » الذى كان الاستعمار حريصا على القضاء عليه والتشكيك فيه كمقوم ضـخم للحياة الفكرية .

وكانت تلك خطته دائما فى اذاعة الآراء ذات الصفة المتعارضة ، فى السياسة والأجتماع والتعليم والعقيدة وذلك لتفسيخ الفكر ومنعه من الاتجـاه فى طريق موحد وكان هذا جزءا من خطة التجزئة التى جعلهـا من أبرز أهدافه .

وكانت الدعوة الماركسية الشيوعية قد تسربت الى الفكر العربىالاسلامى بعد ثورة أكتوبر ١٩١٧ فى روسيا وتألفت أحزاب شيوعية سرية فى مصر وسورية قام على الدعوة لها والانفاق صهيونيون وكان (روزنتال) اليهودىهو رأس هذه الحركة فى مصر . وقد نظرت الأهرام (٧/١٠ عام ١٩٢٥) الى هذا الأمر من زاوية بريطانيـا لا من وجهة نظر الوطن العربىفقالت أن معظم شعوب الشرق مغـلوبة تئن بلادها تحـت انير الأجنبى وانهم ــ اى الشيوعيون ــ يأتون اليها من الطريق الذى يغربهم بها ، ومما يهم التلاشفة بنوع خاص أن يثيروا الاضـطرابات المشاكل فى كل بلد شرقى ذى صلة مباشرة أو غيرمباشرة بالامبراطورية البريطانية لأنهم يرون فى هذه الامبراطورية عدوهم الطبيعى وهم يشجعون روح العـداء للانجليز فى افغانستان وا ران والشرق الأوسط .

وأشارت الأهرام الى « أن مصر محاطة بالدعاية الشيوعية من معظم أطرافها ففى فلسطين حزب شيوعى خارج من صميم الحركة الصهيونية وملازم لها وهو يعمل فى السر والعلانية . وفى تونس تعمل الحركة الشيوعية وفى جدة وصل بلشفى مسلم يعمل فى الخفاء وعلقت على ذلك بأن مركز مصر الجغرافى يجعلها عرضةلجميع مايقذفه الغرب من العلل المادية والاجتماعية الى الخارج » .

وفى هذه الفترة جرت مساجلات بشأن الشيوعية والاشتراكية ، حيث قامت فئتـان ، احداهما تدعو الى الشـيوعية علانية والأخرى تدعو الى الاشـتراكية . وفتحت جريدة الأهرام منذ عام ١٩٢١ صفحاتها للكتابات المختلفة حول هذا الموضوع قائلة (١٩٢١/٨/١٦) ان حاجة البلد الاجتماعية تقضى علينا (اى الأهرام) وعلى كل عامل برقابة حزب كهذا لا لأننا نكره التعاليم والمذاهب الاشتراكية العلمية والعملية ، بل لأننـا نكره النظريات المتطرفة التى تقضى بالطفـرة ونحن نود التطـور رويدا رويدا . وقالت : أن لكل أمة أخلاقها وعوائدها ومنافعها وما يصح أن يجرى فى أيطاليا ورومانيا لا يصح ان يتبع فى مصر ــ وقال سـلامة موسى وعلى العنـانى ومحمد عبد الله عنان : انهم يستهجنون الطرق البواشـفية واعلنوا تأكيد الاعتدال فى خطتهم (س . م ــ ٧/٤/ ١٩٢٢) وان البولشفية الروسية أخفقت اخفـاقا يكاد يكون تاما ونشرت فى ربوع البلاد الروسيةالخراب والدمار وان عددا كبيرا من الاشتراكيين قد أعلنوا عدم موافقتهم عليها لأنها لجأت الىتحقيق غايتها طفرة وغالت فىتطبيقها .. وان الغرض هـو المذاكرة فى أغراض هـذا المذهب (الاشتراكية) وتطبيقه على الأحوال المصرية (س . م

— ١٩٢١/٨/٨) وطالب روزنتال بحقوق المستأجرين ثم باتحاد النقابات ، وكان سلامة موسى قد ألف عام ١٩١٤ رسالة فى الدعوة الى الاشتراكية عن طريق النشوء والارتقاء والتطور لا عن طريق الثورة ، وقال انه كان عضوا فى الجمعية الفابية الانجليزية وعرف من أعضائها مستر سدنى وب ، أصدر عزيز ميرهم بيان بتأليف الحزب الاشتراكى المصرى فى ٢٩ أغسطس ١٩٢١ غير انه فى عام ١٩٢٤ وبعد صدور الدستور وقيام الحكم النيابى المصرى بدأت حملات متعددة على اتباع هذا الحزب واعتقل عدد كبير منهم فى الاسكندرية ، وقدموا للمحاكمة ثم تجددت الدعوة الى مقاومة الشيوعية فى فترات متوالية منها ١٩٢٧ و ١٩٣١ . وقد ثبت اتصال دعاة الحزبين الشيوعى والاشتراكى فى مصر بجهات خارجية وان دعوتهم لم تكن مستقلة لصالح مصر ومثل هذا يقال عن الأحزاب الأخرى التى ظهرت فى سوريا ولبنان وفلسطين تحت حماية الدول المستعمرة البريطانية والفرنسية .

وقد قاوم الرأى العام الفكر فى مصر هذه الدعوة ، وأنكر « احمد حلمى » هذه الدعوة وبين خطرها على نظامنا الاجتماعى ومخالفتها للتعاليم الدينية ، ودعا رجال الدين والحكومة الى محاربة هذا الخطر وقال (١٩٢١/٨/٢٠ — الأهرام) انه ليس فى مصر مشكلة توصف بحق بمشكلة رأس المال حتى يقال أننا لسنا فى حاجة الى تأليف مثل تلك الأحزاب ، ولا ندرى كيف أن الحكومة التى لم يتسع صدرها لاصدار الصحف اليومية الجديدة ، تتسع اليوم لتأليف حزب اشتراكى فى مصر على الانماط المتطرفة وقال :

« هل نسوا أن الاشتراكية التى يدعون اليها تكفر بجميع الأديان وتجعل الأملاك من عقار وأطيان ملكا لواضع اليد عليها والمناجم لعمالها والمصانع لصانعيها . أن كارل ماركس مع اعتدال افكاره لم تطقه حكومة بلاده بل حاكمته على نشر تعاليمه واخيرا نفته » .

وقال الشيخ التفتازانى (١٩٢١/٩/٢٤ — الأهرام) اى نقص فى الأديان التى تعرض للفقير من مال الغنى قدرا وتحتم على أولى الأمر البذل بين الجميع . انها لأحدى الكبر أن يقوم فينا نفر من الذين بهرتهم زخارف النظريات الخيالية فيستهينون فينا بقوة العقيدة والأثر على حسن ظن منهم ، ولو أنهم كانوا على حصافة فى الرأى لدعونا الى احياء موات أحكام اديانا ولردونا الى الكتب السماوية والسنن النبوية » ورد عزيز ميرهم عن الحزب فقال « أن خصوم الاشتراكية بمصر لم يقوموا حتى الآن بدليل وجيه فى سبيل معارضتها وقال أنهم يحاربون أصحاب الثروة ويحاربون الاشتراكية باسم الدين للتأثير على عقول السذج ويحاربونها لا حبا فى الدين ولكن لأن جشعهم فى حب المال يجعلهم يظنون أن الدين يدافع عن مالهم .

وقال التفتازانى (١٩٢١/٩/٧ — الأهرام) هل جاءت الاشتراكية لتكمل نقصا فى الأديان السماوية . لقد صارت روسيا معملا كيماويا لعدة تجارب أسفر كل منها عن خيبة وفشل .

وقال عزيز ميرهم ردا عليه (١٩٢١/٩/١٣) : لا نظن أن التعصب للملكية الفردية يصل بانسان فيدعى بأنها ركن من أركان الدين . أن النظم الاجتماعية تتغير وتتبدل وتتطور فى أشكال مختلفة حسب الزمان والمكان .

وقال الشيخ عبد اللطيف بخيت (الأهرام — ١٩٢١/٩/١١) أن الاشتراكية ليست مخالفة للدين بل على العكس من ذلك نجد روح القرآن والسنة تتمشى مع الاشتراكية . ولما فتح عمرو بن العاص مصر وزع أرضها على الجند وغيرهم حسب ما يرى ولم يجد من الدين ما يمنعه » وترددت مناقشات طويلة بين سلامة موسى وعلى العنانى ومحمد عبد الله عنان وعزيز ميرهم (سبتمبر ١٩٢١ — الأهرام) وقال سلامة موسى فى ختام هذه المناقشات (١٩٢١/٩/٢٩) أن الاشتراكية فى نظره تستدعى حالة عليا من الرقى فى الأمة لم تصل اليها بعد الأمة الروسية ، وقال ان اشتراكية الروس هى اشتراكية عجلة وارهاق تشبه كل الشبه تلك الشيوعية التى فشلت فى باريس فى حصارها المشهور ١٨٧٠ ، ولا شك أن الاشتراكية المصرية ستكتسب لونا خاصا بتأثير الوسط المصرى والمزاج المصرى . والاشتراكية بانتسامها حقوق الغنى من الجهة الواحدة ستزيد فى حقوقه من الجهة الأخرى « وأن ما ذكر من أمن الملكية مبدأ مقدس يجب أن تدافع عنه الحكومة وتحميه من كل اعتداء هو قول مثير للضحك عند عارف تاريخ الملكية المصرية وعدد الملاك الآن ، ويكفينى أن أذكر أن نحوا من ثلاثة عشر ألف نفس أى أقل من عدد طلبة الأزهر يملكون أكثر من نصف ثروة القطر الزراعية وأن هذا العدد الصغير من الناس يملك ويتصرف فى أرزاق نحو ثمانية ملايين مصرى ، وأشار الى ما فعله محمد على فى نزع ملكية الأرض فقال « لقد نزع محمد على ملكية الأرض ليشغلها على نفقته الخاصة فلما هم بابراز هذه الفكرة قامت فى وجهه صعوبات استعمل ازاءها كل أنواع التهديد حتى أصبح المالك الوحيد لأكثرها فقد استولى على أملاك المماليك ، والأراضى الموقوفة

ونزع ملكية الأراضى التى كانت لبقية الأفراد مدعيا حق التسلط على كل الأراضى لأنه الحاكم النائب على الخليفة المالك للأرض ، فاستحضر كل الملاك وطلب منهم ابراز حقوق ملكيتم فقدموا اليه حججهم رغم أنوفهم ، فكان يضرب ببعضها عرض الحائط ويظهر بطلان بعضها الآخر ، ويمنى بعض الملاك بعوض ، ولما أصبحت جميع الأملاك فى قبضته أعدم كل ما لديه من الحجج وأصبحت كل الأرض فى قبضته واستخدام الفلاحين فى زراعتها » .

ومن جملة هذه الآراء يظهر أن السجال لم يكن علميا ولا قوميا فلم يفرق الدعاة بين الاشتراكية والشيوعية ، كما أن دعوتهم ارتبطت بعوامل خارجة وباتصالات الأحزاب الشيوعية فى أوربا ، ولم تكن دعوة اشتراكية وطنية متصلة بالواقع المصرى أو العربى أو خالصة للهدف القومى المتحرر من المذاهب الغربية أو الاتصال بالشيوعية الدولية .

وكان خصوم هذه الآراء يتحدثون من الناحية الدينية وحدها ، ويعارضون المذهب دون مناقشته علميا ولم يكن الرأى العام يحتمل فى هذه الفترة مواجهة مثل هذه المذاهب على نحو يحقق الاستفادة من الصالح منها .

وقد كان الاستعمار وراء السماح بهذه الآراء اذ كان فى هذه الفترة (١٩٢١ — ١٩٢٣) يسيطر بالحماية والأحكام العرفية وقوة الاحتلال على توجيه الرأى العام فى ميدان الصحافة والفكر والاجتماع ، ولم ترفع الحماية الا بعد صدور تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ وقد ظل المعتمد البريطانى الذى أصبح المندوب السامى بعد اعلان الاستقلال هو صاحب الرأى الأول فى كل هذه الأمور ، كما أن افساح جريدة الأهرام الصفحات الأولى والمقالات الافتتاحية منها لهذه الدعوة من ناحية تأييدها ومعارضتها انما كان يهدف الى خلق جو من البلبلة والتمزق وضرب الأفكار بعضها ببعض على نحو يحقق أهداف الغزو الثقافى والتغريب وتحطيم مقومات الفكر العربى الاسلامى والشخصية العربية الاسلامية . .

غير أنه فى خلال هذه الفترة التى نؤرخ لها — حتى الحرب العالمية الثانية — لم يتوقف الحديث عن الشيوعية على نحو أو آخر فى مقالات وأبحاث تتناول شخصيات لينين وتروتسكى وستالين أو مذهب التفسير المادى للتاريخ أو ثورة ١٩١٧ وسقوط القيصرية . كما جرت محاولات متعددة لتنظيم العلاقة بين أصحاب العمل والعمال وقامت نقابات العمال وجرى بحث مختلف المسائل المتصلة بالرأسمالية والاقطاع ، غير أن الاستعمار كان حريصا على دعم نظامه القائم على تسلط الاتجاهات الرأسمالية الغربية على مختلف التشريعات والقوانين ، وكان نفوذ الاقطاعيين من رؤساء الحكومات ورجال القصر والأحزاب يحول دون أى اتجاه نحو الاشتراكية الحقيقية المستمدة من الواقع العربى .

وقد واجه الفكر العربى الاسلامى الدعوة الماركسية الشيوعية فى مختلف مراحلها كما واجه مختلف النظريات الغربية ، وكان فى كل أدوار هذه الرحلة يكتشف فى عقائده وتراثه خير مافى هذه الدعوات لو أتيح له أن يحقق الاصلاح دون أن يتخلى عن معتقداته ، غير أن الاشتراكية الاسلامية كانت لا تزال تحارب من قيادة حركة التغريب فى سبيل الابقاء على أنظمة الاقطاع وسلطان رأس المال وفوارق الطبقات وحجب العدالة الاجتماعية .

وقد ظل دعاة الشيوعية أو الاشتراكية الغربية فى نظر الفكر العربى غرباء عنه على أساسين واضحين : أحدهما أن لدينا فى الاسلام وتراثه وشريعته مايحقق تنظيم المجتمع واشتراكيته ويحقق العدالة الاجتماعية دون الحاجة الى اقتباس نظم الآخرين فضلا عن أن التجربة التى حاولت الشيوعية تحقيقها فى روسيا لم تحقق النجاح الذى يكسبها القبول ، هذا بالاضافة عن نفوذ الفكر العربى من استبعاد « الاسلام » عن مجال النظم الاجتماعية .

وقد كان الفكر العربى الاسلامى يرى فى الشيوعية وجها آخر من الغزو الغربى لأمتنا لأنها تحمل أفكارا ومذاهب بعيدة عن طبيعته فضلا عما كانت تتسم به الدعوة الشيوعية من الارتباط بموسكو ، وعدم قدرتها على التحرر من هذا القيد ، واستحالة مواجهة الاشتراكية كنظام يمكن أن نقتبل منه ما يتفق مع حاجة أى أمة من الأمم ، وهى فى هذا تحمل نفس الخطأ التطبيقى الذى يطالب به الغزو الاستعمارى من أن تقبل الأمة العربية الحضارة كاملة أو ترفضها جميعا .

وقد كشفت التجربة الشيوعية أمام الفكر العربى الاسلامى نتائج خطيرة زادت حذرها منها فقد الدين والحرية والمساواة . وصلب النظام الشيوعى حرية الفرد ووضعه تحت الوصاية القاهرة والرقابة الشديدة . ولم تنجح الشيوعية فى الغاء نظام الطبقات وعجزت عن أن تقرب بينها وبين سلطان الحكام شبيها بسلطان القيصرية وهى ان استطاعت أن تمحو طبقات قديمة فقد أحلت محلها طبقات جديدة .

وقد كان ايمان الشيوعية بأن الوسيلة الى تحقيق دعوتها انما تتم بالهدم والتخريب والثورات الحمراء والانقلابات الدامية مما نفر المسلمين فى مذهبها ، لأن قوام فكرها وشخصيتها انما بنى على الأخوة والوفاء والتسامح والاقتناع بالحجة .

وزاد من ذلك النفور ان التآمر كان جزءا هاما من جوهر الشيوعية ، وقد ظل ملازما لها حتى فى البلاد التى اصبح زمام الأمور فيها بيد الشيوعية نفسها .

كما اعتمدت الشيوعية على الارهاب وخداع الجماهير . وكان طابعها ولاء انصارها دائما لقياداتهم الخارجية دون اوطانهم مع محاولة اثارة الفوضى فى هذه الأوطان للتخلص من حكوماتها الوطنية واقامة حكومات جديدة موالية للشيوعية .

* * *

الشيوعية وماركس

فاذا رجعنا الى « الشيوعية » كفكرة وجدنا ان صاحب الدعوة اليها هو الحاخام الاسرائيلى « كارل ماركس » . وقد عرف اليهود بأنهم يمثلون طبيعة الحقد وكراهية الانسانية وكانت مطامعهم دائما فى القضاء على كل القوى للسيطرة على العالم وهدم الأديان والقوميات .

وقد كان « ماركس » واحدا من صناع هذه المؤامرة الضخمة ، ولذلك فقد كانت فكرة « الشيوعية » كما فهمها ورادها انما تهدف الى القضاء على القوميات والأديان وخلق قوة جديدة تصارع قوة (الراسمالية) وقد حمل اليهود لواء المذاهب الهدامة . وكان (ماركس نوردو) قد وضع مخططا لهذا العمل التخريبى حيث دعا الى تنشئة الجيل الصاعد على الكذب والتموية والمخادعة وعلى الأنانية وحب المنفعة والسعى وراءها بكل الطرق .

وقد وضع زعيم الشيوعية الأول اليهودى فى مذهبه خلاصة احقاد جنسه فقد قامت الدعوة على « بغض جميع الطبقات والحقد على البشر » وجاءت صدى لنفوس ملئة بالانتقام من مختلف طوائف الخلق ، وقد اعترف الصهيونيون انهم أول من نادى بالشيوعية ، وقال اليهود أن الثورة الروسية كانت من نصيبهم ، وأن ما تحقق فى روسيا كان بفضل العقلية اليهودية التى خلقت الشيوعية فى العالم ولم يكن اتفاقا ان انصار الشيوعية فى العالم من الصهيونيين وأن ٩٠ فى المائة من اعضاء الحزب الشيوعى الأمريكى من غلاة الصهيونية ، وان المجلس الذى حكم روسيا بعد قيام الثورة الشيوعية ١٩١٧ كان مكونا من عشرة أعضاء بينهم ستة من اليهود .

ولطالما ردد اليهود انهم اتخذوا من الشيوعية وسيلة للتغلب على العالم والوصول الى السيطرة وتسخير الموارد المالية .

وقد اكد هذه المعانى ما قاله أحد زعماء الشيوعية « لينين » الذى اتفق انه كان يهوديا أيضا وهو الذى حول فكر ماركس الى دولة ونظام قال « لا نحتاج الى الحب بل اننا أحوج الى البغض والأحقاد ، انه يجب علينا أن نتعلم البغض وان نرضعه مع اللبن » .

وقال نيتشه أن اليهود والروس سيكونان أهم العوامل فى المستقبل » :

* * *

(فكرة الشيوعية)

فاذا عرضنا لوجهةنظرالفكر العربى الاسلامى وجدنا مخالفة واضحة بين مفهوم الشيوعية ومقومات هذا الفكر . فهذه نظرية مادية خالصة ونظام مادى بحت . يستمد فكرته من فلسفة ملحدة تؤمن بمادية التاريخ فترى أن كل ما يقع فى التاريخ مرجعه الى الأسباب الاقتصادية .

وقد قال ماركس المقنن الأول للنظرية الشيوعية : ان الماركسية هى المادية وهى معادية للدين . وفى فلسفة الشيوعية : أنه لا حقيقة سوى المادة . وأن الانسان واعماله مادة .

ويرد ماركس كل أسباب التطور التاريخى للبشرية الى العوامل الاقتصادية ، ويرى أن المال والعمل والانتاج والاستهلاك دون غيرها من الدوافع هى التى تسير الحركة التاريخية ، وقال أن مقاصد دعوته هى القضاء على التفاوت الطبقى بالتسوية بين الناس فى شئون العيش وأن طريق الوصول الى ذلك هو بالغاء الملكية الفردية والقضاء على ثروة الأفراد وأن ذلك يؤدى الى تحرير الطبقة العاملة والفقيرة من سيطرة الراسمالية .

وقد أعلن ماركس بأن تحقيق الاشتراكية لا يتم الا بالثورة والانقلاب والتآمر والتقسيم ببث هذا التآمر بين طبقة العمال ضد أصحاب رؤوس الأموال .

أعلن ماركس هذه الآراء ١٨٦٤ وحاول ايجاد اتحاد بين عمال أوربا لمقاومة المموليين ، وفى عام ١٨٨٩ انشئت الدولية الثانية حيث عقدت مؤتمرات فى بروكسل ثم سقطت الحكومة القيصرية فى ١٦ مارس ١٩١٧ وبدات الثورة الشيوعية الروسية حيث قامت الدولية الثالثة عام ١٩١٩ .

وقد اعتنق لينين دعوة ماركس وحولها من نظرية فلسفية الى نظام للحكم وقد تبين فى أول مرحلة من التطبيق مدى الفارق البعيد بين مفهوم النظرية وبين امكان التطبيق ، لذلك لجأ « لينين » الى اعلان مرحلة وسطى هى ما أطلق عليه (ديكتاتورية العمال المؤقتة) ثم تطورت هذه الفترة المؤقتة التى استمرت حتى الآن أربعين عاما الى ما أطلق عليه « حكومة الصفوة والممتازة » : هؤلاء الذين وصفوا بالاخلاص والخبرة للفكرة الشيوعية ، وهكذا تطورت الشيوعية من ديكتاتورية عمل الى ديكتاتورية الصفوة الممتازة .

وجرت حركات التطهير المختلفة المتعاقبة لتخليص الحكم الى حاكم واحد ، فقد مات لينين ١٩٢٤/١/٢١ ووقع الصراع بين تروتسكى وستالين حتى استولى الآخر على الحكم ونفى تروتسكى وظل حاكما لروسيا حتى توفى فى مارس ١٩٥٣ . والسؤال الذى طالما وجهه الفكر العربى الاسلامى الى الشيوعية فى خلال هذه الفترة هو هل حققت الشيوعية :

× تحرير الطبقة العاملة والفقيرة .

× قيام مجتمع خال من الطبقات .

× انشاء القيادة الجماعية .

× الغاء التفاوت الطبقى وازالة الفوارق بينها .

× توزيع الثروة على افراد المجتمع بالعدل .

وقد عرض المفكرون لهذه الأهداف بالبحث ، وقالوا أن واحدا من هذه الأهداف الرئيسية للدعوة الشيوعية لم يتحقق . فقد أصبح العمال مسخرين لطبقة حاكمة جديدة . وأن الحكم ما زال دكتاتوريا استبداديا ، وأن القيصرية لم يقض عليها ، فقد قام قيصر شيوعى بدلا من القيصر الأول فضلا عن أن الاضطراب والتغيير المستمر ما زال متصلا مما يدل على عدم استقرار النظام ومخالفته لسنن الطبيعة والنواميس الاجتماعية والنفسية للأمم . مع القضاء المطلق على الحرية الشخصية وحرية الكتابة والرأى والخطابة ، وكان أبرز ما اهتم الفكر العربى فى النظر اليه من أمر الشيوعية : أمران : الدين والحرية .

* * *

(الدين)

وقد تبين أن الشيوعية دين جديد يحتقر الأديان القديمة ويقوم على « مادية » تنكر الله والرسالات . وقد ناهضت الأديان بالالحاد . وشنت عليها حربا متصلة والغت التعليم الدينى ونكرت الكتب المقدسة والهت لينين وستالين واباحت اللادينية والوثنية .

وقد أعلن قادة الماركسية الشيوعية : أن الشيوعية والدين ضدان لا يلتقيان ولا يأتلفان . فمن أراد أن يكون شيوعيا وجب أن يكون من غير دين وأعلنت الشيوعية حربها على المسيحية لأنها تحض على الرحمة . وقالت أن الرحمة مناقضة لتعاليمنا .

وقد أكد ذلك (لونا شارسكى) وزير التعليم السوفييتى : اذا قال : نحن نكره المسيحية والمسيحيين ، وحتى أحسن المسيحيين خلقا نعده شر أعدائنا فهم يبشرون بحب الجيران والعطف والرحمة ، وذلك يخالف مبادئنا و « الحب المسيحى » عقبة فى سبيل تقدم الثورة .. فلنسقط حبنا لجيراننا فان ما يزيده هو الكراهية والعداوة ، وحينذاك نستطيع غزو العالم .

وأكدت الشيوعية أن التفسير المادى للتاريخ يناقض وجود الله فما دامت الأسباب الاقتصادية هى التى تملى على التاريخ حركته وتسيره حيث شاء فلا مجال هناك للاعتراف بالله خالق أو أى قوة وراء الغيب توجه البشر الى مصائرهم .

وهم يرون أن الدين ليس الا تفسيرا خاطئا للظواهر الاجتماعية وبقية من بقايا النظم الاستغلالية البائدة ولونا من الخداع صنعه بعض الناس ليستفيد به بعض الناس .

ويعللون انتشار الدين بالظروف المادية التى عاش فيها الانسان الأول . فيقولون أن الانسان الفطرى فى العهد البدائى كان يقف عاجزا حائرا أمام الظواهر الطبيعية كالرعد والعواصف والفيضانات وغيرها ، وكان لجهله بأسبابها يردها الى ارادة عليا تسعى الى

كسب عطفها . والتماس أسباب الزلفى لها بتقديم القرابين وقالوا أن الروحانيات مثاليات نظرية ، قد الغت الثورة الشيوعية العلاقة بين الكنيسة والدولة فأصدرت فى ١٩١٨/١/٢٣ مرسوما أعلن فصل الكنيسة عن الدولة وفصل المدرسة عن الكنيسة وحظر التعليم الدينى فى جميع الدارس وعزل الشرائع السماوية وحجبها عن علاقات المجتمع وعزل الشرائع السماوية وحجبها عن الشيوعية : أن الدين افيون الشعوب واذن فلا حقيقة هناك الا المادة . وقد كانت الحرب ضد الدين من ابرز اعمال الثقافة الشيوعية .

وقد نقدت الديانات والكنائس والمنظمات الدينية وقالت : أن الله (تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا) قد مات وان البحث عنه لا فائدة منه .

(الحرية)

وعارض الفكر العربى نظرة الشيوعية الى الحرية اذ جند الفكر الشيوعى كله فى سبيل تأكيد النظرية الشيوعية دون اى سماح بنقد فى اى فرع او فصيلة أو تصرف من تصرفاتها مهما كان .

ويتجه نظام التربية والتعليم الى الثقافة فى ظل النظرية الشيوعية ولا تتداول الا الكتب التى يسمح بها الحزب الشيوعى ، والصحف التى يصدرها الحزب ، والكتابة التى تنشر ما يؤيد النظرية ولا يوجد أدب حر وتوجه ابحاث التاريخ والعلوم الطبيعية والمسرح والسينما توجيها شيوعيا وتوقف على أغراض الشيوعية . وقد صور التاريخ ونقح للتمشى مع اغراض الحزب .كما منعت اى ثقافات أجنبية معارضة للشيوعية ، اما فى نظام الأسرة فقد قام على الانحلال . والعلاقة بين الرجل والمرأة تسير مع المفهوم الاقتصادى المادى للمجتمع . وقد الغى وضع الزوج كرأس للعائلة وانعدام الحب . وبقى نظام الطبقات والتفاوت .

بين الغربية المسيحية والشيوعية

وهكذا وقف الفكر العربى الاسلامى موقفا واحدا بين النظرية الغربية المسيحية والنظرية الشرقية الشيوعية . فقد كانت النظرية الشيوعية امتدادا متطرفا للفكر الغربى نفسه الذى أعلن الايمان بالمادية واقصاء الدين عن المجتمع وانكار العقائد والروحيات .

فلم يكن هناك خلاف فى أن الدعوتين تغريب للأمة الاسلامية . وأن خلافهما فى المفهوم الاقتصادى هو فى ناحيته يختلف مع مفهوم الفكر العربى الاسلامى ، فقد عرف هذا الفكر منذ قديم الاشتراكية الاسلامية والعدل الاجتماعى والزكاة والتكافل الاجتماعى على نحو ليس فى غلو الرأسمالية الغربية ولا عنف الشيوعية الشرقية .

وتساءل الفكر العربى الاسلامى : هل تتفق الشيوعية مع بلادنا وشخصيتنا كما تساءل من قبل بالنسبة للأنظمة الغربية التى اضطر الى نقلها تحت ضغط الاستعمار المسيطر على البلاد والذى فرض هذه الأنظمة : فرض دون مراعاة فوارق الزمن والحاجة والتطرو والثقافة والمفاهيم العامة .

وقد وقف الفكر الغربى موقف المعارضة للرأسمالية الغربية والشيوعية الماركسية معا ، وانكر هدف الرأسمالية الأساسى من السيطرة على البلاد العربية . واستغلالها واعتصار ثرواتها واتخاذها مصدرا للخامات وسوقا للانتاج . كما وقف موقف المعارضة للشيوعية الماركسية وأنكر هدفها الأساسى من تدمير أنظمته الاجتماعية والاقتصادية لاقامة حكومات تابعة للشيوعية الدولية .

وقد أيقظت الدعوة الشيوعية فى الفكر العربى الاسلامى مقوماته الأصيلة وفق نظرية « التحدى ورد الفعل » فبدأ يراجع تراثه ويستخرج منه ما فيه من قيم تتصل بالاشتراكية الاسلامية فى التقريب بين الطبقات وتحقيق العدالة الاجتماعية والقضاء على الفقر ، وكان فى استطاعته أن يحقق نتائج باهرة لولا أن الاستعمار الغربى كان يحاول دون تغيير نظام الاقطاع والملكية والاستبداد والاستغلال وسيطرة رءوس الأموال الغربية وتجميد مواقف المجتمع والاقتصاد والفكر فى اتجاه غربى له مظهر ديمقراطى اسما مع التبعية الواضحة فى المحاولة .

وقال الفكر العربى الاسلامى : انه ليس أخطر على أمة من أن تنقل مذاهب أمة أخرى دون النظر الى طبيعتها وحاجتها وذوقها وروحها .

ولم يمانع الفكر العربى الاسلامى من أن «يقتبس» من أنظمة الرأسمالية والشيوعية ما يزيده قوة على المحافظة على شخصية ومقوماته ويحقق له الاندفاع فى طريق القوة والحياة .

مواجهة الغزو ومعارك المقاومة

* السياسة
* الدين
* المجتمع
* المرأة
* التعليم
* اللغة العربية
* الصحافة



لم تكن فترة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية (١٩١٨ — ١٩٣٩) الا معركة كبرى تفرعت منها معارك قوامها الغزو الثقـافى من ناحية الاستعمار فى صـورة التحدى والمقاومة ومن ناحية الفكر العربى الاسلامى فى صورة رد الفعل وقد امتدت هذه المعركة فى ميادين متعددة :

السياسة . الدين . المجتمع . التعليم . اللغـة العربية . الصحافة .

ذلك أن الاستعمار فى سبيل تثبيت دعائم سلطانه كان يهدف الى تغيير مفاهيم الفكر العربى الاسلامى فى كل هذه الميادين . واحلال مفاهيم جديدة ، غير مرتبطة أدنى ارتباط بالماضى ولا بالشخصية العربية ، ولا جارية على سنة التطور الطبيعى .

وانما كان يهدف فى الأساس الى خلق جو من البلبلة والاضـطراب والتمزق ، وخلق كتل فكرية متصـارعة ومدارس متعددة ، وثنائية فى مختلف الميـادين الفـكرية ودعوات تجرى الى الوراء فتتعلق بالماضى المدفون محاولة ايقاظه واتخاذه أساساً لحضارة أو حياة ، والعمل على تمزيق الجبهة الموحدة واثارة الخلاف بين الأديان ، واثارة الصراع بين مذاهب الأديان وبعث خلافات قبلية وطائفية وجنسية . وكان يركز على « الدين » كأساس للثقافة العربية بغية التشكيك فيه ، ويعمل على تشويه « التاريخ » باعتباره التراث الذى يربطنا بأمجـادنا وبطولاتنا حتى ننظر له نظرة الاستهانة . ويرمى الى القضـــاء على « اللغة » بتقوية اللهجات أو اللغة العامية المحلية وهو بذلك يرمى الى القضـاء على أساس الوحدة التى تربط الأمة العربية من ناحية الدين والتاريخ واللغـة . وكان « التعليم » أداة من أدوات هذا الغزو الثقافى فقد فرض معاهد الارساليات فى مختلف انحاء الوطن العربى وبذلك خلق ثنائية التعليم وعن طريق هذه المعـاهد والجامعات بث آرائه المسمومة فى اللغة والدين والتاريخ والحضارة .

وعن طريق « السياسة » خلق أسلوب المنفعة للقضاء على أسلوب الوطنية الخالصة ، وأحل الحزبية محل الوحدة ، وأقام الصراع بين الأحزاب المختلفة باسم النظام النيـابى الغربى الحديث وذلك ليصرف النظر عن الهدف الأول وهو تحرير الوطن ، وحتى لا تقوم جبهـة موحدة فى الوطن لمقاومته الا اذا شاء هو أن يخلق هـذه الجبهة لتوقيع اتفـاقية يحرص على أن يضم اليهـا كل العناصر ليكون كلا منها ملزما بتنفيذها اذا ما تولى الحكم

***

وعن طريق « الصحافة » قامت حركة التغريب ، فقد ظهرت صحف متينة البناء راسـية الأساس مستمرة لا تغلق ولا تعطل ، وكانت هذه الصحف فى رعايته وتمويله ويظهر بعضها هدفه صريحا ويخفيه الآخر ، والذى يخفيه أشد خطرا من الذى يظهره ، قد افسحت هذه الصحف صدرها لمختلف الآراء والنظريات والمذاهب من رجعيـة وتقدمية وشيوعية ورأسمالية ومنحرفة ودينية وملحـدة واباحية ومتحررة ، وبذلك خلقت جوا عاصفا من البلبلة، يثير العقل ويقضى على روح الوحدة ويدفع دفعـا الى التفكك والتجزئة والانحلال ويخلق عشرات المعسـكرات والمذاهب والدعوات . وبذلك لا يستطيع الوطن أن يندفع فى طريق موحد ، ويصعب حمايته من التيـارات الغربية التى تعصف به ، أما الصحف الوطنية الصادقة فقد كانت تعيش فى مهاب الأعاصير تصدر ثم تنذر وتحاكم وتغلق ، ولا تجد من المواد ما يدفعها الى الاستمرار أو القوة أو التبريز فى الميدان كغيرها فتظل لا تصل الا الى قـلة من القراء . ويظل للصـحف الأخرى سـيطرتها عن طريق مظهرها القوى ودوام صدورها واتساع انتشارها .

وعن طريق الصحافة أذيعت آراء التغريب فى الدين واللغة والتـاريخ وحمت الصحافة المسـتعمر وعملائه وافسحت صدورها لهم ودافعت عنهم ، ولكن عن طريق الصحافة أيضا برزت روح المقاومة والنضال والدعوة الى الحرية والوحدة والقومية العربية وحماية مقدرات الأمة والدفاع عن كيانها وتاريخها وأمجادها .

***

كان الاحتلال الغربى للوطن العربى بدء مرحلة جديدة بعيدة المدى فى الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية ، كانت العربية واقعة تحت الاحتلال البريطانى الفرنسى — وهو الأغلب — تحت سيطرة الامبراطورية العثمانية . ولم يكن ذلك احتلالا بقدر ما كان ارتباطا قوامه الخلافة والسلطنة وقيام الامبراطورية التى تضم العرب والأتراك وتخضع لنظام اللامركزية . حيث يقوم فى كل قطر حاكم أو سلطان يتبع السلطة العثمانية تبعية اسمية قوامها الدعوة للخليفة على المنابر وصك العملة باسمه وجباية الضرائب له . ثم يستقل كل قطر بعد ذلك بشئون حكمه وأنظمته .

ولقد انفصلت مصر والجزائر فى وقت مبكر جدا عن الامبراطورية العثمانية بعد احتلال بريطانيا للأولى وفرنسا للثانية فى وقت بدأ النفوذ الغربى ينفذ الى الوطن العربى كله ويسيطر عليه من خلال حكم الخليفة العثمانى عن طريق الامتيازات وحماية الأجانب وانشاء مدارس ومحاكم خاصة بهم ونظم مختلفة للضرائب والتجارة .

ثم بدأت حركات الاصلاح الدستورى تأخذ صورة النظم الغربية فى مصر وتركيا وتونس ، وسبقت مصر الى تلك فى نهاية حكم اسماعيل ، ثم كان الدستور العثمانى الذى أصدره « مدحت » فى أوائل حكم السلطان عبد الحميد ثم النكسة التى استمرت حتى عام ١٩٠٨ عندما صدر الدستور مرة أخرى وتوالت الدعوة فى الوطن العربى الى النظام النيابى الغربى .

حتى كانت الحرب العالمية الأولى ودخول تركيا الحرب فى صف المانيا واتفاق العرب مع بريطانيا على دخول الحرب فى صفها مع الوعد باقامة حكومة عربية بعد الحرب ثم انسحاب بريطانيا من وعدها وتمزيقها الوطن العربى بالاشتراك مع فرنسا واحتلاله من ثم بدأت سياسة تقسيم الوطن العربى الى أقطار وجرت محاولة تحويل الأقطار الى أمم ، ونشر دعوة مصر للمصريين والسودان للسودانيين وسوريا للسوريين . وهى دعوات مظهرها الوطنية ولبابها التجزئة .

وأقام الاستعمار فى الوطن العربى دعوات لهذه الوطنية الضيقة آزرها وأعانها ، وضرب بها القوى الوطنية الثائرة التى دعت الى الجلاء الشامل والاستقلال الكامل ، ثم أسلم اليها زمام الحكم . ودعاها الى توقيع معاهدات يعترف فيها بالاستقلال مع بقاء جيش الحماية وربطها معه فى تحالف حربى ، وسيطرة معتمدة على شئون الحكم واستعلاء سلطانه الفعلى على السلطان الشرعى وفرضه الأوامر على رؤساء الحكومات فى صورة نصائح ، ثم قيام دستور قوامه أنه هبة من الملك أو السلطان ، فيتجه فى مظهره الى ان تكون الأمة مصدر السلطات ثم يعطى للملك سلطات واسعة يحقق له بها عزل أى وزارة وايقاف البرلمان وحله ثم يقوم وفق هذا الدستور حكم نيابى على أساس الصراع الحزبى بين أحزاب تتصارع من أجل الوصول الى الحكم ، وارضاء المستعمر والحصول على الغنائم السريعة ، أما دعاة الوطنية والجلاء فتظل احزابهم مبعدة عن الحكم أو يقضى عليهم بالمحاكمات والسجن والنفى لانتهاك قواهم والجرى وفق النظام الحزبى وتعزيز الاقطاع وتمكين الحكام والوزراء من التوسع فى السيطرة واستغلال الطبقات الفقيرة فى الزراعة والصناعة ، ويحكم الاستعمار فى ظل النظام الدستورى العربى من وراء الوزراء الذين يرشحهم للملك ويفرض أعوانه فرضا فى المناصب التى يختارها وعن طريقهم يحقق أغراضه ويملى سياسته عن طريق وزارة المعارف فى مناهج التعليم وعن طريق وزارة الحربية فى القضاء على القوة العسكرية واغلالها والسيطرة عليها وعن طريق وزارة المالية فى السيطرة على اقتصاديات البلاد .

وقد حمل الفكر العربى الاسلامى لواء الدعوة الى الوطنية الخالصة فى مقاومة الاستعمار — كما حمل من قبل الدعوة الى مقاومة الاستبداد العثمانى — وأقام فى الأدب العربى الغافية ورفع معنويات الأمة ودفع اليأس عنها وتجنيدها للاستشهاد والدفاع عن الوطن ومقاومة الغاصب والادالة منه ، ومن أمثال هؤلاء مصطفى كامل فى مصر وعبدالعزيز

الثعالبى فى تونس واحمد طبارة فى سـوريا بأقلام نارية مؤمنة دفعت البلاد العربية الى الذود عن بلادها وتقديم الشهداء والارتباط بالوطن الأم والقضـاء على مؤامرات المستعمر .

وقد وجد الاستعمار فى أقطار الوطن العربى حلفاء أعانوه فى القضاء على الروح الوطنية : أمثال سـلطان باشـا فى مصر والملك عبد الله فى الأردن والجـلاوى فى مراكش ونورى السعيد فى العراق .

كما حمل السلاح زعماء آخرون جاهدوا بالدم أمثال عمر المختار فى ليبيا ومحمد عبيد فى مصر ويوسف العظمة فى سوريا وماء العينين وعبد القادر الجزائرى وعبدالكريم الخطابى فى شمال افريقيا .

* * *

قامت الثورات المختلفة فى الوطن العربى نتيجة للتعبئة الفكرية والروحية التى قام بها قادة ابرار ، وكانت هذه الثورات على الاستعمار تحمل لواء الدعوة الى الحرية واجلاء الأجنبى واسترداد حق الأوطان فى الحكم والحياة .

ولقد قاوم الاستعمار هذه الثروات بالحديد والنار وقتل وشنق وسجن وابعد مئات من الأحرار الذين قادوا هذه الثورات .

وامتدت هذه الثورات وترابطت فى الأقطار المختلفة فثورة مصر ١٩١٩ بعد الحرب العالمية الأولى كانت مقدمة لثورة ١٩٢٠ فى العراق و ١٩٢٤ فى السودان و ١٩٢٥ فى سوريا .

وكانت هذه الثورات فى مفهومها مقدمة لتحرير هذه الأجزاء من الأوطان من الحماية ومن الاحتلال . وقد عمد الاستعمار الى اطفاء نار هذه الثورات بوضع الماء على لهيبها المتقد ، وتحويل هدفها والقضاء على روحها . فقد كان للمستعمر اعوان وعملاء أعدهم للدور الذى أطلق عليه الحكم الذاتى ، ولم يرفع الاستعمار يده عن الحماية الا بعد أن درب عددا من أعوانه ليتسلموا زمام الحكم من بعده ، وفى مصر مثلا كان حزب الأمة هو القوة التى خلقها الاستعمار البريطانى منذ بدأ الاحتلال ١٨٨٢ الى ١٩٢٢ حين صدر تصريح ٢٨ فبراير الذى أعلن فيه استقلال مصر وكان فى خلال هذه الفترة قد قضى على القوة الوطنية الفعالة التى كان يقودها مصطفى كامل ومحمد فريد حتى لم يعد لها من الشأن بعد الحرب ، ما يمكنها من تولى شئون الحكم فضلا عن انها كانت لاتؤمن بالمفاوضة الا بعد الجلاء الكامل وترفض تولى الحكم فى ظل الاستعمار ، اما هذه القوة التى اعدها خلال فترة ما قبل الحرب فقد كانت تؤمن بالالتقاء بالاستعمار فى منتصف الطريق وقبول ما يرضى الاستعمار بالتنازل عنه تدريجيا ، ولا يرى بأسا من تولى الحكم فى ظل الاحتلال ، لذلك كان اللقاء الأول بين ممثلى مصر وبين ممثلى بريطانيا بعد الهدنة بضم ثلاثة من حزب الأمة هم على شعراوى وعبد العزيز فهمى وسعد زغلول .

وقد كانت ثورة ١٩١٩ فى مصر هى عملية تفريغ للشحنة الوطنية والروحية والفكرية التى قام بها الحزب الوطنى والتى كانت تحمل معنى واضحا هو اجلاء المستعمر عن ارض الوطن .

وقد هزت هذه الثورة العالم الغربى عامة وبريطانيا وكشفت عن روح المقاومة الباسلة ، لذلك فان بريطانيا استطاعت أن تقضى على هذه الروح باعطاء مصر « الاستقلال » فى ظل الاحتلال والسماح باعلان الدستور واقامة الحكم النيابى تحت سلطة المعتمد البريطانى وبواسطة أعوانه من رجال الأحزاب ولم تحقق ثورة عام ١٩١٩ ما كانت قد اندلعت من أجله ، بل ماتت اهدافها وذوت وحل بدلها تيار عاصف من الغزو الثقافى والسياسى والاجتماعى الذى كان بعيد المدى فى القضاء على الروح الوطنية الأصيلة وتحويلها الى عراك سياسى وصراع حزبى حول الغنائم والأسلاب وكراسى الوزارة والبرلمان والى خلاف متضرم شامل حجب الهدف الأصيل وهو تحقيق الجلاء وبناء الوطن .

ولعل هذه الصورة لثورة ١٩١٩ هى نفس الصورة لثورات الأقطار العربية المختلفة فى الفترة التى تخلى فيها الاستعمار عن الحكم بنفسه واوكل الحكم لأعوانه وعملائه .

وقد تأثر الفكر العربى الاسلامى بهذا التطور فأصبح المثقفون خداما لدى اصحاب المصالح الحقيقية والاقطاعيين واصبحت اقلامهم مؤجرة لأهدافهم ، وظهر تجمع اكبر عدد من المثقفين فى حزب واحد صنعه الانجليز بعد الاستقلال ليقاوموا به حزبا آخر يضم الأغلبية الساحقة ، وكان جل اتباعه هم اعضاء حزب الأمة القديم الذى صنعه الاستعمار فى ظل الحماية ليقاوموا به الوطنيين الذين قادهم مصطفى كامل ولم يكونوا فى واقع الأمر حزبا بل كان الوطن كله .

ولقد حرص الاستعمار بعد القضاء على الثورات الوطنية التى قامت فى انحاء الوطن العربى كله من المحيط الى الخليج أن يقهرها بقوة الحديد والنار ، وأن يحول

مجرى ثورتها دون أهدافها الطبيعية فيفرض على هذه الأوطان حكاما من انصاره واعوانه ، مع ابعاد المجاهدين عن أوطانهم حيث ابعد خيرى باشا التونسى ومحمد فريد وعبد العزيز شاويش وعبد العزيز الثعالبى وسليمان البارونى (ليبيا) وشكرى القوتلى وشكيب ارسلان وعلى الغاياتى .

لقد اراد هؤلاء أن يجعلوا قضية تحرير اوطانهم عالمية ، وكان مصطفى كامل هو أول من خرج بقضية مصر من النطاق المحلى ، كذلك خرج شكيب ارسلان بقضية البلاد العربية وطاف عبد العزيز الثعالبى بالعالم الاسلامى مبعدا عن وطنه أربعة عشر عاما وطاف محمد فريد بأوربا وتركيا ثمان سنوات ومات مغتربا فى برلين .

ولكن الاستعمار حرص دائما أن يجعل من قضية كل عربى قضية محلية ، فى نفس الوقت الذى تضافرت فيه قوى الاستعمار على مقاومة الأحرار . وقد ظن مصطفى كامل نتيجة للخلاف القائم بين بريطانيا وفرنسا أن فى استطاعته استغلال فرنسا للدفاع عن قضية مصر ، غير أن الدولتين لم يلبثا أن عقدتا الاتفاق الودى ١٩٠٤ وأطلقت كل منهما يد الآخر فى البلد الذى تحتله : فرنسا فى تونس وانجلترا فى مصر .

بل أن تصريح ولسون الذى أعلن حق كل شعب فى تقريره مصيره كان له هزة كبرى فى مصر والعالم العربى فلما أبرق زعماء مصر اليه يطالبون تأييده أعلن ولسون أنه يوافق على بقاء بريطانيا فى مصر ، وحال الاستعمار دون توحيد جبهة العمل لتحرير الوطن العربى وكان فيصل عن سوريا وسعد زغلول عن مصر وعبد العزيز الثعالبى عن تونس فى وقت واحد فى مؤتمر الصلح ، ولكن الاستعمار حال دون التقائهم ، ورفض سعد زغلول توحيد جهاده مع العرب الذين يمثلهم فيصل ، وقال أن ذلك سيحول بين بريطانيا وبين الاتفاق معه .

ولذلك فقد لقى كل منهم الهوان وحيل بينه وبين دخول مؤتمر الصلح ، فلما عاد الى الدولة المحتلة ليتفاهم معها عرضت عليه عرضا مهينا ، وكانت الشعوب اقوى من الزعماء ، فان ملنر الذى جاء مصر ورفض ابناء الشعب الالتقاء به — اضطر سعد زغلول أن يجلس معه على مائدة للمفاوضة وقدم سعد مشروعا اعترف فيه بموافقة مصر على بقاء جيش الاحتلال خلف قناة السويس (وهذا نص المادة ٨ من مشروع سعد باشا الى ملنر فى ١٧ يوليه عام ١٩٢٠ « لبريطانيا العظمى اذا رأت لزوما أن تنشىء على مصاريفها بالشاطىء الآسيوى لقنال السويس نقطة عسكرية للمساعدة على ما عساه يحصل من الهجمات الأجنبية على القنال وتحديد هذه المنطقة يحصل بعد بمعرفة لجنة مكونة من خبراء عسكريين من الطرفين بعدد متساو) » .

وهذا العرض يبين المدى البعيد بين مطالب محمد فريد الذى كان فى هذه الفترة منفيا مريضا فى احدى أزقة برلين ، وبين عروض سعد باشا الذى كان يمثل وطنية ما بعد ثورة ١٩١٩ وهو أكبر ورائها ، وقد رفض ملنر مشروع سعد باشا بالرغم من هذا ، واعلن فى مواجهة وفد مصر : أن بريطانيا واضعة يدها على كل شىء فى مصر وانه لا ينقصها الا أن يكون ذلك شرعيا بموافقة وفد مصر وعرض ملنر :

— منح بريطانيا (العظمى) حق ابقاء قوة عسكرية فى الأرض المصرية لحماية مواصلاتها الامبراطورية .

— تعين مصر بالاتفاق مع الحكومة البريطانية مستشارا ماليا يعهد اليه فى الوقت اللازم بالاختصاصات المالية التى لأعضاء صندوق الدين .

— تعين مصر بالاتفاق مع بريطانيا موظفا فى وزارة الحقانية يتمتع بحق الاتصال بالوزير ، ويجب احاطته بجميع المسائل المتعلقة بادارة القضاء فيما له مساس بالأجانب .

— يمنح الممثل البريطانى مركزا استثنائيا فى مصر ويخول حق التقدم على جميع الممثلين الآخرين .

— الا تعقد مصر مع أى دولة أى اتفاق الا بعد موافقة بريطانيا ولا تعين موظفين الا باذنها .

وكان هذا هو ثمرة ١٩١٩ ومنهج ورائها . ومدى تطور المفاهيم الوطنية عن طريق القوى الجديدة التى سيطرت على الحكم فى مصر بعد القضاء على الدعوة الوطنية التحررة التى كانت تطالب بالجلاء الكامل . وقد عاش دعاة الحزب الوطنى فى ظل المدرسة (الواقعية الجديدة) المؤمنة بالتعاون مع الانجليز موضع السخرية والتهكم من الأحزاب الحاكمة ، لأنهم دعوا الى «المفاوضة بعد الجلاء» ووجهت عبارات الهجاء العنيف الى مصطفى كامل ومحمد فريد على اعتبار انهما كانا خياليين مغرقين فى أوهام .

وهكذا تحولت مفاهيم السياسة الى احتقار الدعوة الوطنية الخالصة ، وتغليب روح التفاهم مع الاستعمار وخلق جو من « الصداقة » بين الاستعمار والحكام .

ولكن الشعب ظل على عدائه لهم جميعا ، فقد كان معروفا ان القوى الثلاث : الملوك والحكام والانجليز يسيرون فى خط واحد يرسمه الاستعمار نفسه فالاستعمار هو الذى يحمى العرش ويفرض الوزراء ويغيرهم .

* * *

وقد تكشف « نقل » الأنظمة الغربية الديمقراطية فى الحكم عن نتائج فاشلة ، حيث كان البون شاسعا بين مدى صلاحية هذه النظم للوطن العربي وقيامها على اساس غير سليم هو بقاء جيش الاحتلال وسلطان المعتمد البريطانى وسلطة الملك .

ولم تكن هناك غير قوة واحدة هى قوة « الشعب » التى تبددت وراء انقسامات الأحزاب وصراعها وتحولت عن مفاهيمها الأولى الصادقة الايمان بالحرية والوطنية الى المنفعة ، وتحصيل مكاسب الحكم مما ادى الى الانهيار فى مفاهيم القيم وغلبة روح الأنانية والانعزالية ، وظهور طبقة جديدة من الحكام المترفين الذين انفصلوا عن الشعب واستغلوه وحكموا باسمه ولحساب مطامعهم ، ولقد كانت قوة الشعب تستعيد مراكزها فى المقاومة على فترات متباعدة فتتجه الى عمل من أعمال المقاومة فاذا حصدها رصاص الانجليز وساقها الى السجون توقفت ثمه حتى يتجمع مرة اخرى لمعركة جديدة . وظلت هكذا بين القوة والضعف والاقدام ولكنها لم تمت .

* * *

سيطر الاستعمار على اقطار الوطن العربى بواسطة اربع قوى : الملوك . المعتمدون . المعتمدون غير الرسميين . العملاء . والأحزاب . الأقلام والصحف .

(١) الملوك : اما الملوك فقد كانوا دائما ادوات لستعمارية صالحة . ففى مصر مثلا ادعى الانجليز انهم احتلوا مصر لحماية عرش الخديو . وقد كان الملوك والسلاطين والخديويين فى الوطن العربى فى خدمة الاستعمار . وأسقط الاستعمار كل الملوك الذين عملوا لمقاومته ، كما حول الآخرين الى صفة كما فعل بالخديو عباس الذى احتضن الحركة الوطنية فلما أرسلت له بريطانيا المعتمد البريطانى « ونجت » بسياسة الوفاق أعطى ظهره للحركة الوطنية وقاومها .

ولقد قاوم الاستعمار اى انحراف فى الملوك سواء أكان لرفض تعيين رئيس وزراء معين كما وقع فى حادث ٤ فبراير ومحاصرة قصر عابدين بالدبابات أو على النطاق الوطنى الحر كما فعلت فرنسا مع الملك محمد الخامس الذى ظاهر حركة التحرير فى بلاده فأجبره الاستعمار على النفى ثم اضطر الى اعادته تحت ضغط قوة المقاومة الوطنية .

وللملوك والسلاطين قصة ، فقد تعاقدت بريطانيا مع عشرات منهم فى الجنوب العربى على نحو ذليل يعطى لبريطانيا الحق فى فرض سلطانها على كل شىء فى مقابل مرتبات قليلة وارتباط بالاستعمار البريطانى مدى الحياة .

وكان موقف بريطانيا من الشريف حسين غاية فى التآمر والخداع ، فقد تفاهمت معه بواسطة مندوبها مكماهون فى مصر على الانفصال عن الأتراك والانضمام لها فى مقابل اقامة دولة عربية بعد انتهاء الحرب . ثم تبين بعد اعلان الثورة خداعها له فاذا ما انتهت الحرب تنكرت لوعودها ، فاذا ما اختلف معها الشريف حسين ورفض قبول « وعد بلفور » اغروا به الملك عبد العزيز آل سعود الذى اجتاح الحجاز وأسقط مملكة الهاشميين .

وقصة الملك فيصل ملك سوريا ثم ملك العراق معروفة . فقد أذعن الملك لانذار القائد الفرنسى «غورو» وحل الجيش السورى فلما تحركت القوات الفرنسية لاحتلال دمشق هرب وترك الوطن يقاسى عقوبة الاستعمار القاسية بدون مقاومة .

ثم رشحه الاستعمار لعرش العراق وهيىء له السبيل وأبعد أهل البلاد الأصليين — وكان فى ذلك انما ينقل الملوك من قطر الى قطر كقطع الشطرنج ، فلما وصل الى العراق كان المعتمد البريطانى برسى كوك هو الحاكم الحقيقى وقد سئل جلالته فى أن ينشىء جامعة فى بغداد فكان اعتذاره صورة لفهم الملوك لمكانهم من الاستعمار حيث فقال : اننى موظف فى الحكومة البريطانية برتبة ملك .. وقد رأى كيف أذل الاستعمار والده الملك حسين حين رفض الموافقة على وعد بلفور واغرى به الملك سعود ليحتل ملكه فتقبل التفاهم مع « وايزمان » ممثل الصهيونية وأعلن فى تصريحات له بأن فلسطين تتقبل اليهود اخوانا للعرب بها !

وقد تنبه الاستعمار للجيل القادم من الملوك ففرض تعليم أولياء العهد فى بلاده . وقد اضطر الملك فؤاد أن يسلم ابنه لتربية بريطانية ، وكذلك فعل مع فيصل بن الملك غازى والملك حسين بن طلال . وكذلك فعل الاستعمار الفرنسى .

٢ — المعتمدون : اختارت بريطانيا وفرنسا لسيطرتها على أقطار العالم العربى معتمدون مدربون غاية فى المكر والدهاء ، كان ابرزهم كرومر فى مصر وليوتى فى المغرب وغورو فى سورية وولكوكس فى العراق وجلوب وصمويل فى الأردن وهور فى فلسطين وغردون فى السودان وجزريانى فى ايطاليا .

ولقد قام هؤلاء وعشرات غيرهم بدورهم فى دعم الاستعمار وتأكيد الغزو الثقافى وارتبط تاريخهم بأسوأ أعمال الاستعمار ، فكرومر صاحب دنشواى وجزيريانى قاتل عمر المختار وليوتى صاحب دعوة فرنسة العرب فى المغرب وتجنيسهم وقام كرومر فى مصر بدور ضخم فى بناء أسس الاحتلال وكان نهجه التدخل الانجليزى فى كل فرع من فروع الادارة المصرية ورسم خطة انسحاب الجيش

المصرى من السودان ثم استعادته بقيادة كتشنر وقضى على المعارضة الفرنسية للاحتلال بتوقيع اتفـــاق ١٩٠٤ وبقاء قواعد اتفاقية ١٨٩٠ مع مصر وبها سيطر الانجليز على السـودان كله وفرض على كل وزارة مستشارا انجليزيا يملى على الوزير ، وفى وزارة الداخلية مفتشون يسيطرون على المديرين وهو صاحب سياســة التفرقة والوقيعة بين المسلمين والأقباط وتقسيم الأمة الى أحزاب وشيع . والتفرقة بين مصر والسودان .

وهو صاحب الدعوة الى نظام رأسه انجليزية ويديه مصرية . وهو صانع زعماء حزب امة ، ومن الحكام أمثال مصطفى فهمى الذى وصفه بالشجاعة الأدبية والاعتدال . وصهره سعد زغلول وهو القائل بأن الاستعمار البريطانى يبقى فى مصر الى الأبد .

وقد سيطر كرومر على القضاء فبعد أن كان القانون يحمى الفرد من بطش اية سلطة اذا نشر آراءه السياسية اصدر قانونا أصبح به القضـــاة الابتدائيون تحت نفوذه فى محكمة الاستئناف وحولها الى القضاه الابتدائيون بعد السلطة الادارية ، ثم نزع الاختصاص من قضايا الجنح بعد أن نزع استقلالهم . ونزعت سلطة القبض والتحقيق والاتهام من القضاء وتقررت للنيابة ١٨٦٥ وبذلك اصبح المواطن خاضعا للقبض عليه والتحقيق ضده واتهـامه والحكم عليه بواسطة قضــاة كلهم خاضعون للســلطة الادارية تحت اشراف الانجليز .

وقد صور كرومر أثره فى مصر (١٨٩٢) فقال : من يقارن الحالة الحاضرة بالحالة التى كانت عليها مصر منذ عشر سنوات يجد فرقا شاسعا ، فالشوارع التى كانت مكتظة بدكاكين أرباب الحرف والصناعات قد اختفت تماما وحلت محلها دكاكين مملوءة بالبضائع الأوربية والآن أقول أن كل شىء فى مصر يدخل فى امتياز ممنوح لاحدى الشركات الأوربية ومصر الآن تزرع القطن وبريطانيا تصنعه .

وكان ابرز اعمال كرومر نظام وظائف المستشارين الانجليز وهو النظام الذى وضـــعه على اساس قاعـــدة رءوس انجليزية وأيد مصرية . فقد وضع فى كل وزارة مســتشار ، وهو اسم مبهم يفهم منه أن هــذا الموظف الأجنبى سيكون رايه استشاريا بينما كان فى الواقع هو كل شىء ولم يكن يستطيع اى وزير أن يقضى فى أمر اذا لم يكن قد حظى بتوقيع المستشار وقبوله . وبذلك سيطر كرومر بواسطة جهازه هذا على جميع تصرفات الحكم . وقد بسط هؤلاء المســتشارين النفوذ الانجليزى بجميع الوسائل وأهمها الاكثــار من الوظفين الانجليز وباحلال انجليزى محل كل موظف أجنبى فرنسيا أو المانيا .

وقد طاردوا كثيرا من رجال التعليم الفرنسيين بقصد صبغ جميع فروع التعليم بالصــبغة الانجليزية . وجعل القوانين المصرية ولا سيما القانون الجنائى انجليزيا وجعل المرافعات باللغة الانجليزية بقصـــد القضاء على اللغة العربية والمظهر القومى ...

وقد كان الوزراء يخضعون خضوعا تاما لتعليمات المســتشارين ، وكانت كل قرارات العقوبات والغرامات تنفذ بواسطة الموظفين المصريين ثم يكون رفع هذه المظالم بواسطة كرومر ورجاله ،وذلك حتى يقع فى أذهان الناس ان الاستعمار عادل وأن أبناء الوطن هم الظالمين وقــد تمسك لورد ملنر فى مفاوضاته الأولى مع ســعد زغلول ببقاء المستشار القضائى ولو باسم آخر على ان يكون له حق الدخول على وزير الحقانية ويؤخذ رايه فى كل مايتعلق بالتشريعات التى تطبق على الأجانب وكذلك المســتشار المــالى .

وكان « دنلوب » مستشار كرومر فى وزارة المعارف من اقسى هؤلاء المستشارين وأشدهم حرصا على هدم اللغة العربية ومحاربة الأزهر ومقاومة التاريخ الوطنى .

***

٣ ــ المعتمدون غير الرسميون

وكان الاســتعمار فى الوطن العربى معتمدون غير رسميين ، وكان هؤلاء اشد خطرا من معتمديه الرسميين نظرا لأنهم كانوا يتغلغلون فى الوطنين ويحاولون خداعهم بأنهم أصدقاء للعرب يؤمنون بحقهم فى الحرية ، من هؤلاء فيلبى ولورنس ويلنت وقد عمل فيلبى مع الهاشميين أولا ثم عمل مع السعوديين . أما بلنت فهو صاحب الوساطة فى تخفيف الحــكم على عــرابى من الاعــدام الى النفى واستخدام المحامين الانجليز للدفاع عنه وصديق الشيخ محمد عبده .

أما لورنس فان قصــته غاية فى الاثارة . فهــو البريطانى الذى وصف بأنه ملك العرب غير المتوج والذى كان له دوره الخطير فى الثورة العربية التى اعلنها العرب بقيادة الشريف حسين ١٩١٦ وقد أرسله الانجليز ليعاون فيصل فى الحرب مع الأتراك وقد شهد معه المعارك التى

بدأت من العقبة حتى دخول الجيش البريطانى الى القدس ودمشق ، وكان له دوره فى خداع العرب عن حقائق الموقف وعن المؤامرة التى كانت تدبر لهم بتقسيم وطنهم واهمال المقررات التى تم الاتفاق عليها بين مكماهون والشريف حسين وبذلك ضاعت أمالهم فى قيام دولة عربية .

وقد خدع العرب بزيه وعقاله ، وتحدثه باللهجة العربية المنتشرة فى قلب جزيرة العرب . وفضح بكتابة أعمدة الحكمة السبع حقيقة مشاعره نحو العرب ورماهم بكل نقيصة وقال : لو كنتناصحا أمينا للعرب لقلت لهم . (لا تحاربوا) .

واشترك لورنس فى تقسيم العالم مع « تشرشل » واقامة الصهيونية فى فلسطين ودخول فرنسا دمشق واخراج فيصل ثم اختياره لعرش العراق والتمهيد له بانشاء امارة شرق الأردن للأمير عبد الله .

وكانت مهمة جلوب فى الأردن الاتصال بالبدو والاعراب واجتياز الصحراء شرقا وغربا ، ولذلك فقد أجاد اللغة العربية الفصحى ولهجات القبائل المختلفة وعادات العرب واستطاع اكتساب ثقة الأعراب الذين يجوبون الصحراء وقد نجح فى حجزهم عن الاتصال بالثورة فى فلسطين .

* * *

٤ — العملاء

وكان العملاء فى المنطقة من اعوان الاستعمار وادواته . وعن طريقهم حكم وتسلط وضرب الوطنيين . ويعد سلطان باشا فى مصر نموذجا لهؤلاء العملاء فهو الذى مهد للجيش البريطانى الزحف على التل الكبير وصاحب الأعراب الذى كشفوا الطريق لمعسكر عرابى فى التل الكبير . وكاتب بعض مشايخ العرب والعمد ، ومن لهم شأن يمنيهم بالخلع والرتب والأوسمة . ومنحته الحكومة عشرة الاف جنيه وكافأته الحكومة الانجليزية بنيشان القديسين : جورج وميشيل ووضعه على صدره السرمالت قنصل الانجليز بالنيابة عن جلالة الملكة فيكتوريا

وقد وصفه الشيخ محمد عبده فى مذكراته : بأنه الهمام الوطنى الذى أوقد نار الفتنة فى البلاد وجمع لها وقودها وحطبها حتى امتد لهيبها وعم جميع الانحاء ثم هرب من طريقها عندما خاف أن يلدغه لسان لهيبها ، وجاء فى آخر الأمر نائبا عن الحضرة الخديوية فى حبس كثير من الناس ولم يفرق بين الأبرياء وغيرهم ونال المكافاة من الجناب العالى بالاحسان جزاء ايقاد الفتنة ثم الهرب منها » .

ومن عملاء بريطانيا من الوزراء : حسين رشدى الذى دفع مصر فى الحرب العالمية الأولى الى جانب الانجليز وجند مليونى عامل مصرى فى ساحات القتال واقتطع غلات المصريين وأقواتهم ليمون بها جيوش صاحب الجلالة البريطانية وحلفائه وعمل على تقييد أسعار القطن. وقدمت مصر ملايين الجنيهات الى بريطانيا ، واعادة الموظفين الانجليزيين بأضخم المرتبات والاستغناء عن بعض الموظفين الانجليز مقابل غرامة باسم التعويضات التى كلفت مصر ملايين الجنيهات وفتح أعمال المنشئات الجديدة لخدمة بعض المصالح الانجليزية وتقديم الاحتكارات والرخص والامتيازات والاعانات للشركات الانجليزية فى مصر وتسخير التعريفة الجمركية لخدمة التجارة الانجليزية فى مصر على حساب المصريين والتسليم للانجليز باقتطاع الأراضى المصرية لها تارة ولحليفتها ايطاليا تارة أخرى .



٥ — الأحزاب

كانت الأحزاب السياسية فى العالم العربى أداة من ادوات الاستعمار فان الدعوات الوطنية الى مقاومة الاستعمار التى بزغت فى العالم العربى بصفة عامة وفى الأقطار المختلفة لم تكن فى حقيقتها أحزابا ولكنها كانت قوى وطنية كاملة ، غير أن الاستعمار حرص على أن يسبق فيجمع أعوانه من كبار الاقطاعيين وأصحاب الأرض والمال فى أحزاب قوية تصدر الصحف وتجهر بدعوتها فى وضوح . ولم تكن هذه الدعوة مكشوفة لتأييد الاستعمار ، ولكنها كانت لبقة تدعو الى تغليب العقل على العاطفة ، ومحاولة الاستفادة من كسب كل ما يعطيه المحتل ، ولذلك فان محاسنته عندهم هى الطريق الصحيح وليس الطريق الآخر القائم على العاطفة من ناحية والتطرف فى المطالبة بالجلاء الكامل .

وفى مصر عندما التف المصريون حول « مصطفى كامل » أسرع كرومر بانشاء حزب الأمة وأصدر صحيفة الجريدة التى دعت الى التعقيل والمحاسنة .

وقد تكررت هذه التجربة فى كل قطر : فى سوريا وتونس والعراق .

وكانت الأحزاب اداة تحويل المعركة الوطنية الى معركة سياسية ، ومنازعات داخلية ، فتوزعت بذلك قوى الأمة وتبددت وحدة الشعب ، واستدعى ذلك أن يستعين البعض بقوة المستعمر على البعض الآخر واستطاع المحتل أن يوسع الشقة وأن يعين هذا على ذلك ، وتعرضت قضية الوطن لأبلغ الخطر واستتبع ذلك الانحدار الاجتماعى من الأهداف الوطنية العليا الى الصالح الفردية :

وقد قامت هذه الأحزاب على الأشخاص لا على المناهج فلم يكن لها برامج محددة .

وفى مصر كان مصطفى كامل يطالب بالجلاء ، بينما حزب الأمة لم يورد فى منهاجه الذى أعلن شيئا عن الجلاء او الاستقلال او الحرية، وانما اورد هذا المبدأ « أن نوجه همنا ونصرف قوانا للحصول على حقنا الطبيعي وهو الاشتراك مع الحكومة فى وضع القوانين والمشروعات العامة وذلك بالسعى فى توسيع اختصاص مجالس المديريات ومجلس شورى القوانين » وهذا مدى ما كان يطلب حزب الأمة .

وفى فلسطين كان لصراع الأحزاب اثره البعيد فى سيطرة اليهود وتمكنهم من الانقضاض عليها . وقد استغل الانجليز واليهود الخلاف بين أمين الحسينى وفخرى النشاشيبى وسعت بريطانيا لتعميق هذا الخلاف وتوسيع شقته .

* * *

٦ ــ الصحافة

وقد استغل الاستعمار الصحافة ، وكانت له فى معظم البلاد العربية صحف تعمل لحسابه فى صراحة وصحف تعمل له فى الخفاء ، وفى بعض الأقطار كانت هناك صحف لبريطانيا وصحف لفرنسا ، وكان بين هذه الصحف صراع خفى ، وكانت الصحف الموالية لفرنسا فى الأقطار التى احتلتها بريطانيا تعرض اتجاهات بريطانيا وتصرفاتها وتحمل بذلك لواء الدعوة الوطنية ظاهرا بينما هى تدافع عن مصالح فرنسا .

وفى مصر كانت صحيفة « المقطم » تتحدث صراحة عن دورها فى تأييد الاحتلال البريطانى ولها فى ذلك فلسفة عجيبة . وقد كشف المقتطف ــ وهو شقيق المقطم ــ عن هذا الدور تحت عنوان تشيع المقتطف للانجليز (عدد يوليو ١٩٠٥) « يرمون المقتطف بالتشيع للانجليز . ويقولون أنه لا ينوه الا بالانجليز ولا يعترف بالفضل الا للانجليز ولا يستحسن الا ماهو انجليزى وبهما حملة هذا الغلو فى حب الانجليز على استحسان ما يستقبح من غيرهم ويشهدون على الأول باغضائه عن ترجمة حول سيمون الفيلسوف الفرنسى والسيد جمال الدين الأفغانى .

وقال الدكتور صروف : أن اكثر مطالعاتنا فى اللغة الانجليزية فنرى الترجمات المطلوبة فيها وهى فى الغالب عن رجالها ، اما جمال الدين فعذرنا فى اغفال ترجمته هو أننا لا نعرف الرجل ولم نقرأ له الا كتيبا لا يستحق لأجله مدحا .

وتحدث المقتطف عن الاستعمار البريطانى (يونيه ١٩٠٤) واعتذر لهم عن انهم احتلوا اقطار الشرق بأن «بلاد الانجليز جزائر . ليس فيها من الحاصلات الزراعية ما يكفى أهلها فلما كثروا اضطروا أن يركبوا البحار ويتجروا بمصنوعاتهم فأوصلتهم التجارة الى أمريكا والهند وافريقية واتفق أن بعض البلاد التى دخلوها كانت احكامها مختلة معتلة أو كانت خالية من الأحكام فكانوا يضطرون ان يلجأوا الى القوة دفاعا عن انفسهم . والقوة تدعو الى الغلب والتملك » .

وبرر الدكتور صروف الإحتلال البريطانى فى مقتطف (يناير ١٩٠٧) فقال :

أن « الذى جرى عليه أهل السياسة حتى الآن انهم دخلوا بلادا امتلكوها كما فعل الأتراك لما دخلوا القطر المصرى والسورى وكما فعل محمد على عندما دخل السودان فانه امتلكها بحق الفتح . أما الذى فعله الانجليز فى القطر المصرى والقطر السودانى فبين بين ، لأنهم دخلوا القطرين واحتلوهما ولم يمتلكوهما بل اقتصروا على مساعدة الوطنيين فى ادارة شئون البلاد ، ولقد كان الداعى الى دخولهم القطر المصرى اختلال الأمن فيه وخوف أصحاب الديون المصريين على أموالهم . وأكثرهم من الانجليز والفرنسيون ، ولما استقل السودان عن مصر وسار بلادا مطموعا فيها لو لم تسترده مصر بمساعدة انكلترا لفتحته فرنسا أو أى دولة أخرى وضمته الى املاكها وتحكمت بالنيل على اسلوب يجعل القطر المصرى فى قبضة يدها وتحت رحمتها فقامت بريطانيا وساعدت مصر على استرجاع السودان وقد استفاد

القطر المصرى والسودان بالاحتلال فوائد لا تقدر » .

وقال الدكتور صروف « ان احتلال بريطانيا لمصر دفعها الى التقدم (اغسطس ١٩٢١) ولو لم يحتل الانجليز القطر المصرى ليقى سائرا سيره الطبيعى كما كان سائرا حينئذ فليس فى كل قواميس الكون وقوانين العقل ما يجعلها تحكم انه كان يتقدم على سوريا ويتركها وراءه بمراحل كثيرة .

وقال فارس نمر (مارس ١٩١٠ المقتطف) ان كانوا يعيروننى أنى اعترفت للاحتلال بالاصلاح وللمحتلين بأعمال حسنة فى هذا القطر فأنا على رؤوس الاشهاد احتلالى من أكبر الاحتلاليين لأنى جاهرت وشهدت ولم أخف ولم أنكر أن المحتلين أصلحوا هذا القطر اصلاحا عظيما ، ونشروا عليه الوية العدل والحرية وانهم رقوه ماديا وأدبيا . وقد استقرت الأفكار على أن الاحتلال لابد وأن يدوم حتى ترتقى الأمة المصرية فى المعرفة والعلم والقوة والكفاءة لتدبير أمورها وتولى شئونها بنفسها وذلك يستغرق زمانا طويلا » .

ويصور المقطم (مايو ١٩١٠) كيف تنال مصر الحكومة النيابية فيقول :

أن مطالب الحزب الوطنى المتعلقة بالدستور من اشرف المطالب واجلها ، فنحن لا نذم غاية الحزب الوطنى بل غيرها ظاهرا وباطنا . والسبيل الذى نال به العثمانيون دستورهم يتعذر نيل الدستورية فى القطر المصرى . لأن أحوال القطر المصرى مخالفة لأحوال تلك البلدان . ان للقطر المصرى علاقات خصوصية بالأوربيين تجعل نيلنا الدستور التام رغما عنهم صعبا جدا وان لم يكن ضربا من المحال .

وقد اعترف لورد كرومر فى كتابه مصر الحديثة ان ماليى أوربا الذين يملكون الدين المصرى هم الذين الجأوا الحكومة الانجليزية الى محاربة عرابى واحتلال القطر المصرى وديون هؤلاء الأوربيون لم ينقص من ذلك الحين الى الآن بل زادت . للأوربيين فى أوربا ١٥٠ مليونى وللأوربيين فى مصر ٦٠ مليون أى ما يوازى ثلث ثروة هذا القطر .

هؤلاء الدائنون لم يأتمنوا غير انجلترا على حفظ ديونهم فالجأوها الى ارسال جنودها لاخماد الثورة العرابية واحتلال القطر المصرى .

فعلينا أن نقنع الأوربيين عموما والانجليز خاصة اننا كفؤ لحفظ الاصلاح الذى تم فى البلاد ، وكفئو لحفظ أموالهم ومصالحهم وتأدية الفوائد والأقساط فى مواعيدها وذلك بأن نسالم الأوربيين ونصادقهم على قدر الامكان وأن نناظرهم فى الاجتهاد وأن يهتم كل موظفى الحكومة بعمل ما يطلب منهم بأمانة واخلاص حتى نثبت انه أكفأ للوظائف من الأوربيين . وأن ننشر الأمن والاطمئنان فى البلاد . وهذه السكة قد تكون طويلة نقطعها فى سنوات كثيرة ، وقد تكون قصيرة نقطعها فى سنة أو سنتين . واعتقد أن عقلاء الحزب الوطنى وحزب الأمة والحزب الدستورى يوافقوننا على ذلك .

والحكومة النيابية الحقيقية لا تنال فى القطر المصرى بالثورة والمغاضبة بل ما نرى » .

هذه هى فلسفة الاستعمار البريطانى فى مصر كما رسمتها اقلامه فى المقطم والمقتطف فى دعوة الى الذلة والاستسلام والخضوع ، وهو نفس النهج الذى سارت عليه « الجريدة » لسان حزب الأمة والتى كانت تدعى أنها للمصريين وليست للانجليز ولا للخديوى كما ظهر كتاب اشادوا بالامبراطورية البريطانية وركزوا على ضرورة تأكيد الصداقة معها .

* * *

القاومة

كانت هذه القوى تعمل فى طريق واحد هو القضاء على الوحدة العربية بين الأقطار التى فصلها الاستعمار وجزئها ، والقضاء على الوحدة الداخلية ايضا بين ابناء القطر الواحد . ومحاولة خلق حياة فكرية اقليمية ضيقة تقوم على أساس اللهجة الاقليمية والانفصال عن اللغة الفصحى ، وانكار القيم الأساسية للشخصية العربية كالتاريخ والدين .

وفى القضاء على اللغة والتاريخ والدين قضاء على القوة النابضة التى تدفع الى الحرية والمطالبة بالجلاء وتخليص الكيان .

وكان لسيطرة الاستعمار على الصحافة والتعليم ووسائل الأعلام أثره فى اشاعة روح جديدة تقوم على أساس النظر الى الغرب نظرة الاكبار والنظر الى الشرق نظرة الاحتقار ، ومؤدى هذه النظرة محبة الغرب

والارتباط به واعتبار الاستعمار صلة حضارة وتمدين وليست صلة تسلط واستيلاء ، مع اكبار ثقافة الغرب القائمة على اساس الالحاد والاباحة والمادية والتنكر للقيم الروحية والانفصال تدريجيا من الشرق والعروبة . والنظر الى التاريخ العربى نظرة الشك والتهكم . وبذلك يركز الاستعمار قواعده ويبقى الى الأبد كما كان يطمع كرومر فى مصر .

غير أن القوة الروحية والوطنية قد استطاعت ان تنفذ خلال هذا الضباب الكثيف ، وأن تشق طريقها فى مقاومة عزلاء من جميع أسلحة الاستعمار القوية الضخمة فكشفت عن خداع الاستعمار ، وأظهرت خيانات الملوك والأحزاب واعوان الاستعمار وعملائه ، وتركت « ميسلون » فى سوريا « ودنشواى » فى مصر وأمثالها فى السودان والمغرب جروحا دامية فى ضمير البلاد العربية لم تلتئم ، وقد ظلت تثير على الاستعمار وأعوانه روح السخط ، وقاومت الصحافة الاستعمارية صحافة وطنية كانت اقلامها اشد ايمانا وصدقا . وابعد أثرا فى النفس العربية ، وقد كانت كلمة الحق والكلمة الوطنية بعيدة الأثر فى القضاء على القضايا الزائفة والأكاذيب وصنوف الخداع .

وفشلت كل معارك القضاء على اللغة العربية أو الدين أو التاريخ وتحطمت قضية اقامة صداقة بين البلاد العربية والاستعمار ، وارتفعت الصيحات فى كل مكان بالثورة على الاستعمار وأعوانه فاذا اخمدها الاستعمار ، تحولت الى ضرام قوى يتصل بالشعب عن طريق الصحافة والكتابة والخطابة ويترتب الفرص ليتجمع جديد .

وفى شوارع مدن عربية كثيرة ارتفعت النداءات بخيانة الملوك وخيانة زعماء ظلوا سنوات طويلة يخدعون شعوبهم ، وفى ميادين عامة وأمام مساجد مقدسة قتل ملوك ووزراء خانوا اوطانهم :

ولم يستطع الاستعمار أن يحمى أعوانه الخونة فحاسبهم الشعب . وفى ظروف كثيرة فرض الشعب سلطانه فمنع المستوزرين من تولى الحكم حتى تجاب مطالبه ، واندفعت أيد حرة سوداء على الخونة فحررت الأوطان من كثير من العملاء .

وظلت هذه القوة الوطنية المؤمنة حية نابضة مهما حيل بينها وبين الظهور .

وحاولت الأقلام ان تبلغ كلمة الحق مهما حيل بينها وبين اعلانها فكانت النشرات والصحف السرية والكتابات الرمزية .

* * *

وكان لقضية فلسطين وخيانات ملوك العرب فيها أثرها الكبير فى تاريخ روح الوطنية والدعوة الى الوحدة فى سبيل مقاومة الخطر .

وتنادت أجزاء الوطن العربى فى شعرها ونثرها بالرغم من حواجز الاستعمار وخرج زعماء أبرار فطافوا أنحاء العالم يكشفون مظالم الاستعمار ويندون به . وتلاقت طوائف المسلمين والمسيحيين فى مصر فى وحدة وطنية ، كما تلاقى العرب والبربر فى شمال افريقيا لمواجهة الاستعمار الذى كان يسعى للتفريق بينهما ، وكشف الشعب خدعة الأحزاب السياسية وفشل النظم النيابية الغربية القائمة فى ظل جيوش الاحتلال وسلطان المندوب البريطانى ولم تنطل كلمات المقطم والمقتطف على الشعب الذى كان يعرف حقيقة طريقه .

ووجد الفكر العربى من هذه المعركة حصيلة ضخمة وزادته قوته حياة وزادت معالمه قوة ، وقد افاد الفكر العربى من هذه المعارك انه جدد نفسه ، وأضاف لعمله دعائم جديدة فى سبيل دعم خطته والانطلاق فى طريقه محافظا على مقوماته متصلا بالحياة متطورا مع الزمن .

* * *

الدعوة إلى الوحـــدة العربيـــة

كانت « الدعوة الى الوحـــدة العربية » هى أبرز المعارك السياسية خلال ما بين الحربين ، فقـــد حرص الاستعمار على القضاء على الفكرة والحيلولة دون قيامها وذلك باقامة النظم الاقليمية واذاعة الدعوات الانفصالية المختلفة . وقد كانت «البلاد العربية» خلال الحرب تتطلع الى أن تصبح دولة قوية بعد انفصالها عن تركيا العثمانية ومؤازرتها للحلفاء على اساس وعود وعهود .

غير أن نهاية الحرب العالمية الأولى كشـــفت عن مؤامرة كبرى ذات شقين :

— تقسيم البلاد العربية الى أقطار تحت الانتداب الفرنسى والبريطانى بمقتضى معاهدة (سايكس بيكو) .

— اعلان تصريح بلفور بقيام وطن قومى لليهود فى فلسطين ولم تلبث هـــذه الخطة أن قضـــت على الدولة الهاشمية فى الحجاز وسيطرة السعوديين على الحجاز . ثم قيام عرشين هاشميين فى العراق لفيصل وفى الأردن لعبد الله .

وقد حرص الاســـتعمار الانجليزى أن يحجب مصر عن « دعوة القومية العـــربية » التى كانت ســـوريا هى مقرها الأصلى وموئلها حيث قدمت شهدائها وضحاياها .

وكانت مصر قد تخلصت من سيطرة حكم العثمانيين منذ سقطت تحت الاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢ وبذلك لم تشهد المعركة التى خاضتها الشام (بأجزائها الثلاثة : سوريا ولبنان وفلسطين) والعراق والتى كانت المصـــدر الأساسى لانفصال العرب عن تركيا .

وفى مؤتمر الصلح رفض سعد زغلول أن يندمج مع العرب بزعامة فيصل فى سبيل الوصول الى حق « تقرير المصير » وقال عن العرب انهم أصفار وان قضيته مصرية وليست عربية ، وجرى عزل مصر عن العروبة والتركيز على انهـــا صاحبة المجد الفرعونى القديم ، وانهـــا أم الحضارات العالمية وأن لها مركزا ممتازا بالنسبة للدول العربية : وجرى اتهـــام حملة لواء الوحدة العربية بأنهم أعوان الاستعمار البريطانى الذى تحاربه مصر ، ويقول المازنى ان فشل ثورة ١٩١٩ يرجع الى اننا أحطنا قوميتنا بمثل سور الصين وان من خطل الراى ان تنفرد كل واحدة من الأمم العربية بسعيها ، وكان سعد زغلول أحد الرجال الذين اعدهم الاستعمار ليحملوا لواء الزعامة بعد الحرب العالمية الأولى وقد وصف الانجليز بأنهم خصوم شرفاء معقولون .

ومن الطبيعى أن مثل هذا الاتجاه من شأنه أن يحول دون قيام رابطة بين مصر والدول العربية فى سبيل الدعوة القومية .

وقد ظلت مصر مركزا للدعوة الى القومية العربية ، كانت ملاذ كل المجاهدين الذين اضطهدوا فى أقطارهم ، وكانت قضية فلسطين فى أول الثلاثينيـــات أول عامل من عوامل الترابط والدعوة الى الوحدة ، وقد سجل مؤتمر القدس (ديسمبر ١٩٣١) أن البلدان العربية وحـــدة لا يتجزأ ولا تسلم الأمة العربية ابدا بتجزئتها وقد اشترك فى المؤتمـــر مراكش والجزائر وتونس وطرابلس الغرب ومصر وسورية وفلسطين والعراق والجزيرة العربية .

وكانت مصر فى خلال هذه الفترة معقد أمل الدول العربية لتتزعم هذه الحركة .

وقد تطورت فـــكرة القومية المصرية فى مصر حتى وصفها ساطع الحصرى عام ١٩٣٦ بأنها « حالة تخمر اجتماعى عميق يدفعها نحو الفكرة العربية بقوة شديدة ويجعلها تشعر بواجبها الطبيعى » .

وقد كان الاستعمارين البريطاني والفرنسي يخشيان سيطرة مصر على دعوة القومية العربية نظرا لاتجاه قلوب العرب اليها كدولة كبرى ، ولذلك عمد الغزو الثقافى الى خلق عديد من التيارات والدعوات فيها ليحول ذلك دون اتجاهها نحو هدف واحد . وكان أبرز هذه الاتجاهات : الاتجاه النيلى والاتجاه الاسلامى .

وقد وصفت مصر بأنها البلد الذى زودته الطبيعة بكل الصفات والمزايا التى تحتم عليها أن تقوم بواجب الزعامة والقيادة فى انهاض القومية العربية لأنها تقع — كما قال ساطع الحصرى — فى مركز البلاد العربية بين القسمين الأفريقى والآسيوى كما انها تكون اكبر كتلة من الكتل التى انتسم اليها العالم العربى بحكم السياسة والظروف وان هذه الكتلةقد أخذت خطا أوفر من الحضارة العالية الحديثة .

* * *

ادارة الاستعمار

وقد رسم الاستعمار البريطانى والفرنسى خطة تاكيد التجزئة والحدود الوهمية للقضاء على وحدة الأمة العربية . وكان لها فى تنفيذ هذه الخطة أعوان وعملاء ، أعوان من دهاقنة الاستعمار والسياسة أمثال جلوب وفيلبى ولورنس وعملاء أمثال سعد زغلول وفيصل وعبد الله ونورى السعيد والجلاوى وعن طريق هؤلاء وهؤلاء وقف الاستعمار فى وجه الوحدة العربية .

* * *

الهاشميون

رسم تشرشل فى مؤتمر القاهرة (١٢ آزار ١٩٢١) خطة الحكم فى فلسطين والعراق والأردن : قال تشرشل للأمير عبد الله عند استيلاء فرنسا على سوريا : « لأن انجلترا محايدة فى القضية بين العرب والفرنسيين وهم حلفاؤها فانها تنصح بلزوم انصراف الأمير فيصل بن الحسين عن سورية وسفره الى العراق ليرشح نفسه لملك العراق . وان الحكومة الانجليزية لا تريد أن ترى على عرش العراق الا الشخص الذى تعتمد عليه وان طلاب عرش العراق كثيرون ومنهم ابن سعود وخزعل خان ، وأن على أن أوثر على العراق بأن يرضوا بالأمير فيصل » .

وقد نظم استفتاء شعبى عام لانتخاب الملك فيصل وذلك حتى يتخذ اختيار الملك شرعية واضحة ، وتلقى الأمير برقية من تشرشل تطلب اليه أن يصرح فى خطاب التتويج عن عزمه على تسليم مقاليد الحكم الفعلى الى يد المتعمد البريطانى ونظمت الاستفتاء الأنسة بل وصحب (كور نواليس) فيصلا الى العراق ممثلا لبريطانيا وصحبت الكابتن بل الملك فيصل الى كل مكان تقدمه للقبائلوتهيىء المآدب ، واعتقلت بريطانيا المنافسللعرش وارسلته الى جزيرة سيلان واعتقل كل من وقف فى وجه فيصل . واهتمت بريطانيا بالاقطاعيين وارسلت أبنائهم الى بريطانيا . وكانت تخلق العقبات لفيصل وتشعره بأن عرشه معرض للضياع اذا تخلف عنها .

وقد أيد فيصل وعد بلفور وقال : « نحن العرب لا سيما المتعلمين منا ننظر الى الحركة الصهيونية باعمق العطف . وسوف نقدم لليهود أعظم ترحيب قلبى فى الحضور الى البلاد . وقد كانت لنا ولاتزال أوثق العلاقات مع زعماء حركتكم وخاصة الدكتور وايزمان ، واننا نعمل سويا لبعث وانشاء الشرق الأدنى ، أن حركتنا تكمل الواحدة منهما الأخرى » ووقع فيصل ١٩١٨ على بيان باللغة الانجليزية بوصفه رئيسا للعرب اعترف فيه بوعد بلفور وبالهجرة اليهودية الى فلسطين واظهر عطفه على فكرة الوطن القومى وتم اتفاق فيصل ووايزمان على : أن اضمن وسيلة لتحقيق أمانيهم القومية هى التعاون لترقية الدولة العربية وفلسطين .

وقد واجه فيصل عنف الحركة الوطنية فى العراق وحاول أن يوازن بين رغبات بريطانيا وبين القومية العربية فى العراق وكونت بريطانيا فى العراق أعوانا وعملاء ، وكانت عبارة أذناب الاستعمار والعملاء هى : الواقعية ومسايرة الظروف .

* * *

عبد الله

أما الأمير عبد الله فقد استولى على احدى قطارات السكة الحديد الصاعدة من الحجاز الى الشمال ، وحين نفد الوقود من القطار ، كان عبد الله يتوقف — كما يروى الكاتب جيمس موريس — وينتزع أعمدة التلغرافات الخشبية ويضعها فى القاطرة ويشعل فيها النار ، واستقبله كيركبرايد على الحدود وبقى معه حاكما باسم بريطانيا

ومستشارا للملك ۳۰ سنة وهو نفس الأسلوب الذى اصطنعته بريطانيا مع فيصل .

طلب الانجليز الى عبد الله أن يقبل عرش الأردن ، ووعدوه بعرش سوريا وكان يؤمن أن مستقبل العرب ووحدتهم تحت ظل الهاشميين وفى ولاء لبريطانيا العظمى وهو يؤمن بأن السيدة الوحيدة التى يمكن ان يقبل يدها هى مارى ملكة انجلترا .

وقد وصف الملك عبد الله موقفه من الانجليز (مذكراته) وقال ونستون تشرشل هو سعد بريطانيا وحظها ورجلها الفذ فى العصر الأخير « ومستر تشرشل هو الذى حضنى على أن اسعى لأخى فيصل فى ان يكون ملكا على العراق فأحل فى شرق الأردن واعمل بالحسنى لاستعادة وحدة سوريا وهو الذى سعى كل السعى فى أن يحل الوئام محل الخصام بين الوالد وابن السعود»

ودعا عبد الله العرب الى صداقة بريطانيا « ايها العرب اعلموا ان فى مصاحبة انجلترا وجوب الاستعداد ، وفى مخالفتها ما عجزت عنه الأمم الكبار وحاذروا فان انجلترا لا تقيم لأحد وزنا ان لم يكن كفؤا وانجلترا لاتبنى سياستها على العاطفة ، كونوا اقوياء حذرين تكن معكم بريطانيا وتوليكم اعتمادها » ويقول جلوب أن عبد الله كان يعتقد أن التحالف مع بريطانيا هو اسلم وأمن وسيلة لتأمين سلامة بلاده .

* * *

وقد عمل عبد الله مع ملوك العرب على ايقاف ثورة فلسطين ١٩٣٦ بعد أن بهرت العالم خلال ستة اشهر .

وكان لبريطانيا فى الوطن العربى اعوان : هم لورنس وفيلبى وجلوب وقد اثارت بأعوانها الخلاف بين الأسر المالكية الحاكمة فكان كل منهم فى صف ملك ، كان فيلبى يؤمن بصداقة عبد العزيز سعود لبريطانيا . وكان له دوره التاريخى فى ازكاء الحرب الأهلية بين السعوديين والهاشميين .

وكان جلوب هو نصير الهاشميين وصانع قوة البادية لحساب بريطانيا فى الأردن والتى قامت بدور خطير فى دحر ثورة رشيد الكيلانى ومعركة فلسطين من بعد وقد عمل جلوب على ايقاع الشقاق بين القبائل العراقية والسعودية .

* * *

العملاء

وكان للاستعمار الفرنسى اعوانه فى المغرب ، كان هناك الجلاوى ذلك الاقطاعى العظيم الذى كان اكبر منتج للزيتون والغنم والمتحكم فى رقاب القبائل كما وصفه الكاتب الفرنسى (رينيه بابان) والذى قال عنه انه أصبح بفضل مدافع الفرنسيين وطائراته سيد الأطلنطى دون منازع وأنه هو الذى قام بالأعمال الرهيبة والمآسى المخجلة التى تقضى على جميع الانتفاضات الوطنية .

وفى العراق قام نورى السعيد بالعمل ضد القومية العربية وقاوم دعوة العراق للقومية العربية ودعا الى (العراق للعراق) .

وقد وصفه بول جونسون بأنه آخر الجيل القديم من السياسيين العرب الذين استخدمتهم بريطانيا اداة تبطش بها وتقوم على احتلال الشرق الأوسط .

وقال وايزمان فى مذكراته : أن نورى السعيد وسطته الحكومة البريطانية رسميا لمفاوضة الهيئة العربية العليا بفلسطين لتهدئة اضطرابات ابريل ١٩٣٦ وقال أن العراق يمثله نورى السعيد كان مستعدا لقبول الوطن القومى اليهودى مع بعض الضمانات وقد هيمن نورى السعيد على مصائر العراق ٣٦ سنة وكان فاضل الجمالى عميلا آخر للاستعمار فى العراق .

وقد كانت دعوة حكام البلادالعربيةعملاء الاستعمار هى « اقرار التجزئة وتنشئة الجيل الجديد على الاقليمية الضيقة ، وتأكيد الكيانات السياسية التى أوجدها الاستعمار ومحاولة جعلها كيانات مقدسة دائمة . واخذ انظمة الحكم من الغرب بالرغم من عدم ملائمتها » .

* * *

معركة مقاومة التجزئة

وكان اقامة وطن قومى لليهود فى قلب الوطن العربى هو أخطر عمل وجه ضد القومية العربية وفصل العرب فى أفريقيا عن العرب فى آسيا ، وقد تولت بريطانيا هذا العمل وقاومت من أجله كل انتفاضات القومية العربية فى فلسطين التى قاسى اهلها استعمارين : الاستعمار البريطانى والاستعمار الصهيونى .

وكان ملوك العرب سلاحا قويا فى يد بريطانيا

للقضاء على ثورة فلسطين وخداعها ، غير أن فلسطين كانت هى بؤرة القومية العربية والالتقاء الحقيقى بين الأجزاء العربية التى حاول الاستعمار فصلها ، وفى ظل هذه الحركة عادت مصر الى مكانها فى الصف العربى .

وفى خلال هذه الفترة اندلعت ثورات متعددة فى الوطن العربى ، كانت فى مجموعها تطالب بالحرية والاستقلال، ولكنها كانت ترنوا من وراء الاستقلال الى ما هو أبعد من ذلك وهو الالتقاء مرة أخرى فى وحدة من أى نوع أو هو ما يوصف بعودة الأجزاء الى وضعها الطبيعى .

وقد ارتفعت أصوات : محمد الخضر حسين وعبد العزيز الثعالبى وهلال القاسى وعبد الحميد بن باديس وأمين الريحانى وشكيب أرسلان وعبد الرحمن عزام وساطع الحصرى والدكتور شهبندر والكاظمى والشبيبى والزهاوى والرصافى تدعو الى الوحدة والتجمع

وكانت مؤامرة « تهويد » فلسطين مدعاة لأن يبحر أمين الريحانى من أمريكا الى الوطن العربى ليلتقى بالأمراء والملوك ويسيح فى قلب الجزيرة العربية باحثا وراء الوحدة وهو ينادى « انى وان كان لبنان وطنى الصغير وسوريا وطنى الكبير فانى أنتسب الى الأمة العربية وطنى الأكبر .. وانى وأن كانت المسيحية دين ابائى وأجدادى ، فانى أدين بدين كل من قال بالوحدة العربية وتجديد مجد العرب » وجرى العمل فى كل مكان فى سبيل تحطيم الحواجز التى كان يحرسها الاستعمار ويعززها وما كادت الأقطار العربية تتحرر وتحصل على الاستقلال حتى بدأت بالعمل على تغريب المناهج الدراسية . غير أن عوامل المقاومة ما لبثت أن برزت ، قامت قوة عربية فعالة فى الجيش العراقى ، وغير كثير من الكتاب آرائهم فى الاقليمية والتجزئة ، ومن هؤلاء محمود عزمى الذى اضطر بعد زيارته لبعض اقطار البلاد العربية أن يعلن أن الرابطة العربية هى آمن الروابط التى يصح أن تقوم عليها مساعينا ، بل أنها الرابطة الوحيدة التى يجب أن نستند اليها فى تطورنا المحتوم ، ومعنى الرابطة العربية انها تلك التى تستند الى حوادث التاريخ التى وحدت بين نوع التفكير ونوع الحياة وأساليب الحكم وقواعد الاقتصاد فى تلك الكتلة المتصلة من المحيط الأطلنطى الى الخليج الفارسى والثقافة والحضارة والمطمح الأعلى انما هى العناصر الفعالة فى توحيد الاتجاه . وهى انما تقوم على واقع جغرافى وعلى واقع اجتماعى يؤيدهما واقع روحى عظيم » .

وبدأت معركة الاستعمار فى الغزو الثقافى فى سبيل دعم التجزئة تضعف ، فالحفريات والبحث عن الآثار القديمة وكشف حضارات البابليين والأشوريين والكلدانيين والحبسيين والفراعنة لم تعد لها تلك الرنة الأولى ، بل أخذت ترسم صورة ماض عظيم لأمة عربية عظيمة ، وظهرت النظريات التى تقول ان كل الموجات التى اندفعت الى العالم العربى واقامت معظم هذه الحضارات انما خرجت من جزيرة العرب وفى مقدمتها : الفرعونية والفينيقية ، وتشكك الناس فى الكتب التى الفت فى البلاد العربية لتربط هذه الأفكار بالماضى القديم أو تعزز التجزئة ، ولم تفلح نظرية الأدب المصرى والأدب السورى والأدب العراقى وفشلت نظرية عزل الأدب عن قضية الحرية والمقاومة والتجمع والوحدة .

وفى العراق تحطمت نظرية الأشورية ، وعجز الاستعمار عن أن يفرق بين العرب والأكراد على أساس دعواه الباطلة بأن العراق ليس شعبا واحدا .

وبالرغم من أن فرنسا عزلت تونس والجزائر ومراكش عن العالم العربى عزلا تاما فان عددا كبيرا من رجاله اقتحموا الأسوار الى مصر وسوريا والحجاز ورفعوا صوتهم وفضحوا أساليب الاستعمار الفرنسى وانضمت جموع من المثقفين الى معاهد الشرق العربى .

وكان عبد العزيز الثعالبى صوتا حيا مدويا ، فهو أول من دعا عام ١٩٣٤ الى قيام ثقافة عربية خالصة مستقلة عن الفكر الغربى على أساس مقوماتنا وتراثنا ولا يمنع ذلك من أن نقتبس ما نراه صالحا من الثقافة الغربية .

* * *

وجاء الى الأزهر كثيرون من ليبيا والمغرب كله ، وتنادت البلاد العربية فى كل مكان عند أى حدث أو ازمة فى احداها ، ووصل صوت الرصافى الى تونس وصوت المنفلوطى الى ليبيا وصوت المغرب الى فلسطين .

وقام عبد الحميد بن باديس واخوانه بأضخم عمل فى تاريخ الفكر العربى المعاصر فى المغرب فقد أنشأ ثلاثمائة مدرسة فى مساجد الجزائر فى مدنها وقراها ودساكرها تعلم القرآن واللغة العربية وتقاوم خطة فرنسا فى القضاء على العربية والأسلام .

وهو داعية من دعاة الوحدة العربية ومن ذلك قوله « ان لنا وراء هذا الوطن الخاص أوطانا أخرى عزيزة علينا وهى منا على بال فيها تعمل لوطننا الخاص » .

وانهارت الحوائط العالية للوطنية الضيقة التى كان يحميها دعاة التغريب فى العالم العربى وكان ، الدكتور محمد حسين هيكل فى مقدمة من كشف خطة التغريب قال (السياسة الأسبوعية — ١٤ أكتوبر ١٩٣٢) لما عاد الشبان الذين سافروا الى أوربا صدمتهم ظاهرتان عجيبتان أثارتا دهشتهم لتناقضها مع أصول الحضارة العربية تناقضا بينا (الأول) هذه الحرب المنظمة التى يقوم بها الاستعمار الأوربى لحرية العقل (ثانيا) انتشار المبشرين الغربيين فى كل مكان من المدن الكبيرة والصغيرة بل فى القرى يدعون الى المسيحية .

وبالرغم من هاتين الظاهرتين ظل هؤلاء الشبان يدعون الى الحضارة الأوربية مستندة الى أصلها الصحيح : أى حرية البحث ونزاهة العلم ، ولكن مرور الزمن فتح عيونهم على حقيقة أخرى لم تكن اقل اثارة لدهشتهم فما يصدر الغرب للشرق من آثار حضارته قد وقف أو كاد عند أسوأ ثمرات هذه الحضارة ، وعندما كان يؤتى بلاد الغرب من الربح ما يمده بأسلوب الرخاء والترف ، فتجارة الرقيق الأبيض والكحول ومواد الزينة واللهو وجوقات الهذر المسرحى كانت هى أول ما يصدر الناظر لآثار الغرب فى الشرق ، ولم يقدم الغرب الى جانب هذا من صالح ثمرات حضارته ما يستر سوآتها هذه بل وقف حائلا دون انتشار العلم الصحيح ثم بدت حقيقة أشد من هذه الحقيقة مرارة وايلاما ، تلك أن الغرب الذى تزعم دولة انه تحرر من قيود التعصب الدينى ما زال يذكر الحروب الصليبية التى نشبت خلال قرون بين المسيحية والاسلام ، وأن كلمة اللورد اللنبى يوم استولى على القدس وقوله ان الحروب الصليبية قد انتهت كانت تعبر عن معنى يجول بخاطر الدول الأوربية جميعا » ا هـ .

وهكذا انكشفت خدعة الغرب لخبرة ربائبه وتلاميذه وخدام دعوته التغريبية عندما انكشفت أكاذيب الاستعمار فى دعوته الى تمدين الشعوب وكذب شعاراته : الحرية والاخاء والمساواه ، ظهر أنه كان وراء كل فتنة وثورة ومؤامرة ، وانه حرص القبائل والأجراء واثار الخلافات القديمة بين المذاهب والأديان وشجع الخلافات الطائفة والعنصرية وخلق الأحزاب لافساح جهة الصراع والتجزئة وادعى أنه يحمى الأقليات وسيطر على الصحافة ووجهها لغاياته وأفسد حركة تحرير المرأة وحولها عن طريقها الحقيقى .

ولكن كل هذه المؤامرة الضخمة التى قصد بها الى تعزيز « التجزئة » وتأكيد الحدود المصطنعة ، فسدت ، عندئذ اضطر الاستعمار الى مجاراه العرب فى دعواة الى القومية العربية والوحدة آملا ان يستغلها وأن يسيطر بها على الأمة العربية وأن يدفع أعوانه وعملائه لقيادة هذه الحركة ، وأول ما يهدف اليه أن ينفث من الصدور ايمانها الذى يدفع الى الحركة ليتحول الى بخار يذهب فى الهواء ، وهو ما حدث فى نهاية هذه المرحلة وخلال الحرب العالمية الثانية .

* * *

— ٢ —

الـــدين

لم يتعرض فرع من فروع الفكر العربى للغزو الثقافى كما تعرض « الدين » ، ذلك لأن الدين كان ولا يزال فى الوطن العربى وفى الشرق دعامة هامة من دعامات الثقافة ومقوما من مقومات الأمة العربية . وعنصرا حيا ايجابيا غير منفصل من عناصر السياسة والاجتماع والاقتصاد .

ولقد كان الاستعمار يعرف خطر « الدين » وأثره فى الحياة العربية ومدى أثره فى الايمان بالحرية ومقاومة الغاصب وانماء القوة وحراسة الثغور . ولما كانت هذه العوامل من أخطر الأخطار على بقاء الاستعمار فقد كانت خطته فى القضاء على مصدر هذه القوة : وهو الدين واللغة والتاريخ . وكان الدين أهمها .

وقد أعد خطته فى مقاومة الدين على نحو دقيق خفى يسرى فى معالم الفكر والحياة سريانا بطيئا حاسما فى المفاهيم المختلفة . وقد امتدت هذه الخطة فشملت الثقافة والصحافة والتعليم والترجمة والبعثات الأجنبية ومفاهيم الاجتماع وتحرير المرأة ، ومن أجل هذا انطلقت دعوات الاستشراق والتبشير وظهرت مجموعات من دعاة التغريب ولما كان دين الغالبية فى الوطن العربى هو الاسلام فقد كانت الحملة كلها قد ركزت عليه باعتباره مصدر الثقافة والفكر والتراث المشترك .

ولقد استهدف الغزو الثقافى الى محاربة الاسلام القضاء على روحه القوية فى مجال الحياة والفكر حتى تنطوى قوته وفعاليته فى مجال مقاومة الاستعمار .

كان التعصب الدينى واضحا فى هذه الحرب ، التى صدرت عن حقد بالغ وخصومة عنيفة . ولم تصطنع فى أى جانب من جوانبها « المنهج العلمى » الذى ابتدعه الغرب وأقام على أساسه أبحاثه ونتائجه .

* * *

وكان ابرز الأخطاء التى طبقها الغرب فى الحديث عن « الاسلام » انه لم يحاول ان يفرق بين المسيحية والاسلام فى مفاهيمها ومقوماتها .

ولذلك حمل فى الحرب على الاسلام نفس المعاول التى حملها فى محاربة المسيحية إبان عصر النهضة بغية اقصائها عن الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية وبعد أن فسدت أساليب الكنيسة وظهرت أخطاء .. وبعد أن فسدت أساليب الكنيسة وظهرت اخطاء رجال الدين فى تسلطهم واستبدادهم وجمودهم ووقوفهم فى وجهة الحرية والنهضة وغلوهم فى التعصب وبعدهم عن التطور .

ولقد كان الاسلام مختلفا أشد الاختلاف عن المسيحية فى هذه الناحية ، فان الاسلام لم يكن دينا فحسب ولكنه دين ونظام اجتماعى واقتصادى وسياسى كامل ، ولقد كان الاسلام متطورا دائما وقادرا على الاستجابة للحضارة وللزمن وللبيئات المختلفة ، وقد دخل هذه التجربة من قبل ولم يكن للاسلام كهنوت له صلة السيطرة والتحكم فى الناس والوساطة بينهم وبين الخالق

ولذلك فان المقارنة بين المسيحية والاسلام من هذه الناحية باطلة ، كما أن محاولة اخضاع الاسلام كدين ونظام لما خضعت له المسيحية — التى هى دين فحسب — ليس من الحق فى شىء .

ولكن التعصب وشهوة الحقد الأعمى والرغبة فى القضاء على روح الدين وتنحية الاسلام عن نفوذه فى الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية حالت بين دعاة التغريب والغزو الثقافى وبين كشف هذه الحقائق . ولم يستطع اتباع المستشرقين والمبشرين من مفكرينا التعرف الى هذه الفوارق لأنهم اتصلوا بالفكر الغربى قبل أن يستكملوا مفاهيمهم فى الفكر الاسلامى ومقوماته .

واذا كان للاسلام فى هذه الفترة التى بدأ فيها الغزو الثقافى مغمز فانما كان فى تطبيقه لا فى مقوماته وأصوله ، هذه المقومات والأصول التى ظلت طوال القرون ضياءا هاديا وقوة حيه ، فان انصراف المسلمين عن مفاهيم الاسلام وضعف الحكومات والتخلف فى ميادين الحرب والسياسة ، والانصراف عن القوة والمقاومة ، قد احل عصرا من الضعف والركود والتواكل والفرقعة وفرض سلطان الحكام المستبدين والعلماء الجامدين الذين اغلقوا باب الاجتهاد ووقفوا عند التقليد مما خلق غشاءا دقيقا من الأوهام والبدع والخرافات التى حاولت أن تحجب جوهر الاسلام ونقاءه ، وتحجزه وراء طبقة كثيفة من هذه الزيوف .

غير انه لم يخل من مصلح ينبرى ليكشف هذه الزيوف ويرفع هذا الغشاء ويدعو الى الاسلام المصفى ، ويحاول أن يعود بالناس الى بساطة الاسلام الأول ويسره وحقيقته الكامنة المختفية .

وقد كانت دعوة محمد بن عبد الوهاب فى أواخر القرن السابع عشر الميلادى هى نقطة الانطلاق فى تحرير الاسلام من زيوف الجمود الذى انتهى الى الضعف والفساد بينما بدات أوربا تستيقظ وتنقل آثار العرب وتترجمها وتكون بدات أوربا تستيقظ وتنقل آثار العرب وتترجمها وتكون حضارتها وثقافتها الجديدة وتتنبه الى دورها فى القضاء على الاسلام والسيطرة على الشرق فى محاولة للانتقام من هزيمة الحروب الصليبية وخشية من اتساع نطاق الاسلام وتطويقه لأوربا عن طريق تركيا العثمانية التى وصلت الى أسوار « فيينا » وبعد أن توقفت من الجانب الآخر عن طريق الأندلس عند مصب نهر اللوار .

ولقد كانت خطة الغرب فى السيطرة على العالم العربى والاسلامى تهدف أساسا فى القضاء على الاسلام :

١ — كقوة حرة قوية لا تقبل الذل والاحتلال .
٢ — القضاء على جوهر الدين فى مفاهيم الجهاد والمقاومة والحرية .
٣ — اقصاء الاسلام عن الهيئة السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

وقد اتجهت حملات الغزو الثقافى الى وجهتين :

١ — الدين بصفة عامة .
٢ — الاسلام بصفة خاصة .

ولما كانت الحملات موجهة من الفكر الغربى المسيحى فان كل الحملات التى وجهت الى « الدين » كانت مقصودا بها الاسلام أساسا .

وقد تمثلت هذه الحملات على الدين فى أنه ظاهرة : من الظواهر الاجتماعية لم ينزل من السماء ولم يهبط به وحى وانما خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها .

وأن الديانات قيود وأغلال التزمها الناس بدعوى أنها منزلة خالدة ، وأن وضع الدين فى جانب العقل يقضى بهدمه ، وأن الدين لا يخلق الانسان . ولكن الانسان هو الذى صاغ الدين ، وليس الدين الا صدى الألم الذى يتردد فى نفوس المظلومين وأن الدين حادث « عمرانى » له تدرجه (التاريخى) وليس له صلة بالاقتصاد .

الحملة على الإسلام

وقد واجه الاسلام حملات غزو ذات جوانب متعددة منها :

١ — الحملة على مفاهيم الاسلام وكتابه ورسوله وتاريخه .

٢ — الغزو عن طريق بعث اديان جديدة كالبابية والبهائية .

٣ — الغزو عن طريق تعميق تيار الالحاد فى العالم الاسلامى .

١ — وكانت الحملة التى قادها المستشرقون والمبشرون منذ ١٨٣٠ قد حاولت أن توهم بنهاية الاسلام، ففى أوائل القرن العشرين كان هنـــاك رأى يرى أن الاســـلام « لم يبق من عمره الا قرنان » وهى نبوءة السياسى المؤرخ « برايس » ، الذى قال ان احتكاك الاسلام بالحضارة سيقضى عليه ويؤذن بنهايته .

وأن الاسلام سيذهب بذهاب الدولة العثمانية (الدكتور بزون / ك / العرب والافريقيين) .

أو أن الاسلام قد يبقى اذا ترك لنفسه ، أما اذا احتك بالتمدن الحديث فانه يموت لا محالة (المستشرق لنز بعد سياحته فى تومبكتو) .

وفى الحالات الثلاث التى تنبأ بها المستشرقون والمبشرون الغربيون لم ينته الاسلام وكذبت نبوءاتهم ، ولم يذهب الاسلام نتيجة لذهاب الدولة العثمانية ولا يعد احتكاكه بالعلم والمدنية ، ولم يصدق ايضا ما ادعاه غيرهم من أن انحطاط المسلمين يرجع الى أسباب متصلة بالاسلام نفســـه لعدم موافقته لروح التمدن — كما ذكر المستشرق بيشون الألمانى ١٨٨١ فى كلامه عن تأثير الإسلام فى حياة أصحابه — كما حاول كتاب الغرب دائما تصوير المسلمين بصورة العدد القليل وذلك بايراد احصائيات مضللة :

ومع ذلك فقد عجزوا عن اخفـاء الحقائق . فقد أشار المستشرق (مرجليوث) فى بحث له عن مستقبل الاسلام (الهلال مجلد ١٦ — ١٩٠٦) أن الاسلام غالب فى أفريقيا وشائع فى آسيا ومعروف فى أوربا وأمريكا . ولم يظهر ما يدل على توقف انتشاره وخصوصا فى القرن الماضى لأنه نهض نهضة جديدة .

وأورد قول المبشر « شاتليه » من أن الاسلام هو الدين الوحيد الذى يرتقى الآن وينتشر فى الهند والصين. اما الأديان الأخرى فانها آخذة فى الانحلال كما اورد ماذكر احد كبار المستشرقين من أن الاسلام سيعم الهند كلهـا وقال أن جماعة كبيرة من الهنود يعتنقون الاسلام ليتحرروا من قيود الديانة البرهمية وكهانها . وأن الاسلام قد انتشر مؤخرا فى بلاد الصين حتى أوجس أهل أوربا من انتشاره مخافة أن يصير ديانة الملكة فيحمل أهلهـا على الممالك النصرانية فى أوربا مثل الحملات الصليبية فى العصور المظلمة . وأشار الى أن الاسلام ينتشر فى الهند والصين ومستعمرات هولندا بالموعظة الحسنة .

وأشار « مرجليوث » الى أن الاسلام انتشر فى افريقيا بالحسنى بعد أن انتهى عهد الدراويش ، وقد كان الظن أن يتوقف بعد ذهاب الحركة المهدية ، والحقيقة انه لا يزال آخذا فى الانتشار .

وكذب « مرجليوث » ما رواه زملائه المستشرقين من ان انحطاط المسلمين يرجع الى اسباب متصلة بالأسلام وقال : انى أرى المسلمين تحت سلطة المسيحيين أرقى من المسيحيين عقلا وادبا ، واستشهد بقول المستشرق « روبل » الذى ذكر بعد سياحة للحبشة ١٨٣٨ أن الأحباش المسلمين أقدر على العمل واسمى مداركا واكثر تهذيبا وعلما من الأحباش المسيحيين .

وأشار « مرجليوث » الى ما ذكره الرحالة ستيفن هيدن بعد زيارته لآسيا من أن أحد المبشرين قضى فى عمله عشر سنوات فلم يستطع تحويل مسلم واحد الى النصرانية وأن عشرات من زملائه عجزوا مثله وأن دعاة النصرانية قد

ينجحون فى البلاد التى لم يكن للمسلمين فيها دولة فى عصر الاسلام » ا . هـ .

* * *

— ٣ —

واذا كان مرجليوث قد حاول انصاف الاسلام ، فان الأب لامنس اليسوعى (المشرق : م ٢٨ (١٩٣٠) ص ٧٣٨) قد ساقه التعصب الى كثير من المغالطات .

وان كان قد ذكر أن انتهاء (الخلافة الاسلامية) بعد مرور ست سنوات لم يحدث شيئا من العقبات داخل الاسلام وخارجه وذلك فى قوله :

« وهكذا بعد ان مضى ست سنوات على القرار الكمالى القاضى على الخلافة فى آزار ١٩٢٤ نرى الاسلام يعيش وهو لا يكاد يشعر باضمحلال تلك المؤسسة العليا وقد ركز (لامنس) هجومه على الاسلام فى » :

* تعسر اتفاق السنيين لأن بينهم كثير من المحافظين التقليديين الذين يحلمون باعادة الخلافة القديمة .

* أن اليقظة القومية قد أحدثت توسعا فى الفوارق بين المسلمين .

* ان الأتراك قد انصرفوا عن الاسلام كلية . وعن أبجدية العربية وكذلك الفرس واتجه المصريون الى الفرعونية .

* أن الأغلبية السنية فى العالم الاسلامى تنطوى على فرق من الأتراك العلمانيين ومن المسلمين الشيوعيين المقيمين فى الجمهوريات السوفييتية . والعصريين المتبشرين فى مصر والهند .

* الخلاف بين السنة والشيعة .

والواقع ان تقرير (لامنس) للاسلام على هذا النحو انما يقصد فيه تصوير الاسلام بصورة التفسخ والتجزؤ وانقضاء وحدته وقوته ، وهو غير صحيح فان الخلاف بين المذاهب الاسلامية لم يكن فى الواقع الا خلافا أملته اهواء السياسة ثم حاول الاستعمار اثارته من جديد لاستغلاله فى تمزيق جبهة الاسلام الموحدة .

وأن المسلمون قد تنبهوا الى مؤامرات الاستعمار . وتلاقوا على مقاومته ، وعلى الشك فى مقومات الفكر الغربى القائمة على التعصب والهوى ، وآمنوا بضرورة التجمع والاتحاد فى سبيل دفع عدوانه ، وقد حقق الفكر الاسلامى تطورا واضحا فى هذا السبيل حطم كل ما وهمه الأب لامنس ومن وراءه .

وأن الفريق الذى أطلق على (لامنس) اسم العصريين قد تنبه مبكرا لخدعة الغرب ضد الاسلام ومدى الفارق البعيد بين شعارات الحضارة الغربية البراقة وواقعها الدامى المختفى تحت كلمات الحرية والآخاء والمساواة .

وقد صور (لامنس) نتائج مؤامرة الغزو الثقافى الموجهة ضد الاسلام حتى عام (١٩٣٠) وما حققته فى ميادين التعليم والأزهر وترجمة القرآن وتحرير المرأة فقال :

١ — أن التعليم القرآنى هو فى تأخر مستمر ومطرد حتى فى البلاد الاسلامية المستقلة . وأن أبرز مظهر لذلك هو تطور التعليم الرسمى ولا سيما فى المعاهد العالية والثانوية « فهو يتحرر شيئا فشيئا من تأثير الدين حتى يصبح لا دينيا محضا كما هى الحال فى تركيا » .

٢ — أن دعاة التطور العصرى قد مدوا أصابعهم فى داخل الأزهر فاغتنموا حاجته الى الاصلاح وتدخلوا فى ادارة الدروس وتعديل البرامج التى حررت مرات حتى غدا تأثير ذلك العقل العلمى على شفير هار ففقد فى عشرين سنة ثلاثة أخماس طلابه وهكذا القول فى مدرسة الزيتونة فى تونس . فاذا أضفنا الى هذا ، الروح العصرى السائد فى الجامعة المصرية الجديدة والمستمد مبادئه من النقد الأدبى فهمنا انه أبعد من أن تثبت الشبيبة الاسلامية فى مبادئها الدينية وعقائدها وأدركنا الصدمة القومية التى يعانيها اليوم الاسلام التقليدى .

٣ — محاولة تطبيق القرآن على ذوق العصر والأفكار العصرية ، والميول الظاهرة فى العالم الاسلامى للتخلص من الحرمات القرانية الشديدة فيما يختص بفائدة المال وآراء الائمة الأقدمين فى الادانة والربا .

٤ — فى العالم الاسلامى اليوم حركة نسوية ترمى الى نزع الحجاب واعتاق النساء وتحتج على استئثار الرجل وحده بحق الطلاق وعلى انتقاص حق المرأة بالارشاد والشهادة . وقد حدثت فى بلاد العرب وسوريا

والعراق والجزائر ولا سيما مراكش . وقد عقد مؤتمر المرأة فى دمشق واحتججن كلهن على الحجاب احتجاجات شديدة ولكن لم تكن منهن من تجرأت فرفعت زاوية من خمارها » .

ولا شك أن ما أورد الأب لامنس فى تقريره بعيد فى كثير من تفاصيله عن الحقائق الواقعة ، والواقع أن الاسلام قد استطاع أن يلائم بينه وبين الحضارة فى مختلف فروع الحياة .

ودعا الأب « لامنس » المسلمين أن ينهجوا نهج تركيا فى السير مع التيار العصرى واتخاذ المؤسسات الغربية بكاملها كما فعلت « بقصد محاربة أوربا بسلاحها نفسه » واشار الى أن الاسلام لا يمكنه الاستمرار فى عزلته والا كان عرضه للصدمة فالسقوط .

والواقع أن الاسلام لم يعتزل الحياة مطلقا وانه كان قادرا دائما على الالتقاء بالحضارة والتجاوب معها . وانه حاول دائما أن يلائم بين عقائده وقيمه وبين الحضارة الغربية وانه رفض أن يقبل منها ما يتعارض مع هذه القيم والعقائد .

وقد أعرب الأب لامنس بأن عدد المسلمين فى ازدياد متصل وانهم زادوا ٢٠ مليونا فى أربع سنوات (١٩٣٠) وأن سكان الجزائر زادوا فى مائة سنة خمس اضعاف منذ كانوا مليونا فاصبحوا خمسة ملايين وعزى زيادة عدد المسلمين من أنهم يقومون بنشر الدعاية لدينهم فيستميلون بعض جيرانهم من الزنوج فى أفريقية وابناء اللفوف السفلى فى الهند . وأنهم فى سبيل نشر الدعاية الاسلامية اسسوا مدارس خاصة يربى فيها المرسلون ويدرسون اللاهوت وطرق التمارين الجدلية والمناظرات الدينية وأن اشد هذه المدارس نشاطا مدرسة الشيعيين فى لكنهو بالهند ومدارس الأحمدية فى قاديان ولاهور بالهند ومدرسة دار الدعوة فى مصر .

* * *

(٣)

أما السر ريتشارد وود قنصل فى انجلترا فى تونس فقد رفع عام ١٨٧٨ تقريرا الى وزير خارجية بريطانيا بعد دراسة شاملة للاسلام والمسلمين خلال فترة عمله لدولته فى دمشق وتونس رد فيه على جميع ما وجه الغرب من اتهامات للاسلام وتصدى لدفع الاتهامات الخاصة :

بمعاملة أهل الذمة من المسيحيين ورفضهم للأخذ بأسباب الحضارة .

* * *

(معاملة اهل الذمة)

قال : من أوهام الناس أن الاسلام يمنع مساواة أهل الذمة بالمسلمين فيما لهم وما عليهم وينبو عن الأخذ بأسباب التقدم والحضارة لأنه لا يجيز انتشار المعارف والتحلى بالعلوم .

ورد هذه الأوهام الباطلة ، واكد أن الاسلام يرى أن الأخذ بأسباب التقدم لا ينافى أصول الشرع ، وأورد الأدلة على أن الاسلام يرى أن لأهل الذمة ما للمسلمين وعليهم ما عليهم « اذا ثبت أن غايتهم الوطنية موافقة لغاية المسلمين وانهم مثلهم فى ايثار مصلحة الوطن والخير العام ، وأن الاسلام يجيز استشارة أهل الذمة فيما يتعلق بالنظامات الدنيوية ولا يمنع استخدام النصارى واليهود واستند فى ذلك على أقوال الماوردى فى كتابه (أدب الدنيا والدين) واشار الى أن المتأخرين من سلاطين الاسلام استأثروا بالسلطة واستبدوا بالتصرف فخرجوا عن منهج الشرع الاسلامى حتى توهم الأغبار أن سبب هذا الخلل هو ضيق نطاق الشرع الاسلامى وأنه لايضمن لغير المسلمين حقوقهم » .

واكد أن الواقع يخالف هذا ، لأن الاسلام يحتم على الملك وسائر الحكام أن يفعلوا كل ما يدعو الى حسن توزيع العدل والانصاف فى الحكم والتجرد من شوائب الأغراض والحظوظ الشخصية .

* * *

(الاسلام والمدنية)

٢ — وعرض ريتشارد وود للزعم الغربى الذى يزعمه مؤلفو الأفرنج من أن المسلمين لا يتسنى لهم التقدم والارتقاء فى معاريج الحضارة ما داموا مقيدين بنصوص القرآن التى يقولون انها لا تلائم المعارف واكتساب الفنون .. وقال ان هذا وهم نشأ عن الجهل بمقاصد القرآن . ويكفى برهانا على بطلانه باريخ صدر الاسلام وعناية علماء العرب بالمعارف والفنون ودرسهم كتب الحكماء الأقدمين مثل أرسطو وابقراط واقليدس وبطليموس .

وقال : أن اكبر بواعث سوء الفهم هو انتشار الظن فى أوربا بأن الاسلام دين القوة والسيف وهذا الظن مخالف للواقع ولطبيعة الاسلام ولما جاء فى القرآن .

١ — وقاتلوا فىسبيل الله الذين يقاتلونكم ولاتعتدوا ان الله لا يحب المعتدين .

٢ — لاينهاكم الله عن الذين لميقاتلوكم فىالدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين » .

واشار الى أن الباحث المدقق فى أسباب الفتن التى سفكت منها الدماء فى الشرق يعلم أن الباعث الوحيد فى حدوثها هو أصبع السياسة الأجنبية التى تنتهز الفرص لابقاء نار الثورة بين ذوى الأحقاد . وقال ومن هذا القبيل واقعة الدروز الموارنة وواقعة الصقالية والبلغاريين فقد تبين أن الاعتداء انما يبتدىء من جانب النصارى (كان ريتشارد دور صاحب التقرير تنصلا لدولته فى دمشق عام ١٨٦٠ ابان الفتنة المشهورة) .

وقال انه لا يجوز الظن بأن المسلمين ينفرون من مجلس الشورى ويرونه تقليدا أوربيا .

* * *

— ٤ —

واعترف (جورج سارتون) الأستاذ بجامعة هارفارد بأن الإسلام من أصح النظم الدينية وأجملها على حد تعبيره « وهو عندنا أصح تلك النظم وأجملها على الاطلاق ، ولكن المسلمين اليوم كثيروا البعد عن حقيقة ما جاء به الاسلام » وردد عبارة الشيخ محمد عبده « الاسلام محجوب بالمسلمين » وقال : اننا اذا نظرنا الى الاسلام من خلال أعمال المسلمين لم تر تلك المبادىء جلية واضحة ، وأكد أن المسلمين يمكن أن يعودوا الى عظمتهم الماضية والى زعامة العالم السياسية والتعليمية كما كانوا من قبل . ولكن هذا لن يكون الى اذا عادوا أولا الى فهم حقيقة الحياة فى الاسلام والعلوم التى حث على الأخذ بها .

واشار (سارتون) الى أن الهزائم التى منى بها الاسلام لم تزعزع ثقة المسلمين بأنفسهم بل هى على العكس زادت من ثقتهم بأنفسهم .

ويتنبأ بأن المسلمين سيعودون الى قيادة العالم كرة اخرى « ذلك أن شعوب الشرق الاسلامى وقد قادت العالم فى مرحلتين طويلتين من مراحل التقدم الانسانى طوال ألفى سنة على الاقل قبل أيام اليونان ثم فى العصور الوسطى مدة أربعة قرون تقريبا فليس هناك ما يمنع تلك الشعوب من أن تقود العالم ثانية فى المستقبل القريب أو البعيد .

* * *

— ٥ —

وعرض المستشرق (هـ . ا . جب) لموقف الاسلام من الحضارة والغزو الثقافى ودعوة التغريب (الهلال — م ٤٧ ص ١٨٧٣) فأكد أنه رغم ما تسرب الى العالم الاسلامى من اتجاهات أوربا ونزعاتها وما أصاب جماعاته من الانحلال السياسى وما بينهما من التفاوت الفكرى ما زالت هناك رابطة وثيقة . نشأت من العقيدة والثقافة الدينية المشتركة وهى تؤلف بين المسلمين فى الشعور والرأى والمصلحة .

واشار جب الى أن المسلمين ما زالوا متمسكين بدينهم متشبثين بعقيدتهم مؤمنين أثبت الايمان بأن الاسلام خير الأديان . وأن الاسلام لازال حتى يومنا هذا (١٩٥٠) عقيدة دينية راسخة وقاعدة اجتماعية ثابتة ونظاما خلقيا وطيدا .

وعرض جب لتجربة الاسلام مع الحضارة الحديثة فقال : أن الاسلام استطاع أن يوفق بين الحضارة ونظمه وبذلك مر بأزمة الالحاد . وقال : أن الوحدة الاسلامية حقيقة قائمة تزداد على الأيام قوة وجلاء ودلل على ذلك بأنه ما يكاد يغشى ربع من ربوع الاسلام أى حادثة خطيرة حتى تذيعها الصحف فى أرجاء آسيا وافريقيا بأسلوب مثير عنيف فلا تلبث أن تتجاوب وتتلاقى

وقال : أن مقتل الشهيد عمر المختار كان له دوى وان أرجاء العالم الاسلامى من مراكش الى جاوه قد اضطربت له (كأنما قد مسها تيار كهربائى كاد يصعقها) واشار جيب الى دور الاسلام اليوم بالنسبة لمادية الحضارة وانهيارها المعنوى فقال : أنه ما يزال للاسلام رسالة يؤديها الى الانسانية جمعاء ، فهو يقف وسط الشرق والغرب . وقد أثبت أكثر مما أثبت أى نظام سواء مقدرته على التوفيق والتأليف بين الأجناس المختلفة «واذا لم يكن بد من وسيط يسوى ما بين الشرق والغرب من نزاع وخصام فهذا الوسيط هو الاسلام » ولم يفت جب أن يشير الى أن الاسلام من حيث هو « عقيدة دينية » لم يفقد الا قليلا بتأثير الغزو الغربى — ولكنه تنحى عن

عرشه من حيث هو قاعدة اجتماعية تسود الحياة وتوجهها ، وذلك بعد أن قامت الى جانبه قوى تحكم فى بعض الأحيان بما يناقض تعاليم الاسلام وأن الاسلام كله الى عهد قريب هو كل شيء فى حياة المسلم . وكانت حياته الاجتماعية واتجاهاته الفكرية مستمدة من الدين ومقترنة بالاسلام واشار الى ما بذله محمد عبده وتلاميذه من الجهود التى عملت على التوفيق بين تعاليم الاسلام نظمه دين مطالب الحياة الحديثة واساليبها » ا . هـ .

* * *

— ٧ —

وقد وجد الاسلام من كتاب الغرب بعض المنصفين الى جانب الكثرة الغالبة من خصومة المتعصبين من امثال : هنرى دى كاسترى وسيديو وجوستاف لوبون واسحق بطلر وواشنطن ارفنج ولو ثروب استوارد وتوماس كارليل وولز .

وفى مثل قول اللورد هدلى : الذى يرى أنه لو ندبت لجنة من الانجليز الأكفاء لفحص الدين الصالح لأن يتدين به العالم كله لأجمعوا على اختيار الاسلام .

أو قول الدكتور كرنسيتان سنوك هير جرونجيه (البلاغ الأسبوعى ٢٧ نوفمبر ١٩٢٩) بأن الاسلام لا يقاوم النصرانية ، لأن الاسلام فى المستقبل سيشكل نفسه حسب حاجات العصر الحديث . ولن يدع النصرانية تغلبه وتسلبه أبنائه الذين كسبهم من مئات الأجيال ، وقد طبعوا بطابعه وصاروا جزءا منه وهم يمثلونه فى سائر بقاع الأرض .

وهو يؤكد أن المسلمين سيستمرون فى دينهم مهما اتخذوا من الثقافة والمدنية الغربيين ، ويقول أنه فى الجامعات الكبرى نجد الكثيرين من المسلمين ولكن مجرى عقولهم لا يزال اسلاميا . وقال أنه كان يعرف الطالب المسلم من غير المسلم فى جامعته بمجرد الاطلاع على مبحثه الذى كتبه . اذ فى المسلمين ميلا قويا الى التمسك بدين آبائهم وتطبيقه على الحاجات المدنية .

ويشير المستشرق لوسين بوفا (الزهراء : شعبان ١٣٤٣ ص ٤٩٦ م ١) الى أن الاسلام يتفق مع مدنية زماننا الحاضر تمام الاتفاق . وأن التقدم الذى نشاهده فى الممالك الاسلامية منذ قرن دليل على أن الاسلام يسير مع المدنية جنبا الى جنب وأن الاسلام سيظل موجودا دائما » .

وأشار الى انحطاط العالم الاسلامى فقال : ليس الذنب فى اكثرها على المسلمين وانما هو نتيجة الحكم المطلق ، وجهل الحكومات الذى ادى الى انتشار الجهل ، واضطرار دول الاسلام الى خوض حروب كثيرة . والعجز عن توزيع العدل وسوء خطة الغربيين فى معاملة الشرقيين

* * *

الدين فى نظر العلم

وركز دعاة الغزو الثقافى والتغريب حملاتهم على جوانب متعددة فى الدين عامة والاسلام بصفة خاصة تنصب على أصول الاسلام . وقد وجه «هانوتو» الحملة على القدر والتوحيد ، وهاجم مستر سكوت الاسلام وادعى انه دين حرب دائم مع غير المؤمنين به — وقد كان كتابه عن الاسلام الملىء بالطاعن مما يدرس فى مدارس مصر (١٩١٥ وما بعدها) .

وركز « أرنست رينان » هجومه على التناقض بين الدين والعلم محاولا اثبات أنهما عدوان لدودان . وقد حاول علماء « المادية » فى القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر أن يؤكدوا أن عهد « الدين » قد انقضى . وأن بقاءه على الأرض مرتبط ببقاء السذاجة العامية . وقد كذبت الأحداث ادعائهم ، فان العلماء لم يلبثوا أن توصلوا الى وجود عالم روحانى وراء هذا العالم لا يمكن انكاره ، وأعلن ذلك فى المجتمع العلمى لما وراء علم النفس ١٩٢٠ ومؤتمر الأساقفة الانجليكان فى لا مبيت وانشأ كرسى لهذا العلم فى كل من جامعتى كمبروج واكسفورد .

وكف العلم عن غروره فى نهاية القرن التاسع عشر واعترف بأن لابد للمعرفة من وسائل أخرى غير وسائل الحس ووسائل التفكير وأنه لابد من « البصيرة » .

واستأنف العلماء مراجعة تصوف الهند واليونانيين والعبرانيين والسيحيين المليين للبحث عن أساس روحى للحضارة . وأعلن « أوجست كونت » الديانة الوضيعة وبذلك تحطمت نظرية (نهاية الدين) التى أعلنها دعاة المادية وكانوا يعتقدون أن العلم الحديث سيحل لهم كل شيء ويكشف لهم عن كل شيء ..

وجاء علمــاء يقولون أن مذهب « داروين » فرض وانه ليس حقيقة غير قابلة للنقص . وان الأساس الذى قامت عليه المذاهب العلمية قد انهار . وأن العـــلم ليس كل شىء فى الوجود ، وأن الدين وسيلة للسمو بالانسان الى مرتبة أرفع (الدكتور محمد خليل عبد الخالق — الهلال م ٣٩ ص ١١٣٧) واصبح العلم يسلم بوجود ما ليس قائما أمام الحس ، وبدأ عصر اعتقاد ويقين بالقرى الغيبية واتسع التحقيق العلمى للمجهول وأخذ العلماء يعترفون بأن الحقيقة كامنة وراء المظاهر ، وأن الكون ليس حقيقة فى ذاته وانمـــا هو المظهر الوحيــد للتعبير عن الحقيقة (دكتور على توفيق شوشه (نفس المصدر) .

* * *

حمـــلة الإلحـــاد

ركز الاستعمار حملة ضخمة من الغزو الثقافى على « الدين » فى الوطن العربى . هدفها مهاجمة جميع الأديان وزعزعة العقائد وخلق تيار عميق المجرى من « الالحاد » ، وكانت اوربا قد واجهت معركة ضخمة بين الالحاد والدين فى القرن السادس عشر حين وقف رجال الكنيسة امام النهضة محاولين مقاومة كشوفها واتهام اعلامها بالكفر والالحاد ، وقد نشأ الالحاد نتيجة لهذا الصراع الذى استعمل فيه رجال الدين سلطانهم فأسرفوا فى البطش بخصومهم عن طريق محاكم التفتيش ثم انتصر العلم واعلن رفضه للدين عامة ومهاجمته ، وساعده على ذلك ظهور المذاهب المادية المنكرة لوجود الخالق والأديان والكتب المقدسة والأنبياء .

وقد حرصت علوم الطبيعة والفلسفة والكيمياء والجغرافيا والفلسفة ان تنقض الدين وتناقضه فى كل قضاياها .

وبلغ الالحاد غايته فى منتصف القرن التاسع عشر ثم عاد ينحدر مرة أخرى بعد ان اثبتت الكشوف وجود الروح وعادت الفطرة الانسانية الى خطها الاساسي ، وقد نقل الاستعمار ميدان المعركة الى العالم الاسلامى فى حملة الغزو الثقافى ومن المسيحية الى الاسلام مع الفارق البعيد بينهما .

فالاسلام لم يقاوم الحضارة ولم يعارضها كما عارضها الاكليروس بل التقى بها دائما ، ولم يتعارض الاسلام مع العلم كما تعارضت المسيحية .

ولذلك فان حملة الالحاد قد حاولت ان تتخذ حججا اخرى لتعميق مجرى الالحاد فى العالم الاسلامى .

وكانت حملة الالحاد التى حمل لواءها دعاة التغريب فى بلادنا هو أن الدين يقيم حياتنا على اساس من التواكل وأن المتدين يبدأ بحثه من الوجوه المتجلية حوله ، فينتهى للخالق ومنه للطبيعة بينما الغربى يبدأ من المعالم المتطور لينتهى بعالم الغيب ، هذا التباين فى منزع التفكير ذهب بالمتدينين الى الاعتقاد بأن العالم حادث ، أن الخالق مطلق التصرف فى الكون منفصل عنه ومدير له . وانه السبب لكل ما يحدث والعلة الأولى والأخيرة لكل ما يكون وما سيكون .

وان الفرد المتدين فى الشرق خاضع لارادة عليا هى ارادة الخالق الحره ، يقضى فيكون ويقدر فيحدث . أما الغربى الملحد فانه يتبع فى تصرفاته وسلوكه نواميس الحياة ويخضع لها .

وان المتدين يستسلم للغيب استسلاما محضا ، بينما فى الغرب يناضل الملحد قوى الغيب (اسماعيل ادهم — (الرسالة)سبتمبر ١٩٣٨) وحمل دعاة الالحاد لواء الدعوة الى القول بأن الاسلام هو سبب تأخر الشرق ، وان الدين يضع القيود ضد الحريات فى الأدب والأخلاق ولذلك يتأخر الفن والأدب فى ظل الدين وأباح دعاة الالحاد نقد القرآن والنظر فى آياته وتبين ما فيها من فروق وصفوها بالقوة والضعف .

الأديان الجديدة : البابية والبهائية والقاديانية

وقد حارب الغرب الاسلام بالدعوة الى أديان جديدة كالبابية والبهائية والقاديانية ، ولا شك ان ظهور الدعوات الجديدة التى تحمل اسماء الأديان والتركيز عليها واهتمام الصحف والمجلات بالدعوة لها واذاعة مبادئها والحديث عنها انما كان عملا واضح الدلالة والأثر فى حرب الاسلام ومحاولة القضاء عليه وقد اكد ذلك الدكتور تشارلس ادمس حين قال ان « البابية » كانت وسيلة للانتقال من الاسلام للنصرانية .

وقد حرص دعاة التغريب على حمل لواء الدعوة الى هذه الأديان وداومت الهلال والمقتطف والمجلة الجديدة والعصور والأهرام والمقطم نشر ابحاث مطولة عن البابية والبهائية .

وقد كان موت زعيم البهائية : عباس عبد البهاء (نوفمبر ١٩٢١) مناسبة لحملة طويلة عريضة ، فقد

اشارت الصحف ان كان لنعيه وقع عظيم فى نفوس البهائيين فى أقطار المعمورة ، وقد نشرت الهلال التى أوردت الخبر تفاصيل كاملة عن مبادىء المذهب البهائى وأهمها ان أساس الأديان واحد وان الطقوس التى دخلت عليها أدت الى التمزق والانقسام .

وقالت ان البهاء رمى الى تاسيس دين عملى نظر فيه الى تقويم الأخلاق ووجه دعوته الى العالم كله وليس الى الشيعة فقط ، فكتب الى ملوك الأرض وقالت ان البهائية فرع من البابية التى ظهرت فى السبعينات من القرن الماضى عن طريق الميرزا على محمد الباب (المتوفى عام ١٨٥٢)وأن الباب رمى الى اصلاح الدين الاسلامى .

وقد اشار سلامة موسى فى المجلة الجديدة (فبراير عام ١٩٣٠ الى ان البهائية دين جديد يوافق النزعات الجديدة . وقالت ان هذا الذين يحب أن يلقى تاييدا فى مصر حتى ينتشر بين الطبقات التى لا تجد من الأديان السائدة أو من العلوم والآداب ما يقنع نفوسها وقال : أن فى انتشار البهائية كبت للتعصب ودعوة الى اخاء البشر ، وان تنزل على حاجة العصر الحاضر الذى يكره فيه تعدد الأديان وما تجلت فى مخالفة بعضها للبعض من تجزبات وتعصب .

ونشر (عمر عنايت) مجلة فى العصور ابحاثا متصلة عن البابية والبهائية وتعاليم البهائية وبشر عبد الجليل سعد الناس بالدين الجديد فى مجلة العصور (نوفمبر ١٩٢٩) وقال « قل هو نبأ عظيم » وطالب الناس بالا يتعجلوا الحكم عليه فانه سيتم به اتحاد الشرق والغرب والأديان والأجناس وبه تزول الحروب .

وترجمت العصور كتابه المبشر ج . ا . ا . سلمنت عن « بهاء الله والعصر الحديث » ونشر عباس العقاد فى الهلال بحثا بعنوان ساعة مع عبد البهاء (يناير ١٩٣٠ ونشرت الأهرام ٥/٥ و ١٩٣١/٥/١١ بحثا مطولا عن هيكل البهائية فى نيويورك وانتشار هذه الديانة التى « تدعو الى توحيد الأديان واللغة وترك العصبيات الدينية والجنسية ونبذ الحروب » .

٣ ــ وواجهت دوائر الغزو الثقافى والصحف بالدعوة القاديانية الأحمدية (الأهرام ١٩٣٣/٩/٢٤) التى قام بها (غلام احمد القاديانى) مسيح الهند المولود بقاديان بالبنجاب والذى ادعى انه المهدى المنتظر الذى يؤمن به المسلمون وينتظرونه وتتلخص عقيدتهم فى موت السيد المسيح ودفنه وعدم انقطاع الوحى والنبوة غير التشريعية وعدم النسخ فى القرآن .

وقد هاجمهم رشيد رضا (الأهرام ١٩٣٣/٩/٢٧) وقال أن دعوى غلام احمد بانه المهدى المنتظر دعوى باطلة . وأن القاديانى ادعى أولا انه المهدى ثم ادعى انه المسيح الموعود به وانه يوحى اليه وجاء بسخافات من النثر والشعر زعم انها تنزل عليه . وحرف كثيرا من آيات القرآن والأحاديث الواردة .

واشار الى انه اعتمد فى دعواه ببقاء الوحى والنبوة غير التشريعية على أقوال بعض الصوفية كعبد الكريم الجيلى فى كتابه الانسان الكامل وابن عربى فى الفتوحات المكية والشعرانى فى كتابه اليواقيت والجواهر .

* * *

حركة المقاومة ورد الفعل

ولم يقف الفكر الاسلامى مكتوفا أمام هذه الحملات وانما واجهها بقوة ودحض أكاذيبها ، وكشف عن خداعها وتضليلها وتعصبها . ورفع الغشاء عن الأباطيل التى برع الغزو الثقافى فى حمل لواءها البراق ، والتى خدعت الكثير من دعاة التغريب فى العالم العربى فصدقوا شعارات الفكر الغربى وكلماته ذات الرنين وخدعهم المبشرون الذين تلقوا عليهم العلم فى جامعات أوربا ، وفرنسا بالذات ، أمثال ما سنبون ودوركهايم ومرسية ومرجليوث وليفى بربل وهم أساتذة منصور فهمى وطه حسين ومحمود عزمى وزكى مبارك .

والعجيب ان كتاب أوربا قد انقسموا ازاء العقائد الشرقية والاسلام واللغة العربية وتاريخ العرب وأمجادهم قسمين ، وان مفكرين ذوى قدر وصوت عال قد انصفوا العرب ، ومع ذلك فان نظريات المبشرين والمستشرقين كانت دائما لها الغلب ، وكانت هى التى تتردد فى صحف مصر والوطن العربى ـ لا على انها نظريات قابلة للنقض .. ولكن على انها حقائق ثابتة . ومما يذكر فى هذا الصدد أن « رينان » عندما عرض آرائه عن العرب والسامية وراجعه فيها « جمال الدين الأفغانى » لم يجد امامه الا أن يعلن أنه سيعاود النظر فى مراجعة على ضوء ما أورده جمال الدين فى الرد عليه ، ومع ذلك فان دعاة التغريب حملوا هذه النظريات فى الهجوم على الاسلام والعروبة واللغة العربية كحقائق تفرض فرضا .

وقد واجه الفكر العربى فى قوة وصراحة ووضوح وعلى نفس المنهج العقلى والمذهب الغربى فى البحث كل ما عرضه المبشرون والمستشرقون وخصوم العرب والاسلام ، وكشف زيفه . وابان أن هذه الحملة لم يقصد بها الا توهين عرى الاسلام وتشويه صورته وصرف أهله عنه ، واشاروا الى صيحة « غلا دستون » رئيس وزراء بريطانيا فى عهد الملكة فيكتوريا فى مجلس العموم البريطانى وهو يمسك بيده « القرآن » ويقول « انه ما دام هذا الكتاب باقيا فى الأرض فلن يقر لنا قرار فى بلادهم » .

وقد اعتبرت هذه الصيحة قاعدة للحملة التغريبية الضخمة المتصلة على الاسلام وعلى ضوئها وضع الغرب سياسته فى التعليم والثقافة محاولا الادعاء بأن الاسلام ليس فى حقيقته الا عبادات وصلوات وطرق صوفية وان القرآن يقرأ للبركة . مع الاغضاء المتعمد والتجاهل الشامل للاسلام كنظام اقتصادى واجتماعى ونظام للحكم ونظام للتربية والتعليم .

واستتبع هذا ، العمل على فصل العلم عن الدين وفصل الدين عن الدولة .

وقد عمل الفكر الاسلامى جاهدا على رد كل الشبهات التى اثارها المبشرون والمستشرقون ودعاة التعريب من أن كلمة الاسلام معناها الخضوع والاستسلام ، أو أن الاسلام تاريخيا فرع من الديانة الاسرائيلية والمسيحية (فيليب حتى (ك) الاسلام فى نظر الغرب) وكشف عن أن الاسلام لا يعنى الاستسلام وانه يختلف عن كلتا الديانتين .

* * *

٢ — جوهر الاسلام

وكشف الفكر العربى عن جوهر الاسلام فى أنه عقيدة ونظام ، وان مبادىء الاسلام وتعاليمه صالحة للمجتمع على اختلاف الزمان والمكان . وان اركان العقيدة الاسلامية بسيطة قوامها التوحيد . وقد اقر الاسلام حقوق الحرية والاخاء والمساواة بين البشر ، والغى العصبية وفوارق الأجناس والالوان والدماء ، وجعل اساس التفاضل بالعمل وحزم العصبية القبلية ودعا الى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ونشر الاخاء بين الناس وحمل لواء الجهاد فى سبيل الدفاع عن العرض والأرض والوطن ونهى عن عبادة غير الله .

وتشمل الشريعة الاسلامية كافة التكليفات الشرعية العملية ، وتنظم العلاقات بين الناس فى الأسرة والمجتمع بما يحقق قيام مدنية فاضلة تقوم فيها العلاقات على دعائم ثابتة ودعا الى الحج كمؤتمر اسلامى عام .

وقد نظم الاسلام المجتمع على أساس الخلق والتعاون والتكافل .

وأقام الأسرة على أساس المودة ونظم العلاقات بين الناس وفرض نظام الشورى فى الحكم ، واعلن احترامه للكرامة الانسانية والعدالة وعدم التفريق فى القضاء بين الغنى والفقير أو الأمير والسوقة ، واعطى توزيع الأعمال بمقدار الكفاية ، وعالج الفقر بنظام العدالة الاجتماعية ، وجعل للفقير فى مال الغنى حقا معلوما هو الزكاة تجمعه الدولة ، وأوجب على ولى الأمر أن ينفق على الفقير العاجز ، وللقاضى أن يحكم له بما يكفيه من بيت مال المسلمين ، وأوجب على اهل كل قرية ان يقوموا بسداد حاجة فقرائها أن لم تكف الزكاة واعطى المراة حقها ومنحها حرية الارادة فى البيع والزواج والشراء ، وحث على طلب العلم واقام الحكم العقلى فيه على أساس البرهان « قل هاتوا برهانكم » .

وقام الاسلام على قاعدة : لا ضرر ولا ضرار وعلى سد الذرائع واعطاء الوسائل واحكام المقاصد والغايات فكل ماافضى الى مباح فهو مباح ، وكما أباح اعطاء الظن الغالب حكم اليقين المجزوم به ، وقرر تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض ودعا الى المساواة بين المسلمين فى الأحكام كذلك بينهم وبين من له ذمة وعهد فان لهم ما لكم وعليهم ما عليكم . وعمل على تقدير كثير من الأحكام بما تعورف به الناس واعلن أن من اجتهد واخطأ فله اجر واحد ومن اجتهد واصاب فله اجران .

* * *

— ٣ —

وكان « الاسلام » واسع الأفق فى لقاء الحضارة الغربية الحديثة وقد حرر الفكر الاسلامى نفسه بفتح باب الاجتهاد قبل ان تصل طلائع الغزو الغربى فان علماء القرن الثامن عشر قد دعوا الى فتح باب الاجتهاد بعد ان ظل معلقا فترة طويلة . واعادوا تفسير قوانين الاسلام وكشفوا عن وجه الاسلام الحقيقى بعد أن رفعوا الغشاء الذى خلفه الجمود والتقليد .

وكانت الحركات الوهابية والسنوسية ، وهى حركات منفصلة قامت فى الحجاز وليبيا والسودان علامات على وضوح مفاهيم الاسلام الحقيقية من تحرير الفكر وتحرير الوطن فى نفوس دعاتها ، قد عملت هذه الدعوات على التحرر من قيد التقليد والعودة بالاسلام الى منابعه الأولى وفى نفس الوقت قاومت الاستعمار الغربى .

كما توافرت فى (الاسلام) خلال معركة المقاومة التى شنها على الغزو الثقافى والتدخل الأجنبى مرونة واضحة فى تقبل خير ما فى الحضارة ، وتمكين المجتمع الاسلامى من التطور والعمل للملائمة بين الحضارة وبين اسس القيم الروحية والفكرية الاسلامية التى كانت اساسا ضروريا لبناء المجتمع الجديد .

* * *

الاسلام فى معركة المقـــاومة

بين التجديد والاجتهاد والإصلاح

ولقــد اتجهت افكار المصــلحين ودعاة الاجتهاد والتجديد من قادة الفكر العربى الاسلامى الى بحث قضايا الاسلام فى مجال التطور ومواجهة الحضارة والاستعمار والغزو الثقافى وتناولت هذه القضايا بحث :

- لماذا تاخر المسلمون .
- هل يستطيع الإسلام تقبل الحضارة .
- ماهو الحد الذى يمــكن اقتباسه من الحضارة .
- ما هو سبب الضعف : هل هو الاسلام أم المسلمين .

وقد كشف البــاحثون عن ان اكــبر عوامل تخلف المسلمين هو :

١ ــ فساد اخلاق الأمراء والملوك والحكام الذين اعطوا انفســـهم حرية التصرف على نحو اســتبدادى لا يراجع ، على أساس مفاهيم مغلوطة بان هذه الشعوب ليست الا خدما لهم ، وقد بلغوا فى هذا غاية الظلم والعنف فكانوا يقضــون على اى رجل حر يحاول ان يردهم عن استبدادهم او يكشف عنه .

٢ ــ ضعف العلماء وتزلفهم للأمراء ومحاولة تبرير تصرفاتهم والفتوى بقتل كل راى حر بحجة انه خرج عن الجماعة .

٣ ــ دعاة التغريب الذين يهاجمون كل قديم بمــا فيه الدين واللغة والتراث .

٤ ــ الجــامدون من علمــاء الدين الذين قاوموا التطور والجديد على نحو من الجهل والتعصب . والنظر الى الاســـلام على انه دين وعبــاده فقط ، وليس نظام ومجتمع وحضارة . (شكيب ارسلان (ك) لماذا تاخر المسلمون) .

٢ ــ وكشــف الفكر العربى الاســلامى عن ان فى نصوص الاسلام وتاريخه ادلة ــ اكيدة ــ على انه «دين» يســتطيع اهله ان يجهــدوا فيه كل ما يتفق مع مظاهر الحضارة والمســايرة للزمن وتطبيق الأحــكام مع ملائمة الاحوال والظروف مع المحافظة على روح الدين ، وانه ليس فى الاسلام ما يمنعنا من ان نأخذ من حضارة العرب ما ينفعنا ويلقح حياتنا باللقاح المجدد ، وأن الوسيلة الى ذلك هو ظهور الرجال الذين يفهمون روح الدين بالعقل اليقظ العارف لحاجات العصر وتيارات الحضارة (محمود الشرقاوى) وايد الشيخ محمد مصطفى المراغى هــذا الاتجاه حين اكد ان القرآن الــكريم حث المسلمين حثــا شديداً على طلب العلم وتدبر ما فى الكون ، ودراســة جميع المعارف والتأمل والبحث فى الحقيقة ــ وقال : ان للمسلمين ان يأخذوا جميع ما فى الحضــارة الحديثة من حســن لا يتنافى مع دينهم وان يقتبســوا الرقى فى جميع النواحى العلمية والمادية وقد اكد التاريخ الاسلامى هــذا المعنى بأن الاســلام لم يكن يوما ما عدوا للرقى وخصما للعلم وانا لا اعتقد ان هنــاك قاعدة علمية صحيحة تنافى الدين الاسلامى » ا . هـ .

٣ ــ رسم المفــكرون منهج الربط بين الاســلام والحضارة والنظر الى الاسلام من الناحية العلمية : قال محمد فريد وجدى ان هذا أصبح من اشــد الضرورات الاجتماعية نظرا لتمرد العقول على مالا يقوم على اسباب العلم الراهن ولا يوفى بشروط الفلسفة الوضعية .

٤ ــ كشف المفكرون المسلمون عن ان القصــور والنقص انما يسببه المسلمون لا الإسلام ، وان مبــادىء الاســـلام كانت على الزمن قادرة على مواجهــة التطور

والحضارة ، وان الضعف الذى أصاب الأمة كان مصدره العوامل المختلفة التى تتصل بالجمود واقفال باب الاجتهاد وغلبة البدع والقشور والتواكل وخطأ فهم عقيدة القضاء والقدر وقيام السلبية والفردية والترف والتخلف عن الزمن نتيجة لغلبة الجهل والتوقف عن الكفاح وحماية الثغور وسيطرة الأمراء المستبدين والعلماء الجامدين والاستهانة بالعدو .

ولقد استغل الاستعمار بعض طوائف المسلمين كرجال الطرق الذين أزروا السلطات الاستعمارية فى شمال افريقيا والسودان .

أما الاسلام فى ذاته وجوهره فلم يكن عاملا من عوامل الضعف والقصور .

٥ ــ عارض المفكرون المسلمون الغرب فيما وصف به التفكير العربى الدينى من انه تفكير تجريدى ، واستشهدوا فى ذلك بالاسلام وقالوا ان هذا الفكر رهن بالقواعد المرسومة شبيه بهندسة البناء العربية لا تحتوى صورة من صور الحياة الماثلة فى بنية الانسان وملامح وجهه » كما وصفه (روم لاندو) فى محاوره بينة وبين لطفى السيد (٢١ ــ مارس ١٩٣٨ ــ الرسالة) وقد رفض لطفى السيد هذا الرأى وقال له « أن الفكر العربى اشد ايغالا فى الواقعيات من الفكر الأوربى . وهذه شريعتنا الدينية التى استشهدت بها على نزعته التجريدية تتناول شئون الحياة اليومية ولا تقتصر على مسائل اللاهوت والأخلاق كما هو الحال فى الشريعة المسيحية ، وهى تقضى بالوصايا فى امور للمعيشة والزواج والميراث واحسب اننا اقرب الى معرفة الحقيقة حين ندرس (المخيلة المسيحية) بتصور السماء والفردوس . اما المسلمون فكيف تراهم يتخيلون السماء ؟ انها دار حقيقية فيها اللبن والعسل والمسجد وفيها الأشجار والأزهار والحور العين » ا.هـ

* * *

الجماعات الاسلامية

وقد اتجهت مقاومة حرب الاسلام الى أعمال ايجابية متعددة كان ابرزها قيام الهيئات الاسلامية للدفاع عن الاسلام . كما طالب المفكرون بمحاربة البغاء وتطهير الأخلاق والدعوة الى أن يكون الدين مادة أساسية فى جميع مناهج التعليم . وكان الشيخ محمود ابو العيون فى مقدمة هؤلاء الدعاة .

وقد كانت جمعية الشبان المسلمين من ابرز هذه الأعمال التى تجمع فيها دعاة الاصلاح والمقاومة وقد تفرعت عنها جماعات أخرى كالانصار والاخوان المسلمين ومصر الفتاة والتعريف الدولى بالاسلام والكفاح لتحرير الشعوب الاسلامية .

وقد واجهت (الشبان) احداث العالم الاسلامى واصبحت ملتقى رجال العروبة والاسلام وحركات التحرر فى العالم العربى والاسلامى وكانت جبهة دفاع قوية الأثر فى مواجهة حركات التبشير والالحاد والتغريب ومعارك الاستعمار فى فلسطين وشمال افريقيا وسوريا والجزائر ، وابدى المستشرق ، كامبفماير اهتمامه بما وراء هذه الحركة من خطر وأثر فى المستقبل ، ووصفها المستشرق جب بأنها اكبر دلالة على التنظيم الجديد فى الحياة الاجتماعية والعقلية فى العالم الاسلامى ، وقد سلكت الجمعية الى أهدافها فى تربية الشباب الاسلامى العناية بالخلق والرياضة كوسيلة الى القوة وكمال التكوين على أساس أن القوة مطلب أساسى فى الاسلام لدفع الاعتداء وارهاب العدو واحتمال مطالب الجهاد ، واستخدمت لهذا الغرض الخطابة ــ والمحاضرة والصحافة وكتابة الأبحاث والمقالات وقد كان للسيد محب الدين الخطيب الفضل الأول فى تأسيس هذه الجماعة ودفعها الى الأمام وان لم يظهر عمله موسوما باسمه اذا كان يفضل أن يرسم الخطط ويقف وراء منفذيها .

لقد روى محمود محمد شاكر (الفتح مجلد ٩ ــ ١٣٥٣) أنه فى ربيع الأول ١٣٤٦ زار مكتب محب الدين الخطيب فى المطبعة السلفية الشيخ محمد الخضر حسين وتحدثا عن اجتماعات الشبان المسيحية التى تدعو رجالا ليحاضروا فيها ومن بينهم رجل من رأيه أن يجعل القرآن موضعا للتهكم والشك ثم التقى بهما عبد السلام محمد هارون وقد بدأ التفكير فى انشاء جماعة للشبان المسلمين .. وقد جمع محب الدين الخطيب بين رجلين هما احمد تيمور باشا ومحمد الخضر حسين وضمت فى مجلسها الأول : محمود الحضيرى . محمود محمد شاكر ، هارون ومحمد خلاف . محمد أبو الفضل ابراهيم . توفيق أحمد محمد القاضى ، كمال اللبان ، عبد الفتاح كيرشاه . مصطفى محمود القاضى ، زكى القاضى واشترك فيها عبد العزيز شاويش والهيهاوى وأحمد ابراهيم ومحمد أحمد الغمراوى والدكتور يحيى الدويدرى والدكتور على مظهر ومحمود على فضل واختير عبد الحميد سعيد رئيسا لها .

وقد كان ابرز ما فى هذا العمل الايجابى الضخم انه اول تجمع لمقاومة الالحاد وخصومه الغرب المثقف الذى ورد جامعات اوربا واحرز ارقى درجات جامعات لندن وفيينا وغيرها . وقد كان هذا ابلغ رد على المثقفين الذين كانوا يحملون لواء الدعوة الى التغريب ويهاجمون الاسلام ويدفعون الفكر العربى الى مهاوى الحيرة والشكوك باذاعة الآراء الالحادية والدعوات الاباحية كتلاميذ واتباع للمستشرقين والبشرين وموازرين للاستعمار وعملاء للغز الثقافى ، ولا شك ان الجماعات الأخرى التى تفرعت عن الشبان المسلمين كنواة اولى للتجمع الفكرى كان لها دورها فى العمل للاسلام فى الفترة التالية لهذه الفترة التى نؤرخها مما ليس مكان بحثه هنا ، وقد ابرزت جماعة الشبان المسلمين دورها فى « الأخذ من محاسن حضارتى الشرق والغرب وترك ما فيها من مساوىء . غير متكلفة ولا معروفة عن الماضى الصالح والحياة العصرية النافعة لتقضى فى ذهن الشاب المسلم على الفهم المخطىء لحياة التدين من انها حياة الجمود على القديم ولو كان فاسدا والتغلب على الحديث ولو كان صالحا . والانفصال بين التفكير فى الدنيا والدين والانعزال عن تيارات الحياة ومصارعتها وسوء الظن فيها والرهبة منها فقد آمنت الجمعية (ص ١٥ من (ك) ٣٠ عاما من حياة الشبان المسلمين) من اول يوم بانه لا نهوض للمسلمين الا بالحرص على الباقيات الصالحات من حضارة الشرق ومواريثه والحرص على اقتباس كل ما هو نافع مفيد من حضارة الغرب التى فيها من العلوم والفنون والآداب والأعمال ما جدد الحياة واضاف اليها عجائب كثيرة وجعل المتخلفين عن الأخذ بها محكوما عليهم بالضعف والضياع » ا.هـ .

* * *

ترجمة معانى القرآن

كانت فكرة « ترجمة معانى القرآن » التى حمل لواءها محمد مصطفى المراغى شيخ الأزهر منذ عام ١٩٢٨ من اعمال مقاومة الغزو الثقافى والتغريب . ذلك ان الغربيين كانوا قد ترجموا القرآن منذ منتصف القرن الخامس عشر (١٤٥٧) عن طريق المبشرين وتوالت الترجمات التى بلغت ٣٤ ترجمة ، وهى ترجمات مغلوطة محرفة ناقصة فى بعضها ومزيدة فى الأخرى . وقد انتشرت هذه الترجمات فى مختلف انحاء العالم على انها ترجمة حقيقية للاسلام ، وقد استعملها بعض من لا يعرفون اللغة العربية ، ولما كان فى ذلك من الخطر ما فيه على مفاهيم القرآن وبلاغته فقد كان لا بد من القيام بعمل من هذا النوع لترجمة « معانى القرآن » ترجمة صادقة .

وقد جرت معارك فكرية طويلة ١٩٣٢ و ١٩٣٥ و ١٩٣٦ حول ما اذا كانت الترجمة للقرآن هى ترجمة كاملة أم ترجمة معانى القرآن ، وقد ذكرت مشيخة الأزهر (١٩٣٦/٤/١٦) أن تراجم القرآن الى مختلف اللغات الأعجمية قد شاع فى هذا العصر وان بها اخطاء واغلاط شائنة تتنافى مع ما جاء فى الدين الاسلامى الحنيف وهى من أجل ذلك قد انشأت قسما خاصا من مجلة نور الاسلام واستقدمت الاخصائيين فى اللغات الذين ناطت بهم ترجمة تفسير بعض الآيات واخذت من تفسير الالوسى والبيضاوى وغيرهما من التفاسير .

واشارت الى أن المراد من ترجمة معانى القرآن الكريم هو « بسط هذه المعانى تبسيطا محكما وتفسيرها تفسيرا دقيقا على أن تترجم المعانى بعد ذلك ، وقالت أن القرآن لفظ عربى معجز وله معنى ، أما نظمه العربى المعجز فلا سبيل الى نقل خصائصه لأن هذا مستحيل استحالة قطعية .

ودعا محمد فريد وجدى الى ترجمة القرآن ترجمة صحيحة كاملة ، وذلك حتى يكون بنجوة من تحريف المحرفين وقال أن هذا العمل خير من ان يترك للمترجمين من متعصبة الأمم يحرفونه ويشوهون معانيه .

ونعى فريد وجدى على اسرار بعض العلماء على حبس الاسلام فى دائرة العربية التى لا يحسن فهمها غير أهلها وتجريده من الأسلحة العالمية وهى اللغات الحية للدفاع عن نفسه ، وقال أن وضع القيود غير المعقولة فى مسألة نقله يقضى عليه بهزيمة منكرة تقع نتائجها علينا وعلى اعقابنا قرونا طويلة . ومعناه صده عن الجولان فى الدورة الفكرية العالمية مع غيره من كتب الأديان واسفار المذاهب .

وقال : ان الاكتفاء بترجمة تفسير لا يؤدى الغرض المطلوب من نشره ، لأن المفكرين فى العالم يحبون ان يتأملوه عاريا من زخرف التفاسير والشروح والوان الآراء والأفهام لمعرفة قيمة الذاتية .

وقال ان كل ما يخشى منه ان يوكل امر البت فى هذا الشأن لمن لا يعرفون لغات اجنبية فيخيل اليهم انها لغات بربرية تخلو من جميع الزخارف اللفظية والمعنوية التى

توجد فى العربية ، وقال ان تعطيل القرآن عن الترجمة الحرفية والزج به فى معترك الافهام الى اليوم قضى عليه بأن لا يكسب انصارا من الأمم الغربية فصار قاصرا على الأمم الشرقية التى رضيت ان يكون حظها من دينها كحظ الببغاء .

وأشار الى حركة الأتراك التى اثرت فى الوطن العربى العربى اعظم تاثير وابلغه وزاد اعجابه بها عند اقدامهم على كسر هذا السياج الفولاذى الذى وضعه المتأخرون امام ترجمة القرآن مع جوازه فى اقدم المذاهب الفقهية (١٩٢٢/٧/٢ الأهرام) .

وقد عارض ترجمة معانى القرآن كثيرون فى مقدمتهم الشيخ محمد سليمان وكيل المحكمة العليا الشرعية الذى وصفها بأن وراءها غرض استعمارى هو القضاء على القرآن تمهيدا للقضاء على الاسلام وتابعه محمد الههياوى وعارضها كذلك الشيخ الظواهرى وكان الخلاف سياسيا فى الأغلب .

ومما يذكر ان أول ترجمة للقرآن كانت باشارة بطرس فيزابلس رئيس كنيسة كلنيه وقد تمت ١١٤٣ م وظلت مختفية نيفا واربعمائة سنة حتى طبعت ١٥٤٣ الى الفرنسية وطبع ١٦٤٧ ، ولم تكن ترجمة صحيحة وبها نقص وزيادة ، وترجم الى اللغة الألمانية ١٦١٦ والهولندية ١٦٤١ والروسية ١٧٧٦ والايطالية ١٥٤٧ والانجليزية ١٧٣٤ والعبرانية ١٦٣٤ والآرية ١٧٩٠ والفارسية ١٨٣١ والجاوية ١٩١٣ والفيغالية ١٩٠٨ والتركية ١٩١٣ .

وقد اعلنت ترجمات متعددة للمستشرقين والمبشرين من الأوربيين وكلها ترجمات تفسيرية وليست كاملة .

ومما يذكر ايضا أن القرآن ترجم فى عهد هشام ابن عبد الملك الى اللغة السريانية (لغة الحضارة فى ذلك العصر) ويوجد فى متحف لندن المجموعة الخطية التى وهبها ادوار كاربورى فى ٥٠ الف مجلد وتشمل ترجمة قديمة للقرآن منذ ٦٩٠ م وبها آيات كاملة ليست من القرآن .

* * *

الخلافات بين المذاهب الإسلامية

كان الخلاف بين المذاهب الإسلامية من العوامل التي استغلها الاستعمار في معركة الغزو الثقافي والتغريب فقد حرص على أن يثير الخلافات بين هذه الطوائف حتى يؤكد الفروق ويعمق التفرقة ، وقد كان أبرز هذه الخلافات التي أثارها الاستعمار :

* بين السنة الشيعة .

* بين السنة والمتصوفة .

* بين السنة والوهابية .

***

بين السنة والشيعة

* * *

حرص المبشرون والمستشرقون على دراسة المذاهب المختلفة في الاسلام فيما سوى مذهب السنة ، والاهتمام بها والتوسع فيها ، وكانت الشيعة من اهم هذه الأبحاث وبالرغم من أن الشيعة الاثنى عشرية والزيدية هي وحدها الموجودة الآن في العالم العربي ، فان هؤلاء الكتاب ممن يحملون من روح الحقد والرغبة في بلبلة الأفكار وتصوير المذاهب بصورة مثيرة ، قد خلطوا بين هذين المذهبين المعتدلين وبين مذاهب الأغاخانية والحلول بقصد إثارة خلافات قديمة بائدة . وهم يهدفون من نشر مثل هذه الأبحاث في الوطن العربي الى اثارة السنيين على اخوانهم الشيعة دون أن يكون هناك ما يكشف بعض المغالطات والأخطاء المتعمدة .

وقد حرص الاستعمار في معركة الغزو الثقافي والتغريب على احتضان كل الفرق كالأحمدية والبهائية واستغلالها في اثارة الفتنة بين المسلمين والتشكيك في المعتقدات الدينية وتوسيع دائرة الخلاف ، وذلك رغبة في تمزيق الوحدة الفكرية والدينية كجزء من خطة التجزئة الشاملة للفكر والوطنية واللغة والدين .

وقد أثيرت أسباب هذا الخلاف عدة مرات نتيجة لكتابات مختلفة كتبت من جانب واحد مع حجب الجانب الآخر ، وقد جرت الدعوة في هذه المناسبات الى العمل على تقريب وجهات النظر بين السنة والشيعة في العراق وسوريا ، وحرص الأزهر على أن يشترك في بحث منشأ الخلاف والطرق العملية لازالته . وكتب محمد رضا المظفر من علماء النجف الأشرف (الرسالة م ٣ ص ١٦١٢) يقول نحن نفهم من كلمة (الشيعة) اذا قلناها الامامية الاثنى عشرية خاصة ، لأنهم الأكثرية من بين فرق الشيعة وذو المؤلفات والمعارف التي يقال عنها مؤلفات الشيعة ومعارفها ، ولأنهم اليوم شيعة العراق وسوريا وايران والامارات العربية على الخليج الفارسي والهند وافغانستان . وهناك الزيدية في اليمن والبهرة في الهند . أما الفرق الأخرى فقد انقرضت في غابر كان ولا يعرف لها اثر .

وقال ان الخطأ هو الحاق عقائد تلك الفرق البائدة بعامة الشيعة (الشيعة بالمعنى المفهوم اليوم) وهذا ما يثير غضب الشيعة الأحياء من غير حاجة تدعو ولا ضرورة .

وأشار الى أن الفرق التي وصفت بالمرجئة والغالية والجسمية والمجبرة والسبئية وغيرها مما أوردها الشهرستاني في كتابه الملل والنحل قد انتهى امرها وقال ان كل مفاهيم الشيعة انها تتمسك بعترة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكن ليس كعقيدة موالاة فحسب ، وانما تعني من التمسك بهم أن تأخذ بأقوالهم في أحكام الفقه وترجع اليهم في دين الاسلام وتدلل على أن ما جاء به النبي ورثوه عنه وعلم مكنون لديهم وهم أمناء عليه معصومون .

وأشار الى أن هذه الخلافات قد بذرتها السياسة لأغراضها في زمن بعيد لسنا ابناءه فلا يصطدم بآراء أفراد لا نعرف عنهم كثيرا .

وقد أشار محب الدين الخطيب الى أن الخلاف بين أهل السنة والشيعة هو خلاف جوهري وأن أبرز هذا

الخلاف هو أن الشيعة الاثنا عشرية يدعون العصمة لأمير المؤمنين « على » وأحد عشر رجلا من سلالته (ان لم يدعها « على » لنفسه أو واحد من بنيه) وقال الخطيب : أن النبى وحده هو المعصوم فى هذه الأمة ولا معصوم فيها غيره وهو وحده مصدر التشريع وأصحاب رسول الله هم حملة شريعته وأمناؤها الذين أدوها الى الأمناء بعدهم .

وأشار كثير من الباحثين بأن الخلاف بين السنة والشيعة ينصب على ثلاث مسائل ١ — الرجعة ٢ — زواج المتعة ٣ — عصمة الأئمة (وان هذه جميعها مسائل فرعية فمادام الاختلاف لاينصب على أصول الدين ومبادئه الاساسية كالوحدانية والنبوة وفرضية الصلاة والزكاة والصوم والحج والتصديق بالميعاد والقبلة والقرآن فان خلاف ذلك يعد من المسائل الفرعية التى لا يضير الخلاف فيها) .

* * *

بين السنة والوهابية

وقد استغل الاستعمار والغزو الثقافى والتغريب الخلاف بين اهل السنة والوهابيين ، وكان هذا منذ وقت بعيد ، عندما أغرت السلطة العثمانية محمد على بالوهابيين فى فجر دعوتهم فقامت تلك المعارك الضخمة التى قضت على القوة الجديدة التى كانت تحاول أن تحرر الاسلام من البدع والخرافات حول العقيدة الأصلية . وقد كانت هذه الدعوة تحمل فى ثناياها العمل بمفهوم الاسلام لتحرير الوطن الاسلامى من الاستبداد والنفوذ الاستعمارى الغربى الذى كان قد استفحل فى هذه الفترة

ولقد استطاعت الوهابية ان تعود الى قوتها فى مطالع القرن العشرين عندما سيطر الملك عبد العزيز آل سعود عام ١٩٠٢ على الرياض عاصمة ملك آبائه « نجد » حينئذ عادت الوهابية الى قوتها وحياتها ، وقد استطاع فى خلال ربع قرن من السيطرة على مكة والمدينة وفرض مذهب الوهابية على هذه المنطقة حيث هدم المزارات والقباب ، ومضى ليضرب حدود العراق وسوريا ويهاجم مزارات الشيعة فى العراق وحدود الأردن .

ومنذ ذلك الوقت بدأ خلاف بين السنة والوهابية ، أو بين الطوائف التى تؤمن بالاسلام ايمانا وراثيا تقليديا وبين الدعوة الى تحرير الدين من زيوفه . .

وقد كان « محمد عبده » من انصار الدعوة الى تحرير الاسلام على النحو الذى دعا اليه « محمد بن عبد الوهاب » ثم ظل الصراع قائما فى الأزهر وخارجه حول المذهب التقليدى والمذهب الوهابى حتى عاد «محمد مصطفى المراغى » الى حمل لواء الدعوة الى علاج أمراض العالم الاسلامى وتحرير العقيدة .

وقد حدثت عام ١٩٣٧ اجتماعات متعددة حول توحيد المذاهب بين السنة والوهابية فى مصر على أسس خمسة .

١ — الحرية الفكرية وفتح باب الاجتهاد ٢ — القبور والأضرحة واشعال المسارج وزيادة المقابر ٣ — النذور وطريقة التصرف فيها ٤ — الاستغاثة والحلف بغير الله ٥ — البحث فى تقرير أن العلم لايناقض الدين .

وقد طلب أحمد شفيق المؤرخ الى الملك عبد العزيز ابطال الرق فى الحجاز وقال « أن الرق الذى هو بها الآن فى الشرق ليس من الشريعة الحنيفية فى شىء » .

* * *

الخلاف بين السنة والصوفية

وكان الوجه الثالث للخلاف هو الخلاف بين اهل السنة والصوفية ، أو بين الفقه والتصوف . ولقد كان للطرق الصوفية دوران واضحان لا سبيل الى انكارهما : الدور الأول هو استغلال الاستعمار لهذه الفرق لخدمة اغراضه والدور الثانى هو ما قام به المتصوف المسلم فى قلب افريقيا من الدعوة للاسلام ونشره على نحو عجزت عنه قوى التبشير الضخمة المؤيدة بمال وجاه الدول المستعمرة .

وفى مصر فى ابان الاحتلال البريطانى كانت الطريقة الدمرداشية التى يرأسها عبد الرحيم الدمرداش تحظى برعاية الاستعمار . وقد حرصت الصحف الدائرة فى فلك التغريب ان تدعو لها وتحميها وتصورها بصورة العمل النافع .

وفى السودان وفى المغرب كانت بعض الطرق الصوفية أداة من أدواته وقد قام عبد الحميد بن باديس فى الجزائر ومحمد عبقة وغيرهم من اهل الفهم الصحيح

للاسلام الى مقاومة هذا التيار الخاضع للاستعمار .

وقد صور محمد عبده الطرق الصوفية بانها : هذه الفئات التى تتكون « من خليط من الناس جمعتهم وحدة الفرار من الدنيا وحب الكسل والابتعاد عن اى عمل يعود على الانسانية بالنفع ، وهم اما فاشل عجزت نفسه عن السير فى طريق الحياة والأخذ بالأسباب والمسببات .وهم اما مسخ مشوه منبوذ فى المجتمع واما طريد من طرداء العدالة اراد ان يتستر وراء هذا المظهر الخادع حتى يفلت من القصاص واما شيخه قد القى فى روعه انه حبيب الله وصفيه وقد وجد لهؤلاء انصار ومحبذون يؤيدونهما وينشرونها بين الجماهير فيخدرونهم بمخدرهم السام ، وهم يلقون فى روع الناس ان الحياة الدنيا دار فناء ويأخذون فى ذمها وتنفير الناس من العمل السليم وممايؤثر عنهم قول العامة ان الرزق ليس بالشطارة وأن المجتهد قد لا يكون له نصيب من الحياة وان الخامل قد يصيبه المجد فيها وان الدنيا دار فناء والزهد خير من التمسك بها . . . . . » ا . هـ .

ومما يذكر فى هذا الصدد أن الاستعمار قد افاد من جموع الصوفية فى رسم صورة مزرية للشعوب التى احتلها ، وقد نشرت الصحف أن ١٨/٤/٣١ احتفالا فى تكية المولوية بالحلمية الجديدة قد حضره الأجانب من فرنسيين وامريكان والمان وانجليز وثلاثة وزراء مفوضين وقالت ان الدراويش قاموا وانتظموا فى حلقة الذكر المستديرة واخذوا يذكرون الله . وكما احتدم الموسيقيون فى عزف الأناشيد رايت الدراويش قد احتدوا فى اللف والدوران على نحو بديع » .

وقد كانت تنقل هذه الصورة الى أوربا على انها هى صورة « الاسلام » وقد ظهرت فى خلال فترة سيطرة الاستعمار على الوطن العربى عديد من الطرق التى لم يكن لها هدف سوى خلق روح القدرية والنكوص عن الجهاد ومخالفة مفاهيم الاسلام فى الحرية والجهاد ، أما السنوسية والمهدوية فقد آمنت بمفاهيم الاسلام وقامت دعوتهما على اساس تحرير الوطن من الاستبداد العثمانى ومقاومة النفوذ الأجنبى وجهاد المهدوية ضد الانجليز وجهاد السنوسية ضد ايطاليا معروف .

وقد صور « احمد توفيق المدنى » ما تطورت اليه الزوايا الصوفية فى الجزائر بعد الاحتلال الفرنسى (ك/ الجزائر — ١٩٤١) حيث « انقلبت الزوايا بعد مؤسسيها الأولين الى معاهد خرافات واباطيل تستثمر غفلة العامة وبلههم فتنال منهم مال السحت الذى يدفعونه بصفة نذور وينفقه رجال الزاوية على ملاذهم وملاهيهم ومنكراتهم ، وقد آل أمر الكثير من هذه الزوايا والطرق الى احداث وثنية فى الاسلام واصبح شيخ الطريقة يتصف بأوصاف (الربوبية) فهو الذى يعطى ويمنع ويقبض ويبسط ، وتطور الأمر الى اقامة حفلات مؤلمة فى مواسم معينة بقصد جلب السولحين ، يقومون بدور المهرجين فى الملاعب ، والأوربيون يعتقدون أن ذلك هو عين الاسلام ، هذه المنكرات الدنسة جعلت المتنورين ينفرون من الاسلام وينبذونه ، ولذلك فقد قامت فى الجزائر حركة اصلاحية جسيمة ضد هذه المنكرات على راسها « الطيب العقبى » الذى كرس حياته وكتاباته لدحض مفتريات المفترين » .

وأشار « علال الفاسى » فى كتابه « المغرب العربى » عن دور الطرق الصوفية فى مراكش قال « أن الدعاية الفرنسية جندت فى الشمال الأفريقى قسما كبيرا من مشايخ الطرق الصوفية الذين اعتادوا أن يعملوا لصلحة رجال الحكم او الذين خلقتهم الادارة الفرنسية لتسخيرهم فى أغراضها فاشتغل محمود التيجانى فى الجزائر وعبد الحى الكتانى فى المغرب وابن عزوز فى تونس دعاة متحمسين للسياسة الفرنسية .

وقال : أن الطرق الصوفية كان لها اثر كبير فى المغرب العربى ولكن تدهور الأمل وتغلغل الفوضى الاجتماعية فى معظم القبائل قلب هذه الطرق الى منظمات يشرف عليها فى الغالب انتفاعيون نصبوا انفسهم ليكونوا الوساطة الفعالة بين الحكومات المحلية وبين الشعب ، فكانت السلطة لا تستطيع حفظ الأمن ولا جبى الضرائب ولا تعبئة الجيوش الا عن طريق هؤلاء الذين يدعون انهم يشفون عليها من بركة نفوذهم ما يسهل عليها تحقيق اغراضهم ، وقد سار هؤلاء المشايخ يتجولون فى القبائل والمدن يبشرون بسقوط الألمان وبشاعة حكم الأتراك وينوهون بقيمة العمل العظيم الذى تقوم به فرنسا وانجلترا فى الشرق العربى » .

ومما ذكره علال الفاسى أن فرنسا اتجهت الى انشاء خلافة اسلامية فى افريقيا الاسلامية تحت حكم سلطان فرنسا .

ومما يتصل بهذا ان المسلمين الذين تنبهوا الى خطر هذه الفرق على حركة التحرر قد تفطنوا ايضا الى مفاهيم الاسلام الحقة التى تحرفها الطرق الصوفية على النحو الذى صوره الشيخ محمد عبده من الدعوة الى التواكل والقدرية وتنفير الناس من العمل ، وتحت هذه العناوين يمكن دعوة الناس الى قبول الاستعمار والرضى بالحاكم

المجتمع وتحول الفكر الاجنبي ، ولهذا كله ما يخلق اختلافا بينا مع ما دعا اليه الاسلام من الجهاد ومقاومة الغاصب واليقظة والسعي في الارض واقتحام مجاهل العلم وكشف قوى الطبيعة والعمل المتصل .

ولا شك ان الطرق الصوفية في مذاهبها هذه تختلف اختلافا واضحا عن مذهب « التصوف العقلي او الجسدي الذى دعا الى رياضة النفس على قمع الشهوات ورفض الدنيا . فان هذا المذهب من شأنه ان يدفع المسلم الى الجهاد في سبيل الله مفطومة نفسه عن كل لذة او متعة تصرفه عن هذا الجهاد ، مؤمنا بالاستشهاد في سبيل الحق الذى يؤمن به حيث يرى الدنيا لا تغريه ، وهذا هو الفهم الصوفي الذى فهمه المجاهدون من المسلمين في الصدر الاول ، اما الزهد بمعنى الانصراف عن الدنيا فهو ليس مذهبا في الاسلام » .

وقد حرص دعاة التغريب من المبشرين والمستشرقين وأعوانهم من كتاب الغرب الى البحث في الصوفية واثارة مذاهبها ودعاواها والحديث عن المتطرفين من دعاتها امثال : السهروردي وابن عربي والحلاج وعبد القادر الجيلاني ، وهم في ذلك انما يهدفون الى بلبلة الفكر العربي واثارة مذاهب النحلية ومعقدة يقصدون من ورائها تصوير الاسلام بصورة غير صورته البسيطة السهلة ، ومن ذلك مذهب الحلول ووحدة الوجود و « الشريعة والحقيقة » وغير ذلك من مذاهب كلامية لم تكن اصلا من الاسلام وانما ادخلت عليه من الفلسفات المسيحية والهندية واليونانية .

* * *

دعوة الاجتهاد

حمل الفكر العربي المعاصر لواء الدعوة الى فتح باب الاجتهاد والعودة بالدين الى منابعه الاولى كخطة لمقاومة حملات التغريب والغزو الثقافي وكوسيلة لاشاعة اليقظة والتحرر من قيود التقليد التى كانت عاملا اساسيا في تجميد الفكر خلال حكم العثمانيين .

وكان محمد بن عبد الوهاب اول من حمل هذا اللواء متأثرا بدعوة احمد بن حنبل وابن تيميه . غير ان الوهابية لم تستطع ان تحرز المدى الواسع الكفيل باندفاعها ، ثم جاءت دعوات من بعد حملت هذا اللواء وانطلقت به الى اقاليمها ، كالمهدية والسنوسية وغيرها ، غير ان جمال الدين الافغاني كان اقوى من حمل هذا اللواء الى العالم الاسلامي كله في كلماته القليلة وكتاباته النادرة ، وفي مصر حمل اللواء من بعده محمد عبده ورشيد رضا والمراغي ، وتأثرت خطاه الشام فظهر بها الكواكبي والمغربي والعراق فظهر بها آل الالوسي وفي المغرب برزت الدعوة الى السلفية واحدثت اثرا كبيرا من الفكر العربي كسلاح قوى لمقاومة الاستعمار والتغريب والغزو الثقافي والتبعية الثقافية للغرب .

* * *

رأى الشيخ محمد عبده

ويرى الكثيرون ان محمد عبده هو عماد التجديد والاصلاح الديني في العصر الحديث (محمود الشرقاوي — ٣٦/١/٢٥ — البلاغ) فقد وضع في كتابه (الاسلام النصرانية) القاعدة حيث قال :

« عند النظر في اى دين للحكم له او عليه في قضية من القضايا يجب أن يؤخذ ممحصا مما عرض عليه من بعض اهله او محدثاتهم التى ربما تكون قد جاءتهم من دين آخر ، فاذا اريد ان يحتج بقول أو عمل لاتباع ذلك الدين في بيان بعض اصوله فليؤخذ في ذلك بقول او عمل اقرب الى منشأ الدين ، ومن تلقوه على سذاجته من صاحب الدين نفسه » .

ومن آراء محمد عبده في تعليم المرأة وتعدد الزوجات يقول « ان الاسلام يقرر المساواة بين الرجل والمرأة في جميع الأمور الجوهرية ، وان الاسلام لا تتجلى محاسنه باعتباره دين انزل للناس كافة في شيء اكثر مما يتجلى في تكريمه للمرأة والاعتراف بما لها من مقام » .

ويرى ان تجويز تعدد الزوجات في الاسلام كان لضرورات اجتماعية جعلته محتوما ، على هذه الاباحة قد شرطت لها شروط ، واحيطت بتحفظات هي مستحيلة استحالة عملية ، وان الزواج بواحدة هو الأصل وهو المثل الأعلى في الحياة الزوجية .

ويرى محمد عبده في مجال الاجتهاد ان للامام ان يمنع المباح الذى تترتب عليه مفسدة ما دامت المفسدة قائمة به ولو المصلحة بخلافه ، وعنه محمود الشرقاوي : ان الشيخ محمد عبده يرى ان الشريعة ليست شيئا جامدا

لا يتحول بتحول الزمن والمصلحة بل هى مطاوعة لذلك دائرة على منفعة الناس .

* * *

رأى رشيد رضا

ويرى رشيد رضا (٢٠ فبراير ١٩٣٦ — البلاغ) لتجديد قواعد الشريعة بعد الرجوع الى بساطتها الأولى : ان يقوم علماء المسلمين بتأليف كتاب جامع لكل العقائد والمبادىء الأدبية التى اجمع عليها المسلمون فى مختلف الفرق ، وأن ينقل هذا الكتاب الذى يعد دستورا الى كل اللغات التى ينطقون بها على ان يكون على قدر كبير من المسامحة والتوسع .

اما ما وقع فيه الخلاف فى صدر الاسلام فهو غير واجب ، ويترك فيه الأمر الى التخيير ، وكذلك مسائل الفروع يترك لكل مسلم أن يتبع فيها المذهب الذى يختاره

وعنده ان توحيد العقائد بهذا الدستور سيؤدى بمرور الزمن الى تخفيف حدة التعصب لمذهب معين .

ويرى انه بالنسبة لأحكام المعاملات والأمور الخاصة بالحياة والدنيا ومعايش الناس ينبغى ان تكون مستقلة عن الدين والا تعد جزءا من قانون مقدس لا يتبدل الى الأبد ولا يتغير ، بل يحكم فيها العرف على اختلاف الزمان والمكان .

ويرى ان طبيعة الاستمرار والجمود التى اوجدتها كتب المذاهب الأربعة المشهورة واوجدها اقفال باب الاجتهاد كان لها دخل كبير فى تأخر البلاد الاسلامية وعدول بعض الدول الاسلامية عن اتباع أحكام الشريعة.

ويرى مصطفى المراغى أن الموجة التى طغت على الشرق من الغرب ضد التدين اخذت تضعف وأخذ الشرق يدرك ضرر التقليد فى كل شىء ويدرك أن قوة الغرب وتفوقه لم يكن بهذه المسائل التافهة من التبرج والأناقة واختلاط الجنسين بل قامت على العلم والخلق ومجد الوطن » .

* * *

موقف التغـريب
إزاء الفقـه والتشريع الإســـلامى

كانت معركة الاســلام الـكبرى مع التغريب هى مواجهة الادعاء بأن الاسلام دين عبادة وصلوات وطرق صوفية وأن القرآن كتاب يقرأ للبركة ، وأن الاسلام بذلك يجب فصله عن الدولة .

وقـد حاول التغريب ودعاته تأكيد هـذه النظرية الخاطئة فى كل بلاد العالم العربى والاسلامى بواسـطة أجهزتهم المختلفة من صحافة وكتابةوجامعات ومحاضرات وأبحاث وذلك حتى يتم القضاء على الاسلام كنظام ومنهج اجتماعى وسياسى كامل .

والواقع كما يقول (نبيه أمين يونس) وهو احد المفكرين العرب المتصلين بدوائر الغرب (ك : هذا العالم العربى (ص ٤٦) أن الاسلام نظام تام شامل لمتطلبات الدنيا والآخرة ، وهو دين يعين علاقة الانســان بربه ، وهو نظام اجتماعى يحدد شـكل الأسرة وعلاقة الأفراد بعضهم ببعض ، وسلوك الأفراد فى معاملاتهم الدنيوية ، وهو نظام سـياسى وتشريع مدنى يعين شـكل الدولة وعلاقة الحاكم بالمحكوم وهو الى ما تقدم عـلم ومدنية وتاريخ) وانه لهذا كان بعيـد الاثر « فى توحيد العرب والمسلمين عاطفيـا وربطهم بوحدة المثل الأعلى وجعل النظم الاجتماعية والفكر متشابهة » .

وقد اشار جب الى أن « التغريب » اسـتطاع أن ينزل الاسلام من فوق عرشــه فى انظمة الحكم والاجتماع والاقتصاد والتربية والتعليم .

وكان أهم ما دعا اليه الغربيون فصــل العلم عن الدين وفصل الدين عن الدولة .

وفى مجال الفقه الاسلامى اسقط الاستعمار النظم الاســلامية والقوانين القــائمة وفرض بدلا منها الأنظمة والقوانين الأوربية المســتمدة من الشريعــة اليونانية والمسيحية دون النظر الى وجه الالتقاء او الخـلاف او الحاجة .

واثار فى ظل ذلك حملة ضخمة على الفقه والتشريع الاسـلامى متهما اياهما بالقصــور وعدم القــدرة على الاستجابة والتطور .

غير ان هذه الحملة قد تحطمت على صخرة عاتية ، فقد عقــدت مؤتمرات قانونية عالمية اشــادت بالشريعة الاسلامية ، كان أبرزها مؤتمر القانون المقارن فى لاهاى عام ١٩٣٢ الذى أكد مركز الشريعة الاسلامية كمصـدر للتشريع بعد البيانات والأبحـاث التى قدمهـا الدكتور عبد الرازق السنهوري وعلى بدوى ومسيو لامبير وكان من نتيجة هــذه الأبحاث أن قرر المؤتمر بالاجمـاع أن « الشريعة الاسلامية مصدر من مصادر القانون المقارن . وهى حية صالحة للتطور ومسايرة المدنية الحديثة وانهـا جديرة بأن تشكل مصدرا ممتازا من مصادر القانون وأكد استقلالها عن التشريع الرومانى » .

وقد أيد كثير من الباحثين الأوربيين المنصــفين قوة الشريعة الاسلامية وقدرتها على مواجهة مطالب العصر ، وكان المسيو ادوار لمبير ناظر مدرسة الحقوق الخديوية فى القاهرة عام ١٩٠٦ كان قد أعد مؤلفا عن القانون المقارن ضمنه فصل عن الشريعة الاسلامية ، فلما جاء مصر اتصل بأعلام الشريعة وتاريخها وأصول تطبيقها ، وقد كان يظن أن القانون الرومانى أثر تأثيرا كبيرا فى الشريعة الاسلامية ولكن تبين له بعد ذلك أن هذه الشريعة مستقلة بذاتها . واعلن أن فى الشريعة الاسلامية كنز لايفنى ومنبع لاينضب وانه خير ما يلجـأ اليه المصريون فى العصر الحـاضر فى البحوث العلمية حتى يعيدوا لمصر وبلاد العرب هذا المجد العلمى » وقال أنه استبان له أن ليس للقانون الرومانى أى اثر فى الشريعة الاسلامية وانها شريعة مستقلة .

واعلن ليفى اولمان استاذ الحقوق بجامعة باريس :

اعتبار الشريعة الاسلامية فى المعاملات مصدرا للقانون العصرى .

وقال الدكتور ايزيكو انسابياتو : ان الشريعة الاسلامية تفوق فى كثير من بحوثها الشرائع الأوربية بل هى التى تعطى للعالم أرسخ الشرائع ثباتا .

وقال فارس الخورى : ان محمدا أعظم عظماء العالم ، والدين الذى جاء به أوفى الأديان وأتمها وأكملها ، وان محمدا أودع شريعته المطهرة أربعة آلاف مسألة علمية واجتماعية وتشريعية .

ولم يستطع علماء القانون المنصفون الا الاعتراف بفضل الذى دعا الناس اليها باسم الله ولأنها متفقة مع العلم مطابقة لأرقى النظم والحقائق العلمية .

وقال سنتلانا فى بعض مؤلفاته : ان فى الفقه الاسلامى ما يكفى المسلمين فى تشريعهم المدنى ان لم تقل ان فيه ما يكفى الانسانية كلها .

وقال سليم باز المسيحى اللبنانى « شارح مجلة احكام العدلية » : اعتقد بكل اطمئنان بأن فى الفقه الاسلامى كل حاجة البشر من عقود ومعاملات ولقضيية والتزامات . وان فى مختلف خزائن البلاد الاسلامية وصور الكتب الأوربية فى هولندا وروما وبرلين وباريس والمتحف البريطانى والمكتبة البابوية فى قصر الفاتيكان ، الوف الكتب الفقهية الاسلامية التى هى جهود فحول العلماء ، وهى الشاهد الأكبر على انه لا يوجد معنى من معانى الأحكام المنشود فيها العدل ولا حاجة من حاجات البشر فى التشريع الا تقدم لفقيه مسلم قول فيه ، وقال الدكتور محمود فتحى أن نظرية « الاعتساف » التى ابتكرها القانون المدنى الألمانى ١٧٨٧ قد تكلم فيها التشريع الاسلامى طويلا ابتداء من القرن الثلث الميلادى (أى قبل الف سنة) .

وقال الدكتور شيرل عميد كلية الحقوق بجامعة فيينا فى مؤتمر الحقوقيين : ان البشرية لتفخر بانتساب رجل كمحمد اليها اذ انه رغم أميته استطاع قبل بضعة عشر قرنا ان يأتى بتشريع سنكون نحن الأوربيين أسعد ما نكون لو وصلنا الى قمته بعد الفى سنة .

وقال هولكم استاذ الفلسفة بجامعة هاوفارد : الشريعة الاسلامية تحتوى على جميع المبادىء اللازمة للنهوض .

وقال الدكتور عبد الرازق السنهورى : ان المقارنة بين الشريعة الاسلامية وبين شرائع الغرب كفيل بأن يظهر من ذخائر الشريعة الاسلامية فى المبادىء والنظريات مالا يقل فى رقى الصياغة واحكام الصنعة عن احدث المبادىء والنظريات واكثرها تقدما فى العالم الغربى .

وقال على بدوى : ليست مظاهر استقلال الفقه الاسلامى وتفوقه محصورة فى القواعد المدنية والأحوال الشخصية ولكنها تبينت كذلك فى عدة مواضع من التشريع الجنائى الاسلامى .

ويقول الدكتور صبحى محمصانى « فى كتاب العرب والحضارة الحديثة : التشريع الاسلامى كان وظل قادرا على التجاوب مع المجتمع . وقد فتح التشريع الاسلامى ابوابا للحفاظ على الغاية الاجتماعية والاقتصاد والاجتماع وقاعدة تغير الأحكام بتغيير الأزمان (المقصور الفتوى) مسالك لصرف التشريع الى غايته الأساسية وهى تحقق مصلحة المجتمع الانسانى وقال : ان التشريع الاسلامى كان قابلا للتطور والنمو وملائمة الأمكنة والأزمنة المختلفة التى مرت عليه .

واشار « حسن جلال » الى انه فى عام ١٩٥١ عقدت شعبة الحقوق الشرقية من المجمع الدولى للقانون المقارن مؤتمرا للبحث فى الفقه الاسلامى فى كلية الحقوق بجامعة باريس تحت اسم أسبوع الفقه الاسلامى ودعت اليها عددا من المستشرقين واساتذة القانون فى الدول العربية وجرت أبحاث حول الفقه الاسلامى ، وأشار الى أن نقيب سابق للمحامين فى باريس قال : « لست أدرى كيف أوفق بين ما كان يحكى لنا عن جمود الفقه الاسلامى وعدم صلوحه أساسا تشريعيا يفى بحاجات المجتمع العصرى المتطور وبين ما نسمعه الآن مما يثبت بجلاء أن الفقه الاسلامى يقوم على مبادىء ذات قيمة أكيدة لأمرية فى نفعها ، وأن اختلاف المذاهب فى هذا الجهاز التشريعى الضخم ينطوى على ثروة من الآراء الفقهية وعلى مجموعة من الأصول الفنية البديعة التى تتيح لهذا الفقه أن يستجيب بمرونة لجميع مطالب الحياة الحديثة » .

* * *

الرد على ادعاءات المستشرقين

ورد كثير من الكتاب المنصفين على ادعاءات المستشرقين فقال الدكتور صبحى محمصانى (ك . العرب والحضارة الحديثة) ان مازعمه بعض المستشرقين

من ان الشريعة الاسلامية مقضى عليها بالخمول قول فاسد وقال أن ابرز ملامح الشريعة الاسلامية (١) أن الاجتهاد واجب فيهـا والتقليد الأعمى محرم (٢) أن الشريعـة الاسلامية ليست مذهبا واحدا بل مجموع المذاهب (٣) أن توسيع الاستحسان والاستصلاح : كل ذلك كان له أثر فى جعل الشريعة الاسلامية من أعدل الشرائع واقربهـا الى المثل الاجتماعية العليا (٥) أن قاعدة تغيير الأحكام تطبق فى جميع المسائل التى لا يوجد فيها نص الى القرآن والسنة .

ودعا « جستنيان » ١٩٣١/١١/٧ (الأهرام) التي تجميع احكام الشريعة الاسلامية المتعلقة بالمعـاملات فى (باندكت) اسـلامى . وقال انه سـيكون خير معوان للاسترشاد به فى اعداد موسوعة اسلامية عن المعاملات

***

الدكتور السنهورى

وقد خطا الدكتور عبد الرازق السـنهورى خطوة واسعة فى سبيل التقنين الاسلامى المدنى عندما كان عميدا لكلية الحقوق فى بغداد فى وضع مشروع قانون مدنى جديد للعراق ، وأن المشروع وضع على اساس احكام الفقـه الاسلامى فى مذاهبه المتعددة (مطعما) بأحكام القوانين الأوربية .

وفى عام ١٩٣٨ بدأ الدكتور السنهورى والمسيو : لامبير فى وضع المشروع التجهيزى للقانون المدنى المصرى، متخذا من الشريعة الاسلامية اساسا وصفه « عبد المنعم الصدة » بأنه تراث قانونى طالما تنكرنا له وأصدرنا فيه احكاما بالبـاطل وقال : أن مصر رزئت بقوانين اقتبس معظمها من قوانين أجنبية وضعت لأناس يختلفون عنـا اشد الاختلاف فى العادات والأخلاق والبيئة ، واذا علمنا ان واضع قانوننا كان أجنبيا ادى مهمته فى أشهر معدودة، ولم يكلف نفسـه فى اثنائها سـوى القيام بنقل الأحكام التشريعية الأجنبية دون تعديل أو تحوير امكننا ان ندرك الى احدى كان التعديل الزم » .

وقد اشار الدكتور السنهورى فى مقدمة كتـابه « نظرية العقد » عن فكرته فى تمصير الفقه فقال : علينا أولا أن نحصر الفقه فنجعله فقها مصريا خالصا نرى فيه طابع قوميتنا ونلمس اثر عقليتنا ففقهنا حتى الآن لا يزال هو ايضا يحتله الأجنبى والأجنبى هنا فرنسى ، وهو احتلال آخر ليس بأخف وطأة ولا بأقل عنتا من أى احتلال آخر . ان لدينا ثروة تشريعية بفرض علينا واجبنا أن نسـتغلها وان نحسن استغلالها هى «الأحكام الشرعية الاسلامية» منها ما يعـد مبادىء عامة أساسية هى بمثـابة قواعد للنظام العام بحيث تسمو فوق كل تغيير أو تبديل ويتعين احترامها فى كل زمان ومكان » .

* ويقول الدكتور السنهورى فى كتابه نظرية العقد : « الشريعة الاسـلامية شريعة الشرق ووجهها الهـام وعصارة أذهان مفكريه ، نبتت فى صحرائه وترعرعت فى سهوله ووديانه ، فهى قبس من روح الشرق ومشكاة من نور الاسلام يلتقى عندها الشرق والاسـلام فيضىء ذلك بنور هذا ، ويسرى هذا فى روح ذلك حتى ليمتزجا ويصيرا شيئا واحدا ، هذه الشريعة الاسلامية لو وطئت اكنافها وعبدت سبيلها لكان لنا من هـذا التراث الجليل ما ينفخ روح الاستقلال فى فقهنا وفى قضائنا وفى تشريعنا ثم أنه ليشرفنا ان نطلع العـالم بهذا النور الجديد فيضىء به جانبا من جوانب الثقافة العالمية فى القانون وقال : أنها دعوة باطلة تلك التى يقول أصحابها ان الشريعة الاسلامية التى كانت صالحة بالأمس لم تعد تصلح لأن يؤخذ بهـا اليوم .

وقد اوضح الدكتور محمد كامل مرسى وسيد مصطفى فى كتـابهما (اصول القوانين) والدكتور على بدوى فى كتابه (تاريخ القـانون) بجلاء أن الشريعة الاسـلامية صالحة لكل زمان ومكان ، وانها غير ما يتوهمه البعض من ان احكام الشريعة الاسلامية ثابتة وغير متطورة ، وقال اننا حينما ننادى بالرجوع الى الشريعة الاسلامية لانطالب قلبا للأوضاع ومحوا لجميع الأحكام الحاضرة ، ذلك لأن جزءا كبيرا من التشريع الحالى يمكن قبوله واقراره وهو لا تنافى مع مبادىء الشريعة للاسلامية .

***

تجربة السنهورى

واشـار السنهورى الى تجربته فى التقنين المـدنى الاسلامى (١٩٣٦/١١/٢٧) قال : وضعت نصب عينى عندما بدأت العمل فى وضـع مشروع القانون المدنى ان اضع قانونا أوفق فيه ما بين احكام مجلة الأحكام العدلية وبين الشريعة الاسلامية بوجه عام . واحدثت الأحكام المدنية المعمول بها فى البلاد الغربية . بدأت بوضع نموذج اخترته من بين التقنينـات الغربية حديثها وقديمهـا ، واخترت لذلك بعض التقنينـات الغربية وعلى رأسـها

التقنين الفرنسى والتقنين المصرى والتونسى والمراكشى واللبنانى واخذت من المشروع الفرنسى الايطالى و لتقنينات الجرمانية نموذجا يعد فى نظرى المثل الأعلى للتشريع المدنى فى العصر الحاضر . وبحثت ما يقابله من مذهب ابى حنيفة والمذاهب الأخرى الاسلامية . وهكذا قدمت للعراق مشروع عقد البيع مأخوذا من احدث التشريعات الغربية ولا يكاد يختلف فى شىء عن أحكام الشريعة الاسلامية . وقد أخذ فقهاء المسلمين بعد تحفظات على وجهها الدكتور السنهورى .

* * *

موقف الفكر العربى من الحملة

وقد واجه الفكر الاسلامى المعاصر قضية التشريع الاسلامى مواجهة واضحة قوية كشف فيها عن عظمة هذا التشريع ومرونته وقدرته على مواجهة التطور والحضارة فى مختلف الأزمان والبيئات .

وقد دعا الفكر الاسلامى الى فتح باب الاجتهاد ورفض التقليد . وآمن بأن « المقلدون فى كل أمة المنتحلون اطوار غيرها يكونون فيها منافذ وكوى لتطرق الأعداء اليها وتكون مداركهم مهابط الوساوس ومخازن الدسائس » .

وظهر الاتجاه الى توحيد المذاهب الاسلامية وعدم التقليد بمذهب واحد ، على اساس الحقيقة التى تقول بأن الشريعة الاسلامية ليست مذهبا واحدا بل هى مجموع المذهب دون تقييد .

وقد كشف عن ان الخلاف بين المذاهب لم يقم على المبادىء والتعاليم الأساسية بل كان وقفا على الفروع ، وان اختلاف المذاهب كان من اسباب مرونة الشريعة الاسلامية وتطورها ، وان بعض الأحاديث قد وضعت فى بعض عصور التاريخ الاسلامى خدمة للسياسة وانتصارا لبعض الأحزاب (الدكتور محمصانى (ك) العرب والحضارة الحديثة) .

وكشفت الدراسات المختلفة عن ان الجماعة الاسلامية اعتقدت فى العصور المتأخرة ان أبواب الاجتهاد قد اقفلت فى وجه اى تفسير مما ادى الى ركود المجتمع الاسلامى . وان الحركة الوهابية سبقت الغزو الثقافى وكانت ايذانا باليقظة وفتح باب الاجتهاد ، وقد ظهر هذا التيار وتعمق من بعد داعيا الى العودة الى القرآن والسنة واعادة فتح باب الاجتهاد واعادة تفسير قوانين الاسلام للجماعات وكشف الطبقة الجامدة التى علت وجه الفكر العربى الاسلامى وجرى تطويع القوانين العلمانية الغربية للحياة الاسلامية كما فعل الدكتور عبد الرازق السنهورى فى اعداد القانون المدنى فقد نص فى آخر مادة فى هذا القانون على انه اذا درست قضية وثبت انه لا يطبق عليها اى قانون وجب أن يعتمد الحكم فيها على ارحب تفسير لأى قانون اسلامى فى أحد المذاهب .

وكشفت هذه الابحاث عن حقائق لا سبيل الى الشك فيها وهى أن الاسلام من حيث كونه نظاما مدنيا قد توافرت فيه مرونة تمكن المجتمع الاسلامى من التطور دون اهمال قواعده الأساسية باقراره حكم العادة والاجتماع والاجتهاد .

وانه تشريع مرن قابل لأن يكون تشريع كل زمان ومكان وله القدرة على مسايرة حاجات المدنية الطارئة واحوال المجتمع المدنية .

وان الاسلام لم يكن عائقا للمجتمع عن التقدم ، وكانت صيحة جمال الدين الباكرة « يجب أن تتحرر عقول الناس من كدر الخرافات وصدأ الأوهام » وان الاسلام دين ومجتمع وسياسة واقتصاد .

وكان هذا ردا حاسما على الحملات العنيفة التى وجهها الغرب الى الاسلام بقصد تنحيته عن مكانه فى الحياة العربية والقضاء على جوهره ومفاهيمه فى الجهاد والمقاومة والحرية من ناحية والقضاء على جوانبه السياسية والاقتصادية والاجتماعية بغليب الأنظمة الغربية بحسبانه انه القوة التى تقاوم الاستعمار ، وذلك جريا وراء تمزيق الوحدة واضعاف الجبهة المذهبية والعصبية الشعوبية والحيلولة دون مبادىء الاسلام وتعاليمه وبين التطبيق والبقاء مع صلاحيتها التامة المجتمع وقابليتها للتطور وضرورة بقائها .

وقد قال (ويلفرد كانتول شمت) بصدد الاشارة الى محاولة بناء مجتمع اسلامى فى القرن العشرين ان تاريخ الشرق الأدنى الحديث يدل على ان القومية المجردة ليست القاعدة الملائمة للنهوض والبناء ، وما لم يكن المثل الأعلى اسلاميا على وجه من الوجوه لن تثمر الجهود البته .

وبذلك كله فشلت دعوة التغريب فى « اقصاء الاسلام عن مجال الحياة ومناهج التربية والقضاء والحكم » .

الأزهـــــر

لمـــا كان الأزهر هو اداة الاســـلام وبوتقته فقـــد حرص الاســـــتعمار فى أن يوجـــه اليه اعنف حمـــلة وجهها فى معركة الغزو الثقافى كمحاولة للتضــــاء عليه كمعقل من معاقل الاســـلام واللغة العربية ، وعاملا من عوامل التجمع الوطنى والقيـــادة الشعبية . ولم ينس الاســـتعمار انه كان مركزا ضـــخما من مراكز المقـــاومة للاســـتعمار الفرنسى ۱۷۹۸ والاستعمار الانجلـــيزى فى ثورة ۱۹۱۹ ، كان بوتقة الحركة الشعبية التى قاومت ظلم الحكام والأمراء والمماليك فى عهد ابراهيم ومراد ثم فى عزل الوالى خورشيد .

ولمـــا كان الاستعمار حريصـا على القضاء على كل ما يتصل بالدين واللغة والتـــاريخ من مقومات الفـــكر والشخصية العربيةالاسلاميةفقد كانت الحملةعلىالأزهر خفية مستترة لهاطابعدقيق حتىلاتثير ثائرة الشعب ، وقد استطاع الاستعمار بأساليبه الماكرة أن يدير المعركة من الداخل وان يركز على التعليم المدنى ويعزله عن الأزهر على نحو خلق ثنـــائية التعليم . اقصى الدين عن التعليم المدنى . ثم اضطهد بواسطة كرومر ودنلوب كل المدرسين الأزهرين وابعدهم عن المدرسة المدنية . بل أن هـــــذا الاتجاه قد عمقه الاستعمار فى محيط الحياة العملية حتى ابعـــد خريجى الأزهر عن جميـــع الوظائف فى دواوين الحكومة .

وقد كان الصراع الداخلى فىالأزهر هو اهم العوامل التى أوقفت خطة اصـــلاح الأزهر فقـــد قامت فى الأزهر جبهتين هما : جبهة الاصلاح والتجديد والاجتهـــاد وعلى راس هذه المدرســـة الشيخ محمد عبده والجبهة الأخرى هى جبهـــة التقليديين والمحـــافظين والمؤمنين بغلق باب الاجتهاد وابقـــاء الأنظمة القديمة فى التعليم على ما هى عليه ، لذلك قامت منذ اول القرن معركة متصلة بشـــأن تجـــديد الأزهر واصـــلاحه وتنظيمه . وليس شـــك أن الاستعمار كان حريصا على تجميد الأزهر وابقـــاءه على منهجه القديم لا يستجيب للزمن كوسيلة من وسـائل افنائه والقضاء عليه .

كما واجه الأزهر حملة اخرى من خارجه قام بهـــا تلاميذه الذين اتجهوا الى الدراسات الأوربية والغربية ، واتصـــلوا بالمستشرقين والمبشرين وكانوا اشد عنفـــا وقسوة من الاستعمار عليه : أمثال طه حســـين وزكى مبارك وعلى عبد الرازق .

وقد اتصل الاستعمار بالأزهر على نحو ما ، حين ارتبط اعضاء هيئة كبـــار العلماء بالســـفارة البريطانية والخديو والملك والاحزاب السياسية وكان الأزهر يوما ما اداة فى هذا الصراع بين الملك والأحزاب .

وفى هذا ما اشار اليه المقطم (ابريل ١٩٢٦) من ان كبار العلماء وفى مقدمتهم أصحاب الفضيلة الأســـتاذ الأكبر شـــيخ الجامع الأزهر ورئيس المحـــكمة الشرعية العليا ومفتى الديار المصرية بعد احياء ليلة القدر فى جامع الرفاعى يتوجهون الى دار المندوب الســـامى فى الساعة العاشرة من مساء اليوم « اجابة لدعوة فخامه لورد لويد فيقضون السهرة فى تلك الدار » .

وقد كان ذلك مثارا لمعركة حامية اريد بها تشويه سمعة الأزهر فقد كتب فكرى اباظة فى الأهرام (٩/٤/ عام ١٩٢٦) يقول « اذن من الساعة العـــاشرة حتى السحور سيمضى اصحاب الفضيلة العلماء السهرة فى دار الوكالة البريطانية بعد جامع الرفاعى. اى انهم سيمضون ليلة القدر فى دار الوكالة . « يعيش الاسلام يا علمـــا » ليلة القدر التى هى خير من الف شهر ، والتى يتلى فيهـــا القرآن وتصـــلى فيها الصلوات وتؤدى فيها العبـــادات سيمضيها اصحاب الفصيلة فى دار حضرة صاحب الفخامة الحســـيب النسيب الشريف اللورد لويد الســـكسونى البروتستانتى الأصلى .

كلوا هنيئا واشربوا مريئا بالله عليكم سادتى العلماء ليلة القـــدر فى دار الوكالة البريطانية ولكن . . اذا رايتم اللورد قد اضطر لشرب كاس من الوسكى حسب عادته « فصهينوا » أن الله يحب المصهينين يا علماء : اعربوا ما ياتى « رحم الله امرأ عرف قدر نفسه » .

وسخرت السياسة الاسبوعية (١٠/٤/١٩٢٦) من

الشيخ محمد بخيت مفتى الديار المصرية حين اشارت الى ان دعاءه ليلة القدر فى دار المندوب السامى كان :

اللهم يا مجيب كل سائل ورازق كل عالم وجاهل ، انزلنا بسلطانك من هذه الدار خير المنازل وامنحنا حمايتها من كل لائم وعادل . وقربنا اللهم من ذى البأس الشديد مولانا السيد العميد ، وابسط لنا فى ظله المدود وحوضة المورود » .

وقد كان هـذا جزءا من حملة الغزو الثقـافى التى حرصت على تصوير الأزهريين بصورة مغرقة فى المادية، وذلك عن طريق ايجاد فوارق فى التقييم المادى للمتخرجين من النوعين من التعليم مما جعل الأزهرين يتصورون انهم اقل قيمة أدبية واقل منزلة . وكان اتجاه الأزهريين الى طلب المساواة فى التقدير المادى هو ما استغله الاستعمار لتصوير الأزهريين بأنهم أصحاب دنيا وليسوا أصحاب رسالة على نحو ما صوره الدكتور محمد البهى ــ « بأنه أدى الى أن تخف منزلتهم رويدا رويدا من نفوسهم ، ويعلم الله انهم لم يكونوا أصحاب دنيا وانما ارادوا أن يعيشوا فقط من أجل رسالة ازهرهم وهى فى الواقع رسالة مقاومة الاستـعمار » . واشار الى أن هـذا العمل قد بلغ به المستعمر غاية له وهى « اضعاف المنزلة الأدبية للأزهر والمتخرجين فيه فى الراى العام المصرى والراى العـام الاسلامى العالمى » ..

* * *

(٢) الأزهر والاستعمار

وتتجلى مفاهيم الاستعمار لرسالة الأزهر فيمـا صوره لورد لويد ١٩٢٨ عن المهمة التى بدأها لورد كرومر ومضى فيها لتعويق الأزهر عن مهمته والحيلولة بينه وبين رسالته ، ومن رأى الاستعمار أن الأزهر هو مركز خطير من مراكز الدعاية ضد بريطانيا وأنه فى مهمته تلك متعدد الامكانيات ، وان الوطنيين قد استغلوا ذلك لتأييد مآربهم مما ترتب عليه نمو روح المعارضـة الشديدة لسـيطرة الانجليز على التعليم . ولما كان الانجليز يريدون القضاء على كل مقاومة فقد اتجهوا الى الأزهر الذى كان اسلوبه الوطنى عاملا هاما من عوامل المقاومة لتمسكه بالدين ووصـفوا منهجه بأنه من الأساليب الجـافة القـديمة التى تقف حاجزا فى طريق اى اصلاح تعليمى كما وصفوا خريجى الأزهر بأنهم يحملون معهم قدرا عظيما من غرور التعصب الدينى ولا يصيبون الا قدرا ضئيلا جدا من مرونة التفكير والتقدير .

وكان الاســتعمار يهدف من وراء ذلك الى غرض ماكر هو ان يلتقى الأزهر بالاستعمار فى « مرونة » تبعد عنـه ما أطلق عليه روح التعصـب . فاذا لم يستطع الأزهر التجـاوب فان ممثل بريطانيـا يعمد الى تجميد الأزهر والاتجاه الى التعليم المدنى الذى يحقق له ما يريد من تفاهم ولا شك ان ممثلوا الاستعمار البريطانى قـد اخفقوا فى ان يحققوا هذا اللقاء مع الأزهر كما اخفق من قبل المستعمر الفرنسى وفى كلا الحـالين عجزوا عن أن يحققوا فى الأزهر خطة تؤدى الى ما أطلق عليه « اختفاء التعصب » والواقع ان اصلاح الأزهر على النحو الذى اراده له الأبرار من دعاته لم يكن المقصود به القضاء على روحه الوطنية فى مقاومة الاستعمار وانما كان يراد به ان يحقق عن طـريق فتح باب الاجتهـاد والتطور فى نظمه ومناهجه خلق قوة أشد قوة لمقاومة الاستعمار والغـزو الثقافى واسـتبداد الملوك وطغيان الساسـة والاقطاع وفســاد انظمة المجتمع الســياسية والاجتماعيـة والاقتصادية .

فهذه هى المهمة الأساسية التى كان الأزهر مسئولا عن مواجهتها على نحو ايجابى قوى .

* * *

(٣) الأزهـــــر والسياسة

تأثر الأزهر بالصراع الحزبى وسـيطرة الاستعمار بعد ثورة ١٩١٩ وجرى فى مجارى الحزبية السياسية ، وكان أن أصبح للأزهر لونا حزبيا ومشـاركة فى الخلاف بين الملك والوزارة أو بين الأحزاب بعضـهـا البعض ، ويروى عبد الرحمن الرافعى (ك : فى أعقـاب الثورة جـ ١) « أنه ظهرت فى نهاية وزارة سعد زغلول ١٩٢٤ معارضة قوية فى صـفوف الأزهريين ضد وزارة سـعد ولم يعرف على وجه التحقيق سر هذا التحول على انه قد بدأ على اثر تقديم لجنة الفتها الحكومة لاصـلاح الأزهر تقريرها الى الحكومة وعدم نشره وحسبان الأزهريين أن مطالبهم لم تتحقق فأضربوا عن الدرس فى أوائل نوفمبر ، وقام المضربون فى العاصمة بمظاهرة كبيرة فى الشـوارع نادوا فيها نداء جديدا لم يكن مألوفا من قبل : « لا رئيس الا الملك » بعـد أن كان نداءهم المألوف « لا رئيس الا سـعـد » فعرف من اية ناحية حدث الايعاز بهـذا الاضراب وفهم أن السراى ارادت ان تحـرج الوزارة فأثارت مسألة الأزهـر وكان معروفا أن السراى تؤلب الأزهر على الوزراء وتدبر مظاهرات الأزهريين » .

وفى مذكرات الشيخ الظواهرى اشار الى ظروف تعيين شيخ الأزهر (أواسط عام ١٩٢٧) بعد وفاة الشيخ أبو الفضل الجيزاوى . وتدخل اللورد لويد فى شئون الدين ونصيحته بتعيين الشيخ المراغى .

وقد أثار الظواهرى شبهات كثيرة وكان خصما للمراغى وعلى خلاف دائم معه خلال فترة تبادلهما تولى مشيخة الأزهر الواحد بعد الآخر فى خلال فترة تمتد من عام ١٩٢٧ الى عام ١٩٣٥ .

وكما وقع الخلاف بين الشيخ محمد عبده — ولم يكن شيخا للأزهر — وبين الشيخ سليم البشرى شيخ الأزهر حول اصلاح الأزهر وتجديده . فقد صنع الاستعمار محورين فى الأزهر : أحدهما المراغى (٢٢ أغسطس عام ١٩٤٥) داعية اصلاح الأزهر والرجل الذى يدين بمذهب محمد عبده وابن تيميه فى مفاهيم الاصلاح وتحريره من الزيوف والبدع وبين الظواهرى (١٣ مايو ١٩٤٤) صديق الملك فؤاد والرجل الصوفى المعروف بمحبته للأولياء والمؤمن بروح الأزهر التقليدية. وقد تولى المراغى شيخا للأزهر على كره من الملك فؤاد ثم قدم مذكرته فى اصلاح الأزهر ، وكان لها ضجيج فلما احس بمعارضتها من جهات متعددة كانت لا ترغب فى تطوير الأزهر قدم استقالته ، هنالك ولى الظواهرى هذا المنصب وأتيحت له الفرصة لأن يتحقق على يديه تنظيم للأزهر فى صورة الأنظمة الحديثة .

ويقتصر مفهوم الاصلاح عنده الى حد تهذيب الكتب وطرق التدريس . غير أن عهده وقد اقترن بظروف سياسية حادة فاضطر الى أن يواجه ثورة أزهرية ضخمة كانت تطالب بعودة المراغى ، فلم يلبث أن استقال وعاد المراغى الى الأزهر مرة أخرى .

ولقد حاول الشيخ الظواهرى فى مذكراته أن يصور الشيخ المراغى بأنه صديق الانجليز لأنه امضى مدة طويلة من حياته فى القضاء الشرعى فى السودان « وكان طبيعيا أن تنشأ الألفة والمودة بينه وبين كبار الموظفين البريطانيين وساستهم فى ذلك القطر الشقيق » .

وانه « هذه الفترة الطويلة التى قضاها الشيخ المراغى قاضيا فى السودان قد مهدت له الفرصة الواسعة لكى يتعرف على عقلية هؤلاء الانجليز ويتفهم مشاربهم ومقدار تفكيرهم وحكمهم على الأشياء فلقد تصادقوا ، ولقد جلس وتناقش معهم فتبادلوا المودة وارتاح كل منهم للآخر » . واشار الظواهرى الى أن « المراغى » قد اشتهر عند الانجليز بسعة العقل والفكر وذلك « عندما أفتى ابان الحرب العالمية الأولى وكانت تركيا قد اعلنت الحرب وقتئذ على بريطانيا بأنه لا مانع من محاربة المسلم لأخيه المسلم . فقد كانت هذه الفتوى من أسباب استقرار النظام حينئذ فى السودان » .

واشار الظواهرى أيضا الى أن الشيخ المراغى الذى رشحه الانجليز كان منذ تخرجه قد ترك الأزهر فنسيه زملاؤه الأزهريون لأنه لم يجلس معهم للتدريس على الكراسى المقامة بجوار الأعمدة ولم يتخرج احد من الطلبة على يديه .

وذكر الظواهرى ان عودة المراغى للمرة الثانية الى الأزهر كانت بسعى الانجليز أيضا وان ذلك كان ابان مرض الملك فؤاد اذ طلب مايلز (لامبسون) السفير البريطانى تعيين المراغى شيخا للأزهر ، وتساءل عن الدوافع لرغبة الانجليز فى عودة المراغى للأزهر ، « اعلان ذلك صراحة فى الجرائد مع أن هذا المنصب ، منصب دينى ولم يسبق تدخلهم فيه بهذا الشكل الظاهر » واشار الظواهرى الى أن الأزهر قد زج به فى خضم السياسة الحزبية فيما عدا تدخل الأحزاب والمندوب البريطانى فى اختيار شيخ الأزهر وذلك « عندما ، تألفت فى الأزهر لجان للوفد وأخرى للأحرار الدستوريين ، فانصرف الطلبة بالسياسة عن الدرس وعن التحصيل والتفقه فى الدين وشغلوا بالنقاش السياسى والتهريج السياسى والدعاية السياسية » ا . هـ .

وفيما يتصل بالسياسة وموقف الأزهر من الملك ، اخذ على علماء الأزهر انهم أيدوا رغبة الملك فؤاد فى مطمعه بالخلافة وعقدوا مؤتمرا هاما لتأييد تنصيب الملك فؤاد خليفة للمسلمين بالرغم مما قد يتعارض مع مفهوم الحاكم واهليته لمثل هذا المنصب الاسلامى الكبير مما عد انه تأييد من الأزهر لحاكم مستبد .



الازهـــر ودعـــاة التغــريب

ولقد كان للأزهر دوره الواضـــح فى مقاومة دعاة التغريب اذا دافع عن الاســـلام ازاء كل حملة من هـــذه الحملات ، فقد هاجم الأزهر : الالحاد والاباحة والبغـــاء والتبشير ووقف موقفا حاسما بالنسبة لكتابى « الاسلام واصول لحكم » لعلى عبد الرازق و « الشعر الجاهلى » لطه حسين باعتبارهما أزهريين .

وقد كان هذا سببا هاما من أسباب حملة الصحافة على الأزهر ، وخاصة جريدة السياسة والصحف ذات اللون التغريبى ، وقد حملت جريدة السياسة على الشيخ محمد بخيت انتصارا للشـيخ على عبد الرازق وبلغت فى ذلك حد القول (١٢ اغسطس ١٩٢٥) « بأن الدستور يكفل للناس حرية الاعتقاد . ويبيح لهم بذلك أن يتبرئوا عن دين الاســـلام من غير أن يكون لهم فى ردتهم جـــرح وهذه قوانين الدولة تبيح لهم الخمر وبمنازل الدعارة ، وبيوت القمار رخصا وتصدر ببيوت الربا قوانين » .

ورد الشيخ بخيت يهاجم هـــذا المنطق ويقول كيف يعقل أن الدستور يبيح المسلمين أن يرتدوا عن دين الاسلام .

وقد سخرت السياسة الأسبوعية (١٩٢٦/٤/١٠) من الشيخ بخيت فقالت « أنه لا يعرف شيئا فى الشـــيخ بخيت ثابتا لم يتغير الا عمامته فانه والحق يقال لم يغيرها الا مرة واحدة يوم توفى الشيخ سليم البشرى شيخ الجامع الأزهر » واتهمته بأنه يتلون بكل لون وينتقل فى أى شكل لأنه اشتغل فى مطلع عمره باخراج العفاريت !

كما هاجمت السياسة الشيخ محمود ابو العيون فى حملته على البغاء أعنف الهجوم .

وهاجم طه حسين الأزهر سنوات طويلة بعد معركة كتاب الشعر الجاهلى .

وكان فى حملاته بعيدا عن روح البحث العلمى الذى يدعى انه من رواده ساخرا متهكما كقوله « انا أعلم أن عمامة الشيخ تضيق بفهم هذه الكتب العلمية الخالصة التى يطبعهـــا جمـــاعة من المصريين والأجانب الشرقيين والغـــربيين » وكان ذلك فى موقف دفاع من الأزهـــر من كتاب حوى سبا للاسلام كان مقررا على طلبة الجامعة .

كما دعا طه حســـين الى الغـــاء الأزهر والى منع خريجيه من الاشتغال بأى عمل من الأعمـــال ، ودعا فى كتابه مستقبل الثقافة الى ان يصبح الأزهر كلية دينيـــة يدخلها من شاء بعد ان يتم تعليمه الثانوى — ولطه حسين مقال معروف ٣١ اغسطس ١٩١٣ قال « وجه الصواب فى اصلاح الأزهر عبارة عن حملة عنيفة على نسق الشعر المنثور ، هكذا هم جاهلون فى اللغة العربية ، هم جاهلون فى الفارســـية والتركية والهندية ، هم عاجزون عن أن يذودوا عن الدين ويردوا عنه كيد خصومه. هم عاجزون لانهم يجهلون الديانات الأخـــرى ، هم عاجزون عن رد المخالفين . هم عاجزون عن أن يؤدوا ما للاسلام عليهم» والمقال كله قطعة من الحقد والخصومة والتعصب .

ولعلى عبد الرازق حملات متعددة على الأزهر غير ان أعنف ما كتب هو محاضرته التى القـــاها فى الجامعة الأمريكية ١٩٣٢ (عن الدين وأثره) فى وقت كانت البلاد تضـــج من آثار حملة التبشير التى كان مصـــدرها نفس الجامعة الأمريكية .

وقد وقف على عبد الرازق على منبر الجـــامعة الأمريكية ابان هذه الحملة ليقول : أن حركات التبشـــير المسيحى لا خطر منها على الاسلام .

ولقد كان هـــذا عملا خطيرا فى عالم الفـــكر عندما تستخدم الجامعة الأمريكية — مصدر التبشير والتى كانت تواجه أعنف حملة من الصحف والأزهر ورجال الفكر — شيخا ليهزأ بالتبشير ولقد كان هذا نفس موقف طه حسين الذى تحدى المشاعر الوطنية والاسلامية فافتتح موسم

المحاضرات فى الجامعة الأمريكية فى عام التبشير — يقول على عبد الرازق « يخيل لمن يسمع حينا بعد حين أن المبشرين قد فتنوا طفلا أو خادعوا فتاة أن الأمر جلل وأن الاسلام منهم على خطر . غير أن الذى يستنطق الأرقام ويستمع الى صوت الحقائق يجد أولئك المبشرين أقل شأنا من أن يصلوا بكيدهم الى حمى الاسلام أو ينالوا منه منالا ، ولن تبلغ جهود المبشرين وان تعاظمت ولا حيلهم وأن دقت ما بلغت من قبل تلك الغوائل التى تقف فى طريق الاسلام » .

وقد حاول على عبد الرازق فى محاضرته بعد أن عدد ما وقع للاسلام من أخطار أن يعلن أن الاسلام بخير ، وهو منطق عجيب .

أشار الى أن المصريين قد احتكموا الى غير قوانين الاسلام وأن القوانين قد أصبحت فى مصر تؤخذ أحيانا من قوانين أوربا والى أن الاسلام صريح فى تحريم الربا ، وأن المصريين قد أخذوا نظام البنوك ، وأشار أن الأزهر قد أنشأ لتعضيد السياسة بانشاء قوة دينية « وما برح الأزهر يومئذ ربيب السياسة وآلة الحكام السياسيين وسندهم » ثم أشار الى الغاء الخلافة وتساءل عما اذا كانت هذه الأحداث كلها قد أثرت فى الاسلام . ثم قال انها لم تضعف روح الدين وقال ان اصابة الخلق المصرى بالضعف والانحلال ظاهرة خلقية أنبغى أن يشتغل بالبحث عنها علماء الأخلاق قبل علماء الدين ، وقال أن خطر المبشرين هو خطر سياسى وخلقى أكثر مما هو دينى وعلى رجال السياسة والأخلاق أن يبحثوا فى طريق الخلاص منه » وكان مفهوم الشيخ على عبد الرازق فى « الدين » هو مفهوم المبشرين والمستشرقين وخصوم الاسلام وهو أن الدين عبادات وليس نظاما اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا ثم سخر من الدين والاسلام والأزهر فى نهاية محاضرته وقال « من كان يظن أن الاسلام بين جدران الأزهر وبين اللحى والعمائم فان الحضارة الحديثة فى مصر ستقضى على دينهم الذى يزعمون وتجتثه أصولا وفروعا » .

* * *

الدفاع عن الأزهر

وقد حاولت الصحافة الغربية أن تصور الأزهر فى كل مناسبة بصورة رجعية جريا مع معركة الغزو الثقافى .

ومن ذلك أن جريدة المورننج بوست كتبت فى (يناير عام ١٩٢٤) عن الأزهر أنه هو « تلك البؤرة التى تضغط فيها على الأفكار لطمس العلوم حيث ما زال التلاميذ يتعلمون أن الأرض مسطحة وأن الشمس تدور حولها «

وقد تصدى للرد على هذا رجل من خارج الأزهر هو أحمد زكى باشا (الأهرام ١٩٢٤/٢/١) فأشار الى ماذكره الشريف الأدريسى وفضل الله العمرى وشهاب الدين النويرى والأصفهانى « وكلهم قالوا بكرية الأرض من القاهرة التى نعيش فيها » . وقال ان علماء الأزهر قالوا بكرية الأرض . وانها تدور حول الشمس بينما كان البابا بعد ذلك بزمان طويل يصب أنواع التعذيب والتعزير على كل من هذين العبقريين الطليانى والبولندى اللذين قالا بعدهما فى بلاد أوربا بمثل هذا القول » .

* * *

مواجهة الأزهر الحضارة

وتعرض كثير من الكتاب للرد على ما اتهم به الأزهر من روح الجمود التى ترددت فى كثير من كتابات المبشرين والمستشرقين ودعاة التغريب بأن الأزهر قد شارك نقطة باكرة وكان له دور ضخم فى ميدانين :

الأول : مواجهة الحضارة بروح الاسلام وتقبل جوانبها الايجابية .

الثانية : مواجهة الاحتلال والاستعمار ومقاومته والجهاد فى سبيل دفعه وقتاله فى أكثر من معركة .

وقد كشفت هذه الأبحاث أن الشيخ حسن العطار وتلاميذه هى المدرسة الأولى التى واجهت الحضارة الغربية ابان الحملة الفرنسية ، فقد كان العطار خطيب أول حفل لتخريج أول فوج لمدرسة الطب فى كلمة أشار فيها الى أن العلم دولى وأن الحضارة عالمية وأن الأغريق والمسلمين ساهموا فيه يوما ما وأن الأوربيين الآن هم أصحابه وأن على المسلمين المحدثين أن يقبلوا عليه .

وهو الذى حرض تلاميذه على عبور البحر الى الغرب . فكان تلميذه رفاعة الطهطاوى أول رائد للفكر العربى المعاصر فقد استطاع وهو الأزهرى أن يدرس الفرنسية وأن يترجم منها وينشىء تيارا ضخما قوامه الجمع بين ثقافة العرب وثقافة الغرب .

وقد قام رجال الأزهر فى هذه الفترة بدور ضخم فى الدفاع عن مصالح الشعب وقد كان علماء الأزهر كما وصفهم الشيخ الشبراوى (١٧٥٠) « انما نحن المتصدرون لخدمتهم وقضاء حوائجهم عند أرباب الدولة والحكام » .

ولم يبد الأزهر مقاومة لحركة التجديد ، بل تقبلها وأعلن أن الاسلام لا يمانع فيها ، وقد أشار الشيخ الجبرتى الى انه شاهد مع الشيخ العطار بعض تجارب العلم وأعلن أن الاسلام اقرب الى التجدد منذ البداءة وان التغريب ليس له قيمة اذا اقتصر على مجرد التقليد للغرب دون أن يكون تطعيما للميراث القديم .

* * *

صلاح الأزهر

وأشار الباحثون الى أن الأزهر حفظ اللغة العربية من طغيان اللغات الوافدة عليها ومن غلبة العامية وان الشيخ حسن العطار أول من نبه الى اصلاح الأزهر بتقصى برنامج العلم فيه وكان شيخا له (١١٨٠ — ١٢٥٠) وأشار الى النقص كان سببه اهمال كتب المتقدمين واهمال العلوم الحديثة والرياضة وان الحملة الفرنسية كان لها اثرها فى نفسه .

كما دعا الى اصلاح الأزهر رفاعة الطهطاوى وهو تلميذه الذى وجهه الى دراسة العلوم التى نبغ فيها الغرب . وقد دعا رفاعة الى ادخال العلوم العصرية فى الأزهر .

وكان جمال الدين الأفغانى من دعاة اصلاح مناهج الأزهر وقد درس لمريديه خارج الأزهر علوم الكلام والحكمة والهيئة والتصوف .

وقد جرت فى هذه الفترة محاولات لادخال العلوم الرياضية والفلسفة غير أن شيوخ الأزهر كانوا يرون بقاء القديم على قدمه ، وان النظر فى تلك العلوم ليس من شأنهم ولا حاجة لهم به — على حد تعبير عبد المتعال الصعيدى فى كتابه « تاريخ اصلاح الأزهر » .

* * *

دور الشيخ محمد عبده

وتردد حديث طويل عن دور الشيخ محمد عبده فى اصلاح الأزهر والمؤامرات التى واجهت هذه الاصلاح . فقد حاول اقناع الخديو عباس باصلاح الأزهر وقال : « أن فى الامكان اصلاح الأمة باصلاح الأزهر والمحاكم والأوقاف » غير ان كل ما وصل اليه هو انشاء مجلس ادارة الأزهر ١٨٩٦ م كان هو وعبد الكريم سليمان من أعضائه وقد جرى خلاف فى وجهات النظر حول مدى الاصلاح . وكان من رأى محمد عبده أن يكون اصلاحا كاملا يقضى على كل أثر للجمود فى الأزهر (على حد تعبير عبد المتعال الصعيدى) فلم يوافقه أولو الأمر ونصحوه بالتدرج وكان من رأى بعض شيوخ الأزهر الجامدين اصلاح نظام التدريس والامتحان وكان هدف محمد عبده من شقين : الأول : الاصلاح الدينى وبعث روح الاجتهاد (والثانى) اصلاح المناهج .

وتحقق بذلك وضع قانون يقوم باصلاح نظام التدريس والامتحان أصبح به الأزهر ادارة نظامية وقد سجل قانون الأزهر رقم ١٠ لسنة ١٩١١ أن الغرض من الجامع الأزهر هو :

- القيام على حفظ الشريعة الغراء أصولها وفروعها .

- تعليم اللغة العربية ونشرها على وجه يفيد الأمة .

- تخريج علماء يوكل اليوم أمر تعليم هذه العلوم فى المعاهد الدينية ومدارس الحكومة .

وقد روى أن الشيخ عبده هوجم فى معارضته للنظام القديم وقيل له فى مجال التدليل على تأكيد النظام القديم انه تعلم ووصل عن طريقه الى أرقى الدرجات فأجاب « أن كان لى حظ من العلم الصحيح فأنى لم احصله الا بعد أن مكثت عشر سنين اكنس من دماغى ما علق به من وساخة الأزهر وهو الى الآن لم يبلغ ما اريده من النظافة » .

غير أن النظام الذى اقره الشيخ عبده لم يلبث أن عطل عند ما وقع الخلاف بينه وبين الخديو فانقلب أهل الأزهر على النظام الحديث ووجه الشيخ الظواهرى خطابا للخديو يطلب فيه الغاء النظام الجديد والعودة الى

ما أسماه « الدين كما تركه لنا الائمة » مشيرا الى « أن ما سوى ذلك من امور الدنيـا وعلوم الأعصر فلا علاقة للأزهريه» وكانت الحجة التى حمل لواءها دعاة المحافظة هو أن النظام الجديد من شأنه أن يهدم معالم التعليم الدينى فى الأزهر ويحوله الى مدرسة فلسفة وآداب تحارب الدين وتطفىء نوره .

وقد ايد الخديو ادخال العلوم الحديثة ورفض ما يسمى (بالاصلاح الدينى) وهو فتح باب الاجتهاد .

ثم لم يلبث العمل الجديد ان تميع لاختلاف مناهج التفكر بين مشايخ الأزهر فى هذه الفترة ، وقد كان الشيخان : سليم البشرى وعبد الرحمن الشربينى من اعداء النظام الجديد .

ثم لم يلبث الأزهريون أن ثاروا على النظام الجديد فصدر الأمر بالغائه عام ١٩٠٩ وكانت حجة الأزهريين انه يلزمهم الامتحان فى العلوم الحديثة ويأخذهم بكثير من التكاليف وقد اعيد النظام القديم ١٩١٠ .

* * *

الأزهر القديم والأزهر الجديد

وتعد حركة الشيخ محمد مصطفى المراغى ١٩٢٩ هى المرحلة الثالثة لحركة الاصلاح التى دعا اليها الشيخ محمد عبده .

وتنصب دعوة المراغى على عنصرين اساسيين : (١) اصلاح الأزهر (٢) فتح باب الاجتهاد فى الدين والعلم .

وقد لقى منهج الاصلاح الدينى من انصار الجمود فى الأزهر وخصوم الاجتهاد معارضة شديدة كما لقيها هذا المنهج قبل ثلاثة وثلاثين عاما (١٨٩٦ — ١٩٢٩) .

وقد ركز المراغى فى مذكرته التاريخية التى أعلنها فى (١٩٢٨/٨/٥) على ان العلماء فى القرون الأخيرة استكانوا الى الراحة وظنوا ان لا مطمع لهم فى الاجتهاد فأقفلوا ابوابه ورضوا بالتقليد وعكفوا على كتب لا يوجد فيها روح العلم وابتعدوا عن الناس فجهلوا الحياة وجهلهم الناس . وجهلوا طرق التفكير الحديثة وطرق البحث الحديث . وجهلوا ما جد فى الحياة من علم وما جد فيها من مذاهب وآراء . فاعرض الناس عنهم ونقموا على الناس فلم يؤدوا الواجب الدينى الذى خصصوا انفسهم له واصبح الاسلام بلا حملة وبلا دعاة بالمعنى الذى يتطلبه الدين .

وفى الاسلام عبادات وعقائد واخلاق . وفقه فى نظام الأسرة وفقه فى المعاملات مثل البيع والرهن وفقه فى الجنايات .

وقد عرض الاسلام لعقائد لم تكن لأهل الأديان . وهوجم الاسلام اكثر من غيره من الديانات السابقة ، هوجم من اتباع الأديان السابقة وهوجم من ناحية العلم ، وهوجم من اهل القانون ، لهذا كانت مهمة العلماء شاقة جدا تتطلب معرفة المذاهب قديمها وحديثها ومعرفة ما فى الأديان السابقة ومعرفة طرق البحث النظرى وطرق الاقناع حيث يتطلب فهم الاسلام نفسه من ينابيعه الأولى فهما صحيحا وتتطلب معرفة فقهها وآدابها . والتاريخ العام وتاريخ الأديان والمذاهب وتاريخ التشريع واطواره يتطلب العلم بقواعد الاجتماع » .

وقد كان لمذكرة الشيخ المراغى ضجة كبرى فى الصحف واوساط الفكر والاصلاح ، وقد اقرت لجنة اصلاح الأزهر منهجه ، ثم لم تلبث سلطة الاستعمار المسيطرة على جهاز الحكم ان اوقفت المشروع طويلا واشيع ان الملك فؤاد رفض مشروع المراغى فقدم استقالته .

وتولى « الظواهرى » مشيخة الأزهر وكان له من قبل رأى فى اصلاح الأزهر يختلف عن راى المراغى ، ويقف عند اصلاح المناهج فى تهذيب الكتب وطرق التدريس .. دون النظر الى فكرة الاصلاح الدينى وفتح باب الاجتهاد فى العلم والدين التى وقف الاستعمار دونها فى مشروعى محمد عبده والمراغى ، وتنفيذ مشروع اصلاح الأزهر على النحو الذى ارتضاه الاستعمار والملك فيما يتعلق بنظام المدرسة فحسب ، فلما اعيد المراغى ١٩٣٥ اعاد نشر مذكرته ومشروعه غير أنه فيما يبدو لم يتحقق الجانب الخاص بالاصلاح الدينى ، يقول عبد المتعال الصعيدى فى كتابه تاريخ الاصلاح فى الأزهر : « ان المراغى راى بعد عودته للمرة الثانية مسالمة الرجعية فى الأزهر فلم يغاضبها كالمرة الأولى وآثر استعمال نفوذه فى ارضاء مطامعهم فى الوظائف وسار على نظام الظواهرى ولم يحدث فيه أى تغيير . وقد لقى من مناوأة اهل الأزهر ما لم يلقه فى عهده الأول حتى خرج عليه بعض أنصاره » ا . هـ .

ويبدو أن الشيخ المراغى قد وجه عنايته فى هــذه المرحلة الى ازالة الفوارق بين المذاهب الاسلامية فقــد اعلن فى حفل تكريمه (٤ يوليه ١٩٣٥) العمل على ازالة الفوارق المذهبية او تضيق شقة الخلاف بينها « فان الأمة فى محنة من هــذا التفرق ومن العصبية لهــذه الفرق ، ومعروف لدى العلماء أن الرجوع الى أسباب الخلاف ودراستها بعيدة عن التعصب المذهبى يهدى الى الحق . وان بعض هذه المذاهب قد اخذتها السياســة فى القرون الماضية لمناصرتها ونشطت اهلها وخلقت فيهم تعصبا يساير التعصب السياسى ، ثم انقرضــت تلك المذاهب السياسية وبقيت تلك الآراء الدينية لا ترتكز على ما يصوغه الخيال وما اقره اهلها : وهــذه المذاهب فرقت الأمة التى وحدها القرآن الكريم وجعلها شيعا فى الأصول والفروع ونتج عن هــذا التفريق حقد وبغضا يلبســان ثوب الدين » .

* * *

مهمة الأزهر كما يفهمها المراغى

وليس شــك أن الأزهر قد تطور فى هــذه الفترة تطورا واضحا ملموسا حتى أصبح يمكن القول بأن هناك أزهر قديم وأزهر حديث .

وقــد كان هذا مجال ســجال طويل ، وقد عرض المراغى لهذا الموقف ورسم صورة كاملة لمفهوم الأزهــر عنده ومدى الدور الذى استطاع أن يؤديه بعد أن خرج من ثوبه القديم (الأهرام ١٩٣٩/٥/٦) .

« من الناس من يقول أن الأزهر القديم كان متمسكا بدينــه أكثر من الأزهر الحديث وأنا أقول لهؤلاء : لا ، فالأزهر الحديث متمسك بدينه أكثر من الأزهر القديم .

« كل المفاسد الموجودة الآن ليس للأزهر الحديث شأن فيها الا انه يطلب ازالتها ، فقد نظم البغــاء وليس للأزهر الحديث اثر فيه ، وابيح الخمر فى البلاد وليس للأزهر الحــديث شأن فيهــا ، ووجدت البدع فى الموالد والأسواق والقبور وليس للأزهر دخل فى وجودها .

كل هــذا وجد فى عهــد الأزهر القديم ، ولم يرفع صوته طالبا ازالة هذه المنكرات التى اســتقرت فى البلاد كأنهــا شأن من الشئون القومية والتى يطالب الأزهــر الحديث الآن بازالتها . فالأزهر مكبل بآثار الماضى وهو يعانى فى سبيل ازالة تلك الآثار ما يعانى .

ولقد اتصل الأزهر الحديث بالناس بالوعظ والارشاد على صــفحات الجرائد ليفهمهم دينهم فاســتفادت الأمة منه ، واستفاد العالم الاسلامى كذلك ، اما الأزهر القديم فكان قابعا بين الجدران لا أثر له فى الخــارج ولا يعرفه الناس الا بطريق السماع كأنه تاريخ من التواريخ .

٢ ــ الأزهر الحديث لأمس الحياة العملية ولم يكن للأزهر القديم شأن فيها ، لقد كان الأزهر يحتضر منــذ عشر سنوات .

ففى عام ١٩٢٨ ارادت وزارة الأوقاف أن تنشىء مدرسة للوعظ والارشاد وفى ذلك التاريخ كانت هنــاك مدرسة للقضاء وكانت هناك مدارس للغة العربية فلو أن مدرسة الوعظ والارشاد انشئت فى وزارة الأوقاف لــكان علمــاء الأزهر الآن بين جدران الأزهــر كأنهم من الآثار القديمة .

* * *

نظم الدراســة

وقال المراغى : كان أكثر العلماء يطرقون الاحتمالات المتعددة فى عبــارات الكتب وكان هذا هــو كل شىء اشتهروا به فى العلم .

وما كان يوجــد منهم من يستطيع أن يحاضر فى موضوع علمى أو أن يلخص مسالة من المسائل بعبارة يمكن أن تفهم ، وما كانوا يعنون بالموضوعات العلمية من جهة الأدلة ومقــارنة المذاهب ونقدها بل كانوا يعنــون بالألفــاظ .

ــ أما الأزهر الحديث فقد احتفظ من تلك الطرق بما يجب أن يحتفظ به واضاف الى ذلك انه استطاع أن يحصل العلم تحصيلا حقيقيا وأن يتصل بالبيئات العلمية الأخرى ويجاريها .

وقال المراغى ، منــذ ثلاثين سنة فكرنا فى اعادة خطب للمساجد احسن من تلك الخطب المطبوعة التى كانت تتلى دائما على النــاس ولا تغير وأعلن عن ذلك فجاءنا خمسمائة خطبة لم نستطع أن ننتقى منها واحدة نقول أنها صالحة ، اما الآن فقد وجد فى الأزهر خطبــاء ووعــاظ ومرشــدون يمكنهم أن يرتجلوا الخطب وان يكتبوها .

ان الناس فى مصر يخشون خطر الأزهر على الحياة العامة . ويقولون ان الأزهر اذا قوى واشتدت عزيمته يدخل فى الحياة الاجتماعية فيكدر هذه الحياة اذ يحظر حرية الفكر ويقف حجر عثرة طريق الأفكار العلمية الحرة .

ومن جهة أخرى يحرم الناس ملاذهم وشهواتهم والحياة لا تحتمل ولا تطاق اذا سيطر الأزهر عليها بسلطان الدين .

ـ أما الحياة الفكرية فلا اظن بحال ان الأزهر خطر عليها لأن الأزهر يساير أسلافه من العلماء الأجلاء ومن الأئمة الذين كان عندهم من سعة الصدر ما احتمل هذه المذاهب المتعددة .

والاسلام بطبيعته دين تسامح ومبادئه لم تعترف بالاكراه ، وقد حمى الاسلام أديان تخالفه وحمى علماء الاسلام مذاهب غير صحيحة واجتهدوا ان يردوا عليها بالدليل .

فليس الأزهر من المعاهد التى تكره حرية الرأى والآراء العلمية ولكن الأزهر يكره شيئا واحدا هو تعمد الاستهزاء بالدين والأنبياء والأئمة ويكره أن يشكك العامة فى دينهم . والنشء فى عقائدهم ، أما الآراء العلمية فى حدود العلم وفى دائرته فانها تدرس فى المعاهد الكبرى دون أن يخطر ببال احد ان يقاومها او يقف حجر عثرة فى سبيلها .

حرروا دينكم من كل ما غشيه . وخذوه من الينابيع الصحيحة خذوه من الكتاب والسنة وآراء السلف الصالح من الأئمة » ا . هـ .

* * *

تطور التعليم فى الأزهر

كان اخطر خطة خلقت الثنائية فى التعليم هى : اتجاه محمد على انشاء المدارس المدنية منفصلة عن الأزهر ومن هذه النقطة بدأت هذه الأزمة التى استمرت طويلا حول التعليم الدينى والتعليم المدنى .

ذلك أن محمد على كان يخشى الأزهر على أثر الدور الذى قام به فى مقاومة الحملة الفرنسية وسيطرة المقاومة الشعبية بقيادة علماء الأزهر وفرضها سلطانها فى انزال الحاكم التركى خورشيد وتوليته ، وقيامها بالسيطرة على الحكم عن طريق الدفاع عن حقوق الشعب ومطالبه ، ودفع مظالم محمد على فى رفع الضرائب وتسخير الشعب . ولذلك اتجه محمد على الى القضاء على هذه الجبهة الشعبية والتخلص منها نهائيا . وكان تجميد الأزهر جزء من هذه الخطة ، لذلك اتجه محمد على الى انشاء التعليم المدنى والاستعانة فى انشائه بالخبراء الفرنسيين الذين كانوا يؤمنون بضرورة القضاء على الأزهر كجزء من خطة الغزو الثقافى فى محاربة الاسلام واللغة العربية .

فلما كان عهد اسماعيل ازدادت درجة التغريب والاتجاه الى نقل أنظمة الغرب وقوانينه وتشريعاته ، وقد أغلق اسماعيل الباب أمام التشريع الاسلامى اغلاقا تاما وأخذ بالتشريعات الغربية دون مراعاة مقومات الحياة الاجتماعية فى الوطن العربى . وبذلك ازدادت عزلة الأزهر عن التطور والحياة .

وقد كانت علوم الأزهر قاصرة على علوم الدين واللغة كالنحو . الصرف والمعانى والبيان والمنطق ومصطلح الحديث والحساب والجبر والعروض والقافية وعلم الكلام والأخلاق والفقه والتفسير لم تحقق بعد حركة الشيخ محمد عبده ادخال علوم الحساب والطبيعة والكيمياء والهندسة والجغرافيا والعلوم العقلية والتاريخ وكان جمال الدين الأفغانى قد دعا الى ادخال التاريخ فى علوم الأزهر وقال : اذا بقيتم على جهلكم بالتاريخ فلا يمكنكم أن تعرفوا دينكم ولا نجاح لكم فى دنياكم ، واكد أن قراءة التاريخ واجب من الواجبات الدينية وركن من أركان اليقين فلابد من تحصيله .

وقد احتال الشيخ محمد عبده فى ادخال العلوم الحديثة حتى انه أطلق على علم الطبيعة « علم خواص الأشياء التى أودعها الله فى الأجسام » وقد تراجع الأزهر بعد الشيخ محمد عبده عن العلوم الحديثة حتى كانت حركة الشيخ المراغى التى حققت اعادة تنظيم الأزهر ونقله الى نظام الجامعات الحديثة وتقسيم الدراسة العالية الى ثلاثة اقسام يتمثل كل قسم منها فى كلية ، وهى الشريعة واللغة العربية وأصول الدين وأقسام أخرى للتخصص وقد شمل مشروع اصلاح الأزهر منهجا كليا واضح المعالم يضم :

- دراسة القرآن والسنة دراسة شاملة .
- تهذيب العقائد والعبادات ونفى ما جد منها وابتدع .

* دراسة الفقه الاسلامى دراســـة حرة خالية من التعصب الذهبى .

* دراسة الأديان لمقابلة ما فيها من عقائد وعبادات واحكام مما هو موجود فى الاسلام .

* دراسة اصول المذاهب فى العالم قديما وحديثا .

* دراسة اللغة العربية دراسة جيدة كما درسها الأسلاف .

وهاجم الشيخ المراغى الكتب القديمة وقال انهـا كتب معقدة لها طريقة خاصة فى التاليف لا يفهمها كل من يعرف اللغة العربية وانما يفهمها من مارسها ومرن على فهمها وعرف اصطلاح مواقعها ودعا الى الاستغناء عنها بأحسن منها .

وقد تحقق وفق هذا المنهج (جمادى الآخرة ١٣٤٣) تحول الأزهر الى جامعة كبرى لتخريج اساتذة علوم اللغة العربية والدين والقضـــاة الشرعيين وان تكون شـــهادة التخصص فيه مساوية لشهادات المدارس العليا وارسال بعثـــات من متخرجيه الى الجامعات الأوربية لدراســـة العلوم ، وادخل فى القسم الثـــانوى العلوم المدنية التى يشمل عليها منهج المدرسة التجهيزية الملحقة بدار العلوم ومنهج القسم الأدبى للمدارس الثانوية الأميرية . وحددت مدة التخصص ثلاث سنوات بعد الحصول على الشهادة العالمية كما ادخلت اللغات الأجنبية الى الأزهر (١٩٣٥) وهى الانجليزية والفرنسية والفارسية واليابانية والصينية فى كلية اصول الدين لمختلف السنين .

وسافرت اول بعثة ازهرية الى المانيا عام ١٩٣١ باسم بعثة محمد عبـــده . كما سافرت بعثـــة اخرى الى باريس (اغسطس ١٩٣٦) وتواصلت بعد ذلك البعثات .

وقد يحقق لأفراد البعثات الحصـــول على اجازات الدكتوراه وكان أولها عن الأخلاق عند ابن مسكويه (محمد يوسف موسى)وعن سيبنوزا (محمـــود حب الله) وعن الشريعة الاسلامية من السربون (عبد الرحمن تاج) .

كما تحقق فى عام ١٩٣٦ ابدال الجـراية الأزهرية بمرتبات شهرية وقد كان بحث استبدالها قد بدأ عام ١٩١٠ بعد ان ترددت الشـــكوى من رداءة الخبز الأزهرى وقد اشارت المذكرة الخاصة بالغائها ان هذه العادة وان كانت تقليدا من تقاليد الأزهر الا انها اصبحت تجـــافى التطور العلمى .

كما تحقق اشتراك الأزهر فى عـــديد من المؤامرات الدولية :

- مؤتمر جامعة غرناطة (ديسمبر ١٩٣٢) .
- مؤتمر القوانين الدولى — لاهاى (اغســـطس عام ١٩٣٧) .

* * *

— ٢ —

لقيت حركة اصـلاح الأزهر التى قام بها المراغى عنه هجوما عنيفا من جهة الاستعمار والتغريب وحوربت وهوجم أسلوب الأزهر فى التدريس باللغة العربية حتى قال الدكتور أمير بقطر فى مؤتمر التعليم الذى عقـد فى جنيف عام ١٩٢٩ أن الأزهر خلق فى طاقة معينة من السـكان عقلية خاصة تتصادم مع مبادىء القرن العشرين ومثـله العليا فقد أسدلت حجابا كثيفا وأقامت حائلا منيعـا بين ما نسميه العقلية الأزهرية وعقلية سائر الشعب المصرى، عقلية لا تتفق الا مع العصور القديمة الفطرية » .

وقال الدكتور رول جوست عميد كلية الآداب الثقافى الأمريكية « ان اثر العـربية كما تراها فى الأزهر لا يتفق مع التقدم الحـديث فى ميدان التربية ونخشى أن الاصلاح الحديث فى الأزهر لم يكن الا من قبل العناية بالسطح دون العمق فأدخل الأدوات والأجهزة وانشاء الأقسام لاتجدى نفعـا طالمـا كان النظام ذاته مطبوعا بطابع القـرون الوسطى » .

والواقع أن ما تنبأ به دعاة الغزو الثقـافى لم يكن صـحيحا وأن الأزهر حقق بعد اصـلاحه نتائج باهرة وشارك مشاركة فعالة فى الثقافة العربية الحديثة .

ولم يتوقف الغزو الثقافى المتصل ضـد الأزهر فى سبيل الغاية التى رسمها الاستعمار للقضاء عليه . وذلك بانشاء عديد من المدارس والكليات والجامعات والمعاهد التى حملت لواء تمزيق جبهـة الثقافة العربية وتعـديد جوانبها واتجاهاتها ، وبذلك حقق الاسـتعمار هدفه فى القضاء على هذه الثقافة العربية ، ويرجع هذا أصلا الى خطأ محمد على فى فصل التعليم عن الأزهـر دون تطوير الأزهر نفسه لتحقيق هدف التعليم العام المدنى .

* * *

مهمة الأزهر

كانت الدعوة الى اصلاح الأزهر فما بين عام ١٩٢٩ الذى بدأت فيه بمذكرة المراغى الى عام ١٩٣٥ حيث عاد المراغى الى الأزهر فرصة واسعة لدراسات ومراجعات متعددة عن مهمة الأزهر ودوره فى الحياة الفكرية العربية والاسلامية .

وقد تحدث الكثيرون من الباحثين عن مهمة الأزهر فى العصر الحديث ومن رأى محمود الشرقاوى (٢ مارس ١٣٣٦) أن مهمة الأزهر ليست تخريج واعظين للشعب ومعلمين فى مدارس الحكومة وحفظه للقرآن او عرفاء فى الكتاتيب وانما مهمته تخريج صنوف من الرجال لهم أعمال ولهم مطامع وآمال وبين جفونهم وفى رؤسهم قلوب وعقول أبهى نورا .

وان أول مهمة للأزهر مسـايرة العصر وما فيه من التيارات المختلفة للذهن والحضارة والتفكير . وليس معنى هذا متابعة العبيد بل نزع خلق الانكفاء والجبن العقـلى والخوف من الدنيا والانزواء من الراى والصـد عن كل جديد والخروج من هذا الخلق السلبى الى روح ايجـابى مقبـل على الأيام والأحداث مشرف على سير النـاس والحضارة مرتقب لكل جديد من الفكر .

وكان من رأى الشـيخ محمود شـلتوت أن يقوم اصلاح الأزهر على أساس التخلص من روح المناقشات اللفظية والتقديس للآراء والأفهام التى دونتهـا السابقون السمو بها عن مسـتوى النقد وكذلك التخلص من روح الاشتغال بالفروض والاجتماعات العقلية واختراع الحيل التى يتخلص بها من الحكم الشرعى . وكذلك التخلص من روح التعصب المذهبى الشديد .

* * *

— ٤ —

وقـد حقق الأزهر وجوده باشتراكه فى عديد من المؤتمرات العـالمية كمؤتمر جامعة غرناطة (ديسـمبر عام ١٩٣٢) .

ومؤتمر الأديان العالمى فى لندن ١٩٣٦ ومؤتمر القوانين الدولى فى لاهاى (اغسطس ١٩٣٧) .

وفى مؤتمر الأديان العالمى وجه الشيخ المراغى رسالة دعا فيها الىتعاون اهل الأديان علىتقوية الشعور الدينى واعادته بحيث يغمر القلوب ويملأ النفوس هيبة ورهبة من الله .وعلى اعزاز مركز الأديان امام العلم وأمام تيارات التقدم العلمى والتحرر الفكرى . وقال : أن تقوية مركز الأديان يقى الحياة الانسانية من خطر تحكم المادة .

واشار الى ان الهدف هو جعل التدين اداة فعالة فى تهذيب الجماعة وتمكين العوامل المعنوية التى تشترك فيها الأديان من التأثير فى الحياة الانسانية الواقعية . وكذلك العمل على توجيه التشريع الى تأييد الأصول العامة المشتركة فى الأديان .

وقد حقق مؤتمر لاهاى نصرا كبيرا للاسلام والأزهر اذ اعلن « ان الشريعة الاسلامية لم تتأثر بالقانون الرومانى . بل هى شريعة مستقلة قائمة بذاتها ولا يوجد دليل مباشر او غير مباشر يمكن أن يستنتج منه من الوجهة التاريخية ان القانون الرومانى كان له اى تأثير على الشريعة الاسلامية وأن الشريعة الاسلامية تحمل العناصر الكاملة التى تجعلها صالحة للتطور مع حاجات الزمن والمدنية » .

وقد كان هذا ردا حاسما على كل التهم التى ساقها دعاة التغريب بالنسبة للشريعة الاسلامية والاسلام (اقرأ صحف ١٩٣٧/١١/٢٦) وقد كانت اللغة العربية هى احدى اللغات الرسمية فى هذا المؤتمر .

* * *

دور الأزهر

وبالرغم من محاولات الاستعمار لعزل الأزهر عن التطور الفكرى ، وابعاده عن محيط الحياة العامة ، فأن الأزهر شارك فى مختلف الأحداث وكان له دوره فيها : قاد الثورة على الحملة الفرنسية وقاد ثورة ١٩١٩ على الاستعمار البريطانى من قاب الأزهر ووقف من أحداث المغرب (الظهير البربرى) وليبيا (مقتل عمر المختار) واحداث فلسطين وسوريا موقف الدفاع ، كما هاجم حركة التبشير الكبرى فى مصر ١٩٣٣ حيث طالب بجمع الكتب التى وضعها المبشرون للطعن فى الاسلام والف لجانا فى مختلف الأقاليم لمناهضة المبشرين .

وطالب الشيخ عبد العزيز شاويش عام ١٩٢١ بادخال تعليم الفتاة الى الأزهر وقد اعترف الأب الكسيس همالون اليسوعى (م ٤ مجلة المشرق ص ٤٩) باجماع علماء الاسلام على انه لولا هذه المدرسة لما استمرت اللغة العربية لغة الشريعة فى الممالك الاسلامية » .

وقد حمل الأزهر ثلاث امانات : حفظ التراث العربى الاسلامى وذلك بحماية اللغة . وحماية الشريعة وقيادة الحركة الوطنية . وبالرغم من مهاجمة كرومر وخلفائه له، ومهاجمة الصحف التى جرت فىركاب الاستعمار والتغريب وبالرغم من محاولةعزله عن التطور فى مناهجه ورسالته، وانفصال التعليم المدنى عنه فقد ظل يحتفظ بنفوذ خطير.

وقد خرج الأزهر عددا كبيرا من اعلام الحياة الفكرية العربية : امثال حسن العطار وحسن الطويل ورفاعة الطهطاوى وعياد الطنطاوى والمرصفى والمهدى ومحمد عبده وابراهيم النبراوى وابوخطوة كماخرج طائفة من الزعماء امثال سعد زغلول وابراهيم الهلباوى وعبد السلام المويلحى وابراهيم اللقانى وعلى يوسف .

ومن عجب أن اغلب الذين عارضوا افكار الاسلام وجروا فى ركب التغريب كانوا من الأزهر امثال : طه حسين وعلى عبد الرازق وزكى مبارك وان الذين دافعوا عن الاسلام كانوا من خارج الأزهر : امثال جمال الدين الأفغانى وفريد وجدى واحمد تيمور وعبد الحميد سعيد ومحب الدين الخطيب ورشيد رضا .

وقد صور اللورد لويد فى كتابه (مصر فى عهد كرومر) ملامح الخطة التى اريد بها ابعاد الأزهر عن مجال التطور والمشاركة فى الحياة العامة بحسبانه قوة تقف فى وجه الأهداف الاستعمارية لتغريب الفكر الاسلامى قال « أن اهمية الأزهر بصفته مركزا من مراكز الرعاية المعادية لبريطانيا كبيرة متعددة الامكانيات وقد ادرك الوطنيون ذلك فحاولوا استغلاله لتأييد مآربهم ، وترتب على ذلك نمو روح المعارضة الشديدة لسيطرة الانجليز على التعليم به . أن التعليم الوطنى عند ما قدم الانجليز بمصر كان فى قبضة الجامع الأزهر الشديد التمسك بالدين والذى كان اسلوبه القديم يقف حاجزا عن طريق اى اصلاح تعليمى. وكان الطلبة الذين يتخرجون منه يحملون معهم قدرا عظيما من غرور التعصب فلو امكن تطوير الأزهر عن طريق حركة تنبعث من داخله هو كانت هذه الخطوة جليلة الخطر ، على ان الخطة الأولى التى يقوم بها اصلاح الأزهر من داخله اقوى فى اتخاذ ما نحن فى اشد الحاجة

اليه من اقامة العلائق الانجليزية المصرية على أساس من التفاهم والتعاطف المتبادل » .

وكان معنى هـــذا أن التطور الذى يتطلع اليـه الاستعمار هو تحوله عن هدفه فى حماية اللغة أو التسامح مع الاستعمار فى بث آرائه أو التخفف من العمل فى مجال الحركة الوطنية ومعنى خطة اصلاح الأزهر من داخلـه انما تعنى الالتقاء مع الاستعمار الغربى بمـا يحقق اقامة العلاقات المصرية البريطانية على أساس من التفاهم ولما كان ذلك غير ممكن ، فقد حرص الاستعمار على خلق معاهد جديدة لتخريج معلمى اللغة العربية والقضـاء ، وفرق بين القيم المادية للمتخرجين من مدرسـة القضاء الشرعى ودار العلوم وكلية الآداب وبين خريجى كليـة اللغة العربية وكلية الشريعة الأزهريتان . وكانت هـذه محاولة لقصر الأزهريين على الامامة والخطابة فى المساجد وبذلك شـعر الأزهريون بأنهم اقـل منزلة فاذا طالبوا بمساواتهم اتهموا بأنهم طلاب دنيـا وليسوا أصـحاب رسالة .

وقد كان واضحا أن القس دنلوب عمد الى ابعـاد الأزهريين عن المدارس الأولية والابتدائية ، وكان هـذا جريا مع الخطة التى ترمى الى اقصـاء الدين المنـاهج الدراسية .

وهكذا حقق الاستعمار :

* خلق ثنائية التعليم :

* عزل الأزهر وتجميـده وخلق مدارس ومعـاهد تتصل بالعلوم الحديثة .

* التفرقة فى القيم المـادية بين خريجى الأزهـر وخريجى المعاهد الأخرى .

* اقصاء الاسلام عن المناهج الدراسية .

* * *

وغلب على منهج الدراسة مذهب « ديوى » الذى يزدرى بالقيم والدين والروحية ويدعو الى مناهج تتصل بالحياة الواقعية .

وفى الوقت الذى كانت مناهج التعليم الرسـمية فى مصر تتبع مذهب ديوى فى اقصاء الاسلام عن برامجه ، كانت المعاهد الأجنبية على اختلاف أنواعها والتى يدرس فيها ٧٠٪ من المســلمين تدرس المسيحية بمذاهبهـا وثقافتها .

ويمكن القول بأن هـــذه الخطة التغريبيـة التى اصطنعها الاستعمار مع الأزهر قد اصطنعت مع المعاهد التى تدرس اللغة العربية والاسلامية فى مختلف انحـاء العالم الاسلامى كالزيتونة فى تونس والقرويين فى المغرب حيث عمد الاستعمار الى خلق جامعات ومعاهد تدين له بالولاء وتسير وفق مذاهبه وتخضع لسلطانه وأن كانت هذه المعاهد لم تلبث أن تحولت شيئا ما عما أريد لها .

* * *

التعــــليم

ركز الاستعمار فى اكبر جانب من حملةالتغريب على التعليم وركز الغزو الثقافى اساسا على محــاولة تغيير مناهج التعليم فى العالم العربى كوسيلة لدعم الاستعمار وبقائه يخلق جيل جديد من الشباب يصــــل الى مقاعد الحكم يؤمن بصداقة الغرب ، ولذلك عمد الى تشــكيله على نحو « مستغرب » قليل الصــلة بالتراث العربى ، بعيد عن مفاهيم الحرية والكرامة والقوة التى تبثها تعاليم الاســلام ، منكـــرا لروابط الدين واللغـــة العربية والتاريخ العربى ، معلق الطرف بأمجــاد اوربا وعظمة حضارة الغرب ، ساخرا مستخفا بأمجاد الاسلام ، وقد ركز الاستعمار على تحقيق هذه الغاية فى التعليم بوسائل متعددة :

* انشـــاء مدارس الارساليات الأجنبية والطــوائف الدينية المختلفة .

* تجميد الجامعات الدينية الكبرى وخلق نظم دراسية مدنية مستقلة ومنفصلة عنها .

* قصر التعليم على ابنــاء الأغنياء وحــدهم الذين يدفعون المصروفات والغاء المجانية وحرمان الفقراء من التعليم نهائيا .

* وضــع برامج مغربة تهدف الى تخريج موظفــين فقط .

* التوسع فى انشاء الكتاتيب والحيلولة دون انشاء التعليم العالى .

* القضــاء على اللغة العربية بادخال لغــة المحتل وجعلها اللغة الأساسيةفى مختلف علوم الدراسة .

* الغاء تدريس الدين الاسلامى نهائيا . ودراســة فلســـفات ترتبط بالأديان البــائدة واليهودية والمسيحية .

* تشويه التـــاريخ العربى بفرض كتب باقــــلام المستشرقين تقدم الاسلام على أنه دين السـيف وترسم للعرب صورة مزدراة .

* التوسع فى دراسة تاريخ الدولة الفرنسية والدولة الانجليزية وتاريخ أوربا وحروبها وابطالها .

وفى مصر كان خطأ محمد على أنه انفصل عن الأزهر وانشأ تعليما مدنيا فى حين أن جميع الجــامعات الأوربية كانت جامعات دينية فى أول الأمر ثم تحولت مدنية ، بل أن الأمريكيين واليسوعيين حين انشأ كل كليته فى لبنـان بدأت دينية لاهوتية محضة ثم تحولت مع الزمن الى كلية عصرية .

غير ان سيطرة النفوذ الفرنسى على محمد على قد مكن الخبراء الفرنسيين الذين يحملون لواء دعوة التغريب والغزو الثقافى من أن يفوضوا انشاء تعليم مدنى لخلق ثنــائية التعليم التى تؤدى الى تخريج طوائف مختلفــة الثقافة مما يؤدى الى البلبلة والصراع وقد حدث هـــذا فعلا .

وفى تونس حيث توجد جامعة الزيتونة وفى المغرب حيث توجد جامعة القرويين وفى الجزار حيث توجد جامعة القيروان وكلها على نسق الأزهر حرص الاستعمار على تجميدها جميعا وانشاء انظمة اخرى للتعليم لخلق هــذه الثنائية ايضا والقضاء على اللغة العربية .

* * *

الاستعمار والتعليم

حرصت الدولتان المستعمرتان (فرنسا وانجلترا) وتبعتهما ايطاليا فى ليبيــا — حرصت كل منهما على نشر ثقافتها ولغتها فى الأقطار التى تحتلها باعتبــار أن النفوذ الثقافى مقدمة للنفوذ السياسى .

وقد قامت مناهج التعليم والثقافة الاستعمارية على اساس تغليب لغة الدولة المستعمرة ومحاولة القضاء على اللغة العربية باعتبارها لغة غير اساسية أو بالاغضاء عنها أو تغليب اللغة العامية عليها . كما حرص على أن يوجه التعليم توجيها يقصد به تخريج الموظفين والعمال الذين تحتاج اليهم مصالح الحكومة .

فضلا عن أن نظم التعليم ومناهجه كانت تعمل على تأكيد قيام قوميات ضيقة اساسها التجزئة وتعميق هذه الدعوات بما يؤدى الى فصل القطر الواحد عن العالم العربى من الوجهة الثقافية مع القضاء على التاريخ القومى والتراث الروحى والأمجاد الاسلامية والعربية المرتبطة بالمعارك ومقاومة الأعداء المغيريين وكذلك حجب تراجم الأبطال والقادة والأعلام .

وقد ارتبط هذا النظام بعقد معاهدات ثقافية تفرض فيها الدول الغربية على الدول العربية نظمها واتجاهاتها الهادفة الى الاستعمار التعليمى والثقافة وفرض استيراد اساتذة ومعلمين من البلاد المستعمرة يحملون اساليب التغريب ، ومحاولة خلق روح الاعجاب بأدب وأمجاد وبطولات الدول المستعمرة وفرض تاريخ البلاد المستعمرة على الشباب العربى ومحاولة الايهام بوجود خلافات جذرية بين الدول العربية فى الجنس والثقافة والموطن .

ومن هذا ما حاولته فرنسا فى سوريا ولبنان وتونس والجزائر ومراكش من الدعوة الى حضارة البحر الأبيض المتوسط وربط هذه الأجزاء العربية بالثقافة اللاتينية .

وفى المغرب : فرق الفرنسيون بين البربر والعرب وذلك بحرمان البربر من تعلم اللغة العربية واحياء لهجاتهم القديمة بغية تمزيق الجبهة الوطنية .

وقد ارتبط هذا بتقييد السفر والتنقل بين البلاد العربية بقيود ثقيلة والحيلولة دون انتشار الكتب المطبوعة فى البلاد العربية وتشجيع اللهجات واللغات المحلية لبعض الطوائف « لتبعيد » البلاد العربية بعضها عن بعض على حد تعبير ساطع الحصرى .

***

تجربة مصر

وقد كانت تجربة مصر من اقسى هذه التجارب :

١ ـ حول التعليم بعد الاحتلال الى اللغة الانجليزية تدريجيا ولم يكد يحول عام ١٩٠٠ حتى كان التعليم فى جميع المدارس العالية والثانوية باللغة الانجليزية فتدهور التعليم وعجز الطلبة عن اجتياز حلقات الدراسة لرسوبهم مرتين وثلاثا وأوقف « دنلوب » تأسيس المدارس الا فى حدود العدد الذى يكفى لتخريج الموظفين . والغيت مواد العلوم من المدارس مثل التاريخ الطبيعى .

٢ ـ الغيت « المجانية » فى جميع المدارس (بأنواعها الثلاث) وحرم ابناء الفقراء من دخولها ، واعلن يعقوب ارتين وكيل المعارف وعميل الاستعمار ويد دنلوب فى التنفيذ « ان وجود المجانية فى المدارس فى مصر امر غير عادل » .

وسجل كرومر هذا فى تقريره سنة ١٩٠٠ فقال أنه فى عام ١٨٧٩ كانت نسبة المجانية فى الحكومة ٩٥٪ أما فى السنة الماضية (١٨٩٩) فان نسبة الذين يدفعون مصروفات مدرسية كانت ٩٨/٥ فى المائة وفى المدارس الثانوية ٨٦٪ وانا واثق من ان هذه السياسة ستظل متبعة بثبات حتى تلغى طريقة التعليم المجانى كلية أو تكون فى حكم ذلك . وسجل فى تقريره ١٩٠٤ أن تلميذا واحدا فقط يتعلم الآن فى المدارس بالمجان .

***

الرد على مؤامرات الاستعمار فى التعليم

٣ ـ استبعد التعليم دراسة التاريخ القومى . ووضعت المناهج بصورة عملت على هبوط مستوى التعليم الثانوى بحيث اصبح يعادل مستوى التعليم الابتدائى فى فرنسا (من مذكرة ناظر مدرسة الحقوق المصرية الفرنسى) .

وبلغ جملة ما انفق على التعليم خلال ٢٥ سنة من عهد الاحتلال ٢ر٨٠٠ر٠٠٠ جنيه من ميزانية بلغت ٢٥٨ مليون جنيه اى بنسبة واحد فى المائة .

وقد نقص عدد المدارس بعد الاحتلال بنسبة الربع ، كما نقص عدد تلاميذ المدارس . كما جمد الاحتلال (التعليم الدينى) الذى كان قائما على الثقافة الدينية وتخريج طائفة من المعلمين والفقهاء فى القرى بما فى ذلك الأزهر الشريف .

وأوقف الاستعمار اعانة الكتاتيب الأهلية وكان عددها ٩٦٤٧ كتابا .

كما حاصرت سلطات الاحتلال التعليم الثانوى والعالى فلم يكن بعد ١١ سنة من الاحتلال (١٨٩٣) سوى ثلاث مدارس ثانوية أميرية .

وعمدت بريطانيا الى عدم السماح للوطنيين بالانضمام الى هيئة التدريس ومحاربة الأزهريين ومعلمى الدين واللغة منهم والحيلولة دون تسرب أبناء الفقراء الى معاهد العلم حتى يظل التعليم قاصرا على أبناء الأغنياء الذين هم صنائع المستعمر اصلا والذين يدينون له بالثروة والحكم والبقاء ، وذلك فى سبيل اعداد جيل (مغرب) متفاهم ، يلتقى بالاستعمار لقاء الصداقة لا الخصومة وهو الجيل الذى سيطر فعلا على الحكم فى العالم العربى فى الثلاثينات من هذا القرن .

٤ ــ صور اللورد كرومر منهجه فى التعليم فى تقرير عام ١٩٠٠ (المقتطف مايو ١٩٠٠) على انه وسيلة للاستخدام فى وظائف الحكومة قال : ينظر كثيرون من الناشئة المصرية المتعلمة الى الاستخدام فى وظائف الحكومة كفاية لهم . المدارس التى انشدها وأرغب فى أن اراها هى التى تعلم فيها القراءة والكتابة والحساب باللغة العربية ويكون الغرض منها تعليم الصنائع . لابد لجعل التلامذة يقومون بجانب من نفقات تعليمهم . يسرنى ان أقول أن نظارة المعارف رات مضار التعليم المجانى وحاولت تلافيها منذ سنوات . ففى ١٨٧٩ كان الذين يتعلمون مجانا لا أقل من ٩٥ فى المائة من التلامذه الذى يتعلمون فى مدارس الحكومة . فى السنة الماضية كان عدد التلاميذ الذين يدفعون أجرة التعليم ٩٨ر٥ فى المائة فى المدارس الابتدائية و ٨٦ ٪ فى الثانوية وأرجو أن يستمر هذا الأمر حتى يبطل التعليم المجانى تماما . الذين يتعلمون لغات أجنبية ٥٩٤٥ منهم ٨٥ فى المائة يتعلمون اللغة الانجليزية . لابد من تعلم من هؤلاء لغة اجنبية ذلك انه ليس فى العربية كتب للتعليم فى بعض العلوم . أن اجتهاد الذين يهمهم أمر التعليم . يجب أن يكون مصروفا الى ترقية التعليم الابتدائى بواسطة « الكتاتيب » الاحصاء الآخر دل على أن ٨٩ر٥ فى المائة من الذكور و ٩٩ر٧ ٪ من الأناث لا يعرفون القراءة والكتابة يبلغ عدد الكتاتيب فى القطر المصرى ١٩٤٠٤ اعانت الوزارة ٢٤٦ كتابا منها .

وهكذا يكشف تقرير كرومر عن روح الاستعمار البريطانى فى مصر من ناحية التعليم على نحو واضح الدلالة وهى :

* الانصراف من التعليم العالى الى الكتاتيب .

* الغاء التعليم المجانى والقضاء على تعليم ابناء الفقراء .

* التعليم باللغة الانجليزية والقضاء على اللغة العربية .

* تخريج موظفين فقط .

٥ ــ أدى اهمال التعليم على أساس قاعدة «جهل الشعوب نافع للاستعمار وأنه بانتشار التعليم يصعب حكمهم » على حد تعبير احمد شفيق فى كتابه « مصر الحديثة ونفوذ الأجانب » الى انحطاط مدرسة الهندسة والطب فقد وكل الأمر فيها الى أساتذة من الانجليز « لم يكونوا يحملون شهادات تؤهلهم للعمل فيها حتى قل تلاميذ مدرسة الهندسة ، فلم يكن فيها عام ١٨٩٤ سوى ١٧ طالبا وكذلك مدرسة الحقوق التى ضعف التعليم فيها بعد أن عزل كرومر المشرفين عليها من العلماء الفرنسيين وتولاها «رجال من الانجليز لم تكن لهم الكفاءة المطلوبة» .

***

اللغــة العربيـــة

حوربت « اللغة العربية » كجزء من خطة القضاء على الوحدة العربية وقطع الصلة بين الماضى والحاضر ، وقد أشار اللورد دوفرين فى تقريره (١٨٨٢) الى خطر اللغة العربية فى التعليم فى مصر .

فقال « ان الأمل فى نجاح تهذيب العــامة فى مصر لا يزال ضعيفا ما دام الصبيان لا يتعلمون اللغة بدلا من تعلمهم لغة القرآن الشريف كما يفعلون الآن ، فان نسبة العــامة الى الفصحى فى اللغة العربية هى كنسبة اللغة الايطالية الحديثة الى اللغة اللاتينية القديمة » .

وقد كان هذا بدء حملة ضخمة على اللغة الفصحى فقد جرت تعليمات الاستعمار باغفال أمرها فى المخاطبات ووضع التقارير وتأليف اللوائح والقوانين . وبدات خطة ادخال اللغــة الانجليزية فى المدرســة الابتدائية وجعلت لســان التعلم فى علمى الانشــاء والجغرافيا ثم دخلت التعليم الثانوى وجعلت لســان التعليم فى علوم الطبيعة والتاريخ والجغرافيا .

ومما يذكر ان اللغة العربية كانت لغــة التعليم فى مدرسة الطب حتى اغارت عليها اللغة الانجليزية .

وقد كانت حجة المستشرقين والمبشرين فى الهجوم على اللغة العربية أنهــا لغة الخاصــة وانه لابد لنشر التعليم بين جميع طبقــــات الشعب من اللغة المحــكية (العــامية) وهى حجة واهية لم تجد لهــا مبررا وقد فشلت هذه الخطة وقضى عليها قضاءا تاما .

وقد اضطهد دناوب مدرسى اللغة العربية فى وزارة المعارف وكان هو ورجاله يزدرون لابسى العمائم ويعملون على النيل منهم .

* * *

البعثـــــات

وكما عمدت بريطانيــا الى ايقاف البعثــات ايقافا نهائيا فلما اذنت بعد ذلك بايفاد بعثات وجهت ٩٠ فى المائة منها الى بريطانيا .

وقــد أعلن تصريح فى مجلس العمــوم البريطانى (٨ مارس ١٩٠٧) عن البعثات والتعلم جاء فيه « لقد مكثنا فى مصر مدة ربع قرن وصلنا بالمصريين الى الانحطاط فى التعلم وكان لهم بعثة علمية ينتخبونها من نجباء طلبتهم، اما نحن فقد الغينا هذه البعثة واستبدلاناها بلا شىء » .

وقد كانت البعثات ١٩١٧ لا يزيد عن ٢٥ طالبــا يتلقون العلم فى انجلترا ثم زادت سنة ١٩٢٠ أى٣١ طالبا

* * *

المدارس الأجنبية

وقد حرص الاستعمار البريطانى على تعديد الوان الثقافات لتمزيق جبهة الثقافة والفكر الاسلامى والقضاء على وحدته ، فأذن لعشرات من الارساليات بانشاء المدارس وقد كانت هــذه المدارس حرة فى دراساتها وغير مشرف عليها ، خاضعة لسلطان الامتيازات الأجنبية ، وكانت هى أوكار التبشير والعدوان على الاســلام واللغة العربية والقومية وكل مقوماتنا وامجادنا . وقد استهوت هــذه المدارس الطبقـــات الأرستقراطية على حــد تعبير محمد العشماوى (يناير ١٩٣٩ ــ مجلة الحديث) بحسن قيامها على اللغة الأجنبية الأساسية لها وقد كان نجاحها قائما على انقاض اللغة العربية .

وقد كان من الأعاجيب أن كتب التـــاريخ العربى والاسلامى قد وضعها مبشرون مليئة بالسموم والأكاذيب وأن قام أمثال الخواجة ميشيل والخواجة توما ــ على حد تعبير (الرسالة ــ ١٧ ديســمبر ١٩٤٥) على تدريس سيرة النبى وأبى بكر وعمر . وقد بلغ الأمر أن ذهب أبناء العرب الى أوربا ليتعلموا « اللغة العربية » لغتهم ، على المسيو مارسيه فى باريس « كأنمــا باريس هى بادية البصرة وكأن مارســيه من فصحــاء بنى عقيل أو كأنه

الأصمعى او الخليل » . هكذا جنت المدارس الأجنبية على اجيال متتالية خرجت منحرفة عن ايمانها بوطنها وتراثها وثقافتها وعقائدها ، حيث تلقوا دروسها على اجانب لا بصر لهم بعلوم العربية ولا علم لهم بمصادرها ولا قدرة لهم على فهمها » .

وكانت هذه المدارس هى أعلى مظاهر الاستعمار الثقافى .

وقد شهد مستر (جب) المستشرق الانجليزى المعروف بهذا الخطر حين قال « فى أواخر القرن التاسع عشر نفذت الخطة الى أبعد من ذلك بانماء التعليم العلمانى تحت الاشراف الانجليزى فى مصر والهند . ولعل نصيبنا من الحق فى التهمة التى ترمى بها المدارس الأجنبية من انها مفسدة لقومية التلاميذ . فقد ربت فى التلاميذ خروجا على الأنظمة الاجتماعية » . .

وقال سير (بانيكار) فى كتابه مشكلات الدول الأسيوية والأفريقية « وان هذه المؤسسات اصبحت موضع ريبة وشك ، حتى الجامعة الأمريكية التى بقيت مدة طويلة تعتبر مركز النهضة القومية نالت قسطها من النقد من قبل الوطنية ، ذلك ان القسم الأكبر من الجهود التربوية يقوم به مبشرون من رجال الدين ، وكان من الطبيعى ان يسيطر جو دينى على الكليات مما يضفى عليها صبغة مسيحية وان هذا له اثره فى ازعاج الأكثرية وانه لم يكن محاولة لتغليب اللغة ولكن لتغليب الدين ايضا وان من معايب النظم التربوية الحديثة فقدان المثل الاجتماعية العليا والتوجيه السليم ، ولم يكن من مصلحة الاستعمار ان تروج تربية حيوية تدعو الى الانطلاق كان يراد التقليل من قيمة الثقافة الوطنية وتمجيد فضائل السيد الأجنبى وابراز أهداف التربية الاستعمارية واثارة الروح الانهزامية فى نفوس المواطنين لتتمكن من التحكم بهم وبخيراتهم دون عناء كبير » .

وقال فولتين شيرول فى كتابه

انه مهما يكن الأساس الذى نقيم عليه حكمنا على نظام التعليم الذى أعد لناشئه المصريين تحت الحكم البريطانى فانه لم يستهدف البته تحرير البلاد ، ولا شك انه أعظم اخناق لنا . فبعد انصرام ما يقرب من اربعة عقود من السنين ما تزال الأمية تعم ٩٢ ٪ من الذكور و ٩٩ فى المائة من الأناث بين سكان القطر العربى وقالت الدكتورة علاء عز الدين (العالم العربى ص ١٧٠) أن التعليم فى مصر كان متجافيا مع طبيعة الشعب وبيئته فكان تلقيته بلغة اجنبية وكان يتجه اتجاها نظريا صرفا دون الالتفات الى حاجات الشعب .

وقال الدكتور حافظ عفيفى فى كتابه « على هامش السياسة » ان كثرة المدارس الأجنبية قاومت كل حركة ترمى الى تمصيرها ، كما أهملت اهمالا شنيعا أمر تعليم تلاميذها لغة البلاد وتاريخها وثقافتها واهتمت بتعليم لغة البلاد التى تنتمى اليها وحدها .

* * *

المدارس الأجنبية

كما حرص الاستعمار على انشاء معاهد وكليات انجليزية صرفه خصها بجانب كبير من عنايته واعتبر خريجيها هم الحكام الجدد فى العالم العربى ، فى مقدمة هذه الكليات : كلية فكتوريا التى خرجت أمين عثمان والأمير عبد الاله وتاريخهما معروف وتكشف كلمة اللورد لويد فى احتفال كلية فكتوريا السنوى بالاسكندرية ١٩٢٦ الصورة الكاملة لهذه الكلية وهدفها (المقتطف ص ٥٣٠ مايو ١٩٢٦) « قد يهمكم أن تعلموا أن ابناء الكلية السابقين ثمانية أجناس أو ٩ اجناس مختلفة ، وأن من الطلبة الآن ٣٠ فى المائة مصريون و ٢٠ فى المائة سكسون . ومنهم يونان ويهود وايطاليون وارمن وسوريون واحباش وغيرهم . . كل هؤلاء لا يمضى عليهم وقت طويل حتى يتشبعوا « بوجهة النظر » البريطانية بفضل العشرة الوثيقة بين المعلمين والتلاميذ فيكونوا قادرين على ان يفهموا اساليبنا ويعطفوا علينا . واود كثيرا ان اشعر بأن كلية فيكتوريا تنجب نفرا من نخبة الموظفين والمعلمين والتجار . هذه الكلية تنمى فيهم الشعور الانجليزى ما يكون كافيا لجعلهم صلة للتفاهم بين الشرق والغرب وأن كل هذه المشاكل التى بين (بريطانيا ومصر) تحل اذا تعلم كل من الانجليز والمصريين ان ينظر الى راى الفريق الآخر نظرا مقرونا بالفهم والعطف » .

* * *

مفهوم التعليم

ولا شك ان مناهج التعليم فى ظل الاحتلال كانت خالية من كل ما يقوى الروح الوطنى او يشجع التفكير الصحيح . وكان التعليم لا طابع له من القومية يدل على

انه مستمد من روح الأمة ماضيها وعاداتها وتقاليدها — على حد تعبير محمد العشماوى — وهو صاحب خبرة طويلة فى وزارة المعارف — يرى انه برنامج متشعب المواد مهلهل الأطراف ، خال من دراسة الفنون والآداب ولهما مع اللغة الوطنية أكبر الأثر فى ايقاظ الروح القومية .

وقد أجمع الباحثون على أن نظام التعليم كان عاجزا عن تجهيز الرجل والمرأة بما يجعلهما اكفاء لحمل عبء المسئولية الاجتماعية مما أدى الى ازمة خطيرة فى الأخلاق فى بلادنا وتدهور القيم الاجتماعية والأخلاقية والسياسية فى هذه البلاد وأن اهمال تعليم التاريخ يضعف الروح الوطنية والقومية فى الصدور حيث يخرج الشاب وهو لا يعلم شيئا عن منشئه وأصله وحضارته .

* * *

الصراع بين التعليم الانجليزى والفرنسى

وقد عمد الانجليز الى احلال لغتهم وثقافتهم محل اللغة والثقافة الفرنسية تدريجيا وخاصة فى المعاهد والمدارس العليا التى كان الفرنسيون يسيطرون عليها مثل مدرسة الحقوق واخرج الأساتذة الفرنسيون من الوظائف والمراكز المختلفة واحتل الأساتذة الانجليز بدلا منهم وقد استبدلت اللغة الانجليزية فى جميع المدارس باللغة الفرنسية واعتبرت اللغة الانجليزية لغة أصلية والفرنسية اضافية .

وهاجم كرومر أسلوب التعليم الفرنسى وقال ان أساتذة مدرسة (الحقوق) لا يلامون على ما يرى فى التلاميذ من قلة ما يميزهم بعضهم عن بعض لأنه ليس فى أسلوب التعليم الفرنسى ما يدعو الى هذا الامتياز ودعا الى أفضلية الأسلوب الانجليزى لأنه يجعل التلميذ يعتمد على نفسه .

وقد حاولت جبهة الثقافة الفرنسية فى مصر أن تدافع عن التعليم باللغة الفرنسية ، وبررت ذلك بأن اللغة الفرنسية هى لغة التجارة والجمعيات العلمية والصالونات والسهرات والتداول بين الأجانب أنفسهم ، وهى لذلك أوسع انتشارا فى هذه البلاد من اللغة الانجليزية وأن جميع الشركات بلا استثناء تستعمل اللغة الفرنسية، حتى الشركات الانجليزية فى مصر فمن كتب خطابا باللغة العربية الى بنك الانجلو أو الى غيره يأتيه الرد بالفرنسية لا بالانجليزية ولا بالعربية أما صحافتهم فى مصر فلا تطبع بالانجليزية الا جريدتان هم (الايجبشيان غازيت) والايجيبشيان ميل والأولى لايقرأها الا الانجليز ، وفى مصر خمس جرائد فرنسية مهمة غير المجلات وهى اللبمتية — الريفورم — الجنرال دى كير — البورص — الايكو .

ثم أن الحركة العلمية فى مصر تجرى كلها باللغة الفرنسية فمعظم المحاضرات التى تلقى فى الجمعية الملكية للاقتصاد والاحصاء والتشريع تلقى باللغة الفرنسية ، والجامعة المصرية يلقى فيها بعض محاضرات بالفرنسية ولا يلقى فيها شىء باللغة الانجليزية (الأهرام ١١/اكتوبر عام ١٩٢٣) .

وبينما كانت انجلترا تحارب الثقافة الفرنسية كان القصر والحكام الأتراك يؤيدون الثقافة الفرنسية ، المعروف أن صراع اللغتين الفرنسية والانجليزية فى مصر انما كان على حساب اللغة العربية .

* * *

بعد الاستقلال

عندما صدر تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ كان ذلك ايذانا بانتهاء السيطرة البريطانية على مختلف الشئون وبدأ عهد جديد هو عهد الاستقلال ، وقد تركت بريطانيا ظاهريا سيطرتها على التعليم وتخلى المستشارون الانجليز عن مناصبهم ولكن هل انتهى نفوذهم .

لقد كان الأمر كله مجرد اختفاء من فوق المسرح السياسى واخراج المسرحية من وراء الكواليس ، فهم قد اختفوا فعلا خلف المصريين من عملائهم وبقى نفوذ دنلوب فى وزارة المعارف قائما واستمرت الخطة التعليمية كما هى تستهدف تخريج موظفين فقط وظل القائمون بأمر التعليم فى وزارة المعارف ممن رباهم دنلوب هم أصحاب الرأى الأعلى . وجد فريق جديد من المؤمنين بمذهب « ديوى » الذى ينص صراحة على اقصاء الدين من المناهج الدراسية وقد ظهر دعاة لأسلوب التربية الانجليز أمثال عطية الابراشى صاحب مقالات التعليم فى انجلترا — الأهرام ، مارس ١٩٣١) والدكتور مأمون عبد السلام (التعليم فى لندن — الأهرام فبراير ١٩٢٣) وحافظ عفيفى صاحب كتاب الانجليز فى بلادهم .

* * *

معركة المقاومة

وقد قاوم الفكر الاسلامى اتجاه التعليم كما رسمه الاستعمار منذ اليوم الأول ولم يستسلم له أو يتقبله ، وظل يصارع الانحراف التغريبى ممثلا فى كرومر ودنلوب وسعد زغلول وغيرهم فى معركة طويلة ممتدة .

وقد كانت مدرسة الحقوق أكبر مركز مقاومة ضد الاستعمار الانجليزى حيث تحولت الى خلية من خلايا الوطن المصرى ، لم تعدم مصر أمثال أحمد حشمت وزيرا للمعارف يقاوم الانجليز ويصطدم بالاحتلال اصطداما شديدا ، وكان بينه وبين كتشنر ودنلوب معارك متعددة فى هذا الصدد ، وعندما تولى نظارة المعارف ١٩١٢ أعاد قلم الترجمة لتعريب الكتب واخذ فى احياء ادب اللغة العربية وطبع الكتب العربية النادرة وبحث مشروعا لانشاء مجمع علمى أو اكاديمية لاحياء الآداب العربية يكون الغرض منها اصلاح اللغة العربية .

وقد أدخل علم الصحة فى المدارس وانشأ روضة الأطفال ومدارس التدبير المنزلى وفتح باب التاليف والترجمة للكتاب والمؤلفين .

وقد انزعج الاحتلال لهذه الخطوات وأسرع بنقله الى وزارة الأوقاف لتجميد نشاطه وقد كان حشمت صورة مضادة لسعد زغلول .

وقد تركزت هذه المقاومة فى ١ — معركة اللغة العربية ٢ — معركة تعليم الدين ٣ — تعليم الفقراء والمجانية .

* * *

١ — اللغة العربية

وقد بدات هذه المعركة عام ١٩٠٦ وكان أول من طالب باصلاح التعليم على يوسف صاحب المؤيد حيث قدم اقتراحا فى الجمعية العمومية بطلب عرض لوائح التعليم على الجمعية قبل اقرارها . واقترحت الجمعية العمومية على الحكومة ١٩٠٧ ان تجعل تعليم العلوم فى مدارسها باللغة العربية أن تكون العربية قاعدة التدريس كما كانت قبل الاحتلال ، ونص الاقتراح على « تعليم العلوم فى مدارس الحكومة باللغة العربية مع ايجاد الوسائل الفعالة لايجاد الكتب العربية الصالحة فى كل علم وفن .

وقد عارض سعد زغلول الاقتراح (وكان وزير المعارف الذى رشحه كرومر) فاظهر رغبته الشخصية فى احياء لغة البلاد لولا ما يراه من العثرات فى سبيل هذه الأمنية فهو يرى « أن الحكومة لم تقرر التعليم باللغة الأجنبية الا ليتقوى التلاميذ فيها وعليهم الاستفادة من المدنية الأوربية ويفيدوا بلادهم ويقووا على الدخول مع الاجانب فى معترك الحياة » .

الى أن قال : واذا فرضنا انه يمكننا أن نجعل التعليم من الآن باللغة العربية وشرعنا فيه فعلا ، فاننا نكون قد اسانا الى بلادنا والى انفسنا اساءة كبرى ، لأنه لا يمكن للذين يتعلمون على هذا النحو أن يوظفوا فى الجمارك أو البوسطة أو المحاكم العديدة التابعة للحكومة ويقتضى نظامها وجود موظفين يعرفون اللغة الأجنبية جيد المعرفة ولا أن يستخدموا فى بنك أو مصرف أو يشتركوا فى شركة من الشركات التى كثر تأسيسها فى البلاد ولا أن يكونوا محامين أمام المحاكم المختلطة ولا مترجمين ولا غير ذلك مما يحتاج الى براعة فى لغة أجنبية ، واذا قطعنا النظر عن ذلك كله واردنا ان نشرع اليوم فى التعليم باللغة العربية اعترضنا صعوبات مادية هى قلة المعلمين الأكفاء الذين يمكنهم تعليم هذه الفنون باللغة العربية » .

ثم ناشد الأعضاء « الا يندفعوا فى هذه المسألة وراء احساسهم » اذ لا فائدة من طلب تعلمون من الآن انه لا يقابل بغير الرفض لاستحالة تنفيذه (الهلال — ابريل ١٩٠٧) .

وقد بين المقاومون للتيار الاستعمارى التغريبى ومن بينهم جرجى زيدان نتائج التدريس باللغة العربية واللغة الأجنبية وكيف أن التعليم باللغة الأجنبية يؤدى الى ١ — الضعف فى اللغة العربية وآدابها ٢ — ضياع الجنسية العربية ٣ — انحصار العلم والتهذيب فى الطبقة العليا وبقاء العامة على جهلهم .

* * *

٢ — اللغة والجنس

وقد جرت مساجلات متعددة حول اللغة العربية وقال خصومها : ماذا على المصريين لو استبدلوا لغتهم بالانجليزية مثلا كما حدث فى الولايات المتحدة . فيمكن أن تذهب اللغة العربية وتبقى الأمة المصرية متحدة بالجامعة الوطنية وكانت هذه احدى دعوات التغريب .

وقد رد عليها جرجى زيدان (الهلال — أبريل عام ١٩٠٧) فقال أن الانسان ضنين بجنسيته حريص على قوميته مهما يكن شأنها من الضعف حتى الأمم الهمجية فكيف بالعرب وتاريخهم مجيد يوجب الفخر لمن ينتسب اليه من أصحابه وذهاب اللغة ذهاب الجنسية فبقاء الأمة المصرية ولغتها انجليزية مثلا لا يضر أعقابها من أجيال عديدة اذ ينسون جنسيتهم القديمة ولا يعرفون الا الجنسية الجديدة .

وليس هناك وجه للمقارنة بينها وبين لغة الهنود الحمر الذين يتخذون الانجليزية . اما اللغة العربية فانها لغة تمدن وعلم ودين وهى من ارقى لغات الأرض فضلا عن ارتباطها بالدين الاسلامى .

* * *

٣ — اللغة وتدريس العلوم

واثيرت مشكلة اللغة وتدريس العلوم بها (مايو عام ١٩٢٠) وكانت الصحف منبرا لمعركة حامية حولها .

وقد ابدى دعاة التغريب وحماة الغزو الثقافى اعتراضا على صلاحية اللغة العربية لتدريس العلوم فى الجامعة منها :

* تصور اللغة عن الوفاء عما تحتاجه علوم الطب من الالفاظ والاصطلاحات .

* المشقة فى ترجمة الكتب العربية ونشرها .

* صعوبة تحويل المدرسين الانجليز من مدرسين باللغة الانجليزية الى مدرسين باللغة العربية .

* ما ينشأ عن التعليم باللغة العربية من انقطاع الصلة بين الطبيب وبين علوم الطب بعد تخرجه .

* تعذر الدراسة على الطبيب فى المستقبل اذا اراد التوسعة فى معلوماته ونيل درجات عالية من الخارج .

وقد فند الدكتور احمد عيسى كل هذه الاعتراضات وابان عظمة « اتساع اللغة العربية » وكثرة الفاظها وتعدد معانيها تعددا لا يدانيها فيه سوى اليونانية وقال « ان لغة يبلغ ما امكن حصره من كلامها مائة الف مادة لا يمكن وصفها بالعى والقصور » .

وقال ان اللغة العربية هى لغة الفصاحة. هى لغة البلاغة يتسع المجال فيها للكاتب من اطناب وايجاز وتصريح وتلميح وكناية واستعارة ولا يعجز الكاتب عن التعبير بها ارق المعانى وتصويرها حتى يخيل اليه انها مصورة امامه تلمس باليد (الأهرام — ٤ مايو ١٩٢٠) .

وقد عرض كثيرون لتأييد هذا الراى : محمد شافعى اللبان (١٤ مايو ١٩٢٠ الأهرام) والدكتور هيكل فى افتتاحية الأهرام ١٠ مايو ١٩٢٠ حيث نعى على ما يؤلف من الكتب باللغة الانجليزية او اى لغة اجنبية وبين أن ما يكتب باللغة العربية يكون فى متناول الجميع قراءته وفهم معلومه ، وقال أن اهم ملاحظة تكشف عن الضرر الفاحش الذى يجىء بسبب التعليم بلغة اجنبية هو عدم التفاهم بين طائفة المعلمين وباقى الطوائف تفاهما تاما .

وقد ظلت معركة اللغة العربية فى تعليم العلوم قائمة ، وظل الاستعمار ممثلا فى اعوانه واتباعه فى الجامعة حريصا على أن لا يتحقق التعليم باللغة العربية فى مصر فى حين استطاعت سورية أن تحقق ذلك .

ومما يتصل بذلك ما طالب به زكى مبارك من ادخال اللغة العربية الى الاقسام الثانوية فى المدارس الأجنبية : وقال أن الطلاب معرضون لأصعب الأخطار من الوجهة العمومية أن لم يحرسوا حراسة من طغيان الدعايات المذهبية ولا يعصمهم من تلك الدعايات الا تذويدهم باللغة العربية . ودراسة تاريخ مصر دراسة عميقة تصل بهم الى الثقة بأنهم نشأو فى وطن له ماض فى خدمة العلوم والآداب والفنون .

وملاحظة زكى مبارك لها وزنها لأنها جاءت نتيجة خبرته أيام كان مفتشا لوزارة المعارف بالمدارس الأجنبية.

* * *

٥ — تعليم الدين

ولقد حرص الكثيرون على مقاومة اقصاء الدين عن مناهج التعليم وكان فى مقدمتهم الشيخ محمود ابو العيون الذى لم يترك مناسبة دون ان يثير هذه الرغبة وقد وجهها الى كل وزير للمعارف « اننا نريد ان يكون تعليم الدين فى المدارس مادة اساسية كباقى المواد التى ينجح فيها الطلاب أو يرسب . ونريد ان يكون التعليم للعبادات والعقائد وسير ابطال الاسلام والائمة المعروفين (خطابه الى وزير المعارف ١٩٣٠/١٠/٦) وكان قد تقدم به لأول مرة عام ١٩٢٣ ثم عام ١٩٢٥ .

وقد اشار عبدالصبور مرزوق فى كتابه فوضى التعليم فى مصر الى أن الانجليز علموا مدى خطر التربية الدينية على وجودهم حين « اوحوا الى عصبة مجرمة من خونة المصريين فانزلوا بهم المحن » واشار الى قول جاروفالو المربى الايطالى : انه لمقاومة الاجرام يجب رفع مستوى الاحساس الخلقى بالتعليم الصحيح

القائم على اساس دينى . لأن اسباب الجريمة وموطنها الأساسى هو ضعف التكوين الأخلاقى لا العوامل الإقتصادية او الأحوال الاجتماعية .

* * *

٦ — تعليم الفقراء والمجانية

وقد كانت هذه معركة ضخمة من معارك المقاومة فقد حرص الاستعمار على وضع قاعدة تعليمية اساسية هى « عدم تعليم ابناء الفقراء والفلاحين حتى لا يتركوا طبقتهم » وقد دافع لطفى السيد عن هذا الرأى فى « الجريدة » وكان التعليم قبل الاحتلال مجانيا .

وقد امتد هذا الاتجاه بعد الاستقلال . وقد كانت الاعتراضات دائما بأن تعميم التعليم الالزامى تحول دونه الميزانيات التى لا تكفى ، وقد امتد هذا الى عام ١٩٣٩ (الدكتور هيكل — تعميم التعليم الالزامى يقتضى مبالغ طائلة) .

وقد دارت مساجلات متعددة حول اتجاهين فى التعليم :

(الأول) يرى ضرورة قصر التعليم على الصفوة بغيه اعداد القادة الذين يستطيعون أن يتولوا اصلاح البلاد والأخذ بيدها .

(الثانى) يرى أن التعليم حق من حقوق الشعب على الدولة أن تيسره للناس جميعا . اما تحسينه والرقى به فسيأتى مع الزمن .

ثم ظهرت نظريتان اخريان : هما ١ — محو الأمية ٢ — تعليم الأمة ، واسهبت الصحف فى بحث النظريتين : (الأهرام ١٩٢٥/٤/٢٠) (فالرأى القائل بنظرية محو الأمية يرى أن يكون تعلم الطفل المصرى والطفلة المصرية اجباريا من سن السابعة الى العاشرة والفريق القائل بنظرية تعليم الأمة يرى أن يكون تعليم الطفل المصرى والطفلة المصرية من سن السابعة الى الرابعة عشرة ما حولها .

اما ازالة الأمية فهى ايصال الطفل الى فك الخط) اما نظرية تعليم الأمة فهى أوسع من ذلك بكثير .

وقد كانت الصيحات تتعالى بالدعوة الى « الاستعانة بالبرامج الغربية واستقدام خبراء اجانب من التربويين الأوربيين والأمريكيين » دون تقدير مدى اهمية حاجتنا المحلية القومية أولا ودون نظر الى مدى ما يحمل هؤلاء الخبراء من آراء منحرفة وتغريبية أو أن يكونوا من دعاة الغزو الثقافى .

وقد كان للسياسة والاستعمار اثرهما فى أن يوصف التعليم الأولى (الأهرام — ١٩٣٥/١١/٥) بأن الوزارة اخرجته عن طوره وجعلته غالى الثمن باهظ الحمل بحيث لا يقوى عليه الا أوساط الناس ومن فوقهم ، اما الفقراء وهم الذين انشىء لهم هذا التعليم فقد حيل بينهم وبينه وقد امتلأت سجلات الوزارة بمظاهر نفوذ الأهليين من نظام التعليم الالزامى وعدم مطابقته لعاداتهم وتقاليدهم » وحملت الكاتبة « مى » على التعليم الاجبارى ، بحجة أنه مؤد للبطالة وافقار الريف وازدحام المدن (١٨/٢/٢٤) — دون تحويل الفلاحين الذين يعملون فى الحقول الى افندية وعارض زكى المهندس واسماعيل القبانى فتح ابواب التعليم الثانوى لكل من اراد : وقال اسماعيل القبانى : انه ينبغى الا يدخل المدارس الثانوية الا لمن لديهم استعداد خاص يؤهلهم لها .

وعارض رياض شمس (١٩٢٩/٢/٢ — الأهرام) التعليم الاجبارى وقال أنه خطر « لأننا اذا عممنا التعليم بين سائر طبقات الشعب فسيكون لدينا بعد سنين معدودة بضعة ملايين من الفلاحين ومعنى هذا أن بلدنا سيكون مسرحا لثورة اجتماعية » وطالبت الأهرام (محمد زكى عبدالقادر) بأن يحصر نطاق التعليم العالى فى أضيق نطاق ممكن (١ يولية / ١٩٠٩) ولا يبقى الا نوع واحد من المجانية هى مجانية التفوق والنبوغ وأن فكرة مساعدة الفقراء عن طريق المجانية هى فكرة غامضة وليس لها غرض محدد فانه لا يمكن القول بانها تساعد على نشر العلم .

وهاجمت احسان احمد (الأهرام ١٩٢٩/٨/١٦) تقرير الخبير كلا باريد الذى استقدمته وزارة المعارف لنظر تعديل المناهج من ناحية الأساليب وملائمتها لقوى الطالب أما من الجهة الاجتماعية العامة وما تتطلبه حاجة البلاد من التعديل فلم يعالجها وعذره انه غريب عن البلاد لا يعرف ما تحتاج اليه أو تشكو منه ، وأن الوطنيين احق الناس بوضع مناهج تعليمهم حسب حاجتهم وظروفهم .

وكانت اكبر حملة على تعليم ابناء الفقراء ، وهى حملة عمر طوسون (٢٣»٣٢/١٢) فقد دعا الى (الغاء

المجانية يتاتا من التعليم الابتدائى والثانوى . وان يقتصر على التعليم الأولى . وبعد التعليم الأولى يترك التلميذ ليحترف حرفة أبيه او اى حرفة تناسب بيئته ودرجة تعلمه) .

كما وقف عدد من النواب فى مجلس النواب فحملوا على المجانية وفى مقدمةهؤلاء : محمود زكى. وسراج الدين شاهين . وقد أعلنا انه يكفى أن يتعلم ابناء الفقراء تعليما الزاميا . وقالت الأهرام (١٩٣٢/١٢/٢٧) أن محمود زكى شن غارة على المجانية واشار على وزارة المعارف أن تعمل على الاقلال منها .

وقد هاجم هذا الاتجاه كثيرون من بينهم عمر الدسوقى وكان أبلغ رد على عمر طوسون والأرستقراطية الاقطاعية الاستعمارية فى عهد صدقى هو دفاع الشيخ صادق ابراهيم عرجون من علماء الأزهر (٣٣/١/١٩ — الأهرام) تحت عنوان « الأرستقراطية عقبة فاحذروها » .. وقد هاجم فيه هذا الاتجاه ضد تعليم أولاد الفقراء « فاننا رايناهم يجمعون على حرمان هؤلاء المساكين الذين لا ذنب لهم الا انهم ابناء الفقراء من التعليم العالى . على أن يعلموا تعليما أوليا فقط . ثم قال :

ماذا يكون الحال اذا اندفعت الأمة فى هذا التيار واصبح متعلموها وقادة الراى فيها من طبقة ابناء الأغنياء .. الا تسودها الأستقراطية الطاغية فتكمم انفاسها وتعيدها سيرتها الأولى من الخضوع الى الفردية والاستعباد للحكام وتقديسهم تقديسا أعمى . ذلك الخلق الفاسد الذى جهد المستعمرون طوال حياتهم بيننا فى غرسه وتعهده والذى جاهدت الأمة فى الخلاص منه ، هل من استعداد ابناء الأغنياء وهم على ما نعلم من التربية المدللة والرفاهية المفرطة أن يقوموا بحاجات الأمة فى المستقبل فى خلق رجال سيضربون فى الحياة والمخاطراه. لقد حدثنا التاريخ عن العبقرية فى أجواء الأكواخ الحقيرة .. وان كثرة العلماء والعباقرة من الفقراء . ان الأمة المصرية نسبة العلم فيها ضئيلة جدا بل هى مخجلة حقا . وان هذه الأعوام التى طاطأت منها الاستعمار الأجنبى هامتها لم تكن الا نتيجة الجهل .

لنفرض أن الأمة استجابت الى هذه الدعوة الخطيرة واصبح معظمها يحترف هذه الحرف . فماذا يكون مصير الحال . بلا ريب مصيره ارتفاع صوت هذه الأقلية المتحكمة المسيطرة تصرفه فى ملاذها وشهواتها او فى جيوب الأجانب المتعلمين لأنهم عرفوا طرق تصريف المال فى وجوهه العظيمة النافعة .

عالجوا الأزمة ولكن لا تحرموا عصب الأمة العلم فهو الذى سيغنيها وينقذها من أزمتها ويعيد اليها حريتها.

٧ — وطالب عباس عمار بالعناية بالناحية القومية فى التعليم (الأهرام ١٩٣٤/١٢/٣٠) فقال : علموا الطلبة تاريخهم فى تفصيل لنواحى عظمته وتحليل لما فيه من فخر وجلال . علموهم روح المدنية المصرية القديمة واروهم فضل مصر على الفن والعلم والأدب ، وان تكون موضوعات المطالعة مصرية تدور حول مدنيتنا وبيئتنا والشعر الذى نحفظه ينبغى أن يتغنى بماضينا ويلهب حماستنا والقصص التى تقص علينا يجب ان تقتبس من تاريخنا وعقائدنا وخرافاتنا . ياقوم عار ان يقف متخرج فى كلية الحقوق يوشح نفسه للسلك السياسى فيقول انقناة السويس حد بيننا وبين الشام .

* * *

تجربة المغرب

عرضنا لتجربة الغزو الثقافى الانجليزى فى مصر أما الغزو الثقافى الفرنسى فى المغرب فقد كان اشد قسوة .

(١) فرضت اللغة الفرنسية باعتبارها اللغةالوحيدة فى الثقافة والتعليم .

(٢) عمدت الى التنصير (اقامة المسيحية محل الاسلام) ثم الى الفرنسية (احلال اللغة الفرنسية محل اللغة العربية) .

وقذفت المغرب بأقطاره المختلفة بالارساليات التبشيرية .

(٣) اهمال اللغة العربية اهمالا كليا ثم مكافحة فعالة وتقويض دعائم المؤسسات التقليدية الدينية باستنضاب مواردها .

(٤) اذاعة دعاوى باطلة بين البربر تزعم بأنهم لم يكونوا مسلمين تماما وذلك فى محاولة لعزلهم عن العرب واستمالتهم لفرنسا .

(٥) منعت فرنسا التكلم بغير اللهجات البربرية او اللغة الفرنسية .

(٦) حظرت على الفقراء ومعلمى اللغة الفرنسية الانتقال الى مناطق البربر وتعليم القرآن بها .
وقد اشار (م لوكينز) الى هذه السياسة فقال

« ان سياسة الحماية تجلت فى ميدان التعليم فى شكل حرب منظمة ضد الثقافة الوطنية وفى شكل تنظيم تعليم عصرى يرمى قبل كل شيء الى تكوين موظفين فرنسيين فى الميدانين الادارى والفنى واعوان مغاربة ثانويين » .

وقد اشار ساطع الحصرى الى هذه الخطة (الرسالة م ٤ ص ٢٥١) فقال « ذهبوا الى انه يجب ان يرافق الفتح السياسى فتح معنوى بحيث يتقرب اهالى المستعمرات من المستعمرين وان يندمجوا فيهم اندماجا وذلك بنشر لغة المستعمر وتعليم أهالى المستعمرات تعليما ينشيء فى نفوسهم حب المستعمر . وقد جعل الفرنسيون اللغة الفرنسية محورا لكل درس فى منهاجهم مع مادة ترمى الى تحبيب الأهلين فى الفرنسيين ومايترتب على اهل الجزائر نحو فرنسا مقابل الحماية التى تسديها اليهم والعدل الذى ادخلته الى بلادهم ونعمة التعلم والحضارة . وقال ساطع الحصرى أن هذه السياسة لم تنجح واتت بالنقيض ولذلك تحولوا منها الى التعليم بغير تثقيف » على نحو ضيق جدا يجعلهم آلات صماء فى ايدى الاستعمار دون أن يدخل التعليم أى عنصر من عناصر الثقافة العامة .

وقد اشار علال الفاسى (المغرب) الى ذلك فقال :
ان سياسة التعليم التى فرضها الاستعمار الفرنسى كانت تهدف الى محاربة اللغة العربية والاستعاضة عنها باللغة الفرنسية . وقد سلطت الحماية حربها على المنظمات الثقافية المغربية فاقفلت عددا كبيرا ، وصبت عدائها المستمر على (جامعة القرويين ـــ والمغرب) وفروعها فى مراكش ومكناس والرباط وطنجة ووجده . وعقم التعليم الرسمى وضعفت نسبته ، واصبحت نسبة التعلم فى عهد الاستعمار الفرنسى : ٢/٥ فى المائة (تونس) ٢ فى المائة (الجزائر) ٣٥/ فى المائة مراكش هذا بالاضافة الى نشر الدعايات التبشيرية والمحاولات لنشر المسيحية ونشر أساليب ملتوية لاستدراج المثقفين الى المسيحية فضلا عن الاضطهاد الدينى فى المساجد والمعابد والأوقاف الاسلامية

وجاء فى تقرير رسمى فرنسى (ساطع الحصرى ص ٤٧١ حولية التعليم جـ ٢) أن ايالة (الجزائر) لن تصبح مملكة فرنسية الا عندما تصبح لغتنا (الفرنسية) هناك قومية . والعمل الجبار الذى يترتب علينا انجازه هو السعى وراء نشر الثقافة الفرنسية بين الأهالى بالتدريج الى أن تقوم مقام اللغة العربية الدارجة بينهم الآن .

وفى تونس : أنشأ الفرنسيون (١٨٨٣) مدارس ابتدائية فرنسية للأوربيين والعرب ليس بها لغة عربية وذلك لمحاولة تنشئة الأطفال تنشئة فرنسية صرفة) .

وقد قاوم الشعب العربى فى تونس والجزائر والمغرب هذا التيار واسس مدارس حره من ماله الخاص .. غير ان السلطات الفرنسية قاومت هذه المدارس ولم تسمح الا بعدد ضئيل منها ، ولعل اعظم عمل تم فى هذا المجال هو ما قام به العلامة الشهيد : عبد الحميد بن باديس وزميليه فى الكفاح « البشير الابراهيمى » والطيب العقبى فى الجزائر حيث اسسوا ثلاثمائة مدرسة فى المساجد لحماية اللغة العربية .

وجملة القول ان العرب استطاعوا فى ميدان التعليم ان يواجهوا حملة التحدى بحملة رد الفعل ، وان جميع البرامج التى وضعت لصبغ العرب باللون الفرنسى أو الانجليزى قد فشلت ، حتى أولئك الذين تلقوا الدراسات فى فرنسا وبريطانيا عاد منهم كثيرون وقد تحرروا من سلطان التغريب وعملوا على خلق فكر عربى حر قائم على الأسس العربية والاسلامية والأمجاد والقيم العربية الأصيلة وتحطمت نظرية الغرب فى القضاء على الشخصية العربية وان استطاعوا تمييعها الى حد ما . وقد مضت الشخصية العربية تقاوم وتعمل فى سبيل التماسك .

* * *

نقص المناهج التعليمية

وبالجملة فان ما ابعده الاستعمار من المناهج التعليمية هو : الدين والتاريخ واللغة العربية وكانت نظرية « ديوى » هى أساس المناهج ونقطة الالتقاء مع التغريب .

* * *

نظرية ديوى

ابرز مظاهر مذهب ديوى فى التربية هو ابعاد الدين عن مجال التربية وكان هدفه هو ابعاد المسيحية عن برامج التعلم الغربى ، وقد قصد الاستعمار الى فرض

هذا المذهب فى دراسات مدارس المعلمين العليا التىكانت مجال تخريج رجال التربية فى مصر ، ورأى فى هذا عوضا عن الاشراف البريطانى على التعليم الذى كان يقوم به دنلوب حتى عام ١٩٢٢ وكانت نظرية ديوى عماد المنهج التربوى بعد ذلك ، وكان اسماعيل القبانى هو عماد هذه الدعوة وحامل لوائها بانشاء معهد التربية وليس ادل على اضطراب نظرية ديوى من انها هوجمت فى امريكا نفسها ورميت بأنها (مجردة من العناصر الصالحة لتنشيط الحياة الفكرية) .

وقد ظل لاتباع نظرية ديوى سيطرتهم الكاملة على أنظمة التربية والتعليم فى خلال الفترة التى نؤرخها وبذلك استطاعت ان تبعد الاسلام عن مجال التربية والتعليم مع حملات مستمرة على أساليب التعليم الأزهرية وابعاد خريجيه عن مجالات التربية بحجة أطلق عليها «النقص فى مستوى الكفاية الفنية للتعليم » وذلك جريا مع الهدف التغريبى الواضح .

كما حرصت هذه المناهج على حجب الدراسات الوطنية التاريخية التى تعمل على بث أمجاد الأمة وعظمة الشخصية العربية فى نفوس الطلاب .

وقد حلت البرامج فى المدارس والمعاهد العربية فى عهد الاستعمار البريطانى والفرنسى فى مرحلتيه : مرحلة الحماية ومرحلة الاستقلال الذاتى من :

١ ـ الثقافة الاسلامية والتاريخ الاسلامى .

٢ ـ القرآن والدين الاسلامى .

٣ ـ أصول اللغة العربية وفلسفتها .

فى حين زيدت برامج اللغة الانجليزية او الفرنسية على نحو مساو للغة العربية ، وغلب فى التاريخ دراسة التاريخ الاقليمى الذى يدعو الى خلق روح الانفصالية والتجزئة وتغليب تاريخ أوربا والشعوب الأوربية على نحو يصور الاستعمار بصورة العظمة والجلال . وفى الجزء القليل من تاريخ الوطن العربى والتاريخ الاسلامى كانت المناهج تخلو خلوا كاملا من الأمجاد والبطولات وتاريخ الأبرار المجاهدين . وفى خلال هذا التاريخ كانت هناك تزويرات وسموم يراد بها رسم صورة مشوهة لتاريخ الاسلام تبدو معه الأمة العربية فى صورة التفكك والصراع بين الحكام وابراز جوانب المؤامرات والخصومات وعوامل الصراع التى يراد بها القضاء على صورة الوحدة والقوة والتطور : وبالجملة فقد أقصى عن برامج التعليم فى المدارس والكليات العليا جانب الثقافة العربية الاسلامية .

وقد حدث هذا فى التعليم المدنى بينما ضعف التعليم فى الأزهر والمعاهد الدينية العربية وعزل خريجيه تقريبا عن التربية والحياة الفكرية .

* * *

اللغة العربية فى الجامعة

جرت معارك متعددة منذ ١٩٢٠ حول التعليم باللغة العربية فى الجامعات . كان أولاها بشأن التعليم بالعربية فى كلية الطب . وعارض فى ذلك على ابراهيم ونجيب محفوظ وعبد المجيد محمود وامين عبد الرحمن وابراهيم شوقى وقدموا تقريرا نشرته الأهرام فى ١٩٢٢/٧/١ يعلنون فيه صعوبة ذلك ونتائجه السيئة .

بينما اجمع الأساتذة « على أن اللغة العربيةتصلح للتعليم وتسع جميع الاصطلاحات الفنية ، ومن أجل ايجاد كتب طبية عربية ، على المدرسين ان يبدأوا بتدريس الفروع الموكولة اليهم باللغة العربية كمقدمة لظهور كتب عربية طبية فى جميع الفروع » .

وهاجم الدكتور هيكل « الضرر الفاحش والخطر العظيم بسبب التعليم بلغة أجنبية وقال : انه لو ان اللغة العربية هى التى حلت محل اللغة الفرنسية فى تدريس الحقوق لكانت النتيجة الطبيعية أن تظهر بدل هذه المؤلفات الانجليزية مؤلفاتعربية تعادلها (١٩٢٠/٥/١٠)

ودعا محمد الشافعى اللبان الى التدريس باللغة العربية فى مدرسة الحقوق (١٩٢٠/٥/١٤) .

وكان للدكتور زكى مبارك دور واضح فى الدعوة لتعريب التعليم فى كلية العلوم بالذات ومختلف كليات الجامعة ، وقد كتب عديدا من المقالات فىيوليه واغسطس عام ١٩٣١ قال : ان كل ما يجرى فى كلية العلوم يكتب باللغة الانجليزية حتى جداول الدروس والبيانات التى تعلق على الجدران . اليس معنى هذا أنه ليس لنا لغة ، وان لغتنا ليست لغة مدنية ولا علم ، وانما تصلح فقط للمناوشات الكلامية فى الصحف والمجلات .

وقال : هم يزعمون ان اللغة العربية ليس فيها

مصطلحات علمية ، وهذه علة لا قيمة لها على الاطلاق . لأن اللغات المشهورة فى اوربا كالفرنسية والانجليزية لم يكن لها ايضا مصطلحات قبل نهضة العلم . ولا اكاد أصدق أن كلية الحقوق تريد أن تعود من جديد الى فرض اللغة الفرنسية على الطلاب وقد قامت الدلائل على صلاحية اللغة العربية لشرح القوانين وهى من أغنى اللغات فى مؤلفات الفقه والتشريع » .

ووجه هجومه الى لطفى السيد وطه حسين (١ — اغسطس ١٩٣٥ — البلاغ) فقال : هل توجد فى العالم كله جامعة واحدة جعلت لغة التعلم لغة أجنبية غير الجامعات التى تنشىء فى المستعمرات : ان التعليم بلغة أجنبية يهدم الاستقلال من الأساس . وقال : أتحتجون بأن اللغة العربية تعجز عن التعابير العلمية . فان احتججتم فأنا نسألكم ، ما هى القوة السحرية التى جعلت لغات الغرب أقدر من غيرها على التعابير العلمية . وهل تخلق اللغات كاملة مكملة لا تحتاج الى زيادة ولا يعتورها نقص . أن المصطلحات العلمية فى اللغات الأوربية تنحت نحتا من اللاتينية واليونانية ومع ذلك لم يقل أحد يفقر الفرنسية او الانجليزية ، فما الذى يمنع أن تؤخذ المصطلحات العلمية مرة واحدة وتنقل الى اللغة العربية ويسد هذا الباب فى وجه من يريدون أن تظل دائما اتباعا أبد الدهر لأبناء اللغات الأجنبية . أليس من العجاب أن ندرس الطب باللغة الانجليزية فى بيروت وتدريس بالانجليزية فى القاهرة .

ولا شك أن الهدف من وراء ذلك كان هو أن يؤدى الدين والتاريخ الى تقوية الروح الوطنية واحياء الروح العربية الحرة .

* * *

اللغة الأجنبية

وقد اتصل بهذا غلبة اللغة الأجنبية على الألسنة حتى فى الأحاديث العامة والضعف الواضح فى اللغة العربية فى الكتابة والتعبير واذا كان الدكتور الطاهر الحميرى (تونس) فى كتابه مكافحة الثقافة يقول « انه يعرف عائلات تونسية كل حديثها بالفرنسية ولا يدخل فيه من العربية الا بعض الكلمات التى لا مقابل لها فى الفرنسية » فان هذا لم يكن مظهرا تونسيا بقدر ما هو مظهر عربى شامل فى هذه الفترة .

* * *

دنلوب

والدور الذى قام به « دنلوب » فى تحويل التعليم فى مصر عن الهدف الأسمى قد حقق نتائج اكيدة وظل قوى الأثر من بعده ، ذلك الهدف الذى يقصد الى تخريج موظفين فقط .

ومما يرويه « الدكتور محمد ناجى » ان الشيخ عبد العزيز شاويش بعد أن عاد من منفاه ١٩٢٣ عمل مديرا للتعليم الابتدائى بوزارة المعارف : يقول « على اثر عودتى لأول مرة تأسست مدرسة عبد العزيز وكان برنامجها يقتصر على سنة واحدة لتخريج معلمين فكتب تقريرا وجهه الى « دنلوب » قال فيه أن هذه المدرسة اسست لتخريج معلمين ، فالسنة التى قررتموها لا تكفى لتلقين قاصديها وتهذيبهم وتدريبهم وتعليمهم كيف يعلمون ، واقترح برنامجا من ثلاث سنوات .

وقرأ دنلوب التقرير وكتب عليه « غيابك عن مصر ثلاث سنوات متعاقبة وضعتك فى موضع المغالى فيما تطلب لقومه . ان أمتك يكفيها معلم يستطيع ان يعلمها الفا باء ومبادىء الحساب » !



المقاومة فى العالم العربى

كما تعددت حركات المقاومة فى جميع انحاء العالم العربى بعد حصوله على الاستقلال ، ففى العراق أمكن بفضل ساطع الحصرى ١٩٢١ أن توجد نظاما تعليميا يحمل طابعا قوميا خاصا بالرغم من ارتباطه باللغة الانجليزية كما عملت سوريا على تعريب الألفاظ والكتب ودراسات الجامعة واصبحت كليات الطب وغيرها تدرس باللغة العربية وهو ما لم تبلغه مصر وادخلت دراسات القومية العربية الى المناهج التعليمية .

ثم جرت ابحاث لتوحيد برامج التعليم فى البلاد العربية (اغسطس ١٩٢٧) وقد جرت هذه المشاورات بين مصر والعراق ومع الثعالبى زعيم تونس حول «توحيد الثقافة العربية بين الناطقين باللغة العربية » وقد أعلن الثعالبى أسفه لأن تكون الأمة العربية وهى ممتدة من شطوط الاطلنطى الى تخوم البلوخستان مقطعة الأوصال عارية من الثقافة ، ليس لها منهاج معين تتبعه ولا مبدأ تسير عليه وقال : « ان اليوم التى يجتمع فيه المراكش

والجزائرى والتونسى والطرابلسى والمصرى والفلسطينى والسورى والحجازى واليمانى والنجدى والعمانى والعراقى لوضع منهاج للتعليم والثقافة لتوحيد روحية هذه الأقطار يومئذ يعتقدون انهم عنصر غلاب ويستحيل من حقهم أن يرضوا بالموت حتف أنوفهم تحت صراعوختل سياسة الاستعمار . ان هذا العمل صعب ولكن اصعب منه احتمال الضيم وقبول الفناء فى ارادة الغير » كما دعا المجلس الاسلامى الأعلى فى فلسطين الى مؤتمر عربى عام للنظر فى توحيد مفاهيم التعليم وقد سجل احمد شفيق فى كتابة (أعمالى بعد مذكراتى) أنه تفاهم فى الفكرة مع الملك فيصل والملك سعود وأن لطفى السيد وزير المعارف رفض الفكرة ووقف فى وجهها وقال : لقد زرته واعدت الحديث معه فلم اجد عنده قبولا للفكرة .

❋ ❋ ❋

الجامعة فى معركة الغزو الثقــافى

كان انشاء « الجامعة المصرية » فىمصر من معارك مقاومة الغزو الثقافى فقد كانت الدعوة الى انشاءها حلقة من حلقات الحركة الوطنية ومقاومة الاستعمار .

ولقــد فوجىء الاســتعمار بالدعوة الى المشروع وهاجمه هجوما عنيفا ، وحاول ايقــاف خطواته ، وقال كرومر معلنا « ان التعليم الذى تحتاج اليه الأمة المصرية هو تعليم « الكتاب » وحث الحكام والأعيان على انشــاء الكتاتيب لتحويل تيار الراى العام عن مشروع الجامعة »

وقد استقبل الراى العــام المشروع بشىء كثير من الايمان والتضحية وانهالت التبرعات التى بداها (مصطفى كامل الغمراوى) بخطاب ارسله لجريدة المؤيد (٣٠ — سبتمبر ١٩٠٦) متبرعا بمبلغ ٥٠٠ جنيه .

وفى ٤ اكتوبر ١٩٠٦ نشرت المؤيد اســماء مؤيدى المشروع وبلغت التبرعات ٤٤٨٥ جنيها وتبرع حسن زايد (المنوفية) ، ٥٠ فدانا وعقدت الجلسة التمهيدية فى بيت سعد زغلول (١٧ اكتوبر ١٩٠٦) وصدر قرار تاسيس الجامعة (٣٠ مايو ١٩٠٨) وافتتحت فى (٢١ ديسمبر ١٩٠٨) فى مجلس شورى القوانين (مجلس الشيوخ) .

وقد اشار حسن حسنى كامل فى رسالة الأهرام (٢٥/١٢/٢٤) أن اول مصرى نادى بوجوب انشاء جامعة مصرية هو مصطفى كامل عام ١٩٠٢ ولما عاد مصطفى كامل ١٩٠٦ من أوربا جمــع المصريون ٥٠٠ جنيــه للاحتفال به بعد دفاعه فى حادث دنشواى فأرسل خطابا الى محمد بك فريد (٢٥ سبتمبر ١٩٠٦) طلب فيه تحويل هذا المبلغ الىمشروع الجامعة وقال : علىاللجنة انتقوم بدعوة الأمة كلها وطرق باب كل مصرى لتأسيس جامعة اهلية تجمع ابناء الفقراء والأغنياء على السواء .

غــير أن سعــد زغلول لم يلبث ان انسحب من مشروع الجامعة بعــد تعيينه وزيرا للمعــارف — وكان المنتظر أن يعضد المشروع ، وذكرت بعض المصادر أن احمد باشا المنشاوى كان قد عــزم ١٩٠٥ على انشاء جامعة اهلية فى جهة باسوس وابى الغيط على نفقتــه ومات قبل تنفيذ المشروع .

واعلن ان الجامعة عبارة عن مدرسة علوم وآداب تفتــح ابوابها لكل طالب وليس لهــا صبغة سياسيــة واشترط فى اللائحة أن من يريد الالتحاق أن يكون حاصلا على شهادة المدارس العليــا أو دار العلوم أو القضــاء الشرعى أو متخرجا من الأزهر .

وفى ٢١ ديسمبر ١٩٠٨ افتتحت الجامعــة الأهلية رسميا فى مكان الجامعة الأمريكية الآن بميدان الأزهار .

وكانتدراساتها : الحضارة الاسلامية والحضارات القديمة والتاريخ والجغرافيا عند العرب وادخلت ١٩١٠ مادة الأدب العربى .

واعترفت الحكومة بشهادات الجامعة (١٩١٣) حيث كان احمد حشمت وزيرا للمعارف .

وكانت اطروحات الجــامعة الأولى لطه حســين وحســن ابراهيم واحمد بيلى وحامد المرعشــلى وزكى مبارك واسرائيل ولفنسون وفريد رفاعى واوفد عددا منهم الى وربا ليعودوا اساتذة .

وقد حاول الاستعمار أن يحارب الجــامعة فأعلن الدوق غورست ان الجامعة غير مستقلة وقامت قيــامة الصحف .

وقــد تولى التدريس فيهــا : احمد زكى باشــا (الحضارة) اسماعيل رافت (الجغرافيا) حفنى ناصف (الأدب العربى القــديم) محمد الخضرى (التــاريخ الأسلامى) محمد المهدى (الأدب العربى) .

كما القى بها محاضرات للمستشرقين نلينو وجويدى وسنتيلانا واتجه عدد كبير من طلاب الأزهر الى الجامعة .

فى الجامعة بدأ المزج بين الثقافة العربية القــديمة

والثقافة الغربية الجديدة وفتحت آفاق جديدة للبحث .
وقال بعضهم معلقا أن منهج البحث يختلف عن منهج الأزهر فلم يقل المؤلف فى أول دروسه « قال المؤلف رحمه الله » ولم ترد كلمات الفنقلة ولا الحواشى والمتون .

وقد جرت محاولات كثيرة للقضاء على الجامعة وحاول الاستعمار تحويلها الى كلية اداب شرقية بدلا من جامعة كاملة . وحاول رجال الارساليات البروتستانت والانجليز رد العاملين والتدخل ، واتهام المشروع بالعقم خلال عامين متتابعين ١٩٠٧ — ١٩٠٨ ووصفت الجامعة بأنها « كابوس بريطانيا العظمى » ثم انتصرت الجامعة على أزماتها وحصلت على اعانات من وزارة الأوقاف .

وقد تلقت من المتاحف والمعاهد الأدبية المختلفة كتبا وهدايا ومجموعات نادرة من الأحجار الجيولوجية والقطع الأثرية كما وهبت اليها مكتبات متعددة من أعلام الفكر فى مصر .

٢ — صور قاسم أمين (أهرام ١٨ ابريل ١٩٠٨) الهدف من الجامعة فقال « لا يمكننا أن نكتفى الان بأن يكون طلب العلم فى مصر وسيلة لمزاولة صناعة او الالتحاق بوظيفة ، بل نطمع أن نرى بين أبناء وطننا طائفة تطلب العلم حبا للحقيقة وشوقا لاكتشاف المجهول . فئة يكون مبدؤها التعليم للتعليم . ان طائفة المتعلمين فى مصر وهم متخرجوا المدارس العالية يعملون على مبدأ (اكسب كثيرا وانفق قليلا) ولا تجد منهم العاقل المحب لعلمه أو فنه أو العاشق الذى يملك شهوة العمل قلبه» :

وقال على الشمسى : ان الجامعة ستبنى ملكات جيب العلم والتعمق فيه وحب البحث العلمى لتخرج فى مصر طوائف من العلماء والباحثين المتحرزين لطلب الحقائق العلمية والفنية ، وذلك حتى تحمل مصر قسطها فى بناء الحضارة العالمية تشارك جماعة الأمم فى العمل على تقدم المدنية وترقية الانسانية .

٣ — رسم قرار انشاء الجامعة هدفها « ترقية مدارك المصريين وأخلاقهم وذلك بنشر الآداب والعلوم » ومن اخص الوسائل التى تتخذها لتحقيق غاياتها وسيلة البعثات (١) ترتيب تدريس مماثل للحاصل فى المدارس الجامعية بأوربا (٢) تنظيم محاضرات يلقيها أكابر رجال العلم والآداب (٣) منح جوائز لأصحاب المؤلفات العلمية والأدبية باللغة العربية .

* * *

الغزو فى ظل الجامعة الرسمية

ثم تحولت الى جامعة رسمية فى ١١ مارس ١٩٢٥ وعين لطفى السيد أول مدير للجامعة بعد أن أصبحت تابعة للدولة . وبدأت بكليات أربع : الحقوق والآداب والعلوم والطب . وكان عدد طلبتها عام ١٩٢٥ — ٢٠٢٧ طالبا ودخلت الفتاة الجامعة لأول مرة ١٩٢٩ .

وترى الأهرام : ان سلطات الاحتلال البريطانى سمحت بأن تضم الجامعة المصرية الى الحكومة خوفا من نفوذ الارساليات الأمريكية . فقد لاحظت اللجنة التى شكلت لذلك وغالبيتها من الانجليز أن الارسالية الأمريكية جمعت تبرعات ضخمة فى أمريكا لانشاء جامعة أمريكية فى القاهرة على غرار جامعة بيروت وقد بدأت الدراسة الثانوية بها أكتوبر ١٩٢٠ (ومما يذكر الارساليات الأمريكية قدمت مصر ١٨٦٥ حيث أنشأت الكلية الأمريكية فى أسيوط وأول مدرسة للبنات) .

وقد كانت أولى الطالبات بالجامعة سهير القلماوى ونعيمة الأيوبى وفاطمة سالم .

ولقد واجهت الجامعة منذ اليوم الأول معارك الغزو الثقافى والصراع بين مستشرقى فرنسا ومستشرقى انجلترا .

وكانت أولى معاركها حول استقدام المبشرين الذين يلبسون ثياب المستشرقين حيث يكلفون بالقاء دروس عن اللغة العربية والاسلام والقرآن وكان موضع الاعتراض ان هذه العلوم لا تحتاج الى اساتذة اجانب يكلفون الدولة مبالغ طائلة ليحدثوا الطلاب عن علوم يوجد من يبرع فيها ويفوق المستشرقين من أساتذة الأزهر وعلمائه .

وقد دافع طه حسين عن استقدام المسيو كازانوفا وقال « اريد أن يعلم الناس انى سمعت هذا الأستاذ يفسر القرآن الكريم تفسيرا لغويا خالصا فتمنيت لو أتيح لمناهجه أن تتجاوز باب الرواق العباسى ولو خلسة ليستطيع علماء الأزهر الشريف ان يدرسوا على طريقة جديدة نصوص القرآن الكريم من الوجهة اللغوية الخالصة على نحو مفيد حقا » . . . .

ورد محمود أبو العيون (٤ سبتمبر ١٩٢٣ — الأهرام) فهاجم هذا الاتجاه وقال ان كازانوفا وضع كتابا فى تخطيط مدرسة الفسطاط ولكن هل وضع كتابا فى فقه

اللغة وتاريخها وآدابها او مناهج تدريسها يرجع اليه علماء اللغة والأدب فيما جهلوه وهل وضع تفسيرا للقرآن لغويا خالصا . ان كان فعل هذا ليكونن له شأن كبير عندنا .

ثم هاجم طه حسين وقال : الآن قد عرفنا مذهب الدكتور طه حسين ورأيه فى كل تعاليمنا واذا كان قد رأى ايثار استاذه على كل عالم واديب فى مصر فيا ضيعة العلم فى مدارسنا العالية ، العلم الدينى الذى يدرسه لأبنائنا أساتذة أوربيون كالمسيو كازنوفا . ثم ذكر أبو العيون كيف أن جامعات المانيا وانجلترا وفرنسا استعانت بشيوخ اللغة العربية فى الماضى والحاضر وكان فى مستشرقيها الكفاية وأن حسن توفيق العدل ، الدكتور حامد والى وعبد العزيز شاويش ومحمد جاد المولى ومنصور سلمان كانوا من هؤلاء الأعلام .

ثم هاجم الغزو الثقافى التغريبى الذى تحمل لواءه الجامعة وقال : نحن بلينا بالتقليد الضار . وهو على الحقيقة مسخ وتغيير وتنازل منا طوعا واختيارا عن كل ميزاتنا ومشخصاتنا الى الغير ولو دام الحال على مثل هذا لأصبحنا مثل كندا واستراليا وبعض جنوب افريقيا وسواحل تونس والجزائر ومالطة . . »

٢ — وكانت المشكلة الثانية فى معركة الغزو الثقافى هى المحاضرات التى القاها الدكتور طه حسين ١٩٢٦ عن الشعر الجاهلى فى كلية الآداب ودعا فيها اقصاء عنصرى القومية والدين فى مجال البحث العلمى . وهاجم الاسلام وانكر ما ورد فى القرآن من أخباره عن ابراهيم واسماعيل وطعن فى نسب النبى وانكر أن للاسلام أولية فى بلاد العرب وانه دين ابراهيم .

ثم تبين بعد ان قامت الضجة ضد ذلك الكتاب فى الصحف ومجلس النواب ان هذه الأفكار مأخوذة من كتاب (مقالة عن الاسلام) لجرجس صال الانجليزى معربة عن الانجليزية بقلم من يدعى هاشم العربى ومطبوعة ١٨٩١ يرى فيها ما رأى الدكتور طه عن قصة ابراهيم واسماعيل وينسبه لنفسه على انه ابتكار من ابتكاراته ورأى كما كشف عبد الحميد سعيد فى مجلس النواب عام ١٩٣١ عن « نوته » لأحد الطلاب استملاها من محاضرات الدكتور طه على الطلبة فى القرآن ، وفيها بحث الدكتور الطلبة على نقد القرآن ويذكر لهم أن فى القرآن أسلوبين مختلفين كل الاختلاف : احدهما جاف وهو مستمد من البيئة المكية ففى هذا الأسلوب تهديد ووعيد وزجر ، فلما هاجر النبى الى المدينة تغير الأسلوب بحكم البيئة واصبح ذلك الأسلوب لينا ، وحث الدكتور طه الطلبة على أن ينظروا الى القرآن كأى كتاب عادى يجرى عليه النقد العلمى ما يجرى عليها وأن يغضوا النظر عند البحث فيه عن قدسيته وعرض طه لفواتح السور وذكر عدة آراء فيها « منها قصة التعمية ومنها انها كانت فى الأصل علامات مميزة لمصاحف الصحابة » .

وقد ذكر (زكى مبارك) فى مجال سجال بينه وبين طه حسين أن المستشرقين فى السربون عندما قرأوا آراء طه حسين قالوا هذه بضاعتنا ردت الينا .

* * *

المعارك الأدبية

٣ — ودار بحث طويل حول مهمة الجامعة ومقدار ما ادته للفكر العربى وقد اجمع الباحثون على ان التدريس فى الجامعة منذ انشائها (٩ يونيه ١٩٣٣ — الأهرام) لايختلف عن التدريس فى المدارس الثانوية فالطالب يرجع الى كلام المدرس والى الكتاب ولا يكون له رأيا خاصا ويعتمد على الحفظ أكثر من اعتماده على الادراك ، كما سجل موقف الطلبة من أساتذتهم وخروجهم على ماتواضع عليه الناس جميعا من احترام الأساتذة وتكريمهم والترفع عن هجر القول .

وقال لطفى السيد ان الجامعة لم تستطع أن تجعل اللغة العربية لغة التعليم كما هو مرجو وان كان لها فى التعليم خط عظيم فى كلية الحقوق وبعض اقسام الكليات الأخرى .

٤ — وقال الدكتور مشرفة : الذى ينقصنا هو روح العلم وجو التفكير الحر ، والجامعة المنشودة تنمى الروح العلمية الصحيحة : وواجب الجامعى هو واجبه أولا نحو نفسه وثانيا نحو الأسرة الجامعية .

وجرى نقد حول خريجى الجامعة وعدم الاستفادة منهم — الأهرام (١٩٢٦/٥/١٦) فاقصى عنها معظم المصريين الذين قامت على رؤوسهم الجامعة الأهلية القديمة ، ونحى عن أبوابا بعض الأكفاء من المصريين الذين كان يقضى تعليمهم بأن يكونوا بين جدرانها ؟ وبذلك حرم من وضع اسس الجامعة كثير من اكفاء المصريين ثم انفسح المجال للأجانب غثهم وسمينهم ولم يراع فى انتخابهم سوى احقيتهم ، وها هى الجامعة تموج بهم ،

هؤلاء الأجانب قليل منهم من يفوق شباب مصر المتعلمين فى كفاءتهم وأحس الانجليز بأن نصيبهم من الغنيمة ، ليس بالقدر الذى يجب ان ينالوه ، وكذلك تمر الآن بالجامعة موجة ترمى الى اكثار عدد الانجليز بالجامعة بكل الوسائل المكنة » ا. هـ.

٦ — واشار تقرير لجنة المالية بمجلس الشيوخ (١٩٢٩/٦/١٥) الى ضرورة تمصير الجامعة وصوغها فى قالب مصرى لحما ودما لكى تمثل تفكيرنا الماضى وملأ الكراسى بأساتذة مصريين ، وقال التقرير أن كل العلوم لا تزال تلقى محاضراتها باللغة الانجليزية ولا يكاد يوجد فيها اكثر من اساتذة مصريين ، وأن مستوى التعليم الجامعى دون ما تنشده ولم يحقق كثير من الجامعيين الغرض المطلوب منهم .

٧ — وقال عباس عمار (الأهرام — ٣ / ١٠ / ١٩٢٦) : أول ما تستطيع جامعتنا ان تؤديه فى سبيل الواجب العلمى الذى يفرض عليها هو أن تحاول تغيير وجهة نظر المصريين والشرقيين الى العلم . وان نسمو بعقليتنا عن هذا الفهم الخاطىء لقيمة العلم والعلماء . فالنزعة التى عندنا نزعة خطرة ونظرتنا الى العلم نظرة مادية بحته يخشى على العقلية المصرية منها أن ظلت تسير فى ذلك الاتجاه .

* * *

وقال : ان على الجامعة أن تحارب هذه النزعةوان تعلم تمام العلم أن جهادها فى سبيل غايتها العلمية لن يجدى الا اذا مهد له بذلك الأساس ، لأن حب العلم لذاته والشغف بالبحث والتفانى فى حب الحقيقة العلمية المجردة يتطلب ان يكون اساس الدراسة هو المثل الشخصى والدافع الذاتى .

والواجب الخاص هو الاهتمام بالدراسات المصرية والشرقية دراسة تفصيلية عميقة أشد العمق متسعة اكبر توسع .

وقال : أليس التراث المصرى تراثا حافلا لم تمط يد المصريين اللثام عنشىء منه ذى بال . ألسنا فىالدراسات الشرقية كلها عيالا على الغربيين المستشرقين ، بل ألسنا فى الدراسات الحديثة نفسها تقف مراجعنا عند حدود ما يكتبه الأجانب وتنحصر مهمة كتابنا فى ترجمةآرائهم وان هم احسنوا فيما يتجاوز تصرفهم دائرة التعديل والتنوير.

أليس يجرح كرامتنا ويمس الى حد كبير شعورنا ان نبقى نحن نجهل هذا التراث الخالد حتى يضع أجنبى يدنا على مواضع الفخر فيه وان يولى الشرق وجهة غريبة يستوحى منها عظمة الآباء والأجداد .

٨ — وقال الدكتور عبد الوهاب عزام (الهلال م ٤٠ ص ٣٤١) أننا كنا الى وقت قريب عالة على المستشرقين نأخذ منهم ولانعطيهم ، اما اليوم فنحن نزامل المستشرقين ونتضامن معهم فى احياء الثقافة العربية والقاء النور على حضارة الاسلام .

وقال : ان تراث العرب الفكرى مشتت فى بلاد الله قد نثرته الحروب الصليبية وبددته الغزوات فتقاسمته تركيا ودويلات أوربا ومن الضرورى استحضار هذه المخطوطات أو أخذ صور فوتغرافية لها .

* * *

— ٥ —

اللغـــة العربيـــة

ركز الاستعمار فى غزوه الثقافى على «اللغة العربية» للقضاء عليها كقوة من قوى الوحدة والقومية العربيـــة والاسلام ، وسبيلا الى القضاء على الكيـــان العربى الاسلامى بما فيه من قيم ومقدرات وتراث يرتبط باللغـــة العربية .

ولقد كان هدف الاستعمار أن تصير اللغة العربية الى ما صارت اليه اللغـــة اللاتينية وأن تتطور اللهجـــة المحلية فى كل قطر فتصبح لغة مستقلة لها ادبها وثقافاتها منفصـــلة عن اللهجات الأخرى وبذلك يقضى على اللغة العربية والقرآن .

ولقد جند الاستعمار قواه لهذه الغاية وحرص عليها ورسمت خطط بعيـــدة المدى لذلك ، وفى المنـــاطق التى احتلتها بريطانيا سارت الخطة على نحو معين وفى مناطق استعمار فرنسا اتخذت الخطة شكلا آخر اشد عنفا .

وكان هـــدف هذه الحملة اتهـــام اللغة العربيـــة بالقصور ، وعدم الكفاية العلمية او ارتفاع مســـتواها عن مفاهيم المجموعات العامة او اتهام حروفها ونطقهـــا وكتابتها بالصعوبة والتعقيد ، وكل هذه اتهـــامات حاول الاســـتعمار بها النفـــاذ الى غرضـــه فى الدعـــوة الى العـــامية او اســـتخدام الحروف اللاتينية وتحطيم عامود الشعر .

وقد توالت هذه الدعوات خلال هذه المرحلة الطويلة واستمرت وتعددت ، واحدة بعد الأخرى ، يحمل لواءها غربيون أجانب أو وطنيون من دعاة التغريب .

١ ـــ قدم المهندس وليم ولكوكس الى مصر ١٨٨٢ من الهند وقد كان موظفا بمصلحة الرى بها وقد دعا الى نشر العـــامية والتاليف بها وترجم بعض فصـــول من مسرحيات شكسبير ومن الانجيل الى العامية .

وله خطاب مشهور القاه فى نادى الأزبكية (يناير عام ١٨٩٣) وقد اســـتهله بقوله « لماذا لم توجد قوة الاختراع لدى المصريين الآن » ...

قال : أن من جملة العوامل فى فقـــد قوة الاختراع عن المصريين استبقاءهم اللغة العربية الفصحى واشـــار باغفـــالها واســـتبدالها بالعـــامية اقتـــداء بالأمم الأخرى . وذكر بنوع خاص الأمة الانجليزية وقال انهـــا استفادت افادة كبيرة باغفـــال اللغة اللاتينية التى كانت لغة الكتـــابة عندها واستبدالها باللغـــة الانجليزية الحاضرة » .

وقد اتخذ لاذاعة هذه الفكرة بمعـــاونة سكرتيره احمـــد الأزهرى مجلة عنوانها « الأزهر » قالت الأهرام ٣٢/٧/٢٩ « لقد قاوم الرأى العام فكرته فابطل المجلة ومع ذلك فقد ظل يؤلف باللغة العامية فكتب فى ذلك حياة المسيح واعمـــال الرسل وترجم كتب العهد الجـــديد الى اللغة العـــامية المصرية وكان ينظم الزجل » . وهى فى الحقيقة لهجة وليست لغة .

٢ ـــ كما ظهر بعد ذلك بقليل (١٨٩٧) كتـــاب أطلق عليه اسم « اللغة العـــامية المصرية بالحروف الأفرنجية » . وهو مشروع ينتقل خطوة ثانية بعد خطوة الدعوة الى العامية فيطالب بكتابتها بالحروف الأفرنجية .

وقد أعده بعض الأجانب ورتبت له أبجدية افرنجية « عوض فيها عن الحروف العربية الخالصة بأحرف ذات علامات خاصة ومعه تمارين لاستعمال هـــذه الحروف » على حد تعبير مجلة المقتطف فى التبشير بالكتاب .

٣ ـــ دعا وليم ويلمور احد قضاة محكمة الاستئناف الأهلية الى اتحاد اللغة العربية العامية للكتـــابة بدلا من اللغة الفصحى . واصدر كتابا عنوانه :

The Spofen Arobrc Of Egypt

وقـــد قال وليمور : أن أرباب الصـــحف أولى من غيرهم بكتابة اللغة المحلية وأسماها (لغة القـــاهرة)

واشار الى كتابتها بحروف رومانية كما عنى ولمور بجعل الحروف دالة على الأصوات . ويقع كتـــابه فى ٤٠٠ صفحة .

قال وليمور : أنه يأسف اذ نسيت العربية الفصحى فى هذه البلاد ويرى انه يجب ان تدرس فى مدرسة جامعة مع غيرها من اللغات السامية كما يدرس اللغات الحية .

٤ — أصدر الكابتن وليم تمبل جردنر كتابه — اللغة العامية المصرية Egyptien Couoqniola bie كما انشأ حلقة لتدريس اللغـــة العربية لطائفة المراسـلين الذين يردون مصر من انجلترا وأمريكا وجعل هذا الكتاب وسيلة لغايته .

٥ — نشر المستشرق فنسنك رسائل عديدة مكتوبة بحروف أوربية فى اللغة المصرية القديمة ومن بينها رسالة للمقتطف اسماها « اجرومية مصرى » كتبها على هـــذا النحـــو (بل لســـان المصرى ومعها امسلة) يقصـــد (باللسان المصرى ومعها امثلة) .

* * *

— ٢ —

وعلى ضوء هذا الاتجاه الذى بداه المبشرون وحملة الوية الغزو الثقـــافى كتب عـــدد كبير من دعاة التغريب محاولين خلق « أزمة » اللغة العربية وفى مقدمتهم الدكتور صروف وأسعد داغر ولطفى الســـيد وقاسم أمين وأمين الخولى ومحمود تيمور وعبد العزيز فهمى .

فقد كتب الدكتور صروف عام ١٨٨١ يقول ان لغة الكتب عند الأفرنج لا تفترق كثيرا عن اللغة التى يتكلمون بها فيفهم العامى منهم كتاب الفلسفة ، أما نحن المتكلمين باللغة العربية فكتبنا ولا سيما كتب العلوم مكتوبة بلغـــة غير اللغـــة التى نتكلمهـــا ، والبعد بينهما كالبعـــد بين الفرنساوية والانجليزية أو بين اللاتينية والايطالية فلايقدر عامتنا على ادراك معانى الكتب ما لم يدرسوا لغتهـــا . ثم حاول أن يرسم حـــلا لعلاج ذلك فى واحـــد من طرق ثلاث :

* اما ان نكتب كتبا باللغة التى نتكلم بها كما فعل لانفسنا « مع انه ممكن ونخاف أن تدعو الأحوال اليه فى مستقبل غير بعيد » .

* أما أن نكتب كتباب باللغة التى نتكلم بها كما فعل الايطاليون وغيرهم من الأمم التى فسدت لغـــاتهم بتوالى الأزمات .

* أما أن نعـــلم أولادنا التعـــلم باللغة العربيـــة الصحيحة حتى تصبح ملـــكة فيهم ثم قال : ان هذا فيما نظن أشرف الطرق وأمنها وانفعها لأن العربية الصحيحة واسعة المتن مضبوطة القواعد يمكنها أن تجارى العـــلم اكثر من كثير من لغات الأرض .

٢ — اما اسعد داغر فقد عقد فى هذا عام ١٨٩٦ منـــاظرة مع شـــديد يافث ثم جـــددها فى مارس ١٩٠٢ (المقتطف) وقال انه كتب فى عديد من الصحف ومنهـــا (ثمرات الفنون) ناعيا على اللغة العربية « انها لاتصلح أن تكون لغة تكلم ولم توضع الا لتكون لغة كتابة ، وبيان ذلك أن المتـــكلم من طبعه يطلب الاختصـــار فى حديثه . والكلام المعرب طويل جدا بسبب حركات الاعراب ولعدم امكان الاختصار فيه كما فى المحكى » ثم قال انه « ليس فى اللغة المعربة ما فى اللغة العامية من الصلاحية للتـــكلم والمخاطبة ، ولذا قضى قانون تنازع البقـــاء أن تجفوها الالسنة والشفاه » وجملة رأيه هو نقص اللغة المكتوبة وقصورها عن مجاراة اللغات الأجنبية .

٣ — وكتب لطفى السيد فى (الجريدة) فى شهرى ابريل ومايو ١٩١٣ عددا من المقالات فى (تمصير) اللغة العربية .

* * *

وقد اتهم اللغة العربية بانها واسعة فى القاموس ، ضـــيقة فى الاستعمال مخصـــبة فى المعانى والمســـميات القديمة ، مجدبة فى المعانى الجديدة والاصطلاحات العلمية وأن رقيها قد انقطع من قرون طويلة فوقفت عند الحـــد الذى وصـــلت اليه ايام النهضة العباســـية ، ودعا الى استعمال الألفاظ الأعجمية والعامية المألوفة (كالأتومبيل والبســـكلت والجاكتة والبنطلون والجـــزمة) وقال انه لا يعرف سببا لهجر المألوف المشهور الى ابتكار غيره الا حب الأغـــراب ، ثم قال انه لا جرح على الـــكاتب أو المترجم أن يستعمل من الألفاظ ما شاء من المعانى ، وانه يريد أن لا يترك اللغة العـــامية تموت بابعـــاد غريبها وفصيحها عن عالم الكتابة والنزول بالضرورى من اللغة المكتوبة الى ميدان التخاطب والتعامل .

٤ — وقال قاسم أمين : أن اللغـة العربية مرت عليها القرون الطويلة وهى واقفة فى مكانها لا تتقدم خطوة الى الامام ، بينما أخذت اللغـات الأوربية تتحول وترقى كلما تقدم أهلهـا فى الآداب والعلوم (وطالب بان تبقى أواخر الكلمات ساكنة لا تتحرك بأى عامل من العوامل) وقال أن هذه الطريقة هى طريقة جميع اللغات الافرنكية والتركية وذلك بحذف قواعد النواصب والجوازم والحال والاستقبال بدون أن يترتب على ذلك أخلال باللغـة اذ تبقى مفرداتها كما هى .

٥ — وردد سـلامة موسى دعوة « ولـكوكس » فقال أن الهم الكبير الذى يشغل باله هو هذه اللغة التى نكتبها ولا نتـكلمها فهو يرغب أن نهجرها . ونعود الى اللغة العامية « فنؤلف بها وندون بها آدابنا وعلومنا » . وردد دعوة قاسم أمين الذى نعى على اللغة الفصـحى صعوبتها واقترح الغاء الأعراب فتسكن أواخر الكلمـات وردد دعوة لطفى السيد باستعمال العامية .

واشار الى أن الخورى فى سـوريا قد حمل لواء الدعوة الى اصطناع العـامية السورية بدلا من اللغـة الفصحى وقال أن الصحف السورية والفلسـطينية حتى العراقية تبحث هـذا الراى ونسبته الى ضعف الحمية الوطنية .

٦ — وتحدث الدكتور جورجى صبحى فى محاضرة عن اللهجات العربية الدارجة فى مصر وتاريخ نشوئها . وأشار الى أن اللغة الدارجة حتى القرن الثـالث عشر الميلادى لم تكن كونت فى مصر بعد ، وأشـار الى طريقة تحول الفصحى الى عامية ، وأن أول تغير فى طريق تكوين اللهجات يقع على الحركات كظهور حرف (والامالة E

ثم يعقب ذلك الحروف السـاكنة بأن نسـتبدل الحروف الحلقية بحروف أخف نطقا كابدال القـاف همزة والطاء ضادا والذال دالا والثاء تاء .

٧ — وكتب عبد الله حسـين (الأهرام — ٤ مايو عام ١٩٢٦) فادعى أن اللغة العربية «عجزت عن تأدية العبارة الدقيقة عن حياة الصناعة وسمو أسرار الطبيعة المكشوفة » ظهر ذلك حين أراد المترجمون أن ينقلوا الى اللغة العربية كتب الأدب فاجتهد كل مترجم فى أن يؤدى المعنى الأجنبى باللغة العربية بتصرفه الشخصى .

وأشار الى العـامية فقال : أن لنـا لغة عامية هى فى الواقع أداة التعبير الحقيقية عن مطالبنا وأحاديثنا

ثم تساءل : عما اذا كان من المستحسن « تمصير » اللغة العربية أى جعلها لغة مصرية خالصة توضع لهـا أسسها وقواميسها وقال أن هذا التمصير يسهل على مصر الاستفادة من بعض المعقول فى اللغة العامية .

— ودعا عبد العـزيز فهمى (يناير ١٩٤٤) الى اتخاذ الحروف اللاتينية لرسم الكتابة العربية وقال : أن أهل اللغة العربية مستكرهون على أن تكون اللغة العربية الفصحى هى لغة الكتابة عند الجميع . وأن فى ذلك محنة حائقة بأهل العربية وانه تكليف للناس بما فوق طاقتهم وأن اللغة العربية سهلة المنال كاللغات الأجنبية .

ووصف اللغة العربية بأنها ليست لغة أمة واحـدة لقوم بعينهم بل انها مجموع كل لهجات الأعراب البادين فى جـزيرة العرب ، وأنه من الظـلم الزام المصريين وغير المصريين بها .

وأنه من أجل ذلك فكر فى اتخاذ الحروف اللاتينيـة وما فيهـا من حروف الحركات بدل حروفنـا العربية كما فعلت تركيا . ثم صور مزايا استعمال الحروف اللاتينية فقال : أن الحروف الهجـائية الجديدة لا تخل بشىء من نغمات الحروف العربية بل تبرزها جميعا ، وقال أن هذه هى الوسيلة الوحيدة لحل هذه المشكلة .

* * *

الرد على الحملات

وهكذا استمرت معركة الهجوم على اللغة العربية طوال هذه الفترة التى تزيد عن خمسـين عاما ، وكان واضحا من لهجة كتابها مدى التعصـب والغرض وعنف وسائل الغزو الثقافى ومحاولة البحث عن كل كل وسيلة ممكنة للقضـاء على اللغة العربية سواء كان ذلك بأقلام المبشرين من كتـاب الغرب أم بأقـلام دعاة التغريب من كتابنا .

وقد أجلت جملات الدفاع عن اللغة العربية حقائق واضحة لا سبيل الى انكارها منها :

* أن الفرق بين لغة الكتـابة ولغة التكلم عندنا ليس بالشىء الكبير وقد لا يكون أكثر من الفرق بين لغـة كتاب الانجليز ولغة عامتهم .

* أن الناطقين باللغة العربية تختلف لغتهم العامة باختلاف الاصقاع . والفرق بين لغة مصر والشام ليس بأقل من الفرق بين الفصحى والعامة ، فاستبدال الفصحى بالعامية المصرية يحرم كل قطر من الانتفاع بانتاج القطر الآخر .

* أن اغفال الفصحى يستوجب اغفال كل ما كتب عنها من العلوم منذ ۱۳۰۰ سنة وهى خسارة لا حد لها .

* لا يعقل ان امة لها لغة شهيرة ذات حروف منتشرة وانتاج ضخم وتراث كبير تترك حروفها هذه لتكتب بحروف غربية .

* الجامعة العربية قائمة بالمحافظة على اللغة الفصحى اذ لولا القرآن لتشتت شمل الشعب العربى .

* الاختصار فى الكتابة العربية مزية لها .

* أن الحروف العربية التى تستعمل فى سائر العالم العربى هى اهم مظاهر الوحدة .

* أن اللهجة العامية منحطة لانحطاط عقول الناطقين بها ولا تقوم مقام الفصحى فى اللغة العربية أرقى لغات العالم .

وقد رد جرجى زيدان على ويلم ويلمور (هلال فبراير ۱۹۰۲) فقال « هم يشيرون علينا أن نتخذ اللغة العربية العامية بدلا من اللغة الفصحى فى الكتابة فأى اللغات العامية يريدون أن نتخذ . لغة مصر أم لغة الشام أم لغة العراق أم لغة الحجاز أم اليمن أم نجد أم المغرب . فان لكل من هذه البلاد لغة خاصة لا يفهمها عامة البلاد الأخرى ، فان قالوا الفوا لغة تشترك بين هذه اللغات قلنا أن اللغة لا تتألف بالتواطىء ، وانما هى جسم ينمو نموا طبيعيا على مقتضى ناموس الارتقاء . واسهل منه أن نبقى على اللغة الفصحى وهى أم لغاتنا العامة واقرب الى افهامنا من لغة جديدة ملتقطة من افواه الأمم » .

فان قالوا : ان كل أمة من هؤلاء لها لغتها ، فالسورى يكتب بلغة عامية الشام والمصرى بلغة عامية مصر كان ذلك رأى القائلين بانحلال العالم العربى وتشتيت شمل الناطقين بالضاد . زد على ذلك ان المسلمين لا يستغنون عن تعلم اللغة الفصحى لمطالعة القرآن والحديث ، وان ما ينطبق على اللغة العربية وفروعها يختلف عما ينطبق على اللغة اللاتينية وفروعها ، وان استبدال اللغة الفصحى باللغة العامية ضربة قاضية على العنصر العربى وعلى العلم فى اللغة العربية وان لغة العامة لا تكفى للتعبير عن القضايا العلمية الا باضافة الالفاظ العلمية الجديدة ، اما اللغة اللاتينية فلا تنطبق احوالها على احوال لغتنا الفصحى ولا يجوز القياس عليها .. وان الفرق بين اللغة اللاتينية وفروعها ابعد كثيرا من الفرق بين اللغة العربية الفصحى وفروعها العامة .

وانه يكفى للشرق ما يعتوره من أسباب الشقاق حتى لم يبق له جامعة غير هذه اللغة فبالله الا ابقيتم عليها

وقال : ان تعليم الفصحى ليس بالأمر الشاق الذى يقتضى الأعوام الطوال ، اما استبدال الحروف العربية الاعتيادية بالحروف الأفرنجية فلا نرى له نتيجة سوى زيادة التعقيد بتطويل الكلمة وتلبك قراءتها .

٢ — وعلق الدكتور صروف فى المقتطف (فبراير عام ۱۹۰۲) فقال : ان اقتصار المتعلمين فى مصر والشام على الكتابة باللغة المصرية وشيوع الكتب والجرائد فيها ولا سيما فى السنوات الأخيرة واعتياد اكثر الذين يعرفون القراءة على مطالعة الجرائد ، كل ذلك عضد اللغة المعربة وقواها حتى صار اهمالها متعذرا ان لم يكن مستحيلا . لذلك لا نطمع فى الكتابة المحكية الآن ولا نشير بها . ولكنا نطمع ونشير بالتوسع فى اللغة المكتوبة حتى يدخل فيها كلمة محكية لا تقابلها كلمة فصيحة مألوفة ، ونطمع ونشير بالتوسع فى التعريب حتى تجارى لغتنا لغات أوربا لذلك فاهتمام القاضى (ولمور) ومن جرى مجراه بضبط اللغة المحكيه جاء بعد أوانه .

ورد على قول ولمور : ان اصحاب الصحف أولى من غيرهم بكتابة اللغة المحكية فقال « ان ارباب الصحف احرص الناس على اللغة المعربة » .

وقال : أن الذين انتقدوا على الكتابة العربية رأو خلوها من الحركات ولا ندرى كيف ذهب عنهم أن هذا الاختصار فى الكتابة العربية مزية . وقال أن « ولمور » عنى بجعل الحروف دالة على الأصوات وهو عناء باطل ، لأن أصوات اللغة تعد بالمئات ونحن نكتفى بعشرين أو ثلاثين حرفا للدلالة عليها كلها .

٣ — وكتب عبد القادر حمزة (البلاغ الأسبوعى — ١٩٢٨) بمناسبة سماعه محاضرة فى الكولج دى فرانس

سمع فيها المستشرق (ما سنيون) تقول : ان اللغـة العربية تذهب الى المقصود رأسا بينما اللغات الأوربية لا تصل الى ذلك الا تدريجيا . ثم قال ماسـنيون : انما توشك أن تشرف على الخطر اذ لم يسـعفها المصلحون بما تقوم من ضعفها ، وعلة العلل فى نظره هى الحروف العربية وما يدخل عليهـا من تغيير فى الرسم وتغيير فى الحركات يضيع المتعلم فيهما شطرا كبيرا منعمره ، ودعا الى أن ترسم اللغـة العربية بالحروف اللاتينية فلا تبقى ثمة حاجة الى شكل الحروف لتعرف حركاتها .

وقال عبد القادر حمزة : أن نزوع الترك فى كتـابة لغتهم بالحروف اللاتينية هو الذى يقذف بهذه الفكرة على اللغة العربية بحروفها الحـالية حملت مدنية كاملة ملأت بها جوانب الأرض فى مئات قليلة من السنين . وقد قطعت أدوارا فلم تجمد فى واحد منها ولم تهن بل تطورت فى كل دور بما يناسبه ، فالذين يقولون انها بحروفها الحـالية اداة غير صالحة ينكرون حقيقة أثبتتها عدة قرون وهى ان الحروف التى ينتقصونها تمتاز علىالحروف اللاتينية بأنها مشبكة والكتابة بها أسرع .

***

عظمة اللغة العربية

وقد دافع كثيرون من الكتاب والمفكرين عن « اللغة العربية » وكشفوا عن مفاهيمها وحقيقتها التى انـكرها الغزو الثقافى وحرص على انكارها ليتوصـل بذلك الى التقليل من شأنها والسخرية بها .

وقد اجمعوا على عظمة اتساع اللغة العربية وكثرة الفاظها وتعدد معانيها وقد أمكن حصر مائة الف مادة من كلامها مما لا يمكن معه وصفها بالقصور .

٢ ـ يتسـع مجالها لأغراض الكتـابة وفنون البلاغة : من اطناب وايجاز وتصريح وتلميح واستعارة .

٣ ـ خاضت معركة الترجمة من اليونانية والهندية ابان دولة الأمويين والعباسـيين حيث اسـتطاعت أن تستوعب كتب الطب والحكمةوالحيوان والنبات والكيمياء والحيل والرياضيات والفلك مما لا يقع تحت حصر ، ولم يستعص عليها أى مصطلح ، وقد وصف الدكتور أحمـد عيسى كيف كانوا يحرصون على اللفظ اليونانى فيهندمونه بحسـب أوزان اللغة العربية اذا كان للفظ مكانا ومعنى خاصا مع وجود لفظ عربى فصيح يقابله فقالوا (قاطيغو رياس وطوبيقا وبارمنياس وبويطيقا وانا لوطيقا) وعندهم لفظ المقولة والجدل والعبارة والشـعر والخطابة .. » ونقلوا كتب التشريح والنبـات مما لم يجدو له فى لغتهم مقابلا فعربوه وأدمجوه فى لغتهم .

٢ ـ وتختلف اللغة العربية عن اللغات الأخرى فى النمو والتطور ، فقد ظهرت فجأة فى شبابها دون ان تمـر بعهـد الطفولة وقد حققت خصـائصها الأصـيلة رغم اختلاطها باللغات الأخرى .

٣ ـ جمعت جميـع الأحرف التى فى اللغــات الأعجمية . ولها ستة أحرف لم تجتمع لغيرها من اللغات وهى المجموعة فى (تخذ ـ صظغ) .

٤ ـ عاشت قرابة الألف وخمسمائة سـنة وهى تؤدى مهمتها أداة الخطابة والكتابة والصحافة . وهو ما يعد معجزة من عالم اللغات .

***

اللغة العربية والاستعمار

ولم يقف الاستعمار فى معركته مع اللغةالعربية عند حملاته عليها ، بل حرصعلى اقصائها عنالمحاكم والبنوك والمصـالح وفرض لغته بدلا منها ، كما عمل على اهمال اللغة العربية فى الأوساط المختلفة ، وغلب عليها اللغات الأجنبيـة ، وفى الأحاديث العـامة ظهرت الكلمـات الأجنبية على الألسـن كجزء من مركب النقص فى تقليـد الغالب ، وقد بلغ الأمر أن فرض على أصحاب المصالح وهم فى بلادهم أن يكتبوا رسائلهم وطلبـاتهم الى بعض الجهات باللغات الأجنبية . وأن يتلقى الوطنيونخطابات من هذه الجهات بلغاتها الأجنبية .

كما نعت الصحف على المصريين والشرقيين الذين يعرفون العربية أنهم يتكلمون باللغات الأوربية فيما بينهم .. ولم يقع هذا فى مصر وحدها بل كان سمة بالغة للفترة كلها فى مختلف بلاد العالم العربى المحتلة .

وقد ذكرت جريدة الجهـاد (١٩٣٤/٩/١٠) أن وزارة المالية توافيها ببياناتها الاحصائية مكتوبة بلغـة اجنبية .

واشارت جريدة مصر ١٩٣٤/٤/١٩ «أن الشركات

والبنوك ما تزال مصرة على تدوين كل مراسلاتها وعقودها مع أبناء البلاد بغير لغتهم ولم تر — حتى من المجاملة — أن تضع ملخصا باللغة العربية لعقودها ومراسلاتها كي يفهمها المستهلك الوطنى ، وأن ذلك حدث ليس اعتمادا على سلطتها الأجنبية القائمة على احتكار مادة من المواد الحيوية بل لأن لها وحدها حق استعمال لغتها مهما كان هذا الاستعمال من الاستهانة بكرامة الأمم التى تعيش فى دارها » .

ويتصل بهذا اللافتات الموضوعة فوق المحلات والشركات والمخازن وكلها مكتوبة باللغات الأوربية وحدها .

* * *

فى المحاكم المختلطة

وقد ظل الاستعمار يحول بين اللغة العربية وبين حقها فى المحاكم المختلطة مع أنها مقررة كاحدى اللغات الرسمية بهذه المحاكم منذ عام ١٨٧٥ ، غير أن قضاة هذه العهود من المصريين كانوا من الضعف بحيث انهم لم يجرؤا على تحرير احكامهم باللغة العربية ، وظلت هذه الأحكام تصدر باللغة الفرنسية حتى جرؤ المستشار عبد السلام ذهنى (ابريل ١٩٣٤) فكتب ثلاثة احكام باللغة العربية وتمكن من النطق بها باللغة العربية وذلك فى جلسة ١٧ ابريل ١٩٣٤ ، وقد تمسك رئيس الدائرة السويسرى (هوربيه) دون الاعتراف بها وقد ثارت لذلك ضجة كبرى فكان حدثا ضخما بعيد المدى أحدث أزمة دولية .

وقال عبد السلام ذهنى : انه فى تمسكه باللغة العربية انما يقوم بواجب قانونى وأن لهذا التمسك رابطته الوثيقة باحياء اللغة العربية وتكريم اللسان المصرى القومى والترجمان العربى .

وقد دعا هذا مستشارا آخر هو محمد شكرى ان يقدم أحكاما باللغة العربية فى ١٩٣٤/١٢/١٧ .

وجرى الدفاع عن موقف المستشار ذهنى بأن النص فى اللائحة المختلطة قد أشار باستعمار لغات أربع : هى العربية والفرنسية والايطالية والانجليزية ، وقالت الأهرام : انه لا شك جعل اللغة العربية فى المرتبة الأولى يدل على أن المشروع قد قصد أن تكون اللغة العربية هى الاولى ، واستتبع هذا البحث عن المرافعة باللغة العربية أمام المحاكم المختلطة — وقد اجاب وزير الحقانية فى البرلمان بأنه ليس فى القانون ما يمنع المحامى من المرافعة باللغة العربية أمام المحاكم المختلطة لأن هذه اللغة واللغات الثلاثة الأخرى مقررة رسميا امام هذه المحاكم ، وقد عقد المحامون أمام المحاكم المختلطة اجتماعات عدة للمطالبة بجعل اللغة العربية هى لغة المرافعة غير انه حال بينهم وبين ذلك أن القضاة لم يكونوا يعرفونها .

واشار عزيز خانكى بهذه المناسبة الى الضجة التى اثارها الأجانب عند ما ندب قاض مصرى لرئاسة جلسة المحكمة المختلطة وكان من نتائجها الغاء الانتداب حالا ورفضت الدول الغربية أن يتولى القضاة المصريون رئاسة الجلسات .

وقد ارتبطت الدعوة الى اعادة الكتابة باللغة العربية فى المصالح والشركات بالدعوة الوطنية فقد كان تغلب اللغة الأجنبية على اللغة العربية فى هذه المجالات امتهانا للكرامة القومية .

وفى سوريا انبعثت الدعوة الى أن اللغة العربية هى حصن منيع للوحدة القومية فقد تحدث عبد الرحمن شهبندر فى هذا المعنى فى القاهرة (٢٩ أبريل ١٩٢٩) وحذر من أن مدنية العرب مهددة بالاكتساح ، كما اكتسحت أشرف تعاليمهم وأن الخطر الذى يهدد الثقافة العربية يجىء من ناحية اللغة العربية التى هى رمز المجتمع والذى وصفها « بلاكما روجيلين » بأنها ادت وظيفة مهمة فى التنظيم الاجتماعى . وقال أن من خنق اللغة فقد خنق نفسه لأنها هى أداة التنفس الوحيدة للأمة .

* * *

اصلاح اللغة العربية

وقد استبع هذا الاتجاه ، البحث فى اصلاح اللغة العربية واعدادها بحيث يقضى على ما يثار حولها من عجز وقصور وذلك بالتقريب بين العامية والعربية وتيسير قواعد اللغة العربية ، ودعا أحمد أمين الى تيسير التعريب والاشتقاق والقياس والتخفف من المفردات العسير الفهم وخاصة اعدام الكلمات الحوشية التى يمجها الذوق السليم ، ودعا المازنى الى ايثار الكلمة الشائعة بعد تصحيحها وازالة تحريفها وقال أن من الغلو المعيب أن تحاول تطهير اللغة العربية من كل لفظ دخيل .

ودعا غير هؤلاء اللى أن تنقل اسماء المسميات الحديثة من لغاتها الأجنبية بعد تهذيبها .

ــ ودعا الدكتور على مصطفى مشرفة الى ندوين العلوم باللغة العربية وقال أن هذا يؤدى الى تطوير اللغة العربية وتبولها للمصطلحات العلمية ، وقال : أن كل لغة حية انما تنمو عن طريق التأليف والكتابة . وقال أننا ننقل اليوم المعرفة عن غيرنا ثم نتركها عائمة لا تمت بصلة الى ماضيها ولا تتصل بتربتنا فهى بضاعة أجنبية عليها مسحة الغرابة .

وتحدث الدكتور هلال فارحى عن طريق التعريب فقال : أن لها وسائل متعددة : منها التعريب (ادخال الفاظ أعجمية بحالتها الأصيلة) والتوليد (ادخال الفاظ جديدة وضعها المولدون فى صدر الاسلام بطريق الاشتقاق) والترجمة (يحسب المعنى الأصلى) والاستبدال (استبدال الحروف الأعجمية الناقعة بحروف عربية متجانسة) والتسمية بالخاصيات (مثل كهربائية للترام) والمجاز والنقل (يطلق الأول على الألفاظ المستعملة فى غير ما وضعت له لمشابهة بينها والثانى يطلق على الألفاظ المنتولة) والاقتباس (عن تعابير وردت كالشاهدة للكوبيا) والاشتقاق (نوع لفظ من آخر يشترط تناسبهما لفظا وتركيبا) .

وقال بهى الدين بركات أن وسيلة الاصلاح هى :

١ ــ جعل الكتابة العربية مفهومة مع المحافظة على خصائص الخط العربى والكتابة العربية .

٢ ــ تسهيل تدريس قواعد اللغة والبيان .

٣ ــ تغيير نظم التدريس بما يجعل الطلبة يعتادون التحصيل .

***

انشاء المجامع العربية

وقد اقتضت حاجة اللغة العربية الى التطور الى انشاء مجامع للغة العربية فأنشىء المجمع العلمى فى دمشق عام ١٩٢٠ والمجمع اللغوى فى القاهرة (١٩٣١) ثم أنشىء المجمع العلمى فى بغداد (١٩٤٧) .

وقد بدأت فكرة انشاء مجمع للغة العربية فى مصر فى نهاية القرن التاسع عشر لوضع قاموس عربى قريب المأخذ سهل التناول . وقد عقدت اجتماعات لهذا الغرض فى بيت لطيف باشا سليم وبيت البكرى وفى الأزهر وحضرها الشيخ محمد عبده وعالم اسلامى هو الشيخ الشنقيطى وتبلورت عن انشاء أول مجمع لغوى ١٨٩٧ فى بيت البكرى بالخرنفش برئاسة ووكالة الشيخ محمد عبده وكان من أعضائه : أمين باشا فكرى والشنقيطى واسماعيل صبرى وحفنى ناصف ومحمد بيرم التونسى ومحمد الويلحى ومحمد عثمان جلال ومصطفى نجيب ، وقد عقد عدة جلسات سجلت فيها بعض الكلمات العاملة والدخيلة واتفق على عدة كلمات أوردها حسن السندوبى فى بحثه بالأهرام (١٩٣٤/٨/٨) .

وهى : المدرة بدلا من المحامى . ورحى بدلا من برافو ، والمسرة بدلا من التلفون ، وعم صباحا بدلا من بونجور ، وحراقة بدلا من طوربيد .

كما ذكر انهم اختلفوا فى (الأتومبيل) واطلق عليه شكيب أرسلان الفرارة وقال زكى باشا السيارة .

ثم تجددت الفكرة عام ١٩١٧ فعقد مجمع لغوى فى دار الكتب برئاسة سليم البشرى ــ شيخ الأزهر آنذاك ــ ووكيله الشيخ محمد بخيت وسكرتيره لطفى السيد ومن أعضائه عبد الرحمن قراعة ، حلمى عيسى ، رشيد رضا ، أحمد الاسكندرى ، عبد العزيز فهمى ، أحمد كمال وأمين واصف ، اسماعيل رأفت ، فارس نمر ، يعقوب صروف ، أحمد زكى ، حفنى ناصف ، أحمد تيمور ، أحمد عيسى واضافوا اليهم ثلاثة أعضاء فارسى وسريانى وعربى وعنوا بوضع معجم لغوى يفى حاجة العصر الحديث .

وقد أجمع الباحثون على أن مهمة المجمع هى :

ــ المحافظة على سلامة اللغة من غلبة اللغات عليها بما يخرجها عن أوضاعها الأصلية بتسجيل لغة أخرى .

ــ التوسع فى تطبيق بعض قواعدها الجزئية لتنويع طرق التعبير بها وتسهيل اضافة أسماء حديثة لمسميات حديثة الى معجماتها العلمية .

ــ العمل على أن تكون وافية بمطالب العلوم والفنون ملائمة على العموم لحاجات الحياة فى العصر الحاضر .

وضع معجم تاريخى للغة العربية .

ثم كانت المرحلة الثالثة هى انشاء مجمع اللغة العربية فى ١٩٣٢/١٢/١٤ من عدد العلماء والمفكرين وانضم اليه عدد من المستشرقين الانجليز والفرنسيين وغيرهم .

كما جرت خارج المجمع ابحاث واعمال هامة فى والامير مصطفى الشهابى وقد عنى هؤلاء الباحثون بتعريب احمد عيسى والدكتور محمد شرف والدكتور امين المعلوف المصطلحات الطبية والعسكرية والزراعية ــ وكان من راى الدكتور احمد عيسى : انه لا مانع من استعمال الكلمات الأعجمية عند الضرورة على أن يستغنى عنها بعد أن توجد بديلات عربية عنها ولا مانع من التعريب ففى القرآن الكريم كلمات معربة كالسندس .

وقد واجه المجمع اللغوى فى مصر حملات متعددة ولكنها كانت مغرضة ، قام بها خصوم اللغة العربية وان بها عمله بطيئا فى هذه الفترة التى نؤرخها الا انه استطاع أن يحقق وضع عدد من المعاجم لألفاظ القرآن والحضارة وغيرها . بل أن عددا من اعضاء المجمع اليوم قد هاجموه قبل ان يشركوا فيه .

* * *

راى المنصفين

ولا شك أن اللغة العربية فى معركتها ازاء حملة الغزو الثقافى والتغريب قد استطاعت أن تحقق انتصارا كبيرا بمقاومة فكرة القضاء عليها والتقريب بين لغة الكلام ولغة الكتابة .

وقد شهد للغة العربية كثيرون من مفكرى الغرب حتى أن ارنست رينان ــ وهو على ما هو تعصبا وخصومة ــ شهد لها فى كتابه (تاريخ اللغات السامية) انها بدات للعرب والعربية ــ فجاة على غاية الكمال وأن هذا عنده من أغرب ما وقع فى تاريخ البشر وصعب حله ، وقد انتشرت سلسلة اى سلاسة . غنية اى غنى ، كاملة لم يدخل عليها منذ ذلك العهد الى يومنا هذا اى تعديل مهم ، فليس لها طفولة ولا شيخوخة ، اذ ظهرت لأول امرها تامة مستحكمة ولم يمض على فتح الاندلس اكثر من خمسين سنة حتى اضطر رجال الكنيسة أن يترجموا صلواتهم بالعربية ليفهمها النصارى .

ولحظ شبنجلر فى كتابه انهيار الغرب « مدى تأثير اللغة العربية فى شكل تفكيرهم » وقال أن اللغة العربية لعبت دورا أساسيا كوسيلة للنشر المعارف وآلة للتفكير فى خلال المرحلة التاريخية التى بدات حين احتكر العرب على حساب الرومان واليونان طريق الهند .

* * *

ويرى العلامة فريتاغ الألمانى فى معجمه الكبير عن اللاتينية والعربية أن اللغة العربية ليست أغنى لغات العالم فحسب بل أن الذين نبغوا فى التأليف بها لا يكاد يأتى عليهم العد ، وان اختلافا عنهم فى الزمان والسجايا والأخلاق أقام بيننا ونحن الغرباء عن العربية ، وبين ما الفوه حجابا لا نتبين ما وراءه الا بصعوبة .

٣ ــ وقال رينشرد كوتهيل (الهلال ١٩٢٠ م ٢٨) : انه لا يعقل أن تحل اللغة الفرنسية أو الانجليزية محل اللغة العربية وأن شعبا له آداب غنية منوعة كالآداب العربية ولغة مرنة لينة ذات مادة تكاد لا تفنى لا يخون ماضيه ولا ينبذ ارثا اتصل اليه بعد قرون طويلة عن ابائه واجداده ، وان التباين الجزئى الذى يبدو بين اللهجات العربية لابد أن يزول وعليه فستكون عندنا منطقة عربية تتكلم لغة واحدة شاملة .

ولقد كان للعربية ماض مجيد وفى مذهبى أنه سيكون لها مستقبل باهر .

٤ ــ واكد وليم ورل (الهلال ١٩٢٠ م ٢٨) أن اللغة العربية لم تتقهقر قط فيما مضى امام اى لغة من اللغات التى احتكت بها وانها ستحافظ على كيانها فى المستقبل كما فعلت فى الماضى ، وان لها لين ومرونة يمكنانها من التكيف وفقا لمقتضيات العصر . وأن اللغات الاوربية فى خلال ٢٥٠ سنة لم تستطع السيطرة على العربية او اضعاف مكانها .

٥ ــ وقال مرجليوث (الهلال اكتوبر ١٩١٧) أن اللغة العربية لا تزال حية حياة حقيقية ، وانها احدى ثلاث لغات استولت على سكان المعمورة استيلاء لم يحصل عليه غيرها (الانجليزية والأسبانية) وهى تخالف اختيها بأن زمان حدوثهما معروف ولا يزيد سنهما على قرون معدودة ، اما اللغة العربية فابتداؤها اقدم من كل تاريخ

وقال أنطون الياس : أن اللغة العربية اقدم لغة

حية ، وارجع كثيرا من الكلمات الانجليزية واللاتينية واليونانية وغيرها الى أصلها العربى وبرهن على انه ليس لها فى غير العربية تحليل ولا تركيب ، قال أن بعض اللاتين قد اتخذوا لهم ديدنا هو اظهار اللغة العربية العظمى بمظهر لغة ميتة وغير مفهومة عند ثلاث ارباع المتكلمين بها . اما لغة الكلام فهى فى نظر هؤلاء اللاتين عبارة عن لهجات علمية لا ارتباط بينها ومصيرها الفناء بعد زمن قليل .

وقال أن حسب هؤلاء أن يذهبوا الى مصر وسوريا ليتجلى لهم بالبرهان القاطع أن اللغة العربية التى وئدت قبل أن يحين اجلها هى على عكس ما يذهبون اليه لغة حية بكل ما فى الحياة من قوة » .

ولقد جاهد فى سبيل اللغة كثيرون منهم ثلاثةاقطاب لا يمكن تجاهل دورهم فى خدمة اللغة وحمايتها وتطورها : احمد تيمور وعبد القادر المغربى وانستاس الكرملى (اقرأ دراسات عنهم فى كتابنا حماة اللغة العربية) .

ولعل خير ما يختم به البحث ما سجله الخليل فى كتاب العين من أن عدد أبنية كلام العرب المستعمل والمهمل (١٢٫٣٠٥٫٤١٢) كلمة . وان عدد الألفاظ العربية ٦٫٦٩٩٫٤٠٠ لفظ لا يستعمل منها الا ٥٦٢٠ لفظا والباقى مهمل .

* * *

(٦)

المجتمـــــــع
إزاء الاستعمار والغزو الثقافى والتغريب

لقــد واجه مجتمعنـــا العربى بين الحربين معركة ضخمة فقد سقط الوطن العربى كله – تقريبا – فى قبضة الاستعمار وفرض عليه الغزو الثقافى والتغريب .

وكان على المجتمــع أن يواجه تيـــارا ضخما من الحضارة المادية فى مختلف صورها فقد خف سلطان الدين والمعانى الروحية ، وتغرب التعليم واستطاعت الصحافة أن تبث كثيرا من آراء الحرية والانطلاق .

كما فرض الاســتعمار على الوطن العربى غــزوا غربيا مدمرا يتمثل فى المخدرات والخيانات والبغاء العلنى المصرح به بأمر القانون . وواجه الشباب حيـــاة جديدة تختلف عن الحياة التى كان يحيـــاها آبائه فى ظل هــذه الأضـــواء والحريات ، وارتفعت صيحات تحرير المرأة . والدعوة الى تعلمها وسفورها ، واستتبع هــذا ظهور مشاكل جديدة وقضـــايا متعددة منها أزمة الزواج ، كما واجهت الأسرة أزمات جديدة من التفكك والانحلال .

وحدثت تطورت فى شئون الزى والأغانى وظهرت الدعوات الى الاصلاح الاجتماعى .

ولا شك أن حركة الغزو الثقافى والتغريب التى قام بها الاستعمار قد ادت الى خلق جو من الانحلال والفساد وقد كانت حملة الاســتعمار على الدين عاملا من عوامل الاستهانة بقواعد الخلق ومقومات الفضائل والقيم ، مما ادى الى الاستهانة بها وبذلك اضطرب المجتمع فى عناصره الثلاث : الشباب والأسرة والمجتمع .

وقد رسم محمود ابو العيون صورة المجتمع فى مصر بعد الحرب العالمية الأولى فقال « أنها – أى الحرب – تمخضت عن عجائب مدهشات . ظهر الجيش الأحمر فى روسيا وطغى سيله وصحا الرجل المريض فى الاناضول تحت ظل القنـــا وخفق البنـــوذ ، وازال شـــبح الخلافة العثمانية الذى أرهب أوربا . كما ان ثورة ١٩١٩ تركت اثرا بالغا فى آداب الأمة المصرية وأخلاقها ولكنا لا نفهم أن ما كنا نسميه نهضة سامية نرمز لها بالتماثيل ونقيم لهـــا الأنصاب ، وما كنا نود ان نأخذ من معنـــاه كماله الأوفى يجر الى انتكاس واضمحلال فى كل معانى الحياة الناهضة وتلك التى بذلنا فى سبيلها مهجا غالية ودماء ذكية . نقول ان ثورة ١٩١٩ التى طأطأ لها التاريخ اجلالا وهومت لهـــا الأمم اكبارا واعظاما كانت فى حيـــاة مصر فجرا كاذبا لمع نوره فى آفاقها كلسان الشمعة ثم خبا واظلم وها نحن فى ديجور الظلمة تائهين حيارى » .

* * *

معركة الشـــباب

تأثر الشباب بالأفكار الغربية فى الحرية والانطلاق من القيود ، وكان للدعوات النازية والفاشية التى ظهرت فى أوربا أثرها فى أفكار الشباب المتطلع الى الحرية فقــد أخذت مظهريات الأزياء العسكرية ، والصرخات المتطلعة، غير ان الأحزاب كانت ما تزال تفرض ســلطانها ونفوذها وتحمل مع هذا جراثيم الاغراء بالمال ، والنزول عن معانى الوطنية الخالصـــة ، وتغليب النفعيـــة على القيم ، والمصلحة على التجرد . وجرى مع هذا اتجاه الى التخفف من اعباء الثقافة والجهاد والحرص على الحصـــول على النتائج السريعة باقل جهد ، واعانت السياسة على ذلك فى الجامعات والمدارس فحصل الشــباب على القشور ، واكتفى بالشهادة الرسمية وبذلك ضعف المستوى الثقافى .

وقد وصفهم محمود أبو العيون (الأهرام ٣٤/١/٧) بأنهم من الطـــراوة والميوعة بحيث لا يقدسون ماضـــيا ولا يحفلون بمصير وأنهم يضيعون أوقات حياتهم فى العبث والمجون وان افكارهم تصور الأوهام الفاســـدة والسنتم تنطق بالألفاظ المستهجنة ونظراتهم خائنة . وانه لا شىء أفعل للعصـــبية ولا أذرى بالمـــروءة ولا اخطر لـــكرامة الشعوب من تلك الاباحة الخاسرة .

ويرى عباس عمار (٣٤/٢/١١) الاهرام — أن الحالة التعسة للشباب سيئة متوترة واليأس فى قلوبهم يملؤها حتى كادت تطفح به . وأن نظرتهم الى التعليم مادية وأن غرض الثقافة الأسمى يتلاشى ويزول فضلا عن اهمالهم للمثل العليا وتضحية مبادىء الأخلاق فى سبيل الغاية وبذلك امتهن التعليم وهانت على المتعلمين انفسهم .

أما لطفى السيد فيرى أن الجيل الجديد افضل من الجيل القديم اذ كان قوام الأخلاق فى الماضى هو الخوف وأن ملاكها اليوم هو الحرية . وقال « أن عيب هذا الجيل أنه مفتون يتملكه الغرور وقال أن هذا رد فعلى طبيعى لطبائع الاستبداد التى كانت تشمل بمشخصاتها الحاكم والمحكوم جميعا كل فى دائرته . «فالحاكم يظلم المحكومين ورؤساء العائلات يتشبهون بهم فى دوائرهم الخاصة بل فى بيوتهم » .

* * *

ازمات الأسرة

وقد تأثرت الأسرة بالتطور الاجتماعى الذى احدثه الاستعمار فأصابها الاضطراب وضعفت عن التماسك نتيجة لثلاث أزمات متصلة (١) الاضراب عن الزواج (٢) تعدد حوادث الطلاق (٣) اضطراب العلاقات فى الأسرة ، وقد تبين أن انحلال الأسر فى الأوساط المثقفة ملفت للنظر وكان العامل الاقتصادى له أثره فى الاضراب عن الزواج كما كان لحرية الحياة الخارجية عن طريق البغاء السرى والعلنى أثرها فى ضعف الرغبة اليه .

وقد دعا المصلحون الى فرض ضريبة العزاب على من بلغوا سن الخامسة والعشرين أو جاوزوها (٤) ورفع مستوى المعيشة المادية وخفض المهور كحلول لهذه الأزمة .

وقد وصل بعضهم الى الاعتقاد بأن الحضارة قد كانت بعيدة الأثر فى اهدار ذلك الركن وتعريضه للانحلال حتى أن بعض المثقفين أصبح مقتنعا بأن الزواج ليس من ضرورات الحياة وأن فى الامكان الاستمتاع بالمرأة بغير زواج .

ورأى البعض أن انتشار الاباحة وتنشيط عواملها كان عاملا من عوامل أزمة الزواج .

وقالوا فى تعليل ذلك أن ازمة الزواج غير موجودة فى الريف حيث لا توجد المدنية الحديثة وربما كان تطلع الزوج الى زوجة غنية تساعده بمالها فى الاستمتاع بزخارف الحياة ، او انتظار الزوج يمر بمرحلة تكوين حياته والوصول الى درجة من الثراء تمكنه من تكوين بيت عصرى من هذه الأسباب .

ومما كان له اثر فى ازمة الأسرة : نزول المرأة الى ميدان العمل وبلوغها حريتها التامة مما أضعف علاقتها بالأسرة . اذ لم يعد من الممكن أن تقضى وقتها فى أعمال المنزل وحمل عبء الأطفال بعد أن تحررت من هذه الشئون ووكلتها الى الخادمات .

* * *

ازمة الاختلاط

واتصلت بهذا أزمة الاختلاط بين الجنسين ، وقد لقى الاختلاط معارضة كبرى حتى من السيدات المثقفات اللائى اتهمن الرجل بانه هو الذى قاد حركة المرأة ووجهها على هواه ولمصلحته ، ولذلك فهو المسئول عما بها من اخطاء .

وقال عبد الحميد سعيد : أن اختلاط الجنسين فى بلادنا لا يؤدى الى الحب والتفاهم ولكن الى فوضى العواطف وفحش الميول . وغيرصحيح أن تقدم الأوربيين يرجع الى سفور المرأة واشتراكها مع الرجل فى الأعمال ومنافستها له فى كسب الرزق .

وعارض هذا الرأى رأى يقول أن اختلاطا فى الدراسة تحت رقابة عيون الوزارة والأساتذة وفى سبيل العلم وفى بيئة راقية من غير شك من حيث النتائج من اختلاط خفى قد تقع فيه الطالبة فريسة لغواية تقضى على مستقبلها .

* * *

الزواج بالاجنبيات

ولقد كان للاستعمار أثره فى خلق مشكلة الزواج بالأجنبيات حرصا على كسب عدد من المثقفين الذين تعلموا فى أوربا كجزء من خطة تغريبهم وربطهم بأهداف الاستعمار . وطال الجدل حول الزواج بالأجنبيات ، وكان

هنـــاك راى يقول ان الزواج المختلـــط لا يورث الابنـــاء الخـــارجين منه الا شر أخلاق الطرفين ، ومنهم من يقول انه انما يورث خير ما عند الطرفين من غرائز . ومنهم من يقول بأن النتائج لا يمكن الحزم بها لأنها تبقى معلقة على طبائع الغرائز المتفاعلة .

وذكر (محمود عزمى وهو من المتزوجين بأجنبيات) بأن الشرقى المتزوج بغربية تظل حياته هادئة هيئته ما دما مقيمين فى الغرب فى البيئة التى تمكنت بينهما الألفة فيهـــا ولكن هذه الحياة لا تلبث أن تنقلب حياة مضـــطربة اذا ما عادا الى الشرق .

وقد ايد محمود عزمى الزواج بالأجنبيـــات وقال انه يســـاعد على تحقيق (الأخذ بناصـــية المدنية الغربية) فيتعرفون عن طريقهن مختلف المنـــاحى العلمية للمدنية الغربية كما يعملون على « بث الدعوة للمدنية الغربية فى أوساطهم الشرقية التى تنتهى بالتعود على فكرة الاختلاط والنظر الى المراة على انها انسان وشخص يشـــارك الرجـــل » وبذلك اكد محمود عزمى الغـــاية التى ارادها الاســـتعمار من تشجيع هـــذا الزواج ، بينما كان راى المعارضين ان نتيجته كما قال فـــكرى اباظة « اننا نلقح دمنا المصرى بدم أجنبى لا يمكن أن يكون وفيا للوطن ولا وفيا للنيل ولا مواليا للأهرام . ثم يتغلغل هـــذا الدم فى أجساد الأولاد وأذهان الأولاد واحساس الأولاد فيغذى مخلوقات لا تحن لمصر حنين المصرى القح الخالص ، هذا فضلا عن النـــكبات الاجتماعية الـــكثيرة التى ينكبنا بها الزواج المختلط » .

ومن راى بعض الباحثين أن الزوجة الأجنبية عندما تعود الى البيئة المصرية التى لم تتعود عاداتها ولم تألف عرفها ، فانها تكون جوا جديدا من الأجانب والأجنبيـــات الذين يمتون وطنها دولة . وتجد انها مبعدة هى واولادها عن الوسط المصرى ، عندئذ ينتقل الزوج الى الوســـط الأجنبى بدلا من أن ينقل زوجته الى الوســـط المصرى ، لذلك ينشأ اولاده نشأة أجنبية لغة وثقافة وعاطفة .

وقد جرت أبحـــاث من شأن صـــدور قوانين تمنع الطلبـــة والموظفين والمصريين فى الخـــارج من الاقتران بأجنبيات .

وقد حدث حادث كان له اثره فى البحث عن اخطار الزواج بالأجنبيـــات ، تلك هو اطلاق « مرغيت فهمى » الفرنسية الرصاص على زوجها على كامل فهمى (١٠ — يولية ١٩٢٣) وفى أثناء المحاكمة عزا المحامى الأجنبى عن المتهمين الى الشرقيين عامة والمصريين خاصة تهما غريبة أثارت الراى العام .

* * *

المســـائل الجنســـية

وتعددت الأبحـــاث حول « الصراحة فى المســـائل الجنســـية » : وقد اختلف راى البـــاحثين حول تغليب الصراحة أو الاخفاء ، وقال الدكتور ابراهيم ناجى « أن الذى نخشاه أن يفهم — أى المراهق والمراهقة — أشياء كثيرة على غير طبيعتها واغلب الظن أنهما تلقيـــانها عن الجهال أو من الكتب المتداولة التجارية التى لا تطرق من الموضوع الا فى حدود ما تجده مروجا للكتاب .

وقال : أن علينا أن نتحدث فى صراحة لأننا قد نقع ضحايا جهل الأمراض التناسلية .

وقال فريد أبو حـــديد أنه اذا اضطهد الشـــعور الجنسى فان الأفراد يضطرون الى توجيهه الى مســـائل شتى . وقد يصبح الشعور الجنسى المكبوت عبـــارة عن قوة دافعة خفية تعمل على اختلاس اللذة الجنســـية فى الخفاء ولا تلبث هـــذه القوة أن تظهر بآثارها الاجتماعية الخطيرة .

* * *

تحديد النســـل

وجرى البحث حول تقييد النســـل أو اطلاقه ويعد « مريت غالى » أول باحث اجتمـــاعى مصرى دعا الى تحديد النسل ، وراى الدين انه جائز بشروطه وظروفه .

وقد دعا سلامة موسى الى تحديد النســـل ثم عاد فانكر الدعوة وخطأها .

* * *

تعـــدد الزوجات

كما جرى البحث حول تعدد الزوجات وخطر هـــذا التعدد وراى الدين واضح فى هذا حيث لا يجوز التعدد الا لظروف خاصة .

معركة الفساء البغاء

وكانت معركة البغاء من أشد هذه المعارك واقواها فى ميدان البحث وقد حمل لواء الدعوة اليها الشيخ محمود ابو العيون ، فى سلسلة مقالات فى الأهرام بداها ١١/٢٠ سنة ١٩٢٣ واستهلها على هذا النحو :

« بين سمع الحكومة وبصرها تقام سوق للفجور وتنفض سوق ، وتذهب الأعراض ضحايا الشهوات والأطماع بلا نكير ولا رقيب وبين سمع الحكومة وبصرها تنظم الجمعيات السرية لتجارة الرقيق ويجوب دعاتها الأمصار والقرى طلائع وكتائب يختطفون كل طفلة ومعصر وعانس وخود ، وبين سمع الحكومة وبصرها والمخدرات تتمرد الروح الخبيثة ، ويؤسس الزعيم « الغربى » مملكة منظمة ، داخلها مفقود ، هنالك وفى سجون ذلك المستبد الظالم تزج الفتيات الغافلات جليبات خزى واسيرات بغى . هنالك يمتهن الشرف وتزهق الانسانية وتطارد الفضيلة .

ثم هاجم الحكومة التى لم تأخذ درسا من الجلادين والجلادات (علام وابى الدهب وريا وسكينة وغير هؤلاء) وقال وهذه حادثة الغربى ثالثة الأثافى وفضيحة العمر وسبة الدهر .

ثم توالت مقالاته يعرض فيها لجوانب المشكلة . ويعرض « للمذاهب الاباحية التى تهدد البلاد بالمحن والزرايا — فى الدين والخلق ، فتكثر الجنايات وتتكرر المؤامرات على اغتيال الأعراض وشرف البيوتات ، وتساءل عما وضعته الدولة من مراقبة لصون الأعراض بعد حادثة الغربى » .

وتساءل عما اذا كانت الحكومة (تجهل مواطن الموبقات والفسوق فى كل شارع وفى كل حى وفى كل منتدى ظاهر وفى اطراف المدينة واحشائها) وتحدث عن الزعيم الغربى (الذى هزه لكتابة هذه المقالات) فصور (ما أذهب من شرف وكرامة وما اقام من ولائم وحفلات قصف ونكر ضمت من ضمت من اعاظم الرجال واخطر السيدات وما شيد من معارض للفسوق يدعو اليها سائحى الأفرنج للتفرج على المرات والفضائح بصور قبيحة كما يتفرجون على آثار الشرق ومدافن توت عنخ آمون) .

واشار الى حالة شارع (كلوت بك) وانتشار بيوت الفساد فيه وحوانيت تعاطى المكيفات والحانات المرخص بها للأشربة وقال ان الحكومة ضعفت امام سلطان الاستعمار الذى فرض عليها اباحة الزنا والترخيص بالمسكرات ولعب القمار وتغطية محاولات تجارة الرقيق فى خطف البنات .

ثم قدم كشفا بأماكن المنازل السرية بالعاصمة (١٧/ ١٩٢٣/١٢) وقال انها غير محلات النوم والخياطة والزار ومكاتب المخدمين والتدليك والذهبيات المعدة للفجور ، ونادى « الغوث الغوث . النجدة النجدة » وكشف عن أن المصابين بالأمراض التناسلية يبلغ ٨٢٠ الف — وقال ان هناك مليون اصابة فى العام ، وقال أن الحكومة ترخص بالبغاء . ثم تهمل مراقبة البيوت السرية والآداب العامة .

* * *

ونقل أبو العيون نصا من تقرير قسم اللوائح والرخص هو :

« أن الدول التى حرمت البغاء او تجاهلته لم تفعل ذلك احتراما للدين والآداب والراى العام فقط بل لأنها رات ايضا أن الاعتراف به رسميا مفسدة للأخلاق وانه مسبب للأمراض موجد لجريمة الاسترقاق مروج لتجارة الرقيق الأبيض) .

ولم يتوقف محمود أبو العيون عند هذا الحد بل انه اجرى استطلاعا كاملا عن « فضيحة » الغربى التى هزت الدوائر المختلفة وكانت رمزا على مدى الخطر الذى وصلت اليه البلاد بنتيجة للغزو الغربى فى ميدان الاجتماع .

وكشف عن شخصية (ابراهيم محمدمحمود الغربى) الذى تعرض لافساد الأخلاق بأن اعتاد تحريض الفتيات اللاتى لم يبلغن سن الثانية عشر سنة على الفجور والفسق . ووضعهن فى منازل معدة للدعارة وعرضهن على المترددين لارتكاب الفاحشة معهن .

ثم وصف زيارته لهذه الشوارع والحارات « القذرة » لرؤيتها وقال « رايت ما لم اره من قبل . رايت اسفل منظر وقع عليه نظرى ، لم ارسوقا للأعراض مرخصا بها من الحكومة مثل سوق الوسعة فى القاهرة هناك ، نساء لا عد لهن من جميع الألوان منهن السوداء والبيضاء والنحاسية اللون ؛ جالسات على ابواب منازلهن ينادين بالعربية كل من يمر ليرينه رخصتهن المصرح بها من الحكومة » .

ووصف ابراهيم الغربى : هذا الرجل « اذا شئت أن تقول بحق — هذا الشيطان ، بأنه اشنع منظر تراه فى مصر وقال « وانى أعتقد انه الرجل الوحيد من نوعه فى العالم الذى يعلن عن مهنته صراحة وله ميزة تميزه عن زملائه فانه شرهم »

« فقلما تجد بين هؤلاء السياح من يغادر أرض الفراعنة قبل ان يرى ابراهيم الغربى . وجدنا منزل ابراهيم الغربى منارا بالأضواء الكثيرة ووجدنا القاصرات المرخص لهن جالسات فى مدخله ، كان ابراهيم الغربى بينهم مرتديا ملابس امراة ملونا وجهه كما تفعل النساء رغم سواده . له جلد أسود لامع وعينان واسعتان يضع على راسه طوقا من الذهب المرصع بالأحجار الكريمة وتجد زراعيه عاريتين الى الكتف وبهما من الأساور الذهبية الثمينة عدد كبير ، وقد أحصيت ما تحمله الذراع الواحدة منها فوجدت أنها اكثر من أربعة عشر صنفا من الأساور ، وكان حول رقبته عقد من الذهب ، ويحمل فى أصابعه خواتم عديدة ويضع فى رجليه خلخالا من الذهب ويلبس على جسمه ملابس مزركشة بالذهب والفضة والترتر مما يعكس الضوء فيبهر الأبصار ، انهم ينظرون اليه هناك كما لو كان شيئا خارقا للطبيعة ، أو كما لو كان شخصا مقدسا ، وسعيد هو الذى أتيحت له الفرصة ان يلمس جسمه وكثير من الوطنيين يجزمون بأنه اذا غضب على كائن من كان فجزاؤه الموت ، وعندى أنه يجب ضرب هذا المخلوق بالكرباج فى ميدان عام وأمام الجمهور يقولون انه ذو ثروة طائلة ونفوذ واسع . وقيل لى أنه نظرا لنفوذه عرض اسمه على الخديو السابق من أجل أن ينعم عليه برتبة البكوية . . . ولم يتوقف « أبو العيون » عن الدعوة الى الغاء البغاء الا بعد ان انبرت جريدة السياسة تقاومه وتسخر به ، هنالك توقفت الأهرام عن نشر مقالاته ، بعد أن كشف الستار عن فضائح هذه الجريمة وكشف عن شرور البغاء وحمل على الحكومة حملة منكرة .

ولم يلبث ان أرسل الى البرلمان فى أول جلسة من جلساته برقية يطالب بالغاء البغاء الرسمى ، وقام بمحاولة ضخمة حين مر على وزراء الدولة وعظماء البلاد وكتابها المصلحين يستكتبهم رايهم فى البغاء ، هنالك ازدادت حملة الصحف التغريبية عليه وقاومت دعوته بالشتم والمنابذة ونشرت له المجلات صورا كاريكاتورية قاسية .

ووصفوه «بانه مأجور وصنيعة ومشعوذ ودجال» .

ثم لم يلبث أن عاود الحملة فى يوليو ١٩٣٣ مستأنفا الدعوة الى محاربة البغاء بالدعوة الى مطاردة محترفيه وازالة مواخيره وهدم أسواقه النافقة فى العواصم والأمصار .

ووصف البغاء بأنه « احتراف امراة تبذل اعضاء جسمها للرجل فى مقابل اجر معين . والاسلام دين الدولة الرسمى يحرمه ويعاقب عليه ، والأديان كلها تضافرت على تحريمه . وقد راعى الشارع فى ذلك صيانة المجتمع من الشرور والمفاسد التى تتنافى مع الآداب والأخلاق والصحة ونظام الأمن » .

وبين أن أبلغ أضرار اباحة البغاء امتهانه لكرامة فريق من بنى الانسان ، وردد ما ورد فى تقرير عصبة الأمم سنة ١٩٢٧ عن تجارة الرقيق من أن مصر أصبحت ميدانا حيويا ومركزا هاما من المراكز الدولية .

وصور كيف أن الترخيص بالبغاء السرى سهل على الشباب الاستمتاع بالمراة من غير زواج ، ودعا الى سن قانون للزواج فى سن معينة وتعليم الدين اجباريا فى المدارس ومكافحة الأمراض السرية ودعا الى الغاء البغاء دفعة واحدة .

وكانت الحكومة قد اتخذت قرارا فى عام ١٩٣٢ لبحث موضوع البغاء وجرى اتصال اللجنة التى كونها الدكتور محمد شاهين وزير الصحة بمختلف الهيئات والطبقات للوقوف على وجهة نظرها وقد ظلت هذه اللجنة معطلة حتى عام ١٩٤١ عندما أعلنت توصيتها بالغاء البغاء الرسمى ولم يتم ذلك الا بعد عام ١٩٤٦ .

* * *

تحريم المسكرات

ودارت معركة أخرى لمحاربة المسكرات قادها الدكتور احمد علوش وحمل لواء الحرب فى سبيل ذلك امدا طويلا عن طريق الصحافة والخطابة والنشرات وقد ورد فى رسائله ان نسبة مدمنى الخمر من المصريين لم تكن تزيد قبل الاحتلال البريطانى على ٧ او ٨ فى المائة ، ونعى على الحكومة الترخيص بفتح محلات لبيع الخمور وطالب بتحريم الخمر صنعا وبيعا وشراءا واستعمالاً .

وبين كيف كانت المسكرات سببا فى ازدياد الجرائم

والاصابة بالجنون وحوادث الطلاق ونقصان قوة الانتاج . وكيف أن ما يرد للدولة من ايرادات نظير استيراد الخمور مهما بلغ مليون من الجنيهات فانه تقابله خسارة ضخمة فى القوة العاملة .

وهاجم عام ١٩٣٤ اعتزام الحكومة تخفيض الرسوم الجمركية على الأنبذة المستوردة من بلاد اليونان وردد ما قاله المؤتمر الدولى التاسع عشر للمسكرات ومعظم أعضائه من أساطين الطب وأكابر العلماء .

المخدرات

وكنت معركة المخدرات من أقسى هذه المعارك واطولها ، ذلك أن حكمدار القاهرة « رسل باشا » الذى استمر فى هذا المنصب أكثر من عشرين عاماً كان يتولى بنفسه استيراد المخدرات وحماية وصولها الى الأراضى المصرية وتوزيعها ، وكان فى نفس الوقت مسئولا بحكم عمله الرسمى عن محاربتها ومقاومتها .

ولقد مر على مصر فترة انتشر فيها الكوكاكين والهروويين بدرجة فاتكة وقد تبين أن العدد الأكبر من تجار المخدرات والمهربين هم من الأجانب الذين يحتمون بالامتيازات الأجنبية ولا يمكن محاكمتهم الا أمام محاكمهم الخاصة وقد ضبط فى عام ١٩٢٦ وحده ٥١٦٧ كيلو من الحشيش و ١٧٢ كيلو من الأفيون و ٦٤٦ كيلو من الكوكاكين و ٩ من المورفين واذا كان هذا هو ما صودر فأن الكميات التى وصلت كانت لابد اضعاف ذلك . وقد كشفت التحقيقات المتوالية عن عصابات منظمة تنظيما دقيقا ينفق عليها بسخاء فى سبيل ادخال هذه المواد الى البلاد . وقد ورد فى التقارير أنه قبل سنة ١٩٢٢ لم يكن يعرف فى مصر سوى الحشيش والأفيون واصبحت زراعة الحشيش ممنوعة فى مصر منعا باتا منذ الاحتلال البريطانى .

وذكر رسل باشا فى بعض تقاريره أن المخدرات لا تنحصر فى نوع واحد بل تتناول جميع أنواع السموم القاتلة للعقول والأجساد .

وطالبت الصحافة بتعديل قانون المحاكم المختلطة حتى يمكن محاكمة الأجانب الذين تتاجرون فى المخدرات ، غير أن الاستعمار كان يحول دائما دون تحقيق ذلك لاستمرار الغزو الاجتماعى عن طريق المخدرات ، ولقد تنبأت صحف لندن بأن الأمة المصرية واقعة لا محالة فى هوة الادمان على المخدرات وكتبت الديلى اكسبريس فى ٦ مارس ١٩٢٧ مقالا بعنوان « المصريون أخذوا يصيرون شعبا يدمن المخدرات » وقد جرت محاولات كثيرة لمقاومة هذه الظاهرة الاجتماعية الخطيرة ، غير أن الاستعمار حال دون تحقيق أى عمل ايجابى فى هذا الصدد .

معركة الأغانى

وكانت معركة الأغانى احدى المعارك الفكرية الهامة فقد سيطر بعد الاحتلال البريطانى طابع من الأغانى المخنثة المرذولة وصف بأنه يشيع فى النفس الذلة والحسرة والموت .

ونبه الكتاب الى مدى الخطر الذى يهدد الأخلاق والرجولة من جراء الغناء الشائع على الألسنة والتيت تبعة الانحطاط على الشعراء .

وقد صور ابراهيم المصرى هذا التيار فقال : ان هذا اللون من الأدب فى جملته مخنث مرزول يعنى بالتانق الشكلى والحلاوة اللفظية دون الفكر ، وأن اخلاقنا مخنثة مرذولة قوامها المجون وطابعها الاستخفاف وعدم الاكتراث ، وذوقنا نفسه مخنث مرزول يميل الى الرخاوة ويستمرىء النعومة ويستطيب كل ما هو رقيق حالم فاتر مريض » ووصف أثر ذلك على الشباب ، وقال انه يصدر عن موجات مروعة من التميع المادى الرخص واللهو الأنانى الفاجع » وبين غيره من الكتاب أن الأغانى والأناشيد المصرية لا تمثل روح فضائل العظمة والكبرياء والأنفة والشمم واحتقار الجبن والجبناء والنذالة والانذال ودعا الكتاب الى طرق ابواب الحماسة والحكم بجوار التشبيب والمديح وأبواب الفضائل والأخلاق بجوار الوجد والهيام « حتى تتخلل الحكمة النفوس الجامحة باعتبارها الطريق السهل الى المشاعر واستغلال هذه المفاتح فى الخير العام واصلاح النفوس » (حسين محمد الرفاعى ١٩٣٣/٦/٧) .

وقد جرجت الدعوة منذ عام ١٩٢٠ الى اعداد النشيد الوطنى (أسوه بالأمم الراقية) ونظم شوقى :

بنى مصر مكانكموا تهيا   فهيا مهدوا للملك هيا

ونظم الهراوى :

عنت مصر فلبينا كراما   لنا مصر فلاندع الزماما

معركة الزى

وكانت معركة الزى من أهم المعارك الاجتماعية . اتجهت الى استبدال الطربوش بالعمامة فى البيئات الدينية والأزهرية ، والقبعة بالطربوش فى البيئات المدنية .

وقد جرت معارك فى دار العلوم عام ١٩٢٥ حول استبدال الزى الأزهرى بالزى العصرى . وقال الشيخ حافظ عبد ربه أن الزى الأزهرى بوصفه الحالى عائق كبير يحجب عن صاحبه كثير من حقائق الحياة ويدفع به خطوات الى الوراء او على الأقل يمنعه من مشاركة المجتمع فى شتى مرافقه ونواحيه وانه فى الوقت نفسه يؤكد الطبقية بين صفوف الشعب ويبقى على الفوارق البغيضة المذمومة .

وقد جرى البحث حول العلاقة بين تغيير الزى وتغيير العقلية وهل يمكن ان يؤدى هذا التطور المادى الى تطور فكرى .

واتصلت الأبحاث بمناسبة الثورة التركية وفرض القبعة على الأتراك العثمانيين والغاء الطربوش والعمامة .

وقد جرت أبحاث حول العمامة والطربوش والقبعة .

وقيل أن « العمامة » زى دينى بحت لا صلة له بالمجتمع ولا بالاسلام ، وان الزى الأزهرى خلقته الظروف ودعا اليه الوسط : وقد طالب علماء الأزهر بجعله مقصورا على رجال الدين . وردد الجانب الآخر ان العمامة زى أقره الشرع اذ كانت فى صدر الاسلام زيا يتميز به المسلمون عن غيرهم ، وان الزى الأزهرى فضفاض يلائم بالصحة ولا يحول دون الاندماج فى المجتمع

وقد وجهت حملة ضخمة الى « العمامة » بقصد التخلص منها . وهاجم الشيخ التفتازانى خصوم العمامة (٢٠ مارس ١٩٢٦ — الأهرام) وقال انه اذا اختفت العمامة قبر الطربوش لأنها لا تجد ما تستند اليه وقال : أن العمامة زى قومى وأن العمائم تيجان العرب . أما الطربوش فيكفى أن ينفرد بالظهور بعد العمامة ليختفى بعد أسبوع من تاريخ زوالها لأن الحملة عليه سهلة موفقة .. أما القبعة التى تريدونها زيا لنشء هذا البلد الكريم فهى مظهر الفناء المطلق الذى تبلع فجواته ، الشخصية المصرية وتضيع فى فيافيه مميزات اهل هذا البلد الظاهرية فلا تعرفهم بسيماهم وتراهم عبدة أزياء تغيرت ملامحهم »

* * *

٢ — الطربوش

أما الطربوش فتاريخه أنه جاء مع الأتراك العثمانيين الذين لبسوه بعد فتح القسطنطينية ، اخذه الأتراك من اليونان واخذته مصر من الاتراك ، وتخلى عنه مصطفى كمال . ومصر تلبس الطربوش قبل أن تصنع طربوشا واحدا وتستورده من النمسا . وقد لبس أحمد زكى باشا سكرتير مجلس الوزراء الطربوش الأبيض بعد أن قاطعت مصر النمسا واضربت عن شراء بضائعها .

وقال المقطم فى حملته على الطربوش (١٤ يونيه عام ١٩١٧) أن الغربيين والشرقيين يظنون ان الطربوش شعار دينى اسلامى وهو ظن بعيد عن الحقيقة فانه ليس فى الاسلام زى خاص . كما أن الطربوش ليس شعارا اسلاميا كذلك البرنيطة ليست شعارا مسيحيا .

أما الطربوش فقد اقتبسه السلطان محمود الثانى العثمانى من الروم نصارى الأرخبيل ولم ينقضى اكثر من مائة سنة من اتخاذه غطاء للرأس بدلا من يتجان الانكشارية ودعا المقطم الى ابطال الطربوش واستبداله بلباس آخر .

وقد ذكر الباحثون أن التمسك بالطربوش يرجع الى عوامل اهمها مسألة القومية والمصرية والشعار المصرى وتميز المصرى على غيره .

* * *

٣ — القبعة

وقد جرت الدعوة الى القبعة كلباس صالح صحى بدلا من الطربوش يحبس الدم وتنجم عنه اضرار الصلع ، وانه ليس هنـــاك ما ينص فى الدين على تحريم القبعة او اشتراط اى لباس آخر .

وقد تصـــدت الرابطة الشرقية والجمعيـــة الطبية المصرية لبحث الأمر من الوجهـــة الطبية والدينية ، وذكر بأن الجمهورية التركية لم تتخذ القبعة لســـبب صحى بل لســـبب اجتماعى ، هو اختيار اللبـــاس الأوربى وافتت الرابطة والجمعية الطبية بأن افضل لباس للراس يوافق مصر فى زمن الصيف هو (القلنسوة البيضاء) المصنوعة من الفلين .

وقال الدكتور محجوب ثابت فى حديث له مع محب الدين الخطيب (١٤ اغســـطس ١٩٢٦) أن الطربوش صحيا خير من القبعة . وذكر انه لا يدافع عن الطربوش لذاته وقال : اما ان القبعة لباس المتمدنيين فالتمدين ليس بالبرنيطة ولكن بالمعارف العلمية التى جعلت لابس القبعة يصل الى هذه المكانة فى الدينا ، هذه المكانة التى وصـــل اليها بعلوم القوة والثروة والعمران . وقال ان البرنيطة شعار أمم تحاول اســـتلاب استقلالنا والاســـتيلاء على ديارنا واحتقارنا فى اوطاننا وتاريخنا . وذكر ان الكماليين سجنوا من اجل القبعة من سجنوا وشردوا من شردوا .

وقال « متطربش » معلقا : تبرنطوا اذا شـــئتموا واذا أردتم وتطربشوا اذا حلا لـــكم . ولكن لا تنسوا أن الدين والوطنية والأخلاق والقومية ليست فى الثياب بل فى الألباب ، ولا فى الدثار بل الأفكار ولا فى شكل الملبوس بل فى العقول التى فى الرءوس .

وأجمع كثير من الباحثين على ان مسالة الخروج من العمامة الى الطربوش ومن اللطربوش الى القبعة انما هى تقليد للغرب ، لا يقصـــد به منفعة واضـــحة او غاية معلومة . وجرى ذكر ما قال سعد زغلول فى معارضته لنبـــذ الطربوش « مثل الذين يبدلون شعارهم بشـــعار غيرهم كمثل الذين يتبرأون من انسابهم » وقال العقـــاد « أن من ســـقوط الهمة أن يتوارى الانسان وراء القبعة خجلا من جنسه » .

وقالت جريدة ما نشيســـتر جارديان : انه بينمـــا العرب والترك يستعبدون للأزياء الغربية بأبشع اشكالها وأبعدها عن جمال الخيال والتصور يتحول الغربيون الى التنويع والتزويق .

وقد حققت هـــذه الحملة تحول كثير من طلبة دار العلوم والقضاء الشرعى من العمامة الى الطربوش ومنع الأزهر التغيير .

وصـــدرت فى مصر فتوى رسمية (١٩٢٦/٣/٢٥) بأن المذاهب الأربعة المعمول بها مجمعة على تحريم لبس القبعة عند عـــدم الميل الى دين اصحابها وعدم قصـــد الاستخفاف بدين الاســـلام . وان فى تغيير الزى القومى فناء للشخصية وذلك شأن الضعيف — وردت الفتوى على ما قيل من ان الزى الغربى يدفع احتقار الغربيين وقالت « أن الزى لايدفع احتقارا ولا يرد عارا مع فساد الخلق وتأخر العلم وعدم النهوض بالصنائع والأعمال الاقتصادية والأخلاقية » .

ولم تلبث أن وقعت حادثة الطربوش فى تركيا بين وزير مصر المفوض ومصطفى كمال اتاتورك حيث أشـــار رئيس الجمهـــورية التركيـــة الى الوزير المصرى برفـــع طربوشه فى حفل رسمى .

وقد امتدت معركة الطربوش الى ســـوريا فكتبت جريدة النهار البيروتية (١٩٣٣/٩/١٢) بأن الطربوش نمســـاوى ، وليس عربيا وانه يذهب ثروة البلاد ، وان دمشق تســـتورد مائتى الف طربوش كل عام وتدفع ربع مليون ليرة عثمانيـــة على اقل تقـــدير . وقالت : (اذا فرضنا أن الطربوش كان منتشرا منذ مئتى سنة فاننا نجد ان دمشق دفعت للنمسا ثمن طرابيش خمسين مليون ليرة عثمانية) وذكرت انه يجرى البحث عن غطاء آخر للراس وهل القبعة الافرنجية ؟ اما الكوفية اليدوية . أم العمامة ام السدارة العراقية وقالت ان فـــكرة اعدام الطربوش ليست فكرة حديثة فقد أحرق فى العام الفائت واستعيض عنه بالسدارة العراقية .

وفى العراق لبس الملك فيصل السدارة اعلانا لتحرر بلاده والابتعـــاد عن زى الترك . وانتشرت الســـدارة الوطنية فى العراق كما جرى عام ٦٩٢٦ فرض الســـترة والبنطلون على سائقى السيارات .

واثيرت مســـالة الطربوش والقبعة مرة اخرى فى مصر بعد توقيع معاهدة ١٩٢٦ وجرى التفكير فى توحيد

الزى ووضع لباس جديد للراس ، واجمع الكثيرون على أن توحيد الزى لازمة من اللوازم الاستقلالية .

وصاح توفيق الحكيم (١٩٣٧/٣/٧ — الأهرام) : آن الأوان أن لكي نلبس القبعة ، وقال انه طالما يوجد فى مصر شيء اسمه طربوش وشيء اسمه قبعة فستبقى دائما كلمة اهالى وكلمة اجانب ، ومهما مهدنا للتخلص من عار الامتيازات بمقتضى الاتفاقات أو بنصوص القوانين فان ذلك لن يخفف الا قليلا من وطأة تلك الامتيازات المعنوية والأدبية التى يتمتع بها كل لابس قبعة على حساب لابس الطربوش : ونادى : أيها الشباب اقدموا على لبس القبعة ولا تخشوا ما دمتم مقتنعين ان الطربوش لم يعد يصلح لحاضركم ولا مستقبلكم ، وقد رد كثيرون معترضين على رأيه وقال زكى طليمات انه آن للوزراء والكبراء ان يخلعوا طرابيشهم .

واشير الى ان كلمة (قبعة) كلمة كلدانية . وأنها تسمى فى قاموس الفيروزباذى « البرنس » وروت الأهرام ١٩٢٦/٣/١٤ أن (سليم سركيس) هو أول من فكر فى لبس القبعة بدلا من الطربوش عام ١٩١٧ وفى نفس العام كتب (شيخ) يطلب الى اخوانه المشايخ لبس الطربوش بدلا من العمائم ، وأن معنى ذلك أن فكرة استبدال القبعة بالطربوش هى فكرة مصرية لا تركية .

ولعل أعظم داعية للقبعة هو الدكتور محمود عزمى الذى حاول منذ عام ١٩٢٥ أن يستبدل الطربوش بالقبعة، غير انه لم يحقق هذا العمل الا صيف عام ١٩٢٦ متعللا «بالأخطاء الوراثية» التى حالت دون ذلك ، وقال مصطفى صادق الرافعى فى الرد عليه بأن هذا التحول مظهر من مظاهر التحلل الاجتماعى .

* * *

السينما

وكانت السينما من بين القضايا الاجتماعية التى جرى الجدل حول خطرها على المجتمع والأخلاق . ومدى اهمية اختيار القصص التى تعرضها لتوجيه الشباب والفتيات الى مفاهيم صحيحة للحياة دون أن تكون وسيلة للاغراء أو خلق جو من الأعجاب بالجريمة أو الاباحة .

ومع ذلك فقد ظلت القصة السينمائية عاملا من عوامل الهدم والتغريب واشاعة الاثارة والتحريض على الجريمة وتصوير الحياة الاجتماعية بصورة التحلل .

* * *

معركة المقـــاومة الاجتماعيـــة

كانت الحضارة الأوربية قد بدأت تنفذ الى الشرق كله وتمتد الى جوانبه . وتمد فى كل مكانٍ معالمها صور اللذة والمتعة والترف وتغلبها على مقومات المجتمع العربى الأصيلة كوسيلة للقضاء على روحه المعنوية ودفعه الى التحلل والاستهانة بالقيم والـكرامة والحرية ، وانتشرت صور الحضارة فى البيت والعلم والملبس والفن وخرجت دعوة تحرير المرأة الى غير مادعا اليه الذين حملوا لواءها كما تناثرت فى انحـاء الوطن العربى الحـانات وانتشر البغاء الرسمى وظهرت معـالم التفكك على الأسرة وبدأ الشباب يتحلل ويضعف عن مواجهة الأضواء ذات البريق ونشأت مشاكل الاختلاط وبدع المصـايف على شواطىء البحار وزادت موجة تدهور المجتمع قوة ، واستعلن الاثم وبرزت الاباحة وهدفت السينما والمسرح والصحافة الى ارضـاء الجماهير واغرائهـا وهدهدة غرائزها ، وغلب التحلل على الأغانى والموسيقى .

غير ان الفكر العربى الاسلامى لم يقف ازاء هذه الموجة من التغريب الاجتماعى صامتا ، بل واجهها بالاصلاح ، وعمل على مقاومة التحلل ، ودعا المصلحون الى انشاء المجلس الأعلى للاصـلاح الاجتمـاعى (صحف ١٩٣٦/٤/٢٦) ليحمل رسالة الدعوة الى دراســة تيارات تطور المجتمع وتتبعهـا بما يكفل حسن اسـتغلالها لصالح الجمـاعة والمجتمع « ذلك أن تطور المجتمع لا يمكن سد تيـاره أو الوقوف فى سبيله لأنه نتيجة تفـاعل عدة قوى طبيعية ومحلية وعائلية ليس من الميسور السيطرة عليها ، كما أن معالجة الاصلاح الاجتماعى بالمقـالات والنصائح أصبح اسلوبا باليا ، ولذلك لابد أن تتجه الأبحـاث الاجتماعية اتجاها علميا قائما على مناهج بحث لها وسائلها وموازينها الحقيقية ، فقد تقدم الاجتماع كعلم من العـلوم النظرية وأمكن تطبيق نظرياته الأجتماعية تطبيقا علميا ، وخضعت المجتمعـات الانســانية الراقية منهـا والمتأخرة للبحث الاجتماعى كما تخضع الكائنات الحية للبحث البيولوجى »

وأشار الباحثون الى أن المجتمع المصرى كان متقدما على المجتمع التركى من عــدة وجوه فى نظمــه الادارية والاقتصادية والقضـائية ، وكانت المرأة التركية تحســد أختها المصرية لمـا كانت تتمتع به من حقوق ، ثم انقلبت الآية بعــد عام ١٩٢٤ اذ نادت تركيا بوضع سياســة اجتماعية رسمت وسائلها وخططها وأقدمت على تنفيذها ، وبدأ تحول المجتمع التركى .

ودعا المصـلحون وفى مقدمتهم محمد فريد وجدى (الأهرام ١٩٣٦/٤/١٢) الى وضع سياسة للاصلاح الاجتماعى فى هذا الدور من الانتقال الذى تجتــازه البلاد صيانة للآداب والأموال والأعراض التى تتحلل وتتلاشى أمام قوى عارمة منصبة عليها من ضروب شـتى لا تجد حيالها من ملاذ تحتمى فيه دونها ، وقال وجدى « ان أول ما يؤثر على خيال الأمة فى هــذا الدور هو أن تنفض عن رأسها غبار الخمول . وأشار الى الشر الذى تلقاه من نقلها مظاهر المدنية ، وفى هذه المظاهر ما هو شر محض والخير الذى فيهـا لا يمكن الوصول اليه بمجرد التقليد ، وأشار المصلحون الى أن هناك آفات اجتماعية سرت فى جسد الأمة من مخلفات الاستعمار « الذى وضع بويضات جراثيمه بين جدران المدارس » وأن مرتعها الخصـيب هو الطبقة العامة من الأمة .

***

وأشار عبد الله حسين (الأهرام ١٩٣٣/٩/٢) الى أن السياسة القومية للوطن ليست هى الاستقلال وانمـا تتصل بسياســة التعليم وسياسة المجتمع ، وأن تكون المدرسة قومية البرنامج والروح ، وأن المدرسة المصرية تهمل التاريخ المصرى أشد الاهمال وتقوم الدراسة على وضعها أجانب ، ودعا الى تربية العاطفة الوطنية بشراء البضـــاعة الوطنية . وانحى باللائمة على للطبقـــة الارســتقراطية الى تحتقر مصنــوعات بلادها ولا يرضى رغبتها الا شراء كل شىء أوربى ، وطالب عباس عمـار (١٩٣٣/٨/٣١) بضرورة وجود أمور ثلاثة يمتلك الشباب زمامها ليشيدوا صرح وطنهم شامخا هى :

(١) مثل اعلى يقوم على مبدأ الخدمة العامة ويرمى الى الخير العام .

(٢) عاطفة سامية ترتفع بصاحبها عن الأنانية المعقولة .

(٣) اعداد متين يضمن للمرء تحقيق هذه المثل العليا .

قال عباس عمار : ان مجتمعنا مريض تنتابه العلل، ومرجع النقص فى الاصلاح هو عجز الجماعات عن أن تكون لها برامج جملية تؤمن بها وتعمل على تحقيقها . ودعا الى قيام نظام « المخلات » التى تعد حجر الزاوية فى بناء الاصلاح الاجتماعى وهى (مؤسسات) تقام فى مناطق متفرقة فى المدن والقرى لرفع مستوى الحياة الاجتماعية فى كل منطقة .

وعالج منصور فهمى (١٩٣٩/٦/٢٠) ما اسماه « علة العلل فى مشاكلنا الاجتماعية وهو : الاقتباس من الحضارة بما يوافق حاجتنا أو قبولها قبولا كاملا » . وقال « انى اتمسك بميراث انحدر الى بلدى منقرون وان استوحى ما يوحى به تاريخى وان استلهم ما يلهمنى جو بلادى . لسنا من الغرب وانها لكبيرة أن ننهج فى كل شىء سبيل الغربيين ، فالتقليد حدود — وكان طه حسين قد دعا الى قبول الحضارة الغربية كاملة غير مقبوضة « ما يحمد منها وما يعاب وما يحب منها وما يكره » .

واتجه الأزهر ووزارة الأوقاف الى الدعوة الى ابطال البدع والعادت الضارة واشار وزير الأوقاف فى خطاب وجهه الى شيخ الأزهر (صحف ١٩٣٦/١/٢١) الى أن هناك عادات كثيرة وامور عديدة لابست الشعائر الدينية واقترنت باداء العبادة ، وتطاول الزمن حتى انطمست من بينها الحدود وتلاشت الفواصل فاختلط الأمر وظنها العامة دينا وادوها عبادة ووجد من الناس من يدعو اليها باسم الدين ويحض على المحافظة على فعلها فتمكنت من النفوس وهى بدع ، واستولت على العقول وهى ضلال ، ونشأ عن ذلك جدل عنيف وخلاف شديد ملأ المساجد واثار الفتن واورث العداوة والبغضاء وأوجد التحزب والتفرق ، وادى ذلك الى قيام طرائق وفرق وجماعات يضلل بعضها بعضا حتى اتخذ بعض الناس مساجد خاصة على قيد بضع خطوات من مساجد الجماعة » .

واجاب شيخ الأزهر أن الموالد التى يقيمها أرباب الطرق لبعض الأولياء فى مساجد المسلمين لم تكن على عهد رسول الله بل هى من بدع الفاطميين التى شوهت جمال الدين وصورته أمام الناس بصورة لا تتفق وما ينبغى له من عظمة وجلال ، وهى انتهاك لحرمة المشاهد كالذى نجده عند اقامة الموالد من تقديرها بالأطعمة والأشربة ودخول الأطفال فيها حفاة أو بنعال ملوثة ، وقد يختلط فى تلك الموالد الرجال والنساء فتعظم الفتنة .

واشد من هذا أن يتحول المسجد الى ملهى يتبارى فيه المغنون والمطربون فاذا كانت المغنية امرأة كما شوهد فى مساجد القاهرة كان الفساد اكبر والفتنة أعظم لأن المسجد فى وقت المولد يدخله جميع الناس ، فضلا عن حلقات الذكر التى تقوم على آلات الطرب والأناشيد الغرامية التى تنفخ فى نفوس الشبان روح الفسق ، كما تقوم على تحريف أسماء الله تعالى وصفاته والتمايل فى الذكر الى حد الرقص والخلاعة . والواجب تطهير المساجد من هذه البدع والمنكرات حتى تكون خالصة لما اعدها الله له من عبادته على الوجه الذى يحبه ويرضاه » .

كما هاجمت الصحف المسرح الفرنسى الخليع فى مصر واعلن راغب غالى (الأهرام ١٩٣٢/١٢/٧) اننا نحتج على الذين يتوهمون انهم يستميلوننا بمثل تلك البرنامج المشحونة بذاءة ، ودعا الحكومة الى عدم الانخداع بنظريات الفن والجمال المزيفة حينما يكون فى الأمر ما يخالف الآداب العامة أو تراخى الأخلاق .

* * *

(٧)

المـــــرأة

كانت الدعوة الى « تحرير المراة » خطوة كبرى فى سبيل التطور وقد حملت دعويين : هما : تعليم المـراة وسفور المـراة ، غـير ان الاستعمار قد حـرص على الانحراف بهـا عن اتجاهها الصـحيح ، فقد حملت لواء الدعوة الى تحرير المـــراة طائفة من نســـاء الطبقة الأرســتقراطية وكان الدعاة يطمعون فى العمـل فى هذا الميدان لكسب لون من الزعامة ، وقد حالت سيطرة هذا النوع من النساء على ميـدان المراة من اشتراك المـراة الشعبية ، كما كان لســيطرة الرجل على حركة تحرير المراة دخل فى كثير من الأهواء التى وجهت الحركة وجهة غير صحيحة .

وقد كان قاسم امين فى دعوته الى تحرير المراة انما يقيم منهاجه على اساس منقواعد الاسلام غير ان ماحدث هـو أن قلة من ساكنـات المدن هن اللائى خرجن من الحجاب . غير ان السفور كان عملاً مظهريا محضا ، ولم يقع ما دعا اليه قاسم امين من ارتفـاع مستوى الأدب (مجلد ٤٦ الهلال ص ٩٧٦) وخلق سعادة البيوت ، بل الذى حدث أن صاحب هذا التطور — على حـد يعتبر محمد فريد وجـدى « تدهور مروع فى الآداب العـامة وانتشار مفزع لمبدأ العزوبة ، واصبحت جلسات المحاكم غاصة بقضـايا هتك الأعراض وهرب الشابات من دور اهلهن » .

ونعت « ابنة الشـاطىء » ما تكشفت عنه حركة تحرير المراة مما سمته « مهزلة أليمة موجعة » تلك هى « أن الرجال ساقونا لنعمل لحسابهم وهم يوهموننا اننـا نعمل ويعملون معنا لحسابنا » ذلك أن الرجال رتبوا لنـا الخروج زاعمين انهم يؤثرونا على انفسهم ، ولكنهم كذبوا فى هذا الزعم فما اخرجونا الا ليحاربوا بنا السآمة والضجر فى دنياهم . ان اقسى ما نلقاه فى محنتنا هو شعورنا بمـا انكشف من ضعف الرجال وصـغارهم ، ونحن شقيات بذلك فكان منه مرارة موجعة »وقد اشارت بنت الشاطىء الى هذا الانحراف « أن المراة دفعت ضريبة فادحة ثمنـا للتطور ، ويكفى ان اشير فى ايجاز الى الخطأ الاكبر الذى شوه نهضتنا واعنى به انحراف المراة الجديدة عن طريقها الطبيعى وترفعها عن التفرغ لمـا نسميه « خدمة البيوت وتربية الأولاد » .

ذلك لأن مصر لم تخرج فتياتها من دورهن لتسـد بهن فراغا كانت تشكوه فى ميادين الأعمال . وانما ارادت ان تجد فيهن الأمهات المستنيرات المثقفـات . وهذه هى اليوم ترى البيوت منهن مقفرة خلاء . اما الأبناء فتركوا للخدم وقد نشأ هذا الانحراف الضال نتيجة لخطأ كبير فى فهم روح النهضـة ، وبلغ من سوء ما وصلت اليه أن نادت مناديات بحذف نون النسوة من اللغة كأنما الأنوثة نقص ومذلة وعار ، واهدر الاعتراف بالأمومة كعمل من الأعمال الأصيلة لنا حتى سمعنا من يسأل كيف تعيش امه برئة معطلة ، يقصد الرئة المعطلة هؤلاء الباقيات فى بيوتهن يرعين الأولاد ، وزعموا أن المراة تستطيع ان تجمع بين عملها فى البيت ووظيفتها فى الخارج .

وقد نعى بعض المفكرين على أن القائمات بالعمل فى الميدان النسوى لا يعرفن اللغة العربية ولا ينطقنها وانما هم من المثقفات ثقـافة فرنسية ، فهل يمكن أن يكون لهن اى نفع فى تفهم حياتنا وحاجياتها وهن منعزلات ثقـافيا وارستقراطيا عن المجتمع . وقد اعتذرن بأنهن بمعرفتهن للفرنسية يسمعن صـوت المراة فى الخارج وقد اعترض احمد حسن الزيات على ذلك بأن الثقـافة الأجنبية تفقد كثيرا من قيمتها اذا لم تقترن بقسط من الثقـافة العربية السليمة وليس صحيحا أن قضـية المراة تخدم فقط عن طريق الكتـابة بالفرنسية لأن الفرنسية لا تقرأ فى برلين ولندن .

وصـور الدكتور منصور فهمى ما اعتور الحـركة النسوية فى ظل الاحتلال وشابها ما وصفه بأنه « تحول خروج النساء عن عزلتهن عن أن يكون وسيلة يسوغها شرف الغـاية ليكون غاية لذاته » وقال أن من اشـد العوامل التى اضـعفت قيمة الاختلاط بين المراة والرجل هو انتشار الآراء دون أن تفهم على وجهها الصحيح ، ومن هذه الآراء ذهابهم الى ان الاختلاط بين النساء والرجال

وتوالى المجامع التى يتلاقون فيها من شأنه أن يهذب من المظاهر ويعمل على ترفيع النظرات وترفيق الآداب .

ولعل قاسم امين كان يخشى ذلك فقال : والذى أراه هو أن الغربيين قد غلوا فى اباحة التكشف للنساء الى درجة يصعب معها ان تتصون المراة من التعرض لمثارات الشهوة بمالا ترضاه عاطفة الحياة .. وهكذا ظلت حركة الاختلاط تنمو سريعا وتشيع الى ان اصبحت الفتاة التى كانت امها منذ نيف وثلاثين عاما لا تستبيح لنفسها الاتصال ببعض المحارم اصبحت هذه الفتاة ترى الاتصال بالرجال للسمر . والتسلى حقا من حقوقها ، ومن المقرر ان الاختلاط بين الرجل والنساء اذا تام على غير مقتضياته الضرورية الجادة ، وكان منبعه اللهو والترف فانه لا يلبث أن يقوض دعائم الأمم .

وقد صور عباس عمار الحركة النسوية (الأهرام ١٩٣٣/٥/٢١) بانها مظاهر لا اكثر ولا اقل ، وطالب بأن تقوم جهود المراة على اساس للسير فى الاصلاح على هدى ، ونعى على الفرق العظيم بين ثقافة الرجل وثقافة المراة .

ووصف محمود أبو العيون حركة المراة بانها ثورة فهو يرى (الأهرام ١٩٣٣/١٢/٩) ان المراة فهمت الحرية فهما معكوسا وفى ظل الحرية الزائفة تحررت المراة المصرية من الآداب والأخلاق . ورات فيها قيودا يجب تحطيمها . وفى ظل الحرية الزائفة داست المراة اقدس واجباتها كزوجة وام وربة منزل فتهدمت تلك الأصول الثلاثة التى تبنى عليها حياة الأسرة وسعادة المجتمع ،

وهاجمت «لبيبة هاشم» الظواهر الحسنة فى حرية المراة وهى تخفى صفات قبيحة وقالت « او لسنا نرى عيوب المدينة الأوربية بدات تجر أذيالها بيننا فتكنس آثار الحشمة من طريقنا . او لسنا نشعر بريحها المسموم تهب من الغرب فتذر من عيوننا رمادا تعمى به بصائرنا . ما اهمية الشعر مجزوزة او مترسلا معقوصا او مضفورا اذا كانت الراس لا تحوى عقلا وعلما » .

ونعت نعيمة المغربى (الأهرام ١٩٣٣/٩/١٢) على المراة العربية الاسراف فى التقليد . والمباهاة بمعرفة احدى اللغات الأجنبية فقالت « لا اريد ان يكون تعليمنا للغة اجنبية سببا لهجر لغتنا هجرا قد يكون لا لقاء بعده » .

وهاجم عبد الرحمن فهمى (الأهرام ١٩٣٩/٦/٢٥) خروج المراة « عارية مرتدية ثوبا يظهر محاسن جسمها بعد أن تصبغ وجهها وقال : لقد حدثنا التاريخ ان الأمم العابثة افل نجمها ، وقال ان قاسم امين لم يكن يظن ان الأمر سيصل الى هذا « التدهور الخلقى الهادم لكيان الأمة » ودعا الى حرية الأمة التى تقوم على قواعد الدين — والتى اعطيت للمراة فى صدر الأسلام فأباحت لها مزاولة اعمالها وادارة شئون ممتلكاتها فكانت تقابل من تشاء وتخطب فى الأجتماعات وتساجل الشعراء وتسابق الرجل الى حومه الوغى ... » .

ودعا نبيه أمين فارس المراة العربية ان تتحرر اولا من الرجل نفسه « فان جميع اتعابها وبلاياها وجهلها وتأخرها يعود الى الرجل المتسلط عليها والى عقلية الرجل فهو مصدر جهلها وسبب شقائها » .

***

معـــارك تحـــرير المـرأة

وقد مرت حركة تحرير المــراة فى مراحل متعددة : التعليم والسفور والمســاواة والاختلاط والعمل وتنوعت حقوقهـــا بين حقوق المجتمع والزواج والطلاق والحقوق السياسية .

معركة التعليم

وكانت الدعوة الى تعليم المراة أولى خطوات حركة تحرير المراة وقد قطعت المراة هذه المرحلة بخطا واسعة وحققت فيها نجاحا واضحا .

وقد اتسعت حركة التعليم النســوى فى مصر عام ١٩٢٤ حيث تم انشاء أول مدرسة ثانوية ، ودخلت الفتاة الجامعة عام ١٩٢٨ فتخرجت خمس فتيــات عام ١٩٣٣ منهن : نعيمة الأيوبى وسهير القلماوى .

وسافر عدد من الفتيــات الى الخارج وكان عــدد الفتيات اللائى يتعلمن فى ذلك العام أكثر من ٥٠ الف فتاة .

غير أن الاستعمار كان حريصـــا على أن لا يحقق تعليم الفتاة الهدف منه ووصف هذا التعليم (١٦ نوفمبر عام ١٩٣١ ــ الأهرام ــ شهدى الشافعى) بأنه تعليم ناقص مبتور لا تجنى منـــه الفتاة الا غرروا وزهوا ، وانه فشل فشلا تاما فى تحقيق الغرض منه « وهو اخراج زوجة صالحة تستطيع أن تدبر شئون منزلها وتربى أطفالهـــا » وقد وصف الكاتب فتاة اليوم : بأنها أيا كان نصـــيبها من التعليم تحتقر كل ما يتصل بالشئون المنزلية وترى انه لا يليق بها أن تقوم بما يقوم به الخدم .

وطالبت حنيفة حفنى ناصف (الصحف ٢٨/١/٣٠) الفتيات بالاستزادة من تعليم لغة البلاد وتاريخها والعمل لها وفتح الباب أمام من تظهر نبوغا للتبحر فى العلم .

ونعت (أسمت بدوى) على تعليم المراة وقالت انه لا يؤدى الا الى تعليم القشــــور دون اللب والعرض دون الجوهر . وقالت ان نظام التعليم من الفساد بحيث لاتفهم الفتاة قيمة ما تدرسه لتمتحن فيه آخر العـــام ، حى اذا فارقت المدرسة فارقت ما درسته فيها طوال مدة التعليم التى لا تتفق مع قصر وقت الفتاة الطبيعى مما يضطرها لطول المدة الى ترك المدرســـة ، قبل أن تستفيد شــيئا ينفعها فى حياتها الاجتماعية وقالت « أسماء فهمى » أن ما يوجد فى المجتمع المصرى من نقائص كالتفــكك وضعف البنيان القومى وعدم الثقـــة بالنفس والغير وتضـحية المصلحة العامة فى سبيل الأغراض الشخصية ، انما هو نتيجة لنقص تربيتنا القومية فى كل من المدرسة والمنزل ، وقالت ان من عوامل النقص هذه تلك المكانة التى يستمتع بها الأجنبى بيننـــا فى لغته وعاداته التى لهـــا كل احترام وبضـــاعته التى لها الرواج التـــام . وانه لمن المؤلم أن يعيش الأجنبى بيننا السنوات الطوال دون أن يفـــكر فى معرفة لغتنا .

وجرى البحث حول انشـــاء كلية للبنات فى الأزهر دعا اليهـــا محمود أبو العيون وقال ان تعليم المراة الدين واجب محتوم . وأن المراة المصرية تعـــانى اشد ازمة فى حياتها الخلقية وأن خير علاج لذلك هو تعليم المراة دينها ونعى على وزارة المعارف عجزها عن تعليم المراة أمــر دينها .

* * *

٢ ــ معركة السـفور

وكانت « معركة السفور » اضخم من معركة التعليم فقد كان هناك تسليم بمبدأ التعليم ، وكان الخلاف حول النوع والدرجة ــ أما السفور فقد قامت معارضة ضده بالرغم مما أورده قاسم أمين من حجج من نصوص الدين ودعا محمد فريد وجدى بعد اربعين عاما (١٩٣٢) ليؤكد رايه فى ضرورة الحجاب ، وكان قد أعلنه عند صدور كتاب تحرير المراة ١٨٩٩ .

وقد اكدت له الأيام التى مرت ــ على حد قوله ــ ضرورة احتجاب النساء ، وأن الحجـاب لا يحول دون

التعليم ولا المدنية يقول : « وقد ازددت فى عقيدتى هـذه رسوخا » واشار الى « أن المزرون بالحجاب لا يجدون حجة ناهضة على منافاته لأكرم ضروب الوجود الاجتماعى واشار الى أن نسـاء اليونان كن محجبـات فى عهدهم القديم ، ولم يمنع ذلك من ان يملأوا أطباق الأرض علما وصاروا اعظم الأمم جاها . كما أن الرومان بنوا صرح اكبر دولة لعهدهم ونساءهم محجبات فلما اسفرن فى آخر ايامهم اصـبحوا اسرى شهواتهم . وتلاهم المسـلمون ونساءهم محجبات فانتزعوا سـلطان الأرض من براثن أمتين لم يكن لهما ثالث فى العالم » .

وقال « أنا أطلب للمراة جميع الحقوق الانسـانية حتى حق الانتخاب والنيابة ولا ارى أن حجابها يمنعها من ذلك » . وقال « ان التصدع الذى دب دبيبه فى البيوت كان بسبب الغاء الحجاب (الأهرام ١٩٢٢/٩/١٤) : وعنـدنا ان ذلك كان من باب اقامة الحجـة ، اذ ان السفور كان فى الثلاثينات قد قطع مرحلة طويلة ، ولم يعد هناك سبيل الى العودة به مرة اخرى وهو مع ذلك يدعو الى وجـوب تعليمها « تعليما لا حـد له » وكان اول من قال بأن الاسلام فرض التعليم على المراة كما فرضته على الرجل . وسـمح لها بأن تكون قاضـية ، وأن تحضر الصلوات فى المساجد وان تشهد الأمور العـامة وتبدى رايها فيها ، ولكنه اصر على أن الغربيين لم يحصلوا على ما حصلوا عليه بفضل السفور ولا بفضل الملاهى وصور غايته فى قوله : « أنا لا أطلب سدودا من الحديد والفولاذ لتمنع عن مجتمعنا هذا التحلل الاجتماعى والاقتصادى فقد فشلت تجربة السفور وتركت وراءها اثرا من التدهور قد يعوزنا لمعالجة آثاره سنون » (الأهرام ١٩٣٢/٩/١٨).

ولم يكن هـذا راى محمـد فريد وجدى الـكاتب الاجتماعى ذى الثقـافة العصرية وحده ولكنه كان راى الجانب الداعى الى عدم اطلاق حرية المراة اطلاقا كاملا ويقابل هذا الراى ، راى جانب آخر يرى ان الحجاب ليس من الاسلام ويقوده عالم دينى هو الشيخ عبد القـادر المغربى : قال ان الحجـاب ليس من الاسـلام ، وأن الحجاب الاسلامى اثر من آثار ارستقراطية المراة وليس هو اثرا من آثار احتقارها أو عبوديتها .

واشار ابراهيم الهلباوى (الهلال م ٤٠ ص ١٩) الى أن السفور ليس ماديا فحسب بل هو معنوى ، وأن سفور المراة من حجابها لن يكون صحيحا اذا لم يصحبه سفور عقلها وروحها وعواطفها . وفى احتجاب عقلهـا وانكماش روحها فناء .

وقالت فردوس كامل (١٩٣٢/٩/٢٢ الاهرام) ، ان السـفور ليس هو مصدر الشـقاء الاجتماعى والبلاء الأخلاقى الحـاضر ، وليس الحجاب يمـانع من هبوط المسـتوى الأخلاقى او يباعث فينـا روحا من الـكمال واشارت الى أن للتدهور الأخلاقى المتفشى أسبابا اخرى تحتـاج الى قوانين صـارمة ورجال اقوياء ، وهاجمت « باسم عبد الملك » اثر الحجاب فى العقل ، فقالت : ان الحجاب نطاق ضرب حول وجه المراة وجسدها وليس له ادنى اتصال بعقلها وذهنها وان تأخر المراة الشرقية راجع الى نقص فى انتهال من موارد العلم الصـحيح ما يؤهلها لخوض غمار الحياة العملية بطريقة جديدة .

* * *

٣ — حقوق المراة

كانت المعركة الكبرى فيما بين الحربين هى معركة حقوق المراة وكان ابرز هـذه المطالب : المطالبـة « بالمساواة » بين الرجل والمراة مساواة تامة .

أما حقوق المراة التى دافعت عنهـا وجاهدت من اجلها فهى :

* مساواة المراة بالرجل فى مختلف فروع التعليم وفتح ابواب التعليم الثـانوى والعالى والبعثـات الى أوربا .
* واصلاح القوانين العملية للعلاقة الزوجية .
* سـن قانون منع تعدد الزوجات الا لضرورة كعقم الزوجة أو المرض العضال .
* مساواة المراة بالرجل فى الحقوق النيابية والحقوق التشريعية .
* تقييد الطلاق ووضع حد له .
* جعل السـادسة عشرة سـنا ادنى لزواج البنت ليتسنى لها تكوين عقلها وتحصيل قسط مناسـب من الثقافة والتعليم .
* أصلاح نظم الأحوال الشـخصية فيما يتعلق بنظام الخطبة والزواج لتهيئة الجو للأسرة وأسـتقرار الحياة الزوجية :

* مد حضانة الأم للطفل ومراعاة جانب المراة فى شروط بيت الطاعة .

* تغيير لباس المراة والغاء الحجاب .

وقد تحققت كل هذه المطالب في خلال هذه الفترة .

وكانت الدعوة الى المساواة بين الرجل والمراة مساواة كلية موضع معارك فكرية متعددة بين دعاة التغريب والمعتدلين من المجددين ، وعارض كثيرون هذه المساواة وقالوا انها مستحيلة عقلا وفعلا (ابراهيم عبد القادر المازنى) لأن لفظ المساواة لا يدل على صحة الادراك والفهم للحقائق الطبيعية التى تقيد كلا من الرجل والمراة على السواء — وعارض منصور فهمى (٤ فبراير عام ١٩٣٠) مساواة المراة بالرجل فى جميع الحقوق والواجبات واثارت محاضرته عاصفة هوجاء .

وقد كانت مسائل الارث فى مقدمة المسائل التى شملها بحث المساواة .

واشار الدكتور السعيد مصطفى السعيد (الأهرام فى ١٩٣٦/٧/٢) الى هذا فقال : ان حقوق المراة المسلمة فى مصر مقيدة بالشريعة الاسلامية وان المنازعات التى تقوم بصدد الزواج والطلاق والميراث والهبة والوصية تحل عن طريق هذه الشريعة . وقال انها ميسرة .

غير ان سلامة موسى حمل حملة عنيفة على الميراث ودعا الى مساواة المراة والرجل فيه ، وقد عرض عبد القادر المغربى لحكم الشرع فى توريث البنت نصف ارث اخيها فقال : ان الأبناء لما كانوا هم الذين يخلفون آباهم فى أسرتهم ، كانوا فى حاجة الى المال أكثر من أخواتهم البنات اللواتى يندمجن فى اسرة اخرى غير مكلفات فيها بالنفقة .

وقال محمد فريد وجدى (٣٠/٣/١٣ الأهرام) ان النظام الاجتماعى فى فلسفة الحسبة وهى فلسفة العصر الحاضر موافقا للنظام الاسلامى ، وقال ان هذا النظام كان يسمح أن لا يجعل لها حقا اصيلا فى الميراث ، ولكن الاسلام الذى زاد من ضمان حياتها وتوفير راحتها قدر لها نصف ما للرجل من ميراث .

وقد أراد سلامة موسى فى اتجاهه التغريبى ان يكسب الى دعوته هدى شعراوى فارسل اليهنا محاضراته التى نشرها بجريدة المقطم (١٩٢٨/١٢/٢٣) ودعاها الى أن تطلب الى وزارة الحقانية سن قانون يساوى بين المراة والرجل فى حق الميراث .

وقد نشرت هدى شعراوى فى الأهرام ١٢/٢٨/ عام ١٩٢٨ رايها فى هذا الصدد وقالت : انها لا تظن أن نهضتنا النسوية يجب أن تتبع أوربا فى كل مظاهرها . لأن لكل بلد تشريع وتقاليد ، وليس كل ما يصلح فى بعضها يصلح فى البعض الآخر ، وقالت أنها لم تلاحظ تزمرا من المراة أو الشكوى من عدم مساواتها للرجل فى الميراث « والظاهر ان اقتناعها بما قسم لها من نصيب ناشىء من أن الشريعة عوضتها مقابل ذلك بتكليف الزوج بالانفاق عليها وعلى أولادها كما منحها حق استقلال التصرف فى أموالها ، وأن الأوربية ترث بقدر ما يرث الرجل فضلا عن انها ملزمة بدفع المهر ومكلفة بالتخلى عن ادارة أموالها لزوجها فضلا عن أن الغربية لا حق لها فى ادارة ممتلكاتها اذ لا يمكن أن تنفق اى مبلغ من ما لها ولا أن تتعاقد مع الغير ولا ان تحترف حرفة بدون تصديق زوجها وموافقته » ا. هـ .

وعارض العقاد الراى القائل بمساواة المراة : وقال انه لم يجد ما يدل على امكان مساواة المراة بالرجل ، ولم ير من النساء واحدة نبغت فى فن من الفنون الى درجة تعادل بها الرجل حتى من يشاء يذكرهن فى العصر الحديث كمدام كورى ، وليس دخول نساء الغرب فى الأعمال والوظائف دليلا على كفاءة المراة للقيام بأعمال الرجال وامكان مساواتها فان العبرة فى المساواة ليست بالحد الأدنى .

* * *

٤ — مهمة المراة

وجرى البحث حول مهمة المراة : وانقسم الراى حولها هل هى البيت ام العمل ، وايد كثيرون من معتدلى المجددين الراى الأول ، وقال العقاد أن المراة الشرقية احس بطبيعة الأنوثة من صاحبتها الغربية فهى أوفر منها حظا من عنصر النسوية . وهى على الجملة أم لأبنائها وآلف لزوجها واسكن الى المعيشة البيتية من صاحبتها الغربية ، وقال اننا نود ان تظل كما كانت فى كل عصر ملكه البيت الحاكمة المحكومة يسكن اليها الرجل من متاعب الحياة ويستدعى ذلك ان تعيش فى ظله وتعتمد فى شؤون العالم الخارجية عليه وتدع له كسب رزقها وتدبير

حاجاتها ، وقال ان عملها فى البيت هو اعداد الجيل القادم وهو اكبر واجل من أن تجمع بينه وبين السعى فى طلب الرزق والاحتيال على شئون المعاش الا اذا كان خروجها الى معترك السعى والجهاد علامة على التقصير والخلل من جانب المجتمع ونذيرا بالشذوذ فى تقسيم الطبيعة .

وقال محمود أبو العيون : أن نظرية مشاركة المراة للرجل فى الوظائف العامة هى نظرية اقتصادية دلت التجارب على انها خطرة فى حياة الدولة لأنهـا تزيد العاطلين من الرجال .

وقال عباس عمار (الأهرام ١٩٣٣/٢/٨) أن وظيفة المراة هى «الأمومة» وهى لاتستطيع أن تغيرها أو تقلبها فتمسخها ، اذا فاعدادها يجب ان يكون مرتبطا أساسه بهذه المهمة التى خلقت لها . فهى لابد أن تتعلم تدبير المنزل ومبادىء الصحة ونفسية الأطفال ، ولا غنى لها عن أن تتثقف ليركن الزوج اليها وليرى فيها ناحية جذابة يميل لها ويطمئن اليها . وقال انه ما يرمى بتثقيف البنت أن تجيد الرقص وأن ترطن بلغة اجنبية ، وهى مع ذلك عاجزة لا تشرح صدرا ولا تنظم بيتا . ولست أدعو الى أن تتعلم البنت الوانا من العلوم لا تتصل بحياتها ، وانما احب أن تعد البنت لتكون « اما » تفهم مهمتها بتنشئتها انشاء ربة البيت بكل معنى الكلمة « وقال انه ما دامت ظروف المجتمع الحالية قد لا تتحقق معها هذا الغرض الذى نعد المراة له وما دامت فرصة الزواج لم تعد ميسرة لكثير منهن ، فمن العبث أن نهمل هذا الجانب الواقعى ومن الأجحاف بحقوق المراة أن نسقط هذا الأمر من حسابنا وخير للمراة أن تتسلح بسلاح العمل وأن نعدها للحياة كما نعدها للبيت » .

* وقال فيلكس فارس (١٩٣٣/٢/٢٦ — الأهرام) اننا نخدع كثيرا من معنى حرية المراة الغربية وكثيرات من بنات بلادنا يضعن نصب أعينهن الفتاة العاملة فى أوربا كمثال أعلى للرقى الصحيح .

انا من أنصار تعليم المراة وتهذيبها ، ولكن لا اريد المراة عاملة خارج بيتها يتحكم فيها الغرباء عنها ، فان لم تنزل الاهانة بها كامراة نزلت بها اهانات التقريع كمأمورة يجب عليها أن تمحو شخصيتها وتكيفها تبعـا لواجبات التنظيم وقال : أن كل ما يمكن المراة أن تحترم به المجتمع من أعمال ليس الا فضولا ، فالمراة التى تنشىء أمة وتخلق وطنا لا تكون الا كالقابضة على الريح فى فضلها الموهوم على الانسانية . . . أن ما يحسبه النساء حقا لهن وتطالبن به من عمل فى المجتمع أن هو الا عبودية مستحدثة من انانية الرجل فهو المستفيد منها وهن ضحياتها .

وهاجمت المراة كل راى يدعو الى التحرر من التقليد الغربى الخالص وتطبيق ما يصلح لمجتمعنا وجيلنا . فقالت أنجى افلاطون : أن نداء « المراة للبيت » لا يؤدى فى حقيقته وجوهره الا الى تحطيم البيت وتشريد المراة والأطفال معا ، ذلك انه يعنى اعتبار المراة خادمة فى البيت لا صلة بينها وبين المجتمع الذى تعيش فيه ، لا تدرى عنه شيئا . ولا تساهم بشىء فى تدبير أموره وعلاج مشاكله ، ويعنى اخضاع المراة لسلطان الرجل اخضاعا تفنى به شخصيتها وكرامتها وآدميتها ويحرم المجتمع من جهود النصف من أعضائه .

وأن فكرة « المراة للبيت » ليس مضمونها سوى تجميع المساوىء التى تحيط بالأسرة المصرية . فهى تعنى للفتاة اجبارها على الزواج قسرا وكرها ، وتعنى للزوجة اباحة تعدد الزوجات واطلاق حق الطلاق والزنا والطاعة والتعذيب ، ولذلك فان « المراة للمجتمع وليست المراة للبيت » ودافع الكثيرون عن حق المراة فى العمل وقالوا انها عملت مع الرجل قبل أن تتعلم ، فى الحقول والمزارع وعملت فى التجارة ولذلك فليس هناك ما نخشاه من فتح ابواب التعليم للمراة .

* * *

٥ — معركة الاختلاط

وقد استتبع قضية العمل للمراة معركة جديدة هى : معركة الاختلاط .

وقال دعاة التغريب : أن السفور وسيلة لا غاية . وأن الغاية هى تكوين المجتمع المختلط . وقال ابراهيم المصرى : الواقع أن السفور أصبح لا يجدى اذا لم يقترن بوجود مجتمع مختلط اذ السفور فى ذاته وسيلة لا غاية .

وقال محمود عزمى : انه لا يتم اصلاح بغير اختلاط وتعادل فكرى بين الجنسين وافساح الطريق للمراة لغشيان المجتمعات العامة . وعنده « انه لا يمكن أن يتحقق اى اصلاح من الاصلاحات التى يقوم عليها كيان الأسرة الا اذا تحقق الاختلاط بين الجنسين فى المجتمعات الخاصة وفى المجتمعات العامة أيضا » .

وقد اباح طه حسين فى الجامعة اختلاط الجنسين وكان لذلك الأمر ضجة وكان رأى المعتدلين من المجددين أن الأمر يتطلب تمهيدا ثقافيا وفكريا واجتماعيا حتى لا يحدث من جراءه ما حدث من ضحايا وازمات كان لها صدى بعيد المدى .

وعارض رجل من الأزهر منع الاختلاط ، فقال محمود الشرقاوى : نحن نقاسى فى مصر حجابا صارما بين الشباب والفتاة وبين الرجل المراة وأن هذه الحجب هى علة العلل فى قعودنا وتخلفنا فى الأدب والفن .

ورفض توفيق الحكيم تقليد الغرب فى كل شىء ورد ذلك الى مركب النقص ، وقال أن علينا أن نلائم بين الحاجة والوسيلة والضرورة والطريقة فى اطار طبائعنا ونطاق طابعنا .

* * *

٦ — الحقوق السياسية

وكانت معركة الحقوق السياسية هى خاتمة هذه المعارك ، فقد ارتفعت الأصوات مطالبة بحقوق المراة السياسية منذ عام ١٩٢٢ فى ابان وضع الدستور الأول وظلت هذه الدعوة تتردد فى مناسبات متعددة — وقال فريد وجدى : انه ليس لدى المسلمين ما يمنع ان تجارى المراة المسلمة اختها فى هذا المضمار ، بل أن لها من دينها باعثا قويا فقد أمر النبى (ص) أن تحضر النساء مجتمعات المسلمين العامة التى تعقد للتشاور ، وقد ردت امراة على عمر فى مسألة تحديد المهر فرجع عن مشروعه .

وكان من راى توفيق الحكيم أن هذا نوع من التهريج .. وقال انه لا يمانع من ان يكون للمراة صوت فى كل ما يقرر مصيرها على شريطة الا يحول ذلك دون استقلالها الطبيعى فلا تتلاشى فى مجالس الرجال ولا تضيع فى مجامع الأحزاب .

* * *

وقالت هدى شعراوى : أن ما تدعو اليه المراة من المطالبة بالحقوق السياسية انما يهدف الى الاشتراك فى التشريع الذى يوضع بشأن الأسرة والمراة والطفل وكذلك التنفيذ والمساهمة فى علاج الأحوال الاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية ، واستشهد بعض الكتاب بقول الكاتبة الألمانية (مارجريت كروسى) التى أقامت بمصر طويلا وكتبت تعارض فى اعطاء المراة حق الانتخاب بحجة « أنه من النادر أن تفصل المراة بين العاطفة والتفكير السياسى وتميل عادة الى انتخاب ذويها .

* * *



المرأة فى العـالم العـربى

وقـد امتدت حركة تحرير المراة فى الوطن العربى كلـه ولقيت مثل ما لقيت فى مصر ، اصحاب معسـكر التغريب يدفعون المراة الى السفور والاختلاط والانطلاق، ودعاة الاعتـدال من المجددين يطالبون بالانارة والتطور حتى لا يقع الصدام وتتكاثر الضحايا .

(فى لبنـــان)

وفى لبنان ارتفعت صيحة الدعوة الى تحرير المـراة المسلمة باسم (نظيرة زين الدين) عام ١٩٢٩ فى كتاب ضخم بلغ ٤٢٠ صفحة من القطع الكبير اسمه « السفور والحجاب »اعتمد على الدعوة العاطفية واستغلال الآيات القرآنية والأحاديث فيما ذهب اليه من حرية السـفور ، وقد بلغ الأمر أن فضلت الكاتبة المراة عن الرجل وقالت انها أصلح من الرجال عقلا ، وعارض العقاد هذا الراى لأن فضيلة المراة الكبرى عنده انها متممة الرجل وليسـت منافسة له فى ميادين العمل والجهاد وقال العقاد : ان نهضـة المراة ما برحت بخير ما طلبت حقهـا وعرفت أن حقها لن يناقض حقوق الرجال . اما حين تطلب الحرية لتتحدى بها الرجل وتتمرد عليه فهى فاشـلة وخاسرة ونادمة .

ــ وقد هاجم مصطفى الغلايينى هدف كتاب نظيرة زين الدين : ان هذا الكتاب قد اجتمع على تاليفه عـدد كبير من اللادينيين والمسيحيين والمبشرين وان الآنسـة وأباها (الرئيس الأول لمحكمة الاستئناف فى الجمهورية اللبنانية) كانا اما مخدوعين او شريكين لهؤلاء الدساسين وانه كشف النقاب عن غايات مؤلفى الكتاب وغيره ممن يسعون لافساد المسلمين والقضاء على عقائدهم وأخلاقهم بالقضاء على المراة والمسلمة .

وقال ان هذه هى الوسيلة التى وصل اليها أخيرا المبشرون بعـد أن عجزوا عن الطعن فى الاسـلام وهى استخدام بعض أهله ، وقال ان فى عام ١٩٢٨ كثر اللغط والحديث حول مسالة المراة فى مصر وسوريا وفلسـطين ولبنـان والعراق فى آن واحد ، ثم ظهر كتـاب السفور والحجـاب المكتوب باقلام أذناب هؤلاء المبشرين الذين نعرف أسماءهم كلهم ونعرف اكثر اشخاصهم ، وقال ان مؤلفوا الكتاب قصدوا الى الطعن فى الاسلام فى صور من الأساليب خلابة مموهة بالبـاطل من القول والزخرف من الكلام . وقد حاولوا اثبات ان الرجل لا عقل له او انه ناقص العقل وأن المراة أصـح منه عقلا . واثبـات ان المفسرين كانوا مخطئين فى تفسـير آيات القرآن وانهم كانوا جهلة دساسين ، وطعن الكتاب على أكثر الصحابة كما طعن فى العلماء وأجرى الدس بين السنة والشريعة » ا . هـ .

وليس غريبـا أن يحمل دعاة التغريب الدعوة الى السفور على هذا النحو ، فان هدى شعراوى التى حملت لواء الدعوة الى تحرير المراة فى مصر كانت ترنو الى المظهر به والزعامة اكثر مما ترنو الى الايجابية ، ولذلك لم تخرج الحركة النسوية فى مصر عن نطاق مجموعة من السيدات الأرستقراطيات ، وهدى شعراوى هى : ابنة سـلطان باشا الذى رحب بالاستعمار وفتح الطريق أمام الانجليز فى التل الكبير وزوجة شعراوى باشا احـد الثلاثة الذين قابلوا المندوب السامى البريطانى يوم ١٣ نوفمبر ١٩٩١ .

وقد كانت حيـاتها عبارة عن سلسلة من الرحلات الى أوربا للاشـتراك فى المؤتمرات النسـوية فى روما وباريس وامسـتردام وبرلين ومرسـيليا واسـتامبول وبروكسل وبودابست وكوبنهاجن ، وقد جاء فى تشـكيل جمعية الاتحاد النسائى (١ مايو ١٩٢٦) أنه واسـطة تعارف وتعاون بين المراة المصرية واختها الغربية ، لازالة ما علق بأذهان الغربيين من تصور المراة المصرية عضوا اشل او لعبة من لعب الزينة فى ايدى الرجال .

وقد كانت هدى شعراوى حريصة على أن تحقق تشريعا يعصم الفتاة من الزواج قبل بلوغهـا السادسة عشرة عن عمرها ، ولعل هذا يرجع الى انها هى زوجت قبل هذا السن الى رجل فى مثل سن والدها فظلت حياتها التعيسة مضطربة طوال حياتها .

فى العـــراق

وفى العراق دعا الزهاوى الى تحرير المـــراة وكان لمقاله رنة كبرى وازمة كبرى حيث ندد بحجاب المراة وقال « ما بال الرجــل الذى هو ناقص بدون المراة بداب على اهانتها بهضم حقوقها . ثم ما بال الرجــل الذى لا يهتم الا بالمراة يهن ما به تمامه . وكيف يقول الرجل يجب ان أتمتع بالحرية التى هى اكبر حق من الحقوق الانســـانية والتى هى مشـــاع بينهما والمراة عنده متاع خلقت للذاته فاذا قضاها جاز له أن تستبدلها بمتاع آخر . (٢٨ — ايلول ١٩٠٨) .

وتداحدث مقاله بلبلة وانفجارا فى الأوساط العراقية وقام علماء بغداد ضده . والف سعيد النقشبندى كتـــاب (السيف البارق فى عنق المارق : الزهاوى) واتجه العلماء الى والى بغداد الفريق ناظم باشا يعرضـــون عليه أمر الزهاوى وطالبوا بفصله من كلية الحقوق فعزل الزهاوى ولم يحاكم وامر بأن يعتكف فى داره خوفا من اغتيـــاله . واخذت الصـــحف تكتب عنـــه أقذع الكلمـــات وقد أيده « معروف الرصافى » وكتب عن حقوق المراة العراقية ثم غادر الزهاوى بغداد فى هجرة الى مصر والشام ، فلمـــا ورد القاهرة كتب فى المؤيد مقالا عام ١٩١٠ العدد ٦١٣٨ تحت عنوان « المراة والدفاع عنها » كان له صـــداه فى الشعب العراقى حيث ضرب منزل الزهاوى بالحجـــارة وتأخرت النهضة النسوية فى العراق حتى عام ١٩٢١ عندما حمل الانجليز لوائها على يد الانجليزية (المس كلى) حيث اسست أول مدرسة للبنات (١٩/١/٢٠) احتفل بهـــا العميد البريطانى .

وكانت اول فتاة عراقية تحصـــل على شهادة هى (صبيحة الشـــيخ داود) وقامت (أســـماء الزهاوى) شـــقيقة الشاعر بتشـــكيل جمعيـــــة نهضة السيدات البغداديات عام ١٩٢٤ واشـــتركت العراق لأول مرة فى مؤتمر نسوى ١٩٢٩ عقد فى لبنان حيث القت فيه (أمينة الرجال) كلمة باسم المراة العراقية .ثم ظهرت شاعرات وكاتبات عراقيات لمعت اسمائهن : امثال رباب الكاظمى ونازك الملائكة واميرة نور الدين ولميعة عبـــاس وعانكة الخورجى .

ويرى الزهاوى أن : على المراة العربية (اكتوبر عام ١٩٢٤) أن تأخذ من الغربية عادة الســـفور فتمزق الحجاب الذى اســـدله الجهل فسد عليهـــا طريق النور وجعلها بمعزل عن الحياة الاجتماعية الا فى ظروف خاصة وان تأخذ عند الضرورة عادة الزواج والطلاق المدنيين ، ومما يذكر ان الزهاوى عند ماجاء مصر كانت معه زوجته المحجبة التى كانت لم تخرج معه فى طريق واحد .

وقد اتصلت الحركة النسوية فى الوطن العربى فعقد (ابريل ١٩٢٨) مؤتمران نســـويان فى بيروت احـــدهما اقامته الجمعيات المسيحية فى لبنان واخر اقامته الجماعات الاسلامية فى بلاد الشام .

وقد دعا المؤتمران الى توحيد جهود المراة فيما يتعلق بتربية الولد وتهذيب النشء واصلاح العادات والنهضة بالاقتصـــاديات الوطنية وتنشيط المصـــنوعات الأهلية وتحسين حال الفتاة العاملة واصلاح السجون .

وقد اشترك فى مؤتمر بيروت ١٩٣٠ عنبره ســـلام الخالدى وكريمة عاصى واحسان القوصى وجوليا دمشقية ونازك سركيس واميرة ابو عـــز الدين وابتهـــاج قدورة ومثلت فيه معظم البلاد العربية :

وقالت عنبره سلام (سورية) ان المراة السورية مهما تنوعت مشاربها ليست بالتأثير ولا بالطائشة وهى فى نهضتها لا تطلب الطفرة ولا تدعو الى الفوضى بل مبدؤها السير الى الأمام دون تحطيم أو تهديم .

ودعت عزيزة فوزى (مصر) الى حمـــاية اللغة العربية وقالت : ان بعض الفتيات يعرضن عنها وتراهن يلوين السنتهن باللغات الأجنبية ، وقالت : ان فـــكرة القضـــاء على لغتنا العربية تدخل الى النفس غما ، وقد وصفت الـــكاتبة الأمريكية روث فرانستس (٣٨/٢/٢٧ الأهرام) النهضة النسوية على هذا النحو :

الحركة النسوية فى سوريا أضعف منها فى العراق مع أن عدد المتعلمات السوريات اكثر بكثير من المتعلمات العراقيات . والمراة السورية تطورت فى العشر سنوات الأخيرة . ولكن تطورها كان مقصورا على تنويع شـــكل النقاب لا القضاء عليه . ومن المدهش ان النقاب لا يزال موجودا فى بيروت ذاتها ونساء بيروت محجبات ونســـاء راس بيروت سافرات .

والمراة الدمشقية محجبة فى اى حى من احياء دمشق وحلب ، لا توجـــد فيها حركة نسوية . ونســـاء حمص يتساهلن بعض التساهل وعندهن قدر من الحرية ونساء فلسطين محجبات على الطريقة التركية القديمة . ولايوجد

فى فلسطين اى حركة ترمى الى سفور المراة .

وقد جرت الدعوة الى ايجاد « اتحاد نسائى شرقى عربى » تكون مهمته توحيد « الأمة العربية » يبث دعوة مبنية على الوطنية والحصافة ، وكان لمأساة فلسطين عام ١٩٣٦ وما بعدها اثرها فى تجمع المراة العربية من كل اقطارها فى مؤتمر فى القاهرة للدعوة الى حق فلسطين وحق العرب ، كما حمل المؤتمر العربى لواء الاحتجاج على حوادث سوريا ولبنان ، ولابد من أن نذكر هنا أن المراة العربية فى سائر الوطن العربى قد شاركت فى جميع الثورات والانتفاضات الوطنية وقدمن الضحايا ولم يحل الحجاب أو غيره دون اداء دورها كاملا ، فقد حملت السلاح ومرضت الجرحى . وعملت فى المقاومة الشعبية . وقدمت الشهداء فى ثورات مصر وسوريا .

وخلاصة القول أن هذه الفترة — بين الحربين — كانت عصبية جدا حتى لقد وصفت الحركة النسوية بأنها غفلت عن خطر الأمومة فى حياة المراة والأمة ، فقصرت عن توجيه الفتاة الجديدة نحو مكانها الطبيعى فى البيت واعدادها لوظيفتها الأولى فى الحياة . ولعل مرجع هذا فيما ترى الكثيرات الى فتنتنا العمياء بمظاهر المدنية الغربية « فان الغرب رجع من زمن بعيد عن هذا الضلال وراح يكافح فى رد المراة الى مكانها الطبيعى فى البيت وأن مشكلة رد المراة الى البيت هى مشكلة ما بعد الحرب » .

مراجع البحث

تحرير المراة : قاسم امين : ١٨٩٧ — القاهرة .

تحرير المراة والسفور : محمد فخرى :

هدى شعراوى فى النهضة : المراة : ١٩٤٨ القاهرة.

النسائيات : ملك حفنى ناصف

أكليل الغار لراس المراة ، جرجى نقولا باز ، بيروت .

تحرير المراة العراقية : خضر العباسى .

الاسلام والمراة ، سعيد الأفغانى ١٩٤٥ دمشق .

المراة الحديثة ، عبد الله حسين ١٩٢٧ القاهرة .

محمد والمراة ، عبد القادر المغربى ١٩٢٨ — دمشق .

تحرير المراة فى الاسلام : مجد الدين حفنى ناصف ، عام ١٩٢٤ القاهرة .

السفور والحجاب ، نظيرة زين الدين بيروت .

المراة والشيوخ ، نظيرة زين الدين بيروت .

المراة الجديدة : قاسم امين ١٩٠٢ القاهرة ، بيروت .

المراة فى التمدن الحديث ، محمد جميل بهم ١٩٢٧بيروت

المراة فى التاريخ والشرائع ، محمد جميل بيهم ١٩٢١ .

نهضة المراة المصرية ، عبد الفتاح عبـاده ١٩١٩ — القاهرة .

اختكم فانصفوها ، مادلين أرقش ١٩١٤ — بيروت .

* * *

(٨)

الصحـــــافة

كان دور الصحافـــة فى هـــذه المـــرحلة ـــ ما بين الحربين ـــ مختلفـــا عن دورهـــا فى الفترة التى سبقت الحرب . فقد كان الملوك والخديويين والمحتلون ـــ سواء منهم الفـــرنسيون أو الانجليز ـــ هم الذين يصـــدرون الصحف الرسمية التى تمثل آرائهم وتدافع عن اتجاهاتهم وكانت الصحف الأخرى التى صـــدرت بأمرهم وايعازهم لا تتردد فى أن تنسب نفسها اليهم . وقد تطور هذا الأمر فأصبحت الصحف تصدر ممثلة للأحزاب والهيئات ، فاذا اختفت وراء مبدأ (الحياد) فقد حق لها أن تدافع عن أى نفوذ أو هيئة أو حكومة دون أن تخشى شيئا . وبعد أن كانت الصحف تدافع عن الوطنية فى جراة وعاطفة تحولت الى الاعتدال ، وبعد أن كانت تهاجم المحتل والدخيـــل ، أصبحت تناصر الحزب الذى تتبعه وتهاجم خصومه من أهل الوطن ، وتباعد بينها وبين القضية الوطنية . وكان لقيام حكومات جديدة فى الوطن العربى فى ظل الاستقلال الذاتى قد خلق جوا جديدا ، قد تولت الحكم فى الوطن العربى طائفة معينـــة أو فئة خاصة ـــ كانت فترة الاحتـــلال والحماية الأولى فترة اعـــداد لها ـــ هـــذه الطائفة تؤمن بالالتقاء مع الاستعمار فى منتصف الطريق ولا تناهضه .

وفى مصر مثلا جاء الوفد فى شعبيته الضخمة بعـــد الحرب على انقاض الحـــزب الوطنى . مع الاختـــلاف الواضـــح فى الأهداف والوسائل ، فالحزب الوطنى كان عنيفا فى مقاومة الاحتلال جريئا فى مهاجمته عاطفيا فى هذا الهجوم ، أما الوفد فقد كان « متفاهما » مع الاحتلال على مذهب حزب الأمة ، وهو لم يلبث أن انقسم الى فريقين : فريق اصـــحاب المصـــالح الحقيقيـــة والأسر والبيوت والاقطـــاعيين ، وهؤلاء هم الذين انفصـــلوا تحت اسم « الأحرار الدستوريين » وبقيت المجموعة الشعبية تحت زعامة سعد زغلول تؤمن بالمفاوضة مع الانجليز وتلتقى بهم فى منتصـــف الطريق ، وقد دارت المعركة بين الوفد والأحـــرار طوال هذه الفترة على الحكم ، وتكسرت قوة الوفد الى أحزاب ، ولم يلتق الوفد والأحرار فى ائتلاف الا مرتين عندما أنشأ الملك حزب الاتحـــاد ١٩٢٥ ، وعندما الغى دستور ١٩٢٣ ، وأنشأ حزب الشعب ١٩٣١ .

***

اخطاء الصحافة

وهكذا عاشت الصحافة فترة ما بين الحربين خادمة للأحزاب ، عاملة عنـــدها ، لا تستطيع أن تتحرر منها ، وبينما كانت صحف الوفد تعتمد على شعبيتها واقلام كتابها فى عنفها وقسوتها أمثال العقاد وعبد القادر حمزة وحافظ عوض وتوفيق دياب وغيرهم ، اعتمـــدت صحف الأحرار الدستورين على صناعة الصحافة وعلى اقـــلام الكتاب المؤمنين بالحضارة الغربية ، هؤلاء الذين عملوا فى جبهة الاقطاعيين واصحاب البيوتات وجعلوا من اقلامهم التى تحمل كلمات الحرية والتجديد والثقـــافة اداة للدفاع عن النظام الاستبدادى وحكم الأقلية .

كما ســـايرت الصـــحف المحايدة صـــحف الأحرار الدستوريين فى معركة الغزو الثقـــافى والتغريب ودعت جميعها الى محاســـنة الاستعمار ، وفتحت الطريق أمام جميع مختلف الدعوات وكانت لسانا حادا على كل من دعا الى اصلاح أو اعتدال ، فهاجمت الشيخ محمود أبو العيون فى دعوته الى الغاء البغاء . وأطلقت على القوى الوطنية الشعبية كلمة « الرعاع » واصطنعت اسلوب السخرية فى مهاجمة كل باحث أو مصلح لا ينتسب الى حزبها .

وكان كتاب هذه الصحف يعمدون الى اثارة الجماهير فى مشاعرهم بترجمة القصص الفرنسية الماجنة ، وكتابة الفصـــول النقدية اللاذعة فى مهاجمة القيم الاســـلامية والعربية وتحوير معالم التاريخ على النحو الذى يصـــور العصر الأموى والعبـــاسى بصورة التحلل . وفى ظلـــها وحمـــايتها أعلن كثير من « المجددين » الذين حملوا لواء الأفكار التغريبية آرائهم ودافعوا عنها .

حدث هـــذا بينما وقفت الصـــحف الوفدية موقف الاعتدال فى الراى والمحـــافظة على مشاعر الشـــعب ، وباعدت بينها وبين مغـــايظة الجماهير أو اثارتهـــا وهو اسلوب لم تلبث فى ذلك الى أبعد مدى وكان دفاع جريدة السياسة عن الاسلام ومهاجمتها لحملات التبشير أقوى من دفاع الصحف الأخرى ، فضلا عن كتـــابات الدكتور

هيكل عن محمد وابى بكر وعمر والاسلام ، وهكذا كانت الكتابات الأدبية والدينية أسلحة من أسلحة السياسة لكسب الجماهير وترويج الصحف .

أما الصحف المحايدة (الأهرام — المقطم) فقد فتحت صفحاتها لكل دعوة وكل رأى ، وتركت هذه الآراء تصطرع وتتقاتل ، وكان لهذا أثره البعيد فى خلق جو من البلبلة والاضطراب .

وعاشت الصحف المحايدة على ارضاء الاستعمار والحكومات المتوالية بينما عاشت الصحف الحزبية على تأييد أحزابها ومهاجمة خصومها دون تقدير لأى عمل مهما كان نصيبه من النفع أو الضرر ، ولذلك فان صحف أى حزب كانت تنعم بالهدوء ما دامت أحزابها فى الحكم فاذا تخلت عنه واجهت الصعوبات من تحقيقات ومحاكمات ومصادرات .

وكأنما كانت اقلام الصحف مستأجرة للأحزاب والصحف ، لذلك كثر التناقض فى افكارهم وكان لهم مواقف من بعض الأحداث ومواقف مضادة من مثل هذه الأحداث .

وهيكل وطه حسين وكتاب السياسة الذين كانوا ينادون بحرية الراى ويحملون لواء حماية الدستور والحياة النيابية هم الذين أيدوا محمد محمود ابان حكمه الحديدى عام ١٩٢٩ عندما الغى الدستور واوقف الحياة النيابية واستطاعوا أن يجدوا من المبررات ما يجعلونه مادة دفاعهم عن هذا العمل الذى يتناقض قطعا مع أفكار الحرية التى طالما أعلنوها ، وقد أيدوا بالبرهان والمنطق — الذى كان سلاحهم دائما — تحديد حرية الصحافة ومحاكمتها ومصادرتها ومقاومتها والغى محمد محمود رخصة مائة صحفية وعطل وأنذر عشرات الصحف المعارضة (وكذلك فعل اسماعيل صدقى) . (عام ١٩٣٠) ثم اذا بهم يواجهون المعركة بطريقة مضادة فى عهد صدقى باشا عندما الغى الدستور واقام دستورا جديدا واضطهد الصحف ومن بينها صحف الأحرار الدستوريين ، هنالك عادوا إلى الدعوة الى الحرية وحماية الدستور متناقضين مع انفسهم ولما يمر عام واحد على المعركة الأولى .

ويبدو التناقض فى موقف صحف الأحرار الدستوريين فى كتابات هيكل وطه حسين وغيرهم من سعد زغلول الذى كان خصما للأحرار فاذا هو من هو ضعفا وسقوطا وفشلا وتسلطا ، فاذا قام الائتلاف عام ١٩٢٦ بين الوفد والأحرار اذا سعد زغلول — فى كتاباتهم — مثل رائع للبطولة والكفاية .

ويمكن القول أن الصحافة فى هذه الفترة غلبت الجوانب الشخصية والحزبية على الجوانب الوطنية ، وغلبت الخلاف الداخلى والصراع على كرسى الحكم على القضية الوطنية ذاتها .

كما سجلت عنفا لا حد له فى الهجاء والنقد السياسى استعملت فيه عبارات وأساليب غاية فى القسوة والحدة والاتهام .

وقد وقفت الصحف فى صف أصحاب رءوس الأموال والاقطاعيين ووجهات نظر النفوذ الأجنبى من جميع المسائل التى عرضت لها فى مجال الاجتماع أو الاقتصاد أو الزراعة أو الصناعة .

ورسمت الصحافة لشخصيات لورنس وغردون وبلفور وهرتسل وفيصل وعبد الله ونورى السعيد ومصطفى فهمى صورا من البطولة . ووصفت الأهرام ثورة سوريا ١٩٢٥ بالعصيان ووصفت الثوار بالعصاه ، كما هاجمت الاهرام ثورة عبد الكريم فى المغرب ١٩٢٦ لحساب فرنسا وانساقت فى تيار الاستعمار الخفى فنشرت — هى والمقطم — صفحات عن ما سمى حقوق اليهود فى فلسطين واحتفلتا بتكريم موسى بن ميمون فى دار الأوبرا وكانت وجهة نظرهما بالنسبة لليهود فى فلسطين قريبة من وجهة نظر الانجليز واليهود .

واستعملت الصحف المحايدة الأسلوب المرن الذى يحمل اكثر من معنى ، كما حملت لواء الدعوة الى العامية ، وأيد (الأهرام) النفوذ الفرنسى ودافع عنه بينما أيد المقطم النفوذ البريطانى ودافع عنه .

وكانت الصحف المحايدة قوة كبرى لا سبيل الى مقاومتها ، فبينما كان الحزب اذا تولى الحكم يحطم صحف خصومه ، كانت الصحف المحايدة تلقى المعونة والتقدير فتعيش وتقوى ويشتد ساعدها ، بينما تختفى الصحف الوطنية وتغلق أبوابها . وقد داومت الأهرام الاحتفال بأعياد فرنسا ووجهت اليها التحية والتقدير : وكان يوم ١٤ يوليو هو صاحب افتتاحية الأهرام وقالت « مى » فى هذه المناسبة (١٤ يوليو ١٩٣٠) تحية لعيد الحرية ، تحية لفرنسا ، يا من علمت الانسان بأن له اسما وأن له حقا ، ولكنك فى نفس الوقت اوحيت اليه بأمثولة الألم والجهاد العتيد .

ودافعت الصحف عن اسلوب الهجاء ، فقال حافظ عوض عنه (١٩٣١/١/٢٠) لا اعده سبا ، وانما هو انتقاد ومداعبة الفها الكتاب فى العهد الأخير — واحتفلت الأهرام بذكرى المائة الأولى لمولد غردون فى١٩٢٣/١/٢٢ وعندما اشتدت حملة التبشير وحملت الصحف لواء الهجوم ، وقال طه حسين : ساخرا بذلك كله « من المحقق أن الاسلام لن يضعف به (أى التبشير) وأن المسيحية لن تقوى » أو ، والكاتب يمكن أن يخرج من صحيفة الى أخرى اذا زيد اجره ، وربما كان معنى خروجه تغيير مذهبه السياسى أو آرائه الأساسية.

وقد هاجمت الصحف الوفدية : خصمين هما : صحف الأحرار وصحف الحزب الوطنى . أما الأحرار فهم الطبقة ذات النفوذ الأسرى التى انفصلت عن الوفد واعتنقت مذهب حماية مصالح الطبقة الجديدة من أعوان الاستعمار البريطانى التى تنافس الطبقة التركية القديمة نصيرة فرنسا وتركيا ، بينما تناصر الطبقة الجديدة بريطانيا .

أما الحزب الوطنى فانه صاحب الدعوة الى الجلاء ، وقد لقى هذا الحزب هجوما عنيفا من الوفد واتهم بالاغراق فى الخيال .

ووصفت الصحف الوفدية مصطفى كامل بانه « شحاذ يلبس الردنجوت » واتهمت محمد فريد بانه استقراطى ليس من الشعب .

وكان حزب الأحرار متابعة لحزب الأمة على نفس الأسس وكان أعضائه هم ابناء الجيل الثانى لمؤسسه . وكان هيكل هو خليفة لطفى السيد فى قيادة الرأى ورئاسة تحرير الصحيفة .

ولم يذكر حزب الأحرار فى برنامجه كلمة الجلاء .

وكان موقف الصحف كموقف الكتاب ، فقد ناصرت الأهرام جميع الحكومات بلا استثناء ولم تكتب كلمة هجوم واحدة ضد محمد محمود أو اسماعيل صدقى ابان حكمهما الاستبدادى الذى قيدت فيه الحريات وحطمت القيم عام ١٩٢٩ و ١٩٣٠ .

وانتقلت بعض صحف الوفد من تأييد الوفد الى خصومته ثم عادت الى الوفد كره أخرى وتحولت جريدة الشعب من مالك الى مالك وتحول الكتاب معها كالعبيد — على حد تعبير محمد زكى عبد القادر .

ولطالما هاجمت الصحف واحدا من الزعماء او رؤساء الحكومات واتهمته بالخيانة ثم عادت فأثنت عليه، وضفرت له اكاليل الغار ، امثال توفيق نسيم — الذى اتهم بالخيانة ، ثم وصف بالوطنية وقال عنه سعدزغلول انه يستحق تقدير الوطن .

* * *

(القومية العربية)

ووقفت الصحف المحايدة من القومية العربية موقفا غامضا فكانت تسمى الدول العربية : الجارات الشرقيات .. وكان الاستعمار البريطانى والنفوذ الفرنسى فى مصر وهما المسيطران على الصحف على حرص شديد بأن لا تحمل مصر لواء الدعوة الى الوحدة العربية او معانى الروابط العميقة الجذور ، فاذا تحدثت عنها بين آن وآن رسمت مصر بصورة الزعامة والقيادة والتعالى عن الأمة العربية .

ولعبت المصروفات السرية دورا كبيرا فى حياة الصحافة المصرية ، وكانت فى كثير من العهود سلاحا من أخطر الأسلحة على الصحافة : وقد قيل أن الصحافة كانت تدار بطريقة لولبية ، تعارض أو تبدو أنها تعارض ولكن لا تمنع معارضتها من أن يقبض أصحابها ثمنا (جلال الحمامصى — ك صحافتنا) .

وقال الدكتور عزمى (رسالة الصحافة — الأهرام ١٩٣٦/٤/٧) أن بعض الصحف لها اتصالات بسفارات وانظمة تعمل بواسطتها على تأييد وجهات نظرها الخاصة او تقديمها للجمهور على نحو قد يبعد قليلا او كثيرا عما تريده السياسات القومية للرأى العام من توجيه » .

وقال فكرى أباظه : أن الصحافة كانت قبل الاستقلال المزيف والبرلمانية المزيفة لا تخدم الا الكفاح والجهاد . أما اليوم فبالرغم من انتعاشها وانتقاضها ويسرها وغناها واستفحالها تعمل موظفة عند مختلف الأحزاب تنقل للراى العام أوامر الزعماء واغراض الزعماء واهواء الزعماء وتقتتل فيما بينها ، فبعد أن كانت آمرة أصبحت مأمورة ، وبعد أن كانت موحية اصبحت تتلقى الوحى ، وبعد أن كانت وثيقة الصلة بالشعب اتخذتها عصابات الأحزاب أداة مسخرة لشهواتها ومطامعها فدفنت رسالتها العالمية الحرة المستقلة فى قبر من قبور العبودية الحزبية ورمس من رموس الموتى » .

وقال فكرى اباظه : ان الصحفى المصرى عندنا يطعن حسب الظروف ثم يمدح اذا تغيرت الظروف ، يندفع فى كلتا الحالتين . وينسى أن يحفظ اتزانه حفظا لخط الرجعة فى المستقبل .

وقال : حذار أن تقول أن فى مصر جريدة على الحياد بين الاحزاب وأن وجدت جريدة على الحياد فاعلم انه حياد ضعيف لاقيمة له .

وقال أن اى صحيفة كانت تقول فى الهجوم على صحيفة اخرى : الجريدة الصفراء النكراء ، جريدة الخونة ودعاة التردد والهزيمة ، وعن اى كاتب « الغبى الأحمق المأجور » .

وقال مصطفى الرافعى : لو عرفت الصحف وأهلها لرايت أن العمل فيها من اشق الأعمال على النفوس الكريمة فهذه ليست صحفا وانما هى حوانيت تجارة . وانه لايقتل النبوغ شىء كالعمل فى الصحافة فان أساس النبوغ العمق والتغلغل فى اسرار الأشياء ، اما الصحافة فلها اساس غير هذا ، وحالة الجمهور تجعل الصحافة عندنا مكانا طبيعيا لرجل السياسة قبل غيره .

وقال زكى مبارك : أن عشرات من الكتاب اشترت الحكومات المختلفة اقلامهم وقيدت مواهبهم واغرتهم بالمرتب الثابت وكانت اجدى عليهم من شرف العمل لتحرير البلاد .

ويرجع الباحثون ضعف الصحافة الى انها خضعت لسيطرة جهات متعددة منها الإستعمار والقصر والأحزاب والحكومات ، ثم خضعت لسلطان راس المال والاعلان ، وكان هذا فى ايدى عملاء الصهيونية وأن عددا كبيرا من كتاب الصحف المصرية لم يكونوا من المصريين ولذلك لم تكن عواطفهم وطنية ، وكان اغلب اصحاب الصحف ومحرريها من غير المصريين أعوانا الحاكم والمستعمر ، وقد صور هذا النفوذ الكاتب البر يطانى (بولسون نيومان) فى كتابه (بريطانيا العظمى فى مصر) يضاف الى هذا ولاء المثقفين للطبقة الحاكمة وللنفوذ الأسرى والاقطاعى الموالى للانجليز .

وقد كان للاستعمار اثره فى الصحافة فهو صانع هذا الاتجاه من النفاق والهزل والسخرية والتخدير وخداع الجماهير والتميع والبلبلة .

وقد أثر النفوذ المادى الصهيونى على الصحافة من جهة الاعلانات اذ كان الذين يتولون امور الدعاية بالاعلانات والمقالات والأخبار فى الصحافة العربية يهودا صهيونيون من اعداء العرب (نقولا حداد) .

وترى جريدة السياسة الأسبوعية (١٩٢٧/٣/١٩) ان الصحافة هى التى خلقت التيارات السياسية فى البلاد وعليها تبعة ما فى التربية السياسية من مفاسد ، وقد صورت جريدة المانشستر جارديان بعض الصحف المعارضة فى مصر (١٩٢٩/٣/٢٣) بقولها : من الغريب فى مصر أن الجريدة التى لا ترعى كرامة الصحافة تباع كالكعك الساخن بسبب مقالات تنشرها لبعض مشاهير الكتاب يستعمل فيها كل ما فى حافظته من عبارات القذف والكلام البلدى البذىء والسباب .

وقالت جريدة فريكفدرتر نستبونج ان معظم الصحف فى أيدى مسيحى لبنان الذين يحاولون تقليد اوربا ويميلون الى فرنسا على الخصوص .

ولا ينسى فى هذا المجال الصحف التى صدرت لحساب أفراد او غايات خاصة ووصفت « بانها وصلت الى احط درجات المهانة ، وهوت الى حضيض الوضاعة والخسة . وخرجت على الآداب العامة وعمدت الى نهش الأعراض والتعرض للشخصيات واثارة الغرائز » ويعزو بعض الباحثين الى الاستعمار ، هذا التطاحن الذى اثير بين الصحف وجعلها منقسمة تجرى وراء الرزق والمورد فلم تستطع التحرر كلية للعمل الوطنى ، وقد اصدرت الحكومات الخاضعة للاستعمار فى العالم العربى فى مختلف البلاد العربية القوانين المقيدة للحرية الصحفية .

ولم تطبق هذه القوانين الا على الصحف الوطنية ، وعلى صحف المعارضة فى ابان حكم خصومها .

ولا شك كان الاستعمار يركز على الصحافة المصرية واهدافها ويعزلها عن الأمة العربية ويخلق بها أجواء البلبلة التى يستغلها فى الوطن العربى كله نظرا لنفوذها فيه ، ولم يكن الصراع بين الصحف المحايدة كالأهرام والمقطم لحساب الوطن العربى بل كان صراعا بين نفوذى بريطانيا وفرنسا .

واذا كان المقطم قد عنى بالشئون العربية فانه كان انما يحمل وجهة نظر بريطانيا فيها .

وكانت الصحف المحايدة تؤيد الأفكار الغربية وتذيعها بصرف النظر على قدرة البلاد على التطور .

وقد سفت الصحافة كثيرا ولم تحاول أن ترتفع بالقارىء وكانت فى مجموع ابحاثها تعمد الى العبارات الانشائية ، وكانت كتاباتها سريعة غير ناضجة وانها عجزت عن أن تؤدى مهمة الصحافة الحقيقية وهى توخى المصالح العامة . واحترام المسئوليات والبعد عن التهريج

ومن العجب أن الصحف التى كانت تمثل الأقلية واحزاب الأسر والاقطاع كانت تدافع عن الحرية وكانت تثور لحرية الرأى بينما تؤيد فى نفس الوقت الوزارة التى تعطل الدستور والحياة النيابية . مما يؤكد بأن المعانى والآراء والأقلام لم تكن الا ادوات فى سبيل غرض معين .

وقد فسر دفاع جريدة السياسة عن على عبدالرازق فى كتابه (الاسلام وأصول الحكم) حينما كتبت جريدة السياسة عشرات المقالات فى الدفاع عن حرية الرأى — إنه كان دفاعا خفيا عن أمرين . أولا : نفوذ أسرة علىعبدا الرازق وهىاحدى دعائم حزب الأحرار : ثانيا : خصومتها للملك فؤاد الذى كان يطمع فى الخلافة وتأييد رأى بريطانيا فى منعه من النجاح فى هذه الدعوة .

وقد أيد هيكل فى السياسة عمل (عدلى) على تحطيم وحدة الأمة بقيادة سعد ، وايد (زيور) الذى جمع البرلمان فى الظهر وفضة فى المساء ، وايد محمد محمود صاحب اليد الحديدية .

وقد دافعت صحف الأحرار والصحف المحايدة ، وبعض كتاب صحف الوفد عن تيار التغريب والارتباط بالغرب ، واندفعت وراء قبول الاستيراد فى الفكر وتقبل الثقافية الغربية قبولا كاملا دون تحفظ مع التبعية دون الاقتباس ،أما الصحافة الوطنية فكانت وسطا واكثر اعتدالا وتحفظا ، وكانت تدعو الى المحافظة واتخاذسبيل الاقتباس والتحفظ ، غير أن صوت الصحف المحايدة كان اقوى ونفوذها كان اكبر .

وخلقت الصحف الهازلة تيارا عمل على تمييع كل القيم والمقدسات ، وادخال عنصر السخرية والتهريج على الثقافة والفكر والأهداف والمثل العليا ، وقد اشار توفيق حبيب الى صحف الكاريكاتير فقال أنها عملت منذ اليوم الأول على نهش الأعراض .

وقد عجزت الصحافة فى هذه الفترة على حل المشكلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وكانت مقالاتها تمثل وجهات نظر معينة شخصية ، وهى وجهات نظر القصر او الاستعمار او الاقطاع او الأحزاب ، ولم تتحدث الصحف عن حقوق العمال أو الفلاحين أو التعاون الا على نحو التنفيس عن الطاقة المكبوتة .

واختفت فى هذا العهد المثالية الصحفية التى حمل لوائها احمد توفيق ومصطفى كامل ومحمد فريد وعبد العزيز شاويش وكان آخر من حمل لوائها أمين الرافعى .

كما عجزت الصحف عن قول كلمة الحق ، فى كثير من المواقف ، واضطرت الى أن تداور ، ومن ذلك أن صحفا رفضت أن تنشر مذكرات محمد فريد لأن بها بيانات فاضحة عن تصرف اسماعيل ، وشاع أن الوكالة البريطانية تخطب ود كل لين العريكة (على حد تعبير محمد لطفى جمعه) .

وفى عهود حكومات احزاب الأقلية : الأحرار الدستوريين والاتحاد والشعب ، كانت أموال الصحف تجمع بواسطة العمد والمديرين ، وقد انفق محمد محمود باشا على جريدة السياسة من ماله الخاص ما يقرب من ٥٠ الفا من الجنيهات .

ولم تكن هناك صحف مصرية تدخل المغرب الا جريدة الأهرام ، ولا تدخل العراق وفلسطين — فى فترة من الفترات — الا جريدة المقطم .

لا غرابة فى هذا الاضطراب الفكرى والصحفى كله فقد كانت عناصر اليهود والأتراك والسوريين والشركس واليونان هى التى تسيطر على السياسة والاقتصاد والصحافة .

* * *

ايجابية الصحافة

وبعد فماذا كان دور الصحافة الايجابى فى الفكر الاسلامى خلال هذه الفترة (ما بين الحربيين) .

لقد قاومت الصحافة الاستعمار والمستعمرين واعوانهم ، ودافعت عن القيم والمقومات الاسلامية والعربية والمصرية ، كما دافعت عن اللغة العربية وحرية التعليم وهاجمت المخدرات والبغاء والتبشير .

وكان ابرز ما تناولته الصحافة فى موضوعات السياسية : الاستقلال والمفاوضات والدستوروالسودان؟

كما تناولت فى مشاكل المجتمع : تحرير المرأة والسفور والحجاب والبغاء والمخدرات والتبشير والتعاون وحقوق العامل والفلاح .

وقد كافحت لاصلاح اللغة العربية وطورتها فتحولت من الركاكة فى التعبير من ناحية والسجع والزخرف من ناحية أخرى الى اسلوب وسط بسيط تلغرافى ، ودافعت عن اللغة العربية حين هوجمت ، ودافعت عن الثقافة العربية حين اصطرعت الثقافتين الفرنسية والانجليزية .

كما حاربت طغيان الأمراء والملوك والحكام والطغاة وهاجمت محمد على واسماعيل وقاومت الصحافة المصرية المعتمدين البريطانيين أمثال : كرومر وغورست وجورج لويد .

ووقفت الصحافة المصرية والعربية فى صف الحرية فى الشرق فناصرت غاندى ضد الانجليز .

وهاجمت كل من وجه الى الوطن الاتهام ، فردت بعنف على المحامى بابا كوس الذى هاجم مصر فى (١٦ يوليه ١٩٣٣) وقال : الأكربول صاف والنيل كدر .

وحملت لواء الهجوم عن الامتيازات الأجنبية والدفاع اصدار الأحكام باللغة العربية من المحاكم المختلطة والكتابة بالعربية فى الشركات والبنوك . وتحريم الزواج بالأجنبيات وحماية الأسرة وتقييد الطلاق . وتناولت أبحاث متعددة عى أبحاث المرأة وحقوقها ومشاكل الريف والصناعة ومهاجمة الأغانى الماجنة كما هاجمت الدعوة الى نغمة الأقلية والأكثرية :

ونشرت الأهرام لمحمود أبو العيون مقالات (الصحيفة السوداء) التى هاجم فيها الاستعمار البريطانى هجوما عنيفا ، كما هاجم البغاء والتحلل فى مجموعات متعددة من المقالات .

وفتحت الصحف المصرية صفحاتها لكل أبطال الفكر العربى وأحراره : أمثال جمال الدين الأفغانى وشكيب أرسلان وعبد العزيز الثعالبى .

وكان كل زعماء العالم العربى المبرزين فى تلك الفترة صحفيون من ذوى الأقلام الحرة : مصطفى كامل محمد فريد وعبد العزيز شاويش والثعالبى وصالح ابن يوسف وفائق السمرائى وأميل الغورى وهلال الفاسى وعبد الحميد بن باديس والبشير الابراهيمى .

وتطورت الصحافة مرتين : من حيث اللغة ومن حيث المعنى ، وانتقلت من صحافة الرأى الى صحافة الخبر ، وانتقلت من الجهود الفردية الى صحافة الأحزاب وجهود الجماعات ، وكان أبرز عناصر تطورها بعد ثورة سنة ١٩١٩ هو العناية بأخبار العالم الخارجى والخبر الداخلى والصورة .

واستطاعت رغم القيود والقوانين والاعانات ان تقاوم التغريب والاستعمار .

وصدرت صحف سرية فى معظم أنحاء العالم العربى تحمل لواء الأفكار الحرة التى كانت تحول الرقابة دون صدورها .

* * *

وأثرت الصحافة المصرية فى العالم العربى كله . وكتب بها رجال السياسة فى العالم العربى والاسلامى : ويمكن القول مع الأسف أن معظم محاكمات الصحافة لم تكن من أجل الرأى الحر فى الأغلب وانما كانت من أجل مسائل شخصية أو خلافات خاصة .

وقد كان لمؤامرة فلسطين اثرها البعيد المدى فى توجية الصحافة العربية وتحريرها من القيود المختلفة ، ودفعها الى مواجهة الاستعمار والصهيونية مواجهة صريحة .

ولا جدال فى أن الصحافة كانت مرآة الفكر العربى ونافذته الى المثقفين والقراء . وأن جميع معارك الفكر وموضوعات الثقافة ومفاهيمها ومعارك الوحدة والتجزئة والشعوبية والتغريب كلها دارت على صفحاتها .

وبالجملة فقد كانت الصحافة العربية فى هذه الفترة — ما بين الحربين — تمثل الرد على سؤال واحد : هو البحث عن أساس لبناء قاعدة الثقافة والاجماع والفكر والاقتصاد فى الوطن العربى .

وكان للمرأة فى الصحافة العربية دور واضح ، فقد توالت كتاباتها الوطنية وكتاباتها فى شئونها الخاصة ،

وقد تصدت كثيرات منهن للمحاكمة ورفعن الصوت بالدعوة الى حقوق المراة السياسية (١)

وبعد : فهل يمكن أن يقال أن الصحافة العربية تستطيع أن تكون مرجعا موثوقا بأحكامه لكتابة تاريخ الأمة العربية فى هذه الفترة .

هذا ما يجب أن ننظر اليه بكل تحفظ ، وهو يتطلب منا دراسة أهداف كل صحيفة وهويتها أولا ، ويتطلب مراجعة آراء بعضها على البعض الآخر والتزود بكثير من الحذر واليقظة فى قبول آرائها — وأعتقد أن فى الاعتماد الكامل على صحيفة معينة أو صحف معينة — طال عمرها وامتد — كثير من الخطأ .

هذا وبالله التوفيق ..

* * *

موضـــوعات البحث

الموضـــوع | صفحة

الموضـــوع | صفحة

الموضــــوع | صفحة

دار العلوم للطباعة

القاهرة ٨ شارع حسين حجازى ، قصر العينى ،
ت ٣٥٥١٧٤٨٠

رقم الايداع بدار الكتب ٢٣٢٠ / ١٩٨٨

الترقيم الدولى × ١٧٦ — ١٤٢ — ٩٧٧